

الحياة الأدبية

فنّ العصر المباسي

دكتور

محمد خفاجي

WWW.BODOSALE.NET

<https://twitter.com/SouAlAzbakya>



منتدی سور الازبکیہ

WWW.BOOKS4ALL.NET

[*https://twitter.com/SourAlAzbakya*](https://twitter.com/SourAlAzbakya)

<https://www.facebook.com/books4all.net>

الحياة الأدبية

في العصر العباسي

تصوير صادق للحياة الأدبية في هذا
العصر العظيم ، وترجمة لأعلامه ونابعيه

دكتور

محمد عبد المنعم خفاجي

الطبعة الأولى

م ٢٠٠٤

الناشر

دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

تليفاكس: ٥٢٧٤٤٣٨ - الإسكندرية

الحياة الأدبية

في العصر العباسي



الناشر: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

العنوان: بلوك ٣ ش ملك حفنى قبلى السكة الحديد - مساكن
درباله - فيكتوريا - الإسكندرية.

تليفاكس: ٥٢٧٤٤٣٨ / ٠٠٢٠٣ (٢ خط) - موبايل / ٠١٠١٢٩٣٢٣٣

الرقم البريدى: ٢١٤١١ - الإسكندرية - جمهورية مصر العربية.

E- mail

dwdpress@yahoo.com

dwdpress@biznas.com

Website

[http:// www.dwdpress.com](http://www.dwdpress.com)

عنوان الكتاب: الحياة الأدبية فى العصر العباسى

المؤلف: د. محمد عبد المنعم خفاجى

رقم الإيداع: ١٠٩٩٧ / ٢٠٠٣

الترقيم الدولى: 5 - 372 - 327 - 977



بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

” إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللّٰهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
وَسَبِّحْ كُلَّ نَبِيٍّ عَلِمَ

سورة طه آية ٩٨

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير :

العصر العباسي عصر الحضارة الإسلامية ، وامتداد الثقافة العربية في جميع بقاع العالم ، ثقافة الفكر والعلم والتجديد في كل فروع المعرفة ، وكل جوانب الحياة ، التي تتلمذت عليها الأمم والشعوب من شرق آسيا إلى غرب إفريقيا وإلى جنوب أوروبا ومن أواسط أفريقيا ومدغشقر حتى حوض البحر الأبيض المتوسط .

وفي هذا العصر ظهرت أئمة الفكر الإسلامي العربي وأعلام الأدب العربي شعره ونثره ، وصار فيه الأدب العربي أدب الثقافة الرفيعة ، والذوق العالي في جميع أنحاء الدنيا ، وظهرت المؤلفات القيمة في كل فروع الثقافة . وفي مختلف علوم الدين ، في جميع جوانب العلم . وانتشرت الجامعات والمدارس والمعاهد في كل عواصم العالم الإسلامي من الأندلس حتى حدود الصين .

والعصر العباسي عصر البلاغة العربية والأدب العربي ، في أوج ازدهارها وعظمة تجديدها .

وحين عزمت على تأليف هذا الكتاب " الحياة الأدبية في العصر العباسي " تذكرت البحر المحيط الذي لا يستطيع النزول فيه إلا السباح الماهر ، وتذكرت الأئمة والكتاب في الفقه والشريعة وعلوم الدين ، وتذكرت الخالدين من أعلام الأدب العربي مثل " الجاحظ - أبي حنيفة الدينوري - ابن قتيبة - أبي حيان التوحيدى - القاضي الفاضل " وآلاف النوابغ في الأدب ، وتذكرت أئمة الشعر مثل " بشارا - أبو تمام - البحتري - المتنبي - أبا العلاء - الشريف الرضى - ابن القاضى .. وغيرهم " ، ومن الذي يستطيع الإحاطة بكل جوانب الأدب العربي في هذا العصر أو البحر المتلاطم الأمواج .

وكان من أهدافي أن أكمل الحلقة التي بدأتها بكتبي " الحياة الأدبية في العصر العباسي - الحياة الأدبية تعيد ظهور الإسلام - الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام - الحياة الأدبية في عصر بني أمية - الحياة الأدبية في الأندلس " ، وأن

أبحث عن الينابيع التي أمدت الأدب العربي في العصر العباسي بالنمو والازدهار والشموخ وسرت بعون الله في الطريق حتى جاء هذا الكتاب ثمرة مجهود شاق وعمل متواصل ، وبحث طويل ، وكان بحثًا به موسوعة أدبية شاملة ، ترجمت فيها لأعلام الكتاب والأدباء والشعراء والنقاد وشيوخ الأب شعره ونثره على السواء .

وبالله التوفيق ، عليه توكلت ، وبه استعنت ، وما التوفيق إلا بالله .

المؤلف

القسم الأول

مقدمات العصر العباسي

كان العصر العباسي (١٣٢ - ٦٥٦ هـ = ٧٥٠ - ١٢٥٨ م) حافلاً بشتى التيارات الفكرية والعلمية والأدبية ، وهو عصر النهضة والازدهار فى الآداب العربية: وقد ورث العباسيون بنى أمية بالغبلة والقهر وثلوا عرشهم بيد صنائعهم من الأعجام . ولكن كان البون ساسعاً والفرق بعيداً بين ما هنا وهناك فى شتى المظاهر ، فى نظام الخلافة وأساليب الحكم ومظاهر الحياتين الفكرية والاجتماعية ، وما إلى ذلك كله مما كان أثراً محتوماً لسيطرة العنصر الفارسى على أعنة الشئون الداخلية والخارجية صغيرها وكبيرها فى المملكة الإسلامية ، فهذه المداخل العنيفة نقلت الحكم الإسلامى من طور إلى طور ، وأثرت فى الحياة العربية تأثيراً كسروباً خالصاً ، وأورث العرب من من ضروب المدنيات ما هضموه وتمثلوه ، فاضافوا إليه كثير من ألوان ومظاهر التجديد . ولقد كان عصر نفوذ الخلفاء العباسيين عصر ازدهار فى النهضة الفكرية والأدبية ، بعامل تشجيع الخلفاء للعلوم والآداب .. وفى عصر اضمحلال نفوذ الخلافة العباسية أخذ العلم والأدب فى الازدهار كذلك ، بسبب تشجيع الدويلات التى انشعبت من المملكة الإسلامية واستقلت ، فقد كان لكل دولة عاصمة تنافس بغداد النفوذ والسلطان والحضارة ، وما لبثت بغداد نفسها أن عادت إلى سيرتها الأولى ، حين سيطر البويهيون عليها ، وبذلك كان فى انقسام الدولة وتقطعها ، قوة للعلم ، ورواج للأدب ، وإن كان فيه ضعفها السياسى .. فقد تعددت مراكز العلم والأدب وكثرت أمام المنتجين الموارد ، وبعد أن كان لا يذكر فى هذا المقام إلا بغداد ، صار يضارعها فى الذكر القاهرة ، وحلب ، والرى ، وبخارى ، ونيسابور ، وغيرها ، وأخذ ملوك هذه الدول ، وأمرأؤها ، ووزراؤها ، يتسابقون إلى اجتذاب العلماء والآدباء ، ويتبارون فى الاحتفال بهم ، وإجزال العطاء لهم ، بدفع ما كان بينهم من تنافس ، وما يستكن فى نفوسهم من حب الشهوة ، وحسن الأحدوثة ، وما فى طبائع أكثرهم من ميل للأدب وتعلق به ، فقد كانوا بين عرب ، ومتعربين هم إلى العروبة أقرب ، وحسبنا أن نذكر الفاطميين والحمدانيين ، والبويهيين ، ففضلهم على الأدب لم يقف عند حد التشجيع والمكافأة ، بل تعداه إلى المشاركة فى ميدانه ، مشاركة جد وسبق ، فعد فى الشعراء تميم بن المعز الفاطمى ، وأبو فراس الحمدانى ، وعضد الدولة البويهى .

وكان من نتائج هذه المنافسة أن كثر عدد الشعراء والكتاب والعلماء كثرة لم نرها من قبل ، ولم تكن من بعد ، وكان حب العباسيين للعلوم والآداب ، وبذلهم بسخاء فى هذا السبيل ، مما جعل عاصمة الخلافة مهبط العلماء من كل فج و صوب .

سواء في ذلك بغداد أو سامرا ، فانتقلت إلى المسلمين علوم الأمم القديمة المتمدينة فهضموها وتمثلوها وأجارتها قرايحهم ، وعملوا على تنميتها ، فألف العلماء كتباً كثيرة بعد ذلك ، امتزج فيها العقل الشرقي بالعقل الغربي . فلما اضمحلت الخلافة وقامت دول وإمارات في أطرافها وعلى أنقاضها أخذ ملوكها وسلطينها يشجعون العلم والمعارف ويكثرون من العلماء لتنافس عواصمهم مدينة بغداد ، وأقيمت المدارس والمكاتب ذوات الأثر البعيد في التهذيب والتثقيف الإسلامي ، وتسربت إلى أوروبا عن طريق المسلمين في الأندلس الدين نقلوا إليها حضارة الشرق الروحية منها والمادية .

ولم تقف حركة النقل من اليونانية عند هذه الكتب ولا عند هؤلاء المؤلفين ، بل امتدت إلى كتب كثيرة في علوم متنوعة في الهندسة والحساب والنجوم والميكانيكيات لإقليدس وأرخميدس وابلونيوس ومنالوس وبطليموس القلوذي وابرخس ، ثم نقلت كتب أخرى من الفارسية مثل كليلة ودمنة ومزدك والتاج في سيرة انوشروان والأدب الكبير والأدب الصغير واليتيمة وسير الملوك ، وكذلك من الهندية كتب في الطب والنجوم والرياضيات والحساب والأسمار والتواريخ : مثل كتب مختصر الهند في العقاقير والعلاجات للهند والتوهيم في الأمراض والعلل ورأى الهند في احتباس الحيات وسمومها وجوامع الموجود لخواطر الهنود في حساب التنجيم وخيال الكسوفين عند الهند .. بينما كانت الممالك الغربية مغمورة إذ ذاك في بحور من الجهالة والظلمة ، ثم انتقلت هذه الحضارة الإسلامية إلى شتى الأقطار عن طريق مدينة القسطنطينية وسواها .

ولاتزال النهضة الأدبية في العصر العباسي محل بحث الباحثين ، ودرس الدارسين ولم تكشف عقول العلماء حتى اليوم عن أسرارها وأسبابها .

وفي هذه الفصول حديث طويل عن الحياة الأدبية في العصر العباسي ، بشيء من التفصيل ، ولون من التحليل ، مع تراجم واسعة لأعلام الأدباء والكتاب والشعراء والمفكرين ، ومع شرح مظاهر هذه النهضة وألوانها ، والحديث عن صورها وفنونها . والإفاضة في النقد والدراسة والبحث والتحليل ، والترجمة لأعلام الأدباء والكتاب والنقاد والعلماء والشعراء والخطباء ، على نمط واسع من التعمق والاستيعاب ، مما سيلمسه القارئ لهذا الكتاب .

الحياة السياسية في العصر العباسي

تنقسم الفترة الأولى من تاريخ الدولة العباسية (١٣٢ - ٣٣٤ هـ) إلى عشرين:
العصر العباسي الأول ، و العصر العباسي الثاني^(١)

وإذا كان العصر العباسي الأول (١٣٢ - ٢٣٢ هـ) يمتاز بقوة الخلافة وعظمة الخلفاء ومجد الدولة ، وبنفوذ الفرس فيه . فإن العصر الثاني (٢٣٢^(٢) - ٣٣٤ هـ) ، يتسم بضعف الخلافة ، وضياع هيبة الخلفاء وفساد شؤون الدولة ، وذلك بسبب نفوذ الأتراك الذي بلغ حدًا كبيراً في هذا العصر .

وأول من استخدم الأتراك في الجيش الخليفة المنصور المتوفى عام ١٥٨ هـ ، ولكنهم كانوا شزيمة صغيرة لا شأن لها في الدولة بجانب الفرس والعرب^(٣) ، وألف المأمون فرقة صغيرة منهم لبسالتهم كانوا بعيدين عن شئون الدولة وسياستها لميل المأمون إلى الفرس أخواله .

وكانت أم المعتصم " ماردة " تركية من السغد ، فنشأ ومعه كثير من طبائع الأتراك مع الميل إليهم لأنهم أخواله ، وشاهد المعتصم جرأة الفرس وتناولهم على الخلافة بعد قتل الأمير^(٤) فصار يخافهم على نفسه وضاعت ثقته بهم ، كما ضاعت ثقته بالعرب ، فأخذ يتقوى بالأتراك ويتخير منهم الأشداء يبتاعهم بالمال من مواليهم حتى اجتمع لديه آلاف من قبل أن تفضى إليه الخلافة^(٥)

ولما مات المأمون سنة ٢١٨ هـ كان هوى الحزب الفارسي مع ابنه العباس ونادوا به خليفة ، ولكن العباس بايع لعمه المعتصم فسكن الجند^(٦) ، فكان ذلك أيضاً مما زاد من تقرب المعتصم للجند وإيثاره لهم .

(١) يسير على هذا التقسيم كثير من الباحثين (ص ٩ ج ٢ تاريخ آداب اللغة لزيدان ، و ٥ ج ٤ التمدن الإسلامي . ٢١١ تاريخ الأدب العربي للزيات ، ص ب ج ١ ضحى الإسلام) . ويجعل بعض الباحثين العصر عصراً واحداً (٣ آداب اللغة في العصر العباسي للأسكندري ، ١٦ تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي لمحمود مصطفى . ١٦٥ ج ١ الفصل) .

(٢) ويرى بعض الكتاب أن ابتدائه الفعلي بمقتل المتوكل عام ٢٤٧ .

(٣) ١٦٧ ج ٤ التمدن الإسلامي .

(٤) قال طاهر بن الحسين وهو فارسي :

أيسومني المأمون خطة عاجز
أو ما رأى بالأمس رأس محمد ؟

(٥) ١/١٥٧ العقد الفريد) وينسب لدعبل (٧/٢٦٦ مهذب الأغاني ، ٢/٥٢ آداب اللغة لزيدان ، ٣٥٠ الشعر والشعراء) .

(٦) ٤/١٦٨ التمدن الإسلامي .

وفى عام ٢٢٠هـ استقدم المعتصم عدداً كبيراً من الأتراك ، اشتراهم وبذل فيهم الأموال ، وبلغت عدتهم ثمانية عشر ألفاً^(٦) ثم ازداد عددهم فى جيشه حتى بلغوا السبعين ألفاً^(٧) . ولما ضاقت بهم بغداد ، وكثرت الخصومات بينهم وبين الجمهور ، وبينهم وبين الفرس أتى المعتصم سامرا على شاطئ دجلة وعلى مسيرة ثلاثة أيام من بغداد ، فاتخذها معسكراً لجيشه وحاضره لملكه ، منذ عام ٢٢١هـ^(٨) ، وأصبحت مدينة عظيمة فى مدة وجيزة^(٩) ، وصارت من أجمل الحواضر الإسلامية وظلت مقر الخلافة حتى عام ٢٨٩هـ .. أسلم الأتراك ، وأخذوا يتعلمون العربية ويتكلمون بها ، وثاروا موضع ثقة الخليفة وإيثاره ، وكان ذلك ضربة قاضية على العرب ونفوذهم فى الدولة ، وكتب المعتصم إلى عماله باسقاط من فى دواوينهم من العرب وقطع العطاء عنهم ، وأنزلهم عما كان لهم من قيادة الجيوش ومنعوا الولايات^(١٠) :

وانتقلت سياسة الدولة من أيدي الفرس إلى أيدي الأتراك^(١١) ، الذين أخذوا ينكرون بالفرس والعرب جميعاً ، وسعوا فى قتلهم ، وموقف الأفشين من أبى دلف وأمره بقتله لولا أن أنقذه ابن أبى دؤاد معروف^(١٢) .

ولم يمض غير قليل حتى كامن لهم النفوذ والسيطرة على الخلافة والخلفاء ، وخاصة بعد فتح عمورية وقتل بابك عام ٢٢٣هـ ، وثار أكثر الوزراء وجميع قادة الجيش منهم . واشتهر من بينهم الأفشين م ٢٢٦هـ واشناس م ٢٣٠هـ ، وإيتاخ م ٢٣٥هـ وسواهم ، وتغلغل نفوذهم فى جميع مناصب الدولة لكثرتهم وبسالتهم وتأييد الخلفاء لهم . حتى أن الواثق (٢٢٧-٢٣٢هـ) استخلف عام ٢٢٨هـ اشناس التركي على السلطنة وألبسه وشاحين وتاجاً^(١٣) ، وفى عهده نكل بفا الكبير وجيشه بكثير من العرب^(١٤) .. ولما مات الواثق عام ٢٣٢هـ ، سعى الأتراك إلى ترشيح جعفر المتوكل بن المعتصم للخلافة لأن أمه " شجاع " خوارزمية تركية ، فتم لهم ما أرادوا ، واستبدوا فى عهده بأمور الدولة وشئون الخلافة ، واضطهد الخليفة الشيعة وأكثرهم فارسيون ، وزاد فى رعاية الأتراك وتقديمه لهم ، فزاد طمعهم فى الدولة ، وأصبحوا مصدر قلق واضطراب ، فهم يكرهون الفرس والعرب ، وهم كثيرون الدسائس والمؤمرات ، كثيرو الطمع فى الأموال ، والعبث بالأمن .

(١) ١٠/٣٠٤ الطبرى (٢) ٢/٢٣٣ النجوم الزاهرة (٣) ٤ العصر العباسى للسابعى بيومى (٤) ٤/٥٤ وما بعدها مروج الذهب (٥) ٥٢ و٥٣ تاريخ الحضارة لبارتولد (٦) ١/١٠٠ ظهر الإسلام (٧) ٤/١٤٤ التمدن ١٦٥ حضارة الإسلام فى دار السلام (٨) ١٧٠ ج ٤ التمدن (٩) الأذكياء لابن الجوزى (١٠) ١٣٥ تاريخ الخلفاء .
١٢١ ج ١١ الطبرى (٢) ٦٥-٦٧ ج ٤ مروج الذهب .

(٣) راجع مقتل المتوكل ومرانى الشعراء فيه فى (٢٦٠-٢٦٤ ج ١ زهر الآداب) . ومرثية يزيد المهلبى فيه فى (٣١١ ج ٣ وما بعدها من الكامل للمبرد ١٨٦ ج ٢ القصد ٢٦٣ ج ١ زهر الآداب) .

ندم المتوكل على ما فرط ، وأخذ يعمل على كبح جماح الأتراك ، فحبس إيتاخ حتى مات عام ٢٣٥هـ ، وأراد عام ٢٤٣هـ نقل العاصمة من سامرا إلى دمشق ، لكن ذلك لم يتم له ، ثم عزم على قتل وصيف وبغا وغيرهما من قواد الأتراك ووجوههم ، ولكنهم كانوا يحكمون تدبير آخر لقتل الخليفة^(١) ، وتقدم باغر التركي حارس المتوكل ، ومعه عشرة غلمان من الأتراك ، ومعهم المنتصر الذي كان أبوه المتوكل يكرهه ويوشك أن يعزله من ولاية العهد، ودخلوا على الخليفة فقتلوه في قصره الجعفرى ، وقتلوا معه وزيره الفتح بن خاقان، وذلك في أواخر عام ٢٤٧هـ^(٢) .

وكان قتل المتوكل أول حادثة اعتداء على الخلفاء العباسيين وكانت هذه الحادثة مصرع الخلافة ومجد الأتراك . وفي ذلك يقول البحتري :

أكان ولي العهد أضمر غدره فمن عجب أن ولي العهد غادره
فلا ملك الباقي تراث الذي مضى ولا حملت ذاك الدعاء منابره
ويقول المهلبى :

لا حزن إلا أراه دون ما أجد وهل لمن فقدت عيناي مفتقد
ومنها : فلو جعلتم على الأحرار نعمتكم حمتمكم السادة المذكورة الحشد

ورأى يزيد المهلبى هذا الشبه رأى اسحاق بن إبراهيم المعصبى م ٢٣٥هـ^(١) فى الأتراك حين شكوا المعتصم غدر من اصطنعهم من قوادهم مع وفاء من اصطنعهم أخوه المأمون من الرجال له^(٢) .

ويقول على بن الجهم :

عبيد أمير المؤمنين قتلنه وأعظم آفات الملوك عبيدها
بنى هاشم صبوا لكل مصيبة سيبل على وجه الزمان جديدها

وإذا كان الشعب يكره الأتراك من بدء اصطناع المعتصم لهم ، فإن هذه المأساة المؤلمة كانت سبباً فى زيادة كراهية الرأى العام لهم ، ونقمتهم عليهم .

ازداد عقب ذلك نفوذ الأتراك فى عهد المنتصر (٢٤٧-٢٤٨هـ) ، ثم فى عهد المستعين (٢٤٨-٢٥٣هـ)^(٣) ، ثم عادوا فخلعوه من العرش ثم قتلوه وأقاموا مكانه فى الخلافة المعتز بالله بن المتوكل عام ٢٥٢هـ .

(١) ٤ / ٩٥ مسعودى.

(٢) راجع ٨ ج ١١ الطبرى.

(٣) خفف الاضطهاد عن آل أبى طالب ٤ / ١٣٥ مسعودى.

كان المعتز يكره الأتراك ، ويريد أن يثار منهم لأبيه ، ففي عهده قتل وصيف عام ٢٥٣هـ ثم بفا عام ٢٥٤هـ ، وفي مصرعه يقول البحترى من قصيدة مدح بها المعتز بالله :^(١)

أضحى بغيا وأقربوه وحزبه وكأنهم حلم من الأحلام
طاحوا فما بكت العيون عليهم بدموعها ومضوا بغير سلام

وبعد قليل سار الأتراك إلى المعتز فوبخوه وطالبوه بالأموال ، ثم عذبوه وضربوه بالدبابيس ، وجروه برجله إلى باب الحجر ، وأقاموه في الشمس حافياً ، وكان بعضهم يلطمه وهو يتقي بيده ، فخلع المعتز نفسه عام ٢٥٥هـ^(٢) ، ثم حبسوه وقتلوه ، وولوا مكانه المهتدي بن الواثق ، الذي لم يعجبهم زهده وورعه وحبه للعدالة ، فخلعوه عام ٢٥٦هـ . ومات بعد خلعه بأيام .

وفي عهد المعتمد (٢٥٦-٢٧٩هـ) اشتد الخلاف بين فرق الأتراك ، فطلبوا أن يكون القائد الأعلى للجيش أحد إخوة الخليفة ، وألا يرأسهم أحد منهم ، فولى المعتمد أخاه الموفق أمر الجيش والولايات عام ٢٥٧هـ ، وبعد قليل أصبح السلطان الفعلي للموفق لا للمعتمد ، وصارت كلمته هي العليا على الأتراك وقوادهم ، فكبج غير قليل من جماهم وأثر ذلك في حسن الأحوال قليلاً .

وسار المعتضد بن الموفق في خلافته (٢٧٩-٢٨٩هـ) سيرة أبيه ، فعمل على رفع شأن الخلافة ، والحد من نفوذ الأتراك بقدر ما استطاع ، ولم يحابهم على حساب القانون والعدالة ، فاقنص من تركي ارتكب معصية^(٣) ، وقتل قائداً تركياً قتل غلاماً له ومدحه ابن الرومي على ذلك^(٤) وفي المعتضد يقول ابن المعتز من أرجوزته في تاريخه :

قام بأمر الملك لما ضاعا وكان نهباً في الوري مشاعاً
وكل يوم ملك مقتول وخائف مروع ذليل
وكل يوم شغب وغضب وأنفس مقتولة وحرب
وكم فتاة خرجت من منزل فنصبوها نفسها في المحفل
ويطلبون كل يوم رزقاً يرونه ديناً لهم وحقاً

^(١) راجع ٢٣٤-٢٣٦ ج ٢ ديوان البحترى .

^(٢) ١٦٢ ج ١١ طبري ١٣٠٠ ج ٢ شذرات الذهب ، ١٢٠ ج ٤ مروج الذهب .

^(٣) راجع نشوار المحاضرة جزء ١ ص ١٥٢

^(٤) ديوان ابن الرومي ص ٣٠٣ .

كذا حتى أفقروا الخلافة وعودوها الرعب والمخافة
ومات المعتضد، فصار ابنه المكتفى (٢٨٩-٢٩٥هـ) في خلافته لسيرة والده
من الحزم والعزم والأخذ على يدي الأتراك .

وبعد وفاته ولي الأتراك أخاه المقتدر العرش بعده ، وكان طفلاً صغيراً ،
وأيدوا عرشه ببطشهم وظل خليفة إلى عام ٣٢٠هـ .

وهكذا كانت أمور الدولة في العصر العباسي الثاني تسير في طريق بعيد
عن المألوف وتتجمع كل سلطة ونفوذ في يدي الأتراك، الذين لم يبالوا بشيء في
سبيل أهوائهم وشهواتهم، واعتدوا على قدسية الخلافة وجلال الخلفاء. وكانوا كثيراً
ما ينهبون الدور، ويتعرضون للحرم والغلمان، فكرههم الناس كرهاً شديداً، وكان
نفوذهم في الدولة جرحاً دائماً يألم كل عربي صميم، حتى هجا دعبل المتوفى ٢٤٦
هـ المعتصم لشدة تعصبه لهم :

لقد ضاع أمر الناس حيث يسوسهم وصيف وأشناس وقد عظم الخطب
وهمك تركي عليه مهانة فأنت له أم وأنت له أب

ويقول العلوي صاحب الزنج م ٢٧٠هـ :
بنى عمنا وليتم الترك أمرنا
فما بال عجم الترك تقسم فينا
فاقسم لا ذقت القراح وإن أذق
ونحن قديماً أصلها وعمودها
ونحن لديها في البلاد شهودها
فبلغة عيش أو يباد عميدها^(١)

وقد قام الشعب بعد ثورات، أهمها ثورة عام ٢٤٩هـ التي اشترك فيها الجند
الشاكرية، وقضى عليها الأتراك بعنف وقوة . وقد حاول بعض زعماء الأتراك التخفيف
من حدة شعور الرأي العام وبغضه لهم، وقاموا بدعايات كثيرة، كان من أبرعها رسالة
كتبها الجاحظ بإيحاء الفتح بن خاقان وحاول بها إيجاد جو من الثقة والتفاهم
والألفة بين الأتراك وجمهور الشعب، وقد قدمها الجاحظ إلى الفتح، والظاهر أنه كتبها
في أيام المعتصم، لكنها لم تصل إليه بفعل حاشيته من الفرس والعرب فأعاد كتابتها
من جديد في عهد المتوكل، ودعى فيها إلى وحدة الأجناس والعناصر وأشاد فيها
بالأتراك وبطولتهم إلى حد بعيد^(٢). وهذه المحاولة وسواها من المحاولات قد فشلت
جميعاً في الوصول إلى الغرض المنشود .

^(١) زهر الآداب ج ١ ص ٣٣١ .

^(٢) راجع رسالة الجاحظ في مناقب الترك وهي في أول رسائل الجاحظ .

وامتاز العصر بنفوذ الغلمان فيه، وخاصة في آخره وفي عهد المقتدر، الذي كان عنده أحد عشر ألف خادم من الروم والسودان^(١)، وتولى كثير من الخدم قيادة الجيوش وأهم الأعمال في الدولة، كبدر غلام المعتضد، الذي تولى قيادة الجند ونقش اسمه على الأعلام، وأبلى في خدمة مولاه بلاء حسناً، حتى قتل في سبيله عام ٢٨٩هـ.

ونشطت النساء، وكثر نفوذهن أيضاً في الدولة، وكان معظم ذلك في عهد المقتدر لتصلت الخدم والحجاب .

وفي ظلال هذه الفوضى السياسية، استقلت كثير من البلاد عن خلفاء بغداد، وأهم هذه الدول المستقلة: الدولة الطولونية بمصر (٢٥٤-٢٩٢هـ) وهي تركية والدولة الإخشيدية بمصر (٣٣٢-٣٥٣هـ)، وهي تركية أيضاً والدولة الظاهرية بخراسان (٢٠٥-٢٥٩هـ) وهي فارسية، والدولة السامانية في ما وراء النهر (٢٦١-٣٨٩هـ) وهي فارسية أيضاً، والدولة الصفارية بفارس (٢٥٤-٢٩٠هـ) والدولة الدلفية بكرديستان (٢١٠-٢٨٥هـ) وهي عربية، والدولة العلوية بطبرستان (٢٥٠-٣١٦هـ).

كما حفل العصر العباسي الثاني بكثرة ثورات العلويين وخروجهم على الخلافة مما تجد أخباره ونتائجه في مقتل الطالبين، وسبب ذلك راجع إلى اضطهادهم واضطهاد شيعتهم .

فقد كثر اضطهاد الشيعة في هذه الفترة الحافلة، وأسرف في ذلك المتوكل على الله فإنه لما تولى الخلافة اضطهد الشيعة، وشدد النكير عليهم، وصادر أموال العلويين وشيعتهم وغالى في تشريدهم، وأمر في عام ٢٣٧هـ بهدم قبر الحسين بكر بلاء^(٢)

وكان الرشيد يقتل أولاد فاطمة وشيعتهم^(٣)، من حيث كان المأمون يرعى العلويين ولا يأذى أحداً منهم^(٤).

وكان المتوكل يبغض المأمون والمعتصم والوائق لمحبتهم لعلی^(٥)، وكان شديد البغض لعلی وأهل بيته، وذلك راجع لموضع خوولته من الترك وسلطان

(١) راجع التمدن ج ٤ ص ١٧٥، آداب اللغة لزبدان ج ٢ ص ١٥٤ .

(٢) ٢٨٩ ج ٣ محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية للخضري بك، ١٩ ج ٧ وما بعدها ابن الاثير .

(٣) العقد ج ١ ص ٢٤٩ .

(٤) راجع مناظرة المأمون للفقهاء في تفضيل علی (٢٧٩-٢٨٦ ج ٣ العقد) .

(٥) ظهر الإسلام ص ٤١ ج ١ .

الأتراك في الدولة، وتاريخ الأتراك مملوء بكرههم للتشيع والشيعة، وبالحروب المتصلة بينهم وهم سنيون وبين الفرس وهم شيعة .. وبذهاب الشيعة ونفوذهم من بغداد ذهب نفوذ الفرس منها، وغلبت السنة على الدولة في ذلك الحين .

وسرت في الدولة بعد المتوكل موجة اضطهاد العلويين والشيعة، فالمنتصر كان يقاوم العلويين كأبيه^(١)، وتذكر بعض المصادر أنه أراد أن يحسن صلته بالبيت العلوي ولكن لم تطل مدته^(٢) .

ولكن عهد المعتضد كان عهد خير على العلويين، في أنه لم يتعرض في أيامه لهم ولا آذاهم ولا قتل منهم أحداً^(٣) .

وكان البعض يشنع على آل أبي طالب عند المكتفى فنهاهم^(٤) .. وعلى الجملة فإن أغلب هذا العهد كان عهد محنة واضطهاد للعلويين ومن والاهم .

أما الفترة الثانية في حياة الدولة العباسية فتبدأ من عام ٣٣٤هـ وتنتهي عام ٦٥٦هـ، وتمتاز بنفوذ الإمارات الإسلامية في العالم الإسلامي وقد بدأت هذه الفترة بدخول البويهيين بغداد سنة ٣٣٤هـ، حيث سيطروا على الحكم بدلاً من الأتراك، وهم من الجنس الفارسي، وبذلك عاد الفرس إلى السيادة، وأقاموا ببغداد يتصرفون باسم الخليفة، ولكنهم لم يكونوا كأسلافهم، يرعون للخلفاء حرمتهم، ويحفظون لهم جلالهم وهيبتهم، بلى حذوا حذو الترك في التنكيل بهم، والاستهانة بأقدارهم .

وكانت تضرب أسماء البويهيين على الدينار والدرهم، ويخب لهم على المنابر ويفوض إليهم الخلفاء كل ما وكل الله إليهم من شئون الرعية، وتدبيرها في جميع جهاتها مما يلي أمره الخليفة، ولكن هذا لم يقنعهم فضيقوا عليهم في الرزق وقدروا لهم النفقات، وصادروهم على أموالهم، وخلعوهم، وسملوا عيونهم، وقد احتاج بهاء الدولة إلى مال، فدبر خلع الطائع، فاستأذنه في الحضور لتجديد العهد، فلما دخل قيل الأرض بين يديه وجلس، وتقدم بعض الديلم كأنهم يريدون تقبيل يد الخليفة، فلما مدها إليهم، جذبوه عن سرير الملك، وهو يستغيث، ونهبوا داره، وامتهنوا من كانوا بحضرته من القضاة والأشراف، وسلبوهم ثيابهم .

(١) الإدارة الإسلامية لکرد على ط ١٩٣٤ ص ١٧٣ .

(٢) ظهر الإسلام ص ٤٤ ج ١ .

(٣) الفرج بعد الشدة ص ١٣٣ ج ١ .

(٤) الأغاني ص ١٤٣ ج ٩ .

وقد اشتد في بدء هذه الفترة نفوذ الإمارات الإسلامية المستقلة المتباينة ومن أهمها.

- ١- الدولة السامانية بفارس وما وراء النهر (٢٦١-٣٨٩هـ).
- ٢- الدولة الزيارية بجرجان (٣١٦-٤٣٤هـ).
- ٣- الدولة الحمدانية بحلب والموصل (٣١٧-٣٩٤هـ).
- ٤- الدولة البويهية بفارس ثم العراق (٣٢٠-٤٤٧هـ).
- ٥- الدولة الاخشيدية بمصر والشام (٣٢٣-٣٥٨هـ).

ولقد كانت حال الخلفاء مع البويهيين مثل ما كانت عليه من قبل، فظل البويهيين يستبدون بكل شيء، ويعاملونهم بقسوة وعنف حتى دالت دولتهم، وتغلب السلاجقة عليهم، ودخلوا بغداد عام ٤٤٧هـ.

ورث السلجوقيون الإمارات الشرقية، ماعدا مصر والشام، واستولوا على ديوان الخليفة ببغداد حتى أصبح لا حل له ولا عقد، واستمر ذلك إلى زوال الخلافة حيث أغار عليها التتار بقيادة زعيمهم "هولاكو" فاستولوا على بغداد سنة ٦٥٦هـ ١٢٥٨م، بمساعدة "مؤيد الدين بن العلقمي" وزير المستعصم آخر خلفاء بغداد وقتلوا الخليفة وأهله ومثلوا بهم. وبموت المستعصم سقطت الخلافة العباسية من بغداد، وفر بعض الخلفاء إلى مصر في زمن الملك الظاهر بيبرس، فأنزلهم وخصص لهم بعض وظائف لمعاشهم، وبقوا فيها إلى أن انتقلت الخلافة إلى العثمانيين سنة ٩١٢هـ - ١٥١٧م.

وفي خلال حكم السلجوقيين لم يعد شمل الدولة الإسلامية جميعاً كما كان قبل ظهور الأتراك، بل ظلت مفككة العرى مقطعة الأوصال ومن ضعفت شوكتها في ولايته، تلقفها منه غيره، بدل أن تعود إلى حوزة الخليفة بالعراق، وظهر في المشرق الإسلامي من الدول غير ما ظهر على أيام الأتراك ومن أشهر هذه الدول:

- ١- الدولة الغزنوية في السند وأفغانستان (٣١٥-٥٨٢هـ).
- ٢- الدولة الفاطمية في مصر والشام (٣٦٢-٥٦٧هـ).
- ٣- الدولة العقيلية في ديار بكر والجزيرة (٣٨٦-٤٨٩هـ).
- ٤- الدولة المزيدية من بني أسد في الحلة (٤٠٣-٥٤٥هـ).
- ٥- الدولة المرديسية من بني كلاب في حلب (٤١١-٤٧٢هـ).

هذا غير ما تفرع من الدولة السلجوقية نفسها، وتوزع منها، من ممالك وإمارات. لأحفادهم، ومماليكهم، وقوادهم، كالخوار زمشاهية، والأرتقية، والاتابكية، وسواها. وكذلك غير حلول الأيوبيين محل الفاطميين ...

وبعد فقد دامت الخلافة العباسية خمسة قرون ، وكان عرش العباسيين فيها ملعباً للأهواء، وتنقسم التطورات التي مرت بها إلى خمسة أدوار سياسية :

١- فالدور الأول : دور القوة المركزية، أى قوة الخلافة، يمتد من بدء الدولة إلى أواخر حكم المتوكل، فيشغل أكثر من قرن من الزمان ٢٣٢-٢٤٧هـ وقد بلغت فيه الخلافة أقصى قوتها وأزهى مظاهرها، وفى هذا الدور كانت بغداد عاصمة لسلطنة واحدة تمتد مما يقرب من الهند إلى تونس .

٢- والدور الثانى : دور الجندية (٢٤٧-٣٣٤ هـ) حيث كانت الخلافة تحت سيطرة الجند الأتراك الذين نظمهم المعتصم، وقد نقل ديوان الخلافة إلى سامرا حيث بقى فيها نحواً من ٥٨ سنة قبل أن يعاد إلى بغداد .

٣- والدور الثالث أو الدور البويهى (٣٣٤-٤٤٧ هـ) وكانت فيه السلطة بيد بنى بويهة وكان الخليفة لا يملك من المال إلا راتباً يتقاضاه، ولو أن البويهيين أبقوا للخلافة نفوذها الأسمى، وصاروا يحكمون فى الدولة ظاهراً بإمرة الخلفاء . وبقوا كذلك إلى أن ضعفوا ثم زال ملكهم بقيام السلاجقة. وقد دام هذا الدور أكثر من قرن حتى سنة سبعة وأربعين وأربعمائة للهجرة .

٤- والدور الرابع أو الدور السلاجوقى (٤٤٧-٦٥٦ هـ) : وينقسم إلى عهدين :

(*) عهد قوة السلجوقيين : وينتهى عام ٥٩٠هـ وفيه كانت السلطة للسلاجقة، وهم قوة من الأتراك سلكوا مسلك البويهيين فى المحافظة على مظهر الخلافة وإبداء التبجيل لصاحبها .

(*) عهد الاحتضار : ويبدأ باحتضار دولة السلاجقة فى بغداد أيام الناصر حتى داهم الماغول الخلافة سنة ست وخمسين وستمائة للهجرة، فنهبوا بغداد وقتلوا آخر خلفائها ومحوها ما كان قائماً من معالمها .. هذا والعصر العباسى عامة يتميز بعدة مظاهر من أهمها :

- ١- التنافس على السيادة بين العناصر الجنسية وأخصها العربى والفارسى والتركى .
- ٢- ضعف الخلافة وتجزؤها على إمارات مستقلة .
- ٣- الحركات الهدامة الداخلية .
- ٤- غارات الروم والإفرنج على أطرافها .

ثانياً الحياة الاجتماعية :

وكانت الدولة الإسلامية في ذلك الحين مؤلفة من عدة عناصر أهمها :

الأتراك : وكان لهم النفوذ السياسي في الدولة، وقضوا على نفوذ الفرس والعرب جميعاً، وتولوا شتى المناصب الرفيعة في الحكومة . وأخلاقهم الاجتماعية ضعيفة^(١)، وكان فيهم عبث بالأخلاق ، وشراهة في جمع الأموال^(٢)، وكانوا مشهورين بالجمال والنظافة ، فكثرت الجوارى الأتراك في قصور الخلفاء والأثرياء ، حتى كان كثير من الخلفاء من أمهات تركيات ، وطابع الترك حب الجندية والفروسية والانتصار لمذهب أهل السنة ، والبعد عن الفلسفة والجدل في الدين ، وحب المال وجمعه من أية سبيل . ومع عدم الرغبة في الإصلاح .

العنصر الفارسي : كانوا عماد النظام السياسي والإداري للدولة ، ولكن الأتراك أقصوهم عن منزلتهم في العصر العباسي الأول ، فأخذوا يدسون الدسائس ، ويدبرون المؤامرات ، ويرمون إلى الاستقلال ببلادهم عن الخلافة ، وكانت الدولة تتأثر بهم في حياتهم العقلية الخصبية ، وعاداتهم وتقاليدهم العامة ، وكانوا دعاة الترف والمجون والحضارة ، وطابعهم حب السيادة والبذخ والقدرة على تنظيم إدارة الدولة وتشجيع العلوم والظهور بمظهر التشيع .

العنصر العربي : أقصى عن النفوذ في الدولة والخلافة ، وكان للمعتصم في ذلك أثر معروف ، وكان نفوذ العرب أظهر ما يكون في الشام والجزيرة حيث كونوا لهم هناك دويلات كثيرة . وطابع العرب الزهو والاعتزاز بالنفس والفضائل والميل إلى الأدب والرغبة في السيادة .

وهناك عنصران آخران كان لهما أثرهما في الحياة الاجتماعية في هذا العصر وهما :

الزنج والروم : أما الروم فقد كثر أسراهم في بيوت الخلفاء والأغنياء ، حتى كان بعض الخلفاء من أمهات روميات . وكانت الجوارى الروميات والغلمان الروم يملأن القصور ، وتعشقهم الشعراء ، فكا للبحثري غلام رومي اسمه نسيم^(٣)، وكذلك كان لسواه من الشعراء ، ومن هذا العنصر : ابن الرومي م ٢٨٣ هـ .. أما الزنوج أو السود فكانوا يجلبون من سواحل أفريقيا الشرقية ، وكانوا يعملون في الزراعة

(١) ظهر الإسلام جزء أول ص ٣٢ .

(٢) المرجع نفسه ص ٣٤ ، ٣٥ .

(٣) معاهد التنصيص ص ١/١١٠ - مهذب الأغاني ج ٧ ص ٩٤ .

والصناعة وفى بيوت الطبقات المتوسطة ، وليس أدل على كثرتهم وخطرهم من الثورة التى هددوا بها الدولة (٢٥٥ - ٢٧٠ هـ) ، وكانت حرباً بين الأجناس ، وظلت حتى قضى عليها الموفق عام ٢٧٠ هـ .

وكان الفرق بين طبقة الخاصة وطبقة العامة كبيراً^(١) ، والنموذ والثروة فى يد الخاصة من الناس مما يستلزم الترف واللهو والمغالة فى البنيان ، فقد أنفق المعتصم على بناء " سامرا " أموالاً طائلة ، وكذلك فعل المتوكل فى بناء الجعفرى وسواه من المباني التى أنفق عليها نحو خمسة ملايين من الدنانير ، وبني المعتضد قصر التاج فى الجانب الشرقى من بغداد وأتمه ابنه المكتفى ، وبني المعتضد على بعد ميلين منه قصر الثريا الذى بلغ طوله ثلاثة فراسخ وأنفق عليه نحو نصف مليون من الدنانير ، ووصله بالقصر الحسنى بسرداب تحت الأرض بلغ طوله ميلين وكانت تمشى فيه جواريه وحرمة^(٢) . وفى تهنة المعتضد بقصر الثريا نظم ابن المعتز قصيدته :

ولازلت فينا باقياً واسع العمر	سلمت أمير المؤمنين على الدهر
فلا زال معموراً وبورك من قصر	حللت الثريا خير دار ومسزل
ولا ببناء الجن فى سالف الدهر	فليس له فيما بنى الناس مشبه

ويصف فى أرجوزته فى المعتضد قصر الرباب فيقول :

كم حكمة فيه تخال سحراً	فمن رأى مثل الرباب قصرأ
لكل ذى زهد وغير زهد	أبنية فيها جنان الخلد
وحكمة مقرونة بالدين	تخبر عن عز وعن تمكين
على أعاديه من الأنام	ومظهورات قوة الإسلام

وهكذا كان الترف والنعيم حظ عدد قليل ، هم الخاصة من الناس وبعض رجال التجار والصناعة . حين كان الفقر والبؤس والشقاء للعامة وهم أكثر الناس^(٣) .

وكان من مظاهر الترف فى هذا العصر - كما ذكرنا - كثرة الرقيق حتى امتلأت به القصور ، فكثرت نسل الجوارى واختلطت الدماء ، وأشاع هؤلاء الجوارى فن الغناء ، كما نشرن اللهو والمجون بين شتى الطبقات ..

ولتنوع الحياة الاجتماعية إلى خاصة وعامة وترف وفقر ونسك ولهو ، كانت البلاد معرضاً للنحل ، ومجالاً لدعاية الجماعات السرية وأصحاب المذاهب الذين

(١) راجع الطبقات الاجتماعية وحياتها فى هذا العصر فى التمدن الإسلامى (٢٠ - ٥ / ٥٩ - ١٠١ - ٥ / ١٢٩)

(٢) التمدن الإسلامى ص ٩٣ ، ٩٤ / ٥ وظهر الإسلام ١ / ٩٩ .

(٣) ظهر الإسلام جزء ١ ص ٩٧

كانوا يمزجون الأغراض الاجتماعية بالمبادئ الدينية ويعالجون الترفيه عن الفقراء بالدعوة إلى المساواة .

فكان فيها التشيع برجالاته ، والاعتزال بطوائفه ، والسنة باختلاف أقوالها ، والفلسفة بمذاهبها ، والعلوم الحديثة بأنواعها ، وطوائف الأديان الأخرى بمبادئهم وآرائهم .

وقد قامت جماعات تكافح الشك في الدين والمجون في المجتمع ويدعون إلى الحياة الإسلامية بأخلاقها ومبادئها وسلوكها : ومنهم الحنابلة الذين كانوا يقومون بثورات كثيرة في بغداد لمحاربة المجون والإلحاد .

أساس الحياة الاجتماعية^(١) الحالة الاقتصادية ، التي تسيطر على الناس من حيث لا يشعرون . والحياة الاقتصادية في العصر العباسي الثاني كانت شديدة الاضطراب والفوضى إلى حد بعيد .

انتشر نظام إقطاع الأرض مكافأة أو هبة للمقربين لدى الخلفاء والوزراء^(٢) وكان كبار الملاك يستقلون باقطاعياتهم دون اهتمام بتحسين حالة الناس .. وكانت الرشوة منتشرة بين طبقات الموظفين ، حتى الوزراء الذين كانوا يسوغونها أمام ضمائرهم وأمام الخلفاء ، كما فعل سليمان بن وهب أمام المهتدي^(٣) . وعمت المصادرة بين طبقات الناس ، وأصبحت بتوالي الأيام المصدر الرئيسي لبيت المال^(٤) وأنشئ لها ديوان مخصوص^(٥) .. وكانت ضرائب الأتبان أساس دخل الخلافة^(٦) ، ويدل على حالة الدولة أن متوسط جبايتها كان في أواسط القرن الثالث كما ذكر ابن خردادبة نحو ثلاثمائة مليون درهم^(٧) ، بعد أن كان في عهد الرشيد والمأمون أكثر من ٣٩٠ مليون^(٨) وفي عهد المعتصم ٣٨٨^(٩) .

(١) يراد بالحياة الاجتماعية ما يؤلف بين أفراد الأمة من الصلات والأسباب .

(٢) ٥٤ تاريخ الحضارة الإسلامية لبارتولد .

(٣) ٧/١٥٦ مذهب الأغاني

(٤) ٤/١٨٠ التمدن الإسلامي ، ١٦٩ الإدارة الإسلامية .

(٥) ١/٣٥ ظهر الإسلام ، ١٦٩ الإدارة .

(٦) ٥٣ بارتولد ، ٥/٦٩ التمدن

(٧) ٢/٦١ التمدن

(٨) ١٧٩-١٨١ مقدمة ابن خلدون ، ٢/٥٣ التمدن ، ١٥٢ حضارة الإسلام في دار السلام

(٩) وذلك وفق ما ذكر قدامة في كتاب الخراج (٢/٥٩ التمدن) - ومتوسط الجباية في العصر الأول كان نحو ٣٦٠ مليوناً في العام ، ينفق منها على مصالح الدولة نحو ٥٠ مليوناً والباقي يظل في بيت المال تحت تصرف الخليفة يصرف منها المرتبات والمكافآت (٦٩ ، ٥/٧٠ التمدن) .

وكانت نفقات المعتضد سبعة آلاف دينار في اليوم^(١)، وذلك نحو مليونين ونصف مليون من الدنانير أو خمسين مليون ن الدراهم في العام^(٢)، فالباقى من مجموع الجباية هو الذى يبقى فى بيت المال تحت تصرف الخليفة^(٣).

وقد كثرت ثروات الخلفاء والوزراء وسواهم من طبقات الخاصة^(٤) حتى ترك المنصور أربعة عشر مليوناً من الدنانير - أى ٦٠٠ مليون من الدراهم - وترك الرشيد واحداً أو عشرين مليوناً^(٥)، وترك المعتضد فى خزانة الدولة أموالاً طائلة فوق ما ترك من ثروة خاصة .

وفى بعض مظاهر هذا الترف والبذخ ، يقول على بن الجهم واصفاً قصر الجعفرى الذى بناه الخليفة المتوكل على الله :

وما زلت أسمع أن الملو	ك تبنى على قدر أقدارها
وأعلم أن عقول الـرجا	ل يقضى عليها بآثارها
فلما رأينا بناء الإماما	م رأينا الخلافة فى دارها
بدائع لم تـررها فارس	ولا الروم فى طول أعمارها
وللروم ما شيد الأولو	ن وللفرس آثار أحرارها
وكنا نحس لها نخوة	فطامننت نخوة جبارها
وأنشأت تحتج للمسلم	ين على ملحدتها وكفارها
صحون تسافر فيها العيو	ن إذا ما تجلست لأبصارها
وقبة ملك كأن النجو	م تفضى إليها بأسرارها
نظمن الفسafs نظم الحلى	لعون النساء وأبكارها
لو أن سليمان أدت له	شياطينه بعض أخبارها
لأيقن أن بنى هاشم	تقدمها فضل أخطارها

ولضيق ابواب الرزق على كثير من الناس ، وقصور وسائل الكسب عن أن تفى لهم بمطالب الحياة ، اتخذ بعضهم تكفف الناس حرفة ، وقعدوا للسؤال كل مقعد، وقد أنفذ ملك الروم إلى المنصور رسولاً ، فاسترعاها من على جسر الرصافة من الزمنى والسؤال ، وقال لعمارة بن حمزة - وكان يرافقه من قبل المنصور فى تطوافه

(١) ٣٥٣-٣٥٥ الخضرى بك .

(٢) ٢/٦٦ التمدن .

(٣) ٢/٦٧ التمدن .

(٤) ٥/١٠١ التمدن .

(٥) ٢/٣٣ التمدن .

بغداد - إنى أرى عندكم قوماً يسألون ، وقد كان يجب على صاحبك أن يرحم هؤلاء، ويكفيهم مؤنهم وعيالاتهم ، فاعتل له عمارة بوجه ، واعتل المنصور بسواه .. فلا غرابة - إذن - أن يكثر أهل الكدية ، من الطبقة الدنيا ، بل لا غرابة إذا وجد بعض الناس فى التكدية أهناً سبيل ، تدر عليهم فيها أخلاف الرزق ويأمنون معها بوائق الغدر ، وهذا ما نراه ، ونرى معه كيف كانت وسائل الكسب على أيام الحريرى ، من قوله فى المقامة الساسانية : " سمعت المعایش إمارة ، وتجارة ، وزراعة وصناعة ، فمارست هذه الأربع ، لأنظر أيها أوفق وأنفع ، فما أحمدت منها معيشة ولا استرغدت عيشة ، ولم أرى ما هو بارد المغنم ، لذيد المطعم ، وافى المكسب ، صافى المشرب ، إلا الحرفة التى وضع ساسان أساسها ، ونوع أجناسها ، وأضرم فى الخافقين نارها ، وأوضح لبنى غبراء منارها ، فشهدت وقائعها معلماً ، واخترت سيماها لى ميسماً ، إذا كانت المتجر الذى لا يبور ، والمنهل الذى لا يغور ، والمصباح الذى يعشى إليه الجمهور ، ويستصبح به العمى والعور ، وكان أهلها أعز قبيل ، وأسعد جيل ، لا يرهقهم مس حيف ، ولا يقلقهم سل سيف ... " .

الحياة العقلية^(١)

فى العصر العباسى الأول (١٣٢ - ٢٣٢هـ) ازدهرت الحياة العقلية ازدهاراً كبيراً ، وتلاقت فى الحواضر الإسلامية شتى الثقافات التى تمثل حضارات الأمم العريقة فى أثرها ، فى العلم والثقافة .. كانت الدولة مزيجاً من شعوب كثيرة وكانت عقلية هذا الشعب الجديد يتجلى عليها أثر الثقافات والوراثات .

كان النفوذ فى دولة الخلافة للفرس ، وانتشرت ثقافتهم انتشاراً كبيراً على يد الوزراء وكتابهم الفارسيين ، ونقل المثقفون من الفرس الذين أجادوا العربية والعرب الذين أتقنوا الفارسية - إلى العربية تراث الفرس القديم فى الحضارة والثقافة ، وانتاج الدين أجادوا اللغتين من هؤلاء كان صادراً عن عقليتين وثقافتين ، وكان رجال العلم فى هذا العصر أكثرهم فارسيون ، حتى قال ابن خلدون : إن حملة العلم فى الإسلام أكثرهم من العجم^(٢) ، ودخلت الثقافة اليونانية فى هذا العصر على الفكر الإسلامى بامتزاج الجنسيتين فى الحياة الاجتماعية وبتشجيع الخلفاء لترجمة كتب الطب والنجوم والفلسفة من اليونانية إلى العربية ، وإذا كان خالد بن يزيد ٨٩

(١) يراد بالحياة العقلية حركة النفس الإنسانية فى جميع أنواع العلوم والفنون والثقافات والآداب .

(٢) ٥٤٣ مقدمة ابن خلدون

هـ أول من ترجم - أو ترجمت له - كتب النجوم والطب والكيمياء^(١)، فقد عنى المنصور م ١٥٨ هـ بترجمة كتب النجوم والطب والفلسفة وتشجيعها ، وبث إلى امبراطور الدولة الرومانية الشرقية يسأله صلته بما لديه من كتب الفلاسفة واستخار لها مهرة الترجمة وكلفهم بإحكام ترجمتها^(٢)، بل كان المنصور أول خليفة قرب المنجمين وترجمت له الكتب من اليونانية والرومانية والفهلوية والفارسية والسريانية^(٣). وكذلك فعل الرشيد ، وأوفد المأمون الرسل إلى ملوك الروم في استخراج علوم اليونانية ونسخها بالخط العربي وبعث المترجمين لذلك^(٤). وأنشأ في بغداد مدرسة لتخريج المترجمين^(٥)، وهي مكملة لدار الحكمة التي بناها الرشيد للترجمة ، وإذا كانت الدولة قد قبلت التقاليد الإيرانية في أمور الدولة فقد أخذت في مساحة الحضارة والثقافة أموراً كثيرة من بيزنطة^(٦).

وكذلك اتصلت الثقافة الهندية بالفكر الإسلامي مباشرة وبواسطة الفرس أيضاً ، أما الأتراك فلم يكن لهم مدنية ، وليس لهم ثقافة ، وبعد أن تعلموا العربية لم ينبغ منهم في الأدب والشعر والعلم إلا قليل ، كأحمد بن طولون والفتح بن خاقان .

وكان للإسلام فوق ذلك كله ثقافة واسعة في الدين واللغة والأدب والشعر ، كانت هي أهم شيء أثر في الفكر الإسلامي وكانت المورد الأول للناس جميعاً .

تجمعت هذه الثقافات في العراق في العصر العباسي الأول وأحدثت أثرها في العقول والأفكار ، وكان المتكلمون أكبر عامل في امتزاج هذه الثقافات^(٧) وصلة بين الفلسفة اليونانية والأدب فقدموا معاني للأدباء والشعراء لم يكونوا يعرفونها.

(١) ١/٢١٣ البيان والتبيين للجاحظ ، ٤٩٧ الفهرست لابن النديم .

(٢) ٤٨٠ مقدمة ابن خلدون ، ٥٥ طبقات الأمم لصاعد الأندلسي ، ٢١ تاريخ الحضارة الإسلامية لبارتولد ، وراجع حركة الترجمة في (٢٢٩-٢٣٣ الأدب العباسي لمحمود مصطفى ، ١٧٧ وما بعدها و ٢٦٤ ، ٢٦٨-٢٧٠/١ ضحى الإسلام .

(٣) ٤/٢٤١ وما بعدها مروج الذهب

(٤) ٤٨٠ ، ٤٨١ مقدمة ابن خلدون .

(٥) ٢٣٠ الأدب العباسي لمحمود مصطفى

(٦) ٣٨ تاريخ الحضارة الإسلامية .

(٧) ٣٨٠ ج ١ ضحى الإسلام .

وفى العصر العباسى الثانى (٢٣٢-٣٣٤ هـ) زاد امتزاج هذه الثقافات واتصالها ، بتناول الزمن وتلاقح العقول وظهور آثار حركة الترجمة وتشجيع الخلفاء والوزراء للعلم والعلماء ، فكان هذا العصر أزهى عصور العلم فى البلاد الإسلامية .

وكان العصر العباسى الأول تغلب عليه نزعة الاعتزال^(١) التى أيدها المؤمن بكل ما يستطيع ، ولكن العصر الثانى وهو عصر النفوذ التركى كان مصحوباً بمظاهر جديدة أهمها إلغاء سلطان المعتزلة وإعلاء شأن المحدثين ، فأمر المتوكل بترك الجدل فى القرآن ، واضطهد رؤساء المعتزلة ، كمحمد بن أبى الليث فى مصر وأحمد بن أبى دؤاد فى العراق ، من حيث كرم أحمد بن حنبل وسواه من أئمة المحدثين ، وكان هذا الاتجاه يحظى بتأييد الأتراك ويعملون له^(٢).

ومراكز الحياة العقلية فى العصر الثانى كانت كثيرة متعددة ، فنشطت الدراسات الدينية واللغوية فى مصر ، وتفوقت الشام فى الشعر والأدب واللغة^(٣) ، وكان للعراق الصدارة فى العلم والأدب والفلسفة ، فكانت بغداد والبصرة وحران أهم مراكز العلم والحضارة ، فالجاحظ والكندى بصريان ، والبتانى الرياضى الفلكى م ٣١٧ هـ من حران . وكانت بغداد تجذب العلماء إليها من كل أرجاء العالم الإسلامى ، واشتهرت بلخ وخوارزم واصفهان فى ميدان التفكير والثقافة . فنبغ منها أبو يزيد البلخى م ٣٢٢ هـ أحد تلاميذ الكندى المشهور وأبو موسى الخوارزمى صاحب المؤلفات القيمة فى الجبر والحساب ، ثم أبو الفرج الأصفهانى مؤلف الأغاني ، وسواهم من العلماء .

وبعد فالعصر العباسى الثانى كان زاخراً بالعلوم ، قديمها وحديثها ، كما كان حافلاً بالعلماء والمفكرين والفلاسفة .. وكانت العلوم المترجمة شرطاً فى تكوين ثقافة الكاتب والأديب ، وراج علم النجوم حتى انتشر بين الخاصة وجمهور الناس^(٤) والأدباء ، وعلى أى حال فلم تكن مناهج التفكير واحدة عند جميع الناس ، وكان الخلاف بين هذه المناهج على أشده فى العراق ، ويثور ابن قتيبية (٢١٣-٢٧٦ هـ) فى مقدمة كتابه " أدب الكتاب " على الحالة فى عصره حيث أهمل الناس علوم

(١) ٢٠٣-٤/٢٠٦ مسعودى .

(٢) راجع ١/٤١ ظهر الإسلام

(٣) راجع ١/٨ اليتيمة للثعالبي ، ١٧٧ ج ١ وما بعدها ظهر الإسلام .

(٤) واشتهر على بن جور الفارسى - وكان كاتباً مترسلاً فى علم النجوم - بادخالها فى شعره (٢٩٣ معجم الشعراء) .

الدين مع عنايتهم بعلوم الفلسفة والمنطق^(١)، وكانت جماعة الأدباء يضجرون من الثقافات المترجمة وعلومها حتى قال بن المعتز يصف من يؤثره بصداقته :

فإن تطلبه تقتنصه بحانة	وإلا ببستان وكرم مظلل
ولست تراه سائلا عن خليفة	ولا قائلاً من يعزلون ومن يلي
ولا صائحاً كالعير في يوم لذة	بناظر في تفضيل عثمان أو على
ولا حاسباً تقويم شمس وكوكب	ليعرف أخبار العلوم من أسفل
يقوم كحرباء الظهيرة مائلا	يقلب في اصطر لا به عين أحول
ولكن فيما قد عناه وسره	وعن غيره ما يعنيه فهو بمعزل

وقد ازدادت الحركة العقلية ازدهارا بعد ذلك ، وظهر أفذاذ من الفلاسفة والمفكرين الذين يعتز بهم العقل الإسلامي ، ومن بينهم ابن سينا المتوفى عام ٤٢٨ هـ والغزالي المتوفى عام ٥٠٥ هـ والرازي المتوفى عام ٦٠٦ هـ وسواهم ..

من أعلام المفكرين في العصر العباسي :

نبغ في جميع ألوان الثقافة الدينية والأدبية والفكرية في العصر العباسي كثير من أئمة العلماء .

أ- ففي التشريع الإسلامي : نبغ مالك بن أنس ٩٠-١٧٩ هـ وأبو حنيفة ١٥٠ هـ والشافعي ١٠٤ هـ، وأحمد بن حنبل م ٢٤٠ هـ، والكرائسي م ٢٤٥ هـ ، والزعفراني م ٢٦٠ هـ ، وداود الظاهري (٢٠٢-٢٧٥ هـ)^(٢) ، وإسماعيل بن إسحاق قاضي بغداد م ٢٨٢ هـ ، وعبد الله بن أحمد بن حنبل م ٢٩٠ هـ ، والحري م ٢٨٥ هـ ، ويوسف بن يعقوب القاضي (٢٠٨-٢٩٧ هـ) ومحمد بن داود الظاهري م ٢٩٧ هـ^(٣) . ومن العلماء : المدائني ١٣٥-٢٣٤ هـ والواقدي (١٣٠-٢٠٧ هـ) والزهري كاتب الواقدي ٢٣٠ هـ ، والليث بن سعد ٩٢-١٧٥ هـ ، وابن السماك ١٨٣ هـ .

(١) راجع ص ٢ وما بعدها أدب الكاتب بهامش المثل السائر ، وكان ابن قتيبة من أهل السنة ومن علماء الدين مع واسع ثقافته اليونانية وسواها (راجع ٤٠٢ ، ٤٠٦ ج ١ ضحى الإسلام) .

(٢) راجع ترجمة في ٢٦٥ وما بعدها من كتاب نظرات عامة في الفقه الإسلامي ، ١/٢١٣ وفيات الأعيان .

(٣) راجع ترجمته في : ٢٧٢-٢٧٣/٢ وفيات الأعيان ، ١٥٩ وما بعدها تزين الأسواق . وله كتاب الزهرة . وهو مخطوط بدار الكتب ومنسوب لداود والده (٣٥٤٨ أدب مخطوط)

ب- وفي التصوف: المحاسبي ٢٤٣ هـ والبسطامي م ٢٦١ هـ وسهل التستري م ٢٨٣ هـ وأبو سعيد الخزاز م ٢٨٦ هـ وهو أول من تكلم في الفناء والبقاء، ثم إمام الصوفية الجنيد م ٢٩٧ هـ^(١)، ثم الحلاج وقتل عام ٣٠٩ ببغداد^(٢).

ج- وفي علوم اللغة والأدب المفضل الطبي ١٧٠ هـ، والخليل ١٧٥ هـ، وسيبويه ١٨٨ هـ، والأصمعي ٢١٦ هـ، وأبو زيد الأنصاري ٢١٤ هـ، وأبو عبيدة ١١٠-٢٠٨ هـ، وأبو محمد اليزيدي ٢٠٢ هـ، والقاسم بن سلام ١٥٠-٢٢٣ هـ، وابن الأعرابي ١٥٠-٢٣١ هـ، وابن سلام الجمحي ٢٣١ هـ، ومصعب الزبيري م ٢٣٦ هـ^(٣)، والتوزي م ٢٣٨ هـ، وأبو العميثل م ٢٤٠ هـ، وابن السكيت م ٢٤٤ هـ، ومحمد بن حبيب م ٢٤٥ هـ^(٤)، والمازني م ٢٤٩ هـ، وأبو حاتم السجستاني م ٢٥٥ هـ^(٥)، والزبير ابن بكار م ٢٥٦ هـ^(٦)، والرياشي أبو الفضل العباسي بن الفرغ م ٢٥٧ هـ^(٧) والأشنانداني م ٢٥٧ هـ وعمر بن شبة ١٧٣-٢٦٢ هـ، وابنه أحمد م ٢٧٢ هـ^(٨)، والطلحي م ٢٧١ هـ^(٩)، والسكري م ٢٧٥ هـ^(١٠)، وأبو العباس اليزيدي م ٢٧٨ هـ ومحمد اليزيدي ٢٢٨-٣١٠ هـ، وأبو حنيفة الدينوري م ٢٨٢ هـ^(١١) وابن قتيبة ٢١٣-٢٧٦ هـ وابن أبي الدنيا ٢٨-٢٨١ هـ والمبرد (٢١٠-٢٨٥ هـ^(١٢)، وثعلب (٢٠٠-٢٩١ هـ)^(١٣)، والزجاجي البغدادي النحوي م ٣٣٧ هـ. وابن السراج تلميذ المبرد والمتوفى عام ٣١٦ هـ^(١٤)، والزجاج م ٣١١ هـ^(١٥)،

(١) ١/٢٠٨ وفيات.

(٢) راجع ٩١ و ٢٣١ الكشكول في مقتل الحلاج.

(٣) وهو شاعر راوية (٤٠٢ معجم الشعراء).

(٤) ١٥٥ فهرست، وكان من علماء بغداد بالأنساب والأخبار والشعر والقبائل (١٩٣/٢ آداب اللغة لزيدان).

(٥) وله كتاب المعمرين وكتاب الفصاحة (٨٧ الفهرست)

(٦) ١٦٠ الفهرست، وله كتاب أخبار توبة ويلي (١٦١ فهرست).

(٧) ٨٦ فهرست، وكان عالما راوية ثقة عارفاً بأيام العرب وروى عن الأصمعي وأبي عبيدة وقتل بالبصرة في فتنة الزنج.

(٨) كان شاعرا مجيدا راوية (١٦٣ فهرست)

(٩) وهو بصري نادم الموافق وكان راوية أخباريا (١٦٤ الفهرست)

(١٠) وهو الذي جمع شعر مزاحم وأبي نواس (١١٧ الفهرست)

(١١) وله كتاب الفصاحة وكتاب الشعر والشعراء (١١٦ فهرست)

(١٢) راجع ٣١٤-٣٢٠ / ١ ضحى الإسلام، ٨٧ وما بعدها من الفهرست ١٨٦ / ٢ آداب اللغة لزيدان.

(١٣) راجع ١١٠ وما بعدها من الفهرست.

(١٤) ٩٣ وما بعدها من الفهرست.

(١٥) من تلامذة المبرد وصار مع المعتضد يعلم أولاده وكان أولا يؤدب القاسم بن عبيد الله (٩٠ وما بعدها من الفهرست. ٢/٢٨١ آداب اللغة لزيدان).

والأخفش م ٣١٨ ونفطويه م ٣٢٢هـ، وابن دريد (٢٢٣ - ٣٢١هـ)^(١)، ثم ابن الأنباري (٢٧١ - ٣٢٨هـ) وابن درستومه ٣٤٧هـ. والسيرافي ٢٨٠ - ٣٦٨هـ وابن خالويه ٣٧٠هـ، والحاتمي ٣٨٨هـ، وابن جنى ٣٩٢هـ والرماني ٣٨٤هـ، ثم الزمخشري ٥٣٨هـ وسواهم.

د - وفي علم الكلام ظهر من المعتزلة : بشر بن المعتمر م ٢١٠هـ، وثمامة بن أشرس م ٢١٣هـ، والنظام (١٨٠ - ٢٢١هـ)، وابن أبي دواد (١٦٠ - ٢٤٠هـ)، ويحيى بن أكثم م ٢٤٢هـ، وأبو الهذيل العلاف البصري م ٢٣٥هـ، وابن الراوندي م ٢٤٥هـ، والجاحظ (١٥٠ - ٢٥٥هـ)، وأبو علي الجبائي (٢٣٥ - ٣٠٣هـ)^(٢). ثم ظهر أبو الحسن الأشعري (٢٧٠ - ٣٣٣هـ)^(٣)؛ وقد استمر المعتزلة في العراق يعلمون ويدرسون على يد الجبائي وتلميذه في الاعتزال محمد بن عمر الصيمري^(٤).

هـ - ومن المفكرين والفلاسفة وأقطاب العلماء :

ابن ماسويه الطبيب م ٢٤٣هـ، وابن سهل الطبيب م ٢٥٥هـ، ومحمد موسى ابن شاکر م ٢٥٩هـ^(٥)، والكندي م ٢٦٠هـ^(٦)، وبنو المنجم، وأبو موسى الخوارزمي وهو مذيع الحساب الهندي وأرقامه بين العرب، والفارابي م ٣٣٩هـ، ثم ابن سينا م ٤٢٨هـ، والغزالي م ٥٠٥هـ، والرازي المتوفى ٦٠٦هـ وسواهم .. ومن صدور الفلاسفة والمفكرين والرياضيين والمترجمين الذين كان لهم أثر في الفكر العباسي : حنين بن

(١) ولد بالبصرة ونشأ بعمان ثم رحل إلى فارس وورد بغداد عام ٣٠٨هـ وأقام بها وكان إماماً في اللغة والأنساب والشعر وهو شاعر راوية (٤٦١ معجم الشعراء، ٢٣٨ ج ١، ظهر، ٣٧١ الزيات).

(٢) معتزلي بصرى وإليه انتهت رئاسة البصريين في زمانه وكان إمام المعتزلة ببغداد وتلمذ عليه الأشعري (ص ٦ تكملة الفهرست لابن النديم).

(٣) نشق بثقافة المعتزلة ثم عاداهم وأعلن تركه لمبادئهم، وصار رئيساً لمذهب الأشعريين، والأشعري يمثل الموجة الحديثة التي بدأت تهاجم المعتزلة وتنصر المحدثين وأهل السنة منذ عصر المتوكل.^(٤) ١ / ٢٢٢ ظهر الإسلام.

(٥) وهو وإخوته : أحمد والحسن كان لهم مكانة كبيرة في الفلسفة والميكانيكا (٣٧٨ وما بعدها من الفهرست، ٦٤ طبقات الأمم)؛ وكان مطهر بن أحمد بن موسى من ندماء المعتضد (٣٧٩ فهرست).

(٦) هو يعقوب بن اسحق كان متحققاً بعلوم الأوائل (٥٠٧ معجم الشعراء)، وهو أول فيلسوف عربي درس الفلسفة اليونانية وشرحها وبنى عليها (راجع ٣٥٧ - ٣٦٠ الفهرست، ٥٩ وما بعدها طبقات الأمم)؛ ووشى به إلى المتوكل محمود وأحمد ابنا موسى بن شاکر فضربه وأخذوا كتبه بأسرها حتى أكرههما سند بن علي أخيراً على ردها إليه (١٩٥ و ١٩٧ المكافأة).

اسحاق (١٩٤ - ٢٦٠ هـ^(١))، وأبو معشر الفلكي م ٢٧٢ هـ^(٢). والبلاذري م ٢٧٩ هـ^(٣)، وابن خرداذبة المتوفى نحو عام ٢٧٨ هـ^(٤)، وأبو حنيفة الدينوري م ٢٨٢ هـ^(٥)، والسرخي م ٢٨٦ هـ^(٦)، وثابت بن قره (٢٢١ - ٢٨٨ هـ^(٧))، وإسحاق بن حنين م ٢٩٧ هـ^(٨). والرازي م ٣١١ هـ^(٩)، والبتاني الرياضى الفلكي م ٣١٧ هـ، وأبو زيد البلخي م ٣٢٢ هـ، وسواهم من أعلام المفكرين.

^(١) أجاد العربية والفارسية والسريانية واليونانية ونقل هو ومدرسته إلى العربية زبدة آثار اليونان وجعلوا الثقافة اليونانية بين أيدي العلماء (٢٨٣ - ٢٨٨ / ١ ضحى الإسلام، ٤٠٩ وما بعدها الفهرست): ووشى به بختيشوع بن جبرائيل الطبيب إلى المتوكل فحبسه (راجع ١٣٧ / ٤ وما بعدها التمدن، ١ / ١٩٤ طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة).

^(٢) ٣٨٦ فهرست، ٤٧ بارتولد، ١ / ١٩٨ وما بعدها وفيات الأعيان.

^(٣) ٢ / ١٩١ آداب اللغة لزيدان؛ وكان أديباً راوية وهو أحد النقلة من الفارسي إلى العربي (١٢٧ - ١٣٢ / ٢ معجم الأدباء لياقوت، ١ / ٧ فوات الوفيات).

^(٤) ونادم المعتمد، وله كتاب الشراب وكتاب المسالك والممالك (٢١٢ وما بعدها من الفهرست، ٢ / ٢٠٢ آداب اللغة لزيدان).

^(٥) كانت ثقافته الهندية واليونانية واسعة، وكان ملماً بعلوم كثيرة، كما كان يقرن بالجاحظ في بلاغته (١ / ٤٠٦ وما بعدها ضحى الإسلام ١١٦ فهرست، ٢ / ١٩٧ آداب اللغة لزيدان)، وله كتب في النبات وكتاب الأخبار الطوال في التاريخ العام وينتهي بوفاة المعتصم ٢٢٧ هـ.

^(٦) هو أحمد بن مروان (٣٦٥ فهرست) أو أحمد بن الطيب (١ / ٢٠٠ زهر الآداب) السرخسي تلميذ الكندي كان متفناً في علوم القدماء والعرب، وكان أستاذاً للمعتضد ثم خص به، وله كتب كثيرة في الفلسفة وغيرها وقتله المعتضد لأنه أفضى إليه بسر فأفشاء (٣٦٥ - ٣٦٧ فهرست، ٢ / ٥١ معجم الأدباء: ٦١ طبقات الأمم لصاعد)، وله كتاب إلى المعتضد في أدب النفس (٢٤٣ الفهرست).

^(٧) راجع ١٧٧ - ١ / ١٧٩ وفيات الأعيان.

^(٨) ٣٩٧ و ٤١٥ فهرست، ١١٦ - ١ / ١١٧ وفيات الأعيان.

^(٩) ٥٠٣ - ٢ / ٥٠٥ وفيات، ٦١ طبقات الأمم، ٤١٥ - ٤٢٠ الفهرست.

القسم الثانى

الحياة الأدبية

إذا كانت آثار الثقافات المترجمة قد صبغت الحياة العقلية والاجتماعية في العصر العباسي الأول والثاني بأصباغ جديدة، فقد كان أثرها في الأدب واللغة متفاوتاً فظلت مناهج الأداء والأساليب ولغة الكتابة والشعر قريبة مما كانت عليه من قبل، من حيث نصبت معاني الكتاب وخيالات الشعراء، وعمقت صياغتهم الذهنية، وتفكيرهم العقلي، إلى حد كبير.

وإذا كانت الثقافات الحديثة قد طغت موجتها على كثير من نواحي الحياة والتفكير، فإن العربية كانت أعز من أن تحنى رأسها للعواصف الجامحة التي تهدم من صرحها الشاهق، أو تزعزع من ثقتها القوية بالنفس. وظلت كما هي لغة التفكير والأدب، وإن سايرت حركة الرقي، ولم تقف جامدة ضعيفة الإحساس بالحياة.

وإذا كانت الفلسفة اليونانية قد وضعت موضع العناية بالترجمة. فإن الأدب اليوناني لم يترجم منه شيء، ولم يتأثر به الأدب والشعر في نهضتهما الوثابة في هذا العصر الحافل^(١). لتباين الأذواق، ولاعتداد العرب بنفسهم ولغتهم وأدبهم، ولاختلاف حياة العرب واليونان التي يصورها الأدب ويكون أوضح مثال لها. وعلى أي حال فإن الثقافة اليونانية قد صبغت عقلية الأدباء والشعراء بآثارها العميقة في التفكير والخيال والمعاني^(٢) وطرافة التقسيم.

وتأثير الثقافة الهندية في الأدب العربي كذلك كان طفيفاً لا يعدو تلك الأفكار التي كانت تتساقط من علم النجوم أو الرياضة في الشعر، وهذه القصص الهندية التي أولع العرب بها، ونقلوها إلى العربية ككليلا ودمنة الذي نقلوه من الفارسية إلى لغتهم، وتلك الحكم التي تشبه الأمثال العربية. وهذه الألفاظ التي عربوها وأدخلوها إلى العربية.

وأثر الفرس في الأدب العربي كبير فهم الذين أشاعوا فيه اللهو والمجون ووصف الراح، وأدب الزهد تأثر كثيراً بنزعات الفرس، وعنهم نقلت آثار كثيرة من الأدب القصصي ككليلا ودمنة وهزار أفسانه، والتوقيعات كان للفرس فيها أثر كبير،

(١) ٤٥ بارتولد، ٦٦ الفن ومذاهبه، ٢٨٧ التوجيه الأدبي، ٢٣٥ الأدب العباسي لمحمود مصطفى، ٢٨٠ ج ١ ضحى الإسلام، ٢٤٤ الزيات.

(٢) وقد أفاد الأدب العربي من القصص والحكم اليونانية التي انتشرت في الثقافة الإسلامية: وعربت كثير من الألفاظ اليونانية.

وقد ترجمت عن الفارسية توقيعات كسرى، هذا إلى أنه كان للفرس شعر وأمثال وأدب كثير وضع تحت أعين العرب، وكان للعرب الذين يجيدون الفارسية وللفرس المتعربين مجال كبير في الأدب كالعنابي وأبي نواس وبشار وسواهم، فأخرجوا أدباً عربياً فيه معانى الفرس وبلاغة العرب، وكان الشعراء ينظمون ما يتسرب إليهم من الصور الفارسية، كان كسرى أبو شروان مشتهراً بالنجس "وكان يقول . هو ياقوت أصفر بين در أبيض على زمرد أخضر فقال الشاعر :

وياقوتة صفراء فى رأس درة مركبة فى قائم من زبرجد
كان بقايا الطل فى جنباتها بقية دمع فوق خدمورد^(١)

وكان أردشير بن بابك يصف الورد بأنه در أبيض وياقوت أحمر على كرسى زبرجد أخضر توسطه شذور من ذهب أصفر له رقة الخمر ونفحات العطر، فقال محمد بن عبد الله بن طاهر^(٢):

كأنهن يواقيت يطيف بها زمرد وسطه شذر من الذهب
فاشرب على منظر مستطرف حسن من خمرة مزرة كالجمر فى اللهب

وأخذ ابن الرومى معنى حكمة لبهرام جور^(٣) فنظمه شعراً^(٤). وكان من الفرس كبار الكتاب الأوائل الواضعين لأساس صناعة الإنشاء (الكتابة الفنية) فى الدواوين، وكان منهم شعراء أحدثوا آثاراً واسعة فى أغراض الشعر ومعانيه وأوزانه وقوافيه. ونقلوا للخلفاء والأمراء والوزراء كثيراً من آداب الفرس وحكمتهم وأمثالهم وتاريخهم وقصصهم وأسمارهم، مما ظهر أثره فى الأدب العربى واضحاً. وإذا كان الأدب فى عهد بنى أمية عربياً خالصاً فى المادة والمعنى، ولم يكن للفرس إلا مدارسته وحفظه وروايته، فقد كان فى عهد بنى العباس أثرهم أعمق لا فى الأسلوب البيانى، بل فى التفكير والخيال، وبتأثيرهم تنوعت الأغراض وظهر التأنيق فى النثر والشعر، وطلبت الرقة والدمائة، مع المحافظة على فصاحة العربية والأخذ بأساليبها.

(١) ٢٣٢ ج ٢ زهر الآداب.

(٢) وينسب البيت الأول لعلى بن الجهم (٢٣ ج ٢ ديوان المعانى) قال أبو هلال: وهو من قول اردشير: الورد ياقوت أحمر وأصفر ودر أبيض على كرسى زبرجد يتوسطه شذور من الذهب.

(٣) فارسى قديم تعلم العربية فى الحيرة وشعر بها، ويقول شمس الدين الرازى فى كتاب "المعجم" إنه أول من نظم شعراً فارسياً وأخذه عنه العرب وكان علماء الفرس يستهجنون منه قرض الشعر.

(٤) ٢٧٨ ج ٢ وما بعدها زهر الآداب.

ويمتاز الأدب في هذا العصر بظهور آثار الحياة العقلية فيه، وبصدق تمثيله للحياة الاجتماعية، وبكثرة الحكم والقصص وأخبار الزهد والزهاد فيه، وبتأليف الكتب الجامعة في الأدب كالبيان والتبيين وعيون الأخبار والكمال والعقد، وبأن الأدب أصبح في هذا العصر صناعة علمية في الإنشاء والتأليف، وأظهر ما يتجلى فيه إبداع التصوير واتساع الخيال والمبالغة الشديدة والإكثار من الحكمة والمثل والبراهين العقلية. وقد أصاب الأدب كساد وانصرف الناس إلى الفلسفة وعلومها مما يبسطه ابن قتيبة في مقدمة أدب الكاتب بوضوح.

ولقد كان ظهور الموالي، وعلو شأنهم^(١) مما أحيى في نفوسهم الشعور القومي، وذكرهم بما كان لهم من مجد بائد، وعز قديم، فعلنت الشعوبية، تنفس عن غيظها المكظوم طول عهد الأمويين، وتمجد العجم بإعلان مآثرهم، وتزرى على العرب بتلمس المثالب لهم، وتسجل ذلك في الشعر، من أمثال بشار، والمتوكل، والخريمي، ومهيار؛ وفي الكتب يضعها أمثال أبي عبيدة، والهيثم بن عدي، وسعيد بن حميد وعلان الشعوبي، وانبرى لهؤلاء من الشعراء والعلماء من يرد عليهم، ويدفع عن العرب، وينتصر لهم، أمثال محمد بن يزيد الأموي، والجاحظ، وابن قتيبة، بل لقد حاول الجاحظ أن يهدم العصبية الجنسية بما عالجه في رسالته مناقب الترك وعامة جند الخلافة، حين استشرى شرها، وكاد يوقع الفتنة في صفوف الجند أيام المعتصم.

وتحيز المال في جانب الحكام والأمراء، جعل الأدب يستمر اتجاهه القديم إلى ناحيتهم، ويسير في ركابهم، يعلى من شأنهم، ويتغنى بذكرهم، وغلب ذلك على أكثر أدب العصر، وبخاصة نتاج أولئك الذين اتصلت أسبابهم بالقصور، وذاقوا في رحابها حلاوة النعيم.

وانغماس الأدباء في الحضارة، ومشاركتهم في لهوها الخليع، ومجونها السافر، مكن لهم من تصويرها في جميع أوضاعها، فوصفوها في مظاهرها الرائعة وفي مبادئها الوضيعة، وملا شعرهم بالتحريض على متع الحياة وتحسين الخلاعة والمجون، في صراحة مكشوفة، وعري فاضح، وابتذال مهين، ومن شاء فليرجع إلى الأغاني، أو يتيمة الدهر، أو دواوين كثير من الشعراء، ليستطلع طلع ذلك في شعر بشار، ومطيع بن إياس، ووالبة بن الحباب، ومسلم بن الوليد، وأبي نواس، وحسين بن الضحاك، وابن الحجاج، وابن سكرة، وأبي الرقعمق، وغيرهم من الشعراء.

(١) الأدب العربي للأستاذ أحمد شعراوي.

والزهد ، وهو حركة تقاوم هذه المادية الجارفة، وتصد عنها بالتنفير من الدنيا والترغيب فى الآخرة، والتذكير بالموت والحساب : وجد له مجالاً فى ننف لبعض الشعراء والعلماء وفى كثير من شعر أبى العتاهية، وفى كل ما صدر عن الزهاد والمتقشفين من أقوال.

وقسوة الحياة وشقاؤها، وشطف العيش، ورنق المشرب، انعكست صورها فى كتب المقامات، قصصاً للكادحين. يحتالون على العيش بالمكر والخداع، وفى أدب المحرومين، كابن لنكك البصرى، وأبى حيان ، سخطاً على الزمان، وأنيباً من البؤس والحرمان.

واضطراب نظام الحكم، وفساد أداته، لم يعد من ينعى عليه، ويندد به، مثل أبى العلاء أو من يروم علاجه، ويحاول إصلاحه كابن المقفع.

ولو رجعنا إلى ما وصفناه من معالم هذا العصر، نبحت عن أشد الظواهر الاجتماعية تأثيراً فى الحياة، ما وجدنا أقوى من التحام العرب بالموالى وامتزاجهم على الوجه الذى بيناه، من ظهور الموالى وقوة نفوذهم، فهم الذين أثروا فى المجتمع، ولونوا الحضارة، بما ورثوه عن دولهم الدانلة، وحضارتهم الزائلة، وصبغوا الدولة بصبغتهم، وأدخلوا فيها نظمهم وتقاليدهم، وقد تنبه إلى شىء من هذا بعض من عاصر العهد وشهد مجارى الأمور فيه، وهذا أبو حيان التوحيدى يصور ذلك كله فىقول " ضعف أمر الدين. وتحلل ركنه، وتداوله الناس بالغلبة والقهر، فتناول له ناس من آل الرسول ﷺ بالعجم، وبقوتهم، ونهضتهم وعادتهم فى مساورة الملوك وإزالة الدول. وتناول العز كيف كان .. ألا ترى أن الحال استحالت عجماً كسروية وقيصرية؟. هذا الربيع - وهو حاجب المنصور - يضرب من شمت الخليفة عند العطسة. فيشكى ذلك إلى أبى جعفر المنصور ويقول : أصاب الرجل السنة، وأخطأ الأدب. وهذا هو الجهل ، كأنه لا يعلم أن السنة أشرف من الأدب، بل الأدب كله فى السنة، وهى الجامعة للأدب النبوى والأمر الإلهى، ولكن لما غلبت عليهم العزة، ودخلت النعرة فى آنافهم، وظهرت الخنزوانة بينهم، سموا آيين العجم أدبا، وقدموه على السنة التى هى ثمرة النبوة".

-٣-

وقد ضعفت الخطابة بزوال أسبابها وأعجمية رجال الدولة، ولأن الدولة قد توطدت دعائمها، وحكمت بالاستبداد، وبطلت الخطابة فى الجيوش، وضعفت الملكات. كذلك صار فى الكتابة - وقد تنوعت أساليبها وأغراضها - غنى عن

الخطابة، فضعف شأنها ولم يبق لها إلا مظهرها الديني، حيث كان الخلفاء يخرجون للصلوات الجامعة ويخطبون الناس، وكان آخر خليفة خطب على المنبر هو الراضى (٣٢٢ - ٣٢٩هـ)^(١).

وقد بلغت كتابة الرسائل في هذه العصر مكانة عالية، وقد كان للانقلاب العباسى أثر عظيم فى الميول والعقول، ظهر على أقلام الكاتبين، فاستنبطوا عيون المعانى، وتخيروا شريف الألفاظ مما لم يكن حوشيا ساقطا سوقيا، وفتحوا أبواب البديع وبذ الكتاب فحول الشعر فى عظمة الحياة والرياسة، وتسمنوا أرفع المناصب فى الدولة، واشتهر منهم : محمد بن عبد الملك الزيات، وآل وهب، وسواهم، من أعلام الكتابة. كما نبغ فى الأدب والشعر جمهور كبير. ونهض الشعر فى هذا العصر نهضته العظمى .. مما سنتحدث عنه فى الدراسات التالية.

وقد كانت طبقات الأدباء فى صدر الدولة العباسية متعددة، ومن بينها : طبقة الكتاب الذين لم ير الجاحظ قوما قط أمثل طريقة فى البلاغة منهم، والذين التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا ولا ساقطا سوقيا^(٢) ورأى الجاحظ البصر بهذا الجوهر من الكلام فيهم أعم^(٣) وحكم مذهبهم فى نقد^(٤) البيان، وكان جلهم من عناصر أجنبية من الفرس والروم والسريان والقبط من الذين فهموا لغتهم وبلاغتها ثم قرأوا البيان والبلاغة العربية وآدابهما وأخذوا يحدثون فى اللغة العربية مذاهب جديدة فى الكتابة والأدب والبيان ويدعون إلى آراء خطيرة تمس الذوق الأدبى وترضى اتجاهات الحضارة والترف العقلى والاجتماعى الذى داخل البيئة العربية منذ بدء القرن الثانى، كما أخذوا يلقنون مذاهبهم الأدبية العامة لتلاميذهم والمشايخين لهم من شدة الأدب كما ترى فى محاضرة بشر بن المعتمر المعتزلى م سنة ٢٠٥هـ فى أصول البلاغة التى يقول الجاحظ عنها : إن بشرا مر بإبراهيم بن جبلة بن مخرمة وهو يعلم الفتيان الخطابة فوقف بشر، فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد أو ليكون رجلا من النظارة فقال بشر : أضربوا عما قال صفحا واطووا عنه كشحا، ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتنميته فى أصول البلاغة وعناصر البيان^(٥)، ومن رجالات هذه الطبقة أبو العلاء سالم مولى هشام بن عبد الملك وعبد الحميد

(١) راجع ٢١٣ الزيات، ٥٤ وما بعدها الأدب العباسى لمحمود مصطفى، ١٠٤ وما بعدها العصر العباسى للسباعى

بيومى.

(٢) ١ / ١٠٥.

(٣) ٣ / ٣٢٥.

(٤) ١ / ٢٤٠.

(٥) ١ / ١٠٤.

الكاتب أو الأكبر كما يقول الجاحظ^(١)، وعبد الله بن المقفع وسهل بن هارون والحسن بن سهل والفضل بن سهل ويحيى بن خالد وجعفر بن يحيى وأيوب بن جعفر وأحمد بن يوسف ومحمد بن عبد الملك الزيات وعمرو بن مسعدة وسواهم من كتاب الدولة الذين سعدوا بفنهم وبلاغتهم إلى أرقى المناصب في الخلافة الإسلامية.

وقد استمرت الحياة الأدبية في النمو والازدهار، على الرغم من انقسام الخلافة وضعفها.. ويرجع هذا الازدهار إلى تنافس الدول والإمارات الإسلامية في تشجيع الأدباء والشعراء وتمثلهم لبغداد وخلافة بغداد في العمل على إحاطة عروشهم بالمفكرين وأعلام الشعر والأدب.

النثر الأدبي

كان عبد الحميد الكاتب وابن المقفع من أشهر الكتاب الذين وضعوا أصول النثر الأدبي الفني في الأدب العربي. وكان عبد الحميد من كتاب الدولة الأموية، وشهد ابن المقفع جانباً من أول عصر الدولة العباسية، وخلفته طائفة من الكتاب تأثروا به تأثراً واضحاً بعيد المدى في تطور النثر الأدبي والكتابة الفنية، ومنهم يعقوب ابن داود وزير المهدي، وأبو الربيع محمد بن الليث الذي كتب للمهدي والهادي والرشيد، والقاسم بن صبيح، وسهل بن هرون^(٢) ١٧٥هـ ويحيى بن برمك، ثم ابنه: جعفر بن يحيى (١٤٢ - ١٨٧هـ) وأخوه الفضل (١٤٧ - ١٩٣هـ)، والحسن بن سهل^(٣) وأخوه الفضل^(٤) بن سهل ٢٠٢هـ^(٥) وأحمد بن يوسف^(٦) ٢١٢هـ، وعمرو بن مسعدة ٢١٤هـ^(٧)، والعتابي م ٢٢٠هـ^(٨)، ومحمد بن يزيد وزير المأمون^(٩)، وإبراهيم بن العباس الصولي ٢٤٣هـ.

(١) ١ / ١٥١.

(٢) راجع : ٥٥ / ١ البيان، ٢ / ٢٨٢ زهر، ٣ / ٢٦٠ زهر الآداب أيضاً. توفي ٢١٥ هـ كما في بروكلمان ٣: ٣٤، وفي الإعلام للزركلبي أن وفاته عام ١٧٣ هـ وراجع ١٨ : البخلاء تحقيق الجارم.

(٣) يشيد به الجاحظ (٨٤ ج ١ البيان)، وله كلمة يعرف بها أنواع الآداب ١٩٥ ج ١ زهر.

(٤) تبناد يحيى البرمكي وضمه إلى المأمون (٧٤ المكافأة) وأشا الحصري ببلاغته (١٦ - ١٩ ج ٧ زهر).

(٥) له ترجمة في الأوراق. قسم أخبار الشعراء (٢٠٦ - ٢٣٦) وكان عالي الطبقة في البلاغة ولم يكن في زمانه أكتب منه. وله شعر جيد (١٤٨ ج ٢ زهر)، وكان ممن نبّلوا بالكتابة (١١ ج ٣ العقد)، وهو أول من افتتح المكاتب في التهاني بالنيروز والمهرجان (٩٥ ج ١ ديوان المعاني).

(٦) ١٢٧ - ١٣١ : ١٦ معجم الأدباء لياقوت.

(٧) راجع ١٧٥ فهرست ابن النديم، ٣٥٢ معجم الشعراء.

(٨) راجع ٤٢٤ معجم الشعراء.

(٩) ص ٢ أدب الكاتب لابن قتيبة بهامش المثل السائر، ٤٢، ٤٣ رسائل الجاحظ حيث يقول الجاحظ : والناشيء من الكتاب إذا وطىء مقعد الرياسة يكون أول بدوه الطعن على القرآن في تأليفه وألا يرتضى من الكتب إلا

وفي القرن الثالث الهجري بلغ النثر الفني سرلة سامقة، وامتاز بسهولة العبارة وانتقاء الألفاظ وجودة الأسلوب، كما امتاز بحدودة المعاني واختراعها ودقة الأخيلة وابتداعها، وظهور آثار الثقافات الحديثة وخاصة اليونانية فيه، بل الاحتفال بها والطنن فيما سواها مما شكاه منه النقاد، ومال الكتاب إلى الإطناب حتى قال ابن قتيبة: "ولو كتب كاتب إلى أهل بلد في الدعاء إلى الطاعة والتحذير من المعصية كتاب يزيد بن الوليد إلى مروان "أما بعد فإنني أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى الخ" لم يعمل هذا الكلام في أنفسهم عمله في نفس مروان. ولكن الصواب أن يطيل ويكرر ويعيد ويبدىء ويحدر ويصدر"^(١) والاطناب مذهب فارسي حتى في الأساطير وكتابة التاريخ، ويقول ابن الأثير: "والعجم يفضلون العرب في الإطالة فإن شاعرهم يذكر كتاباً من أوله إلى آخره شعراً وهو شرح قصص وأحوال كما فعل الفردوسي في نظم الشاهنامه وهو في ستون ألف بيت من الشعر يشتمل على تاريخ الفرس. وهذا لا يوجد في اللغة العربية على اتساعها وتشعب فنونها"^(٢)، ولم يحفل الكتاب بالبديع، والتأنق الكثير في الأسلوب، ويعيب البديع الجاحظ بأن "كلامه بعيد الإشارات قريب العبارات قليل الاستعارات ليس له لفظة مصنوعة الخ"^(٣)، كما عابه الباقلاني بقرب كلامه وكثرة الاقتباس فيه^(٤).

وكان حامل لواء هذه الطريقة الجديدة إمام البيان الجاحظ، واقتدى به كتاب عصره كالصولي وابن الزيات والحسن وسليمان ابني وهب وسعيد بن حميد وأحمد ابن إسرائيل والحسن بن مخلد وابن المدبر وسواهم من الكتاب الذين نشأوا في هذا العصر وجمعوا بين الأدب والنقد والبلاغة العربية والدخيلة وقرأوا كتب الفرس واليونان والهند وظهر أثر ذلك في تفكيرهم وإنتاجهم الأدبية المتعددة الألوان.

آثر الجاحظ الطبع والبعد عن التكلف والتعقيد والحوشية والسوقية، كما آثر الوضوح وظهور الشخصية فيما يكتبه من رسائل أو مؤلفات، واحتال على نشاط القارئ بالفكاهة ومزج الجد بالهزل وبالاستطراد وبراعة الأسلوب وسحره، وبالرواية

المنطق الخ، ومثل ذلك يقول ابن قتيبة، وهذا ينفي رأي ابن الأثير من أن الكتاب والشعراء لم يتأثروا بنقافة اليونان (٢٠ المثل السائر).

^(١) راجع مقدمة أدب الكاتب.

^(٢) ٣٠٤ المثل السائر. وقد وجدت رسائل مطولة وكثيرة في هذا العصر كرسالة الخميس (١٠٧ - ١١١ ج ١٢ ابن طيفور مخطوط).

^(٣) ٨٢ مقامات البديع - المقامة الجاحظية - ٢٠٩٠ ج ٢ زهر

^(٤) راجع ١٩٤ إعجاز القرآن.

والنقد والتمحيص، والاطناب والانتباه العقلي والتغلغل الفكري ودقة الملاحظة والشرح والتحليل والتعمق.. وشمول الفكرة ونفوذها وإحاطتها بشتى جوانب الحياة أظهر سمات أسلوب الجاحظ، وهو مع ذلك متقد الحماسة للعرب والعربية، يفضل بلاغة العرب على كل بلاغة ويستشهد بكلمة العربي ويبت البدوى كما يستشهد بحكمة الحكيم ورأى المفكر. وفى إنشاء الجاحظ كثير من أساليب الخطابة والجدل. وكان من المعجبين بابن المقفع ونوه بذكره ولكنه لم يسلك مسلكه فى الأدب لأنه رأى أفق الأدب أوسع من أن يقصر على الحكم والمواعظ.

حقاً لقد كان الجاحظ فى سحر بلاغته^(١) وسمو أسلوبه وشخصيته البارزة فى كل فقرة من فقراته وثقافته الواسعة فى شتى آثاره الأدبية نسيج وحده وفريد عصره كما يقولون، ورسالته "التربيع والتدوير" وكتابه "الحيوان" من مظاهر ثقافته الواسعة العميقة. وإذا كان ابن المقفع إمام المنشئين فى عصر الترجمة؛ فالجاحظ إمامهم فى عصر التأليف.

وقد تأثر بأسلوب الجاحظ الأدباء الذين آلت إليهم الزعامة الأدبية بعده، كابن المدبر والحسن بن وهب وابن المعتز الخليفة العباسى الشاعر الأديب المشهور. وقد ذاع فى النثر فى هذا العهد ألوان كثيرة: كأدب التهكم والسخرية، والرسائل الإخوانية، والرسالة الأدبية، والتوقيع، والمقامة، والأدب الوصفى، وأدب الطبيعة وأدب القصة، وسوى ذلك من فنون النثر الأدبى فى هذا العصر الزاهر المتعدد الثقافات.

وقد ألفت فى هذا العصر كتب أدبية جامعة: كالبيان والتبيين، والحيوان للجاحظ وأدب الكاتب وعيون الأخبار لابن قتيبة، والكامل للمبرد. وكذلك وضعت أصول النقد والموازنة والبيان على يد الجاحظ وابن سلام وابن قتيبة وابن المعتز وقدامة بن جعفر وسواهم.. ولا عجب إذا قلنا إن النثر الأدبى قد بلغ غاية نهضته وعنفوان قوته فى هذا العصر الحافل.

ولئن امتاز العصر العباسى الأول بالجاحظ والعصر الثانى بالعديد من الكتاب ممن ذكرناهم، فإن العصر الثالث يتميز بظهور ابن العميد والصاحب بن عباد، وكان ابن العميد غاية فى علوم الدين واللغة ورواية شعار والفلسفة^(٢)، وكان الصاحب من ذبوع الشهرة وانتشار الصيت إلى حد بعيد، وكان يحتف به من نجوم الأرض وأفراد

^(١) يقول الجاحظ من رسالة له إلى ابن الزيات: نحن أعزك الله نسحر بالقول ونموه بالبيان (٢٩١ دلائل الإعجاز).

^(٢) يقول الجاحظ من رسالة له إلى ابن الزيات: نحن أعزك الله نسحر بالقول ونموه بالبيان (٢٩١ دلائل الإعجاز).

العصر، وأبناء الفضل، وفرسان الشعر، من أربوا في العدد على أدباء وشعراء الرشيد.. كما ظهر فيه كذلك البديع والخوارزمي وأبو الفرج البغاء والبستي والصابي والجرجاني صاحب الوساطة. والعسكري صاحب الصناعتين والأصبهاني صاحب الأغاني والثعالبي والحصري والميكالي. وعرف إلى جانبهم من فحول الشعراء من تصدو للكتابة، كالمتنبي الذي اتهمود بمعارضة القرآن. وكالشريف الرضى وينسب النقاد إليه كثيراً مما في نهج البلاغة. أشاه بقلمه، ونحله الإمام علي كما يقولون.

ويتميز العصر الرابع بظهور أبي محمد القاسم بن علي الحريري المتوفى عام ٥١٦ هـ صاحب المقامات، وكذلك الزمخشري والقاضي الفاضل م ٥٩٦ هـ صاحب الطريقة الأدبية المشهورة به، وعماد الدين الأصفهاني م ٥٩٧ هـ، وابن الأثير م ٦٣٧ هـ، والوطواط م ٥٧٣ هـ، وسواهم.

أعلام الكتاب وعلماء الأدب

نبغ كثير من الكتاب في هذا العصر ومن أعلامهم : محمد بن عبد الملك الزيات م ٢٣٣ هـ^(١)، وإبراهيم بن العباس الصولي م ٢٤٣ هـ^(٢)، وسعيد بن حميد ٢٦٠ هـ^(٣)، والحسن بن وهب^(٤) م ٢٦٥ هـ^(٥)، وسليمان بن وهب م ٢٧٢ هـ^(٦)، وأبو العباس أحمد بن محمد بن ثوابه الكاتب م ٢٧٧ هـ^(٧)، والمرثدي وكان يكتب للموفق^(٨)؛ ونطاحة الكاتب أحمد بن إسماعيل بن الخصيب الانباري كاتب عبيد الله بن عبد الله بن طاهر^(٩) وكان بينه وبين ابن المعتز مراسلات وجوابات^(١٠)، ومحمد بن مكرم الكاتب

(١) راجع : ١٧٧ فهرست، ٤٢٥ معجم الشعراء، ٣ / ٢٧٨ وما بعدها عصر المأمون، ١١ / ٢٧ وما بعدها الطبري، ٤ / ٣٩ مسعودي، ٤٣ الرسالة العذراء.

(٢) راجع : ٤ / ٥٦ مسعودي، ١٧٦ فهرست، ٩ / ٢١ الأغاني وما بعدها ١ / ٢٠٠ المفصل، ٢٠٨ الوسيط، ٢ / ٤٢ ثمرات الأوراق، ٩٩ خاص الخاص.

(٣) راجع : ١٧٩ فهرست، وفيات الأعيان ٥٤ - ٥٧ / ٢ / ١٣١٠، ١٧٧ ج ٤، ٤ / ١٢٢ زهر، ٤ / ٩١ المسعودي، ٤٢ / ٢ ثمرات الأوراق.

(٤) راجع : ١٧٧ فهرست، ٥٠٦ سمط الآلي، ٢٤٨ ابن الرومي للعقاد، ٣ / ٤٤ زهر، ٢٢١ - ٢٢٣ / ٣ معجم الأدباء.

(٥) وفي معجم الأدباء أنه ولد عام ١٨٦ هـ ومات في آخر خلافة المموكل.

(٦) راجع : ٢٤٩ ابن الرومي، ١٧٧ فهرست، ١٥٤ - ٧ / ١٦٠ مهذب الأغاني، ١ / ٥٠٦ سمط الآلي، ٤٨٥ معجم الشعراء، ٣٨٦ - ٣٨٨ / ١ وفيات الأعيان، ٣ / ٤٦ زهر، وفي المسعودي أن وفاته عام ٢٧٠ هـ / ٤ / ٢١٠ مروج الذهب.

(٧) ١٨٧ و ١٨٨ فهرست، ٣٦ - ٢ / ٥١ معجم الأدباء.

(٨) ١٨٧ فهرست، ١٦٠ أدب الكتاب للصولي.

(٩) توفي عبيد الله عام ٣٠٠ هـ.

(١٠) راجع : ١٨٠ فهرست، ٣٧٧ ج ١ معجم الأدباء، ويروي عنه الصولي كثيرا جدا في أدب الكتاب وله كتاب طبقات الكتاب.

م بعد ٢٨٢هـ^(١)، وإبراهيم بن المدبر م ٢٧٩هـ^(٢)، وابن طيفور (٢٠٤ - ٢٨٢هـ)، وعلى بن الحسن م بعد ٣١٠هـ وقد جاوز التسعين^(٣)، وعلى بن العباس النوبختي م ٣٢٧ عن سن عالية^(٤) وابن المعتزم ٢٩٦هـ؛ وأبو بكر محمد بن يحيى الصولي م ٣٣٦هـ^(٥) وهو الذي جمع ديوان ابن المعتز^(٦)، وأبو العباس أحمد بن عبيد الله بن عمار الكاتب م ٣١٤هـ^(٧) وحميد بن نصر الكاتب م ٣٠٠هـ^(٨)، وأبو الحسين جعفر بن محمد بن ثوبة الكاتب وكتب للقاسم^(٩) وأبو عبد الله محمد بن ثوبة الكاتب وكتب للمعتضد^(١٠).

واشتهر هذا العصر بأعلام ذائعة في الأدب العربي والتأليف فيه، ومنهم:

- أ - الجاحظ م ٢٥٥ هـ وله كثير من المؤلفات الخالدة منها البيان والحيوان.
 ب - أبو سعيد الحسن السكري النحوي م ٢٧٥ هـ وكان رواية البصريين وجمع أشعار الجاهلية والإسلام.
 ج - ابن قتيبة م ٢٧٦ هـ^(١١)، وله عيون الأخبار وأدب الكاتب والشعر والشعراء وكتاب الشراب.
 د - ابن أبي الدنيا عبد الله بن محمد م ٢٨١ هـ وكان مؤدب المكتفى وله كتب كثيرة^(١٢).
 هـ - ابن طيفور أحمد بن أبي طاهر تلميذ الجاحظ (٢٠٤ - ٢٨٢ هـ)^(١٣)، وله سرقات الشعراء وكتاب بغداد والجامع في الشعراء واختيار المنظوم والمنثور^(١٤).

(١) راجع ٤٤٤ معجم الشعراء.

(٢) ٤٥٣ معجم الشعراء، ٣٤٩ الموشح.

(٣) ٢٩٥ معجم الشعراء.

(٤) ٢٩٥ معجم الشعراء ١٤٥ ج ٢ زهر.

(٥) ٤٦٥ معجم الشعراء، ١٧٤ ج ٢ زيدان، ٣٤٣ - ٣٤٥ نزهة الالبا ومقدمة أدب الكتاب.

(٦) ١٧٥ ج ٢ زيدان.

(٧) ٢٥٢ ج ٤ تاريخ بغداد.

(٨) ٤٦٣ معجم الشعراء.

(٩) ٤١٧ ج ٢ معجم الأدباء، ١٨٨ فهرست.

(١٠) ١٨٨ فهرست.

(١١) ١١٥ وما بعدها، فهرست و٤٤٩ - ١/٤٥٠ وفيات الأعيان، ٢/١٧٠ وما بعدها زيدان.

(١٢) راجع ٢/١٧٢ زيدان.

(١٣) ٢٠٩ - ٢١٠ فهرست، ١٩٧ طبقات الشعراء لابن المعتز، و٣٥١ الموشح، ٤/٢١١ تاريخ بغداد، ١/١٥٢ معجم

الأدباء، ٤٨ و٩٣ و١/٩٤ ديوان المعاني.

(١٤) أربعة عشر جزءاً يوجد منه بدار الكتب ثلاثة أجزاء في مجلد مخطوط هي: الحادي عشر في بلاغات النساء وقد طبع منفرداً في مصر، والثاني عشر ويجمع قصائد ورسائل لا يوجد لها مثيل ومنها المعلقات. والثالث عشر ويجمع فصولاً من رسائل مختارة.

و منهم أبو العيناء محمد بن القاسم بن خلاد (١٩١ - ٢٨٣هـ^(١)).
 ز- أبو علي البصير الفضل بن جعفر بن يونس م ٢٥١هـ^(٢).
 ح - جحظة أبو الحسن أحمد بن جعفر البرمكي (٢٢٤ - ٣٢٦هـ^(٣)).
 ط - ومنهم ابن المعتز م ٢٩٦ هـ، وأبو خليفة الفضل بن الحباب الحمصي م ٣٠٥هـ^(٤).
 وقدامة م ٣٣٧هـ، والوشاء أبو الطيب محمد بن أحمد م ٣٣١هـ، ويموت بن
 المزرع م بعد ٣٠٠ هـ وهو ابن أخت الجاحظ^(٥). وغيرهم من جلة الأدباء وأئمة
 علماء الأدب.

ولقد كانت مصادر الثقافة الأدبية في هذا العصر كثيرة متعددة ومن أهمها:

أ - القرآن والحديث والكتب المؤلفة حولهما، مما يتصل بالأدب والدين كمجاز
 القرآن لأبي عبيدة وإعجاز القرآن للجاحظ والإعجاز لمحمد بن يزيد الواسطي م
 ٣٠٦هـ^(٦).

ب- خطب الخطباء وحكم الحكماء ورسائل الأدباء.

ج - كتب التاريخ التي جمعها أو ألفها المؤرخون في هذا العصر والذي سبقه، كابن
 اسحاق وابن هشام والبلاذري واليعقوبي والطبري وسواهم.

د - كتب السياسة التي تأثرت بآثار الفرس أو كانت مترجمة من ثقافتهم ومنها: كليلة
 ودمنة والأدب الصغير^(٧) والأدب الكبير والدرة^(٨) اليتمية ورسالة الصحابة^(٩) لابن
 المقفع وهي تصوير لسياسة الدولة وحاشية السلطان وأعوانه وحنده، ومنها رسالة

^(١) ١٨١ فهرست، ٤/١٧٠ مسعودي، ٤٤٨ معجم الشعراء، ٣٢١-٣٢٤/٢ وفيات الأعيان، ٣١٦ و٣٢٢-٣٣٠ و٣٣٢/
 ١ زهر، ٢٦٥ - ٢٧٠ نكت الهميان، ٣/١٧٠ تاريخ بغداد، ٢/١٨٠ شذرات الذهب، ٧/٦١ معجم الأدباء، ١٤٥ /
 ٣ سمط اللآلي، ٢١٨ - ١/٢٢١ أمالي المرتضى، ١٩٦ طبقات الشعر لابن المعتز.

^(٢) ٢/٩٦ زهر، ٤/٩٢ مسعودي، ٣١٤ معجم الشعراء، ١٨٨ طبقات الشعراء لابن المعتز، ١٧٨ فهرست، ١/٢٧٦ سمط
 اللآلي.

^(٣) ٢٠٨ فهرست، ١٥٧ و١٥٨/٢ زهر.

^(٤) ١٦٥ فهرست، ٣/٢٥٣ زهر.

^(٥) ٥١٠ معجم الشعراء، ١٣٦ ج ٤ مسعودي.

^(٦) ولعبد القاهر الجرجاني شرح عليه (١/٩٤ كشف الظنون).

^(٧) تجده في رسائل البلغاء ١٧ - ٥٤، وطبع مستقلا عام ١٩١١.

^(٨) ٥٥ - ٥٤ المرجع.

^(٩) تجدها في رسائل البلغاء ١٢٠ - ١٣١.

ظاهر بن الحسين في السياسة وقد أرسلها إلى ابنه عبد الله^(١)، ومشاورة المهدي لأهل بيته في خراسان^(٢).

هـ - كتب الأدب الجامعة، كالبيان وعيون الأخبار والكامل.

و - كتب البيان والنقد والكتابة، ومنها كتاب الفصاحة للسجستاني وللدینوری^(٣)، وكتاب البلاغة للمبرد^(٤)، وقواعد الشعر للمبرد ولثعلب، وأسرار البلاغة في الكتابة لقدامة^(٥) ونقد الشعر ونقد النثر له أيضاً، وكتاب البديع لابن المعتز، وكتاب الصناعة لأبي جعفر أحمد بن محمد النحاس م ٣٣٨هـ^(٦) والرسالة العذراء لابن المدبر م ٢٧٩هـ^(٧)؛ ومنها أدب الكتاب للصولي، ورسائل الأدباء في النقد كرسالة ابن المعتز في أبي تمام.

ز - كتب الشعر، ومنها مجموعات في أشعار القبائل والأفراد ومنها المفضليات وحماسة أبي تمام وحماسة البحري ودواوين الشعراء والكتب المؤلفة في طبقاتهم. وكذلك كتاب الأمالي للقالی م ٣٥٦هـ، وكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهانی م ٣٥٦هـ، وكتاب العقد الفريد لابن عبد ربه م ٣٢٨هـ، وكتاب زهر الآداب للحصري م ٤٥٣هـ، ویتيمة الدهر للثعالبي م ٤٢٩هـ، والمثل السائر لابن الأثير م ٦٣٧هـ. وسواها من مئات المصادر في الأدب والشعر.

^(١) تجدها في ١٥١ - ١٥٤ الإدارة الإسلامية، ١٠٨ - ١١٧ / ٢ تاريخ آداب اللغة لمحمد بك دياب، ١٨٦ وما بعدها من المطالعة التوجيهية.

^(٢) تجدها في ٩٥ - ١٠٧ / ١ العقد؛ وقد أمر المهدي محمد بن الليث بحفظ مراجعتهم وإثبات مقالاتهم في كتاب (١ / ٩٥) العقد) وكتبت عام ١٧٠ (١ / ١٠٧) العقد).

^(٣) ٢ / ١٦٠ كشف الظنون.

^(٤) ٨٨ فهرست.

^(٥) ١ / ٤٧٠ كشف.

^(٦) ٢ / ١٥٤ كشف.

^(٧) تجدها في ١٧٦ - ١٩٣ رسائل البلغاء ونشرها مستقلة عام ١٩٣٠ زكي مبارك.

القسم الثالث

الشعر العربي

كان الشعر الجاهلي غنائياً يفيض من القلب ويصور عاطفة الشاعر وشعوره، وكان ضخماً الألفاظ، قوى الأسلوب، متعدد الأوزان والقوافي، معانيه فطرية مستمدة من صحيفة الحياة ومشاهد البيئة.

فلما جاء الإسلام ظل الشعر على حالته، أسر لفظ، وجزالة عبارة، وطريقة أداء، ولكن أغراضه تغيرت بتأثير الحياة الجديدة، ومعانيه استحكمت وألفاظه عذبت بتأثير القرآن وبلاغة الرسول.

وبابتداء القرن الثاني بدأ عهد جديد في الشعر العربي كان له أثره في شتى نواحيه الفنية. وظهر هذا الأثر على أيدي المخضرمين الذين عاصروا الدولتين الأموية والعباسية، كما ظهر منذ أواخر القرن الثاني الهجري على أيدي المحدثين - أو المولدين - الذين نشأوا في العصر العباسي، وتأثروا بالحياة الاجتماعية والفكرية التي كانت تسود فيه.

سار الشعر بخطوات كبيرة على يد بشار زعيم المحدثين، وعلى أيدي زعماء مدرسته الأدبية كأبي نواس ومسلم وغيرهما من الشعراء، وظلت هذه النهضة الفنية تزدهر حتى آتت أكلها في العصر الثاني.

وقد كان أبو تمام آخر من شهدهم العصر الأول من أمراء القريض، ولكن مدرسته الشعرية ظلت مسيطرة على دولة الشعر طول العصر الثاني كله، وهي التي وجهته توجيهاً جديداً يجمع بين فن بشار ومدرسته، والآثار العقلية والاجتماعية والأدبية التي سادت العصر الثاني وذاعت فيه، مما خلق نهضة فنية لم يشهدها الشعر طول العصور الأدبية جميعها.

حدث تغيير واسع في تفكير الشاعر العباسي وعقله، فامتازت معاني الشعر بدقة التصور، واستنباط الدقيق والجديد من الآراء والأفكار، وبالإكثار من ضرب المثل واستخدام الآراء الفلسفية والبراهين والأقيسة العقلية، وبتحميص الأفكار وترتيب العناصر. وأخذ المنطق يتغلغل في الصياغة الذهنية، حتى لتجد القصيدة عند أبي تمام محكمة الأجزاء والعناصر والترتيب، وتبعه في ذلك كثير من الشعراء.. وأكثر الشعراء من الإبداع في التصوير والخيال والإغراق فيه، وتركيب التشبيهات والاستعارات والأوصاف، في جنوح إلى المبالغة والإغراق والغلو والاستقصاء والتغلغل في دقائق الأغراض والخيالات. وانصرف الشعراء عن المعاني البدوية أو الحضرية المتأثرة بالبداءة إلى معانٍ حضرية صرفة. وبعد أن كان الشعر مرآة للطبع الخالص،

أصبح في هذا العصر لا يصدر إلا بعد أن يسيطر عليه العقل وآثار التفكير؛ وندر في هذا العصر من خلا شعره من آثار الحضارة العقلية؛ فمن لم تظهر في شعره المعاني الفلسفية والآراء الطريفة التي سرت إلى المتأدبين من مذاكرة علم الكلام والعلوم المترجمة وخاصة الفلسفية؛ ظهرت فيه محسنات اللفظ والمعنى، وتفخيمات الفرس ومبالغاتهم، ولا بدع في ذلك فأكثر الشعراء في هذا العصر كانوا رضاع أديين ونشء حضارتين وولدان جنسيتين، مما كان له صداه في أخيلة الشعراء وتصوراتهم وتأديتهم للمعاني، ولهذا اللقاح من الأثر في الفكر والعقل ما يعلل لك وفرة المعاني الجديدة ودقة النظر ولطف الأخذ لها، "فالمحدثون أكثر ابتداءً للمعاني وألطف مأخذًا وأدق نظرًا، لأنهم عظم الملك الإسلامي في زمانهم ورأوا مالم يره المتقدمون"^(١). ومعاني الشعر في هذا العصر: إما معان قديمة تناولها الشعراء فأحسنوا غالبًا صوغها وزادوا فيها، وإما معان جديدة استقل المحدثون بابتداعها، وإذا كان للمتقدمين متانة التعبير وصحة الأداء والسلامة من قصور الملكة، فإن للمحدثين مزية^(٢) المعنى والتحليق في سماء الخيال واتساق الفكر؛ وشاعت في أشعارهم تلك الحكمة التي اشتهر بها صالح بن عبد القدوس وأبو العتاهية وأبو تمام وسواهم من الشعراء؛ وللمروزي أحمد بن محمد مزدوجة ترجم فيها أمثال الفرس^(٣). وكان المرزوي مولعًا بنقل الأمثال الفارسية إلى العربية^(٤) وللأنبوردى قصيدة ترجم فيها أمثال الفرس^(٥) واشتهر على بن جور الفارسي - وكان ذا علم بالنجوم - بإدخالها في شعره^(٦).. والحكمة اليونانية صاروا يدخلونها في الشعر.

يقول الشاعر^(٧):

والفقر في أوطاننا غربة والمال في الغربة أوطان

وهو نظم لحكمة أرسطو: "المال في الغربة وطن، والمقل في أهله

غريب"^(٨).

^(١) المثل السائر ص ١٣٦.

^(٢) ويرى ابن جنى أن المولدين يستشهد بهم في المعاني (٢/٢٢٤ العمدة).

^(٣) كان أكثر شعره في الزهد والأمثال (١٢٢ جزء ١ الأغاني، ٢٣٨ جزء ١ الكامل).

^(٤) اليتيمة ص ٨٣ ج ٤، والكشكول ص ١٢٣ و ١٢٤ اليتيمة ص ٨٤ ج ٤.

^(٥) اليتيمة ص ٨٦ ج ٤.

^(٦) معجم الشعراء ص ٢٩٣.

^(٧) رسالة الغفران ٢٠٣.

^(٨) وهي في البديع لابن المعتز برواية أخرى منسوبة لمسلمة بن عبد الملك (٧٦ البديع).

وفنون الشعر وأغراضه القديمة من مدح وهجاء وفخر ورتاء ووصف وغزل بالمؤنث وزهد وحكمة ومثل، نظم فيها الشعراء ولكنهم أكثرها منها وافتنوا فيها وصبغوها بصبغة تكاد تكون جديدة مبتكرة، فقد جدد التلقيح العقلي نماذج هذه الأغراض الشعرية، وأحدث ألواناً من ضروب الرقي الفني غير كثيراً من جوانبها القديمة.

ونظموا مع ذلك في أغراض جديدة خلقتها البيئة وآثار الحضارة والحياة في العصر العباسي، فشاع فيه المجون والغزل بالمذكر^(١) ووصف الخمر وتصوير الطبيعة ووصف الصيد والطرود ونظم الشعر في تأديب النفس وتهذيب النشء بنظم القصص كما فعل أبان وسواه من الشعراء، وضبط قواعد العلوم ونظم التاريخ كما فعل ابن المعتز في أرجوزته في المعتضد وسواه من الشعراء، ونظموه في وصف المصلوبين وهجاء المغنين والاثام بالأبنة والدم بالرشوة ووصف شتى ألوان الطعام، وفي التصوف الذي أكثر منه الزهاد والمتصوفون، وفي الوعظ والأخلاق وفي شتى الأغراض وجديدها؛ ونظموه في العلوم والثقافات والمعارف الجديدة ولأبي القاسم الرومي من شعراء تونس قصيدة طويلة يتهم فيها بالتنجيم والمنجمين^(٢).

وكان للغناء والحضارة والترف أثر في التجديد في أوزان الشعر وقوافيه، فأخذوا يلائمون بين الموضوعات والأوزان والقوافي^(٣) وزهدوا في الأوزان الطويلة وآثروا عليها الأوزان السهلة الخفيفة القصيرة، بل إنهم جددوا أوزاناً لم يسبقهم إليها المتقدمون، ونظموا على الأوزان التي لم تنظم منها العرب إلا قليلاً كالمضارع والمقتضب والمجتث، وأكثروا من نظم المخمسات والمزدوجات، ونظم عليها بشار عبثاً واستهتاراً بالشعر^(٤) وصنع ابن المعتز أرجوزة في ذم الصبوح وأرجوزة في سيرة المعتضد، واشتهر بالتخميس ابن وكيع والأمير تميم^(٥)، ونظموا الدوبيت والسلسلة والموالي والزجل وقوماً وكان وكان، والموشح، وبسروا على أنفسهم في القوافي

(١) نشأ هذا الفن على يد حماد ووالبة وأبي نواس والحسين بن الضحاك والبحترى وسواهم من الشعراء وإذا كان أبو نواس وحده أو مع فئة قليلة قد نظموا فيه في العصر الأول فقد كان أكثر الشعراء في العصر الثاني يطرقون هذا الباب ولم يبق شاعر في بغداد إلا واشتهر بغلام يعشقه ويتغزل فيه. وهو من مذاهب الفرس ومن نشأ في العرب من أصول فارسية، وينفى الجاحظ أن يكون الغزل بالمذكر مذهب العرب في أديهم (٤١٧ و ٤١٨ : ٢ : أمراء البيان لكردي علي).

(٢) ٥٢٣ و ٥٢٤ المقدمة لابن خلدون ط القاهرة - المكتبة التجارية.

(٣) راجع ٩ الكف عن مساويء شعر المتنبي.

(٤) العمدة ج ١ ص ١٥٧.

(٥) العمدة ج ١ ص ١٥٨.

فاختاروا أيسر الألفاظ وأسهلها وأحبها إلى السمع، وتجنبوا عيوب القافية؛ كل ذلك حرصاً على مسابرة الشعر للحضارة والغناء ومحاولة لنشره بين شتى الطبقات.

أما في أسلوب الشعر: فقد حافظ الشعراء على عربيته، وإن كان بعض الشعراء قد أدخلوا فيه بعض الألفاظ الفارسية دون تعريب أو معربة مصقولة، كما فعل أبو نواس وابن المعتز وسواهما من الشعراء ومن قبل كان الأعشى وأمية ابن أبي الصلت وكذلك يزيد ابن مفرغ وأسود بن أبي كريمة^(١). وقد حاولت بعض العناصر الفارسية إحياء أدبهم القومي ونظم الشعر بلغتهم الفارسية. ويروى أنه قدمت للمأمون حين دخوله "مرو" قصيدة فارسية نظمها شاعر يدعى عباس ويقول الشاعر في القصيدة إنه لم ينظم أحد بهذه اللغة قبله وقد يكون هو عباس ابن طرخان الذي نقل ابن خرداذبة في كتابه الجغرافيا شعراً فارسياً له ولكن لغة القصيدة تدعو إلى الشك في نسبتها لذلك العهد^(٢)، وكان هناك شاعر آخر هو محمد ابن البعيث كان يكتب أشعاره بالعربية والفارسية^(٣)، وكذلك الأمر في النثر فقد كان مسوى الأسواري يقص بالفارسية والعربية^(٤).

وقد ظهر أثر الحضارة وسلامة الذوق في تخير ألفاظ الشعر وأساليبه لاستعمال الروية وقلة الارتحال والأنحاء عليه بالتهذيب والميل به إلى جانب الرقة والسلاسة مع بقاء جزالته وفخامة عبارته في غير الهزل والمجون وفي الموضوعات التي تتطلبها، وانتقل ذوق الزخرف والترف من الحياة العامة إلى الحياة الفنية الخاصة فتجلت الدقة في انتقاء الألفاظ العذبة الممثلة للمعنى أتم تمثيل وظهر التكلف في صوغ العبارات والأساليب. ودعا النقاد كالجاحظ وسواه إلى إيثار ما لم يكن من الألفاظ ساقطاً سوقياً ولا مستكرهاً وحشياً وإلى هجر الغريب والخشونة وإيثار الجمال الفني من وضوح العبارة وجمال الابتداء وحسن التخلص والانتهاء. وقد استعملوا بعض الألفاظ الكلامية واقتبسوا في الشعر من كتب الله العزيز، وقصدوا البديع وألوان الزخرف الفني قصداً يوشون به شعرهم. فقل حظ الشعر من اليسر، وبعد عهده بالبداءة. وكثر حظه من التكلف الفني، وأصبح أثراً من آثار الصناعة بعد أن كان وليد الطبع والفطرة الحرة المطلقة. وبذلك أصبح الشعر فناً حقاً يسير الشاعر فيه وراء الترف والجمال، من حيث لم يكن الشاعر الجاهلي أو الإسلامي عادة صاحب فن،

(١) البيان والتبيين ص ١٠٩ ج ١.

(٢) الحضارة الإسلامية لبارتولد ص ٦٨.

(٣) الحضارة الإسلامية لبارتولد ص ٦٩.

(٤) البيان ص ٢٣٤ ج ١.

بل كان الطبع قويا فيه. وما يقال عن زهير والحطيئة وطفيل الغنوي من أنهم كانوا أصحاب روية وأناة ليس معناه الصنعة أو التكلف الذي نراه عند المحدثين^(١) فالمثل الأعلى للشعر عند القدماء ما جرى على السليقة والفطرة وما أوحى به إليهم حياتهم من المعاني. فأما عند المحدثين ففي العناية بالزخرف والتنميق^(٢)، فلم تكن العرب تعباً بالتجنيس والمطابقة ولا تحفل بالإبداع والاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر، فلما أقضى الشعر إلى المحدثين ورأوا مواقع تلك الألوان من الغرابة والحسن تكلفوا الاحتذاء عليها وسموها البديع^(٣). ومع ذلك فقد كان هناك مذهب في الشعر يعتمد الإغراب والغرابة والألفاظ الجاهلية وفي هؤلاء يقول ابن رشيقي :

لعن الله صنعة الشعر ماذا من صنوف الجهال منه لقينا
يؤثرون الغريب منه عليها كان سهلا للسامعين مبينا
ويرون المحال معني صحيحاً وحسيس الكلام شيئا ثمينا

وقد حاول بعض المحدثين التجديد في بناء القصيدة وأغراضها، فدعوا إلى ترك الأطلال ومساءلتها في مبادئ القصيد؛ كما فعل أبو نواس ومطيع وابن المعتز، وسواهم من الشعراء، ويقول أبو نواس :

صفة الطلول بلاغة القدم فاجعل صفاتك لابنة الكرم

ولكن ابن قتيبة لم يرض عن ذلك، ودعا إلى الاحتفاظ بمنهج القصيدة الموروثة^(٤). ولكن ابن رشيقي لم يرض عن ذلك المنهج والاتجاه، ورأى أنه "لا معنى لذكر الحضري الديار إلا مجازاً"^(٥)، "الرغبة الناس في الوقت عن تلك الصفات، وعلمهم بأن الشاعر إنما يتكلفها، والأولى في هذا الوقت صفات الخمر والقيان"^(٦).

أما المذاهب الأدبية العامة في فن الشعر في القرن الثالث الهجري وما بعده فيمكن إرجاعها إلى مذهبين:

فطائفة من الشعراء قد احتذت حذو القدماء، فهي لا تسير في سبيل التجديد الفني في الشعر إلا بمقدار ما يتلاءم مع الروح العربية، فظلت على النهج

(١) ويجعل صاحب الأدب الجاهلي مدرسة مسلم وأبي تمام وسواهما من المصننين امتداداً لمدرسة زهير والحطيئة (٢٨٨ الأدب الجاهلي).

(٢) تاريخ النقد الأدبي عند العرب ص ٩٩ وما بعدها.

(٣) راجع ٣٨ الوساطة.

(٤) راجع ١٤ و ١٥ الشعر والشعراء، والعمدة ج ١ ص ١٩٧.

(٥) العمدة ج ١ ص ١٩٩.

(٦) العمدة ج ٢ ص ٢٧٩.

والصياغة القديمة، ومنهج : أشجع، ومروان بن أبي حفصة م ١٨٢هـ، ودعبل م ٢٤٦هـ،
وعلى بن الجهم م ٢٤٩هـ، والبحترى م ٢٨٤هـ، وسواهم.

وطائفة مالت إلى التجديد : كبشار م ١٦٧هـ، وأبي نواس ١٤٥ - ١٩٩هـ،
والعتابي م ٢٢٠هـ، ومسلم ٢٠٨هـ، وأبي تمام م ٢٣١هـ، وابن الرومي ٢٨٣هـ وابن
المعتر ٢٩٦هـ.

ويرجع ذلك إلى التفاوت بين الشعراء في الثقافة والتفكير والعقلىة :

فالطائفة الأولى تثقفت بالثقافة العربية وحدها فسارت في مذاهب الشعر
وفنه وأخيلته ومعانيه على المنهج القديم.

والطائفة الثانية تثقفت بالثقافة العربية وبالثقافات الحديثة ودعت إلى أن
يكون الشعر فنا يعبر عن هذه الثقافات جميعا ويوزن أسلوبه بميزان العقل والمنطق
الدقيق.

وكان بين الطبقتين نضال أدبي واسع تمثله المعركة الأدبية التي نشبت
بين البحترى وعبيد الله بن عبد الله بن طاهر م ٣٠٠هـ والتي نجد أخبارها في
المعارضات التي قامت بين الشاعرين^(١)، وفيها يقول البحترى :

كلفتُمونا حدود مننطقكم	فى الشعر يغنى عن صدقه كذبه
ولم يكن ذو القروح يلهج بالمنطق	ما نوعه وما سببه
والشعر لمح تكفى إشارته	وليس بالهذر طولت خطبه

وقبل ذلك قال أبو تمام فى الحسن بن وهب :

لم يتبع شنع الكلام ولا مشى	مشى المقيد فى حدود المنطق
فى هذه خبث الكلام وهذه	كالسور مضروبا له والخندق

وكذلك انقسم نقاد الأدب وعلماءه طبقات:

١- فطائفة من النقاد تقف إعجابها وتقديرها على الشعر القديم، وتزرى بشعر
المحدثين وفنهم لما فيه من إسفاف وإغراق وإحالة ونقص طبع وتفاوت نفس
وتباين ملكات، - وهم علماء الأدب واللغة الذين تثقفوا ثقافة أدبية وعربية خالصة
ولم يتزودوا بزاد آخر من الثقافات الحديثة.

^(١) راجع هذه المعارضات فى ديوان البحترى ٣٢-١/٣٨.

ومن هؤلاء: أبو عمرو بن العلاء م ١٥٤هـ وكان أعلم الناس بالعربية وجلس إليه الأصمعي عشر سنين فما سمعه يحتج ببيت إسلامي^(١) وكان يقيم الموازنة بين الشعراء على أساس عصورهم، لا على أساس شعرهم حتى قال: "لو أدرك الأخطل يوماً واحداً من الجاهلية ما قدمت عليه أحداً"^(٢)، وكان لا يعد الشعر إلا ما كان للمتقدمين وسئل عن المولدين فقال: ما كان من حسن فقد سبقوا إليه وما كان من قبيح فهو من عندهم^(٣)، وكان كما يقول ابن سلام في طبقات الشعراء: أشد الناس تسليماً للعرب.

ومنهم ابن الأعرابي م ٢٣١هـ، وكان يزري بأشعار المحدثين ويشيد بشعر القدماء^(٤)، فكان يقول في شعر أبي تمام: "إن كان هذا شعراً فكلام العرب باطل" وأنشده^(٥) ابن الطوسي أرجوزه لأبي تمام على أنها لبعض شعراء هذيل فاستحسنها وكتبها فلما علم أنها لحبيب قال خرقوها، وكان ابن الأعرابي يعيب شعر أبي نواس فأنشده رجل شعراً له وهو لا يعرف قائله فأعجب به إعجاباً شديداً وكتبه فاما علم أنه لأبي نواس أنكره^(٦)؛ وكان يستشهد في كتابه النوادر بكثير من أشعار المحدثين ولعله لو علم بذلك ما فعله^(٧)؛ وكان يقول: ختم الشعر بابن هرمة^(٨)؛ وكان الأصمعي يقول: ختم الشعر بالرماح^(٩)، وقال: بشار خاتمة الشعراء والله لولا أن أيامه تأخرت لفضلته على كثير منهم^(١٠)؛ وكان أبو حاتم يعيب شعر أبي تمام^(١١).

ومنهم اسحاق الموصلي الذي كان في كل أحواله ينصر الأوائل، وكان شديد العصبية لهم^(١٢) فتعصب على أبي نواس^(١٣)، وطعن على أبي العتاهية^(١٤)، وكان

(١) الشعر والشعراء ص ٧، البيان والتبيين ١/٢٠٩، العمدة ٧٣ ج ١.

(٢) تاريخ النقد الأدبي عند العرب ص ١٠٥.

(٣) العمدة ٧٣ ج ١.

(٤) الموازنة ٨، الموشح ٣٠١: أخبار أبي تمام ٢٤٤.

(٥) التصحيف والتحريف ٨٥، المثل السائر ٣١٥، أخبار أبي تمام ١٧٥، ص ٤٥ وما بعدها من الصانعين، رسائل ابن المعتز ١٣: الموازنة ١٠، وراجع ٥٠ وما بعدها من الوساطة.

(٦) راجع ٢٨٩ ج ١ زهر.

(٧) أخبار أبي تمام للصولي ١٧٧.

(٨) العمدة ٧٣ ج ١.

(٩) البيان ١٩٧ ج ٣.

(١٠) الأغاني ٢٣ ج ٣.

(١١) الموشح ٣٠٤.

(١٢) أخبار أبي تمام ٢٢١.

(١٣) راجع ٢٦٣ و ٢٦٤ من الموشح: الأغاني ٢٨ ج ٣.

(١٤) موشح ٢٥٨.

لا يعتد بشار ويقدم مرواأا عليه^(١)، وسمع أبا تمام ينشد شعراً له فقال : يا هذا لقد شددت على نفسك^(٢)، ومع ذلك فقد كان إنتاجه الأدبي لا يرضى طبقة النقاد التي احتذى حذوها وذلك لأنهم يرونه محدثاً كما فعل الأصمعي معه حين استحسنت بيتين أنشدهما اسحاق له فلما علم أن اسحاق صاحبهما عابهما^(٣)، ولم يكن تعصب اسحاق للقدماء في الأدب وحده بل كان كذلك في الغناء أيضاً فكان زعيم طائفة تنكر تغيير الغناء القديم وتعظم الإقدام عليه^(٤).

وكان المأمون - رغم ثقافته الواسعة - يتعصب للأوائل من الشعراء ويقول انفضى الشعر مع ملك بني أمية^(٥)؛ ودخل عليه أبو تمام في زى أعرابي فأنشده فجعل المأمون يتعجب من غريب ما يأتي به فلما انتهى إلى قوله:

هن الحمام فإن كسرت عيافة من حاننهن فإنهن حمام

فقال المأمون : الله أكبر كنت يا هذا قد خلطت على الأمر منذ اليوم وكنت حسبك بدويًا ثم تأملت معاني شعرك فإذا هي معاني الحضريين وإذا أنت منهم ففض به ذلك عنده^(٦).

ومثل ذلك التعصب للقديم موجود في الآداب الأخرى؛ فقد كان هوراس الشاعر الروماني يرى أن شعراء اليونان هم النماذج التي يجب أن تدرس ليلاً ونهاراً، فإن الشعر ينبغي أن ينظم كما كانوا ينظمونه^(٧).

واعتذر الباقلائي عنهم بأنهم إنما كانوا يميلون إلى الذي يجمع الغريب والمعاني^(٨)، واعتذر ابن رشيق بحاجتهم إلى الشاهد وقلّة ثقتهم بما يأتي به المولدون^(٩).

ب- وطائفة أخرى من النقاد حكموا الذوق الأدبي وحده في الشعر وحكموا بالفضل لمن يستحقه جاهلياً كان أو إسلامياً أو محدثاً كالجاحظ وابن قتيبة

(١) الأغاني ٢٨ ج ٣.

(٢) الموازنة وتروى برواية أخرى (٣٢٧ الموشح).

(٣) الوساطة ٥٠، الموازنة ١٠.

(٤) الأغاني ٣٥ ج ٩.

(٥) ديوان المعاني ٣٦٢ ج ١.

(٦) ديوان المعاني ١٢٠ ج ٢.

(٧) قواعد النقد الأدبي ص ١٤٤ وما بعدها.

(٨) إعجاز القرآن ١٠٠.

(٩) العمدة ٧٣ ج ١.

والمبرد وابن رشيق^(١)، ونقد ابن المعتز تعصب العلماء على المحدثين لغير سبب^(٢) وفضل، خلف لامية مروان على لامية الأعشى^(٣)، ويشرح الجرجاني والباقلاني مذهبهم في النقد^(٤).

ج- وطائفة أخرى حكمت الثقافات الحديثة في النقد كما فعل قدامة في نقد الشعر ومناهجه ولاسيما بعد اطلاعهم على ترجمة كتاب أرسطو في نقد الشعر الذي نقله أبو بشر من السريانية إلى العربية^(٥).

ولاختلاف مناهج النقاد في نقد الشعر كان الشعراء يتشددون في طلب العدالة الأدبية من النقاد حين يعرضون ما نظموه من شعر عليهم كما فعل ابن منذر م ١٩٨ هـ، فقد أنشد أبا عبيدة قصيدته في رثاء عبد المجيد بن عبد الوهاب الثقفي^(٦):
كل حي لاقى الحمام فمودى ما لحي مؤمل من خلود

وهي التي عارض بها قصيدة أبي^(٣) زيد الطائي:
إن طول الحياة غير سعور وضلال تأميل طول الخلود

فقال له: احكم بين القصيدتين واتق الله ولا تقل ذاك متقادم الزمان وهذا محدث متأخر، ولكن انظر إلى الشعرين واحكم لأفصحهما وأجودهما^(٨).

وفي العصر الثاني كف الخلفاء عن شد أزر الشعراء بالصلات، لغلبة الترك على أمور الدولة وضعف الخلفاء واضطراب الحياة السياسية، ولأن الدعاية السياسية خرجت كلها أو جلها من أيدي الشعراء إلى أيدي الكتاب والدعاة.. ولتوزع العناية بين الشعر والعلوم الحديثة، وكثرة الشعر والشعراء، ولغلبة المنادمة على الشعر مما رجح صفة النديم على صفة الشاعر، ولقلة المبالاة بالمدح والدم حين استبحر العمران وشاعت الإباحة والمجون.. فلم يعد الشعر طريقا إلى الحياة، ووسيلة للعيش، كما كان في العصر الأول، الذي أغدق فيه الخلفاء والوزراء والأمراء على الشعراء بأنفس الجوائز والصلات^(٩).

(١) الحيوان ٤٠ ج ٣، الشعر والشعراء ٧ و ٨، الكامل ١٨ ج ١، العمدة ٢٤ ج ١.

(٢) أخبار أبي تمام ١٢٥ وما بعدها، رسائل ابن المعتز ١٤.

(٣) العقد ص ٤٠٢ ج ٣.

(٤) الوساطة ٣٧ وما بعدها، إعجاز القرآن ١٠٠.

(٥) زيدان ١٥٧ ج ٢.

(٦) راجعها في الكامل للمبرد ٢٨٨ و ٢٩٠ ج ٢، والمبرد شديد الإعجاب بها (٢٨٨ ج ٢ الكامل).

(٧) راجعها في (٢٨٦ وما بعدها جمهرة أشعار العرب).

(٨) طبقات الشعراء لابن المعتز.

(٩) راجع أصفاد الملوك على المدح في ١٥٨ - ١٦١ ج ١ العقد الفريد.

وكان من رواة الشعر العربي طبقة من العلماء من البصريين والكوفيين والبغداديين، الذين كانوا يروونه إشباعاً لنهم فطريهم وأذواقهم الأدبية العربية الخالصة، من أمثال: خلف والأصمعي وأبي عبدة وأبي زيد ويحيى بن نجيم وعمرو بن كركرة وابن سلام، وأستاذهم أبو عمرو بن العلاء أعلم الناس بالعرب والعربية^(١) ومن عامة رواة الأدب والبيان الذين لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة والمعاني المنتخبة، وعلى الألفاظ العذبة والمخارج السهلة والديباجة الكريمة، وعلى الطبع المتمكن والسبك الجيد، وعلى كل كلام له ماء ورونق، وعلى المعاني التي إذا صارت في الصدور عمرتها وفتحت للسان باب البلاغة - كما يقول الجاحظ - دون النحويين الذين ليس لهم غاية إلا كل شعر فيه إعراب، والأخباريين الذين لا يقفون إلا على كل شعر فيه الشاهد والمثل، واللغويين الذين لا يروون إلا كل شعر فيه غريب^(٢). وبجوار هذه الطبقة الشعراء الذين طارت شهرتهم في آفاق الأدب العربي أمثال ابن هرمة وبشار وصالح ابن عبد القدوس وأبي نواس وأبي العتاهية والسيد الحميري وأبان اللاحق ومنصور النمرى وسلم الخاسر وابن أبي عيينة ويحيى بن نوفل وخلف بن خليفة ومحمد بن يسير والعتابي ومسلم وأبي تمام^(٣)، وغيرهم من رجال الأدب والبيان، من بيت بنى هاشم وبنى العباس ومن رجال الفرق الأدبية والسياسية والدينية لاسيما المعتزلة وفرق المتكلمين الذين رأهم الجاحظ فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء^(٤).

ومهما كان فإن التجديد الشعري في العصر العباسي لم يتعد في الأغلب صناعة الشعر وأنه منحصر في الوجداني منه، وهو يظهر لنا في ثلاثة مظاهر: رقة العبارة، والتفنن في المعاني، والتوفر على البديع اللفظي، وقد يضاف إليها التوسع في المصطلحات اللفظية.

وقد كان نتاج الشعراء في العصر العباسي ممتازاً بالدقة، ومبنيًا على دراسة النفس ومعرفة طبائعها وخصائصها، وفهم حقائق الحياة، واستشفاف أسرارها، وقل أن يعرى أديب عباسي من نصيب في الحكم والأمثال، ومن أشهرهم في ذلك بشار بن برد، وصالح بن عبد القدوس، وأبو العتاهية، وأبو الطيب المتنبي، وأبو العلاء

(١) ١ / ٢٠٦ البيان.

(٢) ٣ / ٢٢٤ البيان.

(٣) ١ / ٥٤ البيان.

(٤) ١ / ١٠٦.

المعري، فقد كانوا أوفر من غيرهم حظا، وأحكم بناء، وأشعارهم مملوءة بالحكمة، وهذه أمثلة قليلة منها : قال بشار :

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة
وما خير كف أمسك الغل أختها
برأى نصيح أو نصيحة حازم
فإن الخوافى قوة للقوادم
وما خير سيف لم يؤيد بقائم

ويقول صالح بن عبد القدوس ١٦٧هـ وكان يجلس للوعظ في مسجد البصرة^(١)

لا يبلغ الأعداء من جاهل
والشيخ لا يترك أخلاقه
إذا ارعوى عاد إلى جهله
وإن من دأبته في الصبا
حتى تراه مورقا ناضرا
ما يبلغ الجاهل من نفسه
حتى يوارى في ثرى رسمه
كذى الضنى عاد إلى نكسه
كالعود يسقى الماء في غرسه
بعد الذى أبصرت من يبسه

ويقول محمد بن حازم الباهلي :

أشدُّ من فاقة وجوع
فارض من الدهر قوت يوم
وارحل إذا أجدبت بلاد
لعل دهرا أتى بنحس
إغضاء حر على خضوع
وأنت بالمنزل الرفيع
منها إلى الخصب والربيع
يكر بالسعد في الرجوع

وجمع أبو العتاهية نحو أربعة آلاف مثل في أرجوزة حكيم سماها ذوات الأمثال، ومنها:

حبك مما تبغيه القوت
الفقر فيما جاوز الكفا
هي المقادير فلمنى أو فدر
ما انتفع المرء بمثل عدله
من جعل المنام عينا هلكا
ما عيش من آفته بقاؤه
من لك بالمحض وليس محض
إن الشباب حجة التصابي
ما أكثر القوت لمن يموت
من اتقى الله رجا وخافا
إن كنت أخطأت فما أخطا القدر
وخير ذخر المرء حسن فعله
مبلغك الشر كباغيه لك
نغص عيشا كله فناؤه
يخبث بعض ويطيب بعض
روائح الجنة فى الشباب

(١) ٨ - ١٠ : ١٢ معجم الأدباء لياقوت، ومن شعره : ليس من مات فاستراح بميت ** إنما الميت ميت الأحياء

ويروى أن الجاحظ أنشدت أمامه هذه الأرجوزة يوماً، فلما وصل إلى هذا البيت، استوقف المنشد، ثم قال : انظروا قوله : روائح الجنة في الشباب، فإن له معنى كمعنى الطرب، الذي لا يقدر على معرفته إلا القلوب، وتعجز عن ترجمته الألسنة، إلا بعد التطويل وإدامة الفكر، وخير المعاني ما كان القلب إلى قبوله أسرع من اللسان إلى وصفه.

ويمتاز كذلك الشعر العباسي^(١) بكثرة استدلالهم لما يذهبون إليه من رأى أو فكرة، بالحجج العقلية أو البراهين الشعرية، وذلك لأنهم أفادوا من دراسة الفلسفة والمنطق، وأصبحت نفوسهم لا تقنع بالرأى من دون دليل، ولأنهم في التعمق وراء المعاني كانوا يصلون في كثير من الأحيان إلى الحكم على الأشياء بغير المألوف؛ ولا بد للحكم حينئذ من برهان يد عمه، أو قياس يقربه من مألوف الناس، ولذلك كثر في أدبهم حسن التعليل، والمذهب الكلامي، والتذييل المشتغل على التشبيه الضمني، وقد مدح أبو تمام أحمد بن المعتصم بقصيدته:

ما فى وقوفك ساعة من بأس نقضى حقوق الأربع الأدراس
فلما وصل إلى قوله :

إقدام عمرو فى سماحة حاتم فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

قال له الفيلسوف الكندي -- وكان حاضراً بالمجلس - الأمير فوق من وصفت، فاتكأ أبو تمام على ذكائه، واستنجد بديهته فأنجدته بقوله :

لا تنكروا ضربى له من دونه مثلاً شروداً فى الندى والباس
فإنه قد ضرب الأقل لنوره مثلاً من المشكاة والنبراس

وما أنكر الناس^(٢) تطويل الشعر فى المدح حتى ضاق ابن الرومى بأهل زمانه، فاستخرج منه معنى بغيضاً، هو تيقن المادح أن الكرم لا يملأ نفس الممدوح، وأنه غائر تحت طبقات من البخل وكزازة النفس، فلا بد للوصول إليه من تطويل الأسباب كما يطيل الرشاء من يمتح من بئر بعيدة الماء:

وإذا امرؤ مدح امرأ لنواله وأطال فيه فقد أطال هجاءه
لو لم يقدر فيه بعد المستقى عند الورود لما أطال رشاءه

(١) ٨ - ١٠ : ١٢ معجم الأدباء لياقوت ، ومن شعره : ليس منمات فاستراح بميت * إنما الميت ميت الأحياء .

(٢) مذكرة فى الأدب العربى للأستاذ أحمد شعراوى .

وما كان الناس يابهون لبكاء الطفل ساعة الميلاد، ولكن ابن الرومي الذي كان يتلمس لتشاؤمه العلل: التفت إليه، واتخذته دليلاً على ما تعج به الحياة من رزايا، وما ترصده للأحياء من آلام:

لما تؤذن الدنيا به من صروفها
وإلا فما يبكيه منها وإنها
إذا أبصر الدنيا استهل كأنه
يكون بكاء الطفل ساعة يولد
لأوسع مما كان فيه وأرغد
بما سوف يلقي من أذاها يهدد

وما دام جمال الشيء أو قبحه بالدليل والبرهان؛ فقد تمكنوا من تحسين ما تعارف الناس على هجنته، وتهجين ما تواضع الناس على استحسانه، وقد كان البدر أسمى ما يشبهه به وجه الحساء في البهاء، ولكن عبد الرحمن بن المنجم يجرى على لسان حبيبته محاجة يكتب لها فيها البصر على البدر حيث يقول:

شبهتها بالبدر فاستضحكت
وسفهمت قولي وقالت: متى
البدر لا يرزو بعين كما
ولا يميظ المرط عن ناهد
من قاس بالبدر صفاتي فلا
وقابلت قولي بالسنكر
سمجت حتى صرت كالبدر
أرئو ولا يسلم عن ثغر
ولا يشد العقد في نحر
زال أسيراً في يدي هجرى

وما سمعنا أحداً احتج للحقد قبل هذا العصر، ولعل أول من حاول ذلك عبد الملك بن صالح بن علي بن يدي الرشيد، وكان يجد عليه، ويتهمه بالتطلع إلى الخلافة، فأراد يحيى بن خالد البرمكي أن يضع من قدره تقريباً إلى الرشيد، فقال: يا عبد الملك، بلغني أنك حقود، فقال عبد الملك: إن كان الحقد هو بقاء الخير والشر؛ إنهما لباقيان في قلبي، فقال الرشيد: تالله ما رأيت أحداً احتج للحقد بأحسن مما احتج عبد الملك، وكان قول عبد الملك هذا نواة، أخذها ابن الرومي، فاستنبتها، ونماها، وأبداها كثيرة الغصون والأفنان في قوله يزين الحقد أيضاً:

لئن كنت في حظي لما أنا مودع
لما عبتني إلا بفضل إبانة
ولا عيب أن تجزي القروض بمثلها
وخير سجيات الرجال سجية
إذا الأرض أدت ريع ما أنت زارع
ولولا الحقود المستكنات لم يكن
وما الحقد إلا توأم الشكر في الفتى
من الخير والشر انتحيت على عرضي
ورب امرئ يزري على خلق محض
بل العيب أن تدان ديناً ولا تقضى
توفيك ما تسدي من القرض بالقرض
من البدر فيها فهي ناهيك من أرض
لينقض وتراً آخر الدهر ذو نقض
وبعض السجايا ينتهين إلى بعض

فحيث ترى حقدًا على ذى إساءة فثم ترى شكرًا على حسن القرض

وقد نقض ابن الرومي ذلك فقال :

يا مادح الحقد محتالاً له شبهاً
لن يقلب العيب زينا من يزينه
قد أبرم الله أسباب الأمور معاً
يا دافن الحقد فى ضعفى جوانبه
الحقد داء دوى لا دواء له
فاستشف منه بصفح أو معاتبة
واجعل طلابك بالأوتار ما عظمت
فالعفو أقرب للتقوى وإن جرم
يكفيك فى العفو أن الله قرظه
شهدت أنك لو أذبت ساءك أن
إذن وسرك أن ينسى الذنوب معاً
فكيف تمدح أمراً أنت تكرهه

لقد سلكت إليه مسلماً وعناً
حتى يرد كبيراً عاتياً حدثاً
فلن ترى سبباً منهن منتكناً
ساء الدفين الذى أضحت له جدناً
يرى الصدور إذا ما جمره حرناً
فإنما يبرأ المصدور ما نفثنا
ولا تكن لصغير القول مكثرناً
من مجرم جرح الأكباد أو فرثنا
وحيا إلى خير من صلى ومن بعثنا
تلقى أخاك حقوداً صدره شرثنا
وأن تصادف منه جانباً دمناً
فكن - هديت - تميز كل ما اغتلتنا

ومن خصائص الشعر العباسى أيضاً براعة التصوير، والافتنان فيه، وسمو الخيال، واتساع آفاقه، ولاشك أن لما أطلعتهم عليه الترجمة من آداب الأمم الأخرى مدخلا فى ذلك، فقد عرفوا مسالك غيرهم فى تصور الأشياء وتصويرها، ورأوا مسابح للخيال لا تقف عند الجزء أو تجهد فى تصويره، بل تنظر إلى الكل نظرة شاملة، تعين على إخراجها فى صورة كاملة مترابطة، ولعل إفادتهم فى هذه الناحية كانت محدودة لغلبة التأثر بالأدب القديم، ولكنها على كل حال؛ تركت آثاراً لا تكاد نلمحها عند السابقين عليهم. والحضارة لها كذلك نصيب. فالشاعر إنما يستمد صورته مما يحيط به، وقد لام ابن الرومي من قال له لم لا تشبه كتشبهات ابن المعتز، وأنت أشعر منه؟ فقال ألا تنشدنى شيئاً من قوله الذى استعجزتنى عن مثله؟ فأنشده قوله فى الهلال.

انظر إليه كزورق من فضة فقال أثقلته حمولة من عنبر

فقال له زدنى، فأنشده قوله فى الأذريون الأصفر، وهو زهر أصفر، فى وسطه

خمل أسود، وليس بطيب الرائحة :

والشمس فيه كالبية

كأن أذريونها

ففيها بقايا غالية

مداهن من ذهب

فصاح واغوثاه؟ بالله لا يكلف الله نفساً إلا وسعها، ذاك انما يصف ماعون بيته
لأنه ابن خليفة، وأنا أى شىء أصف؟ ولكن انظر إذا أنا وصفت ما أعرف أين يقع
قولى من الناس؟ هل لأحد قط مثل قولى فى قوس الغمام:

وساق صبيح للصبح دعوته	فقام وفى أجفانه سنة الغمض
يطوف بكاسات العقار كأنجم	فمن بين منقض علينا ومنقض
وقد نشرت أيدي الجنوب مطارفاً	على الجود كنا والحواشى على الأرض
يطرزها قوس السحاب بأخضر	على أحمر فى أصفر إثر مبيض
كأذيال خود أقبلت فى غلائل	مصبغة والبعض أقصر من بعض

ومن بديع الخيال قول أبى اسحاق إبراهيم بن موسى، يصور تلاحظ
العاشقين بصورة معركة، يظفر أحد الطرفين فيها بالنصر. ويبوء الآخر بالقتل أو الأسر:

غزتنى بجيش من محاسن وجهها	فعبى لها طرفى، ليدفع عن قلبى
فلما التقى الجيشان أقبل طرفها	يريد اغتصاب القلب قسراً على الحرب
ولما تجارحنا بأسياف لحظنا	جعلت فؤادى فى يديها على العضب
وناديت من وقع الأسنة والقنا	على كبدى : يا صاح مالى وللحب
فصرت صريعا للهوى وسط عسكر	قتيل عيون الغانيات بلا ذنب

وكذلك يقول ابن الرومى :

وقيان كأنها أمهات	عاطفات على بنيتها حوانى
مطفلات وما حملن جنينا	مرضعات ولسن ذات لبان
ملقعات أطفالهن ثديا	ناهديات كأحسن السرمان
مفعمات كأنها حافلات	وهى صفر من درة الألسبان
كل طفل يدعى بأسماء شتى	بين عود ومزهر وكسران
أمه دهرها تترجم عنه	وهو بادی الغنى عن الترجمان

ومن الآثار التى ظهرت فى أدبهم : طول النفس وامتداده^(١)، واتساع
القصيدة لمئات الأبيات، فقد أقدرتهم مطالعة الفلسفة والعلوم العقلية على التفسير
والتحليل، وامتلات أيديهم بالمعانى والأفكار يبسطونها، ويقلبونها على جميع
وجوهها، ويضعون الصور الكثيرة لها، ويحتجون بما وسعهم من الدليل والبرهان،
وبذلك انفسح مجال القول أمامهم، انفساحاً لم يسر لمن كانوا قبلهم، بل كان أمام
متأخريهم أوسع منه أمام المتقدمين منهم، لتكامل الأسباب وتوافرها، ومصادق ذلك

(١) الأدب العربى للأستاذ أحمد شعراوى.

في الرجوع إلى ما قدمناه من الاحتجاج للحقد، فقد تركز في قول عبد الملك بن صالح: واتسع عليه وانبسط عند ابن الرومي حتى ملأ الكثير من الأبيات؛ وطول النفس غير الهلهلة التي يخلقها العجز والحيرة في أداء المعنى. أو بعبارة أخرى، لا نقصد به ذلك الإسهاب العيي الناتج من ضعف الملكات وقصورها عن توضيح المراد إلا في فضول من اللفظ، وإنما نقصد به إلى إشباع المعنى، ومعاودته بالتحليل والتفصيل، ودعمه بالبرهان والدليل، وعرضه في معارض مختلفة من الصور الجميلة، لا في مبادل من العبارات المتكررة، والجمل المترادفة.

ومن خصائصه كذلك المبالغة دون تهيب، ومجاوزة الحد فيما يثبتون من صفات المدح والذم، فقد أخذوا عن الفرس ما ورثوه من المغالاة في تعظيم الأكاسرة، والديانة بالحق الإلهي المقدس؛ وأخذ الخلفاء الأدباء بهذا المبدأ، وحملوهم على الإغراق في مدحهم، فباروا في هذا الميدان، يحاول كل منهم أن يفتح قلب ممدوحه بما يفخمه ويضخم ما هو فيه، أو بما يخلقه ويدعيه مما ليس فيه. وبذلك دخلت المبالغة والادعاء جميع أبواب الشعر، وبخاصة الهجاء؛ لأنهما مكنيا فيه من الإيجاع والإيلام. وقد قال منصور النمرى في مدح الرشيد:

أحلك الله منها حيث تجتمع	خليفة الله إن الجود أودية
ومن وضعت من الأقوام متضع	إذا رفعت أمراً فالله رافعه
فليس بالصلوات الخمس ينتفع	من لم يكن بأمين الله معتصما
أو ضاق أمر ذكرناه فيتسع	إن أخلف القطر لم تخلف مخايله

فلما اجتمع الشعراء بباب المعتصم بعث إليهم وزيره محمد بن عبد الملك الزيات يقول لهم: من يحسن قول النمرى: خليفة الله إلخ فليدخل، وإلا فلينصرف فقام محمد بن وهيب، وقال: فينا من يقول مثله، وأنشد قصيدة منها:

شمس الضحى وأبو إسحاق والقمر	ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها
إذا تقطع عن إدراكها النظر	فالشمس تحكيه في الإشراق طالعة
إذا استنارت لياليه به الغرر	والبدر يحكيه في الظلماء منبلجا

ومنها:

وأنت جارحتاه السمع والبصر	فالخلق جسم له رأس يدبره
---------------------------	-------------------------

وأبو نواس يهجو الرقاشي بقوله:

وقدر الرقاشيين زهراء كالبدر	رأيت قدور الناس سوداً من الصلى
ثلاث كنقط الماء من نقط الحبر	يبينها للمعتفى بفنانهم

إذا ما نادوا بالرحيل سعى بها
ولو جننها ملأى عبيطاً مجزراً
أمامهم الحولى من ولد الدر
لأخرجت ما فيها على طرف الظفر

ويتصل بحديث المبالغة فى المعانى ظاهرتان لم تكونا قبل هذا العصر :
إحداهما شيوع الخضوع والزلفى فى مخاطبة الرؤساء، فقد علوا بهم عن أن يوجهوا
الخطاب إليهم، أو يصلوه بأسمانهم، واتجهوا إلى الحضرة والسدة وما أشبه ذلك،
إرضاء لكبريائهم، ومظاهرة لغطرستهم. والأخرى : كثرة الألقاب التى تضاف إلى
الأسماء، رغبة فى التفخيم من شأن أصحابها، والتهويل بأقدارهم، وما اتجه الناس
قبل هذا العهد إلى أن يضيفوا للخليفة أو من يتصل به فى العمل لقباً يزيد على
اسمه، حتى جاء أول خلفاء العباسيين فلقب نفسه بالسفاح، ففتح بذلك باب الألقاب
للخلفاء، وكذلك صنع من كانوا يعاونونه، فقد افتنوا فى اختراع الألقاب الفخمة
كالوزير، والسلطان، وذى اليمينين أو الرياستين، أو الوزارتين، أو الكفائتين، ورئيس
الرؤساء، وما أشبه ذلك من الألقاب المركبة من إضافة الكلمات الضخمة إلى الدولة،
أو الدين، والتى كثرت حتى فى عهود الضعف والانحلال، وأسبغت على من يستحق
ومن لا يستحق، وما أطف ما قال أبو بكر الخوارزمى فى أحد ذوى الألقاب :

مالي رأيت بنى العباس قد فتحوا
ولقبوا رجلاً لو كان أولهم
من الكنى ومن الألقاب أبوايا
ما كان يرضى به للحش بوابا
هدا، فأنفق فى الأقوام ألقابا
قل الدراهم فى كفى خليفتنا

ألوان من صنعة المحدثين فى الشعر

كان الشعراء المحدثون يقصدون إلى ألوان خاصة من الأساليب الساحرة
التي يتجلى فيها ترف الفن وجمال الصنعة وسحر الأداء، من استعارة وتشبيه وجناس
وتطبيق ومقابلة وحسن تعليل وسوى هذه الألوان، التي يقصدونها قصداً ويفتنون
فيها افتناناً، ويحرصون على توشية شعرهم وقصائدهم بها وتجميل آثارهم بزخرفها،
كان الراعى مقدمة لهذا اللون من الصنعة "فكان كثير البديع فى شعره"^(١).

وأول من فتح البديع من المحدثين بشار وابن هرمة^(٢)، ولم يكن فى
المولدين أصوب بديعاً منهما^(٣)، ثم اتبع بشاراً وابن هرمة مقتدياً بهما العتابي

(١) ٣/٢٤٢ البيان.

(٢) ١/١١٠ العمدة.

(٣) ١/٥٥ البيان.

والنمرى ومسلم وأبو نواس^(١)، فالعتابي يذهب شعره فى البديع^(٢)، وكان يحتذى حدو بشار فى البديع^(٣)، كان يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن، وعلى ألفاظه وحدوه ومثاله فى البديع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من المولدين كالنمرى ومسلم وأشباههما^(٤) وأستاذه بشار أبو المحدثين وأستاذهم^(٥) وكانت تتباين طبقات شعره فيصعد كبيرها ويهبط قليلها بكثيرها وكذلك كان حبيب^(٦)، وكان نواس ثانى بشار فى منزعه لفظا ومعنى وكثيرا ما صب على قواله وجرى فى مضماره. حتى قال الجاحظ فيهما: معناهما واحد والعدة اثنان!. بشار حل من الطبع بحيث لم يتكلف قط قولاً ولا تعب من عمل شعر؛ وأبو نواس حل من الطبع بحيث يصل شعره إلى القلب بلا إذن، وليس بعد بشار مولد أشعر من أبى نواس^(٧)، وكان أبو نواس يشبه بالنابغة^(٨)، وكان أسير المحدثين شعراً^(٩). والصنعة واضحة بشكل ملموس فى ميميته :

وذى رحم قلمت أظفار ضغنه بحلمى عنه وهو ليس له حلم^(١٠)

على أن هذه الصنعة الشعرية لم تصبح ظاهرة فنية مقصودة وتهذيباً أدبياً واسعاً للشعر ومذهباً جديداً ماثوراً إلا على يد المحدثين عامة^(١١) وعلى يد مسلم وأبى تمام على الخصوص، فمسلم أول من تكلف البديع من المولدين وأخذ نفسه بالصنعة وأكثر منها ولم يكن فى الأشعار المحدثه قبله إلا النبذ اليسيرة وهو زهير المولدين وكان ببطيء فى صنعته ويجيدها^(١٢)، بل هو فيما زعموا أول من قال هذا الشعر المعروف بالبديع وهو لقب هذا الجنس البديع واللطيف^(١٣)، وأول من أفسد الشعر

(١) ١/١١٠ العمدة.

(٢) ٣/٢٤٢ البيان.

(٣) ١/٥٥ البيان.

(٤) ١/٥٤ البيان.

(٥) راجع ٣/٢٠٠ الأغاني، ١/١١٠ العمدة ٢/١٣ زهر؛ ٢٥٠ موشح، ص ٣ طبقات ابن المعتز. وكان الأصمعى يقول هو خاتمة الشعراء (٣/٢٣ الأغاني).

(٦) ٢٦٣ رسائل البلغاء من رسالة الانتقاد لابن شرف.

(٧) ١٦١ العصر العباسى للاسكندرى.

(٨) ١/١١٠ العمدة.

(٩) ١/١٧٣ العمدة.

(١٠) وهى فى ديوانه، وتنسب لمعن بن أوس خطأ.

(١١) ١/١٧٣ العمدة.

(١٢) ١/١١٠ العمدة.

(١٣) ١/٢٠ معاهد التنصيص.

بالبدیع^(١)، ويشيد به النقاد جميعا في مذهب الصنعة والبدیع منوهين بأثره في هذا الباب^(٢)، وكان يتخذ الصنعة مذهباً يطبق عليه نماذجه بيتا بيتا فعنى بصروب التصنيع والزخرف المختلفة من جناس وطباق واستعارة ومشاكلة وأقام ألفاظه وتعايره كما يقيم المثالون تماثيلهم، وحقا كان مسلم زعيم التصنيع في عصره. فقد استطاع أن يجعله الغاية من صنع نماذجه فالقصيدة عنده لا تعبر عن خواطر وإنما تعبر عن ألوان^(٣).

وعمت موجة التصنيع بعد مسلم، وعلى نمطه وحنوه سار أبو تمام والبحتري "فكانا يطلبان الصنعة ويولعان بها، فأما حبيب فيذهب إلى حزونة اللفظ وما يملأ الأسماع منه مع التصنيع المحكم طوعا وكرها يأتي للأشياء من بعد ويطلبها بكلفة وتأخذها بقوة. وأما البحتري فكان أملح الناس صنعة وأحسن مذهباً في الكلام يسلك منه دماثة وسهولة مع إحكام الصنعة وقرب المأخذ لا يظهر عليه كلفة ولا مشقة^(٤)، كان لأبي تمام مذهب في المطابق هو كالسابق إليه جميع الشعراء^(٥)؛ وربما أسرف في المطابق وفي المجانس ووجوه البديع من الاستعارة وغيرها^(٦)، ولا تجتمع الاستعارة اجتماعها فيما نظمته^(٧)، وهو أول من شرع البديع وأنبع عيون التقسيم والتصريح والاستعارة وأرى الناس غرائب أنواع الجناس^(٨)، وعلى أي حال فأبو تمام ومسلم هما اللذان طرقا إلى الصنعة ومعرفتها سابلة وأكثر منها في أشعارهما تكثيرا سهلا عند الناس، على أن مسلما أسهل شعرا من حبيب وأقل تكلفا^(٩)، كان أبو تمام يستخدم في صناعة شعره وشي التصنيع الذي عرف عند مسلم من طباق وجناس ومشاكلة وتصوير وأضاف إليها شيئا آخر من الثقافة والفلسفة وعقد فيها تعقيدا فكان يعتمد في تصويره على صبغ التدبيج وقد استوعب الفلسفة، والثقافة وحولهما إلى فن وشعر، فالطباق والجناس والمشاكلة كل ذلك وسواه تجتمع في شعره فيجلبه

(١) ٨ الموازنة.

(٢) ٦٨ المثل السائر، ١٠٩ طبقات ابن المعتز، ٣٧٢ معجم الشعراء، ٢٤٨ رسائل البلغاء، ٤/١٣٢ زهر.

(٣) ٨١ و ٨٣ الفن ومذاهبه.

(٤) ١/١٠٩ العمدة.

(٥) ٧/١٦٨ مهذب الأغاني.

(٦) إعجاز القرآن.

(٧) ٩٢ رسالة الغفران.

(٨) ٣٠٥ الريحانة للشهاب من ظلامة أبي تمام التي ذكرها الشهاب الخفاجي في - ريحانته ٣٠٤ - ٣٠٩، وقد صنفها الخالدي على لسان أبي تمام يشكو فيها الطائي من الواعظ الموصلي الذي كان يغير على شعر أبي تمام في كلامه وشعره.

(٩) ١/١١٠ العمدة.

الغموض في كثير من جوانبه وأجزائه وهو الغموض الفني الذي أخذه به النقاد فهو يبتكر أفكارا وصورا جديدة ولكنه يحس بأن اللغة لا تستطيع أن تؤدي ما يريد، وجانب الغموض والمعاني العويصة في شعره هو الذي أثار ضجة واسعة حول شعره تشبه تلك الضجة التي شبت في فرنسا حول مذهب الرمزيين حين تفرع من مذهب البرناسيين؛ وكان أبو تمام يستخدم الطباق استخداما معقدا يلونه بأصباغ فلسفية وكان يسميه توافر الأضداد^(١) وهو المقابلة .. وكان البحترى يتشبه بأبي تمام وينحو نحو ويحذو حذوه في البديع^(٢).

وكان لا يرى في التجنيس ما يراه أبو تمام^(٣) ويقل التصنيع له فإذا وقع في كلامه كان في الأكثر حسنا رشيقا وتصنعه للمطابقة كثير حسن، وتعمقه في وجوه الصنعة على وجه طلب السلامة والرغبة في السلامة^(٤)، والبحترى على أي حال لم يكن متفلسفا ولم يكن من رجال الفكر العميق، كان بدويا أعرابيا فظلت أدوات الصناعة عنده ساذجة بسيطة^(٥)، كان يتتبع الألفاظ وينقدها نقدا شديدا كما يقول الباقلاني، وكانت ألفاظه كأنها نساء حسان عليهن غلائل مصبغات وقد تحلين بأصناف الحلبي كما يقول صاحب المثل السائر، بل كانت كالعسل حلاوة^(٦)، أما ابن الرومي فقد كان من الشعراء الذين يؤثرون المعنى على اللفظ فيطلبون صحته ولا يبالون حيث وقع من هجته اللفظ وخشونته^(٧)، فكان يصنع شعره على طريقة المدرسة المحافظة ولم يستطع أن يخرج إلى المدرسة الحديثة مدرسة التصنيع^(٨)، فهو حديث في ثقافته ولكنه لا يستطيع أن ينهض في فنه بألوان التصنيع وزخارفه، وحقا قد شغف بالتصوير ولكن هذا الشغف لا يخرج به إلى مجال المصنعين^(٩)، وهو مع ذلك قد يأتي بألوان الزخرف الفني في شعره ولكن دون أن يتخذها مذهباً، وكان يستخدم

(١) راجع ١١٦ و ١١٥ و ١٢١ و ١٢٣ و ١٢٤ و ١٣١ الفن ومذاهبه في الشعر العربي.

(٢) ٧/١٨٣ مذهب الأغاني.

(٣) أي من إسرائفه فيه.

(٤) ٩٦ إعجاز القرآن.

(٥) ٩٠ الفن ومذاهبه.

(٦) ٣٥ طبقات ابن المعتز والآمدى يفضل ابتداءاته (١/٢٠٥ العمدة) وكان مقصرا في الخروج من النسيب إلى المدح (٤١ إعجاز القرآن)، ويفضله الجرجاني بجودة الابتداء على حبيب والمتنبي، وفضلهما عليه بالخروج والخاتمة (١/٢٠٥ العمدة).

(٧) ١/١٠٦ العمدة، وابن الرومي أكثر الشعراء اختراعا للمعاني (٢٣٢ ج ١ العمدة، وأدبه أكثر من عقله وكان يتعاطى علم الفلسفة (١٦١ رسالة الغفران).

(٨) ٩٤ الفن ومذاهبه.

(٩) ٩٥ المرجع.

الطباق والجناس في شعره وهو يشبه البحترى في ذلك إلا أن البحترى يكثر من الجناس، وقد استعار من أبي تمام صبغ التدييح^(١).

وانتهى علم البديع والصنعة إلى ابن المعتز وختم به^(٢)؛ وكان ابن المعتز هو الشاعر الذي انتهت إليه الصناعة الشعرية فقد كان يحب الفن للفن وينظم الشعر ليلهو به وكان في العباسيين كالوليد في الأمويين وكان متكلفا مجيدا في تكلفة كما كان الوليد مطبوعا مجيدا في طبعه، ويقول عبد القاهر فيه : وطريقة ابن المعتز طريقة أبي تمام ولم يكن من المطبوعين^(٣)، وكان عبد القاهر يؤثر المطبوع وما قاربه من المصنوع، ويصف ابن رشيق صنعة ابن المعتز فيقول :

وما أعلم شاعراً أكمل ولا أعجب تصنيغاً من ابن المعتز، فإن صنعته خفية لطيفة لا تكاد تظهر في بعض المواضع إلا البصير بدقائق الشعر وهو عندي أطف أصحابه شعراً وأكثرهم بديعاً وافتناناً وأقربهم قوافي وأوزاناً ولا أرى وراءه غاية لطالبا في هذا الباب^(٤)؛ ولقد صدق ابن رشيق في حكمه الأدبي على ابن المعتز وصنعته فإن له من رائع الصنعة وسحر البديع وجمال الأداء ولطف الأساليب ودقة المذهب وحلاوة الصياغة في صناعته ما يروع القارئ ويستبد بإعجاب المنصف من النقاد، "كان أبو تمام متكلفا للبديع وكان البحترى وابن المعتز يجريان مع الطبع وكان مسلم ينهج نهجاً وسطاً"^(٥)، ولا شك أن ذلك أثر لعصر ابن المعتز وبيئته وحياته ووجدانه وشعوره، وآية ناطقة بحبه للجمال الساري في الحياة.

أشهر الشعراء العباسيين

في صدر العصر العباسي نجد ابن هرمة وبشاراً وأبانوس، والعديد من الشعراء من أمثال مسلم وسلم الخاسر وأبي العتاهية ووالبة ومنصور النمرى وبكر بن النطاح وعلي بن جبلة والعتابي وأبي الشيص.

^(١) وكان يلتزم حركة ما قبل الروي في أكثر شعره (١٣٣ و ١١٠ العمدة) وكان يلتزم القافية ١٣٧ و ١٣٨ / ١ العمدة، وقد يلتزم الجزء وحركته قبل الروي ١٧٢ سر الفصاحة.

^(٢) ١١٠ ج ١ العمدة.

^(٣) ٢٦٢ أسرار البلاغة.

^(٤) ١٠٩ و ١١٠ ج ١ : العمدة.

^(٥) ١٧٠ وما بعدها الأسلوب للشايب.

كما نبغ كذلك الكثير من الشعراء، نذكر منهم : محمود بن الحسين الوراق ٢٣٠ هـ وامتاز بالحكمة والأمثال^(١)، وأبا تمام م ٢٣١ هـ. وديك الجن (١٦١ - ٢٣٥ هـ)^(٢)، وعبد الصمد بن المعدل م ٢٤٠ هـ^(٣)، وعمار بن عقلي م ٢٤٠ هـ^(٤) وأبا العميثل م ٢٤٠ هـ شاعر عبد الله بن طاهر وكاتبه^(٥)، ودعبل (١٤٨ - ٢٤٦ هـ)^(٦)، وعوف بن محلم الخزاعي م ٢٤٨ هـ^(٧)، وعلى بن الجهم م ٢٤٩ هـ^(٨) والعطوي م نحو ٢٥٠ هـ^(٩)، والحسين بن الضحاك الخليع (١٦٢ - ٢٥٠ هـ)^(١٠) وبارق الكريزي وكان شاعر مكة في أيام المتوكل وكان يتعصب على أبي تمام^(١١) ومحمد ابن سلامة بن أبي زرعة الدمشقي وكان هو وديك الجن (١٦١ - ٢٣٥ هـ) شاعرا الشام^(١٢)، وأبا عيينة عبد الله بن محمد بن أبي عيينة، المهلبى^(١٣).

^(١) راجع ١/١٣٨ أزهري، ١٧٤ طبقات الشعراء لابن المعتز.

^(٢) هو عبد السلام الحمصي شاعر الشام وكان أبو تمام يحتديه راجعه (١/٨٣ عمدة) وكان ماجنا (١/٣١٦ الدميري)، وشهد له أبو نواس (١/٣١٦ الدميري، ١/٥٢٥ وفيات الأعيان) ويروى ذلك عن دعبل (١/١٩٣ العمدة) وعن أبي تمام (١٥١ حلبة الكميت) وتوفى عن بضع وسبعين سنة (٣٥ الكشكول).

^(٣) كان شاعر البصرة (٩٣ خاص الخاص، ٣/٧٤ زهر)، وأخوه أحمد شاعر كذلك (٣/٧٢ زهر).

^(٤) ٢٤٧ معجم الشعراء، ١٤٩ - ١٥١ طبقات الشعراء لابن المعتز.

^(٥) ٢/١٣٣ الدميري، ٧٢ و٧٣ فهرست، ١٣٥ - ١٣٦ طبقات الشعراء لابن المعتز، ١/٤٧٠ ابن خلكان.

^(٦) ١٩٣ - ١٩٨ / ٤ معجم الأدياء، ١٢٤ - ١٢٧ طبقات الشعر لابن المعتز، ٢٤٨ - ٧/٢٧٢ مهذب الأغاني. وله كتاب طبقات الشعراء (٢٢٩ فهرست) وكتاب في شعراء بغداد (٦٧ المؤلف) وكان شاعر علماء وعالم شعراء (٢٤٩ رسائل البلغاء من رسالة الانتقاد لابن شرف)، وكان يؤدب الفضل ابن العباس (٧/٢٥٦ مهذب الأغاني).

^(٧) ٦٩ فهرست، ١٠١ خاص الخاص، ١/١٣٠ الأمل.

^(٨) ٢٨٦ معجم الشعراء، ١٥١ وما بعدها طبقات الشعراء لابن المعتز، ٣٩ - ٢/٤١ وفيات الأعيان، ٤/٦١ المسعودي، ٤٢٣ - ٣/٤٣٠ عصر المأمون، ٩٨ خاص الخاص وكان شاعر مقلدا مطبوعا (١٥١ طبقات الشعراء لابن المعتز) وعلمه بالشعر أكبر من شعره (١٦٣ أخبار أبي تمام)، وكان أحسن الناس علما بالشعر (١٠٠ إعجاز القرآن للباقلاني) ومن الفضلاء بالشعر وصناعة له (١/١٧٠ عمدة) وراجع فيه (٤/٦١ مسعودي، ٩/١٠٥ الأغاني وما بعدها).

^(٩) وكان له فن لم يسبق إليه ذهب فيه مذهب أصحاب الكلام (٢٠/٥٨ الأغاني) وكان أحد المتكلمين الحدائق (٤٣٢ معجم الشعراء)، وراجع ١٨٧ - ١٨٨ طبقات ابن المعتز، ٢/٢٣٢ الأمل.

^(١٠) ١١٣ المؤلف، ٣٠ ج ٤ معجم الأدياء، ٢٦٥ - ٣/٢٧٧ عصر المأمون، ١٢٧ - ١٢٨ طبقات ابن المعتز، وهجا المأمون ثم مدحه بقصيدة نالت استحسانه فعفا عنه (٢/٢٠٦ ديوان المعاني).

^(١١) ٤٣٩ معجم الشعراء.

^(١٢) ٤٢١ معجم الشعراء.

^(١٣) ٢٧٥ - ٧/٢٩٥ مهذب الأغاني، ١٣٦ - ١٣٩ طبقات ابن المعتز، ٢٦٧ معجم الشعراء.

وكذلك الأخیطل محمد بن عبد الله بن شعيب^(١) توفي نحو عام ٢٥٠هـ، ومحمود بن مروان بن أبي الجنوب بن أبي حفصة مدح المتوكل ولزم المعتز وخص به فقلده الیمامة والبحرین^(٢)، ومحمد بن أبي الولید الكلابی مدحه المتوكل وكان شاعر أو انه^(٣)، ویزید المهلبی^(٤) وتوفي نحو ٢٥٦هـ، والحمدونی إسماعیل بن إبراهيم بن حمدویه البصری^(٥)، وتوفي نحو عام ٢٦٠هـ، ومحمد بن دكین المتكلم ورثی المعتز وله أشعار يحض فيها على القول بالعدل والتوحيد^(٦) توفي بعد عام ٢٥٥هـ، ويعقوب التمار وتوفي فی آخر أيام المعتمد^(٧)، والخلیع الأصغر محمد بن أحمد م ٢٨٠هـ^(٨) وابن الرومی (٢٢١ - ٢٨٣هـ)^(٩)، والبحتری م ٢٨٤، وأبو الحسین الخزاعی م ٣٨٣هـ^(١٠)، ومحمد بن علی بن حمزة العلوی م ٢٨٧هـ^(١١)، وأبو العباس عبد الله بن محمد الناشئ الأنباری م ٢٩٣هـ^(١٢)، وعبید الله ابن عبد الله بن طاهر (٢٢٣ - ٣٠٠هـ)، ويحيى بن علی المنجم (٢٤١ - ٣٠٠هـ) وابن المعتز (٢٤٧ - ٢٩٦هـ)،

^(١) يسلك مسلك أبي تمام ويحذر حدوه (٤٣٢ معجم الشعراء) وأنشد أبا تمام شعراً له فقال له : اذهب إذا شئت فليس للناس بعدى غيرك (١٩٥ طبقات ابن المعتز).

^(٢) ٥٠٢ معجم الشعراء.

^(٣) ٤٣٩ المرجع.

^(٤) ٧/٢٩٥ وما بعدها مهذب الأغاني وص ٣٤٣ الموشح.

^(٥) راجع ٢٢٣ و٢٥٦ - ٢/٢٦٠ زهر وله في طيلسان ابن حرب أربعون مقطوعة لا تخلو واحدة منها من معنى نادر أو مثل سائر (٩٤ خاص الخاص، ١٧٦ طبقات ابن المعتز)؛ وله قصيدة لامية جيدة في المطالب (٣٥ - ٢/٢٧ العقد).

^(٦) ٤٥١ معجم الشعراء.

^(٧) ٥٠٧ معجم الشعراء.

^(٨) ٤٥٢ معجم الشعراء وهو من ولد ابن قيس الرقيات.

^(٩) ٣٥٧ وما بعدها موشح، ٤١ - ٣/٤٤ وفيات الأعيان، ١٥١ - ١٥٦ مراجعات للعقاد، ٣١٣ - ٣٤٤ حصاد الهشيم للمازني، وابن الرومي للعقاد.

^(١٠) ٢٩١ معجم الشعراء، وهامش ١٤٤ ديوان ابن الرومي.

^(١١) وكان شاعراً راوية عالماً (٤٥٣ معجم الشعراء).

^(١٢) ترجمته في (٤٧١ - ١/٤٧٢ وفيات الأعيان، ١٩٨ طبقات ابن المعتز) وهو الناشئ الأكبر وكان في طبقة ابن الرومي والبحترى وابن المعتز وكان نحوياً عروضياً متكلماً أقام ببغداد ثم خرج إلى مصر وأقام بها إلى آخر عمره وكان متبحراً في عدة علوم منها المنطق، وله قصيدة في فنون من العلم تبلغ سبعة آلاف بيت (١/٤٧١ وفيات)، وله كتابه الموسوم بتفضيل الشعر (١/١٧٥ العمدة) وينقل عنه الحصري (٤٩ - ٣/٥١ زهر). وله منظومة في الشعر كتبها إلى أبي الصقر (٢/١٠٨ العمدة)، وله منظومة أخرى في الشعر (٢/١١٠ - ١٠٩) عمدة، ٣/٥١ زهر)، وله كلمة في تقسيم العلم عند الفلاسفة (١/١٢ العمدة)، وهو غير الناشئ الأصغر (٢٧١ - ٣٦٥هـ) الذي كان من شعراء سيف الدولة (٤٨ وما بعدها / ٢ وفيات).

والبساعي على بن بسام م ٣٠٢هـ^(١)، ونصر بن أحمد بن نصر الخيز أرزي المتوفى عام ٣١٧هـ^(٢)، وأبو بكر الحسن بن علي ابن أحمد بن بشار المعروف بابن العلاف الشاعر المشهور (٢١٨ - ٣١٨هـ^(٣)) وابن طباطبا العلوي الأصبهاني م ٣٢٢هـ^(٤).

ثم ظهر المتنبي والشريف الرضي، وأبو فراس الحمداني وكشاجم والرفاء ولو أواء الدمشقي، ومهيار الديلمي، وأبو طالب المأموني م ٣٨٣هـ، وأبو العلاء المعري والطغراني م ٥١٣هـ، وابن سنان الخفاجي م ٤٦٦هـ، وابن التعاويذي م ٥٢٨هـ، والأرجاني م ٥٤٤هـ، والأبيوردي م ٥٧٧هـ، وابن سناء الملك م ٦٠٨هـ، وابن النبيه م ٦١٩هـ، وابن الفارض م ٦٣٢هـ، وابن مطروح م ٦٤٩هـ، والبهاء زهير م ٦٥٦هـ. وسواهم من عديد الشعراء.

طبقات الشعراء العباسيين

- ١ -

الطبقة كل جماعة عاشوا متقاربين في الزمان وجرت عليهم أحكام واحدة من تأثير البيئة وإن لم يتحدوا في المنزع أو يدخلوا في مناقضة أو يتزاحموا على باب ملك^(٥)، ومعنى الطبقة أنهم نظراء^(٦) وأنهم قريبون من بعض في منزلتهم الأدبية العامة وإن اختلفوا في اتجاهاتهم الفنية وإنتاجهم الأدبي؛ والشعراء أربع طبقات؛ جاهليون ومخضرمون وإسلاميون ومولدون وهم الذين فسدت فيهم ملكة اللسان فعالجوها بالصناعة وهم شعراء بني العباس^(٧)، ويضيف إليهم الشهاب الخفاجي

^(١) يشبه الحطيئة في الهجاء (٢٠٨ وما بعدها خاص الخاص، ٢/٤٤ وما بعدها وفيات، ٤/٢٢٦ المسعودي) وهجاه ابن المعتز (٣/٩٠ زهر، ١٨٠ ديوان ابن المعتز) وأمه أمامة (٢١٤ فهرست) أخت أحمد بن حمدون ابن إسماعيل النديم. وكان حسن البديهة شاعراً أدبياً (٥/٣١٨ معجم الأدباء) وأغلب شعره في الهجاء (راجع ٢٩٤ معجم الشعراء، وكان هو وإخوته يقرأون الشعر على فضل البريدي (١٧١ أدب كتاب للصولي).

^(٢) ٥٥-٣/٦٠ وفيات. وهو أحد المطبوعين المجودين وكان لا يعدل به أحد في زمانه (١/٤٩٨ سمط).

^(٣) كان ينادم المعتضد وكان بينه وبين ابن المعتز صفة أكيدة فلما قتل ابن المعتز رثاه بداليتة:

يا هرر فارقتنا ولم تعد وكنت عندي بمنزل الولد

وجعلها في صورة رثاء هر له إخفاء على المقتدر (٢٤٥ - ١/٢٤٨ وفيات الأعيان. ١٣٩ نكت الهميان، ٣٣٦ و٣٣٧ ج ٢ الديميري) وعدد أبيات القصيدة ٦٥ بيتا وهي من أحسن الشعر وأبدعه كما يقول ابن خلكان.

^(٤) ٤٦٣ معجم الشعراء، ٦/٢٨٥ معجم الأدباء، ١٠٦ خاص الخاص.

^(٥) ٤٠١ الأدب العباسي لمحمود مصطفى.

^(٦) ٨٤ تاريخ النقد الأدبي عند العرب.

^(٧) ٤٥ تاريخ الأدب العربي للزيات.

طبقات، هم المحدثون ثم المتأخرون والعصريون^(١) .. والشعراء العباسيون يقسمون إلى طبقات.

فالتبقة الأولى من العباسيين هم مخضرمو الدولتين، كابن هرمة وأبي دلامة م ١٦١هـ والحسين بن مطير وأبو حية النميري وسديف بن ميمون ويحيى بن زياد وأبو الهندي وابن الخياط المكي^(٢) وبشار م ١٦٧هـ وصالح بن عبد القدوس م ١٦٧هـ أيضاً^(٣) وحماد عجرد م ١٦٨هـ ومطيع م ١٦٩هـ والسيد الحميري م ١٧٣هـ ومروان بن أبي حفصه (١٠٥ - ١٨١هـ)، ومن رجازها أبو نخيلة السعدي ورؤبة م ١٤٥هـ.

وقد تأثرت هذه الطبقة ولاسيما بشار بالفرس وحضارتهم تأثراً قويا وكان تأثيرهم بعلوم اليونان قليلا بالقياس إلى من بعدهم .. وزعيم هذه الطبقة بشار، وهو أشعرهم^(٤)، فهو أستاذ المحدثين^(٥) وتقدمه في طبقاتهم ورياسته عليهم من غير اختلاف في ذلك يغني عن وصفه وإطالة ذكر محله^(٦)، وسمى أبا المحدثين لأنه فتق لهم أكمام المعاني ونهج لهم سبل البديع فاتبعوه^(٧)، وهو أستاذ المحدثين وبدرهم وصدرهم^(٨) .. ويجعل ابن رشيقي أبا العتاهية م ٢١١هـ من هذه الطبقة^(٩). والصواب عده من الطبقة الثانية.

والطبقة الثانية: نشأت في صدر الدولة، ومن شعرائها: والبة م ١٧٥هـ وسلم م ١٨٦هـ^(١٠). والعباس بن الأحنف م ١٩٢هـ، وأشجع م ١٩٥هـ، وأبو الشيص م ١٩٦هـ^(١١)، وأبو نواس م ١٩٨هـ^(١٢)، والحكم بن قنبر، والفضل الرقاشي م ٢٠٠هـ: وأبان

٣١٠ و ٣١١ الريحانة.

^(١) شاعر ظريف ماجن مدح المهدي (١٨/٩٤ الأغاني)

^(٢) وفي الديميري أنه قتل عام ١٩٧هـ (١/٢٧ الديميري) ولعله تحريف.

^(٣) ١/٨٣ العمدة.

^(٤) ٢٥٠ الموشح.

^(٥) ٣/٢٠ الأغاني.

^(٦) ٢/١٣٦ زهر.

^(٧) ٨٤ خاص الخاص.

^(٨) ١/٨٣ العمدة.

^(٩) ويعدده بعض النقاد من الطبقة الأولى (١/٨٣ العمدة. ٢٨٠ العصر العباسي للسابعي بيومي).

^(١٠) راجع ترجمته في ٢٤٥ - ٧/٢٤٨ مذهب الأغاني.

^(١١) وفي الديميري (١/٤٣) أنه توفي عام ١٩٤هـ.

م ٢٠٠هـ^(١): ومحمد بن كناسه ١٢٣ - ٢٠٧هـ: وعلى بن جبلة العكوك (١٦٠ - ٢١٣هـ)
 ٢٠١. وبكر بن النطاح، ومحمد بن يسير الرياشي: وأبو سعيد المخزومي^(٢)؛ والعتابي م
 ٢٢٠هـ، ومنصور النحوي^(٤)، ومسلم بن الوليد م ٢٠٨هـ: وأبو العتاهية م ٢١١هـ: ودعبل
 (١٤٨ - ٢٤٦هـ)، وعمارة بن عقيل ٢٤٠هـ، وهو ساقتهم^(٥)؛ وعوف بن محلم الخزاعي
 م ٢٤٨هـ، والحسين بن الضحاك م ٢٥٠هـ، وليس فيهم نظير أبي نواس وليس يفضل
 عليه مولد سوى بشار^(٦)، واشتهر منهم أبو العتاهية، وكان شيخ الطبع^(٧)؛ وكان غزير
 البحر لطيف المعاني سهل الألفاظ كثير الافتنان قليل التكلف إلا أنه كان كثير الساقط
 المرذول وهو وبشار والسيد أطبع الناس^(٨)، ويقول فيه ابن الأعرابي: ما رأيت أجمع
 ولا أقدر على بيت شعر منه وما أحسب مذهبه إلا ضرباً من السحر^(٩)، وقال
 الأصمعي^(١٠): شعره كساحة الملوك يقع فيها الجواهر والذهب والتراب والخزف،
 وروى أبو حاتم عن أصحابه: لو أن طبع أبي العتاهية بجزالة لفظ لكان أشعر الناس،
 وشعره كالماء الجاري رقة ألفاظ ولطافة سبك^(١١)، والبارد في شعره كثير^(١٢) ويقول
 المبرد فيه: وهو حسن الشعر قريب المأخذ.. وزعيم هذه الطبقة أبو نواس وتجد له
 من بهجة اللفظ ودقيق المعنى ما يتحير فيه^(١٣) ويقول فيه النظام: كأنه جمع له
 الكلام فاختر أحسنه^(١٤)؛ وامتاز بفحش مجونه وتصويره لأخلاقه ولبيئته ووصفه الخمر؛
 وهو ثاني بشار في منزعه لفظاً ومعنى وبعد هذه الطبقة يختلف النقاد :

(١) ترجمته في ١-٥٢ الأوراق قسم أخبار الشعراء.

(٢) ١٨: ١٠٠ - ١١٤ الأغاني، ١١: ٣٥٩ تاريخ بغداد للخطيب، ٢: ٣٠ شذرات الذهب.

(٣) تلميذ العتابي وراوته ووصف اسحاق الموصلي شعره وشعر مسلم أمام الفضل بن يحيى وصف رانعا.
 (راجع ٦٥ - ١٣/٦٩ تاريخ بغداد).

(٤) بغدادى كثير الشعر جيدة، ومدح المأمون (١/٥٧٨ سمط اللآلى، ٢٦٠ معجم الشعراء، ١٣٩-١٤٠ طبقات ابن
 المعتز، وفي الأملى قصيدة لامية له (١/٢٥٩ الأملى).

(٥) ويعدده بعض الباحثين فى الطبقة الثالثة (٤٠٢ الأدب العباسى لمحمود مصطفى)
 ١/٨٣^(٦) العمدة.

١/٨٣^(٧) العمدة.

٣/١٢٣^(٨) الأغاني.

٣/١٢٧^(٩) الأغاني.

٣/١٤٠^(١٠) الأغاني.

٣/١٥٣^(١١) الأغاني.

٦٨ المثل السائر^(١٢).

٥٩^(١٣) صناعتين.

١٧٣^(١٤) إعجاز القرآن للباقلانى.

٧/٣١٤^(١٥) مهذب الأغاني.

١- فريق يجعل أبا تمام م ٢٣١هـ والبحترى م ٢٨٤هـ وابن الرومى م ٢٨٣هـ وابن المعتز م ٢٩٦هـ طبقة واحدة هي الطبقة الثالثة التي خلفت طبقة أبي نواس^(١) ويقول ابن رثيق طبقة حبيب والبحترى وابن الرومى وابن المعتز طبقة متداركة وتلاحقوا وغطوا على من سواهم حتى نسي معهم بقية من أدرك أبا نواس ولم يذكر من أصحاب ابن الرومى وابن المعتز إلا من ذكر بسببهما في مكانة أو مناقضة^(٢).

٢- وفريق يقسم هؤلاء ومن عاصرهم طبقتين فجعل في الطبقة الثالثة: أبا تمام (١٩٠ - ٢٣١هـ)، وديك الجن (١٦١ - ٢٣٥هـ)، ومحمود بن الحسين الوراق م ٢٣٠هـ، وعبد الصمد بن المعدل م ٢٤٠هـ وأخوه أحمد؛ والحمدوني إسماعيل بن إبراهيم بن حمدويه البصرى، وأبا العميثل كاتب ال طاهر م ٢٤٠هـ؛ والعطوى وعلى بن الجهم م ٢٤٩هـ، ويجعل في الطبقة الرابعة: محمد بن اسحق الصيمرى، وعلى بن يحيى المنجم م ٢٧٥هـ، وابن الرومى (٢٢١ - ٢٨٣هـ)؛ والبحترى (٢٠٥ - ٢٨٤هـ)؛ وأبا العباس الأنبارى م ٢٩٣هـ؛ وابن المعتزم م ٢٩٦هـ؛ والبسامى م ٣٠٢هـ؛ والخبز أرزى م ٣١٧هـ^(٣).

٣- وفريق يقسمهم ثلاث طبقات: فيجعل في الثالثة أبا تمام وديك الجن ودعبل وابن الجهم؛ ويجعل في الرابعة البحترى وابن الرومى؛ وفي الخامسة ابن المعتز والبسامى^(٤).

وفي العصر العباسى الثالث والرابع اشتهر من المشاركة السلامى ك ٣٣٩هـ، وابن نباتة السعدى م ٤٠٥هـ، والشريف الرضى م ٤٠٦هـ، ومهيار م ٤٢٨هـ؛ وكانوا في بغداد. كما اشتهر في أمصار العراق أبو طالب المأمونى م ٣٨٣هـ، والبستى م ٤٠٠هـ، وصردرم م ٤٦٥هـ، والباخرزى م ٤٦٧هـ، والطفرانى م ٥١٣هـ، وابن التعاوىذى م ٥٣٨هـ، والأرجانى م ٥٤٤هـ، والابيوردي م ٥٥٧هـ.

كما اشتهر من شعراء الشام ومصر: المتنبى م ٣٥٤هـ، وأبو فراس الحمدانى م ٣٥٧هـ، وكشاجم م ٣٨٠هـ، والسرى الرفاء م ٣٦٦هـ، والوأواء الدمشقى م ٣٩٠هـ، والبغفاء م ٣٩٨هـ، والنامى م ٣٩٩هـ، وأبو بكر محمد الخالدى م ٣٨٠هـ، وأبو عثمان

(١) ١/٨٣ العمدة.

(٢) ١/٨٣ العمدة.

(٣) ٤٠٢ الأدب العباسى لمحمود مصطفى، ٤٣ العصر العباسى الإسكندرى.

(٤) ٣٨٠ العصر العباسى للسباعى بيومى.

سعيد الخالدي م ٤٠٠هـ. ثم المعري م ٤٤٩هـ؛ وابن سنان الخفاجي م ٤٦٦هـ؛ وابن حيوس م ٤٧٣هـ؛ وابن الخياط الدمشقي م ٥١٧هـ؛ وابن الساعاتي م ٦٠٤هـ وابن قلاقس الإسكندري م ٥٣٢هـ، وابن سناء الملك م ٦٠٨هـ، وابن النبيه م ٦١٩هـ، وابن الفارض م ٦٣٢هـ؛ وابن مطروح م ٦٤٩هـ؛ والبهاء زهير م ٦٥٦هـ.

من أئمة الشعر العباسي

كان أبرز شعراء القرن الثالث أبو تمام والبحترى وابن الرومي وابن المعتز وقد علمت مما سبق طبقتهم الشعرية.

كان أبو تمام وابن الرومي يتعمقان في الثقافة وينزعان إلى التفكير ويؤثران المعاني العميقة والآراء البعيدة في الشعر، وكان أبو تمام مع ذلك يتخذ الشعر صناعة فنية دقيقة فهو يختار ألفاظه وأسلوبه اختياراً دقيقاً، ويصوغه صياغة خاصة مصبوغة بألوان الترف والزخرف وأصباغ البديع المتعددة التي عرفها شعراء القرن الثالث بذوقهم وعقلهم؛ من حيث كان ابن الرومي قانعاً بالفوض على المعاني دون التفات أو إيثار لألوان الجمال في الأسلوب؛ أما أبو عبادة البحترى فقد كان قريباً في أفكاره واضحاً في أسلوبه، يحب الصنعة ولكنه يؤثر منها ما كان موائماً للفطرة العربية السليمة وللذوق الأدبي الخالص الذي لم تفسده آثار لحضارة وألوان الثقافة ومذاهب الصنعة في الشعر، وكان شعره صورة لهذا الاتجاه دون ما سواه؛ أما ابن المعتز فقد شغف بصناعة الشعر شغفا شديداً، فتأنق في ألفاظه وفي ألوان البديع وأصباغ الزخرف التي وشى بها شعره، وعنى بذلك عناية كبيرة، ومع ذلك فإنه لم يغفل نزعات التفكير التي كان يدفعه إليها عقله وبيئته وألوان الثقافات التي امتزجت بالحياة العقلية في هذا العصر الخصب، فكان شعره صورة عامة لمدرسة أبي تمام ومدرسة البحترى، ومثلهما أدق تمثيل، مع ظهور شخصيته ووضوح أثره في الحياة الأدبية وتطور الشعر في عصره.. ونحن بعد ذلك لا غنى لنا عن عرض آراء النقاد في أبي تمام والبحترى وابن الرومي عرضاً واسعاً يوقفنا على اتجاه ومنهج كل شاعر في التفكير والإنتاج.

أما أبو تمام فشاعر مبدع ألقى إليه زعامة الشعر من جميع الشعراء في عصره وأثر في نظم الشعر تجويد المعنى ودقته، فكان "الطيف الفطنة دقيق المعاني

غواصا على ما يستصعب منها"^(١)، وهو "متكلف إلا أنه يصيب، وشغله المطابقة والتجنيس جزل المعانى، مدحه ورثاؤه لا غزله وهجاؤه. وطارت له أمثال وحفظت له أقوال"^(٢) "ولا يتعلق بجيده جيد أمثاله وردينه مردول مطروح"^(٣)، وكان صاحب طريقة مبتدعة ومعان كاللؤلؤ متتبعة"^(٤)، "وهو رأس في الشعر ومبتدى لمذهب سلكه كل محسن بعده فلم يبلغه فيه"^(٥)، وقد شغف بجزالة اللفظ ومتانة الأسلوب وبالصنعة وقصد الربيع فهو أكثر الشعراء بديعا وافتنانا وصنعة في شعره إلا أن مصنوعه جيد يشبه أن يكون مطبوعا ولحلاوة شعره ودقة أسلوبه خفيت الصنعة فيه كثيرا، وهو من "المعروفين بجودة الرثاء"^(٦)، "ولم يكن له حلاوة توجب له حسن التغزل"^(٧)، وكان يكره نفسه على العمل حتى يظهر ذلك في شعره"^(٨)، وكان يأتي في شعره برد الإعجاز وعلى الصدر لا يأتي به إلا شاعر متصنع كحبيب ونظرائه"^(٩)، وقصيدته "متى أنت عن ذهيلة الحى ذاهل؟ محشوة بالصنعة وتكلف فيها ألوان البديع مما عيب هو وأشباهه عليه"^(١٠)، وشعره مباين للشعر فى عصره مباينة واضحة من حيث تصويره للشعر وشدة أخذه نفسه بتجويد المعنى ووحدة القصيد وفى كلفه بوصف الطبيعة وميله إلى المعانى الفلسفية يضمنها شعره أيا كان الموضوع الذى ينظم فيه، ويرى بعض المحدثين أنه يجيد فى هذا المعنى وذلك ولكنه لا يعرض عليك العالم كله فى حالة من الحالات"^(١١)، ويرى آخر أن أبا تمام لا يعد فى نظر أهل العصر الحاضر مثلا أعلى للشعر لأنه لم ينقل فى شعره كثيرا من صور العواطف التى كانت تجيش بصدر المجتمع فى ذلك الحين ولم يمثل الحياة القومية فى عصره تمثيلا صحيحا ولم يكن كأبى العلاء حرا فى إبداء ما يختلج بنفسه من المعانى ولا شجاعا فى بيان ما يعتقدده حقا"^(١٢). ومهما يكن فقد كان أبو تمام رأس طبقتة، وأخمل هو والبحترى فى زمانهما

(١) ٧/١٦٨ مذهب الأغاني.

(٢) ٢٤٩ رسائل البلغاء من رسائل الانتقاد لابن شرف.

(٣) ٢ الموازنة.

(٤) رسالة الفران.

(٥) ٣٧ أخبار أبى تمام للصولى. وراجع رد الأمدى عليه فى ذلك ص ٦ من الموازنة.

(٦) ٢/٢٤١ العمدة.

(٧) ٢/١١٣ العمدة.

(٨) ١/١٨٢ العمدة.

(٩) ١/١٨٣ العمدة.

(١٠) راجع ١٩٥ إعجاز القرآن.

(١١) راجع مقالة للعقاد فى الرسالة عدد ٤٥٨.

(١٢) ص ٨ مقدمة مختصر شرح ديوان الحماسة.

خمسمائة شاعر كلهم مجيد كما يقولون، وتلمذ عليه كثيرون كالبحتري وسواه، وكان البحتري يقدمه وكذلك ابن الرومي^(١)، ولم يدركه ابن المعتز وإن كان تتلمذ على أدبه وشعره.

وأما البحتري فتلميذ أبي تمام، وكان يتشبه به في شعره، ويحذو حذوه في البديع وكان يراه صاحبا وإماما^(٢)، ترسم خطأ أبي تمام ومضى على أثره في البديع إلا أنه أحسن في سبك اللفظ على المعنى وأراد أن يشعر فغنى^(٣)، استمد معانيه من وحي الخيال وجمال الطبيعة من أدوار العليين وقضايا المنطق والفلسفة، فأعاد للشعر ما ذهب من بهجته ورونقه حتى قال المتنبي فيه "أنا وأبو تمام حكيمان والشاعر البحتري"، ويشيد النقاد بعذوبته وجمال لفظه وأسلوبه^(٤)، وهو في عذوبة اللفظ وسهولته يسبق في هذا الميدان، والكتاب يفضلون كلامه على كل كلام ويقدمون رأيه في البلاغة على ما وصفه:

امرؤ أنه نظام فريد	في نظام من البلاغة ما شك
حك في رونق الربيع الجديد	وبديع كأنه الزهر الضا
وتجنين ظلمة التعقيد	حزن مستعمل الكلام اختياراً
به غاية المرام البعيد ^(٥)	وركبن اللفظ القريب فأدركن

وهو من المكثرين في وصف الخيال المجيدين فيه^(٦)، وأحسن الناس طريقاً في العتاب^(٧)، وكان بعض النقاد يختم به الشعراء^(٨) ونوه به الآمدي في الموازنة أعظم تنويه^(٩)، وكان يذكر أن أجود شعره "أهلاً بلكم الخيال المقبل"^(١٠)، وكان ابن المعتز يشيد بشاعريته وبقصيدته في وصف إيوان كسرى وقصيدته في وصف بركة

(١) ٦٥ أخبار أبي تمام.

(٢) ٧/١٨٣ مهذب الأغاني.

(٣) ٣٠٢ المثل السائر.

(٤) راجع : ٢٤٩ رسائل البلغاء، ٧٣ أخبار أبي تمام للصولي. وكان يقال لشعره سلاسل الذهب (١/٣٧٨ كشف الظنون). وكثر الغناء في شعره استظرافاً لما فيه من الحلاوة على طبع البداوة (١/١٢٨ العمدة).

(٥) ١٠٠ إعجاز القرآن.

(٦) ٩٩ ديوان الصباة لابن حجلة.

(٧) ٢/١٥٣ العمدة.

(٨) ٧/١٨٣ مهذب الأغاني.

(٩) راجع الموازنة، ١/٣٠٥ العمدة.

(١٠) ١٧٥ إعجاز القرآن.

المتوكل واعتذارياته^(١)، وكان الصاحب يعجب بطريقة شعراء الشام المثلى التي هي طريقة البحترى في الجزالة والعدوبة والفصاحة والسلاسة^(٢).

وإنما يوازن شعر البحترى بشعر شاعر من طبقته ومن هو في مضماره أو في منزلته^(٣) ونحن نفضل البحترى بديباجة شعره على ابن الرومي وغيره من أهل زمانه، ونقدمه بحسن عبارته وسلاسة كلامه وعدوبة ألفاظه وقلة تعقيدده في قوله^(٤)، والكتاب يفضلون البحترى على أهل دهره^(٥)، ويطيل الأمدى في الموازنة بينه وبين أبي تمام^(٦).

وقد ترجم للبحترى ابن المعتز في كتابه طبقات الشعراء ترجمة موجزة^(٧)، وكان يشيد بشاعريته وبسينيته في إبان كسرى وهائيته في بركة المتوكل^(٨)، وكان ابن المعتز يجتمع به ويجلس معه^(٩).

وأما ابن الرومي فشجرة الاختراع وثمره الابتداع، وكان واسع العطن لطيف الفطن^(١٠)، وهو أشعر أهل زمانه بعد البحترى وأكثرهم شعرا^(١١)، ويمتاز بطول نفسه في قصائده^(١٢) ولم يجعل للفظ شغلا شاغلا في صناعته^(١٣)، وكان من مختلقي معاني الشعر^(١٤) وهو أولى الناس باسم الشاعر^(١٥)، وهو غريب الأخذ^(١٦)، ويرى صاحب

(١) راجع ٣٣ رسائل ابن المعتز.

(٢) ١/٩ اليتيمة.

(٣) ١٩٠ إعجاز القرآن.

(٤) ١٩١ المرجع.

(٥) ١٩٢ المرجع.

(٦) راجع الموازنة وعلى الأخص ص ٢ و ١٨٠ و ١٨١ ويقول الأمدى إن النقاد لم يتفقا على أيهما أشعر ص ٢ الموازنة.

(٧) ١٨٦ و ١٨٧ طبقات الشعراء لابن المعتز وله تراجم في ٩٦ - ٣/١٠٣ وفيات، ٧/١٨٣ وما بعدها مهذب الأغاني، ٣٣٠ الموشح وما بعدها.

(٨) راجع ٣٣ رسائل ابن المعتز.

(٩) ٦ مقدمة ديوان البحترى.

(١٠) ٢٤٩ رسائل البلغاء من رسائل الانتقاد لابن شرف.

(١١) ٢٨٩ معجم الشعراء.

(١٢) ٣٠٨ ابن الرومي للعقاد.

(١٣) ٣١٦ المرجع.

(١٤) ٤/٢١٤ المسعودي.

(١٥) ١/٢٥٥ العمدة.

(١٦) ٣/١٠٥ زهر. وكان يأخذ الحكم الفارسية فينظمها شعرا (راجع ٣/٢٢٨ زهر).

الوساطة أن قصائده على طولها لا تعثر فيها إلا بالببيت الذي يروق أو البيتين^(١) وهو على أي حال شاعر مجيد وعلم من أعلام القريض في القرن الثالث، ويمتاز ابن الرومي بتفضيله للفظ على المعنى وباستقصائه واختراعه وتوليده في معانيه.

كان ابن الرومي شاعراً مكتهل السن وابن المعتز ما يزال يافعا شابا، وكان ذلك يضع ابن الرومي موضع الأستاذ لابن المعتز، ولكن الأمير لم يبال به ولا تأثر تأثرا واضحا بشعره، لأنه كان بين الشاعرين صلات مقطوعة، فضلا عن تفاوت السن كان ابن المعتز سنيا وابن الرومي معتزليا. وكان ابن الرومي يحب المستعين ويكره المعتز. كما أحب المهتدي وهجا المعتز قبل قتله. وكان لذلك ولا شك أثره في نفس الأمير، فنقم على ابن الرومي واعتزله، ورفض الاتصال به، ولم يترجم له في كتابه طبقات الشعراء مع أنه ترجم للبحثري^(٢) ولأبي تمام^(٣) ولأبي العيناء^(٤) والناشيء م^(٥) ٢٩٣ وسواهم.

وأما ابن المعتز فشاعريته وشعره مفصل في كتابي "ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان".

بين أبي تمام والبحتري

١- بزغت شاعرية أبي تمام في آفاق الأدب العربي في مشرق القرن الثالث الهجري، فهتف الناس بها، وأنصتوا إليها، معجبين بهذا الرجل الذي سار بالشعر العربي في مضمار جديد ونهج غريب. ترك أبو تمام الحلبة التي جرى فيها الشعراء قبله، وأخذ يتحدث عن العواطف البشرية والحياة الإنسانية بلغة تباين اللغة التي ألفها الناس وتحدث بها قبله الشعر والشعراء. لم يقف في المجال الضيق الذي وقف فيه الشعر العربي فترة طويلة بشار وبعده، بل أضاف إليه ثروة طائلة من شتى الأخيلة الرائعة والمعاني الدقيقة والحكم الإنسانية العليا، فكان له قدم وطيدة في المعاني، وإبداع نادر فيها، وإغراب فيما يستنبطه منها، وتجديد فيما يأخذه من مألوفها، فهو حين يصف الغناء يصفه بلهجة جديدة مبدعة:

(١) ٥٤ الوساطة.

(٢) ١٨٦ طبقات ابن المعتز.

(٣) ١٣٣ المرجع.

(٤) ١٩٦ المرجع.

(٥) ١٩٨ طبقات الشعراء لابن المعتز.

ولم تصممه لا يصمم صداها
فلو يستطيع سامعها فداها
ورت كبدي فلم أجهل شجاها

ومسمعة تقوت السمع حسنا
مرت أوتارها فشجت وشاقت
ولم أفهم معانيها ولكن

وحين يتحدث عن الغيث يتحدث عنه بنعمة ساخرة آخدة:

مستغيث بها الثرى المكروب
لسعى نحوها المكان الجديب
طبيع قامت فعانقتها القلوب
محل منها كما استسر المريب

ديممة سمحة القياد سكوب
لو سعت بقعة لإعظام أخرى
لذ شؤبوبها فلو تسو
كشف الروض رأسه واستسر الـ

وحين يتحدث عن صلات الأدب التي تؤلف بين الأدباء، يتحدث وكأن معه

لسان كل أديب وعاطفة كل شاعر:

نسرى ونغدو فى إخاء تالد
عذب تحدر من غمام واحد
أدبا أقمناه مقام الوالد

إن يكدمطرف الإخاء فإننا
أو يختلف ماء الوصال فماؤنا
أو يفترق نسب، يؤلف بيننا

وحين يشيد بذكر رجل تشيد معه الدنيا بذكره:

تكاد تهتز من أطرافها صلفا

جم التواضع والدنيا بسؤده

وحين يبكى الراحلين من أحبابه ويصف عصف النوى بنفوسهم ومغانيهم،

يبعد حتى لكان الناس جميعا تبكيهم معه، فيقول:

ومحت كما محت وشائع من برد
فيادمع أنجدنى على ساكنى نجد

شهدت لقد أقوت مغانيكم بعدى
وأنجدتم من بعد اتهام داركم

أو يقول:

وعاد قتاداً عندها كل مرقد
من الدم يجرى فوق خد مورد
إلى كل من لاقت وإن لم تودد

غدت تستجير الدمع خوف نوى غد
فأجرى لها الإشفاق دمعا موردا
هى الشمس يغنيها تودد وجهها

ثم يستمر فى توقيع لحنه الرائع:

ففزت به إلا بشمل مبدد
أذ به إلا بنوم مشرد

ولكننى لم أحو وفرا مجمعا
ولم تعطنى الأيام نوما مسكنا

وهو حين يبكى المجد الأفل والبطولة الشهيدة تبكى معه الإنسانية جميعاً:

فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر

توفيت الآمال بعد محمد وأصبح في شغل عن السفر السفر

وهو بعد ذلك كله رجل مرهف الشعور مشبوب العاطفة قوى الإحساس بالجمال تتجلى هذه الصفات جميعا في أسلوبه الشعري، فهو صاحب صنعة يطلبها ليرضى بها وجدانه ومشاعره وذوقه فتجئته بعد نصب أحيانا وعفو الخاطر أحيانا أخرى. وهو في أكثر ما يأتي به منها مبدع مجيد. ثم هو لا يرضى لمعناه الغريب الساحر. ولا لصنفته البديعة الآخذة إلا أسلوباً عالياً قوياً محكم النسيج، يتأنق في اختياره وطلبه تأنق المصور الماهر في اختيار الألوان التي يجرى بها ريشته، ويبرز فيها لوحته.

ترجع هذه الروح الشعرية القوية التي تجلت في شعر أبي تمام إلى أسباب بعيدة من الدم والعنصر، وأسباب قريبة من البيئة والثقافة. فأبو تمام رجل آرى نشأ في بيئة عربية فكان له من العقلية الآرية حظ ومن الخيال السامى نصيب. يؤيد رأى هذا تلك الرواية التي ذاعت عن أبي تمام في عصره وتناولها علماء الأدب بعد عصره، كالصولى والآمدى وابن خلكان^(١) وياقوت وسواهما، وهى الرواية التي تؤكد لنا أن أبا تمام ولد في الشام من أب نصرانى اسمه (تدوس). ولما نشأ في طيء ادعى نسبه فيهم وحرف اسم والده فصار "أوسا" وإذا نظرنا إلى الشعراء الذين ساءت علاقاتهم بأبي تمام كمخلد بن بكار الموصلى والوليد، وجدناهم يتهمون بدعوة أبي تمام تهكما لا ذعا ساخرا. ألا نسمع قول مخلد فيه:

أنا ما ذنبى إذا خا لـفـنـى فـيـك الأناـم
أنت عسندى عسربى عـسـرـبـى والسـلام

أو قوله أيضاً:

ويحك من دلاك فى نسبة قلبك منها الدهر مذعور
إن ذكرت طاء على فرسخ أظلم فى ناظرك السنور

أو قول الوليد فى التهكم به:

دع الهجاء فإن الله حرمه واقصد إلى الحق إن الحق متسع
واذكر حبيب بن أوشونا ودعوته فإن طيا إذا سبوا به جزعوا

ألا تراه يؤكد ذلك وينبه على أنه يتكلم كلمة حق؛ وأن فى الحق ميدانا متسعا للنقد والتهكم، وألا ترى الوليد يظهر لنا طيا فى صورة الجزع الهلوع إذا ما

(١) ص ٥ - ٣٩ ابن خلكان ج ٤.

ذكرت بدعوة أبي تمام فيهم! ولا يضيرنا هذا التباير في اسم والد أبي تمام وسواء أكان تدوس أم أوشونا فإن الغاية واحدة! والعربي كثيرا ما ينطق الاسم الأعجمي نطقا بعيدا عن أصله ومحرفا عن حقيقته. ثم ألا يكون لنا من ذلك دليل ملموس يؤيد ما نذهب إليه؟ على أننا لا ننكر أن تخرج الروح العربية السامية شاعرية كشاعرية أبي تمام، ولكننا نقول: إن عقلية أبي تمام العربية قد أتت بالبدع العجيب، وسما بها أن لقحت بثقافة أخرى استمدها الشاعر من عناصر الدم والجنس الذي كان له مظاهر نفسية وفكرية في عقل أبي تمام فخرج في ذكائه النادر وعقليته الناضجة وملكاته الشعرية الخصبة.. ثم وراء هذا السبب أسباب قريبة تأثرت بها روح أبي تمام وتلونت بألوانها: فنشأته في طيء وثقفه بثقافتها العربية، وسطوع نجم الأدب والشعر في عصره حين كان الأدب عامة والشعر خاصة سمر المجالس وحديث الخاصة ووسيلة الثروة والجاه والمجد، ثم إقباله على الأدب والشعر يروى ظمأه ونهمه من مشارعهما العذاب؛ كل تلك الأسباب ساعدت على السمو بشاعرية أبي تمام إلى الذروة، وبلوغها الغاية التي ينشدها الشعراء؛ حتى كان لها الأثر البالغ في الأدب والشعر في عهد أبي تمام وبعده، وحتى شغل بها الناس جميعا على اختلاف طبقاتهم وثقافتهم ومذاهبهم؛ ولقد بلغ من أثرها أن كان الشعراء لا يستطيعون أخذ جائزة إلا بإذنه، ولا ينالهم خير إلا بسببه؛ وكان جميع الشعراء في عصره يعترفون بشاعريته ويقرون بأستاذيته، ويقتفون أثره في صنعته ونهجه الشعري⁽¹⁾، وجرى على وتيرته الشعراء بعده، فنهلوا من منهله، وساروا على طريقته، كابن المعتز⁽²⁾ والمتنبي وسواهما.

ب- وشاء القدر أن يظهر في عهد أبي تمام وعلى يديه ومن قبيلته طيء، شاعر مطبوع: هو أبو عبادة البحرى، الذي نهج السبيل المعبدة التي نهجها الشعراء قبله، وأثر مذهب العرب الشعري الموروث على مذاهب المحدثين المبتدعة، فعنى باستواء النظم، وصحة السبك، وحلاوة اللفظ، أكثر مما عنى بالمعاني والغوص على نافرها البعيد، فخرج شعره ساحر الرونق، صحيح الطبع، قريب المعاني واضحا قربه من مذهب العرب الشعري وأسلوبهم فيه، أو كما يقول البحرى نفسه:

ومعان لو فصلتها القوافي	هجننت شعر جرول ولبيد
حزن مستعمل الكلام اختياراً	وتجنبن ظلمة التعقيد
وركبن اللفظ القريب فأدرک	ن به غاية المرام البعيد

(1) ويقول فيه صاحب الوساطة: وأراه قبله اصحاب المعاني وقدوة أهل البديع.

(2) ٢٦٢ أسرار البلاغة.

حتى قال الناس : "نظم البحترى"^(١) واتخذوه مثلاً، وحتى قيل فيه إنه أثر اللفظ على المعنى وأراد أن يشعر فغنى، وقيل : "أعرابي الشعر وما فارق عموده". وقد قال البحترى عن مذهبه هو ومذهب أبي تمام في الشعر : "أبو تمام يغوص على المعاني، وأنا أقوم بعمود الشعر". وملك البحترى إمارة الشعر في عهده كما ملكها أبو تمام من قبل، حتى روى أنه أحمل خمسمائة شاعر^(٢) في زمنه، وذهب بجاه الشعر ومجده دون كثير من الشعراء، واتبعه في نهجه الشعري معاصروه ومن بعدهم من الشعراء.

ج - أثر الشاعرين في النقد الأدبي : ودفعت نقاد الشعر وعلماءه إلى العناية بشعر الطائيين أسباب كثيرة : من اتحاد بيئة الشاعرين وتقارب عصرهما، وغزارة شعرهما وجودته، وسمو إلهامهما، وتباين نهجيهما فيه، فدرس الأدباء والنقاد شعر الرجلين في عصرهما وبعد عصرهما، وعنوا بنقده، ولجوا في الموازنة بينهما وتفضيل أحدهما على الآخر، وتعصب لهذا فريق ولذلك فريق : فأما من تنقف بالثقافة العربية المحضة، وطبع طبعه على حبها، واكتسب الأدب بذوقه، فلم ير الشعر إلا لأمريء القيس والناطقة، أو لجريز والفرزدق، أو لبشار وأبي نواس، وأثر منه ما كان كثير الماء صحيح الطبع قريب المأخذ والمعاني، مستوى الأسلوب غير مستكره اللفظ ولا معقد التراكيب. كأبي سعيد الضيرير الشاعر وأبي العميثل شاعر آل طاهر م ٢٤٠هـ وكالمبرد م ٢٨٥هـ والآمدي م ٣٧١هـ فهؤلاء آثروا البحترى وقدموه، ودفعوا أبا تمام عن بلوغ غايته؛ وأما من تزود مع الثقافة العربية بنصيب من الثقافات الأخرى فأقبل عليها يدرسها ويتأثر باتجاهها ومنحأها العقلي، ومال إلى الفكرة البعيدة والمعاني الغربية والمثل السائر والحكمة البليغة، فقد آثر أبا تمام وفضله تعصب له، كالصولي وقدامة^(٤)، وكمارة ابن عقيل وسواهم، على أننا نجد طائفة قد تعصبت على الرجلين معا، وهم الذين لجوا في معاداة المحدثين وشعرهم ولم يروا الشعر إلا ما كان قديما جاهليا أو إسلاميا أمويا، وختموا سجل الشعراء بابن هرمة وبشار، وهم رواة اللغة والأدب الذين عكفوا على الشعر الجاهلي وما قرب منه جمعا ورواية ودراسة كالأصمعي (٢١٣هـ) وابن الأعرابي ويحيى بن أحمد الشيباني وسواهم ممن لا

(١) اليتيمة.

(٢) ابن الأثير ص ٣٠٤.

(٣) ١٣٥ وساطة وه موازنة.

(٤) ألف كتابا في الرد على ابن المعتز فيما عاب فيه أبا تمام.

يرى لمحدث فضلا ولا يقر له بإحسان، ينهجون في ذلك نهج أستاذهم أبي عمرو بن العلاء الذي كان لا يحتج بيت إسلامي، وكان يقول في شعر جرير والفرزدق: لقد أحسن هذا المولد حتى هممت أن أمر صبياننا بروايتيه، وكان لا يعد الشعر إلا ما كان للمتقدمين؛ وسئل عن المولدين فقال: ما كان من حسن فقد سبقوا إليه وما كان من قبيح فهو من عندهم - ٧٣ ج ١ عمدة و٢٠٩ ج ١ بيان - ألا ترى ابن العربي الأعرابي ينشده الطوسي أرجوزة هي لأبي تمام فيستحسنها ويستجيدها ويأمر بكتابتها وهو لا يعرف أنها له، فلما أخبره أنها لأبي تمام ذمها وأسقطها وقال: خرق يا غلام!

وهكذا كان المتعصبون على أبي تمام أحد رجلين: رجل لا يدفع فضل المحدثين ولكنه يؤثر اللفظ والأسلوب على المعنى والإغراق فيه والعناية باستنباط لطيفه؛ ورجل نقم على أبي تمام مكانته فراح يطعن فيه ويتعصب عليه كدعبل، ولم يعد المتعصبون على أبي تمام وله حجة يؤيدون بها آراءهم وحكمهم، وأخذت حركة النقد تستعر، وأخذ المؤلفون يؤلفون الكتب في نقد الشعارين وتفضيل أحدهما، فألف ابن المعتز (م سنة ٢٩٦هـ) رسالة في محاسن شعر أبي تمام ومساويه، وألف أبو العباس القطريلي^(١) كتابا في إحالة أبي تمام وخطئه، وألف أحمد بن طاهر سنة ٢٨٠هـ وأحمد بن عمار في سرقاته، كما ألف أبو الضياء بشر بن تميم كتابا في سركات البحتري وأبي تمام، وفي القرن الرابع ألفت كتب كثيرة في هذا الموضوع أهمها أخبار أبي تمام لأبي بكر بن محمد بن يحيى الصولي م سنة ٣٣٦هـ أشاد فيه بأبي تمام ورفع مكانته وتعصب له وقدمه، وكتاب الموازنة لأبي القاسم الحسن ابن بشر بن يحيى الامدي م سنة ٣٧١ عرض فيه شعر الشعارين على ميزان النقد، ثم وازن وناقش وحكم، جانحا إلى إثارة البحتري وتفضيله، ولم تخل أمهات كتب الأدب وأصوله كالأغاني والمرزباني ومعجم الأدباء وسواها من الكتب من الكلام على الشعارين وشعرهما وإثارة حركة النقد والموازنة بينهما.

موازنات بين قصائد من الشعر العباسي

وهذه موازنات أدبية جديدة بين هؤلاء الشعراء الأربعة: أبي تمام والبحتري وابن الرومي وابن المعتز، حيث ندرس كثيرا من الآثار الأدبية التي تجمعها وحدة واضحة في الغرض أو في الاتجاه؛ لتكون من هذه الدراسة رأيا صحيحا في أحكامنا الأدبية على هؤلاء الشعراء.

(١) موازنة.

١- قال أبو تمام في الغيث :

ديمة سمحة القياد سكوب
لو سعت بقعة لإعظام أخرى
لذ شؤبوبها وطاب فلو تسطيع
فهي ماء يجرى وماء يليه
كشف الروض رأسه واستسر
فإذا الرى بعد محل وجرجا
أيها الغيث حى أهلا بمنغدا

وقال ابن الرومي :

سحاب قيست بالبلاد فألفيت
حدثها النعامى مثقلات فأقبلت
غيوث رأى الإمحال فيها حمامه
أظلت فقال الحرث والنسل هذه
فأطفأ نيران الغليل مواطر

وقال البحتري :

ذات ارتجاز بحنين الرعد
مسفوحة الدمع بغير وجد
جاءت بها ريح الصبا من نجد
فراحت الأرض بعيش رغد

وقال ابن المعتز :

وغيث خصيب الترب تندی بقاعه
رحيب كموج البحر يلتهم الربا
ألحت عليه كل طخياء ديمة
فما طلعت شمس النهار ضحية
كأن الرحاب الجون والفجر ساطع

مستغيث بها الثرى المكروب
لسعى نحوها المكان الجديب
قامت فعانقتها القلوب
وعزالي^(١) تنشأ وأخرى تذوب
المحل منها كما استسر المريب
ن لديها يبرين أو ملحوب
ك وعند السرى وحين تؤوب

غطاء على أغوارها ونجودها
تهادى رويدا سيرها كركودها
فرين حياة الأرض بعد همودها
فتوح سماء أقبلت فى سدودها
مضرجة نيرانها فى وقودها

مجرورة الذيل صدوق الوعد
لها نسيم كنسيم الورد
فانتثرت مثل انتشار العقد
من وشى أنوار الربا فى برد

بهيم الذرى أبواب قيعانه خضر
ويغرق فى أكلانه النعم الدثر
إذا ما بكت أجفانها ضحك الزهر
ولا أصلا إلا ومن دونها خدر
دخان حريق لا يضىء له جمر

(١) جمع عزلاء : مصب الماء من الراوية ونحوها.

وقال أيضاً :

وسارية لا تمل السبكا
سرت تقدح الصبح في ليلاها
فلما دنت جلجلت في السما
ضمان عليها ارتداء اليفاع
فما زال مدمعها باكيا
فأضحت سواء وجوه البلاد
جری دمعها فی حدود الثرى
بسرق كهندية تنتضى
ء رعدا أجش كجر الرحا
بأنوارها واعتجار الربا
على الترب حتى اكتسى ما اكتسى
وجن النبات بها والتقى

فتجد لأبى تمام الأسلوب الجيد والتصوير الجيد والاستعارات الرائعة والمعاني المبتكرة والمبالغة المقبولة والشعور العميق بأثر الغيث في الأرض وحاجة الأرض للماء. ونجد ابن الرومي يصف الغيث بالكثافة والإطباق وكثرة الماء وحاجة الأرض إليه، مع تقصير عن أبى تمام في التصوير والوصف والأسلوب، ومع اعتماد عليه وأخذ من معانيه كما تراه في بيته الذي قبل الأخير. وتجد للبحرئى أسلوبه الجميل وصياغته الفنية ولكنك لا تحس بأثر لشخصيته فيما وراء الأسلوب من معنى وتصوير وخيال، بل هو في ذلك مقلد كسواه من الكثير من الشعراء. ولكنك تجد ابن المعتز قد ازدحمت في أسلوبه الصياغة الفنية الدقيقة والصور الشعرية الكثيرة التي تغلب عليها روح الإيجاز وجزالة الأسلوب في قطعه الأولى وعدوبته في الثانية مع جمال التشبيه والاستعارة والطباق، وهو في قطعه الثانية يقف بجانب أبى تمام في المعاني والتصوير وظهور أثر شخصيته الواضحة في الأسلوب والتعبير.

٢- وقال أبو تمام في ذكرى فراق أحبابه له :

نسائلها أى المواطن حلت
وماذا عليها لو أشارت فودعت
وما كان إلا أن تولت بها النوى
فأما عيون العاشقين فأسخت
ولما دعانى البين وليت إذ دعا
فلم أر مثلى كان أوفى بعهدا

ويقول في موقف الوداع :

أما وقد كتمتهن الخدور ضحى
لما استحر الوداع المحض وانصرمت
فأبعد الله دمعاً بعدها اكتما
وأخر الصبر إلا كاظما وجمما

رأيت أحسن مرئي وأقبحه
فكاد شوقي يتلو الدمع منسجما

وقال ابن الرومي :

لست أنسى امتناع صبرك للتو
وانحدار الدموع كاللؤلؤ الرطب
والستفاتا نحوى وقد قبضتني
ومقالا جرى وللشوق في الأحشاء
حاطك الله بالكلاءة والصنع

وقال البحتري:

ما أرى البين مخليا من وداع
وبود القلوب يوم استقلت
منزل هاج لي الصبابة والشو
يوم كان المقام في الدار شكا

وقال :

قد أرتك الدموع يوم تولت
عبرات ملء الجفون مررتها
إن تبث وادع الضمير فعندى

وقال ابن المعتز :

لا مثل من يعرف العشاق حبه
نأوا بليل فزمو كل بعمله
إنى وأسماء والحى الذين غدوا
لكالربيط وقد سيقت قرينته
فطيروا القلب وجدا بين أضلعه
ما أنس لا أنس إذ قامت تودعنا
تفتر عن مقله حمراء موقدة
كأنها حين تبدو من مجاسدها

مستجمعين لي : التوديع والعنما
إن كان في الأرض شوق فانسجما

ديع والبين مؤذن بشتات
هوى من مدامع قرحات
عنك أيدي الفراق حال التفاتي
نار أليمة الحركات
ووقاك أعين العائدات

أنفس العاشقين حتى تبينا
ظعن الحى أن تكون عيونا
ق قرينى فيه فساء قرينا
يبعث الحزن والرحيل يقينا

ظعن الحى ما وراء الدموع
حرق للفراق ملء الضلوع
نصب من عشية التوديع

بل أنت من بينهم تشقى بمن تمق
ويعمل جمل فى أنفه الحلق
بها على الكرم من نفسى وما وثقوا
ينازع الحبل مشدوداً وينطلق
وعذبوا النفس حتى ما بهارمق
بمقلة جفنها فى دمعها غرق
تكاد لولا دموع العين تحترق
بدر تمزق أركانه الغسق

فتجد أبا تمام يتصرف فى المعانى المعروفة تصرف حسنا ويصوغها صياغة
قوية فيها صنعة كثيرة أظهرها المقابلة، فهو فى البيت الأول يتساءل فى حزن عن

الديار التي أمتها محبوبته مع بعض القبح في تكرير "أى وأيت" إذ لا فائدة لهذا التكرار ولا جديد وراءه. وفي البيت الثاني يتحسر لعدم توديع محبوبته له قبل سفرها البعيد ولو بإشارة عابرة بأطراف البنان، ويصور في الثالث حزنه لفراقها، وكذلك في الرابع إلا أنه يضيف فيه إلى ذلك فرح خصومه بهذا الفراق وفي البيتين الأخيرين يصور وفاءه لعهد الحب وخيانتها لهذا العهد المقدس؛ وكذلك هو في أبياته الأخرى، معان واضحة معروفة يلم بها الشاعر في كثير من تعقيدته الفني في صياغته وصناعته الشعرية، ولكنك تجد لابن الرومي تصويراً بارعاً، ينطق عن شعور صحيح بألم الوداع، وإدراك صادق لأحزان الفراق، وتأثير واضح بهذه الساعات الحافلة بالذكريات، والتي يعز فيها على الأحباب الصبر. فتتهدر الدموع من عيونهم القرحات، ويعزون أنفسهم بتتبع أبصارهم للحبيب الراحل حين رحيله، وبالنداء له بأن يحوطه الله بالرعاية، وأن يحفظ عليه شبابه وجماله، ويمنع عنه أذى الحاسدين والعائدات، وينزل البحترى عن هذه الدرجة العالية التي بلغها ابن الرومي في أبياته، فهو لا يشعر إلا بما يشعر به الناس، وإن أوتى عدوبة التعبير وجمال الأداء، بل إنه يخرج على أدب الحب فيعلن سخطة على حبيبه الراحل. وابن المعتز يصل في أبياته إلى درجة ابن الرومي ولكن يهبط به أنه لم يتناول موقف الوداع وتصويره ببساطة ابن الرومي وصدق تصويره، ولكنه على أي حال فوق أبي تمام والبحترى في قوة الشعور وتأجج العاطفة وظهور الشخصية ووضوح التصوير الذي يمتزج فيه الفن بالفكرة والشعور، ويتراءى في ثوب من العدوبة والترف لولا بيته الثاني الذي أضعفه ببعملته ويعمله الجمل كما يقول :

٣- وقال أبو تمام في الشيب :

لعب الشيب بالمفارق بل جد
خضبت يدها إلى لؤلؤ العقد
كل داء يرجى الدواء له إلا
فأبكي تماضراً ولعوباً
وما أن رأيت شواتي خضيباً
الفظيين : ميته ومشيبا

وقال :

فلا يؤرقك إيماض القتير به
فإن ذاك ابتسام الرأي والأدب

وقال :

له منظر في العين أبيض ناصع
ولكنه في القلب أسود أسفح

وقال ابن الرومي :

قالوا المشيب نذير، قلت : لا وأبي
لكن بشير يجلى وجهه الكربا

أليس يخبر من أرسى بساحته
يا حسن هاتيك بشرى عند ذى أسف
لم يرع حق شباب كان يصبحه
لو لم يجب حفظه إلا بأن له
أخى وإلفى وتربى كان مولدنا
بضمنا حجر أم فى رضاعتنا
إن الشباب لمألوف لصحبته
والشيب مستوحش منه لغربته

وقال :

لا بدع أن ضحك القتير

وقال :

قد يشيب الفتى وليس عجيبا

وقال البخترى :

عيرتنى المشيب وهى بدته
لا تريبه عارا فما هو بالشيب
وبياض البازى أصدق حسنا

وقال :

عدلتنا فى عشقها أم عمرو
ورأت لمة ألم بها الشيب
ولعمرى لولا الأقاحى لأبصر
أى ليل ينهى بغير نجوم

وقال ابن المعتز :

صدت شرير وأزمنت هجرى
قالت : كبرت وشبت، قلت لها

وقال : إن شيب الرأس نور الهموم

وقال :

قد أنكرت مشيبا
يسا هند ما شاب قلبى

أن اللحاق بحب النفس قد قربا
على الشبية والعيش الذى نضبا
من لم يجب إليه فقد العطبا
حق الرضاع على إخوانه وجبا
معا وربتنى الأيام حيث ربا
وملعب حين ناغت بيننا للعبا
تلك القديمة، مبكى إذا ذهب
والشى مستوحش منه إذا غربا

فبكى لضحكته الكبير

أن يرى النور فى القضيبي الرطيب

فى عذارى بالصد والاجتناب
ولكنه جلاء الشباب
إن تأملت من سواد الغراب

هل سمعتم بالعاذل المعشوق
فريعت من ظلمة فى شروق
ت أنيق الرياض غير أنيق
أو سحاب يندى بغير بروق ؟

وصغت ضمائرهما إلى الغدر
هذا غبار وقائع الدهر

عمر رأسى واستعر
وإنما شباب الشسر

وقال :

رأت أقحوان الشيب لاح وأذنت
فقلت: محاك الدهر في صبغة الصبا
ملاحظات أيام الصبا بوداع
وكنت من الفتيان خير متاع

فوجد الصنعة تهجن من أبيات أبي تمام الأولى الثلاثة وتضع من قيمتها، ثم تخف وطأة هذه الصنعة في الثلاثة الأخيرة فتعجبك، وتعجب بها وباحتجاجة للمشيب مع شعوره بالحزن منه.

ولكنك تجد عند ابن الرومي عمق شعور بالشباب وحزن عليه ووفاء له، وعمقا في تصوير ذلك كله، يفوق كل حد، ويبلغ غاية الجمال، ويملك عاطفتك ويستبد باستحسانك؛ مع تعليل للنفس في بيته الأخير. والبحتري في أبياته يحاول إقناع حبيبته أم عمرو بالرضا بحالته ومشيبه، فاحتج بما أسعفه بيانه وتفكيره بالاحتجاج به، في أسلوب مألوف ومعان قريبة؛ وبيته "وبياض البازي" قريب المعنى، إلا أنه جميل التصوير صادق ساذج التفكير سهل الاستنباط. وأما ابن المعتز فينهج نهج أبي تمام والبحتري ولكنه لا يصل إلى مكانة ابن الرومي في تصويره وتصويره للشباب والمشيب.

٤- وقال أبو تمام في الربيع:

رقت حواشي الدهر فهي تمرمر
يا صاحبي تقصيا نظر يكما
تريا نهارا مشمساً قد شابه
دنيا معاش للورى حتى إذا
من كل زاهرة ترقرق بالندى
حتى غدت وهداتها ونجادهما
مصفرة محمرة، فكانها
وغدا الثرى في حليه يتكسر
تريا وجوه الأرض كيف تصور
زهر الربا فكانما هو مقمر
حل الربيع فإنما هي منظر
فكانها عين إليك تحسدر
فنتين في حلل الربيع تبختر
عصب تيمن في الوغى وتمضر

وقال ابن الرومي :

أصبحت الدنيا تروق من نظر
أثنت على الله بآلاء المطر
نيرة السنوار زهراء الزهر
تبرجت بعد حياء وخفر
بمنظر فيه جلاء للبصر
فالأرض في روض كأفواف الحبر
تبرجت الأنثى تصدت للذكر

وقال البحترى :

من الحسن حتى كاد أن يتكلما
أوائل ورد كن بالأمس نوما
ينث حديثا كان قبل مكتما
عليه كما نشرت وشيا منمنما
وكان قذى للفين إذ كان محرما
يجيء بأنفاس الأحبة نعما

أتاك الربيع الطلق يخال ضاحكا
وقد نبه النيروز فى غسق الدجى
يفتها يرد السدى فكأنه
فمن شجر رد الربيع لباسه
أحل فأبدى للعيون بشاشة
ورق نسيم الريح حتى حسبه

وقال. ابن المعتز :

مثل النساء تبرجت لزناة
نطقت صنوف طيورها بلغات
قديت وآذن حياها بممات

انظر إلى دنيا ربيع أقبلت
وإذا تعرى الصبح من كافوره
والورد يضحك من نواظر نرجس

ويقول :

ورف على الجسر برد السحر
فمنتظم مسنه ومنتنرا
فلا فية حر ولا فية قر

أتاك الربيع بصوب البكر
ونفرت الأرض عن جوهر
وقد عدل الدهر ميزانه

فترى فى قطعة أبى تمام شعورا واضحا قويا بجمال الربيع وحياته ومناظره
الفاتنة، وأسلوبا باهرا رائعا قوى التعبير والتصوير. ونجد كذلك عند ابن الرومى
شعورا وتصويرا صادقين للربيع والحياة والطبيعة فيه، ولكنه ينزل عن أبى تمام فى
سمو التعبير وجودته وروح الفن التى تشيع فى أبيات أبى تمام.

أما أبيات البحترى فجميلة عذبة ممتازة فى أسلوبها ولكن تنقصها الروح
والحياة وقوة الشعور التى تندفق فى أبيات أبى تمام وابن الرومى، وتضعف من روح
البحترى فيها قيود الصنعة التى تطفى عليه وتضعف من شعوره فيها.

وتجد عند ابن المعتز شعورا واضحا بالحياة وأسرار الطبيعة فى الربيع، إلا
أن أسلوبه ضعيف لا يبلغ أسلوب أبى تمام، وأول أبياته مسروق من ابن الرومى.

٥- ويقول أبو تمام فى الفرس:

كأنه قطعة من الغلس
تخليق^(١) عروس الأبناء للعرس

أو أدهم فيه كمسة أمم
مخلق وجهه على السبق

(١) التخليق : التلطيخ بالطيب.

فهو يسر الرواض بالنزق
صهلق^(١) في الصليل تحسبه

ويقول ابن المعتز :

وسابح مسامح ذو مـيعة
تراه إن أبصرته مستقبلاً
عاري النسا ينتهب التراب له
تصافح الترب إذا ماركضت
تحسبه يزهي على فارسه
أسرع من لحظته إذا ونا
يبلغ ما تبلغه الريح ولا
ذو غرة قد شدخت جبهته
وناظر كأنه ذوروعة
ومنخر كالكير لم تشق به
قد خاض في يوم الوغى في حلة

الساكن منه واللين والشرس
أشرح^(٢) حلقومه على جرس

كأنه حريق نار تلتهب
كأنما يعلو من الأرض حذب
حوافر باذلة ما ينتهب
لكنها مع الصخور تصطخب
وإنما يزهي به إذا ركب
طوع من عنانه إذا جذب
تبلغ ما يبلغه إذا طلب
وأذن مثل السنان المنتصب
وكفل ململم ضافي الذنب
أنفاسه ولم يخنها في تعب
حمراء تسديها العوالي والقضب

فترى في أبيات أبي تمام وصفا للفرس تطيف به الحوشية والغرابة لاسيما
في بيته الأخير.

أما أبيات ابن المعتز فتفوق أبيات أبي تمام لكثرة معانيها وقوة تصويرها
والجدة في أساليبها، ولجمال استعارتها وتشبيهاها الدقيقة مع المبالغة والعدوبة في
ألفاظها وأسلوبها مما يظهر بوضوح أمام النقد العادل النزيه.

٦- وإذا قرأت قطعة ابن الرومي في وصف الأسد :

فما أسد جهم المحيا شتيمه^(٣) خبثنة ورد السبال غضنفر

التي جمع فيها كثيرا من المعاني والأوصاف التي تصور خلق الأسد وقوته
أوضح تصوير، ثم قرأت قطعة البحتري في الأسد :

غداة لقيت الليث والليث مخدر يحدد نابا للقساء ومخلبا

(١) أي شديد الصوت.

(٢) أي شد.

(٣) أي كريبه.

والتي ألم فيها بطرف مما ذكره بشر بن عوانة في رائيته في الأسد⁽¹⁾، مع جمال في الأسلوب وطلاوة في السبك وجودة في الصياغة وإن كانت معانيها واضحة محدودة قريبة.

ثم قرأت قطعة ابن المعتز في الأسد :

وما ليث غاب يهدم الجيش خوفه بمشية وثاب على النهي والزجر
يجر إلى أشباله كل ليلة عقيرة وحش أو قتيلا من السفر
يزعزع أحشاء البلاد زئيره ويبطل أبطال الرجال من الذعر
إلى آخر هذه القطعة الرائعة .

وجدت ابن المعتز يربى على البحترى فيها بكثرة ما أتى به من معان، ولكنه لا يصل إلى ابن الرومي في قطعته، ووجدته يحاول أن يعطيك صورة واضحة للأسد في قوته وفزع الناس والبلاد منه، ولكنه لا يجيء سابقا بل يسير وراء رائد الركب موفور الإجابة والتصوير.

موازنات بين الشعراء العباسيين

قال مسلم بن الوليد - وهو معنى سبق إليه - :

لا يستطيع "يزيد" من طبيعته عن المروءة والمعروف إحجاما

أخذ أبو تمام المعنى فكشفه وأحسن اللفظ وأجاده فقال :

تعود بسط الكف حتى لو أنه ثناها لقبض لم تطعه أنامله

وقال أبو تمام يصف مغنية تغنى بالفارسية :

ولم أفهم معانيها ولكن شجت كبدي فلم أجهل شجاها

أخذه من قول الحسين بن الضحاك - علي ما في قوله من المناقضة - :

وما أفهم ما يعنى مغنيينا إذا غنى
سوى أنى من حبي له استحسّن المعنى

⁽¹⁾ رواها البديع في مقاماته، وأولها :

وقد لاقى الهزبر أخاك بشرا
هزبرا أغلجا لاقى هزبرا

أفاطم لو شهدت بطن خبت
إذا لرأيت لبيثا أم لبيثا
وهي قصيدة من النمط العالى الذى لم يأت أحد بمثله.

لأنه قال : ما أفهم ما يعنى ، ثم قال : استحسّن المعنى ، وإنما أراد بالمعنى اللحن لا معنى القول ، وأجود من ذلك كله قول حميد بن ثور يصف الحمامة :

ولم أر مثلى شاقه صوت مثلها ولا عربياً شاقه صوت أعجم

وقال الأخطل يصف الخمر :

تدب ديباً فى العظام كأنها ديب نمال فى نقا يتهيل^(١)

أخذه أبو تمام فأفسد المعنى فقال :

إذا الراح دبت فيه تحسب جسمه لما دب فيه قرية من قرى النمل

وقال أبو العتاهية :

كم نعمة لا يستقل بشكرها لله فى طى المكاره كامنة

أخذه أبو تمام فقال :

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت وبتلى الله بعض القوم بالنعيم

وقد أحسن إذ جاء بالزيادة التى هى عكس المعنى الأول . وقال شاعر :

ما كنت أحسب أن بحراً زاخراً عم البرية كسلها إرواء

أضحى دفيناً فى ذراع واحد من بعد ما ملك الفضاء فضاء^(٢)

وقال أبو تمام وأبر عليه وعلى كل من ذكر هذا المعنى :

وكيف احتمالى للسحاب صنيعة بإسقائها قبراً وفى لحده البحر

وقال مسلم بن الوليد فى معنى بيت أبى العتاهية الأول :

أخ لى يعطينى إذا ما سألته ولو لم أعرض بالسؤال ابتدانيا

وأخذ أبو تمام معنى البيت ومعنى بيت أبى العتاهية الأول فقال :

ورأيتنى فسألت نفسك سيبها لى ثم جدت وما انتظرت سؤالى^(٣)

أو لعله أخذه من قول منصور النمرى بمدح الرشيد :

رأيت المصطفى هرون يعطى عطاء لىس ينتظر السؤالا

(١) النقا : كتيب الرمل ، يتهيل : ينهال .

(٢) ضاء : أضاء .

(٣) السيب : العطاء .

وأجود من هذا كله قول سلم الخاسر :

أعطاك قبل سؤاله فكفأك مكروه السؤال

وأخذ أبو تمام معنى بيت أبي العتاهية الثاني فقال :

كالغيث إن جنته وفاق ريقه وإن تحملت عنه لج في الطلب^(١)

وقال أبو تمام :

كم من يدلك لولا ما أخفها بالله أدفع عني ثقل فادحها
به من الشكر لم تحمل ولم تطق فإنني خائف منها على عنقي

وهو من قول أبي نواس، والمعنيان مختلفان لأن أبا نواس قال :

أنت امرؤ جلتني نعمًا لا تسدين إلي عارفة
أوهت قوى شكرى فقد ضعفا^(٢) حتى أقوم بشكر ما سلفا

فذكر أن نعم الممدوح قد غلبت الشكر فاستغاه من نعمة أخرى حتى يقوم بشكر نعمته السالفة، وأبو تمام قال : لولا ما أخفها به من الشكر لم أطق حملها، ثم أحسن وألطف في قوله : فإنني خائف منها على عنقي، ومعنى أبي نواس أجود وأبرع : وقال أبو تمام :

والشيب قد طرد الشباب بياضه كالصبح أحدث للظلام أفولا

أراد قول الفرزدق مع تقصير عن بلوغه شأوه :

والشيب ينهض في الشباب كأنه ليل يصيح بجانبه نهار

وقال أبو تمام :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول

أخذ المعنى من قول يزيد بن الطثيرة إذ يقول :

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبا خاليا فتمكنا

وهذا أجود ، لأنه ذكر العلة .

وقال ابن الخياط قصيدة يمدح بها المهدي فأجازه بجائزة ففرقها في

الدار، فبلغه، فأضعف له الجائزة، فقال :

لمست بكفى كفه أبتغى الغنى ولم أدر أن الجود من كفه يعدى

(١) ريق كل شيء : أفضله وأوله .

(٢) جلله : غطاء، وجلل المطر الأرض : عمها وطبقا فلم يدع شيئا إلا غطاه، أوهت : أضعفت.

فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى
أفدت، وأعداني فأتلفت ما عندي^(١)
أخذه أبو تمام فقال :
علمني جودك السماح فما
سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا
وقول ابن الخياط أبلغ وأجود، وقال العباس بن الأحنف :
وتسكب عيناي الدموع لتجمدا
أخذه أبو تمام فقال :
آآفة النحيب كم افتراق
وبيت عروة بن الورد أجود من بيتيهما، وهو قوله :
تقول سليمان لو أقممت بأرضنا
ولم تدر أنى للمقام أطوف
وأخذ المعنى أبو الطيب فقال :
لعل الله يجعله رحيلاً
يعين على الإقامة في ذراكا^(٢)
وقال توبة بن الحمير :
يقول أناس لا يضيرك نايها
بلى، كل ما شف النفوس يضيرها^(٣)
أخذه أبو تمام وزاد فيه فقال :
لا شيء ضائر عاشق، فإذا نأى
وقال مروان بن أبي حفصة :
ما ضرني حسد اللئام ولم يزل
أخذه أبو تمام فقال :
لقد آسف الأعداء مجد ابن يوسف
وقال أبو تمام :
فحيوا بالأسنة ثم ثنوا
مصافحة بأطراف الرماح
عنه الحبيب فكل شيء ضائر
ذو الفضل يحسد ذوو التقصير
وذو النقص في الدنيا بذى الفضل مولع

(١) أفدت : استفتت : ونسبة هذين البيتين إلى ابن الخياط رواية كتاب "الموازنة بين أبي تمام والبحترى،
للأمدي ص ٢٩" وكتاب "الصناعتين لأبي هلال العسكري ص ١٩١" والمشهور أنهما لبشار بن برد - أنظر
الأغاني جزء ٣ ص ٢٦.

(٢) يقال : أنا في ذرا فلان أي في ظله وكنفه.

(٣) ضاره يضيره : ضره.

أخذ قوله "فحيوا بالأسنة" من قول مسلم :

أخذ قوله "فحيوا بأطراف القنا وتعانقوا" معانقة البغضاء غير التودد

وأخذ قوله "مصافحة بأطراف الرماح" من قول أبي إسحق التغلبي:

دنوت له بأبيض مشرفي كما يدنو المصافح للسلام

وقال أبو تمام :

أمن بعد طي الحادثات محمداً يكون لأثواب الندى أبداً نشر!

أخذه من قول أبي نواس :

طوى الموت ما بيني وبين محمد وليس لما تطوى المنية ناشر

وقال أبو تمام في مصلوب :

قد قلصت شفتاه من حفيظته فخيل من شدة التعبيس مبتسما

سبقه عبد السلام بن رغبان فقال :

وإذا شئت أن ترى الموت في صو رة ليث في لبدتي رئبال^(١)

فالفه غير أنما لبدته

تلق ليثا قد قلصت شفتاه

وكذلك قال أبو تمام :

فلم أمدحك تفخيما بشعري ولكني مدحت بك المديحا

أخذه من حسان بن ثابت في مدحه للنبي ﷺ حيث قال :

ما إن مدحت محمدا بمقالتي لكن مدحت مقالتي بمحمد

ولا شك أن أبا بكر رضي الله عنه سمع قول حسان هذا حين استخلف عمر

رضي الله عنه فقال له عمر استخلف غيري فقال أبو بكر ما حبوناك بها وإنما حبوناها

بك.

وقال عروة بن الورد :

ومن يك مثلي ذا عيال ومقترا من المال يطرح نفسه كل مطرح

ليبلغ عذراً أو ينال رغبة ومبلغ نفس عذرها مثل منجح

(١) الرئبال الأسد والدنّب ومن تلده أمه وحده، والأول هو المراد.

أخذ أبو تمام هذا المعنى فقال :

فتى مات بين الطعن والضرب ميتة تقوم مقام النصر إذ فاته النصر

فعرورة بن الورد جعل اجتهاده فى طلب الرزق عذرا يقوم مقام النجاح،
وأبو تمام جعل الموت فى الحرب الذى هو غاية اجتهاد المجتهد فى لقاء العدو
قائما مقام الانتصار، وكلا المعنيين واحد غير أن اللفظ مختلف ..

وقال مسلم بن الوليد :

كذلك الغيث يرجى فى تحجبه حتى يرى مسفرا عن وابل المطر

أخذه أبو تمام فقال :

ليس الحجاب بمقص عنك لى أملا إن السماء ترجى حين تحتجب

وقالت مريم بنت طارق ترثى أخاها فى أبيات :

كنا كأنجم ليل بينها قمر يجلو الدجى فهوى من بينها القمر

أخذ أبو تمام اللفظ والمعنى فقال :

كان بنى نبهان يوم وفاته نجوم سماء خر من بينها البدر

أو أخذه من قول جرير يرثى الوليد بن عبد الملك:

أمسى بنوه وقد جلت مصيبتهم مثل النجوم هوى من بينها القمر

قال الآمدى : ولست أدرى أيهما أخذ من صاحبه. أمريم أخذت من جرير

أم جرير أخذ منها ؟ وقال أبو الأسود :

لا تنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

أخذه أبو تمام فقال :

ألوم من بخلت يداه وأغتدى للبخل تربا، ساء ذلك صنيعا

وهذا من العام الذى جعل خاصا، ألا ترى أن الأول نهى عن الإتيان بما
ينهى عنه مطلقا، وجاء بالخلق منكرًا فجعله شائعا فى بابه، وأما أبو تمام فإنه خصص
ذلك بالبخل وهو خلق واحد من جملة الأخلاق. وقال أبو تمام :

هو الصنع إن يعجل فنفع وإن يرث فللريث فى بعض المواطن أنفع

أخذه أبو الطيب فأوضحه بمثال ضربه له، وذلك قوله:

ومن الخير بطاء سيبك عنى أسرع السحب فى المسير الجهام

وهذا من المبتدع لا من المسروق، وما أحسن ما أتى بهذا المعنى في
المثال المناسب له، وكذلك قولهما في موضع آخر. قال أبو تمام:

قد قلصت شفتاه من حفيظته فخيّل من شدة التعبّيس مبتسما

فأخذه أبو الطيب المتنبى فقال:

وجاهل مده في جهله ضحكي إذا رأيت نيوب الليث بارزة
حتى أتته يد فراسة وفم فلا تظنن أن الليث مبتسم

ومما ينخرط في هذا المسلك قول أبي تمام:

وكذاك لم تفرط كآبة عاطل حتى يجاورها الزمان بحالي

أخذه أبو عبادة البحتري فقال:

وقد زادها إفراط حسن جوارها وحسن درارى الكواكب أن ترى
خلائق أصفار من الحسن خيب طوالع في داج من الليل غيب

فإنه أتى بالمعنى مضروبا له هذا المثال الذى أوضحه وزاده حسا.

وقال أبو تمام:

كلف يرب المجد يعلم أنه لم يبتدأ عرف إذا لم يتمم

فقال البحتري:

ومثلك إن أبدا الفعال أعاده وإن صنعا المعروف زاد وتمما

فأبو تمام قال: إن الممدوح يرب صنيعه أى يستديمه ويعلم أنه إذا لم
يستدمه فما ابتدأه، والبحتري قال إنه يستديم صنيعه لا غير، وذلك بعض ما ذكره أبو
تمام:

وقال أمية بن أبى الصلت يمدح عبد الله بن جدعان:

عطاؤك زين لامرئ إن حبوته ببدل وما كل العطاء يزين
وليس بشين لامرئ بذل وجهه إليك كما بعض السؤال يشين

أخذه أبو تمام فقال:

تدعى عطاياه وفرا وهى إن شهرت كانت فخارا لمن يعفوه مؤتقنا
ما زلت منتظرا أعجوبة زمنا حتى رأيت سؤالا يجتنى شرفا

فأمية أتى بمعنيين اثنين أحدهما أن عطائك زين والآخر أن عطاء غيرك
شين، وأما أبو تمام فإنه أتى بالمعنى الأول لا غير.

القسم الرابع

النقد الأدبي فى العصر العباسي

بلغ النقد العربي في القرن الثاني مرحلة من مراحل تطوره ، تناسب ما بلغه العرب في هذا العهد من نضج ثقافي وأدبي كبير .

كان الرواة كالأصمعي وخلف وحماد وأبي عبيدة يهتمون برواية الشعر وجمعه وكان لخلف مكانة في النقد " وكان أبو عمرو بن العلاء وأصحابه لا يجرون مع خلف في حلبة هذه الصناعة _ النقد _ ولا يشقون له غبارا لنفاذه فيها ، وحذقه بها، وإجادته لها ،^(١) ، وكان يجمع كثيرا من الأدب^(٢) ، وكان عالما بالغريب والنحو والنسب والأخبار شاعرا كثير الشعر جيده^(٣) ، وأصلح للأصمعي رواية من بيت شعر جرير وقال : ارووه كذلك فلقد كانت الرواة قديما تصلح شعر الأوائل^(٤) ، وأعجب بنقد بشار للشعر^(٥) ، وعرض عليه مروان لاميته ففضلها علي لامية الأعشى^(٦) ، وكان أبو عبيدة يرى أن أشعر الناس امرؤ القيس والنابغة وزهير^(٧) وأشعر الإسلاميين الفرزدق وجرير والأخطل لأنهم أعطوا حظا في الشعر لم يعطيه أحد في الإسلام^(٨) ، وكان الأصمعي يعجب بشعر بشار لكثرة فنونه وسعة تصرفه ولطبعه ، وكان يشبهه بالأعشى والنابغة ، ويشبه مروان بزهير والحطيئة^(٩) ، وكان يفضل بشارا على مروان^(١٠) ، وكان يقول هو وأبو عبيدة : عدي في الشعراء بمنزلة سهيل في النجوم يعارضها ولا يجري معها^(١١) ، وعاب بين يدي الرشيد قول النابغة :

نظرت إليك، بحاجة لم تقضها نظر السقيم إلي وجوه العود لذكركه
السقيم^(١٢)؛ وسئل المفضل عن الراعي وذو الرمة : أيهما أشعر فصاح صيحة منكورة،
أي لا يقاس ذي الرمة بالراعي^(١٣) .

(١) ١/١٩٧ العمدة .

(٢) راجع ٣/٢٢٤ البيان .

(٣) ٣٠٨ الشعر والشعراء ، ١١ : ١٦٠ معجم الأدباء .

(٤) ٢/١٣ زهر .

(٥) ٣/٤٣ الأغاني .

(٦) ٣/٤٠٢ العقد .

(٧) ٤٤٧ الجمهرة .

(٨) ٤٦ المرجع .

(٩) ٣/٢٥ الأغاني .

(١٠) ٣/٢٥ الأغاني ، ٢٥١ الموشح .

(١١) ٢/١٧ الأغاني .

(١٢) ٢/٢٧٠ العمدة .

(١٣) الموازنة : وكان ذو الرمة راوية للراعي ٢٠٧ طبقات ابن سلام .

وكذلك كان الأدباء ينقدون الشعر بفطرتهم وذوقهم ؛ وكان بشار أجودهم وأدقهم في نقد الشعر ومذاهبه، وكان أبو عبيدة يعجب من " فطنة بشار وصحة قريحته وجودة نقده للشعر ^(١)، وكان خلف يعجب من نقده للشعر ومذاهبه ^(٢)، وغضب بشار علي سلم لسرقته معانية ^(٣)، وكان مروان يعرض شعره عليه ^(٤)، وكان أبو العتاهية يعتمد علي معاني بشار ^(٥)، وكان أشجع يأخذ عنه ويشجعه ^(٦)، وكان ابن الرومي يقدمه ويزعم أنه أشعر من تقدم وتأخر ^(٧)، وكان كثير من الشعراء يجارون بشاراً في هذا الميدان .

ولكن جهود علماء اللغة في النقد كانت أقوى وأظهر فوضعوا الجاهلين في طبقات ولم يتركوا شاعراً مشهوراً من الجاهلين إلا رأوا فيه رأياً، ولا فنا من فنون الشعر إلا نقدوه ونوهوا بما فيه من جيد وردىء، وهم الذين جمعوا أقوال النقاد قبلهم في الشعر والشعراء ، ووازنو بين الإسلاميين والمتقدمين، ونقدوا رواية الشعر وبنيته ومعانيه وغير ذلك من الموضوعات .

- ٢ -

وفي القرن الثالث أخذ النقد يستقل بالبحث، والتأليف علي أيدي النقاد وعلماء الأدب وسواهم ، كابن سلام ٢٣١ هـ ، والجاحظ م ٢٥٥ هـ ، وابن قتيبة م ٢٧٦ هـ ، وابن المدبر م ٢٧٩ هـ ، والمبرد م ٢٨٥ هـ ، وابن المعتز م ٢٩٦ هـ ، وسواهم من الأدباء وعلماء الأدب واللغة وأصحاب الثقافات الحديثة وغير هؤلاء الذين خاضوا في أصول الموازنات والبلاغة وموازين النقد :

أ - فمن الأدباء النقاد : أبو تمام م ٢٣١ هـ ووصيته للبحثري حول الشعر وفنه ومذهب الشاعر فيه مثال واضح من أمثلة النقد الدقيقة وأصل من أصوله

(١) ٢/٢٣ الأغاني .

(٢) راجع ١/٤٣ الأغاني ، ٢١٠ الدلائل ، ٧٥ المفتاح ، ١٧ الإيضاح .

(٣) ٣/٤٨ الأغاني .

(٤) ٣/٥٨ الأغاني .

(٥) ٣/١٣٤ الأغاني .

(٦) ٣/١٣٧ الأغاني .

(٧) ٣/١٣ زهر الآداب وكان بشار يقدم جرير أعلى الفرزدق (١٣٩ طبقات ابن سلام) من حيث كان البحثري يفضل الفرزدق (٢٤ صناعتين) ونقد بشار قول كثير، إلا إنما يلي عصا خيزرانة . (٢/٨٠ الكامل) .

الأولى^(١)، وله آراء أخرى في النقد مفرقة في شتى المصادر^(٢)، ومنهم ابن المعتز وسواه .

وتميل هذه الطبقة الي العناية بأدب وشعر المحدثين ونقدهما ، وخاصة شعر أبي تمام والبحتري ، ولعلي بن أحمد المنجم رسالة في العباس بن الأحنف والعتابي والموازنة بينهما^(٣).

ب - ومن علماء الأدب ابن سلام والجاحظ وابن قتيبة :

أما ابن سلام فبصري راوية عالم بالشعر مؤلف في نقده . وعاش في النصف الأخير من القرن الثاني الهجري والثالث الأول من القرن الثالث ، ودرس وتثقف وأحاط باللغة والأدب والأشعار ، واهتم بالنقد مع تأثر بروح عصره في الاستيعاب والشرح والتحليل ، وله كتاب طبقات الشعراء الجاهلين وكتاب طبقات الشعراء الإسلاميين^(٤)، ولقد أدمجا في بعض وطبعا من عهد قريب باسم " طبقات الشعراء " والمقدمة المطبوعة في أوله هي مقدمة كتاب طبقات الإسلاميين ، يرشد الي ذلك الكثير من مقدمته كقوله : " ورتبت هذا المؤلف على عشر طبقات كل طبقة تجمع أربعة من فحول شعراء الإسلام ^(٥).

وكتابه أول مؤلف في النقد^(٦)، كما يقولون ،والصحيح أنه ألف قبله في موضوع كتابه نفسه كثير من الكتب كما سنذكره بعد قليل ، وبحوث كتابه تشمل ذكر أئمة العربية واتجاهاتهم العلمية ، وتتناول شرح الشعر العربي وأثره ونشأته وتطوره وتنقله في القبائل وانتحاله ، ثم يذكر طبقات الجاهلين العشر وشعراء المراثي وشعراء القرى العربية . كما يذكر طبقات الإسلاميين العشر جاعلا في كل طبقة أربعة من الشعراء ، مع الدراسة العميقة والتحليل الدقيق والنقد الممتع لرجال هذه الطبقات وحياتهم ومذاهبهم الفنية في الشعر ، والكتاب بحق من مصادر ثقافتنا الأدبية في النقد ، ولا يكاد يستغني عنه باحث أو دارس ، وهو ضروري في دراسة النقد وجامع

(١) راجع الوصية في : ١/١٥١ زهر ، ٢/٢٠٩ العمدة ، ١٦٠ حديقة الأفراح لليمني ط ١٣٢٠ هـ . ٢٧ المطالعة التوجيهية .

(٢) راجع مثلا ص ١٩٢ طبقات لابن المعتز .

(٣) ٩٢-٤/٩٤ زهر ، وهي في الموشح (٢٩٣ و ٢٩٤) منسوبة لأبي أحمد يحيى بن علي المنجم م ٣٠٠ هـ .

(٤) ١٦٥ فهرست .

(٥) ص ١٦ طبقات الشعراء لابن سلام .

(٦) ٢/١٠٨ زيدان ٧٤. تاريخ النقد الأدبي عند العرب .

لكثير الآراء فيه ، وقد رواه عن ابن سلام ابن أخته أبو خليفة الفضل بن الحباب الجمحي م ٣٠٥ هـ والذي يشيد الحصري بأدبه وبلاغته ^(١) .

وأما الجاحظ فعلم من أعلام الأدب والنقد والبيان ، وفي كتابه " البيان " وسواه من مؤلفاته ثروة كبيرة في النقد الأدبي ، فتجده يحلل في دقة وتفصيل مذهب الطبع والصنعة في الشعر ^(٢) ، ويشير إلي سرقات أدبية ^(٣) ، وموازنات أدبية ^(٤) ، ويستجيد بعض آثار للشعراء فيقول مثلا : وكان أبو حية أشعر الناس لقوله الخ ^(٥) ، ويقول : ومن جيد محدث أشعارهم الخ ^(٦) ، ويقول : ومن جيد الشعر قول جرير الخ ^(٧) . ويشني على أبي نواس وشعره وخمرياته ^(٨) ، ويرى أنه ليس هناك مولد إلا وبشار أشعر منه ولا مولد أشعر من بعد بشار من أبي نواس ^(٩) وأبو نواس عنده أشعر الناس في قوله : " كأن ثيابه أطلعن من أزواره قمرا " ^(١٠) .

ورأى أن بيتي عنتره " وخلا الذباب بها الخ " من المعاني العقم ^(١١) ؛ ومثله قول أبي نواس " قراراتها كسرى الخ " ^(١٢) ، وينقد أبا العتاهية ذاهبا إلى ^(١٣) أن شعراء أملس المتون له عيون أخرى الخ ، ويعجب بقوله " رانح الجنة في الشباب " إعجابا كبيرا ^(١٤) ، ويعجب بجدة أشعار طرفة وعبد يغوث وقت إحاطة الموت بهما ^(١٥) ، ويذكر

(١) ٢٥٣ ج ٣ زهر .

(٢) ٥٤ و ٥٥ و ١٥٠ ج ١ و ٢١-٢٦ ج ٢ البيان .

(٣) ٨٩ و ١١٦ و ١٧٩ و ٢٥٥ ج ١١ البيان .

(٤) ٢٤٣ ج ٢ البيان .

(٥) ١٦٦ ج ٢ و ٢٠٥ و ٢٠٦ ج ٣ .

(٦) ١٧٥ ج ٢ البيان .

(٧) ١٣٣ ج ٢ البيان ، وتجد شرحا لبيتي جرير اللذين ذكرهما الجاحظ في هذا الموضع في ص ٢٠٨ طبقات

الشعراء لابن سلام .

(٨) ٤٢ جزء ٤ العقد .

(٩) ٩١ ج ١ العمدة ٤٥٧/٤، حيوان .

(١٠) ١٨٥ ج ٣ زهر .

(١١) ١٨٤ ج ٢ البيان .

(١٢) ١٦٦ ج ٣ زهر ، وراجع شرح البيت في العمدة ٢٧٥ ج ١ وكذلك ذهب المبرد في الروضة في بيت أبي

نواس ، وتقدهما ابن الأثير في ذهابهما إلى أن بيت أبي نواس من المعاني المبتكرة ورأى أنه من المعاني

المشاهدة . وأن فصاحة هذا الشعر هي الموصوفة لا هذا المعنى (١٢٢ المثل الثاني) .

(١٣) ٥٢ ج ٣ زهر .

(١٤) ٣٨ ج ٣ الأغاني ، ٣٦٦ ج ٢ عصر المأمون .

(١٥) ١٩٣ ج ٢ البيان .

حوار إبراهيم بن عبد الله لأبيه في شعر كثير^(١)، وأن الناس كانوا يستحسنون بيت الأعمى "وبات على النار الندى والمعلق" حتى قال الحصينة:

متي تاته نعو إلى ضوء ناره تجد خير نار عندها خير موقد

فسقط بيت الأعمى^(٢)، وينقد الكميت لقوله في رسول الله:

لج بتفضيلك اللسان ولو أكثر فيك اللجاج والصخب

كما ينقده لقوله في رثائه:

لقد غيبوا حزمًا وعزمًا ونائلًا عشية واره الصفيح المنضب

لأنه يصلح في عامة الناس^(٣)، وقد دافعوا عنه بأنه إنما أراد في البيت الأول آل الرسول فوري عنهم يذكر النبي خوفًا من بني أمية^(٤)، ويذكر مناهج الرواة^(٥) وتعصب أبي عمرو بن العلاء على الإسلاميين^(٦)، وأن الرواة كانوا^(٧) يحرصون على نسيب العباس بن الأحنف حتى أورد عليهم خلف نسيب الأعراب فعنوا به وزهدوا في نسيب العباس، والجاحظ ينكر غلو المتعصبين على الشعراء المحدثين فعلهم، ويرى أنه لو كان لهم بصر لعرفوا موضع الجيد ممن كان، وفي أي زمان كان^(٨).

وأما ابن قتيبة فهو عالم ملم بالثقافات في عصره، مجدد في التفكير، ولكنه مع ذلك محافظ كل المحافظة في الأدب، يعنى على الأدباء انصرافهم إلى المنطق وشغفهم به عما سواه من علوم الدين واللغة^(٩)، ويرى وجوب اتباع منهج المتقدمين في نظم القصيدة^(١٠)، ولكنه مع ذلك لا يتعصب للقديم ولا للمحدث تعصبا أعمى ولكن يعطي كلا حقه من العدالة والإنصاف، وكتاب الشعر والشعراء وعلى الأخص

(١) ١٤٦ ج ٢ البيان .

(٢) ٣٦ جزء ٢ البيان .

(٣) ١٧٢ و ١٧٣ ج ٢ البيان ، ١٧٠ ج ٥ الحيوان ط ١٩٤٣ ، ١٤٥ ج ٣ العمدة .

(٤) ٢٠ الموازنة ، ١٣٦ ج ٢ العمدة .

(٥) ٢٢٤ ج ٣ البيان ، ٤ ، ٥ الكشف عن مساوي المتنبي .

(٦) ٢٠٩ ج ١ البيان .

(٧) ٢٢٤ ج ٣ البيان .

(٨) ٤٠ ج ٣ الحيوان ، وذلك مما يردده ابن المعتز الذي حكم عدالة الحكومة الأدبية وحتم ألا يدفع إحسان محسن عدواً كان أو صديقاً (١٣ و ١٤ رسائل ابن المعتز) . وكذلك رأي ابن قتيبة (٧ و ٨ الشعر والشعراء) ، وابن رشيقي (٧٤ ج ٢ العمدة) .

(٩) ص ٢ أدب الكتاب .

(١٠) ١٤ وما بعدها الشعر والشعراء .

مقدمته دراسة عميقة للشعر وأقسامه وعناصره وللطبع والصنعة فيه وللخصومة بين القدماء والمحدثين ولدواعي الشعر ونظمه وأسباب اختلاف شعر الشاعر .

والكتاب مظهر لثقافة واسعة^(١) واطلاع واسع وذوق سليم ، وفيه عرض لنحو مائة وستين شاعرا من الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين وصدور المحدثين ، وقد عنى في دراسته لهم ببيان مذاهبهم وخصائصهم واتجاهاتهم وذكر آراء النقاد في شعرهم وسرقاتهم وما يستجد لهم من حكمة أو تشبيه أو وصف وما سبقوا إليه من معان ، وسرد الشعراء سردا دون ترتيب لطبقاتهم أو لهم بحسب عصورهم بعكس ابن سلام ، وقد اهتم بدراسة لغة الشعراء ، وأثر البيئة فيها^(٢) ، وتكلم على بعض النساء الشاعرات كالخنساء^(٣) وليلى الأخيلية^(٤) ، وهو حريص على ذكر زلات الشعراء من ناحية العقيدة^(٥) ، ويعني بتحقيق نسبة الشعر لقائه عناية كبيرة .

وأما طبقة علماء اللغة فأثرهم في النقد واضح جليل ، يتجلى في آرائهم وكتبهم ، وكان هؤلاء كلهم أو جلهم يؤثرون الشعر القديم ؛ ومنهم : أبو العمىل المتوفى ٢٤٠هـ ، وابن السكيت م ٢٤٤هـ ، وأبو حاتم السجستاني م ٢٥٥هـ ، وأبو الفضل الرياشي ٢٥٧هـ ، والسكري م ٢٧٥هـ ، والمبرد م ٢٨٥هـ ، وثعلب م ٢٩١هـ وأظهرهم أثرا في ذلك المبرد^(٦) الذي حفظ " الكامل " كثيرا من آرائه في النقد :

وأهم ما في الكامل للمبرد دراسته للتشبيه وعرضه لكثير من شواهد^(٧) ، وهذا الباب كله نقد أدبي جيد ، ويذكر المبرد كثيرا من السرقات الأدبية في كتابه ، ويذكر من آراء القدماء في النقد والموازنة ، ويشيد بابن مناذر ومرثيته " كل حي لاقى الحمام فمودي " ^(٨) ، والمبرد لا يتعصب لتقديم على محدث ويرى أنه " ليس لقدم العهد يفضل القاتل ولا لحدثان عهد يهتضم المصيب ولكن يعطي كلا ما يستحق " ^(٩) ، ولذلك ضمن كتابه كثيرا من شعر المحدثين ، وعقد بابين لأشعارهم

(١) راجع مثلا شرحه للمشكل من شعر أبي نواس (٣١٥ و٣١٦ و٣٢٠ و٣٢٥ الشعر والشعراء) وسوى ذلك .

(٢) راجع رأيه في عدي وأميه بن أبي الصلت وأبي دؤاد (٦٣ و٦٩ و١٧٦ الشعر والشعراء ، ج ٢١ ، ج ٢ الأغاني مثلا) .

(٣) ١٢٢ الشعر والشعراء .

(٤) ١٧٠ المرجع .

(٥) راجع مثلا ٣٢١ و٣٢٢ المرجع .

(٦) راجع ٤٤١-٤٤٧/٣ وفيات العيان - تحقيق محي الدين .

(٧) الكامل ص ٣٥-١٠١ ج ٢ .

(٨) الكامل ص ٢٨٨ ج ٢ .

(٩) الكامل ص ١٨ ج ١ .

خاصة^(١)، ورأى أنها أشكل بالعصر^(٢)، وپروي شعرا لأبي تمام ويقول: " وليس بناقصه
حظه من الصواب أنه محدث^(٣) "، وذكر مكانة الخنساء . ويلي الأخيلية في الشعر^(٤)،
ونقد قول الشماخ :

إذا بلغتني وحملت رحلي عرابة فاشرقي بدم الوتين^(٥)

وإجماع النقاد على نقد قول نصيب :

أهيم بدعد ما حييت وإن أمت أوكل بدعد من يهيم بها بعدي^(٦)

ويذكر مجد آل حسان وأبي حفصة في الشعر^(٧)، كما يذكر بعض المعاني
الجديدة في شعر أبي نواس^(٨)، ويعيب^(٩) قوله :

كيف لا يدينك من أمل من رسول الله من نفره

ويذكر وجهها لتخريجه :

وعلي أي حال فثقافة اللغويين في النقد^(١٠) كانت قليلة بالنسبة لأدباء
الكتاب وعلماء النقد؛ وسئل البحري عن مسلم وأبي نواس أيهما أشعر، فقال :
مسلم لأنه يتصرف في كل فن، فقيل له إن ثعلبا لا يوافقك على هذا، فقال ليس هذا
من علم ثعلب وأضرابه، وإنما يعرف الشعر من دفع إلى مضيقه^(١١)، وقال البحري
لصديق له أراد التوجه لأبي العباس^(١٢) ليقراً عليه شيئاً من الشعر : رأيت أبا عباسكم
هذا فما رأيته ناقداً للشعر ولا مميزاً له ورأيتَه يستجيد شيئاً وما هو بأفضل الشعر^(١٣).

(١) الكامل ٣٠٧-٣١٢ ج ٢ ص ٢٢٣-٢٦١ ج ١ .

(٢) الكامل ٢٣٣ ج ١ .

(٣) الكامل ٢٦٠ ج ٢، وللمبرد مناقشة أدبية بينه وبين ابن درستويه حول معنى لأبي تمام (زهر الآداب ص ٢٣٩
و ٢٤٠ ج ٢) .

(٤) الكامل ص ٢٧٩ ج ٢ .

(٥) الكامل ص ٧٧ ج ١ .

(٦) المرجع نفسه ص ١٠٦ ج ١، ويذكر الجاحظ أن صالح بن سليمان قال : أحق الشعراء الذي قال : " أهيم بدعد
- البيت " (البيان ص ٢١٧ ج ٣) .

(٧) الكامل ص ١٥٤ ج ١ .

(٨) الكامل ص ٩٤ ج ٢ .

(٩) الكامل ص ٢٤٣ و ٢٤٤ ج ١ .

(١٠) راجع كلمة للجاحظ في ذلك في ص ٤ و٥ الكشف عن مساويء شعر المتنبي .

(١١) دلائل الإعجاز ص ١٩٥ والكشف ص ٥ وإعجاز القرآن ١٠١ والعمدة ٩٩ ج ٢ .

(١٢) لعله يريد ثعلبا . وأبو العباس لقب المبرد وثعلب .

(١٣) الدلائل ص ١٩٥ .

وأما النقاد من ذوي الثقافات الحديثة في النقد والذين تأثروا بالثقافة اليونانية فأشهرهم قدامة بن جعفر، (٢٧٦ - ٣٣٧ هـ)^(١)، وله كتاب "نقد الشعر" الذي فصل فيه مذهبه في النقد أدق تفصيل مما أحتذى فيه حدو أرسطو في كتاب الخطاب الذي ترجمه إسحاق بن حنين في النصف الأخير من القرن الثالث الهجري، ونجد أثر أرسطو واضحاً عند قدامة في كلامه على الصفات النفسية التي جعلها أمهات الفضائل وذكر أن المدح الجيد لا يكون إلا بها^(٢)، وفي سوى ذلك من بحوث الكتاب، ويرى قدامة أن الرثاء كالمديح في وقوعه بهذه الصفات^(٣)، وأن الهجاء ضد المدح ولا يكون إلا بأضدادها^(٤)، وهذا وغيره من كثير من بحوث الكتاب أثر لثقافة قدامة العقلية التي تزل في مواضع الذوق والإحساس والشعور في النقد وفهم الشعر والأدب، وعناصر الشعر عند قدامة اللفظ والمعنى والوزن والقافية وما تركب منها^(٥)، ثم يذكر أسباب الجودة التي تلحق بكل عنصر من هذه العناصر في نظم الشعر، ويرى أن أضداد هذه الأمور هي أسباب الرداءة في النظم، ويحتم على الشاعر أن ينظم الشعر متبعاً لأسباب الجودة وحذراً من الرداءة وأسبابها، والناقد يحكم علي ضوء هذا النهج نفسه فيرى مواطن الجمال والعيب في شعر الشاعر سواء في ألفاظه وأساليبه أو في معانيه أو في أوزانه أو قوافيه أو في سوى ذلك مما تركب منها، فيحكم عليه أوله بالرداءة أو الجودة والإحسان؛ وهذا نهج عقلي واضح ولكنه في تقييده الشعر بهذه القيود الثقيلة وفي تطبيقه على هذه الأصول التي رسمها في كتابه يخطيء كثيراً... ولقد ألف الأمدى كتاباً في "تبين غلط قدامة في نقد الشعر، وأهداه لأبي الفضل محمد ابن الحسين بن العميد وقرأه عليه وكتب خطه عاله ٣٦٥ هـ^(٦)، كما نقده كثير من علماء النقد والأدب في شتى العصور...

(١) أحد البلغاء الفصحاء والفلاسفة الفضلاء وممن يشار إليهم في علم المنطق وأسلم على يد المكتفي (٢٠٣ - ٢٠٥ ج ٦ معجم الأدباء، ١٨٨ فهرست)، وله ترجمة مشابهة كذلك في تاريخ بغداد، وله تفسير بعض المقالة الأخرى لأرسطو (راجع كشف الظنون ص ٣٤ ج ٢) وكثير من المؤلفات.

(٢) نقد الشعر ص ٣٩ - ٤١.

(٣) نقد الشعر ص ٥٩، الصناعتين ص ١٢٦.

(٤) نقد الشعر ص ٥٥، ويقول عبد الصمد بن المعزل م ٢٤٠ هـ: الشعر كله في ثلاث لفظات وليس كل إنسان يمكن تأليفها: فإذا مدحت قلت أنت، وإذا هجوت قلت لست، وإذا رثيت قلت كنت (العمدة ص ١٠٣ ج ١)، وهذا أساس نظرية قدامة، وأيدها أبو هلال وابن رشيقي في كتابيهما: الصناعتين والعمدة.

(٥) راجع نقد الشعر ص ١٣، ومثل ذلك في العمدة ص ٩٩ ج ١.

(٦) معجم الأدباء في ترجمة الأمدى ص ٥٨ ج ٣.

وقد بلغ النقد الأدبي في القرن الرابع حدا كبيرا من النضوج والقوة، شأنه في ذلك شأن الأدب والبيان وسائر ألوان العلوم والثقافات، وذلك برغم ما كان يغشى الحياة الإسلامية إبان ذلك من ضعف سياسى بعيد الأثر في مستقبل العالم الإسلامي، وحين كانت رقعة الدولة الإسلامية تمزق أديمها الحوادث العاصفة، وتداولها أيدي الملوك الغاصبين، والدول الصغيرة الناشئة: كالإخشيدية والفاطمية والحمدانية والبويهية وغيرها من مختلف الدويلات والعروش، وكان رجال العلم والأدب والفن جادين في إقامة الحياة الإسلامية على أسس وطيدة من التفكير المثمر والإنتاج الصحيح والتجديد المستمر في شتى ألوان الثقافة ومناحي الحياة، وكانت رعاية الملوك لهم، وتعزید الأمراء وقادة العلم الإسلامي إياهم، سببا من أسباب استمرار هذه النهضة الفكرية والعلمية والأدبية، كما كانت حركة البعث العقلي التي غذاها الرشيد والمأمون قد أتت أكلها، وهضمتها عقول المسلمين، وأحالتها غذاء عقليا أنتج نتائجه العظيمة في القرن الرابع الهجري، فكان أحفل عهد برجال الفكر والعلم والأدب والنقد والبيان، وأمجد عصر شهدته العربية وأدبها الرفيعة، وذاعت في آفاقه شهرة كثير من الأدباء والكتاب والشعراء وأئمة النقد وفحول البيان، وظهرت في خلاله مؤلفات كثيرة ناضجة في علوم الدين والدنيا، وفي علوم التفكير والفلسفة، وفي علوم العربية وأدبها، سواء في اللغة أم في الأدب أم في النقد أم في البيان، وما زالت هذه المؤلفات أعظم المصادر وأجلها في الثقافة الإسلامية، ومازلنا نشد السير علي آثارها في الابتداع والتجديد والإنتاج، ولعل من أظهر خصائص الثقافة الإسلامية في هذه الحقبة الرائعة بلوغ النقد الأدبي أبعد الغايات، وكثرت ما ظهر فيه من مؤلفات، تجمع بين سلامة الدوق ودقة الحكم وتحري الأنصاف وعمق التفكير، وتحاول جاهدة أن تضع أسس النقد وأصول الموازنة على دعائم ثابتة، تقوم مقام الحكومة العادلة والحكم المنصف كلما تشعبت الآراء واختلفت الأذواق، في شعر شاعر أو منزلة أديب.

والنقد الأدبي بدأ بحوئه علماء اللغة والأدب، واتجه أولا - في عهود كانت فيها الملكات العربية ما تزال علي سلامتها وصحتها - إلى البحث عن الأسلوب وسلامته من الخطأ في اللغة أو الإعراب أو التصريف، للحفاظ على العربية وكتابها الحكيم، ودفع عادية الفساد الذي نجم على يد المستعربين من الموالى، ثم على يد من أختلط بهم من العرب، ولما فرغ النقد من هذه البحوث عاد إلى بحث الأسلوب

نفسه وما يتصل به مما يمس صميم البيان والأداء، تلافيا لأخطاء الملكات التي بدأ يدب إليها العي والقصور والعجز بسبب المستعربين والاختلاط بهم، وأخذ علماء الأدب والنقد كابن سلام؛ م ٢٣١ سنة والجاحظ م ٢٥٥ سنة، وابن قتيبة م ٢٧٦ سنة وأضرابهم كأبي عبيدة م ٢٠٦ سنة وسواه، في عرض المشكلات الأدبية والتعليق عليها وإبداء آرائهم فيها.

ثم كان القرن الرابع فاتحة علماء الأدب في مشرقة إلى الكتابة في الأدب والنقد؛ ثم مزجوا بحوث النقد والأدب بالبيان، ثم أفادوا من دراسات النقد فائدة جلى انتقلت بهم إلى البحث في مظاهر البيان، ومشكلات البلاغة، فاتجه تأليفهم في آخر هذا القرن إلى بحوث البيان نفسه.

ونقاد الأدب والشعر في القرن الرابع فريقان: فريق كتب ونقد ووازن وحكم متأثرا بذوقه الأدبي وطبعه العربي وثقافته الخالصة من شوائب الثقافات الأخرى التي جرت جداول إلى يمين الثقافة الإسلامية الصميمة المتدفقة، ومن هؤلاء الحاتمي م ٣٨٢ سنة "صاحب الرسالة الحاتمية" في نقد شعر المتنبي وبيان سرقاته من حكمة أرسطو الفيلسوف، والحسن ابن بشر الأمدى م سنة ٣٧١ صاحب الموازنة بين الطائيين، وعلي بن عبد العزيز الجرجاني م سنة ٣٩٢ صاحب الوساطة "بين المتنبي وخصومه" وابن وكيع م سنة ٣٩٢ صاحب "المنصف" في سركات المتنبي، وأبو بكر الباقلائي م سنة ٤٠٢ مؤلف "إعجاز القرآن" وقبلهم أبو بكر الصولي م ٣٣٦ هـ صاحب "أخبار أبي تمام" وأبو الفرج الاصبهاني م سنة ٣٥٦ مؤلف كتاب "الأغاني"، وفريق آخر كتب بروح أدبي هذبته فكرته ووسعت أفقه الثقافات الأخرى التي هضمها القرن الرابع، وأسأله غداء عقليا لكل من توسع في الدراسة والبحث العميق، ومن هذا الفريق جعفر بن قدامة سنة ٣١٩ وقدامة بن جعفر م سنة ٣٣٧ صاحب "نقد الشعر" وابن العميد م سنة ٣٦٠؛ والصاحب بن عباد م سنة ٣٨٥ صاحب رسالة "الكشف عن مساوي شعر المتنبي" وأبو هلال العسكري م سنة ٣٩٥ صاحب "الصناعتين" و"ديوان المعاني"، وهذا الفريق الأخير يختلف نقده قوة وضعفا بحسب تمكن الطبع العربي من نفوس رجاله وأعماله، وتتفاوت منازلهم في الإجادة والإحسان بتفاوتهم في الذوق الأدبي الذي يعتد به في الحكومات الأدبية العادلة، ودعنا ممن نقدوا الأدب والشعر بدون تمكن الطبع الأدبي في نفوسهم، من: النحويين علماء اللغة، والمعنويين رجال العقل والفلسفة، الذين جاء حكمهم بعيدا عن الذوق المطبوع والفطرة السليمة، والذين نقدهم الجرجاني في "وساطته" نقدا لاذعا، وطرح آراءهم في النقد والبيان فلم يعتد بها ولم يعر لها نصيبا من البحث

والمناقشة اللهم إلا حيث أراد أن يبرر موقفه منهم فذكر بعض أخطائهم في النقد لتكون حجة له في هذا الإهمال .

ومن الجدير بالالتفات أن كثيرا من نقاد القرن الرابع وجهوا عنايتهم الأولى إلى شعر شاعرين لهما أثرهما وخطرهما في الشعر العربي : فأبو بكر الصولي وابن بشر الأمدى اتجها إلى أبي تمام وشعره، فدافع عنه الصولي دفاع المعتد به المعتر بقيمته، وحشد كل ما رآه سببا لقبول هذه الحكومة من : شعر الشاعر، ونقد الناقد، وحكومة من قبله من رجال الأدب والنقد، ووازن الأمدى بينه وبين البحري عارضا شعره وما عليه من مؤاخذات ترجع إلي سرقة المعاني أو الخروج عن النهج العربي في أساليب التعبير والبيان، متجها إلي تفضيل البحري عليه لطبعه وقلة ما أخذ عليه من مؤاخذات، والحاتمي وابن عباد والجرجاني وابن وكيع كتبوا في نقد المتنبي وشعره، فندد به الحاتمي، وأشاد بمساوىء شعره ابن عباد، ووقف الجرجاني موقف القاضي النزيه يفهم ويقرر ويحكم وينصف الشاعر من جور المتعصبين عليه، والمتعصبين له معا، ولا نشك أن أباتمام والمتنبي كانا جديرين بكل ما دار حول شعريهما من ضجة، وما كان لهما من دوي في حياة الشعر العربي ومذاهبه : فأبو تمام صاحب مذهب جديد في الشعر العربي؛ حاول أن يرضي به عقله، بالغوص علي المعاني البعيدة، والتؤدة في طلبها، والتعمق فيها، كما حاول أن يرضي به ذوقه وطبعه، بإيثار الألفاظ القوية، والأساليب الجازلة، التي تحاكي أساليب العرب الأولى وجزالتهم ونهجهم في الصياغة والإعراب، ثم بطلب شتى ألوان الجمال في الأداء والنظم من استعارة رائعة أو تشبيه بليغ أو حكمة بعيدة أو مثل نادر أو طباق ساحر أو تجنيس جميل، وأبو الطيب المتنبي هو الشاعر الذي عصف في حياته بخصوصه وأقرانه في مصر والشام والعراق وإيران، وذهب شعره في أرجاء العالم العربي إذ ذاك نائرا مدويا :

فشرق حتى ليس للشرق مشرق وغرب حتى ليس للغرب مغرب

فرددته الناس وشدت به الحياة، وتمثل به الدهر، وكان أبو الطيب يفرغ من نفسه على شعره روح القوة والحرية والحياة، مصورا فيه خلجات نفسه، وخفاقات قلبه في قوة شخصية، وقوة تأثير، راسما الحياة الإسلامية في عصره، داعيا إلى مذاهب جديدة فيها عزة النفس وكرامة الفرد وحرية الحياة، ثم لا تكاد تجد شاعرا اختلف النقد في منزلته الأدبية ومكانته بين فحول الشعراء كأبي الطيب، ولا شاعرا كثرت حول شعره الدراسات الأدبية كثرتها حول المتنبي، وحسبك أنه قد شرح ديوانه فحول العلماء كابن جني م سنة ٣٩٢ ومحمد الهروي م سنة ٤١٤ والمعري م سنة

٤٤٩ وابن الأفلح م سنة ٤٤١ والواحد م سنة ٤٨١ وعبد القاهر الجرجاني م سنة ٤٧١ والتبريزي م سنة ٥٠٢ والعكبري م سنة ٦١٦ ، ثم اليازجي والبرقوقي في عصرنا الحديث ، كما نقد شعره كثير من النقاد كالحاتمي وابن عباد والجرجاني وكابن وكيع م سنة ٣٩٣ في كتابه " المنصف " في سرقات المتنبي الشعرية والثعالبي م سنة ٤٢٩ في كتابه " يتيمة الدهر " والعميدي في كتابه " الإبانة عن سرقات المتنبي " وابن حسنون المصري في كتابه " نزهة الأديب في سرقة المتنبي من حبيب " ومحمد ابن أحمد المغربي راوية المتنبي في كتابه " الانتصار المنبي عن فضائل المتنبي " و " التنبيه المنبي عن رذائل المتنبي " إلي غير ذلك الكثير من نقد المتنبي وشعره ، وهذا فضلا عن كتب عن حياة أبي الطيب أو عرض لشعره من الكثير من رجال الأدب والنقد والبيان .

هذا هو شأن النقد الأدبي في القرن الرابع ؛ ولا شك أن ظهور قدامة في أول هذا القرن : ورجوعه إلى البيان اليوناني وما فيه من موازين للنقد ومناهج للبيان يلقح بها البيان العربي ويضع بها أسس النقد الأدبي جاعلا لألوان الترف في الأداء التي تمس الفكرة وتشعب المعنى حفا كبيرا في النقد ، كان تطورا جديدا في بحوث النقد والبيان ، وكان قدامة المنطقي يغلب ذوقه الأدبي ، فزل أحيانا في نقده من حيث قوم ذوق ابن العميد والصاحب بن عباد وأبي هلال العسكري أحكام عقولهم في النقد والحكومة الأدبية ، وإن تبعوا منهج قدامة وجروا في فهم الشعر وتدوقه ونقده مجراه الذي ندوقه في كتابه نقد الشعر ، الذي يرجع إلى البحث في عناصر الشعر الأساسية من : اللفظ والوزن والقافية والمعنى .

وجاء الآمدي فرسم منهجا جديدا في النقد ، فجعل الطبع والسليقة العربية ومذاهب العرب في البيان هي الحكم في كل مشكلة ، والفاصل في كل شبهة ، ونقد قدامة في كثير من آراءه ، بل ألف كتابا بين فيه أخطاءه في " نقد الشعر " وأهداه لابن العميد ، وبالرغم من ذلك كله فقد تأثر كرها ببعض آراء قدامة .

وقد استحال النقد إلى علم البلاغة العربية المعروف علي أيدي علماء النقد ، وقد بدأ التدوين في البلاغة على يد ابن المعتز الذي ألف كتابه القيم " البديع " (١) وتغلب الذي ألف كتابه " قواعد الشعر " ، وبعد قليل ظهر نقد النثر كما ظهر نقد الشعر لقدامة بن جعفر المتوفى عام ٣٣٧ هـ ، ثم كتاب الصناعتين لأبي هلال المتوفى عام ٣٩٥ هـ ، ثم كتاب الموازنة للآمدي ، والوساطة للجرجاني ، وإعجاز القرآن للباقلاني ،

(١) على نهجة ألف ابن منقذ المتوفى عام ٥٨٤ هـ " البديع " .

وسر الفصاحة لابن سنان الخفاجي والعمدة لابن رشيقي وهما أكثر الكتب اتصلا
بالبلاغة، ثم جاء بعد ذلك أبو بكر عبد القاهر الجرجاني شيخ البلاغة والمتوفى عام
٤٧١ هـ، فألف في البلاغة كتابين جليلين هما:

١- أسرار البلاغة، وفيه دراسات واسعة تتناول بحوث علم البيان من تشبيه ومجاز
واستعارة وفيه شرح للسراقات وبعض ألوان البديع.

٢- دلائل الإعجاز؛ وفيه بحوث كثيرة هي أصول علم المعاني، كما أنه تحدث فيه
عن الكناية وعن التمثيل والمجاز والاستعارة والسراقات أيضا.

وبعد عصر الجرجاني بحث الزمخشري في تفسيره؛ والرازي في كتابه "نهاية
الإيجاز"، وابن الأثير صاحب المثل^(١) السائر، وبدر الدين ابن مالك صاحب
المصباح، والتنوخي صاحب "الأقصى القريب"، وكثير من العلماء: في البلاغة
والفصاحة.

ومن أهم هؤلاء العلماء في هذا الطور أبو يعقوب السكاكي المتوفى في عام
٦٢٦ هـ تلميذ الحاتمي، والذي ألف كتابه "المفتاح" وجعله أقساما، وخص البلاغة
بالقسم الثالث، وقسمها إلى ثلاث أقسام: المعاني - البيان - البديع، وبذلك تميزت
علوم البلاغة، ومباحث كل علم منها بالتفصيل، والفلسفة والمنطق يغلبان علي
السكاكي إلى حد كبير، من حيث كان يغلب الذوق والطبع على عبد القاهر..
وبذلك تنتهي مراحل التأليف والابتكار في بحوث البلاغة وتدوينها كاملا.

وجاء الخطيب القزويني المتوفى عام ٧٣٩ فألف في البلاغة كتابيه:
تلخيص^(٢) المفتاح والإيضاح. وقد ألف الإيضاح ليكون كالشرح لتلخيص المفتاح
وجمع فيه كثيرا من آراء عبد القاهر والسكاكي في شيء من التنظيم والشرح.

وعلى متن التلخيص كثرت الشروح والحواشي والتقارير وفي مقدمتها
الأطول للعصام؛ والمطول^(٣) للسعد، وشرح التلخيص وسواها.. وهذه أهم كتب
البلاغة وشروحها في هذا العهد: قوانين البلاغة لعبد اللطيف البغدادي م ٦٢٩ هـ
والتباين لابن الزمكاني م ٦٥١ هـ، والمعيار للزنجاني م ٦٥٤ هـ، وبديع القرآن لابن

(١) شرحه عز الدين بن أبي الحديد م ٦٦٥ هـ في كتابه "الملك الدائر علي المثل السائر".

(٢) لتركيا الأنصاري م ٩٢٦ هـ ط مختصر تلخيص المفتاح: وللعباسي م ٩٦٣ شرح لشواهد التلخيص سماه
معاهد التنصيص.

(٣) عليه كتاب في شرح شواهد اسمه عقود الدرر في حل أبيات المطول والمختصر، وهو مطبوع طبعة حجر عام
١٣٠٧ هـ في ٦٦ صفحة.

أبي الإصبع م ٦٥٤ هو الفوائد الغيائية للعضد م ٧٥٦ هـ وشرحها الكرمانى م ٧٨٦ هـ،
التبيان لشرف الدين الطيبي م ٧٤٣ هـ، والطراز ليحيى بن حمزة العلوي م ٧٤٩ هـ،
وعروس الأفراح للسبكي م ٧٧٣ هـ؛ والسمرقندية للسمرقندي وهي رسالة في
الاستعارات، وتوفي السمرقندي عام ٨٨٠ هـ، وسواها .

نشأة البيان العربي

١- كان للعرب في حياتهم الأولي ذوق، وفيهم طبع، كانوا بهما في غنى عن الشرح
والتحليل والتوجيه والتعليل لأحكام النقد ولأصول البيان العربي ومذاهبه،
وكذلك كانت أصول البيان بعيدة عن البحث والدراسة والتقرير .

وفي ظلال الحياة الإسلامية اختلطت العناصر، وتمازجت الثقافات؛ فلقت
العقول، وأصابت الألسنة آثار من اللكنة واللحن، وأخذ أئمة العربية يعملون في صبر
وعزيمة في وضع أصول النحو العربي، وجمع مواد اللغة الغزيرة.. وصحب ذلك
وتلاه دراسات أخرى تتناول البيان العربي وأصوله ومذاهبه بالبحث والتحليل،
وأخذت تتكون من تلك الدراسات النواة الأولى للبيان العربي، وظل التقدم الفكري
والنضوج الأدبي والعلمي يسير بهذه البحوث والدراسات نحو الكمال المنشود
بخطوات كبيرة.. وكانت الثقافة البيانية تنمو حين ذاك بجهود ثلاث طبقات:

أ- الأولى طبقة رواة وعلماء الأدب من البصريين والكوفيين والبغداديين، من
أمثال: خلف والأصمعي وأبي زيد وأبي عبيدة ويحيى بن نجم وعمرو بن كركرة،
وأستاذهم أبو عمرو بن العلاء أعلم الناس بالعرب والعربية^(١)، ومن عامة الرواة
الذين لا يقفون إلا على البليغ الساحر من الأساليب كما يقول الجاحظ دون
النحويين واللغويين والإخباريين الذين لم يتجهوا هذا الاتجاه^(٢).. وبجوار
هؤلاء أئمة الشعراء^(٣) وغيرهم من الخطباء ورجال الأدب الذين تثقفوا بالثقافة
العربية .

ب- والثانية طبقة الكتاب الذين لم ير الجاحظ قوماً قط أمثل أمثل طريقة في البلاغة
منهم الذين التمسوا من الألفاظ ما لم يكن وحشياً ولا سوقياً^(٤)، ورأي الجاحظ

(١) ١/٢٠٩ البيان .

(٢) ٣/٢٢٤ البيان .

(٣) ١/٥٤ البيان .

(٤) ١/١٠٥ البيان .

البصر في هذا الجوهر من الكلام فيهم أعم^(١)، وحكم مذهبهم في النقد^(٢)؛ ومثلهم المعتزلة وفرق المتكلمين الذين رأهم الجاحظ فوق أكثر الخطباء، وأبلغ من كثير من البلغاء^(٣)، وكان بعضهم من عناصر عربية وتثقفوا بثقافة أجنبية، والآخر من عناصر أجنبية تثقفت بالثقافة العربية، ومما كان أثره في أصول البيان وفي توجيه دراسته وبحوثه وفي الدعوة إلي آراء في الأدب نوائمه ثقافتهم وعقليتهم، وكان بعضهم يلقن مذاهبه الأدبية العامة للتلاميذ وشدة الأدب، كما نرى في محاضرة بشر بن المعتزلي م ٢١٠ هـ في أصول البلاغة^(٤)، والتي يقول الجاحظ عنها إن بشر أمر بإبراهيم بن جبلة بن محزومة^(٥) وهو يعلم الفتيان الخطابة فوقف بشر فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد فقال بشر: اضربوا عما قال صفحا ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتنميته في أصول البلاغة وعناصر البيان^(٦)؛ ومن رجال هذه الطبقة: أبو العلاء سالم مولى هاشم وعبد الحميد الكاتب أبو الأكبر كما يقول الجاحظ^(٧) وابن المقفع وسهل بن هارون^(٨) والحسن والفضل^(٩) ابن سهل ويحيى البرمكي وأخوه جعفر^(١٠) وأيوب بن جعفر وأحمد بن يوسف وعمرو بن مسعدة^(١١) وابن الزيات وسواهم.

وكان لهذه الطبقة أثرها في بحث عناصر البيان وبلاغة الكلام.. ونستطيع أن نعرف أثار هاتين الطبقتين في دراسات البيان بالرجوع إلي آرائهم المثبتة في شتى أصول الأدب، والتي يمكننا أن نذكر لك هنا طرفا منها، وإن شئت فاقرا جواب صحار لمعاوية حين سأله عن البلاغة^(١٢)، ويروى قبل بهذا بكثير أن عامر بن الظرب سأل جمعه بن رافع من أبلغ الناس؟، فقال، من حلي المعني المزيذ باللفظ الوجيز وطبق

(١) ٣/٢٢٥ البيان .

(٢) ١/٢٤٠ البيان .

(٣) ١/١٠٦ البيان .

(٤) ١/١٠٤ وما بعدها البيان، ٢٢٨ وما بعدها صانعتين .

(٥) يعده الجاحظ من الخطباء الشعراء ١/٥٥ البيان .

(٦) ولبشر كتاب في نظم كليله ودمنة .

(٧) ١/٥١ البيان .

(٨) كان سهل يقول : سياسة البلاغة أشد من البلاغة (١/١٤٤ / البيان ، ٣/٣٣ العقد) .

(٩) ذكر الحصري كثيرا من بلاغته (١٦ - ١٩ ج ٢ زهر) .

(١٠) وصف الجاحظ بلاغته وأشاد به (١/٩١ و ٨٥ / البيان ، ٢/٨١ زهر ، وكان يؤثر الإيجاز (١/٨١ / البيان ، ١/١٧٧ .

الكامل) ، ونوه به سهل بن هرون (٢/١١ زهر) .

(١١) نوه المأمون ببلاغته (٣/٢٦٤ زهر) .

(١٢) ١/٨١ البيان ، وراجع ٢/١٨ الكامل .

المفصل قبل التحزيز^(١) وقرأ تحديد المفضل الضبي للإيجار^(٢). وتفسير ابن المقفع للبلاغة^(٣). وحوار الشمري لعمر بن عبيد في البلاغة^(٤). وتعريف الأصمعي للبلغ^(٥). ورأي إبراهيم ابن محمد في البلاغة^(٦). وتعريف جعفر البرمكي للبيان^(٧). وتعريف العتابي للبلاغة^(٨). وتفضيل الجاحظ لرأيه^(٩). ووصف الرشيد للبلاغة^(١٠). ورأي شبيب ابن شيبه في تفضيل بلاغة جودة القطع أو القافية علي جودة الابتداء^(١١) ووصف ابن المقفع كلام الإعراب^(١٢): الذين أعجب الجاحظ ببلاغتهم^(١٣) ووصف الحسن بن وهب بلاغة أبي تمام^(١٤). وتعريف المأمون للبلغ بأنه من كان كلامه في مقدار حاجته ولا يجيل الفكرة في اختلاس ما صعب عليه من ألفاظ ولا يعتمد الغريب الوحشي ولا الساقط السوقي^(١٥). وقول خالد بن صفوان: أبلغ الكلام ما لا يحتاج إلي كلام^(١٦). وتعريفه للبلاغة بأنها التقرب إلى المكان البعيد، والتباعد عن خسيس الكلام والدلالة بالكبير علي الكثير، وتعريف ابن عتبة لها: بأنها دنو المأخذ وقرع الحجة والاستغناء بالقليل عن الكثير، وعرفها الخليل: بأنها ما قرب طرفاد وما بعد منتهاه. وعرفها إبراهيم الإمام: بأنها الجزالة والإصابة، وعرفها ابن المقفع بأنها نلة الحصر والجرأة علي البشر، إلى غير ذلك شتى هذه التحديدات^(١٧). ويقول أبو دواد الإيادي، رأس الخطابة الطبع وعمودها الدربة وجناحها رواية الكلام وحليها الإعراب الخ^(١٨). ويقول الخليل: كل ما أدى إلى قضاء الحاجة فهو بلاغة فإن

(١) ١/٢١٦ العمدة ٢/٢٨٠، الأمل للقالبي.

(٢) ١/٨١ البيان.

(٣) ٩١/البيان، العمدة ١٥-١٧ صناعتين.

(٤) ١/٩٠ البيان، ١/١٤٢، زهر، ٤٧، الرسالة العذراء.

(٥) ١/٨٦ البيان، ١/٢٢٠، العمدة.

(٦) ١/٧٥ البيان.

(٧) ١/٨٥ البيان، ٤٢-٤٧ صناعتين.

(٨) ١/٩٠، ١/١٥٧، البيان.

(٩) ١/١٢١ البيان.

(١٠) ٣/٢٦٤ زهر.

(١١) ١/٨٩ البيان.

(١٢) ٢/١١٨ زهر.

(١٣) ١/١١٠ البيان.

(١٤) ٣/٢٦٣ زهر.

(١٥) ٤٢٣ صناعتين.

(١٦) ٣٦٣، ٣٥، الرسالة العذراء.

(١٧) راجع ٤٤-٤٦، الرسالة العذراء، ١/٧٥، البيان، ٢، ٣، ٢٢، ٢٣، العقد: ١٤٠-١٥٠، ١/١٥٠، زهر: ٨٧-٩١، ديوان

المعاني: ٩-١٠، ٢٠٢ اعجاز القرآن: ٢١٣-٢٢١، العمدة.

(١٨) ١/١٤٧ زهر: ١/٥١، البيان.

استطعت أن يكون لفظك لمعناك طبقاً وتلك الحال وفقاً وآخر كلامك لأوله مشابهاً وموارده لمصادره موازنة فافعل، واحرص أن تكون لكلامك منهما وإن ظرف^(١). ووصية أبي تمام للبحثري تدخل في هذا الباب^(٢)، ويقول ابن عبد الملك بن صالح م ١٩٩ هـ: البلاغة معرفة رتق الكلام وفتقه^(٣)، وقال ابن الرومي: البلاغة حسن الاقتضاب عند البداهة والغزارة عند الإطالة^(٤)، ويقول البحتري: خير الكلام ما قل وجل ولم يمل^(٥)، ويقول الثعالبي بعد: خير الكلام ما قل ودل وجل ولم يمل^(٦)، ويقول ابن الأعرابي: البلاغة التقرب من البغية ودلالة قليل على كثير^(٧).

ج - وأما الطبقة الثالثة فهي طبقة المفكرين والمتقنين الذين تتقنوا بثقافة أجنبية واسعة، وتأثروا كل التأثر بأدب الأمم الأخرى، وترجموا آراءهم في البيان ومناهجه إلى اللغة العربية، أو ألفوا كتباً تبحث في هذه الاتجاهات، وهؤلاء قد عاشوا في البيئة الإسلامية وأثروا في النقد والأدب والبيان ودراساته وتطوراته تأثيراً واضحاً كبيراً، ويمكننا أن نذكر شيئاً عن مجهود هذه الطبقة في خدمة البيان:

أهم عمل علمي قامت به هذه الطبقة: هو ترجمة كتابي الخطابة والشعر لأرسطو إلى العربية، أما الخطابة فهو أصل كبير من أصول البلاغة ودراساتها، وقد "أصيب بنقل قديم ونقله إسحاق بن حنين م ٢٩٨ هـ وكذلك نقله إبراهيم بن عبدالله وفسره الفارابي م ٣٣٩ هـ"^(٨)؛ وأما كتاب الشعر فقد اختصره الكندي م ٢٥٣ هـ ونقله يحيى بن عدي ومتى في القرن الرابع من السريانية إلى العربية^(٩).... وقد

(١) ٤٨ الرسالة العذراء.

(٢) ١/١٥١ زهر.

(٣) ٣/٢٦٨ البيان.

(٤) ٤٥ صناعتين.

(٥) ١/٣٦ المستطرف.

(٦) ١/٢١٨ العمدة.

(٧) ١/١٧ العمدة.

(٨) ٣٤٩ فهرست.

(٩) ٣٥٠ و٣٤٩ فهرست، ونجد تحليلاً كاملاً للكتاب في (٦٤-١٣٦ قواعد النقد الأدبي)، وهو لم يصل إلينا كلعلا وليس من شك أن للكتاب جزءاً ثانياً قد فقد (٦٨ المرجع)، ونكاد نجزم أن أرسطو أراد بكتابه هذا أن يكون رداً على أفلاطون في رأيه الذي ذهب إليه وهو أن الشعر عمل غير جدير بمقام الذكاء البشري وأنه من أشد بواعث الفساد (٧١ المرجع). ويقول أرسطو في أوله: "سأتكلم هنا عن فن الشعر وأنواعه المختلفة ووظائف كل نوع وفي البناء الصحيح للمنظومة وعدد أجزائها وخصائص كل منها" (المرجع.. وترجمه ابن سينا وابن رشد (٢٤) وما بعدها مقدمة نقد النثر).

ألفوا في صناعة الشعر ، وللكندي ٢٥٣هـ رسالة في صناعة الشعر ^(١) ، ولأبي زيد البلخي ٣٢٢هـ كتاب بعنوان " صناعة الشعر " أيضا ^(٢) ، وكذلك لأبي هفان ^(٣) ، وهناك آراء كثيرة مأثورة عن هذه الطبقة في البلاغة وعناصرها وهي متفرقة في شتى كتب الأدب ومصادره ، وتجد في البيان والعمدة وسواهما أن صاحب اليونانيين عرف البلاغة بأنها تصحيح الأقسام واختيار الكلام ، وعرفها الرومي بأنها وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة ، وعرفها الفارسي بأنها الوصل من الفصل ، وعرفها الهندي بأنها البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة الخ ؛ وعرفها أرسطو بأنها حسن الاستعداد ؛ ويعرفها جالينوس بأنها إيضاح المفصل وفك المشكل ، وقرأ البلاغة كما يراها حكيم الهند ^(٤) ، ويقول حكيم : البلاغة معرفة السليم من المعتل وفرق بين المضمن والمطلق وفصل ما بين المشترك والمفرد ^(٥) ، ويعرفها سقراط بأنها اسكتشاف الحقائق ^(٦) ويقسمها الكندي ثلاثة أنواع : فنوع لا تعرفه العامة ولا تتكلم به ، ونوع بالعكس . ونوع تعرفه ولا تتكلم به وهو أحدها ^(٧) ، ويقول : يحب البليغ أن يكون قليل اللفظ كثير المعاني ^(٨) ، وذكر بزرجمهر فضائل الكلام وردائه : فقال فضائله ان يكون صدقا وأن يقع موقع الانتفاع به وأن يتكلم به في حينه وأن يحسن تأليفه وأن يستعمل منه مقدار الحاجة ، وردائه بالضد ^(٩) الخ ؛ وقال أبرويز لكاتبه : الكلام أربعة : سؤالك الشيء وسؤلك عن الشيء وأمرك بالشيء وخبرك عنه ، فإذا طلبت فأسجح وإذا سألت فأوضح وإذا أمرت فاحكم وإذا أخبرت فحقق ، وقال أيضا : واجمع الكثير مما تريد في القليل ^(١٠) ، ولعل ثعلبا حين ذكر في صدر كتابه " قواعد الشعر " أقسام الشعر وأنها أمر ونهي وخبر واستخبار ^(١١) قد تأثر بذلك الرأي .

وبعد فقد تعاونت هذه الطبقات في خدمة البيان ، ولها جميعا أثرها في نشأته

وتطوره .

(١) ٣٥٩ فهرست .

(٢) ١٩٨ فهرست .

(٣) ٢٠٧ فهرست .

(٤) ٧٨ و ١/٧٩ البيان ، ٢٠٢-٣٨ صاعتين ، ١/١٤٤ زهر .

(٥) ٢/٨٨ البيان والتبيين .

(٦) أصول النقد الأدبي للشايب .

(٧) ١/٢١٩ العمدة .

(٨) ١/٣٥ المستطرف .

(٩) ١٨٣ الموازنة .

(١٠) ١٠ أدب الكاتب .

(١١) ص ١١ قواعد الشعر .

ومن الكتب الأولى التي ألفت في دراسات البيان وموضوعاته : مجاز القرآن لأبي عبيدة. وكتاب البيان لابن السكيت^(١). وكتاب الفصاحة للدينوري^(٢). وكتاب التشبيه والتمثيل للفضل بن نوبخت^(٣). وصناعة الكلام للجاحظ^(٤): وكتاب التمثيل له^(٥)، ونظم القرآن أيضا^(٦)، وقواعد الشعر وكتاب البلاغة للمبرد^(٧)؛ وللحراني كتاب في البلاغة^(٨)، ولثعلب قواعد الشعر، ولابن مقسم تلميذه كتاب المدخل إلى صناعة الشعر^(٩)، وللمروزي كتاب البلاغة والخطابة^(١٠) ولابن الحرون كتاب المطابق والمجانس^(١١)، ولأبي سعيد الأصفهاني كتاب تهذيب الفصاحة^(١٢)، وللباحث كتاب صنعة البلاغة^(١٣)، لمحمد بن يزيد الواسطي المعتزلي م ٣٠٦ هـ كتاب إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه، ولابن الأخشيد^(١٤) كتاب نظم القرآن وكذلك لابن أبي داود ٣١٦ هـ^(١٥) وللحسن بن جعفر كتاب في الرد على من نفى المجاز في القرآن^(١٦).

٣- وبعد فقد كان البيان العربي في القرن الثالث مزيجا من ثقافات وآراء مختلفة عربية وغير عربية، ومؤلفة و مترجمة: من حيث كاد في القرن الثاني أن يكون عربيا خاصا، وهنا سؤالان لا بد من الجواب عليهما، وهما: متى نشأ البيان العربي، وهل تأثر بثقافة أجنبية؟.

أما نشأة البلاغة والبيان فالآراء فيها كثيرة: فالدكتور طه حسين يرى أن البلاغة نشأت في عهد متأخر والجاحظ في رأيه أول من اهتم بها وهو مؤسس البيان

-
- (١) ١/٢٠٨ كشف الظنون، وقد يكون في هذا الكتاب عرض للأدب وألوانه كالبيان والتبيين .
(٢) ١١٦ فهرست .
(٣) ٣٨٣ فهرست، وهو فارسي خدم المنصور والمهدي .
(٤) ٣٨ الجاحظ لمردم .
(٥) ٤١ المرجع، ٦/٧٦، معجم الأدباء .
(٦) ٤٠ الجاحظ لمردم .
(٧) ٨٨ فهرست، ٧/١٤٤، معجم الأدباء .
(٨) ١٧٨ فهرست .
(٩) ٢٦ بنية الوعاة .
(١٠) ٢١٥ فهرست .
(١١) ٢١٢ فهرست .
(١٢) ١٩٧ فهرست .
(١٣) ١٩٧ فهرست .
(١٤) ٥٧، ٥٨ فهرست .
(١٥) ٣٢٤ فهرست .
(١٦) ٥٢ فهرست .

العربي حقاً^(١)؛ ويرى آخر أن نشأة البلاغة قديمة قد سبقت القرآن، وتطورت بعده^(٢) وأكثر الفنون الأدبية أخذت شواهدا من القرآن^(٣)، وينقد باحث هذا الرأي^(٤).. ومن الضروري أن نفرق بين أمرين، نطق العرب في آثارهم الأدبية بأساليب لغتهم المختلفة من استعارة وتشبيه وكناية ومجاز وقصر وفصل ووصل وطباق وتجنيس إلخ، ومعرفتهم العلمية بأوضاع هذه الأساليب ونواحيها البلاغية، فالأول كان موجودا عند العرب قبل القرآن وفي عصر القرآن وبعده، والثاني لم يوجد إلا في القرن الثالث الهجري كما ذهب إليه أكثر الباحثين، فقواعد البلاغة قد سنها الفكر أولا ليجري عليها الأدب، بل أن طبيعة الأدب موجودة من قبل سواء بحثت أم لم تبحث^(٥)، فالأدب وخواصه الأدبية موجودان من قديم وأما معرفة هذه الخصائص ودراستها وبحثها علي أنها علم وأصول وقواعد فلم يوجد إلا بعد القرن الثاني الهجري، "فعلم البلاغة لا عهد للجاهلين به"^(٦)، والبلاغة باعتبارها فنا مدروسا أي التحليل العلمي للأساليب البلاغية ليست من علوم العصر الجاهلي إنما هي دراسة متأخرة في نشأتها على أنه لا شك كان هناك في العصر الجاهلي و صدر الإسلام بعض الخصائص والأساليب البلاغية المتعارف عليها^(٧)، وهذا كله مما لا سبيل إلى الشك فيه .

وأما الأمر الثاني وهو هل تأثرت البلاغة العربية في نشأتها الأولى ببلاغة الأمم الأخرى؟ فيمكننا بسط الحديث به :

يذكر ابن الأثير أن الشعر والخطابة في الأدب العربي لم يتأثرا بثقافة اليونان البيانية " فهذا شيء لم يكن ولا علم أبو نواس شيئا منه ولا مسلم ولا أبو تمام ولا البحتري ولا المتنبي ولا غيرهم وكذلك جرى الحكم في أهل الكتابة كعبد الحميد وابن العميد " ثم ينفي أن يكون هو تأثر في رسائله ومكاتباته بما ذكره علماء اليونان في حصر المعاني، ويذكر أنه اطلع بما كتبه ابن سينا في الخطابة والشعر فلم يوافق ذوقه واستجمله ورأى أن ما ذكره لغو لا يستفيد به صاحب الكلام العربي شيئا^(٨)،

(١) ٣٠٣ و٣١٠ مقدمة نقد النثر .

(٢) ١/٤٨ النثر الفني، ومن قبل رأي صاحبي أن النحو والعروض نشأ من قديم (٨ وما بعدها صاحبي) .

(٣) ١/٥٦ النثر الفني .

(٤) ١٦/ وما بعدها تاريخ البلاغة العربية مخطوط بمكتبة كلية اللغة .

(٥) ٨ قواعد النقد الأدبي .

(٦) ٢٩ تاريخ البلاغة العربية .

(٧) ص ٥٤ و٥٥ مجلة الأدب والفن نوفمبر ١٩٤٥ من مقال للأستاذ جب .

(٨) ٢٠ المثل السائر .

ويرى باحث محدث أنه كان للبلاغة اليونانية أثر في علم البلاغة العربي . ويرى آخر أن أرسطو المعلم الأول للمسلمين في علم البيان^(١) . وأن أنكتاب والمتكلمين الذين عاشوا في القرن الثاني وأثروا في البيان وتطور دجلهم من الأعاجم^(٢) وأن متكلمي المعتزلة كانوا بتضلعهم في الفلسفة اليونانية من مؤسسي البيان العربي^(٣) وأنه حتى منتصف القرن الثالث لا يوجد إلا بيان عربي واحد كان لا يزال في دور الطفولة وكان خصبا جامعا للروح العربي والفرسي واليوناني . ثم وجد من ذلك الوقت بيانان : عربي بحث ويوناني يجهر بالأخذ عن أرسطو. على أن البيان العربي الصرف قد تأثر باليونان^(٤) . وترجم كتاب الخطابة وفهم منه كل ما يمكن أن ينتفع به وطبقه علي الشعر العربي وكان يجهل كتاب الشعر^(٥) وقد درس قدامة الفلسفة وخاصة المنطق^(٦) ، على أن تشريع الفلسفة للأدب في رأي الدكتور يظهر أول مرة في نقد الشعر^(٧) ثم في " نقد النثر " الذي هو مستمد من آراء أرسطو في الجدل والقياس والخطابة^(٨) .

علي أننا قد بسطنا القول في ذلك فيما سبق ورأينا أن المشتغلين بالفلسفة قد اشتركوا مع الجماعات الأخرى في خدمة البيان العربي وإنشائه والتأليف فيه وكان اتجاههم الأول إلى البيان اليوناني وأخذوا يدأبون على الإفادة منه في بحوث البيان العربي ودراساته وتلقيحه بما يمكن أن يلقح به من عناصر ومناهج علمية سلكها ومهد سبيلها اليونان ، فهم قد استعانوا بطرقهم في دراسة البيان على فهم وتحليل أصول البيان العربي والتأليف فيه .

(١) ١/١٧٧ ضحي الإسلام .

(٢) ٣١ مقدمة نقد النثر .

(٣) ص ٦ المرجع نفسه .

(٤) ٨ المرجع .

(٥) ١١ وما بعدها المرجع .

(٦) ١٧ المرجع .

(٧) ١٦ المرجع .

(٨) ١٦ وما بعدها مقدمة نقد النثر .

(٩) ١٧ وما بعدها المرجع .

وهذه هي أول صحيفة في البلاغة لبشر بن المعتمر^(١):

مر بشر بإبراهيم بن جبلة بن محزومة السكوني الخطيب وهو يعلم الفتيان
الخطابة، فوقف بشر، فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد أو يكون رجلا من النظارة
، فقال بشر: اضربوا عما قال صحفا واطووا عنه كشحا.. ثم دفع إليهم صحيفة من
تجبيره وتنميقة، وكان أول ذلك الكلام:

خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك وإجابتها إياك، فإن قليل تلك
الساعة أكرم جوهرها، وأشرف حسبا، وأحسن في الإسماع وأحلى في الصدور وأسلم
من فاحش الخطأ، وأجلب لكل عين وغرة، من لفظ شريف ومعنى بديع..

واعلم أن ذلك أجدي عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكد والمطاوله
والمجاهدة وبالتكلف والمعاودة، ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولا قصدا
وخفيفا علي اللسان سهلا، وكما خرج من ينبوعه ونجم من معدنه.

وإياك والتوعر، فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد، والتعقيد يستهلك معانيك
ويشين ألفاظك ومن أراغ معنى كريما فيلتمس له لفظا كريما، فإن حق المعنى
الشريف، اللفظ الشريف، ومن حقهما أن تصونتهما عما يفسدهما ويهجنهما، وعما تعود
من أجله إلي أن تكون أسوأ حالا منك قبل أن تلمس إظهارهما وترتهن نفسك
بملاستهما وقضاء حقهما.

وكن في ثلاث منازل: فإن أولى الثلاث: أن يكون لفظك رشيقا عذبا وفخما
سهلا، ويكون معنك ظاهرا مكشوفًا وقريبا معروفا، إما عند الخاصة إن كنت للخاصة
قصدت، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت، والمعنى ليس يشرف بأن يكون من
معاني الخاصة، وكذلك ليس يتضح بأن يكون من معاني العامة، وإنما مدار الشرف
على الصواب وإحراز المنعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال،
وكذلك اللفظ العامي والخاصي، فأن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك وبلاغة قلمك
ولطف مداخلك واقتدارك على نفسك أن تفهم العامة معاني الخاصة وتكسوها
الألفاظ الواسعة التي لا تلتطف عن الدهماء ولا تجفوا عن الأكفاء؛ فأنت البليغ التام.

فإن كانت المنزلة الأولى لا تؤاتيك ولا تعتريك، ولا تسنح لك عند أول
نظرك وفي أول تكلفك، وتجد اللفظة لم تقع موقعها ولم تصر على قرارها وإلى حقها

(١) نقلا عن البيان والتبيين للجاحظ وبعد أحمد أمين بشر بن المعتمر من أجلها المؤسس الأول لعلم البلاغة العربية
(١٤١ و٣/١٤٢ ضحى الإسلام)

من أماكنها المقسومة لها، والقافية لم تحل في مركزها وفي نصابها ولم تتصل بشكلها وكانت قلقة في مكانها نافرة من موضعها، فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن والنزول في غير أوطانها، فإنك إذا لم تتعاط قرص الشعر الموزون، ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور، لم يعبك بترك ذلك أحد، وإن أنت تكلفتها ولم تكن حاذقا مطبوعا ولا محكما لسانك بصيرا بما عليك أو مالك، عابك من أنت أقل عيبا منه، ورأي من هو دونك أنه فوقك .. فإن ابتليت بأن تتعاطي الصنعة وتتكلف القول ولم تسمح لك الطباع في أول وهلة وتعصي عليك بعد إحالة الفكرة فلا تعجل ولا تضجر وضع بياض يومك أو سواد ليلك وعاوده عند نشاطك وفراغ بالك، فإنك لا تعدم الإجابة والمواتاة إن كانت هناك طبيعة أو جريت من الصناعة على عرق .

فإن تمنع عليك بعد ذلك من حادث شغل عرض ومن غير طول إهمال، فالمنزلة الثالثة أن تتحول من هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك وأخفها عليك فإنك لم تشتته ولم تنازع إليه إلا وبينكما نسب، والشيء لا يحن إلا إلى ما يشاكله، وإن كانت المشاكلة قد تكون في طبقات لأن النفوس لا تجود بمكنونها ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة كما تجود مع المحبة والشهوة، فهكذا هذا . قال بشر: فلما قرئت على إبراهيم قال لي: أنا أحوج إلى هذا من هؤلاء الفتيان .

القسم الخامس

تراجم الشعراء في هذا العصر

بشار بن برد المتوفى عام ١٦٧ هـ

حياته:

هو بشار بن برد بن يرجوخ زعيم المحدثين، جده يرجوخ من طخارستان من سبي المهلب بن أبي صفرة وكان أبوه برد من في أخيرة القشيرية امرأة المهلب، وكان مقيما لها في ضيعتها بالبصرة المعروفة (بخيرفان) فوهبت بردا بعد أن زوجته لامرأة من بني عقيل كانت متصلة بها، فولدت له امرأته وهو في ملكها بشارا فأعتقته ولذلك يقال بشار العقيلي، وبعد ذلك صار برد طيانا يضرب اللبن حاذقا بالتطيين وكان يقول ما رأيت مولودا أعظم بركة من ابني بشار ولقد ولد لي وما عندي درهم فما حال الحول حتى جمعت مائتي درهم، ولم يمت برد حتى قال بشار الشعر، ومما يحكى عنه أنه كان إذا هجا قوما جاءوا إلى أبيه فشكوا فضربه ضربا شديدا فكانت أمه تقول له كم تضرب هذا الصبي الضيرير أما ترحمه؟ فيقول: بلى والله إني لأرحمه ولكنه يتعرض للناس فيشكونه إليّ، فسمعه بشار فطمع به وقال: يا أبتى هذا الذي يشكونه مني إليك هو قول الشعر وأني إن ألممت عليه أغنيتك وسائر أهلي، فإن شكوني إليك فقل لهم: أليس الله يقول ليس علي الأعمى حرج؛ فلما عاودوه شكواه قال لهم برد ما قاله بشار فانصرفوا وهم يقولون: فقه برد أغيب لنا من شعر بشار، وكان لبشار أخوان بشر وبشير، كانا قاصا بين؛ ولما نبغ بشار في الشعر وصار له مقام بين الناس لم يترك بيت أبيه وكان إخوانه يلبسان ثيابه فإذا لبسها أنكر رائحتها فإذا كان في مجلس في تلك الثياب فقبل له ما هذا يا معاذ؟ أجاب: هذه ثمرة معاشرة الأخوان، وحكى صاحب الأغاني قال حدث محمد بن الحجاج قال كنا مع بشار فاتاه رجل فسأل عن منزل زرجل ذكره له فجعل يفهمه ولا يفهم فأخذ بيده وقام يقومه إلى منزل الرجل وهو يقول:

أعمى يقود بصيرا لا أبالكم قد ضل من كانت العميان تهديه

حتى صار إلى منزل الرجل ثم قال له هذا هو منزله يا أعمى .

وكان بشار شاعرا ذا ذوق سهل العبارة صحيح اللغة وذلك لأنه نشأ في البدو بين بني عقيل ، وكثيرا ما يستشهد بشعره .. وكان أحسن الشعراء المحدثين ابتداء من ذلك مطلع قصيدته :

أبي طلل بالجزع أن يتكلما
وبالجزع آثار بقين وباللوى
وماذا عليه لو أجاب متيما
ملاعب لا يعرفن إلا توهما

وما أظرف قوله :

ياليلتي تزداد نكرا
حور إذا نظرت إليك
من حب ما أحبيت بكرا
سقتك بالعين خمرا

وله أخبار وأشعار عديدة مع امرأة أسمها عبدة ، منها قوله :

يزهدني في حب عبدة معشر
فقلت دعوا قلبي وما اختار وارضى
فما تبصر العينان فى موضع الهوى
وما الحسن إلا كل حسن دعا الصبا
قلوبهم فيها مخالفة قلبي
فبالقلب لا بالعين يبصر ذو الحبر
ولا تسمع الأذنان إلا من القلب
وألف بين العشق والعاشق الصب

وله ميمية بديعة نظمها لأبي مسلم إبراهيم بن عبد الله بن الحسن يحرضه ويشير عليه ، فلما قتل أبو مسلم خاف بشار أن تشتهر ميميته فقلبها وجعل التحريض فيها على أبي مسلم والمديح والمشورة لأبي جعفر المنصور ، ومطلعها :

أبا مسلم ما طيب عيش بدائم
ولا سالم عما قليل بسالم

وله قصائد عديدة في مدح المهدي ، وكان المهدي يصله أولا ، وبأمره أن لا يقول الغزل والنسيب ، ولكن بشارا لا يسمع له ، وكان سبب موت بشار ما حكاه صاحب الأغاني قال : خرج بشار مرة إلى المهدي ويعقوب بن داود فلم يحفل به يعقوب يعطه شيئا ، ومر يعقوب بشار وهو يريد منزله فصاح به بشار : طال الثواء على رسوم المنزل ، فقال يعقوب : فإذا تشاء أبا معاذ فارحل ، فغضب بشار وقال يهجوه :

بني أمية هبوا طال نومكم
ضاعت خلافتكم ياقوم فالتمسوا
إن الخليفة يعقوب بن داود
خليفة الله بين الزرق والعود

ولما طالت أيام بشار على باب يعقوب دخل عليه وكان من عادة بشار إذا أراد أن ينشد أو يتكلم يتفل عن يمينه وشماله ويصفق بإحدى يديه على الأخرى ففعل ذلك ، وأنشد :

يعقوب قد وفد العفاة عشية	متعرضين لسبيك المنساب
فسقيتهم وحسبنتي كمونة	نبتت لزارعها بغير شراب
مهلا لديك فإنني ربحانة	فاشمم بأنفك واسقها بذناب
طال الثواء على تنظر حاجة	شمطت لديك ، فمن لها بخضاب ؟
تعطي الغزيرة درها فإذا أبت	كانت ملامتها على الحلاب

فلم يعطف يعقوب عليه وحرمه ، فانصرب إلى البصرة مغضبا فلما قدم المهدي البصرة أعطى عطايا كثيرة ووصل الشعراء وذلك كله على يد يعقوب ، ولم يعط بشارا من ذلك ؛ فجاء بشار إلى يونس النحوي فقال : هل ههنا أحد بحتشم منه ؟ قالوا له : لا ، فأنشأ بيتا يهجو فيه المهدي ، فسعى به أهل الحلقة إلي يعقوب فدخل يعقوب على المهدي ، وقال له : يا أمير المؤمنين إن هذا الأعمى قد هجاك فقال بأي شيء ، فقال بما لا ينطق به لساني ، فأمر بضربه حتى مات ، ثم ألقى في زورق في البطحة فحمله الماء فأخرجه إلى دجلة البصرة ، فأخذ وأتى به أهله فدفنوه ، وبعد ذلك ندم المهدي على قتله حين لا ينفع الندم .

لكن اللغة والفصاحة من معاشرة مواليه الذين نشأ فيهم ، ومن أئمة البصرة في اللغة والأدب والكلام ، ومن اختلافه كثيرا من الأعراب الذين كانوا ينزلون بادية البصرة ، حتى خرج نابغة زمانه في الفصاحة والشعر ، قيل له : ليس من أحد شعراء العرب شعر ، إلا وقد قال فيه شيئا استنكرته العرب من ألفاظهم وشك فيه ، وليس في شعرك ما يشك فيه ، قال : ومن أين يأتيني الخطأ ؟ ولدت ها هنا ، ونشأت في حجور ثمانين شيخا من فصحاء بني عقيل ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ ، وإن دخلت إلى نسائهم فנסاؤهم أفصح منهم ، وأيفعت فأبديت إلى أن أدركت ، فمن أين يأتيني الخطأ ؟ وكان فوق ذلك متوقد الذكاء صادق الحس لطيف الهداية ، وكان في صباه وشبابه معتدل الأخلاق مكبا على تحصيل العلم ، مصادقا لوصل بن عطاء رأس المعتزلة وعمرو بن عبيد ، إلا أن ذلك لم يدم طويلا ؛ فصرح بعقائد فاسدة في حديثه وشعره ، ورأى المجون والخروج على العلماء والمتوقرين يحبانه إلى طبقة الخلاء والمغنين والقيان فاستهتر بهما ، ورأى أن أكثر الناس لا يستدر خيرهم إلا بتهديدهم بالهجاء والتشهير بهم ، فسلك معهم هذا الطريق ، وتمادى في ذلك فأصبح ولعا بالمجون والعبث بالناس ، قليل المبالاة بشعائر الدين وبالوقعة فيه متهما بالزندقة ، وأنه يدين بالرجعة ويفضل النار على الأرض ، فيصوب رأي إبليس في امتناعه من السجود لآدم ، ويرى أن الناس كلهم كفروا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم

سار شعوبيا متعصبا على العرب، يغري الموالي بنبذ ولائهم والانتماء إلى الفرس . شديد التبرم بالناس ، ثلأبا بهم ، نهاشا لأعراضهم ، لم يسلم من عقرة لسانه خليفة ولا سوقة ، حتى أهل بيته ، وكان من سعادة الرجل من أهل البصرة ألا يعرف بشارا ولا يعرفه بشار ، فإن لم يمتحن بلسانه امتحن به في ماله ، فمقته العلماء والمتكلمون وهموا بالوقية به ، وإراحة الناس منه وخاصة واصل بن عطاء ، وعمرو بن عبيد ، ففر من البصرة إلى أرض الجزيرة الفراتية واتصل ببعض أمراء بني أمية وولاتهم فمدحهم وعاش في معروفهم ، وجاءت الدولة العباسية فاضطرب عيشه فيها بادئ الأمر حتى علم بموت عدوية : واصل وعمرو بن عبيد ، فعاد إليها محمد بعقائد جديدة ومنكرات من الأخلاق ، غير أن نبوغه في الشعر ، وبراعة دعابته شفعت له عند كثير من رؤساء الموالي والمشتهرين بالمجون ، فعاش بقية عمره بالبصرة .

شعره :

وقد قال بشار الشعر ولم يبلغ عشر سنين ، ثم بلغ الحلم وهو مخشى مترة لسانه ، وكان يقول : (هجوت جريرا فأعرض عني واستصغرنني ، ولو أجايني لكنت أشعر الناس .. وكان وهو صغير إذا هجا قوما جاءوا إلى أبيه ، وكان طيانا يعمل اللبن من الطين ، فشكوه إليه ، فيضربه ضربا مبرحا ، فكانت أمه تقول له : كم تضرب هذا الصبي الصغير الضرير ، أما ترحمه ، فيقول بلى والله لأرحمه ، ولكنه يتعرض للناس فيشكونه إلى ، فيسمعه بشار فيطمع فيه ، فقال يأبت إن هذا الذي يشكونه إليك مني هو قول الشعر ، وإنني إن تمت عليه أغنيتك وسائر أهلي ، فإذا شكوني فقل لهم ، ليس الله عز وجل يقول : ليس على الأعمى حرج ، فلما عادوا شكواهم قال لهم ذلك ، فانصرفوا ، وهم يقولون : فقه برد أغيظ لنا من شعر بشار ، ويقول أكثر رواة الشعر ونقدته والباحثون في طبقات الشعراء : إن بشارا رأس المحدثين ومقدمهم ، وأسبقهم إلى معاطاة محسانات البديع وطرق أبواب المجون والخلاعة والغزل الرقيق الحضري والهجاء المقذع في الإسلام ، وأنه أول من جمع في شعره بين جزالة العرب والمحدثين ، وفتق عن المعاني الدقيقة والأخيلة اللطيفة والحق أن له الجيد والردىء ، قال عن نفسه : لى اثنى عشر ألف بيت عين فقيل له : هذا ما لم يكن أحد يدعيه سواك ، فقال : لى اثنتى عشرة ألف قصيدة لعنها الله ولعن قائلها إن لم يكن في كل واحدة منها بيت عين ، وقصارى القول أن شعر بشار هو الحد الوسط بين القديم والحديث ، وقد طرق فيه كل أبواب الشعر التي عرفت قبله ، وأربى عليها وغلب عليه الهجاء والتشبيب بالنساء والغزل بهن والخروج عن ذلك الحد المألوف عند أهل

زمانه ،مما أنكره عليه العلماء والمتألهون لما رأوا من تولع جوارى البصرة وشبانها بشعره ،وحتى قال ابن سوار بن عبد الله الأكبر ومالك بن دينار ما شىء أدعى لهذه المدينة إلى الفسق من أشعار هذا الأعمى ،وما زال يعظانه ، وكان واصل بن عطاء يقول ، إن من أخدع حبائل الشيطان وأغواها لكلمات لهذا الأعمى الملحد ، فلما كثر ذلك وانتهى خبره من وجوه كثيرة إلى المهدي وقدم عليه مادحا له استنشده قوله :

قاس الهموم تنل بها نجحا والليل إن وراءه صبجا
لا يؤسبنيك من مخدرة قول تغلظه وإن جرحا
عسر النساء إلي مياسره والصعب بعد ما جمعا

فأنشده إياه ، وكان المهدي غيورا ، فغضب وزجره ، وقال : أتحض الناس عن الفجور ، ويقذف المحصنات المخبات : والله لئن قلت بعد هذا بيتا واحدا في تشبيب لآتين على روحك ، فكان بشار إذا تآقت نفسه لقول ذلك ذكر أن الخليفة منعه كذا وكذا ، ويذكر من اللهو وحديث النساء ما يريد ، ويقول إنه مطيع له خائف أن يفعل كيت وكيت ، وضمن ذلك بعض قصائد مدح بها الخليفة ، فلم يزد على أن حرمه الجائزة عليها ، من ذلك قوله يتبرا من التشبيب ويمدح الخليفة :

يامنظرا حسنا رأيتته من وجهه جارية فديته
بعثت إلى تسومني برد الشباب وقد طويته
أمسكت عنك وربما عرض البلاء وما ابتغيته
إن الخليفة قد أبى وإذا أبى شينا أبيته

ومخضب رخص البنان بكى على وبكيت عليه
ويشوقني بيت الحبيب إذا ادكرت وأين بيته؟

قام الخليفة دونه فصبرت عنه وما قليته
ونهانني الملك الهما م عن النساء وما عصيته
لا بل وفيت فلم أضع عهدا ولا رأيا رأيتته
وأنا المطل على العدى وإذا غلا الحمد اشتريته
وأميل في أنس النديم من الحياة وما اشتهيته
أصفي الخليل إذا ندى وإذا نأى عني نأيته

ثم أنشده ما مدحه به بلا تشبيب فخرمه ، وبهذا الشعر الرقيق تعرف : كيف كان ولوع شبان البصرة ونسائها وخلعائها بشعره وتغنيهم به ، وكيف كان إغراؤه لهم بالمجون ، وكانت متآديات القيان لذهاب بصره يحضرن مجلسه ويسمعن شعره

ويتناشدنه ويتغنين ويتعابن به ،فهوى بشار منهن جارية تسمى عبدة ،فشهرها في شعره .حتى صار له معها أخبار طائرة وأشعار سائرة : فمن قوله فيها :

يزهدني في حب عبدة معشر
فقلت دعوا قلبي وما اختار وارتضي
فما تبصر العينان في موضع الهوى
وما الحسن إلا كل حسن دعا الصبا
قلوبهم فيها مخالفة قلبي
فبالقلب لا بالعين يبصر ذو الحب
ولا تسمع الأذنان إلا من القلب
وألف بين العشق والعاشق صب
وقوله :

لم يطل ليلى ولكن لم أنم
وإذا قلت لها جودي لنا
رفهي يا عبد عني واعلمي
إن في بردي جسما ناحلا
ونفى عني الكرى طيف ألم
خرجت بالصمت عن ولا نعم
إنني يا عبد من لحم ودم
لو نوكأت عليه لا نهدد

وكان يولع في شعره بهذا المعنى ، وشبهه مع أنه كان ضخما كأنه فيل ..
ومن ذلك قوله :

يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة
قالوا بمن لا ترى تهذي فقلت لهم
هل من دواء لمشغوف بجارية
والأذن تعشق قبل العين أحيانا
الأذن كالعين توفي القلب ما كانا
يلقى بلقيانها روحا وربحانا

وهاجى بشار الشعراء المفلقين في زمانه ،ونصب لهم منهم حماد عجرد ،واحتدم بينهم اللجاج والتقاذف بالأقوال المقدعة ،وظهر حماد عليه في بعض أهاجيه ،مع أن الجيد من هجاء بشار فيه أكثر من جيد ؛ هجاء حماد ، فهجاء بشار هتك حمادا ،وبعض هجاء حماد ألم بشارا ،وإن لم يسقط منزلته قيل إنه لما هجاه حماد بقوله :

ويا أقبح من قرد إذا ما عمى القرد

قال : لا إله إلا الله ،قد والله كنت أخشى أن يأتي به ،والله لقد وقع لي هذا البيت من أكثر من عشرين سنة فما نطقت به خوفا من أن يسمع ،فأهجى به ،حتى وقع عليه النبطى ،وقيل ،إنه لما سمعه بكى ،فقال له قائل : أتبكي من هجاء حماد ؟ فقال والله ما أبكي من هجائه ،ولكن أبكي لأنه يراني ولا أراه فيصفني ولم أصفه .. ولبشار من المعاني المبتكرة والأخيلة البديعة في فنون الشعر المختلفة ما جعل منهجه برزخا بين الشعر القديم والحديث ،ومجازا يعبر عنه الشعر من مرابع البداوة

إلى مقاصير الحضارة ، وفي ذلك يقول الجاحظ في كتاب البيان والتبيين " كان بشار خطيبا صاحب منثور ومزدوج وسجع ورسائل ، وهو من المطبوعين أصحاب الإبداع والاختراع ، المتغنيين في الشعر القائلين في أكثر أجناسه وضروبه " ، ومن غرر كلامه في الحكم والنصائح قوله :

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة
وما خير كف أمسك الغل أختها
وخل الهوينى للضعيف ولا تكن
برأى نصيح أو نصيحة حازم
فإن الخوافى قوة للقوادم
وما خير سيف لم يؤيد بقائم
نوؤما فإن الحر ليس بنائم

وقوله :

إذا كنت في كل الأمور معاتبا
فحش واحدا أو صل أخاك ، فإنه
إذا أنت لم تشرب مرارا علي القذي
صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
مقارف ذنب مرة ومجانبه
ظمئت وأي الناس تصفوا مشاربه

وقال أبان بن عبد الحميد : نزل في ظاهر البصرة قوم من أعراب قيس عيلان ، وكان فيهم بيان وفصاحة ، فكان بشار يأتيهم ، وينشدهم أشعاره التي يمدح بها قيسا ، فيجلونه لذلك ويعظمونه ، وكان نساؤهم يجلسن معهم ، ويتحدثن إليه ، وينشدهن أشعاره في الغزل ، وكنت كثيرا ما آتى في ذلك الموضع فأسمع منه ومنهم ، فأتيهم يوما إذا هم قد ارتحلوا ، فجئت إلى بشار ، فقلت يا أبا معاذ أعلمت أن القوم قد ارتحلوا ؟ قال : لا ، قلت : فاعلم ، قال : قد علمت لا علمت ! ومضيت ، فلما كان بعد ذلك بأيام سمعت الناس ينشدون :

دعا بفراق من تهوى أبان
كأن شرارة وقعت في قلبي
إذا أنشدت أو نسمت عليها
ففاض الدمع واحترق الجنان
لهافي مقلتي ودمي استنان^(١)
رياح الصيف هاج لها دخان

فعلمت أنها لبشار ؛ فأتيته ، فقلت : يا أبا معاذ ، ما ذنبي إليك ؟ قال : ذنب غراب البين ، فقلت : هل ذكرتني بغير هذا ؟ قال : لا ، فقلت : أنشدك الله أن لا تزيد ، فقال : امض لشأنك فقد تركتك ... ومن غرر شعره قوله :

(١) استن الرجل : مضى على وجهه ، واستن السراب : اضطرب .

خليلي إن المال ليس بنافع
وكنت إذا ضاقت على محلة
وما خاب بين الله والناس عامل
وما ضاق فضل الله عن متعفف

وقوله :

طبعنت على ما في غير مخير
أريد فلا أعطى فأعطى ولم أرد
فأصرف عن قصدي وعلمي مقصر

ومن قوله في الوصف والحماسة :

وجيش كجنح الليل يزحف بالحصي
غدونا له والشمس في خدر أمها
بضرب يذوق الموت من ذاق طعمه
كأن مثار النقع فوق رؤوسنا
بعثنا لهم موت الفجاءة إننا
فراحوا: فريق في الإسار ومثله
إذا الملك الجبار صعر خده

إذا لم ينل منه أخ وصديق
تيممت أخرى ما علي مضيق
له في التقى أو في المحامد سوق
ولكن أخلاق الرجال تضيق

هواي ولو خيرت كنت المهذبا
وقصر علمي أن أنال المغيبا
وأمسي وما أعقبت إلا التعجبا

وبالشوك والخطى حمر ثعالبه
تظالعا والطل لم يجر ذاتيه
وتدرك من نجى القرار مثالبه
وأسيافنا ليل تهاوي كواكبه
بنو الموت خفاق علينا سبابه
قتيل ومثل لاذ بالبحر هاربه
مشينا إليه بالسيف نعاتبه

ومن قوله في المدح يمدح خالد بن برمك وهو بفارس :

سوى أننى عاف وأنت جواد
فأيهما تأتي فأنت عماد
وإن تأب لم يضرب على سداد
ومالي بأرض الباخلين بلاد
خرجت مع البازي على سواد

أخالد لم أخبط إليك بدمه
أخالد بين الأجر والحمد حاجتي
فإن تعطني أفرغ عليك مدائحي
ركابي على حرف وقلبي مشبع
إذا أنكرتني بلدة أو نكرتها

وقوله :

ولم أدر أن الجود من كفه يعدي
أفدت ، وأعداني فأتلقت ما عندي

لمست بكفى كفه أبتغى الغنى
فلأنا منه ما أفاد ذوو الغنى

وقوله يمدح عقبة بن سلم بن قتيبة :

في عطاء ومركب للقاء
ف ولكن يلد طعم العطاء
ب ، وتغشى منازل اللكرماء

إنما لذة الجواد ابن سلم
ليس يعطيك للرجاء وللخو
تسقط الطير حيث ينتثر الحـ

ومن قوله في الحماسة يفتخر بولائه لمضر :

إذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أو تمطر الدما
إذا ما أعرنا سيذا من قبيلة ذرى منبر صلى علينا وسلمنا

ومن ابتداءاته البديعة قوله :

أبى طلل بالجزع أن يتكلما وماذا عليه لو أجاب متيما
وبالجزع آثار بقين وباللوى ملاعب لا يعرفن إلا توهما

آراء النقاد في شعره :

يقول فيه أبو الفرج : محل بشار في الشعر ، وتقدمه في طبقات المحدثين فيه بإجماع الرواة ، ورياسته عليهم من غير إختلاف في ذلك ، يغنى عن وصفه وإطالة ذكر محله ، وهو من مخضرمى شعراء الدولتين الأموية والعباسية ، وقد شهر فيهما ، ومدح وهجا ، فأخذ سنى الجوائز مع الشعراء^(١) ؛ وكان يحيى بن الجون العبدى راوية بشار^(٢) ؛ وكان الأصمعى يقول :

بشار خاتمة الشعراء ، والله لولا أن أيامه تأخرت لفضلته على كثير منهم^(٣) ..
وقال أبو عبيدة : سمعت بشارا يقول وقد أنشدنى في شعر الأعشى :
وأنكرتنى وما كان الذى أنكرت من الحوادث إلا الشيب والصلعا

فأنكره وقال : هذا بيت مصنوع ؛ ما يشبه كلام الأعشى ؛ فعجبت لذلك ، فلما كان بعد ذلك بعشر سنين كنت جالسا عند يونس ، فقال : حدثنى أبو عمرو ابن العلاء أنه صنع هذا البيت وأدخله في شعر الأعشى ، فجعلت حينئذ أزداد عجبا من فطنة بشار وصحة قريحته وجودة نقد الشعر^(٤) ؛ وسئل أبو عبيدة : أمروان عندك أشعر أم بشار ؟ فقال : حكم بشار لنفسه أنه قال ثلاثة عشر ألف بيت جيد ولا يكون عدد الجيد من شعر شعراء الجاهلية والإسلام بهذا العدد ، ومروان أمدح للملوك^(٥) .

وسئل الأصمعى عن بشار ومروان أيهما أشعر ؟ . فقال : بشار ، فسئل عن السبب في ذلك ، فقال : لأن مروان سلك طريقا كثر من يسلكه فلم يلحق بمن تقدمه وشركه فيه من كان في عصره ، وبشار سلك طريقا لم يسلك وتفرد به ، وهو أكثر

(١) ٣/٢٠ الأغاني .

(٢) ٣/٢١ المرجع .

(٣) ٣/٢٣ .

(٤) ٣/٢٣ .

(٥) ٣/٢٤ المرجع .

تصرفا وفنون شعر ، وأعزر وأوسع بديعا ، ومروان لم يتجاوز مذهب الأوائل : وسأله رجل عن مروان بن أبي حفصة فقال : وجدت أهل بغداد وقد ختموا به الشعراء ، وبشار أحق بأن يختموهم به من مروان ، وما كان مروان في حياة بشار يقول شعرا حتى يصلحه بشار له ويقومه ، وهذا سلم الخاسر من طبقة مروان يزاحمه بين أيدي الخلفاء بالشعر ويساويه في الجوائز ، وسلم معترف بأنه تبع لبشار .

وقال يحيى بن المنجم : سمعت من لا أحصى من الرواة يقولون : أحسن الناس ابتداء في الجاهلية امرؤ القيس ، وفي الإسلام القطامي ومن المحدثين بشار حيث يقول :

أبي طلل في الجزع أن يتكلما وماذا عليه لو أجاب متيما^(١)

وكان الأصمعي يعجب بشعر بشار لكثرة فنونه وسعة تصرفه ويقول : كان مطبوعا لا يكلف طبعه شيئا ، ولا كمن يقول البيت ويحككه أياما ، وكان يشبه بشارا بالأعشى والنابعة ، ويشبه مروان بزهير والحطيئة^(٢) ، وسئل أبو زيد عن بشار ومروان فقال : مروان أجد وبشار أهزل ، فحدث الأصمعي بذلك فقال : بشار يصلح لنجد والهزل ، ومروان لا يصلح إلا لأحدهما^(٣) وفضله أبو عمرو ابن علاء^(٤) ، وكان إسحاق الموصلي لا يعتد ببشار ويقول : هو كثير التخليط في نثره ، وأشعاره مختلفة لا يشبه بعضها بعضا . وكان يقدم مروان عليه ويقول : هذا هو أشد استواء شعر منه ، وكلامه ومذهبه أشبه بكلام العرب ومذاهبها ، وكان لا يعد أبا نواس البتة ولا يرى فيه خيرا^(٥) .. وقيل لبشار : إنك لتجيء بالشيء الهجين المتفاوت فبينما تقول شعرا يثير النقع وتخلع به قلب الجبان . إذا بك تقول : " ربابة ربة البيت " وأشباه ذلك ؛ فقال : لكل وجه فالقول الأول جد ؛ وهذا قلته في ربابة جاريتي فهذا عندها أحسن من " قفانبك " . وغضب بشار على سلم الخاسر لأنه معانيه في شعره ، وكان يقال : أطبع الناس بشار والسيد وأبو العتاهية وما قدر أحد على جمع شعر هؤلاء الثلاثة لكثرتهم^(٦) ، وكان إسحاق يطعن على شعر بشار ويضع منه ويذكر أن كلامه مختلف لا يشبه بعضه بعضا^(٧) .

(١) ٣/٢٥ المرجع .

(٢) ٣/٢٥ المرجع .

(٣) ٣٥٢ ج ٣ المرجع .

(٤) ٢٦ ج ٣ المرجع .

(٥) ٢٨ ج ٣ .

(٦) ١٢٢ ج ٣ الأغاني .

(٧) ٤٦ ج ٣ المرجع .

أبو نواس الحسن بن هانئ

حياته :

هو أبو الحسن بن هانئ، بن عبد الأول بن الصباح، كنيته الأولى أبو فراس ثم كنى بأبي نواس، كان فارسي الأصل، أعجمي المحدث، لذلك أخفى نسبه ونسب أمه الأهوازية الفارسية حتى لا يعرف فيقده فيه - ولما كبر أبي نواس أكثر من دعاويه وخلط في نسبه، فادعى أنه بصرى المنشأ ثم ناقض دعوته في قوله، من قصيدة يهجو بها عرب البصرة :

فإن أك بصريا فإن مهاجرى دمشق ولكن الحديث فنون
مجاور قوم ليس بيني وبينهم أوأصر إلا دعوة وظنون

كان ادعى أنه تيمي النسب فانتسب إلى أولاد عبيد الله بن زياد بن ظبيان العامري التيمي، فقيل لأبي نواس كيف تدعي نسبتك إليه وهو لا عقب له، لو انتسبت إلى أولاد أخيه أبان بن زياد لصدقناك فخرج أبو نواس وترك نسبه إلى تيم، ثم ادعى أنه من قبيلة نزاز وأنه من أحفاد الفرزدق فانتقده الحكم بن قنبر المازن وهجاه فلما هجاه أبو نواس وخندف الأسدي، وأسد بطن من بطنون نزار، تعرض له الحكم وهجاه فترك النزارية، وادعى أنه من حكم وانتسب إليها مدة زجره يزيد بن منصور الحميري (خال المهدي) وقال له أنت خوزي من (خوزستان - إحدى ولايات فارس) فمالك ولحكم؟ فرد عليه أبو نواس مضطرا: أنا مولى لهم ياسيدي. وإثر ذلك ترك الحكميون أبا نواس وشأنه ولكنه حنق واغتاظ فشب اليمنيين وهجا رجالاتهم، فهجا هاشم بن حديج الكندي أحد أشرف اليمن بقصائد كثيرة ولا نعرف سبب تخصيصه هاشما بهجوه وبالإكثار من هجوه إلا أن يكون هو الذي بدأ بإفحامه ليترك دعوته ويهجر نسبه إلى قبيلته، ولكن الحكميين رأوا أن لسان أبي نواس المقدم لا يكف ولا يسكت، فقال بعضهم لبعض دعوا أبا نواس في دعوته فهذا الولاء (الولاء لا النسب) يتعصب لنا ويدافع عنا ويهجو نزارا ألد أعدائنا، واتفقوا إثر ذلك على أن لا يكذبوه في نسبه إليهم، فرجع أبو نواس إلى اليمن نادما على سبه لهم معتذرا لمن هجاهم من رجالاتهم فاعتذر إلى هاشم بن حديج الكندي بقصائد استلت سخيمته واسترجعت رحمته، ومن اعتذاراته له :

أثتم خير ذي حكم بن سعد لقد لا قيت داهية توادا
سببت ابن الحديج فشب ظلي لعمر أبيك ما استوفى وزادا

أبلغ اعتزاز العرب بنسبهم في العصر العباسي هذا المبلغ ؟ إلى حد أن يحاول رجل كأبي نواس الانتساب إلى قبيلة والالتجاء إلى جماعة ، وإلى حد أن يعرف أن ذلك المدعى دخيل عنهم مدع عليهم ، وهل العصبة العربية مازالت قائمة لم يضعفها اختلاط الفرس بالعرب ؟ ذلك ما نراه من الاطلاع على تاريخ أبو نواس ، نرى اعتزازا بالنسب لا يماثله اعتزازا وإكبار للعصبة لا يداخله إنكار ، والاحتفاظ بالأنساب لا يشابهه احتفاظهم بعباداتهم وأخلاقهم ، غير أنه من المبالغة أن نقول إن تلك العصبة لم تنقص عما كانت عليه في أيام الجاهلية ، فلا بد من أن يكون لاختلاط أثره ولكثرة عدد القبيلة فعلة ، ولا بد أن تكون هذه العصبة في الأقاليم البدوية النائية عن الفرس البعيدة عن الاختلاط تخالف العصبة التي توجد لدى الحضريين حتى يكثُر مصاهرة العرب للفرس وتجاورهم في السكنى فيكثُر اختلاط الأنساب ويصعب حفظها .

اطمأنت نفس أبي نواس إلى هذه الدعوى واستراحت من جهة النسب ولا سيما بعد أن وجد اليمنيين يتفاضلون به ويحلونه منهم مكانا رفيعا ومقاما خطيرا ويعدونهم من أشرفهم ويبجلونهم كأمرائهم ، ثم جلس أبو فراس الحسن بن هانئ يوما مع الأمير خلف الأحمر أحد عمال اليمن ، وكان من أعجب الناس بأبي نواس وأميلهم إليه ، فقال له : أنت من أشرف اليمن فتكن بكنتها ، بأسماء الذوين (الملوك الذين تبديئ أسماؤهم بذي) وعد له منها : ذا جدن ، وذا يزن وذا نواس . ففضل أبو فراس ذا نواس فكنى بأبي نواس ، وغلبت كنيته الأولى ... يتضح لنا إذا أن أبا نواس فارسي الأصل ، أعجمي النجار ، وأنه ليس له نسب بين العرب ، وأن ما شهر عنه من أنه كان حكما ما هو إلا نسبه ولاء رضى بها الحكميون وأقرره عليها ، لما أن رأوا فيه الشاعر الفذ النابه .

ولد أبو نواس سنة ١٤٥ - ٧٦٢ م ، وقيل إنه قبل ذلك التاريخ بأربع سنين ، ولكن أين ولد الشاعر ؟ ، أفي البصرة التي نشأة وتربى فيها ، كما يقول أبو نواس في بيته : فإن أك بصريا فان مهاجري الخ ؟ أم في قرية من قرى كورة خوزستان الفارسية تدعى (باستان ماتارد) ثم انتقل إلى البصرة بعد ذلك وترعرع فيها ؟ أم في دمشق حيث كان والده الجندي معسكرا فيها مع جند مروان بن محمد ؟ كل ذلك لا تلقى عليه الروايات قبسا من نور ، ولا شعاعا من ضياء ، إلا ما نرى من كثرة الروايات التي تروى عنه أنه ولد في كورة خوزستان فانتقل بعد ذلك مع أمه إلى البصرة ، مما يحملنا على تصديق ذلك الرأي ويجعلنا نشك في قول أبي نواس : فإن أك بصريا فإن مهاجري دمشق .. فلعله أخفى مقر ولادته حتى لا يعلم أنه فارسي فيكون ذلك

داعيا إلى تكذيبه في انتسابه إلى الحكميين . كان أبي نواس من موالى الجراح بن عبد الله الحكمي ، كما كان أبوه من جند مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية وكان مقيما بالشام ثم نقل لمرابطة الثغور في الأهواز ، فتزوج منها بامرأة أهوازية تدعى جلبان ، فرزقت بعدة أولاد ، منهم الشاعر النابه الذكر ، والرفيع القدر ، أبو نواس .

كان أبو نواس كما أسلفنا إذا حكمى الولاء عجمى النجار ، يفتخر باليمن . ويحن إلى العجم ، ويذكرهم في أشعاره ، حنين الابن لأهله والفرع لأصله .

درج الطفل الشاعر على أرض الأهواز ، تسير به سفينة الحياة وحيدا إلا من أمه ، فقد توفي أبوه الجندى فخرج إلى الحياة يفقد شخصه ولا يجد إلا رسمه ممثلا في أقارب أمه الدين عطفوا عليه ، وساعدوا إخوته على تكاليف العيش ومتاعب الأيام .

حتى إذا فقد المعين ، ونضب المعين ، وخرجت به أمه من الأهواز إلى البصرة وقد تكامل سنه حولين ، عليها تجد فيها ما يقيم أودها ، ويصلح حالها .

والبصرة يومئذ منتجع الشارد . ومقصد الوارد وكعبة المتأدب والعالم ، فيها أسواق التجارة منتشرة وذائعة ، وألوية العلم رافعة خافقة ، ونوادى الأدب واسعة وفسيحة .. كما كانت حلقة الاتصال بين شرق الإمبراطورية الإسلامية ، ومقر التمازج بين الثقافتين العربية والفارسية ومقر المرشد خليفة عكاظ .

واستقرت أم أبي نواس بالبصرة ، وتم لها ما أرادت حياة بسيطة هادئة فيها شيء من الدعة ، ونزر من السعة .

وعرف أبو نواس الوجود مذ رأى البصرة ، فحن إلى العلم حين رأى العلماء ، وطرب للأدب إذ سمع من الأدباء ، فحف إلى مكاتب القرآن ، ومجالس العلم ونوادى الأدب ، فقرأ القرآن على يعقوب الحضرمي الفقيه المقرئ وحذقه ، حتى إن شيخه أعجب به فرمى إليه خاتمه وقال اذهب فأنت أقرأ أهل البصرة ، ودرس النحو على أبي زيد وأبي عبيدة البصريين ، وتعلم العربية ، وحفظ كثيرا من القصائد والأراجيز .

ولكن أمه البائسة الفقيرة كانت في حاجة إلى ابنها الصغير المهتم بنفسه ، العاكف على درسه ، ليساعدها على الحياة ويرفها من البؤس .

ولذلك اقتطفته من بين مجالس العلم والأدب ووضعت في حانوت لبعض العطارين غير عابثة بحاله ولا مشفقة على آماله ، فمكث عنده يعمل معه حين يحضر وقت العمل ويتركه حين تسنح له ساعات الفراغ فيختلف إلى الأدباء ، ويتعارف بالشعراء ، ويتنقل بين المجالس ، ثم يعود إلى العطار ، فيعمل بيده وبجسمه ويفكر بخياله وعقله في معاناة الشعر ، ونظم القريض ؛ والترنم بما حفظه من قصائد وأراجيز ، كان أبو نواس جميل الصورة ؛ حسن الوجه أبيض اللون ، نظيف الهيئة والإشارة .

فترك جمال صورته شيئا في نفوس معاصريه ووجد من وطأة بؤسه مشجعا له على الترفيه عن نفسه وأمانيه ، وكانت البصرة يومئذ تموج بألوف الموالى الذين تدفعهم بواعث خاصة إلى اللهو والمجون والخلاعة والفسوق ، فلا نسب يمسخهم على الحياء ، ولا شرف يحفزهم إلى الإباء ، ولا قوة تجبرهم على التقوى ولا سيد يكرههم على الحسنى ، وقد تأثروا بأخلاق بلادهم وعادات قومهم ، فصعب عليهم إبدالها ، وإن لم يصعب عليهم إخفاؤها .. وصعب على الإنسان تغيير عادة وإن لم يكن صعبا عليه خفاؤها .

وإذا علمنا أن القرية أو المدينة في العصر العباسى تخالف الحى أو القبيلة في العصر الجاهلى بكثرة عدد سكانها واختلاف نسب أهلها ، وازدياد المترددين عليها عرفنا مدى الصعوبات التى تلاقى الحاكم فى التعرف بأخلاق الناس لجزائهم عليها .. هكذا كانت البصرة ، وهكذا كانت بيئتها ميدانا فسيحا للصالح والطالح ، والفضيلة والرذيلة ، والحياء والمجون ، وفى هذا الجو عاش أبو نواس وهو مولى من الموالى الظرفاء ، دفعه كما ذكرت دافع من نفسه ، وباعث من شخصه ، إلى الاختلاط بالمجان ، والتقرب من الموالى ، فوق الدوافع المساعدة الحافزة ، فنشأ ماجنا بطبعه ، فكها ، كثير الدعابة حاضر البديهة يخب ويضع فى أماكن اللهو ومشارب الفخور والمجون ، ويستمتع وينصت لمعازف القيان وأصوات المغنيات ، ويطرب ويبهج لزجاجات الكرم وكاسات الراح .. استمر أبو نواس فى حانوته ودأب على ترده على مجالس العلم والأدب يشبع رغبته فيها بالحفظ والدراسة كما دأب على اختلافه إلى الأصدقاء والندماء يطفىء غلته بالمداعبة والمنادمة والمعاقرة ، حتى رآه أبو أسامه والبه بن الحباب الأسدى الشاعر الكوفى الماجن فى حانوته فأعجب بذكائه وجماله فتعرف به قاصدا وتودد إليه عمدا ، وقال له أراد أن يصاحبه : إنى أرى فىك مخايل أرى أن لا تضيعها وستقول الشعر وتعلو فيه فأصحبنى حتى أخرجك ، فقال : من أنت؟ ، قال : والبة؟ قال : أبو أسامه؟ قال : نعم ؛ قال أنا والله فى طلبك وقد

أردت الخروج إلى الكوفة وإلى بغداد من أجلك لآخذ عنك ، وأسمع منك شرعك
قال ولماذا ؟ قال : شهوة للقاءك ولأبيات سمعتها لك : قال ، وما هي ؟ فأنشده :

جرحت فؤادي بالهوى	فالقلب مجروح السنواحي
سئل الخليفة صارما	هو للفساد وللصلاح
أجداه كف أبي الوليد	يديدا مبارية الريح
ألفى بجانب خصره	أمضى من الأجل المتاح
وكانمذاذر الهباء	عليه أنفاس الريح

فسار أبو نواس وهو شاب بافع مع والبة إلى الكوفة حيث مكث معه ومع
جلسائه من ماجنيها وخلعائها وهو شاب وهم كثيرون عديدون ، ولأستاذة والبة
الماجن سابق اتصال بهم ، وماضى ائتلاف بجمعهم ، فازداد عقدهم بأبي نواس
تنزيها ومجلسهم بروحة الفكهة أنسا وتغريدا .. تودد إليهم وتوددوا إليه ، وحمل
عليهم وحملوا عليه ، فاجتمعوا على الشرب وتصافوا بالعتاب ، وتفاكهوا بقول الشعر ،
وتنادروا بعذب الفكاهة وتسامروا بحلو الدعابة ، هكذا كانوا في الكوفة لهوا ولعبا
وفكاهة وسمر ، يدأبون عليها ويسيرون إليها ، فهي لهم الشغل الشاغل ، والمطلب
الأسمى ، ووجد أبو نواس في أستاذة والبة مربيا وخليلا ، ومصاحبا ونصيرا ، فاطمأن
إليه ، وائتلف بعشيرته ، حتى قال والبة فيه :

يا شقيق النفس من حكم غبت عن عيني فلم أنم

كانت الأعراب المقيمة بالمدن ترسل أبناءها إلى البادية ، ليتقنوا العربية
ويحذقوا اللغة ، حيث جو البادية هادئ صاف فانتهاز أبو نواس فرصة سفر وفد من
أبناء بني أسد إلى البادية وطلب من أستاذة والبة أن يخرج معهم ويتعلم العربية
والغريب ، فأخرجه مع قوم منهم فأقام بالبادية سنة ، صحت فيها لهجته وخلصت فيها
عربيته ، ثم رجع بعدها على الكوفة ، إلى أستاذة والبة على ما كان عليه من قبل .

تخرج أبو نواس في الشعر على أستاذة والبة الماجن ، وعلى ندماء أستاذة ،
والبة الخلاء ، وعلى من لقيهم وجالسهم من الأدباء ، ولكنه بذهم جميعا وفاقهم
كافة ، وغطى اسمه على اسمهم فتناقلت الألسنة ذكره ، كما رويت في مجالس السمر
فكاهاته ، وفي نوادي المجون دعاباته ، فكانت سلوة البائس وأغرودة الماجن .

لا شك في أن والبة حقد على أبي نواس تلميذه وخليله ، وود لو ينأى عن
بلده وإن قام في قلبه وسكن في نفسه كما قال :

يا شقيق النفس من حكم غبت عن عيني فلم أنم

ولا شك في أن أبو نواس قد ضاق أفق الكوفة عن أمانيه ، فرغب عنه بعد أن رغب فيه ، وعزم خطوة أوسع ليخطو بها نحو مستقبله ، وتسير بها سفينة آماله . وهكذا كان ما أراد ، فقد ركب قافلة جده حتى وصل إلى عاصمة الإسلام ودار السلام مدينة بغداد .

دخل أبو نواس بغداد ، واتصل بالشعراء والأدباء والعلماء والكتاب والوزراء . ومدح الرشيد ، وقربه منه الرشيد ، ثم غضب عليه لشعوبيته ووصفه للراح ، فحبسه ثم أطلق سراحه .. ثم مات الرشيد وولى الأمين الخلافة بعده ، ولما قدم الفضل بن الربيع بغداد على محمد الأمين بالأموال والقضيب والخاتم حين مات الرشيد ، وقد اشتد فرح الأمين به فقربه وألطفه وقلده الأمور وفوض إليه ما وراء بابه فهو الذي يولى ويعزل ويحل ويعقد على محمد الأمين ، قال أبو نواس يمدحه :

لعمرك ما غاب الأمين محمد	عن الأمر يعنيه إذا شهد الفضل
ولولا مواريث الخلافة إنها	له دونه ما كان بينهما فضل
لئن كانت الأجساد فيها تباينت	فقولهما قول وفعالهما فعل
أرى الفضل للدنيا وللدين جامعا	كما السهم فيه الريش والفوق والنصل

ومن قوله يصف حراقة ركبها الأمين وكانت على مثال الأسد :

سخر الله للأمين مطايا	لم تسخر لصاحب المحراب
فإذا ما ركابه سرن بحرا	سار في الماء راكبا ليث غاب
أسدا باسطا ذراعيه يعدو	أهرت الشدق كالح الأنياب
لا يعانیه باللجام ولا السو	ط ولا غمز رجله في الركاب
عجب الناس إذا رأوك على صو	رة ليث تمر مر السحاب
سبحوا إذ رأوك سرت عليه	كيف لو أبصروك فوق العقاب ؟
ذات زور ومنسر وجناحيه	من تشق العباب بعد العباب
تسبق الطير في السماء إذا ما أسد	تتعجلوها بجينة وذهاب
بارك الله للأمين وأبقاه	وأبقى له وراء الشباب
ملك تقصر المدائح عنه	هاشمي موفق للصواب

ولما أنشد الأمين قصيدته التي يقول فيها :

أيا دارها بالماء حتى تليتها فلن تكرم الصهباء حتى تهينها

أغالى بها حتى إذا ما ملكتها
وصفراء قبل المزج بيضاء بعده

أهنت لإكرام الخليل مصونها
كأن شعاع الشمس يلقاك دونها

قال له : ألم أنهك عن شرب الخمر ؟ قال بلى والله يا أمير المؤمنين ، والله ما شربتها
مذ نهيتنى عنها ومنعتنى من شربها ، وأنا الذى أقول :

أيها الرائحان باللوم لوما
نالنى بالملام فيها إمام
فاصرفها إلى سواى فانى
كبر حظى منها إذا هى دارت
فكأنى وما أزين منها
كل عن حمله السلاح إلى الحرب

لأذوق المدام إلا شميما
لا أرى لى خلافه مستقيما
لست إلا على الحديث نديما
أن أراها وأن أشم النسيما
قعدى يحسن التحكيما
فأوصى المقيم ألا يقيما

وأنشده يمدحه :

ألا يا خير من رأت العيون نظيرك لا يحس ولا يكون

ومن جيد شعره قوله لما منعه الأمين من شرب الخمر ، وذلك أن المأمون
أمر الخطباء بخراسان أن يعيبوا الأمين بشعر أبى نواس ، ويقولون : هو جليسه
ونديمه وينشدون عل المنابر شعره فمنعه الأمين ، فقال :

غننا بالطلول كيف بلينا
من سلاف كأنه كل طيب
أكل الدهر ما تجشم منها
ثم شجت^(١) فاستضحكت عن لآل
وإذا ما لمستها فهسباء^(٢)
فى كؤوس كأنهن نجوم
طالعات مع السقاة علينا
لو ترى الشرب حولها من بعيد
وغزال يديرها ببنان
ذاك عيش لو دام لى غير أنى

واسقنا نعطك الثناء الثميना
يتمنى مخير أن يكوننا
وتبقى لسانها المكسنونا
لو تجمن فى يد لا قنيننا
يمنع الكف ما يبيع العيون
باديات كأنها أيدينا
فإذا ما غربن يغربن فينا
قلت قوم من قرة^(٣) يسطلونا
ناعمات يزيدها العسر لينا
عفته مكرها وخفت الأميना

(١) القرة : البرد .

(٢) شجت : مزجت بالماء . ويريد باللال : الحبب .

(٣) الهباد : ما ينبث فى ضوء الشمس كأنه غبار .

وأخيرا أسرف أبو نواس في مجونه فحبسه الأمين

ودخل أبو نواس السجن يندب حظه ويسكى جده ، ويذكر أيامه ولياليه ويرثي آماله وأمانيه ، تزيده الذكرى جزعا ويفعمه السجن فرقا وهلعا ، بيد أنه كان يصبر ويتجلد حتى فرغ صبره ونفذ جلده وخبا سراج أمله الداوي وصدأ حسام شبابه الماضى .. فلقد كان يعتمد على حسن ماضيه ورفيع مكانته وأنه فى بطانة الخليفة واحد مفرد ، لا ترب يشغل مكانه ولا نديم يطاوله . ويترقب لذلك صفح الأمين عليه وعودته ثانيا لديه وتقربه إليه ، فبدد هذا الأمل فى فكره أن رسف فى قيود السجن ثلاثة أشهر ، والخليفة عنه معرض ، والدهر مدبر والنجم غارب والقيد فى عنقه دائم مقيم . وأخذ أبو نواس قلمه وكتب للأمين يذكره بعهود له وبقصائده فيه ، ويستشفع بجده وأبيه وكرم محتده وجميل أياديه ، ثم يعد له الأيام التى قضاها فى سجنه ويعرض له بأمره ، وحالته تعريض المستشفع ، فى مدح يشبه الرجاء ، وشعر جيش بالثناء :

مقامى وإنشاديك والناس حضر
فيا من رأى درا على الدر ينثر
وعمك موسى صنوه المتخير
رى ؟ وعبد مناف والدك وحمير
هو الصبح إلا أنه الدهر مسفر
وينظر من أعطافه حين ينظر
أسير رهين فى سجونك مقبر
كأنى قد أذنبت ما ليس يغفر
وإن كنت ذا ذنب فعفوك أكبر

تذكر أمين الله والعهد يذكر
ونثرى عليك الدر يادر هاشم
أبوك الذى لم يملك الأرض مثله
فمن ذا الذى يرمى بسهمك فى الو
تحسنت الدنيا بوجه الخليفة
يشير إليه الجود من وجانته
أيا خير مأمون يرجى : أنا أمرؤ
مضت لى شهور مذ حبست ثلاثة
فإن كنت لم أذنب فقيم سجنتنى ؟

وصلت الرقعة للأمين فطوى كشحه عنها ، لأن نار غضبه لم تخمد ، وقبس عفوه لم يوقد .. غير أن السجين المرتقب لم يسكت ، فأرسل للخليفة ثانية مستشفعا فلم يصفح ، فبرم أبو نواس بالسجن ، وضاق به ذرعا لا سيما وقد أحس بالشيب ووهن الكبر قد سرى فى عظمه ، وضعف السقم وبدأ يشعر بألمه ، فطلب السلوة فلم يجدها إلا فى نفسه ، والنديم فلم يره إلا فى شعره ، فكان ينظم إذا هجته عواصف الذكرى أو ألمت به أطياف الخيال ، لا فى الخمر والندمان ، ولكن فى الشكوى من الزمان ، والتبرم بالأصحاب والإخوان ، عادة المكلموم إذا ما طاله الفرج وديدن المحبوس إذا

فارقه الصبر .. ولما أشد به الحال .. أكثر الشكاية وتمنى أن يقبض له المأمون لينقذه
مما هو فيه .. فأنشد :

يا رب إن القوم قد ظلموني وبلا اقتراف معطل حبسوني
وإلى الجحود بما عرفت خلاله ربي إليك - بكذبهم - نسبوني
ما كان إلا الجرى في ميدانهم في كل درب ، والمجانة ديني
لا العذر يقبلها ويفرق شاهدي منهم ولا يرضون حلف يميني
أما الأمين فلست أرجو دفعه عني ، فمن لي اليوم بالمأمون ؟

ينس إذا أبو نواس من صفح الأمين ، لا بل ينس من دفع ضره ، ولم يبق له
من رجاء وأمل إلا أن يغلب المأمون أخاه على أمره فينقذه مما هو فيه ، ورضخ
لحكم الله مكرها ، وسكن لصروف الزمان عاجزا ، حتى ذهب إلى بغداد صديقان من
أصدقاء أبو نواس ، وأديبان من أدباء العربية ، هما ابن حبيب ، ومؤنس بن عمران ،
فتذكرا رفيقهما أبا نواس ، فذهبا يزورانه في سجنه ، ولما عرف أن وجهتهما إلى
الفضل بن الربيع ، أعطى لهم رقعة فيها هذه الأبيات :

ما من يد في الناس واحدة كيد أبو العباس مولاها
نام البغاة على مضاجعهم وسرى إلى نفسي فأحياها
قد كنت خفتك ثم أمتني من أن أخافك خوفك الله
فعوت عني عفو مقتدر وجبت له نعم فالفاها

ورجا مؤنس أن يسعى في توصيلها إليه ، وأعطاه إياها ، ووصلت الرقعة
للفضل فلم ينس صاحبها أبا نواس ، ولم ينس قصانده فيه . وغرره التي توجه بها ،
فسعى عند الأمين ، حتى بلغ سعيه الفوز ، فأطلق سراح أبي نواس السجين المعذب ،
أطلق سرحه ، فخرج من السجن خائر القوى ، سقيم الجسم ، كثير العلل .. فكتب
إلى أهله ينبئهم بخبر خروجه من السجن :

إنى أتيتكم من القبر والناس يحتسبون للحشر
لولا أبو العباس ما نظرت عيني إلى ولدي ولا وفري
الله ألبسني به نعمما شغلت جسامتها يدي شكري

ويروى أنه لما حبس أبو نواس في شرب الخمر^(١) آلمه الحبس وكان للفضل
بن الربيع خال يستعرض أهل السجون ويتعاهدهم ، ودخل في حبس الزنادقة فرأى

(١) الطبرى ص ٢٢٠ ج ٩ .

فيه أبا نواس - ولم يكن يعرفه - فقال : يا شاب ، أنت مع الزنادقة ! قال معاذ الله ! قال : فلعلك ممن يعبد الكباش ؟ قال : أنا آكل الكباش بصوفه ! فلعلك ممن يعبد الشمس ؟ قال : إني لأتجنب القعود فيها بغضا لها ! قال : فبأي جرم حبست ؟ قال : حبست بتهمة أنا منها برىء ! قال : ليس إلا هذا ! والله لقد صدقتك . فجاء إلى الفضل فقال له : أيجس الناس بالتهمة ! قال وما ذاك ؟ فأخبره بما ادعى من جرمه ، فتبسم الفضل ، ودخل على محمد الأمين فأخبره بذلك ، فدعا به وتقدم إليه أن يجتنب الخمر والسكر : قال نعم ، قيل له : فبعهد الله ! قال : نعم ! فأخرج ، فبعث إليه فتيان من قريش ، فقال لهم : إني لا أشرب ، قالوا : وإن لم تشرب فأنسنا بحديثك . فأجاب ، فلما دارت الكأس بينهم قالوا : ألم ترتح له ؟ قال : لا سبيل والله إلى شربها ، وأنشأ يقول :

أيها الرائحان باللوم لوما لا أذوق المدام إلا شميما

إلى آخر هذه القصيدة الرائعة الجميلة .

ذهب أبو نواس إلى أهله ناسيا ماضيه ، تاركا مجون أيامه الأولى ، ناظرا للموت نظرة الخائف ، وإلى الحياة بعين اليأس ، وإلى الله بعبرة التائب وزفرة المنيب . وفي هذه الأثناء كانت جيوش المأمون قد دهمت بغداد بقيادة قائده طاهر بن الحسين ، وانتهى الأمر بدحر جيش الأمين ، والقضاء على ملكه ونفسه معا .. قتل الأمين ، ياله من خبر مؤلم حقا وقع في نفس أبي نواس النديم الوفي المخلص وقوع الصاعقة ، وتذكر أبو نواس أيامه مع الأمين ، تلك الأيام التي غالبت "الصروف" ، وصارعت الحوادث وعصرت عود الزمن وذاق أبو نواس فيها أفويق السعادة ، فانطلق لسانه برثائه يحركه الوفاء على رغم ما كان بينهما آخر المدة من إعراض وفتور ، وفي هذه القطعة يتمثل لك وفاء أبي نواس صورة حية لقلبه وعواطفه الصادقة :

طوى الموت ما بيني وبين (محمد)	وليس لما تطوى المنية ناشر
فلا وصل إلا عبرة تستدعيها	أحاديث نفس ما لها الدهر ذا كرا
وكنت عليه أحذر الموت وحده	فلم يبقى لي شيء عليه أحاذر
لئن عمرت دور بمن لا أوده	فقد عمرت ممن أود المقابر

كما رثاه بغير هذه ، من القصائد الناطقة . التي تدل على إخلاص أبي نواس لصاحبه الراحل ، الخليفة محمد الأمين ...

وفنيت لذة الشاب عند أبي نواس وبقيت عبرة المشيب تعظه وتذكره
 الآخرة ، وتزهده في الدنيا ، فاستجاب أبي نواس لداعيها فأكثر من الندم على ما
 فرط في جنب الله ، والاستغفار على ما قدم من ذنوب ، حتى روى أنه صاغ خاتمين
 له : نقش في أحدهما : يشهد ابن هانى أن الله واحد ، وفي الثاني هذا البيت :
 تعاضمني ذنبي فلما قرنته بعفوك ربي كان عفوك أعظما

ولم يكتف بالندم والاستغفار بل عف ونسك وزهد ، ونسى عادات الشباب
 وأخلاق المجان والعكوف على اللهو والشراب ، وتعرف على المسجد والجماعة وصار
 بذلك مغرما ولوعا ؛ ويبدو أن أبا نواس قد تاب على يد الفضل بن الربيع بعد خروجه
 من السجن وذلك أقرب إلى العقل ، فالمفهوم أن أبا نواس حين أطلق سراحه ، بلغ
 شكره للفضل في رقعة فيها هذه الأبيات :

أصبحت غير مدافع مولاكا	والحظ لي أنى أكون كذا كا
لله درك أي رهــن منـية	بالأمس كنت ، وهالك لولا كا
أصبحت معتدا على بنعمة	ما كان ينعمها على سواكا

ثم توجه إلى أهله ، فأشبع غلة شوقه برؤيتهم ، وذهب للفضل يشكره على
 يده وحسن صنيعه ، وطبعا شمل الحديث ، بينهما ذكر السجن والوشاة ، فنصح
 الفضل له بأن يغير ماضيه الذي كان تكأة للوشاة في وشيهم ، والمفترين ضده في
 افتراءهم ، فوعده أبو نواس بأن يسير كما أشار .. وتاب على يديه توبة نصوحة ..
 فذلك أصدق في نظر العقل ، وهو ما تؤيده أقوال أبو نواس في الفضل ، وإن شئت
 فاقراً :

أنت يا ابن الربيع الزمتني الفضل	وعودتني والخير عاده
فارعوى باطلى ، وأقصر حبلى	وتبدلت عفة وزهاده
لو ترانى ذكرت بي الحسن البصرى	فى حسن سمته أو قستاده
المسابيح فى ذراعى والمصحف	فى لبتي مكان القلادة
ولقد طال ما شقيت ولكن	أدركتنى على يدك السعادة

مضى أبو نواس على سنن الهدى والصلاح ، ولكن سراج حياته كان آخذاً
 فى الانطفاء ، ومدد روحه كان وشيك الانتهاء ، قدب به السقام علوا وسفلا ، حتى
 لكأن أعضاؤه السقيمة تموت متتالية وهو حى يراها ، ويأسف شد الأسف أن تذهب
 أيامه الطويلة فى حاجة نفسه ولا يذكر طاعة الله إلا هزيلا كبيرا مشرفا على الزوال ،
 ويتحسر كل التحسر أن مضت أيام الشباب لهوا ولعبا ، ويطلب من الله العفو والصفح ،

في أبيات لو لم يكن لأبي نواس غيرها في ميدان الأدب ، وميدان العمل الصالح ،
لكفته ؛

دب في السقام علوا وسفلا	وأراني أموت عضو افضوا
لهف نفسي على ليالي وأيا	م تجاوز تهين لعبا ولهوا
قد أسأنا كل الإساءة فالدا	هم صفحا عنا ، وغفرا وعفوا
ذهبت جدتي بحاجة نفسي	وتذكرت طاعة الله نضوا

وبعد قليل أنطفأت الشعلة ، وهمد الجسم الدائب ، وسكن هذا القلب
الخافق ، وفاضت روح أبي نواس الشاعر في بغداد سنة ١٩٩ هـ ، وصعدت إلى
السماء بعد صراع طويل أوله للباطل وآخره للحق ، ونزاع كبير بدايته للدنيا ونهايته
للآخرة .

شعره وأثره في الأدب :

كان شعر بشار برزخا بين الشعر القديم والحديث ، وجاء بعده شعر أبي
نواس في فنونه وألفاظه ومعانيه مثلا محدثا جامعا لكل ما تصوره المحدثون في
الشعر من جد وهزل وجزالة وسهولة ، فهو رأس المحدثين بعد بشار ، وأشهر من
كانت له طريقة في الجد والهزل والهجاء ، غير أن بشار كان لا يزال على بقية من
الاحتشام والتوقر ، فلم يهتف بالخمير في شعره إلا لماما ، ولم يعجبه الغزل بالذكر ،
ولم يسلك مسالك التأنث في غزله مهما أسف فيه ورقق وسهل ، وأبو نواس سلك
طريقه في المجون والهزل ، وركب رأسه في الاستهتار بالمصارحة بالفسق والفجور ،
وجاهر بالدعوة إلى شرب الخمر ووصفها وصفا لم يبلغه قبله شاعر لا في جاهلية ولا
إسلام ، وشذ عن مألوف العرب بصرفه التشبيب والغزل من أوصاف المؤنث إلى
أوصاف الذكر وخلع العذار في هذا الغزل وفي الخمريات ، حتى أصبح مثلا لمن
نشأ في عصره أو بعده من الخلعاء والمجان ، وحتى رسخ هذا اللون من الغزل
والخمريات بعد حين في أغراض الشعر .

وكان أبو نواس في مدائح الخلفاء وأهل الجد والتوقر من الوزراء ، والولادة
والقواد يفخم الألفاظ ويتخيرها ويجيد رصفها ، ويكثرها من الغريب فيها ، ويسلك
غالبا مسلك القدماء في تقديم النسيب على طريقة العرب ، ووصف الرحلة إلى
الممدوح . وإن ثار أحيانا على هذه الطريقة ، فدعا إلى افتتاح القصائد بوصف
الخمير .

وكان فى طردياته أعرابيا فى شملة لا يصدق من يقرأها أنها صادرة من
حضرى خلىع مثل أبى نواس .

والمشهور عنه فى قصائده البليغة أنه كان يقولها طويلة ثم ينحى عليها
بحذف الردىء والمكرر وبالتهذيب والتثقيف حتى تصير كلها عيونا ، فهو من أمثال
الزهير والحطيئة والأخطل ، ولذلك كانت قصائده الجيدة قصيرة .

وكان إذا مدح أصدقاءه ومن له عليه دالة ، راعى أسلوب الحضرين فى
دمائته ولىنه ورقة نسجه ، ومهد للمديح بدم الديار والأطلال والنوق والجمال ودعا
إلى معاقره المدام ومبادرة اللذات واستماع الأغانى ومباكرة الرياض ونحو ذلك .
وهذه الطريقة ابتدعها أبو نواس أو كاد .

وكذلك كان يرقق القول فى المقطعات والخمريات ، ويسف إلى أن يقارب
العامه فى المجونيات ويكثر فيها من الألفاظ المولدة أو الدخيلة .

وجمع أبو نواس فى شعره خلاصة من معانى شعر المتقدمين من الجاهليين
والإسلاميين ، وأضاف إليها صورا جديدة من معانيه المبتكرة ومعانى الذين عاش
بينهم من المحدثين الحضريين المثقفين بالحضارات والعلوم الموروثة عن أمم شتى
وبالحضارة الإسلامية العربية وعلومها وأدبها ، على ما بين هؤلاء المحدثين من تباين
فى الجذ والهزل ، وأشهر من حاكاه منهم وصب على قوالب معانيه بشار بن برد ،
وأكثر معانيه المبتكرة هى فى الخمريات والغزل بالمذكر .

ولقد قال أبو نواس الشعر فى كل الأغراض ، وغلب عليه :

الغزل الماجن بالمذكر والأنثى والتفنن فى وصف الخمر وتشبيهاها والدعوة
إليها والنشوة بها وذكر سقاتها وندمائها وصبوحها وغبوقها ، وتغلغل فى ذلك ما شاء .

ثم الهجاء ، وكان منه المقبول الذى سلك فيه مسلك التهكم والتنادر على
المهجو . ومنه المقذع الفاحش الذى سلك فيه مسلك العامة فى تسابها ومهازرتها ؛
فهجا الأفراد والجماعات والأمم : هجا مضر وقبائلها ، وفى هجانها حبسه الرشيد ، ثم
هجا العرب وأهل باديتها منتسبا إلى كسرى . واستتبع هجوه لمضر خاصة أنه افتخر
باليمن ، وهجوه للعرب عامة أن افتخر بالعجم ، وانتسب إلى كسرى ، وظهر بمظهر
الشعوبية . وهجا نيل مصر لأنه رأى فيه تمساحا التقم رجلا .

ثم الطرد ووصف الصيد من الوحش والطيور ، وآلة الصيد من الكلاب
والجوارح والخيول ، له فيه أراجيز تعد غاية فى فصاحة اللغة .

ولم يكن المدح والرثاء أهم مقاصده من شعره وإن تكسب بهما ، ولكن مدحه على قلته بالإضافة إلى بقية شعره وأبلغ شعره وأجوده وأرصنه ، وله فيه قصائد جارية فيها فحول الشعراء ، ولا يزالون يعارضونها إلى اليوم .

ومن العجيب أن مثل أبي نواس في عبثه وتماجنه يفسح للزهديات من شعره بابا واسعا اشتمل على مقطعات ؛ منها ما هو غاية في الباب ، وكانت جديدة أن تصدر عن أبي العتاهية ، والحق أنه لم ينظم هذا النوع إلا مكيدة لأبي العتاهية وتفوقا عليه ، وإظهارا لقدرته على النظم في أي غرض .

وأشعار الحسن بن هانئ في الزهد كثيرة ، منها المقطوعات والقصائد ، ومنها ما جاء خالصا غير مشوب ، ومنها ومنها ما انتثر حتى في قصائد مجونه وخمرياته ، ولقد قال أبو العتاهية : قد قلت في الزهد عشرين ألف بيت ووددت أن لي مكانها الأبيات الثلاثة التي قالها أبو نواس :

وتتـز وتـصـبـر	يانواسـي تـوقـر
إن مـسـسـرك أكـبـر	إن يـكـن سـاءكـ دـهـر
و الله من ذنـبـك أكـبـر	يا كـبـير الذنـب عـفـ

ومنها :

أصغر من عفو الله أصغر	أعظم الأشياء من
ما قضى الله وقدر	ليس للإنسان إلا
ير بلى الله المدبر	ليس للمخلوق تدبـ

وفي كتاب ابن منظور : " قال أبو مخلد الطائي : جاء أبو العتاهية إلى عندي فقال لي : إن أبا نواس لا يخالفك ، وقد أحببت أن تسأله ألا يقول في الزهد شيئا ، فإني قد تركت له المديح والهجاء والخمر والرفيق وما فيه الشعراء ، وللزهد شوقي ، فبعثت إلى أبي نواس فجاء إلى وأخذنا في شأننا وأبو العتاهية لا يشرب النبيذ معنا ، فقلت لأبي نواس : إن أبا إسحق من قد عرفت في جلاله وتقدمه قد أحب أنك لا تقول في الزهد شيئا ، فوجم أبو نواس عندك وقال يا أبا مخلد : قطعت على ما كنت أحب أن أبلغه من هذا ، ولقد كنت على عزم أن أقول فيه ما يتوب به كل خليع ، وقد فعلت ، ولا أخالف أبا إسحق فيما ذهب إليه .

ويروي ابن منظور^(١) أنا أبا العتاهية كان يقول : سبقني أبو نواس إلى ثلاثة أبيات وددت إنى سبقته إليها بكل ما قلته فإنه أشعر الناس فيها ، منها قوله :

(١) ص ٦٣ .

يا كبير الذنب عمو اللـ

وقوله :

من لم يكن لله مستهما

وقوله :

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت

سه من ذلك أكبر

لم يمس محتاجا إلى أحد

له عن عدو في ثياب صديق

ومن جد أبي نواس ما قاله يمدح الفضل بن الربيع وزير الرشيد والأمين .

ما إن ترى خلفها الأبصار مطرحا

من جود كفك تأسو كل ماجر حا

لقد نزلت أبا العباس منزلة

وكلت بالدهر عينا غير غافلة

وقال يمدحه أيضا :

قولا لهرون إمام الهدى

أنت على ما بك من قدرة

ليس على الله بمستنكر

وقال في الموعظة :

ألا كل حى هالك وابن هالك

فقل لمقيم الدار إنك ظاعن

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت

عند احتفال المجلس الحاشد

فلمست مثل الفضل بالواجد

أن يجمع العالم فى واحد

وذو حسب فى الهالكين عريق

إلى سفر نائى المكان سحيق

له عن عدو فى ثياب صديق

وقال فى الكبير ينشأ عن الصغير ، وفى الجد يتولد من الهزل ، وفى النافع

ينجم عنه ضار :

وأى جد بلغ المازح

وناصح لو قبل الناصح

ومنهج الحق له واضح

أية نار قدح القادح

لله در الشيب من واعظ

يأبى الفتى إلا اتباع الهوى

وقال فى عزة النفس ولو صدرت عن غيره لكانت به أخرى :

لبست له كبرا أبر على الكبير

يرى جانبى وعرا يزيد على الوعر

على المنطق المنظور والنظر الشر

أرانى أغناهم وإن كنت ذا فقر

إلى أحد حتى أغيب فى القبر

ولا صاحب التاج المحجب فى القصر

ومستبعد إخوانه بثرائه

إذا ضمنى يوما إياه محفل

أخالفه فى شكله وأجره

وقد زادنى تيبها على الناس أننى

فو الله لا يبدى لسانى حاجة

فلا يطمعن فى ذاك منى طامع

يكن في الشعر لا بالبطيء ولا بالسريع بل كان في منزلة وسطى ، وكان الأصمعي يقول : يعجبني من شعر الشاعر بيت واحد قد أجاد قائله وهو :

ضعيفة كـر الطرف تحسب أنها قريبة عهد بالافاقه من سقم
وأنى لآتى الأمر من حيث يتقى ويعلم سهمى حين أنزع^(١) من أرمى

وقال العتابي لرجلين تناظرا في شعر أبي نواس ، والله لو أدرك الخبيث الجاهلية ما أفضل عليه أحد ، وقال أبو عمرو الشيباني : أشعر الناس في وصف الخمر ثلاثة : الأعشى^(٢) والأخطل وأبو نواس : قال محمد بن عمر لم يكن شاعر في عصر أبي نواس إلا وهو يحسده لميل الناس إليه وشهوتهم لمعاشرته وبعد صيته وظرف لسانه : وقال أبو حاتم سئل أبو نواس عن شعره فقال : إذا أردت أن أجد قلت مثل قصيدى : " أيها المئتاب عن عفره " . وإذا أردت العبث قلت مثل قصيدى : " طاب الهوى لعميده " ، فأما الذى أنا فيه وحدى وكله جيد فإذا وصفت الخمر ، وقال أبو ذكوان كنا عند التوزى فذكرت عنده أبا نواس فوضع منه بعض الحاضرين ، فقال له التوزى : أتقول هذا لرجل يقول :

يخافه الناس ويرجونه كأنه الجسنة والسنار

ويقول :

وما فاته جود ولا حل دونه ولكن يصير الجود حيث يصير

ويقول :

قتمشت فى مفاصلهم كتمشى البرء فى السقم

وقال ابن الأعرابي يوما لجلسائه : ما أشعر ما قال أبو نواس فى الخمر ؟

فقال بعضهم :

إذا عب فيها شارب القوم خلته يقبل فى داج من الليل كوكبا

وقال آخر :

كأن كبرى وصغرى من فقاقتها حصباء در على أرض من الذهب

وقال آخر :

فكأن الكسوس فينا نجوم دائرت بسروجها أيدينا

وقال آخر :

صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها لو مسها حجر مسته سراء

(١) نزع بالسهم كضرب : رمى .

(٢) الأعشى : شاعر جاهلي مشهور .

فقال ابن الأعرابي : إن هذا كله لشاعر انفراد بالإحسان فيه . وتقدم من سبقه ومن تأخر عنه ، ولكنه أشعر من هذا كله في قوله :
لا ينزل الليل حيث حلت فدهر شرابها نههار

قال مسلم بن بهرام : لقيت أبا العتاهية فقلت له : من أشعر الناس ! قال :
تريد جاهليها أو إسلاميها أو مولدها ؟ قال : كلا أريد ، قال : الذي يقول في المديح .
إذا نحن أتينا عليك بصالح فأنت كما نشئ وفوق الذي نشئ
وإن جرت الألفاظ يوما بمدحة لغيرك إنسانا فأنت الذي نعني

والذي يقول في الزهد :

ألا رب وجه في التراب عتيق ويارب حزم في التراب ونجدة
وبارب رأي في التراب وثيق فقل لقريب الدار إنك راحل
وما الناس إلا هالك وابن هالك إذا امتحن الدنيا لبسب تكشف
وبارب حسن في التراب رقيق وإلى منزل نائي المحل سحيق^(١)
وذو نسب في الهالكين عريق له عن عدو في ثياب صديق

وكان يقول : سبقني أبو نواس إلى ثلاثة أبيات وددت أني سبقته إليها بكل ما قلته فإنه أشعر الناس فيها ، منها قوله :

يا كبير الذنب عفو الله من ذنبك أكبر
وقوله :

من لم يكن لله متهما لم يمس محتاجا إلى أحد
وقوله :

إذا امتحن الدنيا لبسب تكشف له عن عدو في ثياب صديق

ثم قال : قلت في الزهد ستة عشر ألف بيت وددت أن أبا نواس له ثلثها بهذه الأبيات ، وقال الجاحظ : سمعت النظام يقول : - وقد أنشد شعرا لأبي نواس -
كأن هذا الفتى جمع له الكلام فاختار أحسنه ، وقال بعضهم : كأن المعاني حبست
عليه فأخذ حاجته وفرق الباقي على الناس ، وقال أبو حاتم : كانت المعاني مدفونة
حتى أثارها أبو نواس . وورد على العتابي بحلب عدة من الكبار من أهل قنسرين^(٢)
فدخلوا وسلموا وكان في يده رقعة ينظر إليها ، فقال لهم : لقد سلك صاحب هذه
الرقعة واديا ما سلكه أحد قبله ، فنظروا فإذا هو شعر أبي نواس في جنان وهو قوله :

^(١) اسحيق : بعيد من سحق ككرم وفرح .

^(٢) كورة بالشام منها حلب .

ربع الكرى بين الجفون محيل^(٢) عفى عليه بكى عليك طويل
يا ناظرا ما أقلعت لحظاته حتى تشحط^(١) بينهن قتيل

وقال أبو عبد الرحمن الضرير: رأيت مسلم بن الوليد بجرجان وهو يتولاها فسألني عن خلفت من الشعراء ، فقلت له : أما من الكوفيين فأبو نواس وهو مقدم عندهم ، فقال : ويحك ! كيف يتقدم وهو يقول : رويدك يا إنسان لا أنت تقفز ، أرأيت قوله " تقفز " خرجت من بين فكي شاعرا قط ؟ ثم قال : ويحك ! وكيف يكون كذلك وهو يحيل^(٣) ويتخطى من صفة المخلوق إلى صفة الخالق ؟ فقلت : مثل ماذا من قوله ؟ قال : أما فيما أحال ، فكقوله :

وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التي لم تخلق

وهذا من الإغراق المستحيل في العقول ومما ليس على مذهب القوم ، وأما في تخطيه بصفة المخلوق إلى صفة الخالق فكقوله :

يجل أن تلحق الصفات به فكل خلق لخلقه مثل

وكقوله :

بريء من الأشباه ليس له مثل

ومما قيل عن أبي نواس : إن الشعر إنما هو بين المدح والهجاء ، وأبا نواس لا يحسنهما ، وأجود شعره في الخمر والطرود ، وأحسن ما فيهما مأخوذ ليس له وإنما سرقه ، وحسبك من رجل يريد المعنى ليأخذه فلا يحسن أن يبني عليه حتى يجيء به قبيحا مثل قوله : ودواني بالتي كانت هي الداء ، أخذه من قول الأعشى ، وأخرى تداويت منها بها ، والذي أخذه منه أحسن ، ومنها أيضا قوله : إن الشباب مطية الجهل ، أخذه من قول النابغة الجعدي ، فإن مطية الجهل الشباب ، وقوله : كطلعة الأشمط من إهابه^(٤) أخذه من قول أبي النجم كطلعة الأشمط من كسانه ولكن رزق أبو نواس في شعره أن سار وحمله الناس وقدمه أهل عصره ، وإن له على ذلك لأشياء حسانا لا يدفعها ولا يطررها إلا جاهل بالكلام أو حاسد .

وتوفى أبو نواس علم ١٩٨ هـ ، أو ١٩٩ هـ عن ٥٩ سنة .

(١) تشحط بالدم : تضرع به .

(٢) محيل : أتت عليه أحوال أي سنون .

(٣) يحيل : يأتي بالمحال .

(٤) الإهاب : الجلد .

أبو العتاهية

١٣٠ - ٢١٣ هـ

هو أبو إسحاق إسماعيل بن القاسم سويد بن كيسان العنزي بالولاء ، المعروف بأبي العتاهية الشاعر المشهور ، ولد سنة ١٣٠ هـ - ٧٤٨ م بعين التمر ، قيل لما غزا خالد بن الوليد عين التمر سبى كيسان مع جماعة من صبيان أهلها فوجهها إلى أبي بكر فوصلوا إليه بحضرته عباد بن رفاعة العنزي فجعل أبو بكر يسأل الصبيان عن أنسابهم حتى أتى على بن كيسان فذكر له أنه من عنزة فلما سمعه عباد استوهبه من أبي بكر فأوهبه له فاعتقه فتولى عنزة ، وكان أبو إسماعيل القاسم حجاما من أهل درجة ولذلك كان أبو العتاهية يقول لمن عيره في نسبه :

إلا إنما التقوى هي العز والكرم وحبك لدنيا هو الفقر والعدم
وليس على عبد تقى نقيصة إذا صحح التقوى وإن حاك أو حجم

ونشأ أبو العتاهية بالكوفة وكان هو وأهله يعملون الجرار الخضر وبيعونها ، وقيل بل إن عبيد زيد أخيه كانت تعمل له الخزف والجرار وكان زيد يبيعها ويوردون شهادة على ذلك قول أبي العتاهية : أنا جرار القوافي وأخي جرار التجارة ، وكان على ما يحكى رجلا نظيفا أبيض اللون أسود الشعر له وفرة وجعدة وهيئة حسنة ولباقة وحصافة ، وكنى بأبي العتاهية لأنه كان يحب الشهوة والمجون والتعته ، قيل إن الخليفة المهدي قال له يوما " أنت متحذلق متعته " فاستوت له كنية وسارت له في الناس .. وشعر أبي العتاهية لطيف المعاني سهل الألفاظ قليل التكلف إلا أنه كثير الساقط والمزدول ، كان الأصمعي يقول : " شعر أبي العتاهية كساحة الملوك فيها الجواهر والذهب والتراب والخوف والنوى " ، وأكثر شعره في الزهد والأمثال ، قال المبرد " أبو العتاهية حسن الشعر قريب المأخذ ، لشعره ديباجة ويخرج القول كمخرج النفس قوة وسهولة واقتدارا " ، وكان أبو العتاهية يقول " لو شئت أن أجعل كلامي كله شعرا لفعلت " ، وامتدح أبو العتاهية الخليفة المهدي وكان يحضر ناديه وينال بره وتعرف بجاريتته عتبة وأخذ يذكرها في شعره ، فغضب المهدي لذلك وأمر بحبسه فكتب إليه يستعطفه :

ألا أيها الملك المرجي عليه نواهض الدنيا تحوم
أقلني ذلة لم أجر منها إلى لوم ولا مثلي ملوم
وخلصني تخلص يوم بعثك إذا للنار برزت الجحيم

فرق له وأمر بإطلاق سراحه، ولما بوبع الهادي استخفى أبو العتاهية خوفاً
منه وكان الهادي ينقم عليه لملازمته أخاه هارون ثم أنفذ إليه رقعة فيها :
ألا شافع عند الخليفة يشفع فيدفع عنا شر ما تتوقع
يردعني موسى على غير عنرة ومالي أرى موسى من العفو أوسع

فأرسل إليه الهادي أماناً وأمر له بمال ولم يزل عنده مكرماً حتى توفي
وتولى الأمر هارون الرشيد فدخل عليه وامتدحه بقصيدة غراء :
جرى لك من هارون بالسعد طائر أمام اعترام لا تخاف بوادره

وكان لا يفارق الرشيد في سفر ولا حضر وكان الخليفة يجري عليه في كل
سنة خمسين ألف درهم ولما قدم الرشيد من الرقة لبس أبو العتاهية الصوف ، وتزهد
وكان أبو العتاهية شديد البخل ، وحدث ثمامة قال دخلت يوماً إلى أبي العتاهية
فإذا هو يأكل خبزاً بلا شينا فقل له وكيف ذلك فقال رأيت قدامه خبزاً يابساً من
رقاق فطير وقد حا فيه لبن حليب فكان يأخذ القطعة من الخبز فيغمسها في اللبن
ويخرجها فلا تتعلق منه بقليل ولا كثير فقلت له كأنك اشتهيت أن تتأدم بلا شيء وما
رأيت أحداً قبلك يتأدم بلا شيء ، ويحكى عن بخل أبو العتاهية حكايات غريبة غير
هذه ولكنه كان يقول في شعره عكس ما يفعل ومنه :

إذا المرؤ لا يعتق من المال نفسه تملكه المال الذي هو مالكه
ألا إنما مالي الذي أنا منفق وليس لي المال الذي أنا تاركه
إذا كنت ذا مال فبادر به الذي يحق وإلا استهلكته مهالكه

وعاش أبو العتاهية إلى أيام المأمون وامتدحه ثم عاد إلى زهده وانقطع
عن أصحابه إلى أن مرض مرضه الذي توفي فيه ، واختلف في سنة وفاته والراجح
أنه مات سنة ٢١٣ هـ ودفن حياً قنطرة الزياتين في الجانب الغربي ببغداد وكان
أمر أن يكتب على قبره :

أذن حسنى تسمى	اسمعى ثم عى عى
أنا رهسن بمضجى	فأحذرى مثل مصرعى
عشت تسعين حجة	اسلمتنى لمضجى
ثم ترى الحى ثابتا	فى ديار التزعزع
ليس زاد سوى السقى	فخذي منه أو دعى

وقال محمد^(١) بن أمية : كنت جالسا بين يدي إبراهيم بن المهدي ، فدخل إليه أبو العتاهية ، وقد تنسك ولبس الصوف ، وترك قول الشعر إلا فى الزهد ، فرفعه إبراهيم وسر به ، وأقبل عليه بوجه ، فقال له أبو العتاهية : أيها الأمير : بلغنى خبر فتى فى ناحيتك ومن مواليك يعرف بابن أمية ، يقول الشعر ، وأنشدت له شعرا فأعجبني ، فما فعل ؟ فضحك إبراهيم ، ثم قال : لعله أقرب الحاضرين مجلسا منك ، فالتفت إلى فقال : أنت هو ؟ فديتك ، فتشورت^(٢) وخجلت ، وقلت له : أنا محمد بن أمية جعلت فداءك ، وأما الشعر فإنما أنا شاب أعبت بالبيت والبيتين والثلاثة كما يعبث الشاب ، فقال لى : فديتك ! ذاك والله زمان الشعر وإبانه ، وما قيل فيه غرره وعيونه ، وما زال ينشطنى ويؤنسنى حتى رأى أنى قد أنست به ، ثم قال لإبراهيم بن المهدي : إن رأى الأمير - أكرمه الله - أن يأمره بأشادى ما حضر من الشعر ! فقال إبراهيم : بحياتى يا محمد انشده ، فأنشدته .

رب وعد منك لا أنساه لى	أوجب الشكر وإن لم تفعل
أقطع الدهر بظن حسن	وأجلى غمرة ما تنجلى
كلما أملت يوما صالحا	عرض المكروه لى فى أملى
وأرى أيامى لا تدنى الذى	أرتجى منك وتدنى أجلى

فبكى أبو العتاهية حتى جرت دموعه على لحيته ، وجعل يردد البيت الأخير منها وينتحب ، وقام فخرج وهو يردد ويبكى حتى خرج إلى الباب !

وقال أبو العتاهية^(٣) . حبسنى الرشيد لتركى الشعر ، وغلقت على الأبواب ، فبقيت دهشا كما يدهش مثلى لتلك الحالة ؛ فنظرت فإذا رجل جالس فى جانب السجن وهو مقيد ، فجعلت أنظر إليه ساعة ، فتمثل بقوله :

تعودت حسن الصبر حتى أفته	فأسلمنى حسن العزاء على الصبر
وصيرنى يأسى من الناس راجيا	لحسن صنيع الله من حيث لا يدرى

(١) الأغانى ص ٣٠ ج ١١ ، وكان محمد بن أمية ، كاتباً شاعراً ظريفاً ، نديماً لإبراهيم بن المهدي .

(٢) تشور ، فعل ما يستحيا منه فى الأصل ، والمراد هنا الخجل .

(٣) الطبرى ص ٩٢ ج ٤ ، بدائع البدائع ص ١٥١ ج ١ .

فقلت له : أعد - أعزك الله - هذين البيتين ، فقال لي : وملك يا أبا العتاهية! ما أسوأ أدبك ! وأقل عقلك ! دخلت على السجن فما سلمت تسليم المسلم على المسلم ، ولا سألت مسألة الحر للحر ، ولا توجعت توجع المبتلى ، حتى إذا سمعت بيتين من الشعر الذى لا فضيلة فيك سواه لم تصبر عن استعادتهما ، ولم تقدم قبل مسألتك عنهما عذرا لنفسك فى طلبهما ! فقلت : يا أخى ! إنى دهشت من هذه الحال فلا تعذلى واعذرني متفضلاً ، فقال : أنا والله بالدهش والحيرة أولى منك : لأنك حبست على أن تقول الشعر الذى به ارتفعت وبلغت ما بلغت ، وإذا قلته أمنت ، وأنا حبست على أن أدل على ابن رسول الله ليقتل أو يقتل دونه ، و والله لا أدل عليه أبدا ، والساعة يدعى بي فأقتل ، فأينا أحق بالدهش ؟ فقلت : أنت والله أولى ، سلمك والله وكفاك ، ولو علمت أن هذه حالك ما سألتك ، فقال : إذن لا أبخل عليك . ثم أعاد على البيتين حتى حفظتهما وأجزتهما بقولى :

إذا أنا لم أقبل من الدهر كل ما تكرهت منه طال عتبي على الدهر

ثم سألته عن اسمه ، فقال : أنا أبو حاضرة ، داعية عيسى بن زيد وابنه أحمد . قال : فلم نلبث إلا قليلا حتى سمعنا صوت الأقفال ، فقام ، فسكب عليه ماء من جرة كانت عنده ، ولبث ثوبا نظيفا ودخل الحرس ومعهم الشموع ، فأخرجونا جميعا ، وقدم قبلى إلى الرشيد ، فسأله عن أحمد بن عيسى ، فقال : لا تسألنى عنه ، وافعل ما بدا لك ، فلو أنه تحت ثوبى ما كشفت عنه ، فأمر به فضربت عنقه ، ثم قال لي : أظنك يا أبا إسماعيل ارتعت ، فقلت : دون ما رأيت تسيل منه النفوس ، فقال : ردوه إلى محبسه ، فردونى !

وجلس المهدي للشعراء^(١) يوما فأذن لهم ، وفيهم بشار و أشجع ، وكان أشجع يأخذ عن بشار ويعظمه ، وكان فى القوم غير هذين أبو العتاهية . قال أشجع فلما سمع بشار كلام أبى العتاهية قال : يا أخا سليم ! أهذا ذلك الكوفى الملقب ؟ قلت : نعم ! قال : لا جزى الله خيرا من جمعنا معه ، ثم قال له المهدي : أنشد ، فقال : ويحك ! أو يستنشد أيضا قبلنا ؟ فقلت : كما ترى فأنشد :

أدلا فأحمل إدلالها	ألا ما لسيدتى مالها
جنيت ! سقى الله أطلالها	وإلا فقيم تجننت وما
م قد أسكن الحسن سربالها	ألا إن جاربية للإمما
تجاذب فى المشى أكفالها	مشت بين حور قصار الخطأ
وأتعيب بسالوم عذالها	وقد أتعب الله نفسى بها

(١) الأغاني ص ٣٣ ج ٤ .

قال أشجع : فقال لي بشار : ويحك يا أخا سليم! ما أدري من أي أمره أعجب : أمن ضعف شعره ، أم من تشبيهه بجارية الخليفة ، وهو يسمع ذلك بأذنه ، حتى أتى على قوله :

أنته الخلافة منقادة إليه تجرر أذيالها
فلم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها

قال أشجع : فقال لي بشار وقد اهتز طربا ، ويحك أترى الخليفة لم يطر عن فراشه .

ودخل الفراء على جعفر بن يحيى ، فقال له : أزعم أن أبا العتاهية أشعر هذا العصر ، فقال : هو والله أشعرهم عندي ، وقيل لداود بن زيد الشاعر : من أشعر أهل زمانه؟ فقال : أبو نواس ، وقيل له : فما تقول في أبا العتاهية ؟ قال : هو أشعر الأنس والجن^(١) ، وقال ابن الأعرابي : والله ما رأيت شاعرا قط أطبع ولا أقدر على بيت من أبي العتاهية ، وما أحسب مذهبه إلا ضربا من السحر^(٢) ويروى أن أبا العتاهية قال : قرأت البارحة " عما يتساءلون " ، ثم قلت قصيدة أحسن منها^(٣) ، وكذب أبو العتاهية فما يدرك إنسان بلاغة القرآن الكريم ولو حاول المستحيل ، وقال الأصمعي : شعر أبي العتاهية كساحة الملوك يقع فيها الجوهر والذهب والتراب والخزف والنوى^(٤) ، وقال أبو حاتم : كان أصحابنا يقولون : لو أن شعر أبي العتاهية بجزالة لفظ لكان أشعر الناس^(٥) ، وقيل لأبي نواس : والله لأنت أشعر من أبي العتاهية ، فقال : والله ما رأيت قط إلا ظننت أنه سماء وإني أرض^(٦) ، وقيل لبشار : من أشعر أهل زماننا ؟ فقال : مخنت أهل بغداد يعني أبا العتاهية .

ويروى أن أبا العتاهية وإبراهيم الموصلي وأبا عمرو والشيباني توفوا في يوم واحد من خلافة المأمون وذلك سنة ٢١٣ هـ^(٧) .

(١) ص ١٢٢ / ٣ الأغاني .

(٢) ٣ / ١٢٧ المرجع .

(٣) ٣ / ١٣٧ الأغاني .

(٤) ٣ / ١٤٠ الأغاني .

(٥) ٣ / ١٥٢ المرجع .

(٦) ٣ / ١٥٦ .

(٧) ٣ / ١٧٥ الأغاني .

أبو دلامة

المتوفى سنة ١٦١هـ

هو زند بن الجون ، شاعر مطبوع من أهل الظرف والدعابة ، أسود اللون ، نشأ في الكوفة واتصل بالخلفاء من بني العباس ، فكانوا يستلطفونه ويغدقون عليه صلاتهم وله في ذلك أخبار كثيرة ، وتوفي عام ١٦١ هـ .

قال أبو دلامة^(١)، أتى بي إلى المنصور وأنا سكران ؛ فحلف ليخرجني في بعث حرب ؛ فأخرجني مع روح بن حاتم المهلبى لقتال الشراة^(٢)، فلما ألتقى الجمعان قلت لروح : أما والله لو أن تحتى فرسك ، ومعى سلاحك ، لأثرت في عدوك اليوم أثرا ترتضيه ، فضحك وقال : لأدفعن ذلك إليك ، ولأخذنك بالوفاء بشرطك ؛ ونزل عن فرسه ، ونزع سلاحه ، ودفعهما إلي ودعا بغيرهما ، فلما حصل ذلك في يدي ، وزلت عني حلاوة الطمع ، قلت له : أيها الأمير ؛ هذا مقام العائد بك . وقد قلت بيتين فأسمعهما ، قال : هات ؛ فأنشدته :

إني استجرتك أن أقدم في الوغى	لستطاعن وتنازل وضراب
فهب السيوف رأيتها مشهورة	فتركتها ومضيت في الهراب
ما ذا تقول لما يجيء وما يرى	من واردات الموت في النشاب ^(٣) ؟

فقال : دع عنك هذا وستعلم ، وبرز رجل من الخوارج يدعو للمبارزة ، فقال : اخرج إليه يا أبا دلامة ! فقلت : أنشدك الله أيها الأمير في دمي ! قال : والله لتخرجن ، فقلت : أيها الأمير فإنه أول يوم من الآخرة ، وآخر يوم من الدنيا ، وأنا والله جائع ما شبت منى جارحة من الجوع ، فمر لي بشيء أكله ثم أخرج ! فأمر لي برغيفين ودجاجة ، فأخذت ذلك وبرزت عن الصف ، فلما رأني الشاري أقبل نحوي ، وعليه فرو ، قد أصابه المطر فابتل ، وأصابته الشمس فأقفل^(٤)، وعيناه تقدان ، فأسرع إلى . فقلت له : على رسلك يا هذا كما أنت ! فوقف . فقلت : أتقتل من لا يقاتلك ؟ قال : لا . قلت : أتقتل رجلا على دينك ؟ قال : لا . قلت : أفستحل ذلك

(١) الأغاني ص ٢٤٣ ج ١٠ ، نهاية الأرب ص ٤٠٤ ج ٤ ، معاهد التنصيص ص ٢١٢ ج ٢ .

(٢) الشراة : هم الخوارج .

(٣) النشاب : السهم .

(٤) أقفل : تقبض .

قبل أن تدعو من تقاتله إلى دينك ؟ قال : لا ، فاذهب عنى إلى لعنة الله ! ، قلت : لا أفعل أو تسمع منى . قال : قل ، قلت : هل كانت بيننا قط عداوة أو ترة ؟ أو تعرفنى بحال تحفظك على ! أو تعلم بين أهلى وأهلك وترا ؟ قال : لا ، والله . قلت : ولا أنا والله لك إلا على جميل الرأى ، وإنى لأهواك ، وأنتحل مذهبك ، وأدين دينك . وأريد السوء لمن أرادته لك ، قال : يا هذا جزاك الله خيراً فانصرف . قلت : إن معى زادا أحب أن آكله معك ، وأحب مواكلك لتتأكد المودة بيننا ، ويرى أهل العسكر هوانهم علينا ، قال : فافعل . فتقدمت إليه حتى اختلفت أعناق دوابنا ، وجمعنا أرجلنا على معارفها ، والناس قد غلبوا ضحكا ! فلما استوفينا ودعنى ، ثم قلت له : إن هذا الجاهل - إن أقمت على طلب المبارزة - ندبنى إليك فتتعبنى وتتعب ، فإن رأيت ألا تبرز اليوم فافعل . قال : فعلت . ثم انصرف وانصرفت . فقلت لروح : أما أنا فقد كفيتك قرنى ! فقل لغيرى أن يكفيك قرنه كما كفيتك ، فأمسك ! وخرج آخر يدعو إلى البراز فقال لى : أخرج إليه ، فقلت :

إلى البراز فتخزى بى بنو أسد	إنى أعوذ بروح أن يقدمنى
مما يفرق بين الروح والجسد	إن البراز إلى الأقران أعلمه
وأصبحت لجميع الخلق بالرصد	قد حالفتك المنايا إذ صمدت لها
ومما ورثت اختيار الموت عن أحد	إن المهلب حب الموت أورثكم
لكنها خلقت فردا فلم أجد	لو أن لى مهجة أخرى لجدت بها

فضحك وأعفانى !

ودخل أبو دلامة^(١) على المهدي وعنده عيسى بن موسى ، والعباس بن محمد ، وناس من بنى هاشم ، فقال المهدي : يا أبا دلامة . قال : لبيك يا أمير المؤمنين ! قال : اهج من شئت ممن ضمه هذا المجلس ولك الجائزة ، فنظر فى القوم فلم يرى إلا شريفا قريبا من المهدي ، فقال : أنا أحد من بالمجلس ثم أنشد :

ألا أبلغ إليك أبدا دلامة	فليس من الكرام ولا كرامه
إذا لبس العمامة كان فردا	وخنزيرا إذا نزع العمامه
جمعت دمامة وجمعت لؤما	غذاك اللؤم تتبعه الدمامه
فإن تك قد أصبت نعيم دنيا	فلا تفرح فقد دنيت القيامة

^(١) الأذيل زهر الآداب ص ٨٩ ، مهذب الأغاني ص ٢٠ ج ٩ ، المستطرف ص ٨٦ ج ١ ، المحاسن والمساوىء ص ٢٨٧ ، طبع لبيزج ، ذيل زهر الآداب ص ٩٠ ، الأغاني ص ٢٥٨ ج ١٠ .

فضحك المهدي ، وسر القوم إذ لم يسيء إلى أحد منهم ، ثم قال له المهدي : تمن ، فقال : يا أمير المؤمنين ! تأمر لي بكلب صيد . فسبه وقال : ما تصنع به ؟ فقال : الحاجة لي أم لك ؟ فقال : صدقت أعطوه كلبا . فأعطى . فقال : يا أمير المؤمنين : لا بد لهذا الكلب من كلاب^(١) . فأمر له بسلام مملوك ، فقال : يا أمير المؤمنين : أو يتهاى لي أن أصيد راجلا ؟ فقال : أعطوه دابة . فقال : ومن يسوس الدابة ؟ فقال : أعطوه غلاما سائسا . فقال : ومن ينحر الصيد ويصلحه ؟ فقال : أعطوه طباحا . فقال : ومن يأويهم ؟ فقال : أعطوه دارا فبكي أبو دلامة وقال : ومن يمون هؤلاء كلهم ؟ فقال : يكتب لهم بمائة جريب^(٢) عامرة ، ومائتي جريب عامرة ، فقال : وما العامرة ؟ قال : التي لا نبات فيها . قال : فأنا أعطيك مائتي ألف جريب من فيافي بني أسد ! فضحك وقال : ما تريد ؟ قال : بيت المال . قال : على أن أخرج المال منه . قال : فإذا يصير عامرا ، فاستفرغ ضحكا وقال : اذهب فقد جعلتها لك كلها عامرة . فقال : يا أمير المؤمنين ! ائذن لي أن أقبل يدك ، قال : أما هذه فدعها ، فقال : والله ما تمنع عيالي شيئا أهون عليهم منها ! فناوله يده فقبلها .

وبروي أن أبو دلامة^(٣) شرب في بعض الحانات^(٤)؛ فمشى ، وهو يميل ؛ فلقبه العسس فأخذه ، فقيل له من أنت ؟ وما دينك ؟ فقال :
ديني علي دين بني العباس ما ختم الطين علي القرطاس
إذا اصطبحت أربعا بالكس فقد أدار شربها برأسى

فهل بما قلت لكم من بأس

فأخذه وخرقوا ثيابه وساجه^(٥)، وأتى به إلى أبي جعفر ، فأمر بحبسه مع الدجاج في بيت ، فلما أفاق جعل ينادى غلامه مرة ، وجاريتته أخرى ، فلا يجيبه أحد . وهو مع ذلك يسمع صوت الدجاج وزقاء^(٦) الديوك ، فلما أكثر قال له السجنان : شأنك ؟ قال : ويلك ! من أنت ؟ وأين أنا ؟ قال : في الحبس وأنا السجنان ، قال : ومن حبسني ؟ قال أمير المؤمنين ، قال : ومن خرق طيلساني ؟ قال : الحرس ، فطلب أن يأتيه بدواة وقرطاس ، ففعل ، فكتب إلى أبي جعفر المنصور يقول :

(١) الكلاب : صاحب الكلاب .

(٢) الجريب : المزروعة .

(٣) نهاية الأرب ص ٤٢ ج ٤ ، الأغاني ص ٢٥١ ج ١٠ طبعة دار الكتاب .

(٤) الحانات : المواضع التي تباع فيها الخمور .

(٥) الساج : الطيلسان الأخضر أو الأسود .

(٦) زقاء الديك : صياحه .

علام حبستنى وخرقت ساجى
كان شعاعها لهب السراج
لقد صارت من النطف^(١) النضاج
إذا برزت تفرق فى الزجاج
كأنى بعض عمال الخراج
ولكنى حبست مع الدجاج
بأنى من عقابك غير ناجى
لخيرك بعد ذاك الشر راجى

أمير المؤمنين فدتك نفسى
أمن صهباء^(٢) صافية المزاج
وقد طبخت بنار الله حتى
تهش لها القلوب وتشتهيها
أقاد إلى السجون بغير جرم
فلو معهم حبست لكان سهلا
وقد كانت تخبرنى ذنوبى
على أنى - وإن لاقيت شرا -

فأستدعاه المنصور ، وقال : أين حبست يا أبا دلامة ؟ قال : مع الدجاج ،
قال : فما كنت تصنع ؟ قال : أقوقىء^(٣) ، إلى الصباح ، فضحك وخلقى سبيله ، وأمر
بجائزة ، فلما خرج قال له الربيع : إنه شرب الخمر يا أمير المؤمنين ! أما سمعت قوله:
وقد طبخت بنار الله - يعنى الشمس - فأمر برده ، ثم قال : يا خبيث ! شربت الخمر ،
قال : لا ، قال : أفلم تقل : طبخت بنار الله - تعنى الشمس ؟ قال : لا ، والله ما عنيت
إلا نار الله الموقدة التى تطلع على فؤاد الربيع ! فضحك المنصور ، وقال : خذها يا
ربيع ، ولا تعاود التعرض له .

وقال أيوب الموريانى لأبى جعفر^(٤) وكان يشأأبا دلامة : إن أبا دلامة
معتكف على الخمر ، فما يحضر صلاة ولا مسجدا ، وقد أفسد فتیان العسكر ، فلو أمرته
بالصلاة معك لأجرت فيه وفى غيره من فتیان عسكرك بقطعه عنهم ، فلما دخل عليهم
أبو دلامة قال له ما هذا المجون الذى يبلغنى عنك ؟ فقال يأمر المؤمنين : ما أنا
والمجون وقد شارفت باب قبرى ! قال دعنى من استكانتك وتضرعك ، وإياك أن
تفوتك صلاة الظهر والعصر فى مسجدى ، فلئن فاتاك لأحسن أدبك ولأطيلن
حبسك ! فوقع فى شر ، ولزم أياما ثم كتب قصته ودفعتها إلى المهدي فأوصلها إلى
أبيه ، وكان فيها :

(١) النطف : الماء الصافى قل أو كثر .

(٢) الصهباء : الخمر .

(٣) أقوقىء : أصبح .

(٤) مهذب الأغاني ص ٣٣ ج ٩ ، الأغاني ص ٢٤٦ ج ١٠ ، ذيل زهر الآداب ص ٩١ .

ألم تعلموا أن الخليفة لزني^(١)
أصلى به الأولى جميعا وعصرها
أصليهما بالكره في غير مسجدي
لقد كان في قومي مساجد جمعة
يكلفني من بعدما شبت خطة
وما ضره - والله يغفر ذنبه -

بمسجده والقصر ،مالي وللقصر !
فويلي من الأولى وويلي من العصر
فمالي في الأولى ولا العصر من أجر
ولم ينشرح يوما لغشيانها صدري
يحط بها عنى الثقيل من الوزر
لو أن ذنوب العالمين على ظهري

فقال قد أعفيناك من هذه الحال على أن تصلي في مسجد قبيلتك ولكن
على ألا تدع القيام معنا في ليالي شهر رمضان فقد أظلم^(٢) فقال أفعل قال فإنك إن
تأخرت لشرب الخمر علمت ذلك والله لئن فعلت لأحدنك^(٣) فقال أبو دلامة : البلية
في شهر أخف منها في طول الدهر سمعا وطاعة ! فلما حضر شهر رمضان لزم المسجد
وكان المهدي يبعث إليه في كل ليلة حرسيا يجيء به فشق ذلك عليه وفتح إلى
الخيزران وإلى أبي عبيد الله وكل من يلوذ بالمهدي ليشفعوا له في الاعفاء من
القيام فلم يجبهم ، فقال لهم أبو عبيد الله^(٤) الدال على الخير كفاعلة فكيف شكر !
قال أتم شكر ، قال عليك بريطة^(٥) ، فإنه لا يخالفها قال صدقت ثم رفع إليها رقعة ،
يقول فيها :

كنت عبدا لأبيها
وأوصى بي إليها
مثل نسيان أخيها
مشية ما أشتهيها
ركاني أبتغيها
في فيافي وجيها
كنت شيخا أصطليها
لضباب^(٦) أشتهيها
في غلاب^(٧) أستحيها
ولا تسلم معنيها
وأجرى لك فيها

أبلغنا ربطة أني
فمضى يرحمه الله
وأراهنا نسيني
جاء شهر الصوم يمشي
قائدا لي ليلة القدر
ولقد عشت زمانا
في ليالي من شتاء
قاعدا أوقد نارا
وصبوح وغروب
ما أبالي ليلة القدر
فاطلب لي فرجا منها

^(١) اللز - لزوم الشيء بالشيء وإلزامه به .

^(٢) أظلم : قرب وأشرف .

^(٣) حدته : أقام عليه الحد .

^(٤) هو أبي عبيد الله معاوية بن عبيد الله ، وكان من رجالات المنصور ثم المهدي .

^(٥) ربطة ، هي ابنة الخليفة أبي العباس وزوج المهدي .

^(٦) الضب : دويبة من الحشرات تحرص العرب على صيدها وأكله وجمعه ضباب .

^(٧) أجمع علبة . وهي قدح ضخم من جلد الإبل أو من خشب يحلب فيها .

فلما قرأت الرقعة ضحكت ، وأرسلت إليه : اصطر حتى تمضي ليلة القدر .
فكتب إليها : إنى لم أسألك أن تكلميه فى إعفائى عاما قابلا ، وإذا مضت ليلة القدر
فقد فنى الشهر وكتب تحتها أبياتا :

خافى إلهك فى نفس قد احتضرت قامت قيامتها بسين المصلين
ماليلة القدر من همى فأطلبها إنى أخاف المنايا قبل عشرينا
ياليلة القدر كسرت أرجلنا ياليلة القدر حقا ما تمنينا ؟
لا ارك الله فى خير أومله فى ليلة بعد ما قمنا ثلاثينا

فلما قرأت الرقعة ضحكت ، ودخلت إلى المهدي ، فشفت له إليه ، وأنشدته
الأبيات ، فضحك حتى استلقى ، ودعا به وريطة معه فى الحجلة^(١) ، فدخل فأخرج
رأسه إليه وقال : قد شفنا ربطة فيك ، وأمرنا لك بسبعة آلاف درهم فقال : أما شفاعة
سيدتى فى حتى أعفيتنى فأعفاها الله من النار ، وأما السبعة الآلاف فيما أن تتمها
بثلاثة آلاف فتصير عشرة ، أو تنقصنى منها ألفين فتصير خمسة آلاف ؛ فأنى لا أحسن
حساب السبعة ، فقال : قد جعلتها خمسة ، فقال : أعيدك بالله أن تختار أدنى الحالين ،
وأنت أنت ! ثم تكلمت فيه ربطة فأتتها له عشرة آلاف درهم .

ابن وهيب

هو محمد بن وهيب الحميرى صليبة ، شاعر من أهل بغداد من شعراء
الدولة العباسية وأصله من البصرة ، وله أشعار كثيرة يذكرها فيها ويتشوقها ويصف
إيطانه إياها ومنشأه بها .

ومن قوله يمدح المعتصم وفيه غناء :

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها شمس الضحى وأبو إسحق والقمر
يحكى أفاعيله فى كل نائبة الغيث والليث والصمصامة الذكر

ومن قوله من كلمة يمدح بها الحسن بها رجاء بن الضاحك :

وأجارتنا إن الستف باليابس وصبرا على استدرار دنيا بإساس^(٢)
حريان ألا يقديا^(٣) بمذلة كريما وألا يحوجاه إلى الناس
أجارتنا إن القداح^(٤) كواذب وأكثر أسباب النجاح مع الياس

(١) الحجلة : بيت يزين بالثياب والأسرة والستور .

(٢) أيس الحالب بالناقة : دعاها للحلب .

(٣) أقدى عينه ألقى فيها القذى .

(٤) جمع قدح بالكسر وهى السهام التى يستقسم بها فيما يهيم الإنسان به حتى يقدم أو يحجم .

ودخل محمد بن وهيب على أبي دلف القاسم بن عيسى فأعظمه جدا ،
فلما انصرف قال له أخوه معقل : يا أخي فعلت بهذا ما لم يستأهله ، ما هو في بيت
من الشرف ولا في جمال من الأدب ولا بموضع من السلطان ، فقال : بلى يا أخي
أنه لحقيق بذلك ، أولا يستحقه ؟ وهو القائل :

يدل على أننى عاشق من الدمع مستشهد ناطق
ولى مالك أنا عبد له مقرب بأنى له وامق
إذا ما سموت إلى وصله تعرض لى دونه عائق
وحاربنى فيه ريب الزمان كأن الزمان له عاشق

ولما قدم المطلب من عبد الله بن مالك من الحج لقيه بن وهيب مستقبلا
مع من تلقاه ودخل إليه مهنتا بالسلامة بعد استقراره ، وعاد إليه فى الثانية فأنشده
قصيدة طويلة مدحه بها يقول فيها :

وما زلت أستدعى لك الله غائبا وأظهر إشفاقا عليك وأكرم
وأعلم أن الجود ما غبت غائب وأن الندى فى حيث أنت مخيم
إلى أن زجرت الطير سعدا سوانحا وحم لقاء بالسعود مقدم
وظل يجانينى بمدحك خاطرى وليلى ممدود الرواقين أدهم
وفال طواه الحج فأخشع لفقده ولا عيش حتى يستهل المحرم
سيفخر ما ضم الحطيم^(١) وزمزم بمطلب لو أنه يتكلم
ولورد مخلوق إلى بدء خلقه إذا كنت جسما بينهن تقم
سما بك منها كل خفيف فأبطح مما بك منه الجوهر المتقدم
وحن إليك الركن حتى كأنه وقد جنته حل عليك مسلم

فوصله صلة سنية وأهدى له هدية حسنة من طرف ما قدم به وحمله ، وكان
محمد بن وهيب لما قدم المأمون من خراسان مضاعا مطرحا أنما يتصدى للعامة
وأوساط الكتاب والقواد بالمديح ويسترفدهم فيحظى بالسير ، فلما هدأت الأمور
واستقرت واستوثقت^(٢) ، جلس أبو محمد الحسن بن سهل يوما منفردا بأهله وخاصته
وذوى مودته ومن يقرب من أنسه فتوسل إليه محمد بن وهيب بالحسن بن رجاء

(١) الحطيم : جدار حجر الكعبة .

(٢) استوثق لك الأمر : أمكنك .

حتى أوصله مع الشعراء، فلما انتهى إليه القول استأذن في الإنشاد ، فأذن له ،
فأنشده القصيدة التي أولها :

ودائع أسرار طوتها السرائر
ملكته لها طي الضمير وتحتته
فأعجم عنها ناطق وهو معرب
ألم تقذني السراء في رنق^(١) الهوى
تسالمني الأيام في عنفوانه
إلى الحسن الباني العلا حين يمت
إلى الأمل المبسوط والأجل الذي
ومن أنبعث عين المكارم كفه
تعصب تاج الملك في عنفوانه
ولو لم تكن إلا بنفسك فأخرا

وباحست بمكنوناتهن السواظر
شبا لوعة غضب الغرارين^(٢) باتر
وأعجبت العجم الجفون المواطر
غريرا بما تجي على الدوائر
ويكلونى^(٣) طرف من الدهر ناظر
عوالي المنى حيث الحيا المتظاهر
بأعدائه تكبو الجدود العواثر
يقوم مقام القطر والروض دائر
واطت^(٤) به عصر الشباب المنابر
لما انتسبت إلا إليك المفاخر

فطرب أبو محمد حتى نزل عن سريره إلى الأرض وقال : أحسنت والله
وأجملت ، ولو لم تقل قط ولا تقول في باقي دهرك غير هذا لما احتجت إلى القول ،
وأمر له بخمسة آلاف دينار ، فأحضرت ، واقتطعه إلى نفسه فلم يزل في جنبته أيام
ولايته وبعد ذلك إلى أن مات ما تصدى لغيره .

وله في مدح المأمون :

يا خير منتسب لمكرمة
في كل أنملة لراحته
وإذا القنا رعت^(١) أسننته
فكان ضوء جبينه قمر
وكانه روح تدببنا
في المجد حتى ينتج العدد
نوء يسح وعارض حشد^(٢)
علق وضم كعوبه قصد
وكانه في صولة أسد
حركاته وكاننا جسد

(١) الغرار - حد الريح والسيف وغضب قاطع وكذلك باتر

(٢) يكلونى : يحفظنى .

(٣) أظت : صوتت .

(٤) الرنق - الكدر ، والغريز - الشاب لا تجربة له . وأقدي عينه - جعل فيها القذى وأخرجه منها ضد .

(٥) الحشد : الجماعة ممن الناس .

(٦) رعت الرجل : سال الدم من أنفه وهو هنا على المجاز . والعلق : الدم والكعوب جمع كعب وهو العقدة من
عقد الرمح . والقصد جمع قصدة وهي القطعة مما يكسر .

وقد استحسناها المأمون وأمر بأن تعد أبيات قصيدته ويعطى لكل بيت ألف درهم فعدت فكانت خمسين ، فأعطاه خمسين ألف درهم ، وله في المأمون والحسن بن سهل خاصة مدائح شريفة نادرة ، ومن عيونها قوله للمأمون :

العذر إن أنصفت متضح	وشهيد حبك أدمع سفح
فضحت ضميرك عن ودائع	إن الجفون نواطق فصح
وإذا تكلمت العيون علي	إعماها فالسر منفضح
وبما أبيت معانقي قمر	للحسن فيه مخايل نصح
نشر الجمال علي محاسنه	بدعا وأذهب همه الفرغ
يختال في حلل الشباب به	مرح وداؤك أنه مرغ
مازال يلثمني مراشفه	ويعلني الأبريق والقحح
حتى استرد الليل خلعتة	ونشا خلال سواده وضح
وبالصباح كأن غرته	وجه الخليفة حين يمدح

أبو تمام

١٩٠ - ٢٣١ هـ

هو حبيب بن أوس الطائي ، مولده ومنشؤه منبج^(١) بقرية منها يقال لها جاسم . كان كما يقول أبو الفرج شاعرا مطبوعا و لطيف الفطنة دقيق المعاني ، غواصا علي ما يستصعب منها ويعسر متناوله علي غيره ، وله مذهب في المطابق^(٢) هو كالسابق إليه جميع الشعراء ، وإن كانوا قد فتحوه قبله وقالوا القليل منه فإن له فضل الإكثار فيه والسلوك في جميع طرقه ؛ والسليم من شعره النادر لا يتعلق به أحد ، وله أشياء متوسطة وردينة رذلة جدا ، وفي عصرنا هذا من يتعصب له فيفرط حتى يفضله علي كل سالف وخالف ، وأقوام يتعمدون الردى من شعره فينشرونه ويطوون محاسنه ويستعلمون القحة والمكابرة في ذلك ليقول الجاهل بهم إنهم لم يبلغوا علم هذا وتمييزه إلا بأدب فاضل وعلم ثاقب ، وهذا ما يتكسب به كثير من أهل هذا الدهر ويجعلونه وما جرى مجراه من ثلب الناس وطلب معايبهم سببا للترفع وطلبها للرياسة ، وليست إساءة من أساء في القليل وأحسن في الكثير مسقطة إحسانه ، ولو كثرت إساءته أيضا ثم أحسن لم يقل له عند الإحسان أسأت ولا عند الصواب أخطأت ،

(١) منبج : مدينة بين الفرات وحلب ، وجاسم : قرية بينها وبين دمشق ثمانية فراسخ .

(٢) المطابق : نوع من البديع .

والتوسط في كل شيء أجمل، والحق أحق أن يتبع، وقد روى عن بعض الشعراء أن أبا تمام أنشده قصيدة له أحسن في جميعها إلا في بيت واحد، فقال: له يا أبا تمام لو ألقيت هذا البيت ما كان في قصيدتك عيب، فقال له: أنا والله أعلم منه مثل ما تعلم ولكن مثل شعر الرجل عنده مثل أولاده فيهم الجميل والقيح والرشيد والساقط وكلهم حلوف في نفسه، فهو وإن أحب الفاضل لم يبغيض الناقص، وإن هوى بقاء المتقدم لم يهو موت المتأخر واعتذاره بهذا ضد ما وصف به نفسه في مدحه الواثق حيث يقول:

سمطان ^(١) فيها اللؤلؤ المكنون	جاءتك من نظم اللسان قلادة
وأجادهما التخصير والتلسين ^(٢)	حذيت حذاء الحضرمية أرهفت
حركات أهل الأرض وهي سكون	إنسية وحشية كثرت بها
حلى الهدى ونسيجها موضوعون ^(٣)	ينبوعها خضل وحلى فريضاها
نصت ولكن القوافي عون ^(٤)	أما المعاني فهي أبكار إذا
جفر ^(٥) إذا نضب الكلام معين	أحذا كهها صنع الضمير يمدده
هو بابسه أو شعره مفتون	ويسىء بالإحسان ظنا لا كمن

فلو كان يسىء بالإحسان ظنا ولا يفتن بشعره كنا في غنى عن الاعتذار له، وقد فضل أبا تمام من الرؤساء والكبراء من لا يشق الطاعنون عليه غبارا ولا يدركون وإن جدوا آثاره، وما رأى الناس بعده إلى حيث انتهوا له في جده نظيرا ولا شكلا، ولو لا أن الرواة قد أكثروا في الاحتجاج له وعليه وأكثر متعصبوه الشرح لجيد شعره، وأفرط معادوه في التشهير برديته والتنبيه على رذله ودنيته، لذكرت منه طرفا ولكن قد أتى من ذلك لا يزيد عليه.

وكان محمد بن عبد الملك الزيات يقول: أشعر الناس طرا الذي يقول:
وما أبالي وخير القول أصدقه حقنت^(٦) لي ماء وجهي أو حقنت دمي

فقليل له: من أشعر زماننا هذا؟ فقال الذي يقول:

(١) السمط: خيط النظم.
(٢) الملسنة من النعال: ما فيها طول ولطافة كهينة اللسان. والمختصرة منها: مستدقة الخصر، وأرهفت، رقت، والحضرمية، نسبة إلى حضرموت.
(٣) موضوعون مشى بعضه على بعض، والخضل، كل شيء ند يترشف نداه.
(٤) العوان من النساء التي لها زوج، والجمع عون.
(٥) الجفر: البئر لم تطو أو طوى بعضها.
(٦) حقنت أي صنت.

مطر أبووك أبو أهلة وائل
نسب كأن عليه من شمس الضحى
ورثوا الأبوة فالحظوظ وأصبحوا
ملا البسيطة عدة وعديدا
نورا ومن فلق الصباح عمودا
جمعوا جدودا^(١) فى العلا وجدودا

والناس على أن أبا تمام أشعر أهل زمانه .

وقدم عمارة بن عقيل بغداد ، فأجتمع الناس إليه فكتبوا شعره وشعر أبيه
وعرضوا عليه الأشعار ، فقال بعضهم : هاهنا شاعر يزعم أنه أشعر الناس طرا ويزعم
غيره ضد ذلك ، فقال : أنشدونى قوله ، فأنشدوه :

غدت تستجير الدمع خوف نوى غ
وأنقذها من غمرة الموت أنه
فأجرى لها الإشفاق دمعاً مورداً
هى البدر يغنيها تورد وجهها
عد وعادا قتادا^(٢) عندها كل مرقد
صدود فراق لا صدود تعمده
من الدم يجرى فوق خد مورد
إلى كل من لاقت وإن لم تودد

ثم قطع المنشد ، فقال له عمارة زدنا من هذا ، فوصل نشيده وقال :

ولكننى لم أحو وفرا مجمعا
ولم تعطنى الأيام نوما مسكنا
ففزت به إلا بشمل مبدد
أذبه إلا بنوم مشرد

فقال عمارة : لله دره ! لقد تقدم فى هذا المعنى من سبقه إليه على كثرة

القول فيه حتى لقد حجب الاغتراب ، هيه ، فأنشده :

وطول مقام المرء فى الحى مخلق
فإنى رأيت الشمس زبدت محبة
لديباجتيه فاغترب تتجدد
إلى الناس أن ليست عليهم بسر مد

فقال عمارة : كمل والله ، لئن كان الشعر جودة اللفظ وحسن المعانى

واطراد المراد واتساق الكلام فإن صاحبكم هذا أشعر الناس ، وكان على بن الجهم
يصف أبا تمام ويفضله ، فقال رجل : والله لو كان أبو تمام أخاك ما زدت على مدحك
هذا ، فقال : إن لم يكن أخا بالنسب فإنه أخ بالأدب والمودة ، أما سمعت ما
خاطبنى به حيث يقول :

إن^(٣) يكدمطرف الإخاء فأننا
أو يختلف ماء الوصال فماؤنا
نغدو ونسرى فى إخاء تالد
عذب تحدر من غمام واحد

(١) الجدود الأولى جمع جد بالفتح وهو أبو الأب ، والثانية جمع الجد وهو الحظ .

(٢) القتاد : شجر صلب له شوكة كالإبر .

(٣) أكدي : وصل إلى الكدية وهى الأرض الغليظة ويكنى بذلك عن ضياع الفائدة . والمطرف : الطريف وهو

الحديث وضده التالد .

أو يفترق نسب يؤلف بيننا أدب أقمناه مقام الوالد

وجرى ذكر أبي تمام في حلقة دعبل فقال : كان يتبع معاني فيأخذها ،
فقال له رجل في مجلسه ، وأى شيء من ذلك أعزك الله ؟ قال قولي :

وإن أمراً أسدى إليّ بشافح إليه ويرجو الشكر مني لأحمق
شفيحك فاشكر في الحوائج إنه يصونك عن مكروها وهو يخلق^(١)

فقال الرجل : فكيف قال أبو تمام ؟ فقال : قال :

فلقيت بين يديه حلو عطائه ولقيت بين يدي مر سؤاله
وإذا امرؤ أسدى إليك صنيعه من جاهه فكأنهما من ماله

فقال الرجل : أحسن والله. لئن كان أخذه منك لقد أجاد فصار أولى به
منك، وإن كنت أخذته منه فما بلغت مبلغه ، فغضب دعبل وأنصرف ، وكان محمد
بن حازم الباهلي يقدم أبا تمام ويفضله ويقول : ولو لم يقل إلا مرثيته النى أولها :
أصم بك الناعي وإن كان أسمعا وأصبح مغنى الجود بعدك بلقعا
وقوله :

لو يقدرون مشوا على وجناتهم وجباههم فضلا عن الأقدام

لكفاه . وقال عبید الله بن عبد الله بن طاهر : كان عمارة بن عقيل عندنا
يوماً مؤدباً كان لولد أخى يرويههم قصيدة أبي تمام :

الحق أبلج والسيوف عوار فحذار من أسد العرين حذار

فلما بلغ إلى قوله :

سود اللباس كأنما نسجت لهم أيدي السموم مدارعا من قار^(٢)
بكروا وأسروا في بطون ضوامر قيدت لهم من مربط النجار
لا يبرحون ومن رأهم خالهم أبدا على سفر من الأسفار

فقال عمار لله دره ، ما يعتمد معنى إلا أصباب أحسته كأنه موقوف عليه ،
وقال : إبراهيم بن العباس ما اتكلت في مكاتبتى قط إلا على ما جاش به صدرى إلا
أنى قد استحسنت قول أبي تمام :

(١) خلق الثوب كفرح : بلى .

(٢) القار : الزفت ، والمدارع جمع مدرعة بكسر الميم وهي جبة مشنوقة المقدم ولا تكون إلا من صوف ، وهي هنا مجاز .

إذا عمارق بالغدر حاول غدرة
فإن باشر الإصحار^(١) فالبيض والقـ
وإن بين حيطاننا عليه فانما
وإلا فأعلمه بأنك ساخط
فذاك حرى أن تئيم^(٢) حلائله
سنا وأحواض المنايا مناهله
أولسك عقالاته^(٣) لا معاقله
ودعه فإن الخوف لا شك قاتله

فأخذت هذا المعنى فى بعض رسائلنى فقلت : ما كان يحرزهم يبرزهم وما
كان يعقلهم يعتقلهم ؛ ثم قال : إن أبا تمام اخترم وما استمع بخاطره ولا نزع ركي^(٤)
فكره حتى أنقطع رشاء عمره ، وقال محمد بن جابر الأزدي - وكان يتعصب لأبي
تمام - أنشدت دعبل بن على شعرا لأبي تمام ولم أعلمه أنه له ، وقلت له : كيف
تراد؟ قال : أحسن من عافية بعد يأس ، فقلت : أنه لأبي تمام ، فقال ؛ لعله سرقه .

وقال يزيد المهلبى : ما كان أحد من الشعراء يقدر أن يأخذ درهما بالشعر
فى حياة أبى تمام فلما مات أقتسم الشعراء ما كان يأخذه ، ولما قدم أبو تمام
خرسان اجتمع الشعراء ، وسألوا أن ينشدهم ، فقال : قد وعدنى الأمير أن أنشده غدا
وستسمعوننى ، فلما دخل على عبد الله أنشده :

أهن عوادى يوسف وصواحيه
فعزما ، فقدما أدرك السؤل طالبه
فلما بلغ قوله :

وقلقل^(٥) نأى من خرسان جأشها
وركب كأطراف الأسنة عرسوا^(٦)
لأمر عليهم أن تتم صدوره
فقلت أطمئنى أنضر الروض عازبه
على مثلها والليل تسطو غياهبه
وليس عليهم أن تستم عواقبه

فصاح الشعراء بالأمير أبى العباس : ما يستحق هذا الشعر غير الأمير حفظه
الله : وقال شاعر منهم - يعرف بالرياحى - لى عند الأمير أعزه الله جائزة وعدنى بها
وقد جعلتها لهذا الرجل جزاء عن قوله للأمير ، فقال : بل نضعفها لك ونقوم له بما
يجب علينا ، فلما فرغ من القصيدة نثر عليه ألف دينار فلقطها الغلمان ولم يمس منها
شيئا : فوجد عليه عبد الله وقال : يترف عن برى ويتهاون بما أكرمه ! فلم يبلغ ما
أرادد منه بعد ذلك ، فقال أبو تمام :

(١) تئيم من آمت المرأة : مات زوجها .

(٢) عقالاته جمع عقال وهو داء فى رجل الدابة ، إذا مشى ظلع ساعة ثم انبسط ، ويخص بالفرس .

(٣) الإصحار : ملاقة العدو فى الصحراء أى برز لقتاله .

(٤) الركية : البئر ذات الماء ، والرشاء : جبل البئر .

(٥) قلقل الشيء : حركه ، والنأى : البعد ، والجاش : رواع القلب إذا اضطرب عند الفزع .

(٦) التعريس : النزول ليلا .

لم يبق للصيف لا رسم ولا طلل
عدل عن الدمع أن يبكي المصيف كما
يمنى الزمان انقضى معروفها وغدت
ولا قشيب فيستكسى ولا سمل^(١)
يبكى الشباب ويبكى اللهو والغزل
يسراه وهى لباس بعده بدل

فدخل أبو العميثل شاعر آل طاهر إلى عبد الله فقال : أيها الأمير أنتهاون
بمثل أبى تمام وتجفوه ؟ فو الله لو لم يكن له من النباهة فى قدره والإحسان فى
الشعر ، والشائع من ذكره ، لكان الخوف من شره والتوقى لدمه يوجب على مثلك
زعايته ومراقبته ، فكيف وله بنزوعه إليك من الوطن وفراقه السكن ، وقصدك عاقدا
بك أمله ؛ معملا إليه ركابه ؛ متعبا فيك فكره وجسمه ؛ وفى ذلك ما يلزمك قضاء حقه
حتى ينصرف راضيا ، ولو لم يأت بفائدة ولا سمع فيك منه ما سمع إلا قوله .

يقول فى قومس^(٢) صحبى وقد أخذت
أطلع الشمس تبغى أن تؤم بنا
منا السرى وخطا المهرية القود
فقلست كلا ولكن مطلع الجود

لكفى ، فقال له عبد الله : نهبت فأحسنت ، وشفعت فلطفت ، وعاتبنت
فأوجعت ، ولك ولأبى تمام العتبى ، وأمر له بألفى دينار وما يحمله من الظهر وخلع
عليه خلعة تامة من ثيابه وأمر ببذرقتة^(٣) إلى آخر عمله .

ومدح أبو تمام أبا دلف ، فقال أبو دلف لقومه : يامعشر ربعة ما مدحتم بمثل
هذا الشعر قط فما عندكم لقائله ؟ فبادروه بمطارفهم^(٤) يرمون بها إليه ، فقال أبو
دلف: قد قبلها منكم وأعاركم لبسها وسأنوب عنكم فى ثوابه ، تمم القصيدة يا أبا
تمام ، فتممها ، فأمر له بخمسين ألف درهم وقال : والله ما هى بإزاء استحقاك وقدرك
فاعذرنا ، فشكره وقام ليقبل يده ، فحلف ألا يفعل ، ثم قال له أنشدنى قولك فى
محمد بن حميد :

ومامات حتى مضرب سيفه
وقد كان فوت الموت سهلا فرده
فأنبت فى مستنقع الموت رجله
من الضرب واعتلت عليه القنا السمر
إليه الحفاظ^(٥) المر والخلق والوعر
وقال لها من تحت أخمصك الحشر

(١) السمل : الثوب الخلق وجمعه أسمال . والقشيب هنا : الجديد .

(٢) قومس : كورة كبيرة واسعة فى ذيل جبل طبرستان ، والقود جمع أقود وهو من الخيل والإبل ، الدلول
والمهرية . منسوب إلى مهرة وهى بلد أو قبيلة .

(٣) البذرقة : الخفارة .

(٤) مطارفهم : جمع مطرف وهو رداء من خز مربع ذو أعلام وهو على وزن اسم المفعول أو بكسر الميم وفتح
الراء .

(٥) الحفاظ الأنفة .

غدا غدوة والحمد نسج ردانه
كان بنى بهان يوم مصابه
يعزون عن ثاو يعزى به العلا
فلم ينصرف إلا وأكفانه الأجر
نجوم سماء خر من بينها البدر
ويبكي عليها الجود والبأس والشعر

فأنشده إياه ، فقال : والله لوددت أنها فى ، فقال : بل أفدى الأمير بنفسى
وأهلى وأكون المقدم ، فقال : إنه لم يمت من رثى بهذا الشعر أو بمثله .

وقدم أبو تمام مادحا للحسن بن رعاء ، فاستنشه قصيدته اللامية التى
مدحه بها فلما انتهى إلى قوله :

أنا ذو^(٢) عرفت فإن عرتك جهالة
عظفت ملامتها على ابن ملمة
عادت له أيامه مسودة
فأنا مقسيم قيامة العذال
كالسيف جاب الصبر^(١) شخت الآل
حتى توهم أنهم لسيالى

فقال له الحسن : والله لا تسود عليك بعد اليوم ، فلما قال :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى
وتنظرى خبب الركاب ينصها^(٣)
فالسيل حرب للمكان العالى
محيى القريض إلى مميت المال

قام الحسن على رجليه وقال : والله لا أتممتها إلا وأنا قائم ، فقام أبو تمام

لقيامه وقال :

قد قلت وهى تنال من عرض الفلا
أحوامل الأثقال إنك فى غد
لما وردنا ساحة الحسن انقضى
أحيا الرجاء لنا برغم نوائب
أغلى عذارى الشعر إن مهورها
ترد الظنون بنا على تصديقها
أضحى سمى أبىك فىك مصدقا
ورأيتنى فسألت نفسك سيبها^(٤)
كالغيث ليس له ، أريد نواله
بملاطس^(٥) فى الوخد غير أوالى
بفناء أحمل منك للأثقال
عنا تعجرف^(٦) دولة الأمحال
كثرت بهن مصارع الآمال
عند الكرام وإن رخصن غوالى
ويحكم الآمال فى الأموال
بأجل فائدة وأيمن قال
لى ثم جدت وما انتظرت سؤالى
أولم يرد ، بد من التهطال

(١) جاب الصبر : غليظة، وشخت الآل : ضعيف الشخص .

(٢) ذو : فى لغة طيء كالذى .

(٣) نص ناقته : إستحثها واستقصى آخر ما عندها من السير .

(٤) الملاطس : الأخفاف ، والوخذ : الإسراع ، وأوال : مقصات .

(٥) التعجرف : التكبر .

(٦) السيب : العطاء .

فتعانقا وجلسا ، فقال له الحسن : ما أحسن ما جلوت هذه العروس ! فقال :
والله لو كانت من الحور العين لكان قيامك لها أوفى مهورها . وكان دعبل عند
الحسن بن رجاء يضع من أبي تمام ، فقال له قائل : يا أبا علي اسمع مني ما قاله ،
فإن رضىته فذاك ، وإلا وافقتك على ما تدمه منه ، وأعوذ بالله فيك من ألا ترضاه ، ثم
أنشده :

أما أنه لولا الخليط المودع ومغني عفا مصيف ومربع
فلما بلغ إلى قوله :

هو السيل إن واجهته انقدت طوعه وتقتاده من جانبه فيتبع
ولم أر نفعاً عند من ليس ضائراً ولم أر ضراً عند من ليس ينفع
معاد الورى بعد الممات وسيبه معاد لنا قبل الممات ومرجع

فقال له دعبل : لم ندفع فضل هذا الرجل ، ولكنهم ترفعونه فوق قدره ،
وتقدمونه على من يتقدمه وتنسبون إليه ما قد سرقه ، فقال له : إحسانه صيرك له عابنا
وعليه عاتبا.

وأنشد أبو تمام أبا الحسن محمد بن الهيثم بالجبل^(١) .
أسقى ديارهم أجش^(٢) هزيم وغدت عليهم نضرة ونعيم
فلما فرغ أمر له بألف دينار وخلع عليه خلعة حسنة .

وجاء دعبل إلى الحسن بن وهيب في حاجة بعد وفاة أبي تمام ، فقال له
رجل في المجلس : يا أبا علي ، أنت الذي تطعن علي من يقول :
شهدت لقد أقوت مغانيكم بعدى ومحت كما محت وشائع^(٣) من برد
وأنجدتم من بعد إتهام داركم فيا دمع أنجدنى على ساكنى نجد

فصاح دعبل : أحسن والله ! وجعل يردد : " فيا دمع أنجدنى على ساكنى
نجد " ثم قال : رحمه الله ، لو كان ترك لي شيئاً من شعره لقلت إنه أشعر الناس ! .

وقال الواثق لأحمد بن أبي دؤاد : بلغني أنك أعطيت أبا تمام الطائي في
قصيدة مدحك بها ألف دينار ، قال : لم أفعل ذلك يا أمير المؤمنين ولكني أعطيته
خمسمائة دينار للذي قاله المعتصم :

(١) الجبل : اسم للبلاد المعروفة بالعراق العجمي .

(٢) الأجش من الرعد ، الغليظ الصوت ، والغيث الهزيم : الذي لا يستمسك .

(٣) نسج الثوب بالوشيع والوشائع أى بهذا القصب الملفوف عليه .

فاشدد بهارون الخلافة إنه سكن لوحشتها ودار قرار

فتسم وقال : إنه لحقيق بذلك .

وقال محمد بن موسى بن حماد : كنا عند دعبل أنا والقاسم سنة خمس
وثلاثين ومائتين بعد قدومه من الشام ، فذكرنا أبا تمام فتنبه وقال : هو سروق للشعر ،
ثم قال لغلामه : يانفنف ، هات تلك المخلاة ؛ فجاء بمخلاة فيها دفاتر فجعل يمرها
على يده حتى أخرج منها دفترا فإذا فيه قال مكنف أبو سلمى من ولد زهير ابن أبي
سلمى يرثي ذفافة العبسي :

أبعد أبي العباس يستعتب الدهر وما بعده للدهر عتبي ولا عذر

ثم قال : سرق أبو تمام أكثر هذه القصيدة فأدخلها في قصيدته :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

وقال أبو تمام الطائي^(١) : خرجت يوما إلى سر من رأى ، حين ولي الواثق .
فلقيني أعرابي وقد قربت منها ، فأردت أن أسأله عن شيء من أخبار الناس بها ،
فخطبه . فإذا أفصح الناس وأفطنهم ، فقلت : ممن الرجل ؟ قال : من بني عامر ،
قلت : كيف علمك بأمر المؤمنين ؟ قال : قتل أرضا عالمها ! قلت : فما تقول فيه ؟
قال : وثق بالله فكفاه : أشجى العاصية ، وقمع العادية ، وعدل في الرعية . قلت : فما
تقول في أحمد بن أبي داود ؟ قال : هضبة لا ترام ، وجندلة لا تضام ، تشخذ له
المدى ، وتحبل له الأشراك ، وتبغى له الغوائل ، حتى قيل كأن قد ، وثب وثبة
الذئب وختل ختل الضب ، قلت : فما تقول في محمد بن عبد الملك ؟ قال : وسع
الداني شره ، وقتل البعيد ضره ، له كل يوم صريع لا يرى فيه أثر ناب ولا ندب
مخلب^(٢) . قلت : فما تقول في عمرو^(٣) بن فرج ؟ قال : ضخم لهم^(٤) مستعذب للدم .
قلت : فما تقول في الفضل بن مروان ؟ واستعذبت خطابه . قال ذاك رجل نشر بعد
ما قبر ، فعليه حياة الأحياء وخففة الموتى . قلت : فما تقول في أبي الوزير ؟ قال :
كبش الزنادقة الذي تعرف ؛ ألا ترى أن الخليفة إذا أهمله سنج ورتع ، فإذا هزه
أمطر فأمرع . قلت : فابن الخصيب ؟ قال : أكل أكلة نهم ، فذرق ذرقة بشم^(٥) . قلت :

(١) أخبار أبي تمام للصولي ص ٨٩ .

(٢) الندب : جمع ندبة . وهي أثر الجرح الباقي على الجلد .

(٣) عمرو بن فرج : كان من علية الكتاب . وسخط عليه المتوكل سنة ٢٢٣ هـ .

(٤) اللهم : الرغيب الرأي . الجواد : العظيم الكفاية .

(٥) البشم : التخمة .

فما تقول في ابن إسرائيل؟ قال: لله دره! أي قلقل^(١) هو! غرس في منابت الكرم حتى إذا اهتز لهم حصدوه. قلت: فما تقول في إبراهيم ابن رباح؟ قال: أوبقه^(٢) كرمه، وأسلمه حسبه، وله معروف لا يسلمه، ورب لا يخذله، وخليفة لا يظلمه. قلت: فما تقول في نجاح بن سلمة. قال: لله دره! أي طالب وتر ومدرك نار ويتلهب كأنه شعلة نار، له من الخليفة جلسة تزيل نعمًا، وتحل نقمة.

قلت يا أعرابي: أين منزلك؟ قال: اللهم غفرا، إذا اشتمل الظلام فحيثما أدركني الرقاد رقدت! قلت: فكيف رضاك عن أهل العسكر؟ قال: لا أخلق وجهي بمسألتهم، أو ما سمعت قول هذا الفتى الطائي، الذي قد ملأ الدنيا شعره:
وما أبالي وخير القول أصدقه حقنت لي ماء وجهي أوحقنت دمي
قلت: فأنا الطائي قائل هذا الشعر! فدنا مبادرا فعانقني، وقال: لله أبوك!
أست الذي يقول:

ما جود كفك إن جادت وإن بخلت من ماء وجهي إذا أخلقتة عوض

قلت: نعم، قال: أنت والله أشعر أهل الزمان فرجعت بالأعرابي معي إلى ابن أبي دؤاد، وحدثته بحدثه، فأدخله إلى الواثق، فسأله عن خبره معي، فأخبره به، فأمر له بمال، وأحسن إليه، ووهب له أحمد بن أبي دؤاد، فكان يقول: قد عظم الله بركتك على!

ولما قصد أبو تمام عبد الله بن طاهر بخرسان وامتدحه بقصيدته التي أولها:
أهن عوادي يوسف وصواحيبه فعزما فقدمًا أدرك السؤل طالبيه
أنكر عليه أبو العميثل وقال له: لم لا تقول ما يفهم؟ فقال له: ولم لا تفهم ما يقال؟ فاستحسن منه هذا الجواب على البديهة.

وامتدح أبو تمام أحمد بن المعتصم بقصيدة سينية فلما انتهى إلى قوله
فيها:

إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس

قال له يعقوب الكندي الفيلسوف - وكان حاضرا - : ما صنعت شيئا ، شبهت ابن أمير المؤمنين وولي عهد المسلمين بصعاليك العرب ، ومن هؤلاء الذين ذكرت ؟ وما قدرهم ؟ فأطرق أبو تمام سيرا ثم رفع رأسه وأنشد :

(١) القلقل : المعوان السريع التقلقل وهو التحرك .

(٢) أوبقه : ذلله وأهلكه .

لا تنكروا ضربى له من دونه
فإنه قد ضرب الأقل لنوره
فعبجوا من فطنته وسرعة بديته .

ونقدوا أبا تمام فى قوله :

تكاد عطاياها بجن جنونها
إذا لم يعوذها بنعمة طالب

قالوا : وما بالها يحوجها إلى الجنون ويلتمس منها العوذ والرقى ، هلا فك
أسرها وقدم خلاصها ولم ينتظر بها نعمة الطالب ! ففعل مثل ما قاله أبو الطيب :
وعطاء مال لوعدها طالب أنفقته فى أن تلاقى طالبا

وقد تداول الناس هذا المعنى فقال مسلم :

أخ لى يعطينى إذا ما سألته
ولو لم أعرض السؤال ابتدانيا

وقال أبو العتاهية :

وإننا إذا ما تركنا السؤال
وإن نحن لم نبغ معروفة
فلم نبغ نائله يتدينا
فمعروفة أبدا يتغينا

وقال أبو تمام أيضا :

فأضحت عطاياها نوازع شردا
تسائل فى الآفاق عن كل سائل

ومما عيب على أبى تمام قوله :

فلويت بالمعروف أعناق الورى
وحطمت بالإنجاز ظهر الموعد

فإن حطم ظهر الموعد بالإنجاز استعارة قبيحة جدا ، والمعنى أيضا فى غاية
الرداءة ، فالأخلاف هو الذى يحطم ظهر الموعد لا الإنجاز ، وكان ينبغى أن يقول
وحطمت بالإنجاز ظهر المال لا الموعد ، حينئذ فالموعد كان يصح ويسلم ، ويتلف
المال .

وقوله :

تحملت ما لو حمل الدهر شطره
لفكر دهرا أى عبأيه أثقل

فجعل للدهر عقلا وجعله مفكرا فى أى العباين أثقل ، وليس معنى أبعد من
الصواب من هذه الاستعارة ، وكان الأشبه والأليق بهذا المعنى - لما قال " تحملت
ما لو حمل الدهر شطره " أن يقول : لتضعض ، أو : لا نهده أو لأمن الناس صروفه
ونوازه ، ونحو هذا .

قوله :

بيوم كطول الدهر في عرض مثله ووجدى من هذا وهذاك أطول

فجعل للدهر عرضا ، وذلك محض المحال .

وقوله :

كانوا رداء زمانهم فتصعدوا فكأنما لبس الزمان الصوفا

ولغلبة الحكمة عليه قيل إن أبا تمام والمنتبى حكيمان والشاعر البحترى . ولم يرزق أحد السعادة في شعره ، وتناول له الناس نقدا وشرحا واستشهادا مثل أبى تمام والبحترى والمنتبى ، وقد نال أبو تمام هذه الشهرة الذائعة وأثر عنه هذا الشعر الكثير ولم تنيف سنه عن الأربعين ، فكيف به لو عمر وأجاد أبو تمام القول في كل فن من فنون الشعر ، وأما مرثيته فلم يعلق بها أحد جاش صدره بشعر .

ويعد أبو تمام رأس الطبقة الثالثة من المحدثين ، انتهت إليه معانى المتقدمين والمتأخرين ، وظهر والدنيا قد ملئت بترجمة علوم الأوائل و حكمتها من اليونان والفرس والهند ، فحصف عقله ولطف خياله بالاطلاع عليها ، واستخرج من جملة ذلك طريقته التى آثر بها تجويد المعنى على تسهيل العبارة ، فكان أول من أكثر من الحكم والأمثال والاستدلال بالأدلة العقلية والكنيات الخفية ، ولو أفضى ذلك إلى التعقيد أحيانا ، ولما رأى أن قد فاته سلامة اللفظ وحسن ديباجته أراد أن يجبر الكسر بانتحاء طريقة بشار وأبى نواس ومسلم بن الوليد فى الجناس والمطابقة والاستعارة من أنواع البديع ، فسلم له بعضها واعتل عليه بعضها ، فأتى من الجناس بما التاث به شعره ، وصار كالكلف فى صفحة البدر ، ومع هذا سلم له كلامه جملة لم يحم حولها شاعر سابق ، وعجز عن محاكاتها كل لاحق ، لما حوته من عيون المعانى المبتكرة ، وصيغت فيه الألفاظ الرائقة ، وضمنته من الأمثال والحكم التى زادت فى ثروة الأدب العربى ، ومهدت لمن خلفه طرقا لم تكن لولاه معبدة ، ومنها سلك أبو الطيب المنتبى وأبو العلاء المعرى وغيرهم إلى حكمهم ، ومن مرثيته لمحمد بن حميد الطوسى الطائى المشهورة :

وأصبح فى شغل عن السفر السفر
وذخرا لمن أمسى وليس له ذخر
إذا ما استهلته أنه خلق العسر
فجساج سبيل الله وانثغر الثغر

توفيت الآمال بعد محمد
وما كان إلا مال من قل ماله
وما كان يدرى مجتدى جود كفه
ألا فى سبيل الله من عطلت له

فتى كلما فاضت عيون قبيلة
فنى دهره شطران فيما ينويه
فتى مات بين الطعن والضرب ميتة
وما مات حتى مات مضرب سيفه
وقد كان فوت الموت سهلا فرده
ونفس تعافى العار حتى كأنما
فأثبت فى مستنقع الموت رجله
غدا غدوة والحمد نسج ردائه
فتى كان عذب الروح لا من غضاضة
فتى سلبته الخيل وهو حمى لها

وله من قصيدة يمدح بها الحسن بن رعاء :
لا تنكرى عطل الكريم من الغنى
وتنظرى خبب الركاب ينصها

ومن قوله فى الحجاب :

يأبها الملك النائي بغرته
ليس الحجاب بقص عنك لى أملا

ومن أبياته السائرة قوله :

فلو صورت نفسك لم تزدها

دما ضحكت عنه الأحاديث والذكر
ففى بأسه شطر وفى جوده شطر
تقوم مقام النصر إن فاته النصر
من الضرب واعتلت عليه القنا السمر
إليه الحفاظ المر والخلق الوعر
هو الكفر يوم الوداع أو دونه الكفر
وقال لها من تحت أخمصك الحشر
فلم ينصرف إلا وأكفانه الأجر
ولكن كبرا أن يقال به كبر
وبزته نار الحرب وهو لها حمر

فالسيل حرب للمكان العالى
محيى القريض إلى مميت المال

وجوده لمرجى جوده كئيب
إن السماء ترجى حين تحتجب

على ما فيك من كرم الطباع

ومن أفخم قصائده قصيدته البائية التى هنا بها الخليفة المعتصم بفتح

عمورية ويسخر فيها بالمنجمين ، وأولها :

السيف أصدق أنباء من الكتب
بيض الصفائح لاسود الصفائح فى

فى حده الحد بين الجد واللعب
متونهن جلاء الشك والريب

دعبل الخزاعي

المتوفى سنة ٢٤٦ هـ

هو دعبل بن علي بن رزين الخزاعي الأزدي يكنى أبا علي ، شاعر متقدم مطبوع هجاء خبيث اللسان لم يسلم عليه أحد من الخلفاء ولا من وزراءهم ولا أولادهم ولا ذو نباهة أحسن إليه أم لم يحسن ولا أفلت منه كبيرا أحد ، وكان شديد التعصب على النزارية^(١) للقحطانية . وقال قصيدة يرد فيها على الكميت بن زيد ويناقضه في قصيدته المذهبة التي هجا بها قبائل اليمن : ألا حبيت عنا يا مدينا . وكان دعبل من الشيعة المشهورين بالميل إلى علي صلوات الله عليه ، وقصيدته " مدارس آيات خلت من تلاوة " مشهورة .

وهي من أحسن الشعر وفاخر المقولة في أهل البيت عليهم السلام ، وقصد بها علي بن موسى الرضا بخرسان ، فأعطاه عشرة آلاف درهم من الدراهم المضروبة باسمه ، وخلع عليه خلعة من ثيابه أعطاه بها أهل^(٢) قم ثلاثين ألف درهم فلم يبعها فقطعوا عليه الطريق فأخذوها ، فقال لهم : إنما تراد لله عز وجل وهي محرمة عليكم فدفعوا إليه ثلاثين ألف درهم ، فحلف ألا يبيعها أو يعطوه بعضها ليكون في كفه فأعطوه فكان من أكفانه ، وها هي ذي القصيدة :

مدارس آيات خلت من تلاوة	ومنزّل وحى مقفر العرصات ^(٣)
لآل رسول الله بالخيف من منى	وبالركن والتعريف والجمرات
ديار علي والحسين وجعفر	وحمزة والسجاد ذي الثفّنات
ديار عفاها كل جون ^(٤) مبادر	ولم تعف للأيام والسّنوات
قفا نسأل الدار التي خف أهلها	متى عهدّها بالصوم والصلوات

ودخل دعبل علي بن موسى الرضا فقال له أنشدني شيئا مما أحدثت

فأنشده :

مدارس آيات خلت من تلاوة	ومنزّل وحى مقفر العرصات
-------------------------	-------------------------

(١) النزارية : ولد نزار بن معد بن عدنان . والقحطانية : ولد قحطان وهم عرب اليمن .

(٢) قم : مدينة بلاد الفرس .

(٣) العرصات جمع عرصة وهي وسط الدار .

(٤) يريد بالجون السحاب الأسود المكفهر .

حتى انتهى إلى قوله :

إذا وتروا مدوا إلى أهل وترهم أكفا عن الأوتار منقبضات

فبكي حتى أغمى عليه . و أوما إليه خادم كان على رأسه أن اسكت ، فسكت ساعة ثم قال له - أعد - فأعاد حتى انتهى إلى هذا البيت أيضا فأصابه مثل الذي أصابه في المرة الأولى وأوما الخادم إليه أن اسكت فسكت - فمكث ساعة أخرى ثم قال له : أعد فأعاد ، حتى انتهى إلى آخرها فقال له أحسنت ثلاث مرات ثم أمر له بعشرة آلاف درهم مما ضرب باسمه ولم تكن وقعت إلى أحد بعد وأمر له من منزله بحلى كثير أخرجه إليه الخادم فقدم العراق فباع كل درهم منها بعشرة دراهم اشتراها منه الشيعة فحصل له مائة ألف درهم فكان أول مال اعتقده .

قال دعبيل بن علي : ^(١) حججت أنا وأخي رزين ، وأخذنا كتبنا إلى المطلب ابن عبد الله بن مالك ، وهو بمصر يتولاها . فصرنا من مكة إلى مصر ، فصحبنا رجل يعرف بأحمد بن السراج ، فما زال يحدثنا ويؤنسنا طول طريقنا ، ويتولى خدمتنا كما يتولاها الرفقاء والاتباع ، ورأيناه حسن الأدب - وكان شاعرا ولم نعلم - وكنتمنا نفسه . وقد علم ما قصدنا له ، فعرضنا عليه أن نقول في المطلب قصيدة ننحله إياها ، فقال : إن شئتم ، وأرانا بذلك سرورا وتقبلا له ، فعملنا قصيدة ، وقلنا له تنشدها المطلب وإنك تنتفع بها ، فقال : نعم ، ووردنا مصر به ، فدخلنا إلى المطلب وأوصلنا إليه كتبنا كانت معنا ، وأنشدناه فسر بموضعنا ، ووصفنا له أحمد بن السراج هذا ، وذكرنا له أمره ، فأذن له فدخل عليه ، ونحن نظن أنه سينشد القصيدة التي نحلناه إياها ، فلما مثل بين يديه عدل عنها وأنشده :

وهمة بلغت بي غاية الرتب
في الوسائل أو ألقاه في الكتب
ما كان من وصب فيها ومن نصب
تكاد تقدح بين الجلد والعصب
عطف ^(٢) الزمام فأمت سيد العرب
من طول ما تعب لاقت ومن نقب ^(٣)

لم أت مطلببا إلا بمطلب
أفردته بـرجاء أن تشاركه
رحلت عيسى إلى البيت الحرام على
ألقى بها وبوجهي كل هاجرة ^(٤)
حتى إذا ما قضت نسكي ثنيت لها
فأممتهك ^(٥) وقد ذابت مفاصلها

(١) الأغاني ص ٤٧ ج ١٨ .

(٢) عطف الشيء : جانبه .

(٣) نقب البعير إذا حفى .

(٤) الهاجرة : إنما تكون في القيظ نصف النهار .

(٥) يقال . أممه بمعنى قصده .

فصاح مطلب : لبيك ! لبيك ! ثم قام إليه ، فأخذه بيده وأجلسه معه وقال :
يا غلام ، البدر^(١) فأحضرت . ثم قال : الخلع ، فنشرت ، ثم قال : الدواب ، فقيدت ،
فأمر له من ذلك بم ملاً عينه وأعيننا وصدورنا ، وحسدناه عليه ؛ وكان حسدنا له بما
اتفق له من القبول وجودة الشعر ، وغيظنا بكتمه إيانا نفسه ، واحتياله علينا أكثر
وأعظم ، فخرج بما أمر له ، وخرجنا صفرا ، ومكث دعبل أياما ثم ولاه المطلب
أسوان ، ولكن دعبل كان قد هجاه غيظا منه فقال :

أطلب أنت مستعذب	حميا ^(٢) الأفاعي ومستقتل
ستأتيك إما وردت العراق	صحائف يأتورها دعبل
منمقة بين أثنائها	مخاز تخط فلا ترحل
وضعت رجالا فما ضرهم	وشرفت قوما فلم ينبلوا
إذا الحرب كنت أميرا لها	فحظهم منها أن يقتلوا
شعارك في الحرب يوم الوغى	إذا انهزموا : عجلوا عجلوا
هزائمك الغر مشهورة	يقرطس ^(٣) فيهن من ينزل
فأنت إذا ما التقوا آخر	وأنت إذا انهزموا أول

وبلغ المطلب هجاؤه إياه بعد أن ولاه ، فعزله عن أسوان ، وأنفذ إليه كتاب
العزل مع مولى له ، وقال : انتظره حتى يصعد المنبر يوم الجمعة ، فإذا علاه فأوصل
الكتاب إليه ، ومنعه عن الخطبة وأنزله عن المنبر ، وأصعد مكانه ، فلما أن علا المنبر
وتنحج ليخطب ناوله الكتاب ، فقال له دعبل دعني أخطب فإذا نزلت قرأته ، قال
لا ، لقد أمرني أن أمنعك الخطبة حتى تقرأه فقرأه ، وأنزله عن المنبر معزولا .

قال : محمد بن موسى الضبي^(٤) ، وكان نديما لعبد الله بن طاهر : بينما
نحن عند عبد الله بن طاهر ذات ليلة يذاكرنا بالأدب وأهله ، وشعراء الجاهلية إذ
بلغ إلى ذكر المحدثين حتى انتهى إلى ذكر دعبل فقال : ويحك يا ضبي ! إنى
أريد أن أحدثك بشيء على أن تستره طول حياتي ، فقلت له : أصلحك الله ، أنا
عندك في موضع ظنك ؟ قال لا ، ولكن أطيب لنفسي أن توثق لي بالأيمان ؛ لأركن
إليها ويسكن قلبي عندها ، فأحدثك حينئذ . قال قلت إن كنت عند الأمير في هذه
الحال فلا حاجة به إلى إفشاء سره إليّ ، واستعفيته مرارا ولم يعفني ، فاستحييت

(١) البدر جمع بدرة (بفتح الباء) وهي عشرة آلاف درهم .

(٢) الحميا من كل شيء شدته .

(٣) قرطس أصاب القرطاس ، أى الغرض .

(٤) الأغاني ص ٥٦ ج ١٧ .

مراجعتة وقلت فليز الأمير رأيه ، فقال لى : يا ضبى ، قل : والله ، قلت : والله فأمرها على غموسا مؤكدة بالبيعة والطلاق وكل ما يحلف به مسلم ، ثم قال : أشعرت أن دعبل مدخول النسب ؟ وأمسك ، فقلت أعز الله الأمير ، أفى هذا أخذت العهد والمواثيق ومغلظ الأيمان ! قال : إى والله ، فقلت : ولم ؟ قال : لأنى رجل لى فى نفسى حاجة ودعبل رجل قد حمل نفسه على المهالك وحمل جذعه على عنقه ، فليس يجد من يصلبه عليه ، وأخاف إن بلغه أن يقول فى ما يبقى على عاره على الدهر . وقصاراى إن ظفرت به وأسلمته اليمن - وما أراها تفعل ؛ لأنه اليوم شاعرها والذاب عنها ، والمحامى لها دونها - أن أضربه مائة سوط وأثقله حديدا : وليس فى ذلك عوض على مما سار فى من الهجاء وفى عقبى من بعدى ، فقلت : ما أراه يفعل ويقدم عليك ، فقال لى : يا عاجز ، أترأه أقدم على الرشيد والأمين والمأمون وعلى أبى ولا يقدم على ! فقلت : فإذا كان الأمر كذا فقد وفق الأمير فيما أخذه على ، قال : وكان دعبل صديقا لى . فقلت : هذا شىء قد عرفته ، فمن أين ؟ قال الأمير : إنه مدخول النسب ، وهو فى البيت الرفيع من خزاعة ؟ فقال : اسمع ، إنه كان أيام ترعرع خاملا لا يؤبه له ، وكان ينام هو ومسلم بن الوليد فى إزار واحد لا يملكان غيرد ومسلم أستاذه ، وهو غلامه يخدمه ، ودعبل حينئذ لا يقول شعرا يفكر فيه حتى قال :

لا تعجبى يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى

وغنى فيه بعض المغنين وشاع ، فغنى به بين يدى الرشيد ، فطرب وسأل عن قائل الشعر فقيل له : دعبل بن على وهو غلام نشأ من خزاعة ، فأمر بإحضار عشرة آلاف درهم وخلعة من ثيابه ، فأحضر ذلك فدفعه مع خادم من خاصته وقال له : اذهب بهذا إلى خزاعة فسأل عن دعبل بن على فإذا دلت عليه فأعطه هذا وقل له : ليحضر إن شاء ، وإن لم يحب ذلك فدعه ، وأمر للمغنى بجائزة .

فسار الغلام إلى دعبل ، وأعطاه الجائزة ، وأشار عليه بالمسير إليه ، فلم دخل عليه وسلم أمر بالجلوس فجلس ، واستنشده الشعر فأنشده إياه فاستحسنه ، وأمره بملازمته ، وأجرى عليه رزقا سنيا ، فكان أول من حرصه على قول الشعر ، فو الله ما بلغه أن الرشيد مات حتى كافأه ؛ وقال فيه من قصيدة مدح بها أهل البيت وهجا الرشيد :

وليس حى من الأحياء نعلمه
إلا وهم شركاء فى دمائهم
قتل وأسر وتحريق ومنهبة
أرى أمية معذورين إن قتلوا
أربع بطوس^(٣) على القبر الزكى إذا
قبران فى طوس : خير الناس كلهم
ما ينفع الرجس من قرب الزكى ولا
هيهات كل أمرىء رهن بما كسبت

من ذى يمان ومن بكر ومن مضر
كما تشارك أيسار على جزر^(١)
فعل الغزاة بأرض الروم والخزر^(٢)
ولا أرى لبني العباس من عذر
ما كنت تربع من دين على وطر
وقبر شرهم هذا من العبر
على الزكى بقرب الرجس من ضرر
له يداه فخذ ما شئت أو فذر

فهذه واحدة ، وأما الثانية فإن المأمون لم يزل يطلبه وهو طائر على وجه
حتى دس إليه قوله :

أنى يكون وليس ذاك بكائن
إن كان إبراهيم^(٥) مضطلعا بها
يرث الخلافة فاسق عن فاسق
فلتصلحن من بعده لمخارق^(٤)

فلما قرأها المأمون ضحك وقال : قد صفحت عن كل ما هجانا به ، إذ قرن
إبراهيم بمخارق فى الخلافة ، وولاه عهده ، وكتب إلى أبى أن يكاته بالأمان ،
ويحمل إليه مالا ، وإن شاء أن يقيم عنده أو يصير إلى حيث شاء فليفعل ، فكتب إليه
أبى بذلك ، وكان واثقا به ، فصار إليه ، فحمله فخلع عليه ، وأجازة وأعطاه المال ،
وأشار عليه بقصد المأمون ففعل ، فلما دخل وسلم عليه تبسم فى وجهه ، ثم قال :
أنشدنى :

مدارس آيات خلت من تلاوة
ونزل وحى مقفر^(٦) العرصات

فجزع ؛ فقال له : لك الأمان فلا تخف ؛ وقد رويتها ولكنى أحب سماعها من
فيك ؛ فأنشده :

مدارس آيات خلت من تلاوة
لآل رسول الله بالخيف من منى
ونزل وحى مقفر العرصات
وبالركن والتعريف والجرات^(٧)

(١) أيسار : جمع ياسر ، وهو الذى يلى قسمة الجزور . نوق تذبج وتقسم أقساما للمقامة .

(٢) الخرز : جبل من الترك ، بلادهم شمال فارس .

(٣) طوس : مدينة عظيمة بخراسان تعرف الآن بمشهد ؛ دفن بها الرشيد على بن موسى الرضا ، وأربع : أقم ؛ والوظر :
الحاجة .

(٤) مخارق : مغن معروف .

(٥) يريد إبراهيم بن المهدي .

(٦) المقفر : الخالى من الناس والعرصات ، ساحات الدار .

(٧) أسماء مواضع فى مكة .

ديار على والحسين وجعفر
ديار عفاها^(٢) كل جون مبادر^(٣)
قفا نسال الدار التي خف أهلها
وأين الألى شطت بهم غربة النوى
وما الناس إلا حاسد ومكذب
وحمزة والسجاد ذى الثفان^(١)
ولم تعف للأيام والسنوات
متى عهدتها بالصوم والصلوات ؟
أفانين فى الأفاق مفترقات
ومضطغن ذو إحنة وتيرات

ومضى فيها حتى أتى على آخرها . والمأمون يبكى حتى أخضلت لحيته
بدمعه ، فو الله ما شعرنا به إلا وقد شاعت له أبيات يهجو بها المأمون بعد إحسانه
إليه وأنسه به ، حتى كان أول داخل وآخر خارج من عنده .

وقال عمرو بن مسعدة^(٤) : حضرت أبا دلف عند المأمون - وقد قال له
المأمون : أى شىء تروى لأخى خزاعة ؟ فقال : وأى خزاعة يا أمير المؤمنين ! قال :
ومن تعرف فيهم شاعراً ؟ فقال : أما من أنفسهم ، فأبو الشيص ودعبل وابن أبى
الشيص ، وداود ابن أبى رزين ، وأما من مواليهم فظاهر وابنه عبدالله ، فقال : ومن
عسى فى هؤلاء أن يسأل عن شعره سوى دعبل ! هات ؛ أى شىء عندك فيه ؟ فقال
أى شىء أقول فى رجل لم يترك أهل بيته حتى هجاهم ، فقرن إحسانهم بالإساءة ،
وبذلهم بالمنع ، وجودهم بالبخل ، حتى جعل كل حسنة منهم بإزاء سيئة ، قال :
حين يقول ماذا ؟ قال : حين يقول فى المطلب بن عبد الله ابن مالك ، وهو أصدق
الناس له ، وأقربهم منه ، وقد وفد إليه مصر ، فأعطاه الجزيل وولاه ولم يمنعه ذلك أن
قال فيه :

اضرب ندى طلحة الطلحات متندا
تخرج خزاعة من لؤم ومن كرم
بلؤم مطلب فبنا وكن حكما
فلا تحس لها لؤما ولا كرمما

فقال المأمون : قاتله الله ، ما أغوصه وألطفه وأدهاه ، وجعل يضحك ثم
دخل عبد الله بن طاهر ، فقال له : أى شىء تحفظ ويا عبد الله لدعبل ؟ فقال :
أحفظ أبياتا له فى أهل بيت أمير المؤمنين ، قال : هاتها ، ويحك ، فأنشده :

(١) الثفنة : الركبة ومجتمع الساق والفخذ ، والسجاد ذو الثفان هو على بن الحسين لأن طول السجود أثر فى
ثفانته .

(٢) عفاها : محابها .

(٣) الجون المبادر : السحاب الماطر .

(٤) الأغاني ص ٤٤٤ ج ١٨ .

أيام أرفل في أثواب لذاتي
أصبر على غير جارتى وكناتى^(١)
واقذف برحلك عن متن الجهالات
نحو الهداة بنى بيت الكرامات

سقى ورعيا لأيام الصبابات
أيام غصنى رطيب من ليانته
دع عنك ذكر زمان فات مطلبه
وأقصد بكل مديح أنت قائله

فقال المأمون : إنه قد وجد والله مقالا فقال ، ونال ببعيد ذكرهم مالا يناله
فى وصف غيرهم ، ثم قال : لقد أحسن فى وصف سفر سافره ، فطال ذلك السفر عليه
فقال فيه :

إلى وطن قبل الممات رجوع!
نطقن بما ضمت عليه ضلوع^(٢)
وشمل^(٣) شتيت عاد وهو جميع
لكل أناس جدبة وربيع^(٤)

ألم يأن^(٥) للسفر الذين تحملوا
فقلت - ولم أملك سوابق عبدة
تسبين ، فكم دار تفرق شملها
كذاك الليالى صرفهن^(٦) كما ترى

ثم قال : ما سافرت قط إلا كانت هذه الأبيات نصب عيني فى سفرى
وهجيراي ومسليتى حتى أعود .

قال أبو خالد الخزاعى لدعبل : ويحك ، قد هجوت الخلفاء والوزراء
والقواد ووترت الناس جميعا ، فأنت دهر ككله شريد طريد هارب خائف ، فلو كفت
عن هذا صرفت هذا الشر عن نفسك ، فقال : ويحك ! إنى تأملت ما تقول فوجدت
أكثر الناس لا ينتفع بهم إلا على الرهبة ، ولا يبالي بالشاعر وإن كان مجيدا إذا لم
يخف شره ، ولم يتقيك على عرضه أكثر ممن يرغب إليك فى تشريفه ، وعيوب الناس
أكثر من محاسنهم ، وليس كل من شرفته شرف ، ولا كل من وصفته بالجد والمجد
والشجاعة ولم يكن ذلك فيه انتفع بقولك ، فإذا رآك أوجعت عرض غيره وفضحته
اتقاك وخاف من مثل ما جرى على الآخر ، ويحك يا أبا خالد ، إن الهجاء المقذع^(٧)
أخذ بضعب الشاعر من المديح المضرع^(٨) ، فضحك أبو خالد وقال : هذا والله مقال
من لا يموت حتف أنفه .

(١) الكنة : امرأة الأبن والأخ .

(٢) العبدة : الدمعة ، وما ضمت عليه الضلوع : الحزن والشوق إلى الوطن والأهل .

(٣) الشمل : ما اجتمع من الأمر أو تفرق منه والشتيت المنفرد ، والجميع : المجتمع .

(٤) جدبة وربيع : حالتا خير وشر .

(٥) يأن : يقرب ويحضر ، والسفر : المسافرون .

(٦) صرف الليالى : أهدأها .

(٧) المقذع من أقذعه : رماء بالفحش وسوء القول وشمته .

(٨) المضرع : المذل .

قال دعبل : قال لى أبى رزين ما قلت من الشعر قط إلا هذين البيتين :
خليلى ماذا أرتجى من غد امرىء طوى الكشح عنى اليوم وهو مكين
وإن امرأ قد ضن منه بمنطق يسد به فقر امرىء لئنين

وبيتين آخرين وهما :

أقول لما رأيت الموت يطلبنى باليتنى درهم فى كيس مياح^(١)
فيا له درهمما طالت صيانتها لا هالك ضيعة يوما ولا ضاح^(٢)

وكان سبب خروج دعبل من الكوفة أنه كان يتشطر^(٣) ويصحب الشطار فخرج هو ورجل من أشجع فيما بين العشاء والعتمة فجلسا على طريق رجل من الصيارفة ، وكان يروح كل ليلة بكسبه إلى منزله ، فلما طلع مقبلا إليهما وثبا إليه فجرحاه وأخذا ما فى كفه فإذا هى ثلاث رمانات فى خرقة ، ولم يكن كيسه ليلتند معه ، ومات الرجل مكانه ، واستتر دعبل وصاحبه ، وجد أولياء الرجل فى طلبهما ، وجد السلطان فى ذلك ، فطال على دعبل الاستتار فاضطر إلى أن يهرب من الكوفة فما دخلها حتى لم يبق من أولياء الرجل أحد .

وكان دعبل جالسا بالبصرة وعلى رأسه غلامه ننف فمر به أعرابى يرفل فى ثياب خز ، فقال لغلامه : ادع لى هذا الأعرابى ، فأوما الغلام فجاءه ، فقال له دعبل : ممن الرجل ؟ قال : من بنى كلاب ، قال : من أى ولد كلاب أنت ؟ قال : من ولد أبى بكر ، فقال : أتعرف القائل :

ونبتت كلبا من كلاب يسبنى ومحض كلاب يقطع الصلوات
فإن أنا لم أعلم كلابا بأنها كلاب وأنى باسل النقمات
فكان إذا من قيس عيلان والدى وكانت إذا أمى من الحبطات^(٤)

وهذا الشعر لدعبل يقوله فى عمرو بن عاصم الكلابى ، فقال الأعرابى : من أنت ؟ فكره أن يقول له من خزاعة فيهجوه ، فقال : أنا أنتمى إلى القوم الذين يقول فيهم الشاعر :

(١) المياح : الذى يميح الماء أى يستقيه .

(٢) واضح : ظاهر .

(٣) يتشطر : يعيش عيشة الشطار ، الشاطر : من أعيان أهله خبثا .

(٤) الحبطات : قبيلة من بنى تميم ، وقد تكسر بأوها .

أناس على الخير منهم وجعفر
إذا فخرُوا يوماً أتوا بمحمد
وحمزة والسجاد ذو الثنات^(١)
وجبريل والفرقان والسورات

فوثب الأعرابي وهو يقول : مالى إلى محمد وجبريل والفرقان والسورات
مرتقى ، ومن قول دعبل وفيه غناء :

أين الشباب وأية سلكا
لا تعجبي يا سلم من رجل
ياليت شعري كيف يومكما
لا تأخذا بظلامتى أحدا
لا أين يطلب ضل بل هلكتا
ضحك المشيب برأسه فبكي
يا صاحبي إذا دمي سفكا
قلبي وطرفي في دمي اشتركا

أخذ البيت الثاني من قول مسلم بن الوليد :

مستعبر يبكي على دمنة
ورأسه يضحك فيه المشيب

فجاء به أجود من قول مسلم ، فصار أحق به منه ، وقال الأدمعي : سرقه
من قول الحسين بن مطير الأسدي :

أين أهل القباب بالدهناء^(٢)
فارقونا والأرض ملبسة نو
كل يوم بأقحوان جديد
أين جيراننا على الأحساء
راقحى^(٣) تحاك بالأنواء
تضحك الأرض من بكاء السماء

وقال البحتري : دعبل بن علي أشعر عندي من مسلم بن الوليد لأن كلام
دعبل أدخل في كلام العرب من كلام مسلم ومذهبه أشبه بمذاهبهم وكان يتعصب
له .

وقال أبو تمام مازال دعبل مانلا إلى مسلم بن الوليد مقرا بأستاذيته حتى
ورد عليه بجرجان ، فجفاه مسلم وكان فيه بخل ، فهجره دعبل وكتب إليه :

أبا مخلد كنا عقيدى مودة
أحوطك بالغيب الذى أنت حائطي
فصيرتنى بعد انتكائك متهما
غششت الهوى حتى تداعت أصوله
هوانا وقلبانا جميعا معا
وأجزع إشفاقا من أن تتوجعا
لنفسى عليها أرهب الخلق أجمعا
بنا وابتذلت الوصل حتى تقطعا

(١) الثنات جمع ثفة وهي من الإنسان الركب ، وكان بها آثار من كثرة سجوده ،

(٢) الأقاحى : جمع الأقوقان وهو نبات له زهر أبيض فى وسطه كتله صغيرة صفراء وأوراق زهرة مفلجة صغيرة ،
يشبهون به الأسنان .

(٣) الدهناء : واد فى بلاد بنى تميم ببادية البصرة ، والأحساء جمع حسى بكسر فسكون وهو الماء الذى تشفه
الأرض من الرمل فإذا صار إلى صلابة أمسكته وهو علم لمواضع شتى ببلاد العرب .

ذخيرة ود طالما قد تمنعنا
تحرقت حتى لم أجد لك مرقعا
وجشمت قلبي صبره فتشجعا

وانزلت من بين الجوانح والحشى
فلا تلحينى ليس لى فيك مطمع
فهبك يمينى استاكلت فقطعتها

ثم تهاجرا فما التقيا بعد ذلك .

وحدث دعبل الشاعر^(١) أنه اجتمع هو ومسلم وأبو الشيص وأبو نواس فى مجلس ، فقال لهم أبو نواس : إن مجلسنا هذا قد شهر باجتماعنا فيه ، ولهذا اليوم وما بعده ، فليات كل واحد منكم بأحسن ما قال فلينشده ، فأنشده أبو الشيص :

متأخر عنه ولا مستقدم
حبا لذكرك فليلمنى اللوم
ما من يهون عليك ممن يكرم
إذ كان حظى من حظى منهم

وقف الهوى بى حيث أنت فليس لى
أجد الملامة فى هواك لذيدة
وأهنتنى فأهنت نفسى صاغرا
أشبهت أعدائى فصرت أحبهم

فجعل أبو نواس يعجب من حسن الشعر حتى ما كاد ينقضى عجبه ، ثم أنشد مسلم أبياتا من شعره الذى يقول فيه :

وقد فاجأتها العين والستر واقع
كأيدى الأسارى أثقلتها الجوامع^(٢)

فأقسمت أنسى الداعيات إلى الصبا
فغضت بأيديها ثمار نحورها

قال دعبل : فقال له أبو نواس : هات أبا على ، وكأنى بك قد جنتنا بأمر

القلادة ، فأنشده :

أم أين يطلب ؟ ضل بل هلكا
ضحك المشيب برأسه فبكى
يا صاحبى إذا دمسى سفكا ؟
قلبى وطرفى فى دمسى اشتركا

أين الشباب ؟ واية^(٣) سلكا ؟
لا تعجبى يا سلم من رجل
يالىت شعرى كيف صبر كما
لا تطلبنا بظلامتى أحدا

ثم سأله أن ينشد ، فأنشده :

واشرب على الورد من حمراء كالورد
أخذت بحمرتها فى العين والخذ
فى كف جاربة ممشوقة القد

لا تبك هندا ولا تطرب إلى دعد
كأسا إذا انحدرت فى كف شاربها
فالخمر ياقوتة ، والكأس لؤلؤة

(١) العقد ص ٤ ج ٢ ، مهذب الأغاني ص ٢٢٤ ج ٧ ، ديوان مسلم ص ٢٠٩ طبعة أوربا .

(٢) هى الغل تجمع اليدين إلى العتق .

(٣) أية : أية سبيل .

تسقيك من عينها خمرا ومن يدها خمرا فما لك من سكرين من بد
لى نشوتان وللندمان واحدة شىء خصصت به من بينهم وحدى

فقاموا كلهم : فسجدوا ! فقال : أفعلتموها لا كلمتكم ثلاثا ولا ثلاثا ولا ثلاثا !

يزيد المهلبى

شاعر عباسى بليغ ، كان أخص الناس بالمنتصر ، وكان يجالسه قبل مجالسة المتوكل ، فدخل المتوكل يوما على المنتصر على غفلة فسمع كلامه فاستحسنه ، فأخذه إليه فجعله فى جلسائه ، وكان المنتصر يريد أن يلازمه كما كان فلم يقدر على ذلك لملازمته أباه ، فعتب عليه لتأخره عنه على ثقة منه بمودته وأنس به ، فلما أفضت إليه الخلافة استأذن عليه ، فحجبه وأمر بأن يعتقل فى الدار ، فحبس أكثر يومه ، ثم أذن له فدخل وسلم وقبل الأرض بين يده وأمره بالجلوس ثم استأذنه فى الإنشاد فأذن ، فأنشده :

ألا يا قوم قد برح الخفاء	وبان الصبر منى والعزاء
تعجب صاحبى لضياح مثلى	وليس لىءاء محروم دواء
جفانى سيد قد كان برا	ولم أذنب فما هذا الجفاء
حللت بداره وعلمت أنى	بدار لا يخيب بها الرجاء
فلما شاب رأسى فى ذراه ^(١)	حجبت بعقب ما بعد الرخاء
فإن تنأى ستور الأذن عنا	فمانأت المحبة والثناء
وإن يك كادنى ظلما عدو	فعهد البحث ينكشف الغطاء
ألم ترى أن بالأفاق منا	جماجم حشو أقربها الوفاء
وقد وصف الزمان لنا زياد ^(٢)	وقال مقالة فيها شفاء
ألا يارب مغموم سيحظى	بدولتنا ومسرور يساء
أمنتصر الخلائف جدت فينا	كما جادت على الأرض السماء
وسعت الناس عدلا فاستقاموا	بأحكام عليهن الضياء
وليس يفوتنا ما عشت خيرا	كفانا أن يطول لك البقاء

وكان المهلبى شاعرا أريباً متفننا وكان من أحسن ندماء الملوك والخلفاء ، نادى المتوكل والمنتصر والمستعين والمعتر ، وكان ذا حظوة لديهم ، وتهاجى هو

^(١) الذراه : ظلد وكنفه .

^(٢) أيريد قول زياد بن أبى سفيان فى خطبته بالكوفة : رب مسرور بقدومنا سيبتنس ، ومبتنس بقدومنا سير ،

وعبد الصمد بن المعذل وكان المهلبى السمر حلو الحديث صاحب أخبار غزير
الرواية تاريخ النادرة ، وكان له مجلس يسر من رأى يحض فاضل الأدباء والشعراء
والكتاب ، وتوفى عام ٢٥٦هـ .

ابن أبي عيينة

هو ابن أبي عيينة بن محمد بن أبي عيينة بن المهلب بن أبي صفرة
الأزدى ، شاعر مطبوع ظريف غزل هجاء ، أنفذ أكثر شعره في هجاء ابن عمه خالد ،
وكان من شعراء الدولة العباسية من ساكنى البصرة ، وأبو عيينة من أطبع الناس
وأقربهم مأخذاً من غير أدب موصوف ولا رواية كثيرة ، وكان يقرب البعيد ويحذف
الفضول ويقل التكلف ، وكان يتعشق فاطمة بنت عمر ويسر عشقها ويلقبها دنيا ، كتماناً
لأمورها ، وكانت امرأة جلييلة سرية من النساء ، وكان أبوها من أشد الفرسان
وشجعانهم ، وقال فى فاطمة هذه :

ليس مسرور كمن لا يسر
عيينه أكثر مما تقرر
لا يقع بينى وبينك أمر
كل مملوك إذا لى حر

عيشها حلو وعيشك مر
كمديم الحب تسخن فيه
قلت للائم فيها اله عنها
اتراني مقصرا عن هواها؟

ومن قوله فيها:

ومالك العشق لولا الشقا
وشمك ريحان أهل السقا
سين أشهر من فرس ألقا
خذى بيدي قبل أن أغرقا

ألم تكنه قلبك أن يعشقا
أمن بعد شربك كأس النهي
عشقت فأصبحت فى العالم
أدنياى من غمر بحر الهوى

ومن مختار ما قاله فى فاطمة :

واذكرينا فى بعض ما تذكرينا
لم تخافيه ساعة أن يخونا
ح علينا الخيرى^(١) والياسميننا
من بلاد سارين أم مدلجيننا
وهم فى المكارم الأولونا
سأس والأطيبون للأطيبينا

قل لدنيا بالله لا تقطينا
لا تخونى بالغيب عهد صديق
واذكرى عيشنا وإذ نقض الريد
حفظ الله إخوتى حيث كانوا
فتية نازحون عن كل عيب
وهم الأكثرون يعلم ذاك الذ

(١) الخيرى : هو المنشور الأصفر .

ت بقربي منهم شحيحا ضنينا
عليه ولعنة اللاعنينا
تبي زكاة وينهر المسكينا
ويرائي ويمنع الماعونا^(١)
طاه آمين عاجلا آمينا
وفدا غادين أو رانحيننا
ليجوعون فوق ما يشبعونا
ومن غير علة يحتمونا
كم على الجوع ويحكم تصبرونا

أزعجتني الأقدار عنهم وقد كذ
وتبدلت خالدا لعنة الله
رجل يقهر اليتيم ولا يؤ
ويصون الثياب والعرض بال
نزع الله منه صالح ما أع
فلعمر المبادرين إلى مكة
إن أضياف خالد وبنيه
وتراهم من غير نسك^(٢) يصومون
يابني خالد دعوه وفروا

وقال الرشيد للفضل بن الربيع : من أهجى المحدثين عندك يا فضل في
عصرنا هذا ؟ قال الذي يقول في ابن عمه :

لو كما ينقص يزداد
خالد لولا أبوه
أنا ما عشت عليه
أن ممن كان مسينا
د إذا نال السمام
كان والكلب سواء
أسوأ الناس ثناء
لحقيق أن يساء

ووفد إلى طاهر بن الحسين يسأله أن يعزل أمير البصرة وكان من قبله فعزله
وأجزل صلته ، فقال :

يا ذا اليمينين قد أقرتني مننا
ولست أستطيع من شكر أجىء به
لو كنت أعرف فوق الشكر منزلة
أخلصتها لك من قلبي مهذبة
تتري^(٣) هي الغاية القصوى من المن
إلا استطاعة ذي روح وذى بدن
أوفى من الشكر عند الله في الثمن
حدوا على مثل ما أوليت من من

وكان أمير البصرة إسماعيل بن سليمان قد أساء مجاورة ابن أبي عيينة حتى
تباعد ما بينهما وقبح ، وأظهر إسماعيل تنقصه وعتبه ، فخرج يشكوه إلى طاهر ، فلما
دخل عليه سأله عن حوائجه وأدناه وأمره برفعها ، فأنشده :

(١) الماعون : المعروف أو كل ما انتفع به .

(٢) النسك : العبادة .

(٣) تتري : متتابعة .

إنى من الله فى مراح غنى
زارتك بى هممة منازعة
وإننى للجميل محتمل
وقد تعلقت منك بالذمم الـ
فإن أنل بغيته فأنت لها
وإن يعق عائق فلست على
فى قدر الله ما أحمله
لم يضق الصبر والفجاج على

ومنتى واسع وفى نعم
إلى العلامن كرائم الهمم
فى القدر من منصبى ومن شيمى
كبرى التى لا تخيب فى الذمم
فى الحق حق الرجاء والرحم
جميل رأى عندى بمتهم
تعويق أمرى فى اللوح والقلم
حر كريم بالصبر معتصم

وكان ابن أبى عيينة قد قصد قبضة بن روح بن حاتم المهلبى واستماعة فلم يجد عنده ما قدره فيه ، فانصرف مغاضبا ، فوجه إليه داود بن يزيد بن حاتم ، فترضاه وبلغ ما أحبه ورضيه من بره ومعنوته ، فقال بمدحه ويهجو قبضة :

أقبيص لست وإن جهدت بمدرك
شتان بينك يا قبيص وبينه
أختار داود ببناء محامد
قد كان مجد أبك لو أحييته
لكن جرى داود جرى مبرز^(١)
داود محمود وأنت مذمم
سعى ابن عمك ذى العلاء داود
إن المذمم ليس كالمحمود
واخترت أكل شبارق وثرید^(٢)
روح أى خلف كمجد يزيد
فحوى المدى وجريت جرى بليد
عجبا لذاك وأنتما من عود

وولى خالد بن حاتم بن قبضة بن المهلب جرجان^(٣) فأمر ابن أبى عيينة أن يصحبه ويخرج معه ووعدته الإحسان والولاية وأوسع له المواعيد وكان ابن أبى عيينة جنديا فجرد اسمه فى جريدته وأخرج رزقه معه ، فلما حصل بجرجان أعطاه رزقه لشهر واحد واقتصر على ذلك وتشاغل عنه وجفاه ، فبلغه أنه قد هجاه وطعن عليه وبسط لسانه فيه وذكره بكل قبيح عند أهله ووجوه رعيتيه ، فلم يقدر على معاقبته لموضع أبيه وسنه ومحلته فى أهله ، فدعا به وقال : إنه قد بلغنى أنك تريد أن تهرب فأما إن أقمت لى كفيلا برزقك أوردته ، فأتاه بكفيل ، فأعنته^(٤) ولم يقبله ولم يزل يردد حتى ضجر ، فجاءه بما قبض من الرزق ، فأخذه ، ولج أبو عيينة فى هجائه وأكثر فيه حتى فضحه فقال فيه :

(١) الشبارق : ما اقتطع من اللحم صغيرا وطبخ .

(٢) المبرز : السابق .

(٣) جرجان : مدينة عظيمة فى الشمال من بلاد الفرس .

(٤) أعنته : أوقعه فى العنت وهو المشقة .

دنيا دعوتك مسرعا فأجيبني
دومي أدم لك بالصفاه على النوى
ومن الدليل على اشتياقي عبرتي
أبكي لإليك إذا الحمامة طربت^(١)
تبكي على فنن الغصون حزينة
وأنا الغريب فلا ألام على البكا
أفلا ينادى للقتول برحلة
مالي اصطفت على التعسف خالدا
تبا لصحبة خالد من صحبة
يا خالد بن قبيصة هيجت به

وبما اصطفتك في الهوى فاثبي
إنى بعهدك واثق فثقي بي
ومشيب رأسى قبل حين مشيب
يا حسن ذلك إلى من تطريب
حزن الحبيبة من فراق حبيب
إن البكا حسن بكل غريب
تشفى جوى من أنفوس وقلوب
والله ما أنسا بعدها بأريب
ولخالد بن يزيد من مصحوب
حرب فدونك فاصطبر لحروبي

البحترى

هو الوليد بن عبيد الله بن يحيى البحتري الطائى من بحتري بن نتود ثم من
طىء ، ويكنى أبا عبادة ، وهو كما يقول أبو الفرج : شاعر فاضل حسن المذهب نقي
الكلام مطبوع ، كان مشايخنا رحمة الله عليهم يختمون به الشعراء ؛ وله تصرف حسن
فاضل نقي فى ضروب الشعر سوى الهجاء فإن بضاعته فيه نزرة ، وجيده منه قليل ،
وكان ابنه أو الغوث يزعم أن السبب فى قلة بضاعته فى هذا الفن أنه لما حضره
الموت دعا به وقال له : اجمع كل شىء قلته فى الهجاء ، ففعل ، فأمره بإحراقه ثم
قال له : يا بنى هذا شىء قلته فى وقت فشفيت به غيظى وكافأت به قبيحا فعل بى ،
وقد انقضى أربى فى ذلك ، وإن بقى روى ، وللناس أعقاب يورثونهم العداوة
والمودة ، وأخشى أن يعود عليك من هذا شىء فى نفسك ومعاشك لا فائدة لك ولا
لى منه ، قال : فعلمت أنه قد نصحنى وأشفق على فأحرقته ، والذى وجدناه وبقى
فى أيدي الناس من هجائه فأكثره ساقط لا يشاكل طبعه ولا يليق بمذهبه وتنبىء
بركاكها وغثاثة ألفاظها عن قلة حظه فى الهجاء ، وكان البحتري يتشبه بأبى تمام فى
شعره ويحذو مذهبه وينحو نحوه فى البديع الذى كان أبو تمام يستعمله ، ويراه
رائدا وإماما ويقدمه على نفسه ، ويقول فى الفرق بينه وبينه قول منصف : إن جيد
أبى تمام خير من جيده ووسطه خير من وسط أبى تمام وردينة ؛ وكذا حكم هو على
نفسه .

(١) طرب صوته : مده ورجعه وحسنه .

وحدث البحترى قال : قال أبو تمام : بلغنى أن بنى حميد أعطوك مالا جليلا فيما مدحتهم به فأنشدنى ، فأنشده بعض ما قلته فيهم ، فقال لى : كم أعطوك ؟ فقلت : كذا وكذا ، فقال : ظلموك ، والله ما وفوك حقا ، فلم أستكثر ما دفعوه إليك ، والله لبيت منها خير مما أخذت ، ثم قال : لعمري لقد استكثرت واستكثر لك لما ومات الناس وذهب الكرام وفاضت المكارم ، فكسدت سوق الأدب ، أنت والله يا بنى أمير الشعراء غدا بعدى ! فقلت فقبلت رأسه ويديه ورجليه وقلت له : والله لهذا القول أسر لقلبي وأقوى لنفسي مما وصل إلى من القوم .

وكان البحترى من أبغض الناس إنشادا ، يتشادق ويتزاور فى مشيه : مرة جانبا ومرة القهقرى ، ويهز برأسه مرة وبمنكبىة أخرى ، ويشير بكمه ويقف عند كل بيت ويقول : أحسنت والله ! ثم يقبل على المستمعين فيقول : ما لكم لا تقولون أحسنت ؟ هذا والله ما لا يحسن أحد أن يقول مثله ! وقال الوليد بن عبيد الله البحترى : كنت فى حدائتى أروم الشعر وأرجع فيه إلى طبعى ، ولم أكن أقف على تسهيل مأخذه حتى قصدت أبا تمام ، انقطعت فيه إليه ، واتكلت فى تعريفه عليه . فقال له : تخير الأوقات وأنت قليل الهموم ، صفر من الغموم ، وأحسن الأوقات لتأليف شىء أو حفظه وقت السحر ، لأن النفس تكون قد أخذت حظها من الراحة ، وقسطها من النوم . فإن أردت النسيب فأجعل اللفظ رقيقا ، والمعنى رشيقا ، وأكثر فيه من بيان الصباية ، وتوجع الكآبة ، وقلق الأشواق ، ولوعة الفراق ، وإذا أخذت فى مديح سيد ذى أياذ ، فاشهر مناقبه ، وأظهر مناسبه وأبن معالمه وشرف مقامه ونضد المعانى ، واحذر المجهول منها ، وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ الزرية ، وكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجسام ، وإذا عارضك الضجر فأرح نفسك ، ولا تعمل إلا وأنت فارغ القلب ، واجعل شهوتك لقول الشعر الذريعة إلى نظمه ، فإن الشهوة نعم المعين : وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سلفك من شعر الماضين . فما استحسنته العلماء فاقصده ، وما تركوه فاجتنبه ، ترشد إن شاء الله .

وقال له أبو تمام يوما وقد سمع شعره وأعجب به :

نعيت والله إلى نفسى ، فقال : أعيدك بالله من هذا القول ، فقال : إن عمري لن يطول وقد نشأ فى طىء مثلك ، أما علمت أن خالد بن صفوان رأى شبيب بن شبة وهو من رهطه يتكلم فقال : يا بنى ، لقد نعى إلى نفسى إحسانك فى كلامك ، لأننا من أهل بيت ما نشأ فينا خطيب قط إلا مات من قبله ، فقال : بل بيقك الله ويجعلنى فداءك ، ومات أبو تمام بعد سنة .

وقال عبد الله بن حسين بن سعد وقد أنشد البحترى شعرا لنفسه ولقد كان أبو تمام قال فى مثله - أنت والله أشعر من أبى تمام فى هذا الشعر ، فقال : كلا والله ، إن أبأ تمام للرئيس والأستاذ ، والله ما أكلت الخبز إلا به ، فقال له المبرد : لله درك يا أبأ الحسن فإنك تأبى إلا شرفا من جميع جوانبك ! وقيل للبحترى : إن الناس يزعمون أنك أشعر من أبى تمام ، فقال : والله ما ينفنى هذا القول ولا يضر أبأ تمام ، والله ما أكلت الخبز إلا به ولوددت أن الأمر كما قالوا ، ولكنى والله تابع له أخذ منه لائد به ، نسيمى يركد عند هوانه ، وأرضى تنخفض عند سمائه .. وقال البحترى : كان أول أمرى فى الشعر ونباهتى أن صرت إلى أبى تمام وهو بحمص ، فعرضت عليه شعرى ، وكان الشعراء يعرضون عليه أشعارهم ، فأقبل على وترك سائر من حضر ، فلما تفرقوا قال لى : أنت أشعر من أنشدنى ، فكيف بالله حالك ؟ فشكوت خلة ، فكتب إلى أهل معرة^(١) النعمان وشهد لى بالحدق فى الشعر وشفع لى إليهم ، وقال : امتدحهم ، فصرت إليهم ، فأكرمونى بكتابه ووظفوا لى أربعة آلاف درهم ، فكان أول ما أصبته ، وكانت نسخة كتاب أبى تمام : " يصل كتابى هذا على يد الوليد بن عبادة الطائى وهو على بذاذته^(٢) شاعر فأكرموه " .

قال البحترى : أول ما رأيت أبأ تمام أنى دخلت على أبى السعيد محمد ابن يوسف وقد مدحته بقصيدتى :
أفاق صب من هوى فأفيا أم خان عهدا أم أطاع شفيا

قسر بها أبو سعيد وقال : أحسنت والله يا فتى وأجدت ، وكان فى مجلسه رجل نبيل رفيع المجلس فوق من حضر عنده تكاد تمس ركبته ركبته ، فأقبل على وقال : يا فتى ، أما تستحى منى ؟ هذا شعر لى تنتحله وتنشده بحضرتى ، فقال له أبو سعيد : أحقا تقول ؟ قال : نعم ، وإنما علقه منى فسبقنى به إليك وزاد فيه ، ثم اندفع فأنشد أكثر القصيدة حتى شككنى علم الله فى نفسى وبقيت متحيرا ، فأقبل على أبو سعيد فقال : يا فتى ، قد كان فى قرابتك وودك لنا ما يغنيك عن هذا ، فجعلت أحلف له بكل محرجة الأيمان أن الشعر لى ما سبقنى إليه أحد ولا سمعته منه ولا انتحلته ، فلم ينفذ ذلك شيئا ، وأطرق أبو سعيد وفضع بى حتى تمنيت أنى سخت فى الأرض ، فقمت منكسر البال أجر رجلى ، فخرجت ، فما هو إلا أن بلغت الدار حتى خرج الغلمان فردونى ، فأقبل على الرجل فقال : الشعر لك يا بنى ، والله ما قلته ولا سمعته

(١) معرة : مدينة بين حلب وحماة . كان منها أبو العلاء أحمد بن عبد الله المعرى .

(٢) البذاذة : سوء الحال .

إلا منك ، ولكنني ظننت أنك تهاونت موضعي فأقدمت على الإنشاد بحضرتي من غير معرفة كانت بيننا تريد بذلك مضاهاتي وتكاثرتي حتى عرفني الأمير نسبك وموضعك ، ولو ددت ألا تلد أبدا طائية إلا مثلك ، وجعل أبو سعيد يضحك ، ودعاني أبو تمام وضمني إليه وعانقني وأقبل يقرظني ولزمته بعد ذلك وأخذت عنه واقتديت به . ثم حظى البحترى بأبي سعيد وكان مداحا له طول أيامه ولابنه بعده ورثاهما بعد مقتلهما فأجاد ، ومراثيه فيهما أجود من مدائحه : وروى أنه قيل له في ذلك . فقال : من تمام الوفاء أن تفضل المراثي المدائح ، لا كما قال الآخر ، وقد سئل عن ضعف مراثيه ، فقال : كنا نعمل للرجاء ونحن اليوم نعمل للوفاء وبينهما بعد ، وكان البحترى من أوسخ خلق الله ثوبا وآلة وأبخلهم على كل شيء ، وكان له أخ و غلام معه في داره ، فكان يقتلها جوعا فإذا بلغ منهما الجوع أتياه يبكيان ، فيرمي إليهما بثمرن أقواتهما مضيقا مقترا ويقول : كلا أجاج الله أكبادكما ، وأطال إجهادكما .

وقد توارد البحترى والشريف الرضي على ذكر الذئب في قصيدة للبحترى

دالية أولها :

سلام عليكم لا وفاء ولا عهد أما لكم من هجر أحببكم بد

ومقطوعة للشريف الرضي أولها :

وعارى الشوى والمنكبين من الطوى أتيج له بالليل عارى الأشاجع

وقد أجاد البحترى في وصف حاله مع الذئب ، وأجاد الشريف في وصف

الذئب نفسه :

وقصيدة البحترى طويلة ومنها :

وأطلس ملء العين يحمل زوره له ذئب مثل الرشاء يجره
طواد الطوى حتى استمر مريره يقضض عصلا في أسرتها الردى
سما لى وبى من شدة الجوع ما به كلانا بها ذئب يحدث نفسه
عوى ثم ألقى فارتجزت فهجته فأوجرته خرقاء تحسب ريشها
فما ازداد إلا جرأة وصرامة فأتبعتها أخرى فأضلت نصلها

وأضلاعه من جانبه شوى نهد ومتن كمتن القوس أعوج منأد
فما فيه إلا العظم والروح والجلد كقضضة المقرور أرعده البرد
بيداء لم تعرف لها عيشة رغد بصاحبه والجد يتعسه الجد
فأقبل مثل البرق يتبعه الرعد على كوكب ينقض والليل مسود
وأيقنت أن الأمر منه هو الجد بحيث يكون اللب والرعب والحد

فخر وقد أوردته منهل الردى
وقمت فجمعت الحصى فاشتويته
ونلت خسيما من ثم تركته

على ظمأ لو أنه عذب الورد
عليه وللرمضاء من تحته وقد
وأقلعت عنه وهو منعفر فرد

أما قصيدة الشريف الرضى في وصف الذئب ، فهي :

وعارى الشوى والمنكبين من الطوى
أغيبر مقطوع من الليل ثوبه
إذا جن ليل طارد النوم طرفه
يراوح بين الناظرين إذا التقت
له خطفة حذاء من كل ثلة
ألم وقد كاد الظالم تقضيا
طوى نفسه وانساب فى شملة الدجى
إذا فات شىء سمعه دل أنفه
تظالع حتى حك الأرض زوره
إذا غالبت إحدى الفرائس خطمه
جرىء يسوم النفس كل عزيمة
إذا حافظ الاعى على الضان غره
يخادعه مستهزنا بسلحاضه
ولما عوى والرمل بينى وبينه
تأوب والظلماء تضرب وجهه
له الويل من مستطعم عاد طمعة

أتيح له بالليل عارى الأشاجع
أنيس بأطراف البلاد البلاقع
ونص هدى الحاضه بالمطامع
على النوم أطباق العيون الهوامج
كنشطة أقنى ينفض الطل واقع
يشرد فراط النجوم الطوالع
وكل امرىء ينفاد طوع المطامع
وإن فات عينيه رأى بالمسامع
وراغ وقد روعته غيب ظالع
تداركها مستنجداً بالأقارع
ويمضى إذا لم يمض من لم يدافع
خفى السرى لا يتقى بالطلاق
خداع ابن ظلماء كثير الوقائع
تيقن صحبى أنه غير راجع
إلينا بأذيال الرياح الزعازع
لقوم عجال بالقسى النوازع

ويكاد يكون من المجمع عليه أنه لم يأت بعد البحترى من هو أطبع منه
على الشعر ولا أبداع للخيال الشعرى . قال له يوما أبو تمام أنت والله يابنى أمير
الشعراء غدا بعدى و سئل هو عن أبى تمام فقال : جیده خير من جیدی وردینى
خير من ردينه ، وسئل المعرى عن أبى تمام وأبى الطيب فقال المتنبى وأبو تمام
حكيمان ، وإنما الشاعر البحترى ، وقد نشأ البحترى فى بلاد أشبه بالبندو منها بالحضر
ينزلها كثيرا من بطون طى وقضاة وتغلب و ولم تكن ألسنتهم فسدت بعد فتخرج
عليهم مطبوعا على فصاحتهم وسهولة أساليبهم ، ولم يؤثر عنه أنه جلس إلى درس
العلماء ولازم المتفلسفة ، فابتعد بذلك عن مذاهب الحاضرين وتعمقهم وفلسفتهم
فكان شعره كله حسن الدباجة ، صقيل اللفظ ، سلس الأسلوب ، ينحدر إلى الأسماع
انحدار السيل إلى القاع ، وقلت فيه المعانى المعقدة العويصة التى تنشأ عن تراجم
العلوم العقلية فى ذهن المعبر عنها ، كما كان يقع من أبى تمام والمتنبى والمعرى ،
فسهل فهم شعره على جميع طبقات الناس من الخاصة والعامة ، وتغنى به الغلمان
والجواري والقيان .

وبذلك الشعر كان البحترى محبوبا للناس قليل الخصوم منهم عامة حياته ،
واتفق أن خالف طريقته السمحة في قصيدة يقول فيها يصف الدنيا :

أخى متى خاصمت نفسك فاحتشد
أرى علل الأشياء شتى ولا أرى التـ
أرى العيش ظلا توشك الشمس نقله
أرى الدهر غولا للنفوس وإنما
فلا تتبع الماضى سؤالك لم مضى
ولم أر كالدنيا حليلة صاحب
تراها عيناها وهى صنعة واحد
لها ومتى حدثت نفسك فاصدق
— جمع إلا عللة للـتفرق
فكس فى ابتغاء الرزق كيسك أو مق
بقى الله فى بعض المواطن من بقى
وعرج على الباقي فسائله لم بقى
محب متى تحسن بعينيه تطلق
فتحسبها صنعى لطيف وأخرق

فأوهم بيته الأخير المناقضة فى أفعال الخالق الحكيم المنزه عن الحكمة
حتى ليحسب الناظر فى أحوال الدنيا أنها من خلق اثنين أحدهما حكيم يؤثر الخير
والأصلح فى صنعه والآخر أخرق يؤثر الفساد والشر ، وهذا ما يشبه عقيدة المجوس
القائلين بالهين للعالم إله خير وإله شر ، فأول حساده البيت بهذا المعنى ، فأشاعوه
فى العامة من الحنابلة وكانت غالبية على بغداد ، فخاف على نفسه وقال لابنه أبى
الغوث قم يا بنى حتى نطفىء هذه النائرة بخرجة نلم فيها ببلدنا ونعود ، فخرج ولم
يعد .

وللبحترى تصرف حسن فاضل نقى فى صنوف الشعر سوى الهجاء ، فإن
بضاعته فيه نزره ، وجيده فيه قليل ، وأهم ما اشتهر به البحترى من الأغراض النسيب
والمدح والوصف .. ومن شعره فى الغزل قوله :

حبيبى حبيب يكتم الناس أنه
يباعدنى فى الملتقى وفوائده
ويعرض عنى والهوى منه مقبل
فتنطق منا أعين حين نلتقى
لنا - حين تلقانا العيون - حبيب
- وإن هو أبدى لى البعاد - قريب
إذا خاف عينا أو أشار رقيب
وتخرس منا ألسن وقلوب

وقال فى المدح :

دنوت تواضعا وعلوت مجدا
كذاك الشمس تبعد أن تسامى
فشأنك انحدار وارتفاع
ويدنو الضوء منها والشعاع

وقوله فى الحكمة :

إذا ما نسبت الحادثات وجدتها
متى أرت الدنيا نباهة خامل
بنات زمان أرصدت لبنيه
فلا ترتقب الا خمول نبيه

ابن الرومي

٢٢١ - ٢٨٣ هـ ، ٨٣٥ - ٨٩٦ م

حياته وشاعريته :

ابن الرومي شاعر مجيد ، وعلم من أعلام القريض في القرن الثالث الهجري ، ويعد في الطبقة الثالثة من شعراء المحدثين ، وهي الطبقة التي كانت من أبطالها أبو تمام والبحتري وابن المعتز ، وورثت مجد الشعر بعد طبقة أبي نواس ، وكان لها منهجها الأدبي الخاص ، الذي يقوم على العناية بالصنعة الشعرية ، وعلى توليد المعاني وعمق الخيال .. ولد أبو الحسن علي بن العباس بن جريح الرومي عام ٢٢١ هـ من أبوين مختلفي الأرومة ، فأمه تنحدر من عنصر فارسي ، وأبوه^(١) ينحدر من عنصر رومي كان يحتفظ بطبيعته الشاعرية ويعتز به طول حياته وكان مولى لحفيد من أحفاد الخليفة أبي جعفر المنصور ، وولد في بغداد في دار بازاء قصر مولاه ، ومات والده في طفولة الشاعر . فنشأ في ظلال والدته وأخيه الأكبر يعيش هو وأسرته على مال ضئيل خلفه لهم أبوه ، وأخذ يتزود بقسط من ثقافة عصره ، فلم يلبث أن أحاط بكل ما يمكن أن يحاط به من العلوم والآداب ، ونبغ في الشعر ونظم القريض وطارت شهرته في سماء بغداد ، ولكن هذه الشهرة لم تنفعه ، كان فقيرا يريد أن يعيش ، وجائعا يريد أن يأكل ، وظمآن يريد أن يروي ، وخلق الثياب يبحث عما يلبسه ، وقصد بشعره رجالات الدولة في عصره مادحا فحرموه العطاء ، فعاش ساخطا على الحياة والأحياء .

في دولتي أنا منصوب وفي زمني عودي ظمىء بلا ري ولا بلبل

كان شابا جميلا قوى الملكات ، مزودا بشتى ألوان الثقافة ، فلم يغنه ذلك شيئا في حياته ، وكان يسمع ويرى حياة الترف التي يحياها في عصره كثير من الناس ، فتمنى لنفسه حظا من النعمة ، فلم يحظ بطائل ، وهو الشاب الذي ذاق ألم اليتيم والشاعر المرهف الإحساس فاشتد سخطه على الناس ، وأمطرهم وابلا من أهاجيه التي بغضته إلى الناس ، وزادت من آلامه في الحياة .

^١ له شعر رواه ابنه ابن الرومي (١:١٣١ ديوان المعاني)

كان أبو الحسن علي بن العباس إذن مزيجاً من الدم الفارسي والرومي يعتز
بإنتمائه للروم اعتزازه بانتسابه إلى الفرس :
كيف أغضى على الدنيا والفرس
س خوولي والروم هم أعمامي

نرح أجداد الشاعر إلى بغداد عاصمة الدولة العباسية إبان نشأتها ، فأقاموا بها
مع مواليتهم بني العباس ، وكان ابن الرومي كأجداده وآبائه مولى من موالى
العباسيين له بهذا الولاء اعتزاز :
مولاهم وغذى نعمتهم
والروم حين تنصني أصلي

ونشأ في كنف أخيه محمد بن العباس ، وفي ظلال مواليه ، لم يكن محمد
ابن العباس صاحب ثروة ، ولا ذا جاه ، إنما كان أديباً يكتب لولاة بني العباس
وقوادهم ، فعاش ابن الرومي اليتيم يرفل في عطفه وبره ونعمته .. ثم دار الزمن
دورته . فإذا الطفل شاب عريض الخيال ، طويل الآمال ، لكن اليتيم قد هاض
جناحه . وراض جماحه ، فاعتصم الشاب الصغير بالأمانى العذاب ، وأقبل على
حلقات العلم ومجامع الأدب ، يطفىء هم غلته ، ويرضى بالإقبال عليهما همته ،
ويجد فيهم قبساً من الأمل الباسم والمستقبل المرموق ، جميل السلوى والعزاء ..
الدولة دولة العباسيين وأصفيائهم من الموالى ، الذين سعدوا بالعلم والأدب إلى
ذروة المجد والجاه ، وهذا ابن الرومي يتسلح بالعلم والأدب ، ليدرك بهما ما أدرك
أفذاذ المولى من عزة ورفعة ، وعكف الشاب الطموح على الدرس والتحصيل ،
فغذى عقله وروحه بالثقافات العربية والفارسية واليونانية ، وقرأ ما ترجم من لغة
الفرس واليونان ، وما ألف في شتى العلوم والمعارف ، حتى برع في كل فن ونبغ
في كل علم ، وبذ أتراه في ميدان اللغة وأدبها ، كما حصل علوم الفلسفة والفلك
والكلام ، وكما كان شاعراً كان كاتباً صاحب رسائل ، ومفكراً ينفذ فكره إلى كل شيء
. وعالماً يشار له في علوم اللغة والأدب بالبنان .

وظل ابن الرومي ينهل من معين الثقافة العذب شاباً ورجلاً وكهلاً ، تساعده على ذلك
ذاكرة قوية وذهن خص وعبقريّة نادرة ، وإحساس عميق ، وأخذت شهرة ابن الرومي
الأدبية تطفئ على جوانب شخصيته الأخرى ، وأصبح ابن الرومي الشاعر في رأى
المنصف إلى قمة المجد والنبوغ .. ولكن الأحداث لم تهادن الشاعر ، فرزىء وهو
في الثلاثين بوفاة أخيه ، فحزن عليه ورثاه بشعره ، ثم رزىء بوفاة أولاده واحداً بعد
واحد . فجزع عليهم ورثاهم ، ثم توفيت زوجته بعدهم ، فأمضه الحزن ، وبعد ذلك
ماتت أمه . فذابت نفسه حسرات ، وفاضت عينه عبرات :

رجعنا وأفردناك غير فريدة
فلا تعدمي أنس المحل فطالما
نبا ناظري يا أم عن كل منظر
وأصبحت الآمال مذنبت والمنى
من البر والمعروف والخير والكرم
عكفت ثأنت المحاريب في الظلم
وسمعي عن الأصوات بعدك والنغم
غوادر عندي غير وافية الذمم

وقضى ابن الرومي أيامه في بغداد ، ظاهر البؤس ، كثير لألم والشكوى ،
يطلب الحياة فلا تلبى نداءه الحياة ، ولا تذوب لشكاته نفوس أهل المروءة
والأريحية ، ولما نبا به حظه في بغداد هجرها ، وطاف ببعض المدن ينشد فيها الأمل
الضائع ، بيد أنه لم يعثر فيها على أمانيه المنشودة ، فعاد إلى بغداد مشوقا إليها ،
مشوقة إليه :

بلد صحبت به الشيبه والصبأ
فإذا تمثل في الضمير رأيته
وليس ثوب العمر وهو جديد
وعليه أغصان الشباب تميد

وقنع برزقه الضيق . وحياته الشقية . كارها الغربة والسفر :
أذاقتني الأسفار ما كره الغنى
فأصبحت في الإثراء أزهد زاهد
لقيت من البر التباريح بعدها
إلى وأغراني برفض المطالب
وإن كنت في الإثراء أرغب راغب
لقيت من البحر ابيضاض الذوائب

ومدح آل وهب وآل طاهر ينشد الثراء والجاه ، ولكنه لم ينل منالا ، حتى
إذا وهن عظمه وناء بأحداث الزمن الجائر ، أخذ يذكر الشباب في لوعة وأسى :
وعزاك عن ليل الشباب معاشر
أأيام لهوى هل مواضيك عود
فقالوا : نهار الشيب أهجى وأرشد
وهل لشباب ضل بالأمس منشد ؟

ولكن هيهات أن يعود الشباب .. وأخيرا مات الشاعر . سمه أحد أتباع القاسم
بن عبد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتضد ، فسكنت النفس الشاعرة ، وصممت
العبقرية الصادحة ، وأوى شهيد الآمال إلى جدث أوت إليه معه العبقرية ورفت عليه
العظمة وجلال الذكريات .

هذا هو ابن الرومي : يتيما حائرا ، وشابا معدبا ، ورجلا طامحا شقيا بطموحه
وشيخا خاصمته الأيام ، وحالفته الآلام ، وذلك هو الشاعر : متعلما يقبل على الدرس
والتحصيل ، عالما متعمقا في فروع الثقافة والمعرفة ، وشاعرا ذاع صيته في بغداد ،
وكاتبا يبذ الكتاب والأدباء .

وقد عاصر ابن الرومي المعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي والمعتضد وتوفي في عهد المعتضد عام ٢٨٣ هـ... واشتهر ابن الرومي في عصره بالتشاؤم والطيرة، وتروى له في طيرته قصص كثيرة، وينطق شعره بتشاؤمه في الحياة، وأفرط الشاعر في تشاؤمه ففتح ذلك بابا لطيرته لم يسده عليه إلا الموت، فتطير من كل شيء، حتى من الأسماء، ومن ركوب الماء، بل حتى من شربه:

وأخى الردى منه على كل شارب فكيف بأمنيه على نفس راكب

وليس بدعا من ابن الرومي هذه الطيرة، فقد نزلت به خطوب فادحة، أضلت صوابه، فسكن إلى هواجس النفس، ووساوس الشعور.. وكان ابن الرومي حاد المزاج، مرهف الشعور، كثير الطيرة..

روى علي بن إبراهيم قال: كنت بداري جالسا^(١) فإذا حجارة سقطت بالقرب مني فبادرت هاربا، وأمرت الغلام بالصعود إلى السطح، والنظر إلى كل ناحية من أين تأتينا الحجارة؟ فرجع إلى وقال لي: امرأة من دار ابن الرومي الشاعر قد تشوقت^(٢)، وقالت: اتقوا الله فينا، واسقونا جرة من ماء وإلا هلكنا، فقد مات من عندنا عطشا فتقدمت إلى امرأة عندنا ذات عقل ومعرفة أن تصعد إليها وتخاطبها، ففعلت وبادرت بالجرة، واتبعتها شيئا من الطعام، ثم عادت إلى فقالت: ذكرت المرأة أن الباب عليها مقفل منذ ثلاثة أيام بسبب تطير ابن الرومي، وذلك أنه يلبس ثيابه كل يوم ويتعوذ، ثم يصير إلى الباب، والمفتاح معه، فيضع عينه على ثقب في خشب الباب، فتقع على جاره له كان نازلا بإزائه؛ وكان أحذب يقعد كل يوم على بابه، فإذا نظر إليه رجع، وخلع ثيابه، وقال: لا يفتح أحد الباب!

فعجبت لحديثها وبعثت خادما لي كان يعرفه، فأمرته أن يجلس بإزائه - وكانت العين تميل إليه - وتقدمت إلى بعض أعواني أن يدعو الجار الأحذب، فلما حضر عندي أرسلت وراء غلامي لينهض إلى ابن الرومي ويستدعيه، فإني لجالس ومعى الأحذب، إذ وافى أبو حذيفة الطرسوسي ومعه بردعة الموسوس، صاحب المعتضد، ودخل ابن الرومي، فلما تخطى عتبة باب الصحن عثر فانقطع

(١) زهر الآداب ص ١٧٧ ج ٢ - ذيل زهر الآداب ص ٢٤٣ - معجم الأدباء ص ٢٩٦ ج ١٣ .

(٢) تشوقت: نظرت وتناولت .

شع^(١) نعله، فدخل مدعورا! وكان إذا فاجأه الناظر رأى منه منظرا يدل على تغير حاله، فدخل وهو لا يرى جاره المتطير منه، فقلت له: يا أبا الحسن، أياكون شيء في خروجك أحسن من مخاطبتك للخادم ونظرك إلى وجهه الجميل؟ فقال: قد لحقني ما رأيت من العثرة لأنى فكرت أن به عاهة! وهى قطع أنثيه^(٢)، قال بردعة: وشيخنا يتطير؟ قلت: نعم ويفرط! قال: ومن هو؟ قلت: على بن العباس^(٣)، قال الشاعر؟ قلت: نعم! فأقبل عليه وأنشده:

ولما رأيت الدهر يؤذن صرفه
رجعت إلى نفسى فوطنتها على
ومن صحب الدنيا على جور حكمها
فخذ خلسة من كل يوم تعيشه
ودع عنك ذكر الفأل والزجر واط
بتفريق بينى وبين الحبايب^(٤)
ركوب جميل الصبر على النوائب
فأيامه محفوفة بالمصائب
وكن حذرا من كامنات العواقب
سرح تطير جار أو تفاؤل صاحب!

فبقى ابن الرومى باهتا ينظر إليه! ولم أدر أنه قد شغل قلبه بحفظ ما أنشده، ثم نهض أبو حذيفة وبردعة معه.

فحلف ابن الرومى لا يتطير أبدا من هذا ولا من غيره، وعجب من جودة الشعر ومعناه، وحسن مآناه، قلت له: ليتنا كتبناه؟! قال: اكتبه فقد حفظته وأملاه على.

شاعريته وخصائصها:

كان للدم الرومى وأثر الوراثة ولحياة الشاعر وبؤسه وثقافته وبيئته ولمشاعره المرهفة ووجدانه الرقيق، كان لذلك كله أثره البعيد فى شاعرية الشاعر وفنه الأدبى الذى كان صورة مكبرة لكل ألوان هذه الحياة، اجتمعت له دقة الملاحظة والإحساس وعمق الشعور بالمنتقصات فى نفسه وفى زمنه، فولدت فى نفسه روح السخرية، وأشاعت فى فنه هذا اللون الجيد من ألوان الشعر والشعور، وهو فن الهجاء الذى امتاز به الشاعر وأجاده حتى حين يهجو من لم يؤذ به شيء، كما يقول بهجو مغنيا من قصيدة طويلة:

(١) الشع: أحد سيور النعل وهو الذى يدخل بين الأصبعين ويدخل طرفه فى الثقب الذى فى صدر النعل المشدود فى الزمام.

(٢) يعنى أنه محبوب.

(٣) هو اسم ابن الرومى.

(٤) الحبايب: مفردة حبيبة.

فأنها نعمة من النعم
وعرس الهموم والسدم
أشرب كأسى ممزوجة بدمى
تنادموا كأسهم على الندم

وعمم لا عدمت فرقته
مجلسه ماتم اللذات والقصف
وكاننى من طول ما أشاهده
إذا السندامى دعوة آونة

وكان لبؤسه فى الحياة وفقده كثيرا من الأجزاء أثر واضح فى إجادته فن
الرتاء ودالته فى رثاء ابنه من أجود قصائد الرثاء ومطلعها :
وبكاؤ كما يشفى وإن كان لا يجدى فجودا فقد أودى نظير كما عندى

وكذلك جيميته فى رثاء يحيى العلوى الذى قتل عام ٢٥٠ هـ ، وميميته فى
رثاء البصرة حين ضربها الزنج عام ٢٥٧ هـ ^(١) .. وشغف قلب ابن الرومى بالحياة .
وتطلعه إلى متعها ولذاتها ، وحياته فى مظاهر الحضارة التى كانت تنمر عصره .
وأثر الوراثة فى نفسه . كل هذا جعله من أعظم الوصافين فى الشعر العربى .
وقصيدته فى وحيد المغنية مثل من أمثلة هذه الإجادة ويقول منها :

ففؤادى بها معنى عميد
ومن الظبى مقلتان وجيد
فشقى بحسنها وسعيد
من سكون الأوصال وهى تميد
كأنفاس عاشقها مديد
مستلذ بسبيطة والنشيد
مالها فيهما جميعا نديد
ولها كل ساعة تجديد
عتاد لما يحب عتيد

ياخلى تيمتنى وحيد
غادة زانها من الغصن قد
تتجلى للناظرين إليها
تتعنى كأنها لا تغنى
مد فى شأ صوتها نفس كاف
فتراه يموت طورا ويحيا
خلقت فتينة غناء وحسنا
هى شىء لا تسأم العين منه
منظر مسمع معان من الهو

ومن وصفه كذلك :

عاطفات على بنيتها حوانى
مرضعات ولسن ذات لبان
بين عود ومزهر وكران
وهو بادی الغنى عن الترجمان

وقيان كأنها أمهات
مطفلات وما حملن جينا
كل عود يدعى بأسماء شتى
أمه دهرها تترجم عنه

شغلها عنه بالدموع السجام
طريقان شتى : مستقيم وأعوج

^(١) إذاد عن مقلتى لذيد المنام
. أعماك فانظر أى نهجك تنهج

إلى غير ذلك من روائع قصائده في الوصف والتصوير . كما أجاد في وصف
الخمير ، وفي وصف الأخلاق والعواطف ، ويبلغ في العتاب الغاية في الجودة ، كما
في قصيدته في عتاب أبي القاسم الشطرنجي . التي مطلعها :

يا أخي أين عهد ذاك اللقاء أين ما كان بيننا من صفاء

وله آيات في المدح تحوز الإحسان والإجادة ، ومنها نونيته في أبي الصقر ،
ومطلعها :

أجنت لك الوجد أغصان وكشبان فيهن نوعان تفاح وورمان

ويقول فيها :

قالوا أبو الصقر من شبان قلت لهم كلا لعمرى ولكن منه شبان
وكم أب قد علا بابن ذرى شرف كما علت برسول الله عدنان

ويمتاز ابن الرومي بتفضيله المعنى على اللفظ كما كان المتنبي ، فهو
يطلب صحة المعنى ولا يبالي حيث وقع من هجونه اللفظ وخشونته ، كما يقول ابن
رشيق^(١) .. كان بديع المعاني بعيدها ، كثير الاختراع والتوليد فيها ، والاستقصاء لها لا
يترك فيها بقية لغيره ، والقدرة التامة في تشويق المعاني وتفصيلها هي أخص خصائص
شاعرية ابن الرومي ، ويقول ابن رشيق فيه : " إنه أكثر الشعراء اختراعا للمعاني " ، أما
أسلوبه جمع بين الحديث والردىء وروح الصنعة ظاهرة فيه ، وإن كانت في شعر
أقل منها في شعر ابن المعتز ، لم يكن ابن الرومي يعنى بتهديب شعره وتنقيحه ، ولو
أسقط رديئه لكان في ذلك أجود الشعراء ، وفي الغالب أن شعراء المعاني كأبن
الرومي وأبي تمام قلما تنهض ألفاظهم بأداء معانيهم ، وقد كان ابن الرومي لا يحفل
باللفظ إلا بقدر أداء المعنى ، وتمتاز قصائده بطول النفس مما لا يجاريه فيه إلا ابن
هانيء الأندلسي ، وقد ساعده على الإطالة أسلوبه الخاص في تناول كل معنى في
معانيه بالإفاضة والشرح ، وتقليبه على كل نواحيه ، كما تمتاز قصائده بالانسجام
والوحدة في تأليفها ، حتى لكأنها قطعة واحدة مؤلفة تأليفا منطقيا لا عوج فيها ولا
ضعف ولا استطراد ، وخياله خيال يقظ . حسي في غالب شعره ، يترك الحس إلى
عالم عقله أحيانا ، أوتى ملكة التصوير ولطف التخيل ، وبراعة اللعب بالمعاني
والأشكال .

(١) ١/٨٢١ العدد .

ولا تكاد تجد شاعرا اختلف النقاد في منزلته الأدبية مثل ابن الرومي . أهمله صاحب الأغاني إهمالا يعلله بعض بالخصومات الأدبية التي كانت بين ابن الرومي والأخفش أستاذ أبي الفرج . ويعلله آخر بأن ابن الرومي كان شعوبيا وأبا الفرج أمويا ، وقال آخرون : إن روح السخط على ابن الرومي كانت لا تزال متأججة اللهب . لأهاجيه في رجالات الدولة ، وأعلله أن أبا الفرج لم يرتض مذهب ابن الرومي في الشعر ، ونهجه في نظم القريض ، ويقول القاضي الجرجاني عنه في وساطته : " وقد نجد كثيرا ينتحل تفضيل ابن الرومي ، ويغلو في تقديمه . ونحن نقرأ القصيدة الوحيدة في شعره ، وهي قد تناهز المائة أو تزيد ، فلا نعثر فيها إلا بالبيت الذي يروق أو البيتين ، ثم قد تنسلخ قصائده منه ، وهي واقفة تحت ظلها جارية على رسلها^(١) ، لا يحصل منها السامع إلا على عدد القوافي ، وانتظار الفراغ منها^(٢) ، ويقول ابن رشيقي في عمدته : " وأما ابن الرومي فأولى الناس باسم شاعر ، لكثرة اختراعه ، وحسن افتتانه ، وقد غلب عليه الهجاء^(٣) " ، ويقول ابن الشريف القيرواني فيه : " وابن الرومي شجرة الاختراع ، وثمره الابتداع ، وله في الهجاء ، ما ليس له في الإطرا . ولقد كان واسع العطن ولطيف الفطن^(٤) " ، ويقول المعري عنه في رسائل الغفران : " وابن الرومي أحد من يقال إن أدبه أكثر من عقله ، وكان يتعاطى علم الفلسفة^(٥) " ، ويقول فيه ابن خلكان : " هو صاحب النظم العجيب ، والتوليد الغريب ، يغوص على المعاني النادرة فيستخرجها من مكانها ، ويبزها في أحسن صورها . ولا يترك المعنى حتى يستوعبه إلى آخره ، ولا يبقى فيه بقية " ، ويقول المسعودي فيه : " كان من مختلقي الشعر ؛ والمجودين في القصير والطويل ، وكان الشعر أقل أدواته " ، وقد أشاد به أدباء الشعر الحديث ، وعدوه شاعر الفن والتصوير في الشعر العربي ، ويقول ناقد من المحدثين : إنما جنى عليه وغربه عند أهل عصره ، وفي أذواقهم ، تفرده ، ووحدته ذوقه وبعده عن أذواق الناس ، فلم يألفوه ولم يطربوا له ، طربهم لأشباهه الذين ينظرون إلى الحياة بأعينهم ، ويتناولون المعاني على طريقتهم^(٦) ، وقد صور ابن الرومي رأيه في شعره في قصيدة يقول فيها :

(١) الرسل : التؤدة .

(٢) ٥٤ وساطة .

(٣) ١/٣٥٥ العمدة .

(٤) رسائل الانتقاد .

(٥) ١٦١ - ١٦٤ رسالة الغفران .

(٦) مقدمة ديوان ابن الرومي للعقاد .

قولا لمن عاب شعر مادحه
ركب فيه اللحاء^(١) والخشب
وكان أولى بأن يهذب ما يخلق
فليعذر الناس من أساء ومن
أما ترى كيف ركب الشجر
اليابس والشوك دونه الثمر
رب الأرباب لا البشر
قصر في الشعر إنه بشر

وشعر ابن الرومي صورة لثقافته الواسعة المتعددة الألوان والعناصر . فهو طويل النفس في قصائده . بديع المعاني . كثير التحليل والتوليد والاختراع فيها . جميل التنسيق والاستقصاء . جزل الأسلوب ، متين الأداء . سلس الألفاظ . بعيد عن زلات اللسان وسقطات البيان وأخطاء اللغة ، وكذلك ترى شعره صورة صادقة لنفسه وحياته ، نرى فيه الغث والسمين ، لأنه لم يكن يكر عليه بالتجويد والتهديب ، كما كان يفعل سواه من الشعراء ، ومعانيه أكثرها مبتكر مبتدع ، وقل له أن ترى له معنى أخذه من غيره ، أو سرقة عمد إليها كما يفعل سواه من الشعراء ، وكان إذا تناول معنى قديما أفاض عليه من شاعريته أثوابا من التجديد والبيان ، قال أبو تمام :

غربته العلى كثرة الأهـ ل فأضحى في الأقربين جنيبا

أخذه ابن الرومي فزاد فيه وأبدع في قوله :

غربته الخلائق الزهر في النا س وما أوحشته بالتغريب

وقد شهر ابن الرومي بالهجاء والإفداع في السخرية ، يسخر من بخيل

فيقول :

يقتر عيسى على نفسه
فلو يستطيع لتقتيره
ولبئس بباق ولا خالد
تنفس من منخر واحد

ويقول في أصلح :

فوجهه يأخذ من رأسه
أخذ نهار الصيف من ليلة

وهذه المقدرة البارعة في الهجاء والسخرية نشأت من سخطة على المجتمع والناس ، بيد أنك تلمح في هجائه العفة والشرف و النبيل .

ويمتاز ابن الرومي بدقة الوصف بدقة متناهية ، حتى تلمح فيه درة الشاعر وبراعته وقوة شاعريته ، فإذا وصف جلي لك صورة ما يصف حتى لتراها أمامك في تمثال من الصور والتعابير .

(١) قشر الشجر .

صور فنية من شعره :

قال ابن الرومي في امرأة ورقبها :

ما بالها حسنت ورقبها أبدا قبيح ، قبح الرقباء
ما ذاك إلا أنها شمس الضحى أبدا يكون رقبها الحرباء

وهي صورة شعرية غنية بنفسها عن الأعجاب والشرح :

وأجود ما قيل في الريق قوله :

يارب ريق بات بدر الدجى يمجه بين ثناياها
يروى ولا ينهك عن شربه والماء يروى وينهاها
فليس لهذا البيت مثل في معناه .

وقال في الخمر والنجس :

ريحانهم ذهب على درر وشراهم درر على ذهب
فأجاد وأبدع في إخراج هذه الصورة الساخرة .

وقال في خبو الشمس حين غروبها :

كان خبو الشمس ثم غروبها وقد جعلت في مجنح الليل تمرض
تخاوص عين بين أجفانها الكرى يرنق^(١) فيها النوم ثم تغمض

وهي صورة جيدة الشبه للشمس عند الغروب.

ومن جيد تشبيهات أبي نواس وقد نبه نديما للصبح قوله :

فقام والليل يجلود الصباح كما جلا التسم عن غر الثنيات

ولابن الرومي التقدم عليه بقوله في الراح ، وقد أخذ أصل المعنى ونقله

إلى وصفها فقال :

يفتر ذاك السواد عن يقق من ثغرها كالآليء النسق
كأنها والمزاج يضحكها ليل تعرى دجاء عن فلق

وقال أبو نواس :

تبكى فتدري الدر من نرجس وتلطم الورد بعناب

(١) رنقة : كدرة .

أخذه سعيد بن حميد فقال :
وكانما أثر الدموع بخدهما
طل تساقط فوق ورد يانع

وقال البحترى فى هذا المعنى :
شقائى يحملن السدى فكأنه
دموع التصابى فى خدود الخرائد

وقال ابن الرومى فى دموع المحبين وقت الوداع :
كان تلك الدموع قطر ندى
تقطر من نرجس على ورد

فأجاد وأبدع باختصار اللفظ وحسن السبك :

ومن الأبيات الجامعة فى المدح قول ابن الرومى :
هو الغرة البيضاء من آل هاشم
وهم بعده التحجيل والناس أدهم

ومن أجود ما قيل فى الثريا قول بعض الشعراء :
ولاحت لساريتها الثريا كأنها
على الأفق الغربى قرط مسلسل

أخذه ابن الرومى فقال :
طيب طعمه إذا ذقت فاه
والثريا فى جانب الغرب قرط

ومن أحسن ما قيل فى شروق الكأس قول ابن الرومى ، وأتى بشيء لم
يسبق إليه ، وهو تشبيه الحباب بفرق اللؤلؤ فقال :

لها صريح كأنه ذهب
ورغوة كالألىء الفلق^(١)

وقال ابن الرومى :

وقبلت أفواها عذابا كأنها
ينابيع خمر خضبت لؤلؤ البحر

قال أبو هلال فى ديوان المعانى^(٢) : البحر زيادة لا يحتاج إليها لأن اللؤلؤ
لا يكون إلا فى البحر ، فلو كان فى غير البحر لؤلؤ فليس لنسبته إليه فائدة ... وأخيرا
فلا بن الرومى القدرة الفائقة على تهجين ما أجمع الناس على استحسانه . كما فعل
فى الورد من تهجينه وتفضيل النرجس عليه فى صورة جميلة مؤثرة^(٣).

(١) الفلق : الصبح .

(٢) ١/٢٣٩ .

(٣) وذلك فى قطعة شعرية طويلة أولها :

حجلت خدود الورد من تفضيله
خجلا توردها عليه شاهد

وقد حللها عبد القاهر وبين منزلتها فى البيان وفى جودة التخييل وحسن التعليل ، حتى قال فيها : إنه جاء
بحسن وإحسان لا تكاد تجد مثله الا له (٢٤٨ أسرار) .

وقال امرؤ القيس :

وتعضو برخص غير شسن كأنه أساريع ظبي أو مساويك إسحل

وحول هذا المعنى يقول أبو نواس :

تعاظيكنها كف كأن بنانها إذا اعترضتها العين صف مدارى

ويقول ابن الرومى :

أشار بقضبان من الدر رقعت يواقيت حمرا ، فاستباح فؤادى

ويقول ابن المعتز :

أشرن على خوف أغصان فضة مقومة أئمارهن عقيق

وقال ابن الرومى :

أعانقه والنفس بعد مشوقة إليه ، وهل بعد العناق تدان ؟

كأن فؤادى ليس يشفى غليله سوى أن يرى الروحين يمتزجان

وفى هذا المعنى يقول ابن المعتز :

يأرب أخوان صحتهمو لا يملكون لسلوة قلبا

لو تستطيع قلوبهم فقدت أجسادها وتعانقت حبا

وقال أبو نواس فى الراح :

إذا عب فيها شارب القوم خلته يقبل فى داج من الليل كوكيا

أخذه ابن الضاحك وأحسن :

كأنما نصب كاسه قمر يكرع فى بعض أنجم الفلك

وقال ابن الرومى فيه ، وكان أحسن منهما :

فكأنها وكان شاربها قمر يقبل عارض الشمس

وقال ابن المعتز فزاد عليهم جميعا :

كأنه وكان الكأس فى فمه هلال أول شهر غاب فى شفق

وهو أحسن ما وصف به كأس على فم

ومن أحسن ما قيل فى وصف مغن قول ابن المعتز :

ومغن ملحق كل نفس بهواها ، وهو للسكر عذر

وأجمع من ذلك قول ابن الرومي :
تغني كإنها لا تغني
ولها الدهر لانم مستزيد

من سكون الأوصال وهي تميد
ولها الدهر سامع مستجيد

وقال ابن الرومي :

كان نسيمها أرح الخزامي
إذا أنفاسها نسمت سحيراً

ولها بعد وسمي ولي
تنفس - كالشجي - لها الخلي

وحول هذا المعنى يقول ابن المعتز :

وما ريح قاع عازب طله الندي
فجاءت سحيراً بين يوم وليلة

وروض من الريحان ذرت سحائبه
كما جر في ذيل الغلالة ساحبه

وقال ابن الرومي من قصيدة وصف مجلس الراح :

شمس من الحسن في معصرة
في وجنات تحمر من خجل
يسعى إليها بكأسه رشاً
في كفه كالشهاب لاح على
إن برزت للهواء غبرها

ضاهت بلون لها معصرها
كان ورد البسيع حمرها
أنثه الله وذكرها
ظلماء ليل دجت فنورها
أوقرعت بالمزاج كدرها

ويقول ابن المعتز في مجلس الراح أيضاً من قصيدة :

ومجلس جل أن نشبهه
وزانه من بني العباد رشا
قد ركبت كفه مشعشة
يلمع فيها من كل ناحية
فظلت في يوم لذة عجب
وقابل الشمس فيه بدر دجي

جن به مزهر ومزمار
بالجيد والمقلتين سحار
إبريقها في الكأس هدار
كوكب نوره إليك نظار
وافي به للسعود مقدار
يأخذ من نورها ويمتاز

١ - ففي هاتين القطعتين وصف للساقى والراح ، وفي قطعة ابن الرومي زيادة وصف للقينة التي في مجلس الراح .

٢ - ووصف ابن الرومي الساقى بالأنوثة ، ووصفه ابن المعتز بالسحر .

٣ - شبه ابن الرومي نور الراح في الكأس ، بالشهاب في ظلام الليل .. أما ابن المعتز قد شبه الكأس بالبدر ، والراح بالشمس ، وجعل الكأس يأخذ من نورها ويمتاز .

٤- ووصف ابن الرومي الراح بأنها أصفى من الماء والطف من الهواء ، ووصفها ابن المعتز بنور كوكب متوقد .

٥- وألفاظ ابن المعتز موسيقية ، وأعذب من ألفاظ ابن الرومي .

٦- وابن الرومي في جملة الأمر يركب الصور ويمزج التشبيهات ولكن ابن المعتز يقف عند حدود التصوير ولا يعتمد لمزج تلك الأصباغ بعضها ببعض بل يزيحها مجتمعة دون اتحاد أو امتزاج .

٧- وابن الرومي يفوته أحيانا ما هو أبلغ في الوصف وأروع في أداء الغرض ، من حيث لا يفوت ذلك ابن المعتز ، كما رأينا في وصف ابن الرومي للساقى بالأنوثة ، ووصف ابن المعتز له بالسحر .

وروى صاحب العمدة والبغدادى فى خزانة الأدب والعباسى فى معاهد التنصيص أن لائما لام ابن الرومى ، وقال له : لم لا تشبه تشبيهات ابن المعتز وأنت أشعر منه ، فقال : ألا تشدنى شيئا من قوله ؟ الذى استعجزتني عن مثله ، فأنشده قوله فى الهلال :

انظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

فقال له : زدنى ، فأنشده قوله فى الآذريون (وهو أصفر فى وسطه خمل أسود وليس بطيب الرائحة) :

كأن آذريونها والشمس فيها كالـية
مداهن من ذهب فيها بقايا غالية

فصاح : واغوثاه لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، ذاك إنما يصف ماعون بيته ، لأنه ابن خليفة ، وأنا أى شىء أصف ؟ ولكن انظر إذا وصفت ما أعرف أين يقع قولى من الناس ، هل لأحد قط مثل قولى فى الغمام :

وذاق صبيح للصبح دعوته فقام وفى أجفانه سنة الغمض
يطوف بكاسات العقار كأنجم فمن بين منقض علينا ومنقض
وقد نشرت أيدي الجنوب مطارفا على الجود كنا والحواشى على الأرض
يطرزها قوس السحاب باخضر على أحمر فى أصفر إثر مبيض
كأذيال خود أقبلت فى غلائل مصبغة والبعض أقصر من بعض

وقولى فى صانع الرقاق :

ما أنس لا أنس خبازا مررت به يدحو الرقاقة مثل الملح بالبصر

ما بين رؤيتها في كفه كرة
إلا بمقدار ما تنداح دائرة

نماذج من شعره:

أأيام لهوى هل مواضيك عود
أقول وقد شابت شواتي، وقوست
ولدت أحاديثي الرجال، وأعرضت
وبدل إعجاب الغواني تعجباً،
لما تؤذن الدنيا به من صروفها
والأفما يبكيه منها، وإنها
إذا أبصر الدنيا استهل كأنه
وللنفس أحوال تظل كأنها

وقال يرثي ابنه محمداً:

بكاؤكما يشفى وإن كان لا يجدي
ألا قاتل الله المنايا ورميها
توخي حمام الموت أوسط صبيتي
على حين شمت الخير من لمحاته
طواه الردى عنى فأضحى مزاره
لقد أنجزت فيه المنايا وعيدها
لقد قل بين المهد واللحد لبثه

وبين رؤيتها قوراء القممر
في لجة الماء يلتني فيه بالحجر

وهل لشباب ضل بالأمس منشد؟^(١)
قناتي، وأضحت كدنتي تتمدد^(٢)
سليمي وربا عن حديثي ومهدد^(٣)
فهن روان يعتبرن وصدد^(٤)
يكون بكاء الطفل ساعة يولد
لأفسح مما كان فيه وأرغد؟
بما سوف يلقي من أذاها يهدد^(٥)
تشاهد فيها كل غيب سبشهد^(٦)

فجودا فقد أودى نظيركما عندي^(٧)
من القوم حبات القلوب على عمد
فله كيف اختار واسطة العقد^(٨)
وأنست من أفعاله آية الرشد^(٩)
بعيداً على قرب قريباً على بعد^(١٠)
وأخلفت الآمال ما كان من وعد
فلم ينس عهد المهد إذ ضم في اللحد

(١) منشد: مكان أنشده فيه وأطلبه.

(٢) الشواة: جلدة الرأس، والمراد شاب شعرها والقناة هنا صلبه. الكدنة الشحم واللحم يريد أن سمته أضحت تهزل.

(٣) أي أصبحت أحاديثي تلذ الرجال بعد ما أعرض الغواني لشيبي وكان حديثي لذيذاً لديهن.

(٤) الإعجاب بالشيء: السرور منه. والتعجب: الاستغراب والإنكار. روان: دانمات النظر بسكون الطرف. صدد: معرضات.

(٥) استهل الصبي: رفع صوته بالبكاء.

(٦) يورد هذا البيت تأكيداً لحسن تعليقه.

(٧) بكاؤكما: الخطاب لعينيه. ولا يجدي: لا ينفع. وأودى: هلك.

(٨) توخي: تحرى.

(٩) شمت الخير: توقعته.

(١٠) يريد بالقرب قرب المكان وبالبعد بعد اللقاء.

ألح عليه السزف حتى أحاله
وظل على الأيدي تساقط نفسه
فيالك من نفس تساقط أنفاساً
عجبت لقلبي كيف لم ينفطر له
وما سرني أن بعته بثوابه
ولا بعته طوعاً ولكن غصبته
وإني وإن متعت بابني بعده
وأولادنا مثل الجوارح أيها
لكل مكان لا يسد اختلاله
هل العين بعد السمع تكفى مكانه
لعمرى لقد حالت بي الحال بعده

إلى صفرة الجادى عن حمرة الورد^(١)
ويدوى كما يدوى القضيب من الرند^(٢)
تساقط در من نظام بلا عقد
ولو أنه أقى من الحجر الصلد
ولو أنه التخليد فى جنة الخلد
وليس على ظلم الحوادث من معد^(٣)
لذاكره ما حنت النيب فى نجد^(٤)
فقدناه كان الفاجع البين الفقد^(٥)
مكان أخيه من جزوع ولا جلد
أم السمع بعد العين يهدى كما تهدي؟
فيا ليت شعري كيف حالت به بعدى؟

ثكلت سرورى كله إذ ثكلته
أريحانة العينين وأنف والحشا
سأسقيك ماء العين ما أسعدت به
أعيني جوداً لى فقد جدت للثرى
كأنى ما استمتعت منك بضممة
ألام لما أبدى عليك من الأسى
محمد ما شىء توهم سلوة
أرى أخوبك الباقيين كليهما
إذا لعبا فى ملعب لك لدعا
فما فيهما لى سلوة بل حزازة
وأنت وإن أفردت فى دار وحشة

وأصحت فى لذات عيشى أخا زهد
ألا ليت شعري هل تغيرت عن عهدى؟
وإن كانت السقى من الدمع لا تجدى^(٦)
بأنفس مما تسألان من الرفد^(٧)
ولا شمة فى ملعب لك أو مهد
وإنى لأخفى منك أضعاف ما أبدى
لقلبي إلا زاد قلبي من الوجد
يكونان للأحزان أورى من الزند
فؤادى بمثل النار عن غير ما قصد
يهيجانها دونى وأشقى بها وحدى
فإنى بدار الأنس فى حشة الفرد

(١) الجادى : الزعفران وهو أصفر.

(٢) الرند : الغار وقد يسمى به الآس وهو نوع من الريحان.

(٣) معد عن أعدى بمعنى نصر وأعان.

(٤) النيب : جمع ناب ، وهو الناقة المسنة.

(٥) الجوارح : أعضاء الإنسان.

(٦) أسعدت العين بالبكاء : أعانت.

(٧) الرفد : العطاء والصلة.

عليك سلام الله مني تحية

ومن كل غيث صادق البرق والرعد

وقال يعاتب أبا القاسم التوزي الشطرنجي ويمدحه :

يا أخى أين عهد ذاك الإخاء
كشفت منك حاجتى هنوات
تركتنى ولم أكن سىء الظن
يا أخى هبك لم تهب لى من سع
أفلامنك رد جميل
أجزاء الصديق إبطاؤه العشاء
تاركه سعيه اتكالا على سع
كالذى غره السراب بما خيد
يا أبا القاسم الذى كنت أرجوه
لا أجازيك عن غرورك إياى
بل أرى صدقك الحديث وماذا
أنت عيني وليس من حق عيني
ما بأمثال ما أتيت من الأمر
بذل الوعد للأخلاء سمحا
فغدا كالخلاف يورق للعيد
ليس يرضى الصديق منك ببشر

أين ما كان بيننا من صفاء ؟
غطيت برهة بحسن اللقاء^(١)
أسىء الظنون بالأصدقاء
يك حظا كسانر البخلاء
فيه للنفس راحة من عناء
سوة حتى يظل كالعشواء^(٢)
يك دون الصاحب والشفعاء
ل حتى هراق ما فى السقاء
لدهرى قطعت متن الرجاء
غرورا وقيت سوء الجزاء
ك لبخل عليك بالإغضاء
غص أجفانها على الأقداء
يحل الفتى ذرا العلياء
وأبى بعد ذاك بذل العطاء
من ويأبى الإثمار كل الإباء
تحت مخبوره دفين جفاه

ولقد هجا ابن الرومى البحرى الشاعر هجاء مقذعا .

ومن قوله فى هجائه :

قد قلت - إذ نخلوه الشعر - : " حاش له
" وحسبه من حباء القوم أن يهبوا
" الحظ أعمى ؛ ولولا ذاك لم تره
قبحا لأشياء يأتى البحرى بها
كأنها - حين يصغى السامعون لها
رقى العقارب أو هذر البنائة إذا
وقد يجىء بخلط : فالنحاس له

إن البروك به أولى من الخبب "
له قفاه - إذا ما مر - بالعصب^(٣)
للبحرئى لا عقل ولا أدب . "
من شعره الغث بعد الكد والتعب
ممن يميز بين النبع والغرب
أضحوا على شغف الجدران فى صخب
وللأوائل ما فيه من الذهب

(١) الهنوات : جمع هنة . وهى الشئ الصغير .

(٢) العشوة النار . وأوطاه العشوة : كناية عن أنه أضله ولم يهده . والعشواء الناقة لا تبصر أمامها .

(٣) جماعات الناس .

سمين ما نحلوه من هنا وهنا ،
يسىء عفا ، فإن أكدت وسائله
عبد يغير على الموتى فيسلبهم
ما إن تزال تراه لابسا حلا
شعر يغير عليه باسلا بطلا

والغث منهم صريح غير مجتلب
أجاد لصا شديد البأس والكلب
حر الكلام بجيش غير ذى لجب
أسلاب قوم مضوا فى سالف الحقب
وينشد الناس إياه على رقب

كما هجا ابن الرومي الأخفش بقصيدة منها :

"قلت لمن قال لى "عرضت على الأخ
قصرت بالشعر حين تعرضه
ما قال شعرا ولا رواه ، فلا
فإن يقل "إننى رويت "فكالدف
أرمت زينى بأن تعرضنى
أم رمت شينى بأن تعرضنى

فش ما قلته فما حمده ."
على مبين العمى إذا انتقده
ثعلبه كان ، لا ولا أسده
ترجها بكمل ما اعتقده
لمدحه فالذليل من عضده
ثلثه ؟ فالسليم من قصده ."

إلى أن قال :

"شعري شعر ، إذا تأمله الإنس
لكنه ليس منطلقا عث اللس
ولا أنا المفهم البهائم والطيب
ما بلغت بى الخطوب رتبة من
لا رحم الله أم أخفشكم
ماذا عليه وقد رأى ولدا
سأسمع الناس ذمه أبدا

سان ذو الفهم والحجا ، عبده
ه آية لمن جحده
ر سليمان قاهر المرده
تفهم عنه الكلاب والقردة "
ولا سقى قبر والى ولده
أعور جم العوار - لو وأده ،
ما سمع الله حمد من حمده "

وقال من قصيدة أخرى :

لا يأمنن السفيفه بآدرتى
عندى له السوط إن تلوم فى السير
"أصحى مغيظا على أن غضب اللد
قولا له ينطح الجدار إذا أعي
ولا يحمل ضعيف منته
"أقسمت بالله لا غفرت له

فإننى عارض لمن عرضا
وعندى اللجام إن ركضا "
ه عليه ونلت منه رضا
ما وصم الصفا إذا امتعضا
حربى ، فما مثله بها نهضا "
إن واحد من عروقه نبضا "

ابن المعتز شاعر الحب والجمال

٢٤٧ - ٢٩٦ هـ

أديب ساحر وشاعر ملهم ، وشخصية بارزة بين الشخصيات التي نبغت في القرن الثالث الهجري ، وهو أمير التشبيه في الشعر العربي : القديم والحديث .

يعد في الطبقة الثالثة من المحدثين . وهي الطبقة التي خلفت طبقة أبي نواس . وطبقة بشار زعيم المحدثين . ويعدون معه في طبقة أباتمام والبحتري وابن الرومي . وإن كان بعض النقاد يجعل أبا تمام والبحتري طبقة وحدهما ، ويجعل ابن الرومي وابن المعتز طبقة رابعة من طبقات المحدثين . ويقول ابن رشيقي : طبقة حبيب والبحتري وابن المعتز وابن الرومي طبقة متداركة . وتلاحقوا ، وغطوا على من سواهم من الشعراء^(١) ، ويقول : " وليس في المولدين أشهر اسما من أبي نواس ، ثم حبيب والبحتري ، ثم تبعهما في الاشتهار ابن الرومي وابن المعتز ، وطار اسم ابن المعتز حتى صار كأبي نواس في المحدثين ، وامرؤ القيس في القدماء^(٢) " .

ولد أبو العباس عبد الله ابن المعتز في شعبان سنة ٢٤٧ ، أو ٢٤٩ كما يقول ابن خلكان ، في بيت الخلافة ، وولي والده المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد العرش عام ٢٥٢ هـ ، ومكث فيه ثلاث سنين قتل بعدها بيد الأتراك ، الذين كان في يدهم جميع أمور الدولة إبان هذه الفترة الحافلة ، وكان لنكبة والده أثر عميق في حياته ونفسيته ، وقد تلقى ثقافته في الدين واللغة والأدب على شيوخ العربية وأئمتها ، الذين حفل بهم هذا العصر الزاخر بألوان العلوم والثقافات والأدب .

وكان من أساتذته المبرد م سنة ٢٨٥ هـ . وتعلب م سنة ٢٩١ هـ وسواهما من فحول العلماء ، وظهرت شاعريته في أول عهده بالشباب ، فامتلات به حياته ، كما انصرف عن مؤامرات السياسة إلى حياة العلم والأدب ، فكان البليغ الساحر ، والشاعر المجيد ، والناقد الواقف على خصائص الأدب والبيان ، وله مؤلفات كثيرة وجيدة ، منها : كتاب البديع ، وفصول التماثيل وطبقات الشعراء ، وديوانه مطبوع في جزئين في مصر والشام .

(١) ١/٨٣ العمدة .

(٢) ١/٨٣ العمدة .

عاصر بن المعتز بعد وفاة والده أربعة من الخلفاء العباسيين هم : المهتدي (٢٥٥ - ٢٥٦) ، والمعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩) ، والمعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩) ، والمكتفي (٢٨٩ - ٢٩٥) ، وعاش بينهم معتزا بشخصيته ، نبيل النفس ، عظيم الخلق ، يظهر انصرافه عن الخلافة وهو في نفسه ناظم على الحياة التي ملكت سواه مقاليدها ، وقبض عليه عدة مرات أطلق فيها سراحه ، ووضع موضع المراقبة ، وكان يقول في شعره :

من يشتري حسبي بأمن خمول من يشتري أدبي بحظ جهول ؟

ولما مات المكتفي عام ٢٩٥ هـ ولي الأتراك ابنه المقتدر العرش بعده ، وكان طفلا ، فثار الناس في بغداد ، وانتهت هذه الثورة المسالمة بخلع المقتدر ، وتولية ابن المعتز الخلافة عام ٢٩٦ هـ ، ومكث فيها ليلة واحدة ، حيث قاوم حزب المقتدر هذه الثورة ، تؤيده القوة الحربية في الدولة ، وقبض على ابن المعتز ، ووزيره محمد بن داود بن الجراح ، وقتلا عام ٢٩٦ هـ ، وبذلك انتهت حياة شاعر كبير من شعراء العربية المعدودين .

وقد عاش ابن المعتز في بغداد وسر من رأى ، في البيئة العامة التي امتاز بها القرن الثالث ، والتي حفلت بألوان الحضارة ، وشتى فنون العلوم والثقافات والآداب . كما عاش في بيئته الخاصة الحافلة بألوان الترف والنعيم والمجد في قصور الخلفاء والأمراء ، وكان لذلك كله أثره الواضح في شخصيته وشاعريته .

ولقد أرهفت نفسية ابن المعتز وحياته وبيئته وثقافته ومشاعره ووجدانه وإحساسه . فنشأ شاعرا بطبعه ملهم الشاعرية قوى الملكات .

ونظم الشعر يرضى به عواطفه ، ويصور فيه مشاعره وما يختلج في صدره من آمال وآلام ، وما تزخر به حياته من مظاهر الترف والحضارة ، فشعره إذا صورة لحياته الخاصة أولا ، ولحياة الطبقة المترفة ثانيا ، وللاتجاهات العليا في السياسة والاجتماع والآداب أخيرا ، وهو فوق ذلك صورة صادقة للفن الخالص ، الذي يؤمن بالفن للفن لا لأغراض الحياة وحاجاتها ، لأنه كان يحيا حياة فنية خالصة ، فلم يكن ينظم الشعر لمجد أو لمال ، أو لرضاء خليفة ، إنما كان ينظمه لنفسه ليرضى به نفسه ووجدانه وذوقه ، أجاد في الشعر السياسي ، كما أجاد في الفخر ، والإخوانيات والغزل ، وخمرياته فيها دقة معان ورقة تصوير ، وكثرة تشبيهات ، وكذلك كان في الصيد والطرود مجيدا مبدعا ، يقتفى فيه آثار امرئ القيس وأبي نواس ، والعتاب والشكوى من الفنون الشعرية التي تفوق فيها ، وكذلك بلغ ابن المعتز في الوصف حد الجودة

والإبداع ورسم صورا صادقة لكل ما وقعت عليه عينيه من مناظر طبيعية ومظاهر الحضارة . ووصفه وصف وجدانى ، له موسيقى عذبة وفيه رقة وسلاسة ، وروح وطبع ، ودقة وعمق وابتداع فى الأسلوب وتجديد فى التشبيه والاستعارة ، وقد نمت ملكته فى نفسه دقة وحسه ولطف شعوره ، وامتلاء ذهنه بمشاهد الجمال وروائع الخيال ، ورونق الحضارة ، وأنه يقول الشعر إرضاء لنفسه وتصويرا لحسه ، مما صرفه إلى وصف الطبيعة ومجالس الأنس ، ومطارد الصيد ، أما المدح والهجاء والرثاء والزهد ، فكان نصيب ابن المعتز منها قليلا ، ترك الزهد لأبى العتاهية ، والرثاء لأبى تمام ، والهجاء لابن الرومى ، والمدح للبحتري ، وعاش هو شاعر الفن والترف والجمال ، وهو مشهور بجودة قطعه الشعرية كما يقول ابن رشيق^(١) ، ومعانى ابن المعتز تتصل بنفسه وحسه وحياته وهو فيها دقيق الفكرة بعيد المنزع ، محكم التصوير مجدد مبتكر حينا ومقلد أحيانا أخرى ، وخياله الشعرى خيال واقعى مستمد من الوجود وحقائقه وألوان الحياة الحسية ومظاهرها ما ينطق به من معنى ووصف وتصوير ، وخياله النشط يعنى بمحسات الأمور ومرئياتها المشاهدة دون أن يكلف نفسه الجرى وراء عالم المثل والمعنويات ، ويمتاز أسلوبه : بكثرة التشبيه وروعته ، وجودة التصوير ودقته وبالرونق والعذوبة فى جزالة تشيع فى أعطافه حينا ، وسهولة ورقة يفيض بها شعره أحيانا ، ومع جمال فى ترف البيان وألوان البديع مما حدا به حدو بشار ومسلم وأبى تمام ، وتشيع فى أسلوبه الصياغة الفنية الممتلئة روحا وحياء وموسيقى ووضوحا فى دقة تصوير وقرب مأخذ وجودة قريحة فى بعد فكرة وحدة خيال كما يقول :

والصبا ممتلئى حاججة وأملا

والمدرسة الأدبية التى يمثلها ابن المعتز هى مدرسة المحدثين التى قاد زمامها أبو تمام والبحتري ، والتى امتازت بميزتين :

الأولى :

هى التعمق فى المعانى واستنباطها ، مما يتجلى لك فى شعر أبى تمام وابن الرومى واضحا وملموسا .

والثانية :

هى الصناعة الشعرية المتأنقة التى تطلب ألوان الجمال فى الأداء وتعتمد على الترف البيانى فى الأسلوب : من جناس وطباق وتشبيه واستعارة وتمثيل ،

(١) ١/١٦٣ العدد .

وكانت العرب كما يقول ابن رشيق " لا تنظر في أعطاف شعرها . بأن تجنس أو تضابق أو تقابل أو تترك لفظة للفظة أو معنى لمعنى كما فعل المحدثون . ولكن كان نظرها في فصاحة الكلام وجزالته ووسط المعاني وإبرازه ، وإتقان بنية الشعر . وما وقع فيه من هذا النوع فعن غير قصد ولا تعمد . ممن عرفوا وجه اختياره على غيره حتى صنع زهير الحوليات على وجه التثقيف ، وأول من فتح البديع للمحدثين بشار وابن هرمة . ثم قلدهما فيه مسلم والعتابي والنمري وأبو نواس ، وأتبع هؤلاء أبو تمام والبحتري وابن المعتز ، فانتهى علم البديع والصنعة إليه وختم به^(١) . فابن المعتز إذا هو الشاعر الذي انتهت إليه الصناعة الشعرية المتعمدة المكلفة ، فقد كان يحب الفن للفن . وينظم الشعر ليلهو به . وكان في العباسيين كالوليد في الأمويين ، وكان متكلفا مجيدا في تكلفه بقدر ما كان الوليد مطبوعا مجيدا في طبعه ، ويصف ابن رشيق في صناعته فيقول : " ولا أعلم شاعرا أكمل ولا أعجب تصنيعا من ابن المعتز فإن صناعته خفيه لطيفه ، لا تكاد تظهر في بعض المواضع إلا للبصير بدقائق الشعر ، وهو عندي ألطف أصحابه شعرا وأكثرهم بديعا وافتنانا ، وأقربهم أوزانا وقوافي ، ولا أرى وراءه غاية لطالبا في هذا الباب^(٢) ، ويقول الجرجاني فيه : وطريقة ابن المعتز طريقة أبي تمام ، ولم يكن من المطبوعين^(٣) ، وكان الجرجاني يؤثر المطبوع وما قاربه من المصنوع ، ويقول أبو الفرج في وصف شعره وخصائصه : هو وإن كان فيه رقة الملوكية وغزل الظرفاء وهلهلة المحدثين فإن فيه أشياء كثيرة تجرى في أسلوب المجيدين ، ولا تقصر عن مدى السابقين ، وليس يمكن واصفا لصبح في مجالس اللهو بين ندامي وقيان وعلى ميادين من النور والبنفسج والريحان إلى غير ذلك أن يعدل بذلك عما يشبهه من الكلام البسيط الرقيق ، الذي يفهمه كل من حضر ، إلى جيد الكلام ووحشيه ، وإلى وصف البید والمهامه ، والظبي والظليم ، والناقة والجمل ، والديار والقفار " . والأصفهاني يشير بذلك أن أسلوب ابن المعتز فيه جيد جزل كثير وإلى أن رقة أسلوبه غالبا ترجع إلى حياة الملك التي تسلتزم الترف ، وإلى وصفه لألوان اللهو التي تستدعي رقة الأسلوب ، وإلى بعد نفسية الشاعر غالبا عن أغراض الشعر البدوي ، فرقة شعر ودقة تشبيهاته إذا أثر من آثار البيئة فيه .

ولابن المعتز منزلة كبيرة في البيان العربي فقد ألف فيه كتابه " البديع " ، الذي عدد فيه شتى أساليب البديع ومحاسن الشعر كما عرفها ابن المعتز وعصره ،

(١) ١٠٨ - ١١٠ / العمدة .

(٢) ١ / ١٠٩ العمدة .

(٣) ٢٢٢ أسرار البلاغة .

وهذا الكتاب ليس قاصر على البديع بالمعنى الضيق المحدود ، لأن ابن المعتز يذكر فيه الكناية والاستعارة و التشبيه وهي من صميم البيان العربي ، ويذكر فيه الكناية ولكنه يريد بها معناها اللغوي وهو أعم من المعنى الاصطلاحي المعروف ، فإذا قلنا أن ابن المعتز ألف في البيان فقد سرنا مع الحق والتفكير السليم ، وإذا قلنا إنه ألف البديع فقد ضيقنا دائرة البحث بغير مبرر ، وإن كان البديع في الاصطلاح المتأخر جزءا من البيان ، وإن كان البديع بالمعنى القديم المعروف عند بعض علماء البلاغة يرادف كلمة البيان والبلاغة، فابن المعتز إذا ذو أثر كبير في البديع ، وعلى وجه الدقة له أثره في البيان العربي ودراساته ، ذلك ما سنتناوله الآن بالتحليل ، كان ابن المعتز من أئمة البيان في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ، وله فيه آراء عظيمة الأهمية ناضجة التفكير^(١) ؛ وقد اهتم بنوع خاص من أنواع البيان ، هو أسلوب البديع وألوان الترف في الأداء .

كان ابن المعتز يحتذى حذو أبي تمام في صنعة البديع ، ويوشى شعره بشتى ألوانه ، يقصدها قصدا ويتعمدها تعمدا ، وصوغ شعره فنا تغلب روح الصناعة فيه ملكات الطبع والفترة ، وكان مع ذلك " يتحقق بعلم البديع تحققا ينصر دعواه فيه لسان مذاكرته "^(٢) ، وألف فيه عام ٢٧٤ هـ كتابة البديع ؟^(٣) وسنه إذ ذاك سبعة وعشرين عاما ، مما يدلنا على أن ابن المعتز لم يتمش في العقد الثالث من عمره حتى قد كان قتل الشعر العربي حفظا ورواية ودرسا وفهما ، وكان لكتابه البديع دوى في المجامع الأدبية ؛ ثم شاع وذاع وتلقفته الأيدي ، وعكف العلماء والأدباء عليه وصار مصدرا ممتازا من مصادر الدراسات البيانية بعد عصر ابن المعتز ، ثم فقدت نسخ الكتاب الخطية وقل تداوله ولم يبق له أثر إلا ما نقرأ عنه في شتى كتب البيان والبديع ، ولكن العناية شاءت أن تحفظ من الكتاب نسخة خطية واحدة في الأسكوريال نشرها كراتشكو فسكى عام ١٩٣٥ ، وقد قمت بشرح هذا الكتاب والتعليق عليه وتصحيحه ونشرته عام ١٩٤٥ ، فكان ذلك إحياء لكتاب ابن المعتز ، وخدمة للثقافة البلاغية ، وسعيا لتداول أهم مصدر ألف في البديع ، والكتاب أول مؤلف

^(١) راجع وصفه لبلاغة القرآن (٦٣ رسائل ابن المعتز) ، وتعريفه للبلاغة بأنها بلوغ المعنى ولم يطل سفر الكلام)

٦٤ رسائل ابن المعتز ، ١/١٥٧ زهر ، ١/٤٦٢ ، وفيات ، ١/٢١٧ العمدة ، ٢/٢٢٣ شذرات ، ١٩٦ الأوراق ، ١/١٢٨

حاشية السبكي على التلخيص) ، وله كلمة في الحكمة والبلاغة (٦٣ رسائل ابن المعتز - ١/١٤٩ زهر)

^(٢) ١٠١١ رسائل ابن المعتز ، ٤/١٢٣ زهر .

^(٣) راجع ١٠٦ البديع .

السديع وصعة الشعر كما أجمع على ذلك جميع الباحثين^(١) . وهو من أهم كتب ابن المعتز بالنظر إلى اختصاصه في هذا الفن^(٢) وبعد فتحا جديدا^(٣) . ويقول ابن المعتز نفسه : وما جمع فنون البديع ولا سبقني إليه أحد^(٤) .

ولقب البديع ليس لقباً مستحدثاً في عهد ابن المعتز ، ولكنه اسم لهذه الألوان الساحرة في الأسلوب ، ولهذا الترف البياني في الأداء : من تشبيه واستعارة ونجنيس وتطبيق وسوى ذلك . سماه به مسلم بن الوليد الشاعر م ٢٠٨ هـ . وكان يعرف قتل ذلك باللطيف^(٥) . ودرج على هذا اللقب من بعده من العلماء والأدباء وفي الأغاني أن الأصمعي م ٢١٦ هـ كان يفضل بشاراً لأنه أكثر تصرفاً وفنون شعر وأغزراً وأوسع بديعاً^(٦) ، وذكر الجاحظ البديع وبعض المشهورين به من الشعراء وأنه مقصور على العرب ومن أجله فاقت لغتهم على كل لغة^(٧) ، وذكر كثيراً من الشعراء الذين أكثروا منه في شعرهم ورأى أن لم يكن في المولدين أصوب بديعاً من بشار وابن هرمة^(٨) ، ويقول ابن المعتز : البديع اسم موضوع لفنون من الشعر يذكرها الشعراء ونقاد المتأدبين منهم ، فاما العلماء بالشعر القديم فلا يعرفون هذا الاسم ولا يدرون ما هو^(٩) ، والبديع ونشأته في اللغة العربية موضوع عناية الباحثين المحدثين ، فرأى مسيو مرسية أن الزخرف الفني وألوان البديع قد وصلت إلى العرب من اليونان^(١٠) ، ورأى أنه عنصر أصيل في اللغة العربية وإن شاركتها في ذلك بعض اللغات^(١١) . وشاهد ذلك القرآن الكريم فهو أثر عربي صرف وهو مع ذلك يشتمل على ألوان من البديع ، والخواص الفنية الموجودة في القرآن توجد كذلك في الشعر الجاهلي كما أثبتته صاحب جمهرة أشعار العرب في مقدمتها ، وهي موجودة كذلك

(١) ١/٢٣٥ العمدة ، ١/١٤٦ معاهد التنصيص ، ٢٧٦ الزيات ، ٤٥٠ ج ٢ أدب اللغة لمحمد بك دياب ط ١٩٠٠ ، ١٤٨ ١/ كشف الظنون ، ١/٦٦٣ البستاني ، ١٩١ الاسكندرني ، ١٠٥ أدب اللغة للغزاهري .

(٢) ٢/١٦٣ زيدان .

(٣) ٢٨٠ المجلد الأول من دائرة المعارف الاسلامية ، وراجع في الإشادة به ٩٣ - ١٠١ الصبغ البديعي في اللغة العربية للأستاذ أحمد موسى ، ١٠٣ - ١٠٧ تاريخ البلاغة العربية للأستاذ الشعراوي ، وهما مخطوطان بمكتبة كلية اللغة .

(٤) ١٠٦ البديع .

(٥) ١٠ ج ٢ معاهد التنصيص .

(٦) ٢٥ ج ٣ الأغاني .

(٧) ٣/٢٤٢ البيان .

(٨) ١/٥٥٥٤ البيان .

(٩) ١٠٦ البديع .

(١٠) ١/٤٤٤ النثر الفني .

(١١) ١/٤٥٥ وما بعدها النثر الفني .

في الآثار الأدبية التي عاصرت القرآن كالحديث وخطب الخلفاء والولادة الذين شهدوا عصر النبوة^(١) ، والحق أن البديع أصابع عربية خالصة كثرت ألوانه وتطورت زما بعد زمن ، ولدت قوة هذا التطور بتأثير الفرس واليونان ، فالاستعارة والتشبيه وكثير من هذه الأساليب تشترك فيها سائر اللغات^(٢) ولقد عرف البديع فنا منذ نشأ الأدب العربي ، وأما معرفته علميا فابتدأ من عصر بشار وأبي نواس ومسلم ، ثم عرف بصورة أوضح في عهد أبي تمام والبحترى وابن المعتز ، وبما كتبه عنه الجاحظ مؤلف البيان .

وموضوع كتاب البديع ذكر لألوان البديع وشواهدا في الأدب العربي شعرا ونثرا ، يذكر مؤلفه ما أثر للون البديعي من شاهد في كتاب الله ثم في حديث رسوله ثم في كلام الصحابة الأعراب وبلغاء الكتاب ثم في الشعر الجاهلي فالإسلامي فشعر المحدثين ، ويختتم كل لون بذكر ما عيب من شواهد المتكلمة السقيمة ، والكتاب حافل بشتى النصوص التي جمعها ابن المعتز وساقها في عرض جميل ونظام محكم ، وكان الباعث لابن المعتز على تأليفه هذا الكتاب أن يعلم كما يقول : " أن بشارا ومسلما وأبا نواس ومن تقيهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا هذا الفن - البديع - ، ولكنه كثر في أشعارهم فعرف في زمانهم حتى سمي بهذا الاسم فأعرب عنه ودل عليه ، ثم أن حبيب بن أوس الطائي شغف به حتى غلب عليه وأكثر منه فأحسن في بعض وأساء في البعض الآخر ، وإنما كان يقول الشاعر من ذلك الفن البيت والبيتين في القصيدة ، وربما قرئت من شعر أحدهم قصائد من غير أن يوجد فيها بيت بديع^(٣) ، فالغرض الأول منه " تعريف الناس أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى شيء من أبواب البديع^(٤) " ، ولقد نشأ ابن المعتز في عصر لم يخل من آثار التعصب للتراث الأدبي القديم ، ومن المنكرين لمذاهب المحدثين في البيان والناعين عليهم ما افتنوا فيه من ألوان البديع ، التي أكثر منها بشار ومدرسته ، ثم مسلم وأبو تمام ومن جاء بعدهما ، فكان لابد لابن المعتز أن يدافع ويناضل هؤلاء المتعصبين ، نعم لقد وقف ابن المعتز بين مذهبين في البيان متناقضين : مذهب المحدثين الذي يؤثره ويسير عليه في الشعر وفهمه ونظمه ، ومذهب القدماء المتعصبين للقديم الذين كانوا يزدرون نهج المحدثين وقصدتهم وتكلفهم البديع ، ولكنه انتصر بفطره به

(١) ١/٤٧٠ النثر .

(٢) راجع : نقد النثر ، مراجعات للعقاد .

(٣) ١٦ و ١٥ البديع و ٧ و ٨ الموازنة .

(٤) ١٨ البديع .

وذوقه للمذهب الأول الذى أحبه وشغف به ، فأخذ يدافع عنه ، وألف فى ذلك كتابه البديع الذى أثبت فيه أن ألوان البديع كانت معروفة عند الشعراء القدامى والإسلاميين ، وألموا بها فى شعرهم كما ألم بها المحدثون ، فهى ليست غريبة على الشعر الجاهلى والإسلامى وليست جديدة على أساليب البيان فى شعر المحدثين ، وليست بدعا جديدة فى الأدب والشعر كما ذهب إليه من تعصبوا للأدب القديم ، واعتزوا بفحولة الشعر الجاهلى وجزالته ، وأنكروا مذاهب المحدثين فى صناعة الشعر وسهولته وتكلف البديع فيه .

وكان دفاع ابن المعتز رائعا قويا موقفا استحق عليه تقدير المنصفين من النقاد . ولون الثقافة الشائعة فى الكتاب هى الثقافة العربية العميقة الخالصة عن شوائب الثقافات الأخرى ، فقد ألفه ابن المعتز وهو فى سن الشباب قبل أن يطلع ويلم ويتعمق فى دراسة آثار الثقافات الأخرى ، وإذا ما وازنا بين البديع لابن المعتز وفصول التماثيل أحد مؤلفاته فى أواخر حياته ، وجدنا الأول عربيا خالصا فى ثقافتنا من حيث كان الثانى مظهرا لثقافة متنوعة مختلفة الأصباغ والألوان .

وألوان البديع عند ابن المعتز خمسة :-

الاستعارة - التجنيس - المطابقة - ررد العجز على الصدر - المذهب الكلامى .

ويجعل ما عدا ذلك من محاسن الكلام والشعر ، ويقول أنها كثيرة ولا يرى حرجا فى إضافة هذه المحاسن أو غيرها إلى البديع^(١) ، وذكر من المحاسن : الالتفات ، الاعتراض ، الرجوع ، حسن الخروج ، تأكيد المدح بما يشبه الذم ، الإفراط فى الصفة ، حسن التشبيه ، لزوم ما لا يلزم ، حسن الابتداء - فابن المعتز جمع من ألوان البديع ثمانية عشر لونا ، ولقد عاصره قدامة ابن جعفر الكاتب الذى جمع منها عشرين نوعا . اشترك مع ابن المعتز فى سبعة منها وهى : الغلو أو الإفراط ، التشبيه - الاستعارة - الكناية ويسميا قدامة الإرداف مريدا بها المعنى الاصطلاحي للكناية فى حين أن ابن المعتز يريد بها المعنى اللغوي - التكافؤ وهو عند ابن المعتز المطابقة - المطابق والمجانس وهو عنده باب التجنيس - الالتفات .. وانفراد قدامة بثلاثة عشر هى : التصريح - المقابلة - المساواة - الإيغال - الاستطراف - صحة التقسيم - صحة التفسير - المبالغة وهى غير الغلو عند قدامة - الإشارة (الإيجاز) -

(١) ١٠٦ البديع .

التمثيل التتميم الترصيع وهو أن تكون أجزاء البيت مسجوعة التوشيح ... وهذه هي الأنواع الثلاثة عشر التي استقل بها قدامة إذا أضيفت إلى السبعة عشر نوعا التي جمعها ابن المعتز يكون البديع قد وصل في عهد قدامة إلى ثلاثين نوعا . ثم تتبع الناس هذه الألوان ، فجمع أبو هلال منها في المصنعتين سبعة وثلاثين نوعا: منها ٢٩ ذكرها أبو هلال في باب أنواع البديع^(١) ومنها التشبيه الذي ذكره في باب مستقل^(٢) غير الباب الذي عقده للبديع وإن كان لا يشير إلى أنه من البديع فيكون الجميع ثلاثين نوعا يضاف إليها سبعة من زياداته^(٣) وهي : التشطير والمجاورة . والاستنهاد والمضاعفة (التورية) والتطريز والتلطف والهشيق .. ثم جمع ابن رشيقي من ألوان البديع مثل ما جمع أبو هلال وأضاف إليها في عمدته خمس وستين بابا في بحث الشعر ، وتلاه شرف الدين الشاشي فبلغ بها أكثر من ذلك . ثم تكلم فيها ابن أبي الأصبع المصري م عام ٦٥٤ هـ فأوصلها إلى التسعين في كتابة الجيد " تحرير التحبير في علم البديع " ، ثم صنف ابن منقذ كتابة التفريع في البديع جمع فيه خمسة وتسعين نوعا ، ثم جاء صفى الدين الحلبي م ٧٥٠ هـ فجمع ١٤٠ نوعا في بديعته في مدح الرسول التي سماها " الكافية البديعية " وشرحها بنفسه ، ثم حذا الناس حذوه ونظموا كثيرا من البديعات ، وأما السكاكي فذكر تسعة وعشرين نوعا من البديع ، وقد ذكر صاحب التلخيص من البديع المعنوي ثلاثين نوعا ومن اللفظي سبعة ، وقد ألم بتطور البديع في اختصار كثير من الباحثين^(٤) .

ولكتاب البديع أهمية كبيرة في فهم نشأة البديع وتطوره في البيان العربي على مر عصورنا الأدبية ، وهو ينحو في دراسة ألوان البديع إلى الدراسة التطبيقية الواسعة التي لها أثرها في تكوين الملكة والذوق ودعم الفكرة والرأى في نفس القارئ ، ويشتمل الكتاب على ٣١٢ شاهدا من عيون الشعر العربي تبلغ نحو ٤٢٥ بيتا أو تزيد ، فوق ما اشتمل عليه من بليغ النصوص والشواهد من الذكر الحكيم وحديث رسول الله وكلام الصحابة والأعراب وبلغاء الكتاب ، والكتاب مع ذلك خلو

(١) سماه على بن هارون المنجم تهيمًا ، وسماه ابن وكيع المطعم وسماه المتأخرون إرسادا ، وهو أن يدل صدر البيت على قافيته .

(٢) ٢٥٨ صناعتين وما بعدها .

(٣) ٢٤٩-٢١٦ صناعتين .

(٤) ٤١٧-٣٩٩ صناعتين .

(٥) راجع ٩٢ عقود الجمان للسيوطي : ٤/٤٦٧ وما بعدها حاشية السبكي على التلخيص . ٢/٤٥ تاريخ آداب اللغة لمحمد دياب .

من الإصطلاحات العلمية الدقيقة وتحديدات المنطقيين العميقة . وهو يكتفى في توقيفك على مدلول اللون البديعي بشرح أدبي موجز حيناً وبما تدل عليه الشواهد حيناً آخر ، وبأسلوب يفيض سهولة وبلاغة ، مما يدل على ذوق سليم وفطرة عربية مطبوعة ، وأهم سمة يمتاز بها الكتاب بعد ذلك كله هو النظام الدقيق في العرض مما يتجلى في جميع أبواب الكتاب ، مع حصافة الذوق وسعة الاطلاع وحسن الاختيار في جميع شواهد الكتاب ، وهو فوق ذلك أظهر خطوة علمية موفقة في للتأليف في البديع والبيان ، وإذا أغمضنا النظر عن الخطوة الأولى التي خطاها ثعلب في كتابه . " قواعد الشعر " كان عمل ابن المعتز جديداً مبتكراً من كل نواحيه .

نماذج من شعر ابن المعتز :

ومن شعره في وصف سحابة :

وسارية لا تمل البكا	جری دمعها في خدود الثرى ^(١)
سرت تقدح الصبح في ليها	ببرق كهندية تنتضى ^(٢)
فلما دنت جلجلت في السما	رعدا أجش كجرس الرحا ^(٣)
ضمان عليها ارتداع اليفاع	بأنوارها واعتجار الربا ^(٤)
فما زال مدمها باكيا	على الترب حتى اكتسى ما اكتسى ^(٥)
فأضحت سواء وجوه البلاد	وجن النبات بها والتقى ^(٦)

وقال يصف سيفه :

ولى صارم فيه المنايا كوامن	فما ينتضى إلا لسفك دماء ^(٧)
ترى فوق متنيه الفرند كأنه	بقية غيم رق دون سماء ^(٨)

(١) السارية : السحابة تسرى ليلا . ويريد بالبكاء الأمطار ، الثرى : الأرض .
(٢) تقدح : ترقق ، والأصل قدح بالزند : أى حاول اخراج النار منه . هندية سيوف : منسوبة إلى الهند . لأنها كانت تجيد صنعها . تنتضى : تسل . يقول : إن برقها يلمع في الليل كأنه صباح .
(٣) جلجلت : رعدت ، أجش : غليظا ، الجرس : الصوت .
(٤) الارتداع : الصبغ ، اليفاع : ما ارتفع من الأرض ، الاعتجاز : لف العمامة ، الربا جمع ربوة : الأرض المرتفعة .
(٥) الأنوار جمع نور بفتح النون : الزهر .
(٦) اكتسى ما اكتسى : أى اكتسى رداء جميلا .
(٧) وجود البلاد : جوانبها ونواحيها ، جن النبات : زكا وطال .
(٨) الصارم : السيف القاطع ، المنايا جمع منية : الموت ، كوامن : ساكنة .
(٩) فرند السيف : وشبهه وجوهه ، دون : أسفل ، والفرند للسيف : كالغيم للسماء .

وقال يصف غديرا :

غدير ترجرج أمواجه
إذا الشمس من فوقه أشرقت
هبوب الرياح ومصر الصبا^(١)
توهمته جوشنا مذهبنا^(٢)

وقال يحذر الطالبين من طلب الخلافة ويتوعددهم :

أبى الله إلا ما ترون فما لكم
تركناكم حيننا فهلا أخذتم
زمان بنو حرب ومروان ممسكو
ألا رب يوم قد كسوكم عمانما
فلما أراقوا بالسيوف دماءكم
فحين أخذنا ثأركم من عدوكم
وحزنا التي أعيتمكم قد علمتم
عطية ملك قد حباننا بفضلها
وليس يريد الناس أن تملكوهم
وإياكم إياكم وحذار من
ألا إنها الحرب التي قد علمتم

عتاب على الأقدار يا آل طالب^(٣)
تراث النبي بالقنا والقواضب^(٤)
أعنة ملك جائر الحكم غاصب^(٥)
من الضرب فى الهامات حمر الذوائب^(٦)
أبيننا ولم نملك حنين الأقارب
قعدتم لنا تورون نار الجباحب^(٧)
فما ذنبنا ؟ هل قاتل مثل سالب ؟
وقدرة رب جزيل المواهب
فلا تثبوا فيهم وثوب الجنادب^(٨)
ضراغمة فى الغاب حمر المخالب^(٩)
وجربتم والعلم عند التجارب

وقال فى الطرد :^(١٠)

لما تفرى الأفق بالضياء
وشمطت ذوائب الظلماء
مثل انتسام الشفة للميماء^(١١)
وهم نجم الليل بالإغفاء^(١٢)

(١) الصبا : ربح شرقية .

(٢) الجوشن : الدرع ، مذهب : ممود بالذهب .

(٣) يريد أن الله أبى عليكم أن يوليكم أمر المسلمين ويجعل الخلافة فيكم .

(٤) التراث : الميراث ، والقنا : الرماح ، والقواضب : السيوف .

(٥) زمان : مضاف إلى الجملة الاسمية بعده ، ويريد بنى حرب ومروان دولة بنى أمية .

(٦) الهامات : الرؤس ، والذوائب : جمع ذؤابة وهى هنا طرف العمامة .

(٧) الجباحب : ذباب يطير بالليل له شعاع فى ذنبه وما اقتدح من شرر النار فى الهواء من تصادم الحجارة ونحوها ، وأورى نار الجباحب كناية عن الفتنة لا تفيد شيئا .

(٨) الجنادب : جمع جندب : حيوان كالجراد كثير القفز .

(٩) الضراغمة : الأسود ، والغاب : مأوى الأسد ، والمخالب : الأظفار ، ويريد بالضراغمة العباسيين وجنودهم .

(١٠) الطرد بفتحيتين : مزاولة الصيد .

(١١) تفرى : تشقق ، والشفة اللميماء المثربة سمرة فى حسن .

(١٢) شمطت : اختلط سوادها ببياضها .

قدنا لعين الوحش والظيباء	داهية محذورة اللقاء ^(١)
شانلة كالعقرب السمراء	مرهفة مطلقة الأحشاء ^(٢)
كمدة من قلم سوداء	أوهديبة من طرف الرداء ^(٣)
تحملها أجنحة الهواء	تستلب الخطوة بلا إبطاء
ومخطفًا موثق الأعضاء	خالفها بجلدة بيضاء ^(٤)
كأثر الشهاب في السماء	ويعرف الزجر من الدعاء
بأذن ساقطة الأرجاء	كوردة السوسنة الشهلاء ^(٥)
ذا برثن كمشقب الحذاء	ومقلبة قليلة الأقداء ^(٦)
صافية كقطرة من ماء	ينساب بين أكم الصحراء
مثل أنسياب حية رقطاع	آنس بين السفح والفضاء ^(٧)
سرب ظباء رتع الأطلاء	في عازب منورة خلاء ^(٨)
أحوى كبطن الحية الخضراء	فيه كنقش الحية الرقشاء ^(٩)
كأنها دفائر الشمطاء	يصطاد قل الأين والعناء ^(١٠)

خمسين لا تنقص في الإحصاء

(١) العين : جمع أعين وهو ثور بقر الوحش ، ويريد بالداهية كلبة الصيد .

(٢) شانلة : مرتفعة الذنب ، ومرهفة : مديبة .

(٣) المدة : الواحدة من المداد ، الهدبة : الطرف .

(٤) المخطف : الضامر ، وهو عطف على داهية السابقة .

(٥) الأرجاء : الأنحاء . والسوسن : الزنبق .

(٦) البرثن : المخلب . والحذاء : الإسكاف .

(٧) السفح : عرض الجبل ، وأنس : أبصر ، والفاعل ضمير يعود على المخطف .

(٨) سرب ظباء في البيت بعده مفعوله المفعول .. عازب أي مرعى خصيب مزهر .

(٩) الأحوى : شديد الخضرة في سواد وهو وصف للعازب قبله .

(١٠) الأين : التعب .

أبو الطيب المتنبي

المتوفى سنة ٣٥٤ هـ

هو أبو الطيب أحمد بن الحسين بن عبد الصمد الكندي الجعفي الكوفي المعروف بالمتنبي . ولد أبو الطيب سنة ٣٠٣ هـ - ٩١٥ م بالكوفة في محلة تسمى كندة فنسب إليها . وليس هو من قبيلة كندة المشهورة . بل هو جعفي القبيلة . وقيل له المتنبي لأنه ادعى النبوة في بادية السمادة وتبعه خلق كثير من بني كلب وغيرهم فخرج عليه لؤلؤ أمير حمص نائب الأمراء الأخشيدية فأسرره وفرق أصحابه وحبسه . ثم استتابه وأطلقه .. وعاش أبو الطيب في ضيق عيش إلى أن لحق بالأمير سيف الدولة ابن حمدان صاحب حلب سنة ٩٤٨ م . فصار يمتدحه وبسبر في صحبته ، وله فيه القصائد العديدة ، وكان لسيف الدولة مجلس يحضره العلماء فيتكلمون بحضرته فوق مرة بين أبي الطيب وابن خالويه النحوي كلام فوثب ابن خالويه على المتنبي وضرب وجهه بمفتاح كان معه فشجه وخرج ودمه يسيل على ثيابه ولم ينتصر سيف الدولة لأبي الطيب ، فغضب وفارقه ، ودخل مصر سنة ٩٥١ م . ومدح كافورا الأخشيدى وكان كافور صاحب مصر ، فأكرم أبا الطيب وأنعم عليه بصلات جزيلة ووعدته بولاية بعض أعماله ، ولكن لما رأى كافور تفاخر أبي الطيب بشعره وسموه بنفسه خافه ولم يعطه ولاية ، ولما يرضه هجاه ، وفارقه سنة ٩٦١ م .. ولما عوتب كافور في أبي الطيب قال : " يا قوم من ادعى النبوة مع محمد أما يدعى المملكة مع كافور فحسبكم " ووجه كافور خلفه رواحل إلى جهات شتى فلم تلحقه وقصد أبو الطيب بلاد فارس ومدح عضد الدولة بن بويه الديلمي . فأجزل جائزته ورجع من عنده قاصدا بغداد ثم إلى الكوفة . فعرض له في طريقه فاتك بن أبي جهل الأسدي في عدة من أصحابه ، وكان مع أبو الطيب أيضا جماعة من أصحابه فقاتلوهم ، قيل لما رأى أبو الطيب أن الغلبة عليه أراد يفر فقال له غلامه مفلح : لا يتحدث عنك الناس بالفرار أبدا وأنت القاتل :

فالخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم ..

فكر راجعا حتى قتل ، وكان ذلك في شهر رمضان سنة ٩٦٥ م . وقد اشتغل أبو الطيب بفتون الأدب ومهر فيها ، وكان من المطلعين على غريب اللغة وحواشيها ، وقد عاش في صباه مدة طويلة بين أهل البدو فاكسب الحرية وشرف النفس ، وترى ذلك في كثير من أشعاره ، ومما يدل على ذلك أنه لم يلتحق بسيف الدولة حتى

شرط عليه أن لا يقبل الأرض بين يديه حين يدخل عليه وأن لا يقول الشعر إلا جالسا . كان أبو الطيب يقف بين يدي كافور وبين رجله خفان وفي وسطه سيف ومنطقة ، وكان يحب الصدق والعفاف ويعاب عليه التكبر وحب الذات والبخل .. فأما شعره فهو في غاية البلاغة حتى أنه يعد في درجة امرئ القيس ، وكان ينتقد شعره قبل أن يقول ، واشتهر في وصف وقائع الحرب والمدح والشجاعة وفي الحكم ، وحكمه أشهر من أن تذكر ، وقد اعتنى العلماء بديوانه فشرحوه ويقال أنه يوجد أكثر من أربعين شرحا لديوانه - ولي دراسة مفصلة عنه في كتابي "قصص من التاريخ"

شعر المتنبي :

صاغ أبو الطيب شعره صياغة فنية تتجلى فيها روح القوة والحرية والحياة . وقوة التعبير سمة من سمات أبو الطيب نجدتها في ألفاظه وأساليبه ، كما نجدتها في معانيه وقد أفاضت روح القوة في نفس الشاعر على شعره وفنه هذه السمة الواضحة ، وكذلك حرية التعبير من أهم خصائص المتنبي الفنية ، وقد كان مع إحاطته التامة باللغة وأساليبها يطلق نفسه وفنه من كل قيد لا يتلاءم مع شعوره وإلهامه الشعري وذوقه الفني الحساس ، ويختار من الصيغ اللفظية أو البيانية ما يوائم شعوره ، ويعبر عن عواطفه ، ويطرد مع روحه وشخصيته وأمانيه ، يرسل القصيدة إرسالا لا يبالي بنقد النقاد :

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

وهو في ذلك نظير الفرزدق وأبي تمام اللذين كانا ينهجان هذا الأسلوب ، ولقد هب النقاد في عصر المتنبي وبعد عصره يؤاخذونه على ما أسرف فيه من استكراه لفظ ، وتعقيد معنى ، وخروج على قواعد اللغة ، أو على الوزن الشعري ، ومن استعماله الوحشي النابي ، وهبوطه أحيانا إلى مستوى الركاكة والسفسفة ، ومن إفراطه في المبالغة والأغراق ، وخروجه عن المنهج العربي ، وذلك ما أخذه عليه الثعالبي في اليتيمة ، فقد لاحظ شدة التفاوت في شعره وأنه يجمع بين البديع النادر والضعيف الساقط ، وهذا إلى تعسفه في اللغة والتراكيب وقبح المطلع أحيانا .. غير أن هذه الحرية كشفت لنا عن نفس الشاعر وآراءه وآماله في أسلوبه ، ولم تستطع قيود البيان والشعر أن تحد من نزاعاته ، وتقيد من حريته ، أو تخفي في ثناياها اتجاهاته وأفكاره ، لا ولم تستطع هذه القيود أن تطمس روح الشاعر في شعره ، أو تضعف شخصيته في أسلوبه ، بل تستطيع أن تقرأ أي قصيدة من قصائده ، أو بيت من أبياته ، فسترى فيما تقرأ روح الشاعر تطل عليك ، وتتحدث إليك ، ونتناجي

بأعمالها وألامها لديك . فتبر من عواطفك . وتدعل مؤمما بما آمت به من : نزوع إلى المثل العليا . وثورة ساخنة على الحياة . ثم تحفر همته على السير في النهج الذي يريده الشاعر الثائر الداعية .

وفي شعر أبو الطيب تظهر سمة أخرى لها خطرهما وأثرهما . فالشاعر لا يترك هذا المذهب الفني الذي رفع لواءه من قبل أبو تمام ، إذ يؤثر تجويد المعنى على تسهيل العبارة ، فهو من شعراء المعاني . وشعره امتداد لمذهب أبي تمام الشعري ، والحصان النية البارزة تتحلى بوضوح في شعر الشاعرين . لاسبما في روعة التعليل وسنو التحليل . ودقة الضمير وحمال الحجاب وسحر الاستعارة والكناية والتشبيه . وبلاغة النسيم والمقابلة والنسير . والنورية والتوجيه . ونحو ذلك .

وهو كأبي تمام في كثرة الحكم والأمثال حتى قيل : " أبو تمام والمنتبى حكيمان والشاعر البحترى " . غير أن أبا الطيب كما قلنا خرج على أساليب العرب المعروفة في اللغة والتراكيب في بعض شعره . وأطلق الشعر من بعض القيود التي قيده بها أبو تمام ومن ثم أطلق عليه شاعر الطريقة الابتداعية في الشعر العربي لخروجه على هذه الأساليب وقلة كلفه بالقيود الصناعية .

على أن في شعر المنتبى روح العمق والقوة التي لا تظهر على أسلوبه سمات التكلف ، وإن كان بيته يضيق أحيانا بمعناه فيعسر فهمه ، ولقد سئل أبو الطيب عن صلته بأبي تمام فقال ^(١) :

" أولا يجوز للأديب أن يعرف شعر أبي تمام ، وهو أستاذ كل من قال الشعر ، ويقول ابن الأثير : " إن أبا الطيب أراد أن يسلك مسلك أبي تمام فقصرته عنه خطاه ، ولم يعطه الشعر من قياده ما أعطاه ، وكان المنتبى ينشد روائع أبي تمام ويروي جميع شعره " . ولقد امتاز أبا النيب كما أسلفنا بعمق الفكرة الشعرية ، وبقضة العقل الأدبي ، الذي وعى التراث الشعري ، للقمامي والمحدثين . فهضمه وأخرجه أدبا حيا جديدا . رانعا في فكرته وحكمته ، روعته في مادته وصياغته ، قويا في دعواته ومراميه ، قوته في أسلوبه ومعانيه .

وبذلك الطبع وفي هذه الأساليب نظم أبو الطيب روائع فنه وإلهامه ، داعيا إلى حياة اجتماعية وقومية وقوية ، تحرر فيها نفوس بني قومه من غلال الذل والاستعباد ، وتتطلع إلى حياة العزة والكرامة ، لتسترد الروح العربية نفوذها ومجدها ، ويستعيد أبناء الشعوب العربية تراثهم المفقود ، ومجدهم المنشود .

وكان شعره مثالا رائعا للحياة القومية في عصره ، وصورة بارزة للحياة الفكرية والأدبية ، ثم كان فيه تصوير للنزاع بين المثل العليا والحقائق الواقعية ، ونضال بين الأمل و الأمل ، وبين اليأس والرجاء ، والسخط والرضاء ، والحب والبغض . وفيه صورة زاهية لثورته النفسية المتشائمة ، ودعوته الاجتماعية النظرية الداعية إلى القوة والطموح التي دعا إليها "نتشه" في العصر الحديث ، ولقد حارب أبو الطيب الضعف الإنساني في جميع مظاهره ، كما حاربه "نتشه" ، ودعى إلى الثقة بالنفس والعمل للحياة بأقصى ما يمكن من قوة إقدام كما دعى إلى ذلك "نتشه" ، وأصل الفضائل جميعها عند الرجلين هو إرادة القوة والسعي إليها والظفر بها في شتى صورها ، وذلك هو السعادة المنشودة المرتجاة ، وبين آرائهما كثير من ألوان الاتفاق تراها في مطالعات للعقاد (١٥٧ - ١٦٣) ، وشعر المتنبي يتحدث كثيرا عن منازع الحياة البشرية ويصف الطباع الإنسانية وصف المحيط بها الذي أكلها تجربة وبحثا ، وقد امتاز شعره بسمو الحكمة الإنسانية ودقة تغلغلها في صميم الحياة وإدراكها لبواطن الأمور وتمشيها مع ثمرات التجربة والواقع .

وشعره فوق ذلك تصوير بارع لحياة الشاعر نفسه ، بما كان يختلج في صدره من طموح إلى المجد وثورة على نظم السياسة والاجتماع ، ودعوة إلى القضاء على مظاهر الضعف فيها بظبا السيف أو بشبابة البراع وأبو الطيب رائع في رثائه كما هو رائع في مدحه وفخره وهجائه ووصفه وحكمته .

وعلى رثائه مسحة من الفلسفة الحائرة التي يستمددها الشاعر من ثقافته وحياته ، ويضمنها فلسفة الحياة والموت والفناء والخلود ، كما يودعها فلسفة الحزن والبكاء والصبر والعزاء .. ومدحه ليس تفانيا في شخصيات ممدوحيه ، إنما هو اعتزاز بشخصيته ونفسيته ، والشاعر يتخذه سلما يصعد عليه إلى ذروة المجد والسلطان .

وتشيع في أعطاف هجائه روح التهكم والسخرية والإقناع ، وفلسفة السخرية نشدها المتنبي في ثورات غضبه وسخطه فأجاد الحديث فيها في دقة وخفاء ، ولكنها عند ابن الرومي نزعة طبيعية في نفسه ظهرت في شعره ، فكان أبعد الشعراء منزعا في تصويرها . وإبعاد مرماها ، وإصماء وقعها ، وتري روح السخرية عند المتنبي في أهاجيه لكافور ، وفي مدائحه التي كان يثنى بها عليه وكان يطوى فيها المدح على الهجاء حذقا منه بصنعة الشعر كما يقول ابن جني^(١) .. ويمكننا أن نرجع روح الشاعرية عند المتنبي إلى بعد آماله ، وطول إخفاقه فيها ، وسخطه على الناس

(١) ٣٧٩ ج١ الكبرى .

والحياة . وإلى روح العظمة وشدود العبقرية في نفسه ، وإلى نهمة في الانتقام ممن يتعرض له بشر ، أو يحول بينه وبين غاياته ، وهى في وضوحها وغلبتها على شعره لا يعادلها إلا دعواته الساخطة وآراؤه المتشائمة الناقمة على الحياة والأحياء : وأبو العلاء يستمد من أبى الطيب هذا الاتجاه ، وإن كان يخالفه في بواعثه وفى نتائجه . فسخط أبى العلاء وتشاؤمه يقوم على شعور وثيق بعد الإنسانية عن حياتها المثلى ، أما تشاؤم أبى الطيب فراجع إلى إخفاقه فى آماله . وسخط أبى العلاء ينتهى به إلى الزهد فيها والانصراف عنها .

وقد كان هجاء أبى الطيب معولا هدم به صروح المجد التى أقامها من هجاءهم . فإذا هم صورة مشوهة هى سخرية الأجيال وحديث القرون .

ويبلغ وصفه مبلغ الروعة والقوة حين يصف به معارك القتال وحومات الوغى ، وروح البطولة واضحة من قصائد المتنبى لا سيما فى الفترة التى قضاها فى بلاط سيف الدولة حيث الصراع الدائم والكفاح الطويل بين سيف الدولة وأعدائه .

وفخره حديث عن عصاميته واعتزاز بشخصيته وكرامته وتصوير لآماله وغاياته ، وللمتنبى نسيب ولكنه متكلف مصنوع ضئيل فى معانيه ، بعيد عن روح الغزل فى أسلوبه ، لأنه لم يكن بين الغوانى وقلب أبى الطيب صلة ، فهو طالب مجد وداعى قوة وشاعر سيف ورمح ورسوله فضيلة ومثل ، فماله للغوانى والنسيب بهن ؟ والنسيب إنما هو وحى الحب الصادق والروح الوادعة ، والعواطف المتيمة حين يقع القلب فى أسر الهوى ، وما أبعد المتنبى عن ذلك ، وهل عرف الحب من يقول :

وما العشق إلا غرة وطماعة يعرض قلب نفسه فيصاب
وغير فؤادى للغوانى رمية وغير بنانى للرخاخ ركاب

وهو الذى يدعو على الغوانى مثل هذا الدعاء الجاف :

أيا خدد الله ورد الخدود وقد قدود الحسان الغيد

وليس لنسيب المتنبى خطر فى روحه . إنما أثره فى فنه وأسلوبه كقوله :
سقاك وحيانا بك الله إنما على العيش نور والخدود كمانمه

وقوله :

نزلنا عن الأكوار نمشى كرامة لمن بان عنه أن نلم به ركبا
نذم الحسان الغر فى فعلها به وتعرض عنه كلما طلعت عتبا
ذكرت به وصلا كأن لم أفز به وعيشا كأنى كنت أقطعه وثبا

ونسبيته على العموم، تقليدي بحت ، ولم يكن المتنبي ممن شغفوا بجمال الطبيعة وأسرارها ، ولا ممن تأصلت في نفوسهم روح المرح والفكاهة ، ولكنه جاد أقبل بجملته على جهاد الحياة ، وشعره صورة لما يختلج في النفوس المجاهدة من آمال ، وروح الخيال عنده كما هو عند أبو العلاء ضعيف ، إذ كانا رجلا حقيقة وتفكير لا خيال وتصوير .

شهرته:

وشهرة المتنبي الأدبية الذائعة ترجع إلى خصائص فنه الأدبي كما ترجع إلى عوامل أخرى سياسية واجتماعية .

فحياة أبي الطيب في قصور ملوك الشرق وأمرائه : الحمدانيين والأخشيديين والبويهيين ، وفي عواصم العالم الإسلامي إذ ذاك : حلب ودمشق ومصر والكوفة وبغداد وشيراز ، وتعرفه برجالاتها وزعماء النهضات الثقافية والفكرية والأدبية والاجتماعية والسياسية فيها ، مما أذاع في العالم الإسلامي شهرته ، ثم منته الخصومات العنيفة التي منى بها المتنبي في كل بلد حل فيه ، وتناؤل الشعراء عن مجازاته أو تحديد في سحر القريض ، ثم ذلك التجاوب بين عواطفه وشتى العواطف الإنسانية ، وهذا التساوق بين آرائه وتجاربه وحكمة الحياة ، والتمازج بين مشاعره ومشاعر خاصة الأدباء والمفكرين ، وهذا السمو بنفسه وبالفن الذي يؤدي رسالته ، كل ذلك كان من عوامل إذاعة شهرته الخالدة .

وقد تأثر بشعره الكتاب والشعراء والأدباء والشعراء في عصره وبعد عصره ، فالصابي والصاحب وسواهما من الكتاب المعاصرين له اقتبسوا من شعره في رسائلهم ، وكذلك نسج الشعراء على منواله وحاكوه في شتى العصور ، لا سيما في حركة الإحياء الأدبي في العصر الحديث ، وعصبية شاعر كأبي العلاء له هي عصبية للفن والأدب قامت برغم بعد الزمن وانتفاء المؤثرات بينهما .

المتنبي والنقد الأدبي :

ولا نكاد نجد شاعرا اختلفت الناس في منزلته الأدبية ومكانته بين فحول الشعراء ، في عهده وبعد عهده ، مثل المتنبي ، فقد افرق النقاد فيه فرقا ثلاثة :

فطائفة بالغت في التعصب له ورفعتة إلى منزلة كبيرة في الأدب وعلى عرش القريض.

وطائفة بالغت في التحامل عليه والوضع من شأنه وشعره ، فوضعتة في مكانة دون مكانته ، ومنزلة دون منزلته لخصومة خاصة بينهم وبين الشاعر وحده . أو لخصومة عامة بينهم وبين المحدثين جميعا ، وأغلب هذه الخصومات نشأت بتأثير عواطف شخصية ومنافسات أدبية وأغراض سياسية ، والقليل الأقل منها كان برينا من الغايات ، لم تدفعه إلا يد النقد الأدبي النزيه .

وطائفة أخرى جعلت تعصبها للأدب ، لا له فعرضت ووازنت ونقدت وحكمت على ضوء العدالة الأدبية ، وكانت هذه الخصومات سببا في كثرة الدراسات الأدبية التي تدور حول شعره ، وكان فيها ثروة كبيرة للنقد الأدبي خاصة للأدب والشعر والبيان عامة ، وحسبك أن المتنبي شرح شعره وعلق عليه وألف في نقده وكتب عن شعره فحول الأدباء والنقاد والعلماء ، من الشرقيين والمستشرقين كتب عن المتنبي الثعالبي م ٤٢٩ في الجزء الأول من اليتيمة كتابة فيها دراسة لحياته ونقد لشعره وترجم له ياقوت م ٦٢٦ هـ^(١) ، وابن خلكان م ٦٨١ هـ^(٢) ، وألف البديعي م ١٠٧٣ هـ في حياته وشعره كتابه " الصبح المنبى " وكذلك فعل كثير من الكتاب والأدباء في العصر الحديث نخص منهم المرحوم السيد محمد توفيق البكري في كتابه " أخبار أبي الطيب المتنبي " ، " والمتنبي " للأستاذ جبرى ، " ومع المتنبي " في جزأين للأستاذ طه حسين ، و " ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام " للدكتور عبد الوهاب عزام ، و " المتنبي " للأستاذ محمود محمد شاكر وقد نشرته مجلة المقتطف في عدد خاص ، ومجلة الهلال العدد العاشر عام ١٩٣٥ الخاص بالمتنبي ، وصحيفة دار العلوم ، وسواها من الدراسات للمؤلف ، وكان العيد الألفى لذكرى أبي الطيب عام ١٩٣٥ هـ هو المثير لهذه الدراسات فامتلات الصحف والمجلات بالحديث عن حياته وشعره ، وظهرت المؤلفات الحافلة بالبحوث الأدبية فيه ، وفي " مطالعات " للعداد ، و " حصاد الهشيم المازنى دراسة واسعة للمتنبي وفنه ، وقد شرح ديوانه شرح دراسة وتحليل ونقد : ابن جنى م ٣٩٢ هـ في ثلاثة مجلدات وله كتاب في " معانى أبياته " ، ولابن فورجة " التجنى فى الرد على ابن جنى " و " الفتح فى الرد على أبي الفتح " ، ورد على ابن جنى كذلك على بن عيسى الربيعى المتوفى سنة ٤٣٥ هـ فى كتابه " التنبيه " وشرح ديوانه كذلك ابن الأفلهى م ٤٤١

(١) ٣٦٦ ج ١ طبقات الأدباء .

(٢) ٣٦٦ ج ١ ابن خلكان .

وأبو العلاء م ٤٣٥ في كتابه " اللامع الغريزي في معجز أحمد " والواحدى م ٤٨١ هـ. وعبد القاهر الجرجاني م ٤٧١ هـ ، والتبريزى م ٥٠٢ هـ ، والعبرى م ٦١٦ هـ ، واليازجى والبرقوقى فى عصرنا الحديث .

ونقد شعره كثير من النقاد فى مختلف العصور ، فللصاحب م ٣٨٥ هـ فى نقد شعره رسالته " الكشف عن مساوى المتنبى " . وللخوارزمى م ٣٨٣ هـ كتاب مفقود^(١) ، ولأبى الحسن الجرجانى م ٣٩٢ هـ كتابه الممتع " الوساطة بين المتنبى وخصومه " ، وللخاتمى م ٣٨٣ هـ " رسالته الختامية " وكتابه " جهة الأدب " ، تحدث فى الأولى عن مناظرته للمتنبى ، وفى الآخر عن سرقانه من أرسطو^(٢) ، ولمحمد ابن وكيع المصرى الشاعر م ٣٩٣ هـ كتابه " المنصف " فصل فيه سرقات المتنبى^(٣) ، وللعמידى كتابه " الإبانة " وقد نقل عنه البديعى كثيرا من نقده وناقشه^(٤) ، ولابن حسنون المصرى كتابه " نزهة الأديب فى سرقات المتنبى من حبيب " ، وألف أديب آخر كتاب " المآخذ الكندية من المعانى الطائفة " أى سرقات المتنبى من أبى تمام . وغير ذلك من كتب النقد التى تدور حول شعر المتنبى .

وقد أبدى علماء الأدب فى شتى العصور رأيهم فى المتنبى وشعره : كالشريف الرضى م ٤٠٥ هـ^(٥) ، وابن رشيق له ٤٥٦ هـ فى " عمدته " وابن خلدون م ٨٠٨ هـ فى " مقدمته عن الشعر " ^(٦) ، وسيف الدولة الحمدانى م ٣٥٦ هـ^(٧) وابن العميد م ٧٦٠ هـ وأبو فراس الحمدانى م ٣٥٧ هـ^(٨) ، وابن خالويه النحوى^(٩) وسيبويه المصرى^(١٠) والحاتمى ، وقد عرض الكيلانى فى كتابه " صورة جديدة من الأدب العربى " مناظرة الحاتمى لأبى الطيب ، وغير هؤلاء من الباحثين ، ونقده كثير من الكتاب المحدثين ، وكثير من المستشرقين مثل : وايسكى ، دى ساسى ، بولمين ، بركلمان ، نيكلسون ، عامر ، ديتريشى ، وكتب المستشرقين الإنجليزى هندلى فى تاريخ حياة أبى الطيب بحوثا قيمة نشرها فى القرن التاسع عشر .

(١) ١٦١١ صبح . ٢٦٦ ج ٢ النشر الفنى .

(٢) ١١١١ - ١١٩ ج ٢ المرجع .

(٣) ١٥٨٢ و ١٦١ صبح .

(٤) ١١١٤ - ٥٩ صبح .

(٥) ١٠٣ صبح .

(٦) ٤٣ صبح .

(٧) ٤٦ - ٤٨ صبح .

(٨) ٤٥ و ٩٠ - ١٠٣ صبح .

(٩) ٦٣ صبح .

(١٠) ٧١ - ٨٠ صبح ، ١٠٦ - ١٣٧ صور جديدة لكيلانى .

بين المتنبي وابن هانيء شاعر المعز

- ١ -

عاش المتنبي (٣٠٣ - ٣٥٤) في العصر الذي عاش فيه ابن هانيء الشاعر (٣٢٠ - ٣٦٢) هـ. ولقد كان أبو الطيب المتنبي شاعرا ، ولكنه أراد أن يكون ملكا على عرش من العروش ، أو أميرا على ولاية من الولايات ، فأخفق ، أراد أن يترك الشعر إلى السياسة ، فردته الأيام عن السياسة إلى الشعر ، فبرم أبو الطيب بحياته التي لم يدرك فيها آماله وأحلامه ، فملا شعره سخطا على الناس ، وغضبا على المجتمع ، وبرما بالحياة ، بعد أن كان يذيعه أنغاما حية من الطموح والأمل والأقدام ، وأخذ يدعو إلى مذاهب جديدة متشائمة ، أوحى بها إليه سخطه وغضبه ، وآرائه وتجاربه ، وآماله وآلامه ، بعد أن يدعو إلى القوة والطموح والتفاؤل ، وظل كذلك حتى خر صريعا مضرجا بالدماء .

وأخطأ أبو الطيب من حيث أصاب القدر ، فهذا المجد السياسي الفاني الذي طلبه المتنبي في حياته ما قيمته وما جدواه وما شاوه أمام هذا المجد الأدبي الخالد ، الذي كتبه له الأيام بعد وفاته ، وقلدته عروشه الباقية الخالدة .

فالمتنبي كشاعر هو هو ، هو الذي عصف في حياته بخصومه وأقرانه في مصر والشام والعراق وإيران ، وذهب شعره في أرجاء العالم الإسلامي إذ ذاك نائرا مدويا :

فشرق حتى ليس للشرق مشرق وغرب حتى ليس للغرب مغرب

يردده الناس ، وتشدو به الحياة :

وما الدهر إلا من رواة قصاندى إذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا

وهو الذي فتن بشعره ، فتنة الفنان بفنه ، حتى رأى أنه يتبوأ في الشعر العربي عروش الإمارة ، من حيث حرما هو :

إن هذا الشعر في الشعر ملك سار فهو الشمس والدنيا فلك

ورأى أهل الجاهلية تقصر عن مداه :

ما نال أهل الجاهلية كلهم شعري ولا سمعت بسحري بابل

ثم كان أبو الطيب الشاعر الذي نال بعد حياته من المجد الأدبي ما لم ينله شاعر من الشعراء ، فشددت الأجيال بشعره ، وهتفت القرون بذكره ، وعكف كثير من فحول الأدب والبيان في كل عصر وجيل على تراثه الأدبي بحثاً ودراسة ونقداً ، وعدوه شاعر العربية في عصره ، بل جعله كثير من النقاد شاعر العربية الفذ في شتى عصورها الأدبية ، وأحاطوا ذكره بهالة من التقدير والإعجاب ، وجلال الذكر عظمة الفن ، تشبه الهالة التي يحيط بها الأورييون ذكرى شكسبير وجوته وهوجو وليوباردى من أدباء الغرب الخالدين .

- ٢ -

ومن الغريب في البحث الأدبي حقاً أن نرى بين أبي الطيب المتنبي وابن هانئ الشاعر وجوها كثيرة من التشابه في العقيدة وفي الشخصية وفي الشعرية وفي المنزلة الأدبية في عصر الشاعرين :

فحياة ابن هانئ تشبه حياة المتنبي في كثير من مظاهرها والعقيدة الفاطمية التي كان يؤمن بها ابن هانئ شبيهة بالعقيدة الإسماعيلية التي آمن بها أبو الطيب ! وطموح ابن هانئ لا يعادله إلا طموح المتنبي ، ومكانة ابن هانئ عند الأمراء والملوك في عصره هي مكانة أبي الطيب في بلاط سيف الدولة وكافور وعضد الدولة ، وتتويج ابن هانئ أميراً على إمارة القريظ في دولة المعز هو ما حدث لأبي الطيب من إمارته على الشعر في المشرق ، وشاعرية الشاعرين تتشابه من وجوه كثيرة ، فالمدح وأوصاف الحروب نكادان تتعادلان في شعر الشاعرين ، ولكن ابن هانئ لم يصل إلى مكانة المتنبي في الحكمة وضرب المثل وفي الرثاء وفي بعض أغراض الشعر الأخرى ، كما أنه لم يصل إلى مكانته في دقة المعاني وبعدها وعمق الثقافة العقلية وتنوعها ، وإن كان ابن هانئ يجارى أبا الطيب في هذا الميدان إلى حد ما ، وروح الشاعرية في الشاعرين تتشابه من وجوه كثيرة ، تتشابه من حيث قوة الأسلوب وفحولته وجزالته وطبعه ، ومن حيث البعد عن الألفاظ المترفة . والإمام بكثير من الغريب ، وتتشابه في الكثير من السمات الفنية الخاصة التي تراها في شعر الشاعرين وفي تراث الشاعرين ، وفي إنتاج هذين الشخصيتين .

- ٣ -

ويشبهه النقاد وعلماء الأدب ابن هانئ بالمتنبي ، ويلقبونه بمتنبي المغرب ، ويسلمون له زعامة الشعراء في المغرب والأندلس ، ثم حاولوا أن يقارنوا بينه وبين

المتنبي ، ولكن المقارنة – مع اتحاد العصر وتوافق البيئة والمؤثرات العامة وتوافق الشعراء في كثير من مميزاتهما – غير ممكنة ، لأن لكل شاعر طابعه الخاص ، وروح الفنية المستقلة ، ونزعاته الأدبية المقصورة عليه ، وإن كان ابن هانيء أقرب الشعراء إلى المتنبي ، وأقربهم مكانة في عصر الشعراء ، ويكاد المجد الأدبي الذي لاقاه ابن هانيء في حياته يضارع الشقاء الذي لاقاه أبو الطيب في عصره ، كما يكاد الذكر الأدبي السائر الذي ناله المتنبي بعد حياته يضارع الخمول الأدبي الذي لازم اسم ابن هانيء بعد وفاته .

– ٤ –

ولقد كان ابن هانيء بطبيعة سنه تلميذا أو كالتلميذ لأبي الطيب ، قرأ ديوان المتنبي وتأثر به في كثير من معانيه وأساليبه وخيالاته ، وفي كثير من قصائده فقد استعار ابن هانيء ديوان أبي الطيب بعد وفاته ، أي بعد عام ٣٥٤ هـ ، من أديب أساء بعد في طلبه منه ، فنظم في ذلك الشاعر قصيدته :

ولو رأى رأيكم في شعره كفرا	تنبأ المتنبي فبكم عصرا
أعد أمثاله وشعره السورا	مهلا فلا المتنبي بالنبي ولا
لم تدركوا منه لآعيننا ولا أثرا	تهتم علينا بمراة وعلكم

وابن هانيء في قصيدته هذه يحاول أن يخفف من غلواء المتعصبين للمتنبي ، ثم يحاول أن ينكر فضله فيقول :

ويلمه شاعرا أخملتموه ولم نعلم له عندنا قدرا ولا خطرا

ثم يصف جنابة القوم على شعره ، وتصحيفهم إياه ، ويتهمهم بهم ، إلى أن يقول :

كالأعجمي أتى لا يفصح الخبرا	أريتموني مثالا من روايتكم
حتى رددت إليه السمع والبصرا	أصم أعمى ، ولكني سهرت له
حتى إذا ما بهرن الشمس والقمر	كانت معانيه ليلا فامتعضت له
ومن معارضيتكم ما يشبه الضجرا	ضجرتم وأنا من ملامتكم
كما حرصتم على ديوانه نشرا	ولو حرصتم على إحياء مهجته

وظاهر من هذا أن الديوان الذي كتبه هذا الأديب واستعاره منه ابن هانيء كان كثير التصحيف والخطأ ، وأن ابن هانيء صححه وكتب منه نسخة أخرى ، فاختلفت رواية هذا الأديب وأمثاله ، فأكثروا من الضجر من ابن هانيء ،

وقول ابن هانيء " فلو حرصتم على إحياء مهجته " -- أي المتنبي -- دليل على أن ذلك كان بعد وفاة المتنبي .

وابن هانيء : في أول قراءته لديوان المتنبي لم يعترف له -- كما يقول -- بقدر ولا خطر . ولكنه بعد ذلك عكف على احتذاء أبي الطيب وتقليده لا سيما في أمثاله وحكمته ، وفي شعر ابن هانيء قصائد وأبيات كلها تسير على روح قصائد وأبيات للمتنبي ، ولذلك كانت الحكمة في شعر ابن هانيء متأخرة جدا في حياته لم تواته إلا وهو في نهاية عصر رجولته ، وكذلك أيضا تجد بين ابن هانيء وأبي الطيب تشابها كثيرا في كثير من الأساليب والمعاني ، مما يطول بنا الحديث لو حاولنا تفصيل ذلك والإلمام بنواحيه .

- ٥ -

وهناك أسطورة أدبية رواها البديعي م ١٠٩٣ في " الصبح المنبي عن حثية المتنبي " ، تحدثنا بأن أبا الطيب عزم وهو في مصر على أن يهاجر إلى المغرب . فلقبه ابن هانيء في الطريق ، فأنشده أبو الطيب شعرا له ، ثم أنشده ابن هانيء من شعره . فقفل راجعا إلى مصر ، تاركا المغرب لابن هانيء شاعره .

وهي أسطورة أدبية حافلة بالبواعث التي دعت إلى اختلافها ، وفيها إشادة بابن هانيء وبفنه وشاعريته .

بين المتنبي والنقاد

- ١ -

هذه مثل لما دار بين النقاد من آراء في النقد ، ومناقشات في الحكم على الشعراء ، انكر النقاد على المتنبي قوله :

جلسا كما بي فليك التبريح أغذاء ذا الرشأ الأغن الشيخ

فقال رجال الأعراب : حذف النون من يكن خطأ ما دام قد وليها اللام ، ورد عليهم الجرجاني بأن ضرورة الشعر تجيز ذلك الحذف .. وقال أصحاب المعاني : قطع المصراع الثاني عن الأول في اللفظ والمعنى ، فقال لهم الجرجاني في وساطته : إنما يصوغ الإنكار لو قطعهما عن بعض قبل تمام المعنى ، فأما أن يستوفى مراده ثم ينتقل إلى غيره فليس بعيب ، والمصراعان في هذا كالبيتين ، يجوز استقلال كل بمعناه ، وقال البعض : قد يفعل الشاعر مثل ذلك في النسيب خاصة

..ليرى أنه مشغول عن تقويم خطابه بالحب الذى غلبه . والشوق الذى تمكن منه . وقال غيره إن بين المصراعين اتصلا لطيفا . فلما أخبر عن عظم تبريحه وشدة أسفه بين أن الذى أورثه ذلك هو الأغن الذى شككه غلبة شبه الغزلان عليه فى غذاءه .

٢- وأنكروا عليه قوله :

أمط عنك تشبيهي بما وكأنه فلا أحد فوقى ولا أحد مثلى

لأن ما ليست للتشبيه ، وقد سنل أبو الطيب عن هذا فذكر أن ما تأتي لتحقيق التشبيه ، تقول : هو الأسد وما هو إلا الأسد وإلا كالأسد . فقال الجرجاني ردا على أبي الطيب رآيه : إن التشبيه بما به محال ، وإنما يقع التشبيه فى هذه المواضع بحرفه ، وما لم تتعد موضعها من النفى ، ولكنه لما كانت ما وإلا تأتي لتحقيق المعنى الذى يفيد أصل التركيب كالتشبيه فى مثل ما هو إلا الأسد ، صح أن ينسب التشبيه تجوزا إلى ما ، إذ كان لها هذا الأثر ، وباب الشعر أوسع من أن يضيق عن مثله .

٣- وينكر النقاد على أبي الطيب جمعه بوقا على بوقات فى قوله :

إذا كان بعض الناس سيف لدولة ففى الناس بوقات لها وطبول

وإنما الصحيح جمعه على أبواق ، فقال لهم الجرجاني : إن أصل الجمع التأنيث ، فإن جمع أسما لم يجد عن العرب جمعا له فأجراه على الأصل لم يسغ الرد عليه ، أو أن ينسب الخطأ لأجله ، وإن كان لأبى الطيب عن مثل هذا مندوحة .

٤- ومما أنكره النقاد على أبي الطيب قوله :

وإنى لمن قوم كأن نفوسنا بها أنف أن تسكن اللحم والعظما

وكان الأسلوب يفرض عليه أن يقول : نفوسهم ، ولكنه قطع قبل استيفاء الكلام وإتمام الخير ، وقد رد عليهم بعض النقاد بأن الكلام جرى على أسلوب الالتفات بحمله على المعنى وصرف الضمير على وجهه ، وهو أسلوب تنطق به العرب كثيرا فى بلاغتهم وبيانها ، ولكن الجرجاني لا يقبل ذلك الرأى لما فى هذا الأسلوب ، إذا سير عليه دائما من تداخل الضمائر والتباس المعانى ، وهو أسلوب له مواضع تختص بالجواز ، وأخرى تبعد عنه ، ويرى القاضى أن بيت أبي الطيب غير مستكره فيما يجوز فى أسلوب الالتفات ، ولكنه غير معذور بتركه باب الصحة إلى المشكل الواهى الضعيف .

ولقد كان فى المتنبي كبر وزهو . وكان يعتد كل الاعتداء بنفسه وفنه حتى رأى شعره يتبوء فى الشعر العربى عروش الإمارة التى نشدها لنفسه فأخفق وحرّم منها: إن هذا الشعر فى الشعر ملك سار فهو الشمس والدنيا فلك

ورأى أهل الجاهلية من الشعراء تقصر عن مداه :

ما نال أهل الجاهلية كلهم شعرى ولا سمعت بسحرى بابل

وبعد أن بلغ من المجد الأدبى منتهاه ، كان أبلغ شحيح بشعره على رجالات العالم الإسلامى وشخصياته البارزين : فلم يمدح أحدا إلا فى القليل النادر عن الذين تربطهم بالشاعر صلات خاصة ، أو ممن كان يسعى لديهم فى سبيل تحقيق مظامحه فى الإمارة .

وفى عام ٣٥٣ هـ كان المتنبي فى بغداد فأخذ يفاوضه رجالاتها كالصابى م سنة ٣٨٣ والمهلبى الوزير فى ان يقلدهم مدحة من مدائحه فاعتذر ، وانتظر معز الدولة الملك والخليفة العباسى أن يشيد أبو الطيب بدولتهم فلم يفعل ، فأثار وجود المتنبي مشكلات سياسية وأدبية ، خرج من مأزقها أبو الطيب ، فيمم وجهه شطر شيراز حيث عضد الدولة ينشد منه ولاية يتقلدها أو عرشا يتبوؤه ، وطمع الصاحب بن عباد فى زيارته له بأصفهان ، فكتب إليه يرحب بقدمه ويعلن استعداده لأن يشاطره ماله ، ولكن أبا الطيب أبى أن يقلد شعره شابا ليس فى يده تحقيق آماله البعيدة ومظامحه الواسعة ، فرفض عرض الصاحب شاخصا إلى عضد الدولة لنفس غاياته ، لا رغبة فى إشباع شهواته :

ول السلاطين من تولاها والجبأ إليه تكن حدياها

وكان رفض المتنبي اليد التى مدها الصاحب إليه باعثا على عداوة " ابن عباد " له ، ونقده إياه ، وحمله الأدباء والكتاب على ثلبه ومهاجمته بسلاح عنيف من أسلحة النقد الأدبى الجائر ، وألف بباعث العصبية والخصومة رسالته الصغيرة الحجم الكبيرة المغزى والقيمة : " الكشف عن مساوىء المتنبي فى شعره " ينقد فيه شعره سواء فى اللفظ والمعنى أم الوزن والقافية أم الأسلوب والخيال أم الفكرة والاتجاه ، وكان الصاحب لاذعا عنيفا فى نقده للمتنبي ، وتهكمه فى شعره ، غير آبه لجانب الإحسان والروعة فى شعره ، ولقد تجاهل الصاحب - عصبية منه على المتنبي - نفسية الشاعر وطبعه ومؤثرات الدم والروح والبيئة والآمال والاتجاه فيه ، وأخذ يحكم

عليه أحكاما قاسية لا هوادة فيها ولا رحمة . وهو في هذا الاتحاد ياقص الجرجاني .
الذي فهم النقد على أنه البحث في هدى العدالة والإنصاف عن مكانة الشاعر
الأدبية على ضوء خصائص فنه وميزات شعره ، ووزن ما زل فيه الشاعر وما أجاد فيه
بقسطاس مستقيم عادل ، ونهج صاحب في نقده صورة لاتجاه أستاذه ابن العميد
فيه ، مما عبر عنه صاحب في رسالته بقوله " وكان ابن العميد يتجاوز نقد الأبيات
إلى نقد الحروف والكلمات ولا يرضى بتهديب المعنى حتى يطالب بتخير القافية
والوزن^(١) . فهو نقد لمعاني الشاعر ، وطبعه الأدبي ، وذوقه الاجتماعي ، ونقد لأسلوبه
في صياغته ، واختيار ألفاظه ، وحروفه ، وقافيته ، وموسيقاه .

وذكر أن المتنبي يضؤل أمام أبي تمام والبحترى في صياغته ما كان يقتبس
منهما من معان ، كما يضؤل بجانب الفرزدق في الفخر .. وكانت غاية صاحب من
وراء ذلك كله هدم مجد المتنبي الأدبي . وتشويه سمعته كشاعر ممتاز من شعراء
العربية ، وإن كان صاحب وصل إلى بعض ما أراد في حياة أبي الطيب فإن مجده
قد عصف بكل ما أراد خصومه : فوهب ذبوع الشهرة ومجد الخلود .

وقد نقد ابن رشيقي في عمدته في مواضع مفرقة منها آراء صاحب في
نقده فرد عليه مثلا نقده لبيت المتنبي :

صلاة الله خالقنا حنوط على الوجه المكفن بالجمال^(٢)

والإنصاف يلزمنا أن نقول : إن نقد صاحب كله لم يكن مدفوعا ببواعث
الهوى أو بمنأى عن العدالة والإنصاف ، وإن كان صاحب يتجاهل لغاية في نفسه
شخصية الشاعر وروحه وأثرهما في فنه : فنراه مثلا ينقد بيت أبي الطيب :
لو استطعت ركبت الناس كلهم إلى سعيد بن عبد الله بعرانا

نقدا لازعا^(٣) ، وللقاد حق السخط على هذا البيت في بادى الرأي : ولكن
النظرة الحصيفة تدعنا نرفع عن الشاعر في بيته هذا إصر كل مواخذة ، فهذه هي
روح الشاعر المتهكمة الساخرة بالناس الساخطة على المجتمع الذي لم ينل فيه
آماله ، المعترزة بنفسها وشخصيتها - تتجلى في البيت في صورة واضحة رائعة وهل
أبلغ في السخرية وأمعن في التهكم ، من اتخاذ الناس مطايا يركبها الشاعر إن
استطاع ليصل عليها إلى ممدوحه ؟ إن من الغريب حقا أن يكون فن شاعر كأبي

(١) ٢ الكشف .

(٢) ٢٤٧ ج ٢ العمدة .

(٣) ٢٦ الكشف .

الطيب رانعا كل الروعة ، بالغنا نهاية القوّة والسحر ، حين ينظر إليه كله كأثر أدبي حافل ، فيحكم على قصيدة من قصائده ، أو على مجموعة منها أو عليها كلها ، حينئذ يرتفع أبو الطيب إلى الذروة وينتهي شعره إلى الغاية ، أما إذا قطعت أوصاله فنظرت إلى بعضه كحرف في كلمة من كلماته ، أو لفظ في بيت في قصيدة من قصائده ، أوخذ الشاعر وحوسب حسابا غير يسير ، لقد تعمد الصاحب أن ينظر إلى فن أبي الطيب هذا النظر الجزئي ، مخفيا وراء نقده ما في نفسه من إعجاب وتقدير ، وقد شاء الجرجاني في وساطته ألا يترك هذه الناحية أو يغفلها ، فطالب بالحكم على فن أبي الطيب كله أو جله أو كثير منه ، لا على جزئياته الضئيلة التي لا تحط زلاته فيها من مكانته ومنزلته ، وعرض كثيرا من روائعه ، طالبا الإنصاف في الحكومة و العدالة في الرأي .

- ٣ -

رسالة الحاتمي في نقد المتنبي^(١) :

قال أبو علي الحاتمي^(٢) : كان أبو الطيب المتنبي عند وروده مدينة الإسلام، التحف رداء الكبر ، وأذال^(٣) ذيول التيه ، وصعر خده ، ونأى بجانبه ، وكان لا يلقي أحدا إلا نافضا^(٤) مدرويه ، رافلا من التيه في برديه ؛ يخيل إليه أن العلم مقصور عليه ، وأن الشعر بحر لم يغترف نمير مائه غيره ، وروض لم يرع نواره سواه ، فدل بذلك مديدة أجرته رسن^(٥) الجهل فيها ، فظل يمرح في تثنيه ، حتى إذا تخيل أنه القريع^(٦) الذي لا يقارع ، والنزيع^(٧) الذي لا يجارى ولا ينازع وأنه رب الغلب ومالك القصب ، وثقلت وطأته على أهل الأدب بمدينة السلام ! فطأطأ كثيرا منهم رأسه ، وخفض جناحه ، وطامن على التسليم له جأشه^(٨) ، وتخيل أبو محمد المهلبى ، أن أحدا لا يقدر على مساجلته ومجاراته ، ولا يقوم بتتبعه بشيء من مطاعنه ، وساء

^(١) : معجم الأدباء ص ١٥٩ ج ١٨ ، ٤٨٢-٤٨٦ ج ٣ وفيات الأعيان نشر محمد محيي الدين عبد الحميد .

^(٢) : هو محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمي من أهل اللغة والأدب . مات سنة ثمان وثمانين وثلثمائة وهو تلميذ غلام ثعلب (٢٦١-٣٤٥هـ) - راجع ٤٥٤-٤٥٧ ج ٣ وفيات .

^(٣) : أذال : تبخرت وجر ذيله على الأرض تيهها .

^(٤) : نافضا : محركا ، والمدروان : ناحيتا الرأس .

^(٥) : الرسن : الحبل .

^(٦) : القريع الذي يقارعك ، والمقارعة : المضاربة بالسيوف .

^(٧) : النزيع : الشريف من القوم الذي نزع إلى عرق كريم .

^(٨) : الجأش : النفس وقيل القلب .

معز الدولة أن يرد عن حضرة عدوه رجل . فلا يكون في مملكته أحد يماثله في
صناعته . ويساويه في منزلته !

فنهدت ^(١) حينئذ متتبعا عواره ، ومتعقبا آثاره ، ومطفيا ناره ، ومهتكا أستاره ،
ومقلما أظفاره ، وناشرا مطاويه ، وممزقا جلاباب مساويه ، متحينا أن تجمعا دار ،
فأجري أنا وهو في مضمار ، يعرف فيه السابق من المسبوق ، حتى إذا لم أجد ذلك
قصدت موضعه الذي كان يحله في ربض ^(٢) حميد .

فوافق مصيري إليه حضور جماعة تقرأ شيئا من شعره عليه ، فحين أودن
بحضوري ، واستؤذن عليه لدخولي . نهض عن مجلسه مسرعا ، ووارى شخصه عني
مستخفيا : فنزلت عن بغلة كانت تحني ، وهو يراني نازلا عنها . لا نتهاى بها إلى أن
حاذيته . فجلست في موضعه . وإذا تحته قطعة من زيلو ^(٣) مخلقة . قد أكلتها الأيام ،
وتعورتها السنون ، فهي رسوم خافية . وسلوك ^(٤) بادية . حتى إذا خرج إلى نهضت إليه
فوفيته حق السلام . غير مشاح ^(٥) له في القيام . لأنه إنما اعتمد بنهوضه ألا ينهض لي
عند موافاتي ، وإذا هو قد لبس سبعة أقبية كل قباء ^(٦) منها لون . وكان الوقت آخر
أيام الصيف ، وأخلقها بتخفيف اللبس ، فجلست وجلس وأعرض عني ساعة لا يعبرني
فيها طرفه ، ولا يسألني عما قصدت له ، وقد كدت أتميز ^(٧) غيظا ، وأقبلت أسخف رأبي
في قصده ، وأفند نفسي في التوجه نحو مثله ولوى عذاره عني مقبلا على تلك
الزعنفة ^(٨) التي بين يديه ، كل واحد يومي إليه ، ويوحى بطرفه ، ويشير إلى مكاني
بيده ، ويوقظه من سنة جهله ، وهو يأبى إلا ازورارا ونفارا ، وجريا على شاكلة خلقه
المشكلة .

ثم رأى أن يثنى رأسه إلى ، فوالله ما زادني على أن قال : أي شيء
خبرك؟ قلت أنا بخير! لولا ما جنيت على نفسي من قصدك ، وكلفت قدمي في
المصير إلى مثلك! ثم تحدرت عليه تحدر السيل إلى القرار ، وقلت له : ابن لي -
عافاك الله - مم تهيك! خيلاؤك وعجبك؟ وما الذي يوجب ما أنت عليه من التجبر

(١) نهذ : نهض . وعوراه : عيبه .

(٢) الربض : المسكن .

(٣) زيلو : معناها لحاف بالفارسية .

(٤) السلوك : جمع سلكة وهي الخيط الذي يخاط به الثوب .

(٥) منازع .

(٦) القباء : ثوب يلبس فوق الثياب .

(٧) أتميز : أتقطع .

(٨) الزعنفة : الطائفة من القبيلة تنفرد أو تنضم إلى غيرها ، وكل جماعة ليس أصلهم واحدا .

والتنمر^(١)؟ أنسب فرعت سماء المجد به ! أم علم أصبحت علما يقع الايماء إليك فيه؟ هل أنت إلا وتد بقاع^(٢) في شر البقاع؟ وجفاء^(٣) سيل دفاع؟ يا الله! استنت الفصل حتى القرعى^(٤)! وإنى لأسمع جعجة^(٥) ولا أرى طحنا! فامتقع لونه عند سماع كلامى، وعصب^(٦) ريقه وجحظت عيناه. وسقط في يده، وجعل يلين في الاعتذار لينا. كاد يعطف عليه عطف صفحى عنه، ثم قلت: يا هذا إن جاءك رجل شريف فى نسبه، أو عظيم فى أدبه، صغرت أدبه، أو متقدم عند سلطانه لم تعرف موضعه، فهل العز تراث لك دون غيرك؟ كلا والله! لكنك مددت الكبر سترا على نقصك، وضربته رواقا دون جهلك، فعاد إلى الاعتذار، وأخذت الجماعة فى تليين جانبى، والرغبة إلى فى قبول عذره، واعتماد مياسرته، وأنا أبى إلا استثناء^(٧) واجتراء، وهو يؤكد الأقسام ويواصلها أنه لم يعرفنى، فأقول له: يا هذا ألم يستأذن لى عليك باسمى ونسبى؟ أما فى هذه العصابة من يعرفك بى لو كنت جهلتنى؟ وهب ذلك كذلك، ألم ترنى ممتطيا بغلة رائعة يعلوها مركب ثقيل، وبين يدي عدة من الغلمان؟ أما شاهدت لباسى، أما شممت نشر عطرى؟ أما راعك شيئا من أمرى، أتميز به فى نفسك عن غيرى؟ وهو فى أثناء ما أكلمه يقول: خفض عليك! أرفق! استأن^(٨)؛ فأصحب^(٩) جانبى بعض الأصحاب، ولان شماسى^(١٠) بعض الليان، وأقبل على وأقبلت عليه ساعة، ثم قلت: أشياء تختلج فى صدرى من شعرك أحب أن أراجعك فيها! قال: وما هى؟ قلت: خبرنى عن قولك:

فإن كان بعض الناس سيف لدولة ففى الناس بوقات لها وطبول
أهكذا يمدح الملوك؟! وعن قولك: يكون وداعها نفض السنغال
ولا من فى جنازتها تجار

(١) التنمر: التشبه بالنمر، والنمر لا يلقى إلا متكرا غضبان.

(٢) القاع: أرض سهلة ممطنة.

(٣) ما نفاه السيل من الزيد.

(٤) يضرب مثلا للرجل يدخل نفسه فى قوم ليس منهم، والقرعى من الفصل: الذى أصابها قرع وهو بئر، والاستنان: النشاط.

(٥) مثل يضرب للذى يكثر الكلام ولا يعمل، وللذى يعد ولا يفي، والجججة: صوت الرحى ونحوها، والطحن: الدقيق.

(٦) عصب: جف.

(٧) استثناء: لاجاة وعنادا.

(٨) استأن: لا تعجل.

(٩) أصحاب جانبى: انقاد.

(١٠) شماسى: امتناعى وإبانى.

أهكذا تؤبن أخوات الملوك^(١)؟ والله لو كان هذا في أدنى عبيدها لكان
قبيحا! وأخبرني على قولك :
خف الله واستر ذا الجمال ببرقع فإن لحت ذابت في الخدور العواتق^(٢)

هكذا تنسب بالمحبوبين؟ وعن قولك :

وإذا أشار محدثا فكأنه قرد يقهقه أو عجوز تلطم
أما كان لك في أفانين الهجاء التي تصرفت فيها الشعراء مندوحة عن هذا
الكلام الرذل ينفر عنه كل طبع . ويمجه كل سمع؟ وعن قولك :
وضاقت الأرض حتى كان هاربهم إذا رأى غير شيء ظنه رجلا
أفتعلم مرئيا يتناوله النظر لا يقع عليه اسم شيء؟ وما أراك نزلت إلا إلى
قول جرير :

مازلت تحسب كل شيء بعدهم خيلا تكرر عليهم ورجالا

فأحلت المعنى عن جهته ، وعبرت عنه بغير عبارته ؛ وعن قولك :
أليس عجيبا أن وصفك معجزا وأن ظنوني في معاليك تظلع^(٣)
فاستعرت الظلع لظنونك ، وهي استعارة قبيحة ! وتعجبت من غير متعجب ؛
لأن من أعجز وصفه لم يستنكر قصور الظنون وتحيرها في معاليه ، وإنما نقلته وأنشدته
من قول أبي تمام :

ترقت مناه طود عز لو ارتقت به الريح فترا^(٤) لا نثت وهي ظالع

وعن قولك تمدح كافورا :

فإن نلت ما أملت منك فرما شربت بماء يعجز الطير ورده

إنها مدح أو ذم؟ قال : مدح! قلت : إنك جعلته بخيلا لا يوصلك إلى خيره
من جهته ، وشبهت نفسك في وصلك إلى ما وصلت إليه منه بشربك من ماء يعجز
الطير ورده ، لبعده وترامي موضعه !

(١) المعروف أن هذا البيت من قصيدة المتنبي في رثاء والدته سيف الدولة وأولها : نعد المشرفية والعوالي .

(٢) العواتق : جمع عاتقة : الجارية أول ما أدركت . والخدور : الستور .

(٣) الظلع : الغمز في المشي .

(٤) الفتر : ما بين طرف الإبهام وطرف الشيرة .

وأخبرني أيضا عن قولك في صفة كلب وظبي :

وصار ما في جلده في المرجل فلم يضرنا معه فقد الأجدل^(١)

فأى شيء أعجبك من هذا الوصف ؟ أعدوبة عبارته ؟ أم لطف معناه ؟ أما قرأت رجز^(٢) ابن هانئ وطرد^(٣) ابن المعتز ؟ أما كان هناك من المعاني التي ابتدعتها هذان الشاعران وغرر المعاني التي اقتضاها ما تشاغل به عن بنيات صدرك هذه ؟ وإلا اقتصرت على ما في أرجوزتك هذه من الكلام السليم ، ولم تسف إلى هذه الألفاظ القلقة والأوصاف المختلفة ؟ فأقبل على ، ثم قال : أين أنت من قولي :

كأن الهام^(٤) في الهيجا عيون وقد طبعت سيوفك من رقاد
وقد صغت الأسنة من هموم فما يخطرن إلا في الفؤاد

وأين أنت من قولي في صفة جيش :

في فيلق^(٥) من حديد لو رميت به صرف الزمان لما دارت دوائر :

وأين أنت من قولي :

لو تعقل الشجر التي قابلتها مدت محيبة إليك الأغصنا

وأين أنت من قولي :

أيقده^(٦) في الخيمة العدل وما اعتمد الله تقويضها^(٧)
وتشمل من دهرها يشمل ولكن أشار بما تفعل

وفيها أصف كتيبة :

وملمومة^(٨) زرد ثوبها ولكن بالقمنا مخمل

وأين أنت عن قولي :

الناس ما لم يروك أشباه والدهر لفظ وأنت معناه

(١) الضمير في جلده للظبي ، والمرجل : القدر من النحاس ، والضمير في معه للكلب ، والأجدل : الصقر .

(٢) الرجز : ضرب من الشعر ووزنه مستفعلن ست مرات .

(٣) الطرد : مزاولة الصيد ، وهو يريد ما قيل فيه من الشعر .

(٤) الهام جمع هامة ، والهيجاء من أسماء الحرب وطبع السيف طرقة .

(٥) الفيلق : الجيش ، وجعله من حديد لكثرة ما عليه ممن الدروع ، وصرف الزمان : حدثانه .

(٦) ضربت خيمة لسيف الدولة فسقطت من ربح هبت .

(٧) تقويضها : هدمها ، واعتمد الأمر : قصده .

(٨) ملمومة مجموعة مضمومة والمخمل ما جعل له خمل ، وهو هذب القטיפه ونحوها .

والجود عين وأنت ناظرها والبأس باع وأنت يمانه

أما يليك إحساني في هذه عن أساءتي في تلك ؟

قلت : ما أعرف لك إحسانا في جميع ما ذكرته ! إنما أنت سارق متبع !
وآخذ مقصر ، وفيما تقدم من هذه المعاني التي ابتكرها أصحابها مندوحة عن
التشاغل بقولك ! فأما قولك :

كأن الهام في الهيجا عيون وقد طبعت سيوفك من رقاد

فهو منقول من بيت منصور النميري :

فكأنما وقع الحسام بهامه خدر المنية أو نعاس الهاجع

وأما قولك :

في فيلقى من حديد لو رميت به صرف الزمان لما دارت دوائره

فنقلته نقلا لم تحسن فيه ، من قول الناجم :

ولى فى حامد أمل بعيد ومدح قدمدحت به طريف
مديح لو مدحت به الليالى لما دارت على لها صروف

والناجم إنما نظمه من قول أرسطاليس : قد تكلمت بكلام لو مدحت به
الدهر لما دارت على صروفه .

وأما قولك :

لو تعقل الشجر التى قابلتها مدت محيبة إليك الأغصنا

فهذا معنى متداول ، تساجلته^(١) الشعراء ، وأكثر في فيه ، فمن ذلك قول
الفردق :

يكاد يمسكه عرفان راحته ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم

ثم تكرر في أفواه الشعراء ، إلى أن قال أبو تمام :

لو سعت بقعة لا عظام أخرى لسعى نحوها المكان الجديد

وأخذه البحترى فقال :

لو أن مشتاقا تكلف فوق ما فى وسعه لمشى إليك المنبر

(١) تساجلته : تبارت فيه .

وأما قولك :

وما اعتمد الله تقويضها
ولكن أشار بما تفعل
فقد نظرت فيه إلى قول رجل مدح بعض الأمراء بالموصل ، وقد كان عزم
على السير فاندق لواءه ، فقال :

ما كان مندق اللواء لريبة
تخشى ولا أمر يكون مزيلا^(١)
لكن لأن العود ضعف متنه
صغر الولاية فاستقل الموصلا

وأما قولك :

وملمومة زرد ثوبها
ولكنه بالقنا مخمل
فمن قول أبي نواس :

أمام خميس^(٢) أرجوان كأنه
قميص محوك من قنا وجياد^(٣)

وأما قولك :

الناس ما لم يروك أشباه
والدهر لفظ وأنت معناه
فمن قول علي بن نصر بسام في عبيد الله بن سليمان يرثيه ؛ (و يروى لابن
المعتز) :

قد استوى الناس ومات الكمال
وصاح صرف الدهر : أين الرجال ؟
هذا أبو القاسم في نعشه
قوموا انظروا كيف تزول الجبال

فقوله : قد استوى الناس ، ومات الكمال هو قولك : الناس ما لم يروك
أشباه !

فقال : بعض الحاضرين : ما أحسن قوله : قوموا انظروا كيف تزول الجبال ؟
فقال : أبو الطيب : اسكت ! ما فيه من حسن ، ألم يسرقه من قول النابغة الذبياني .
يقولون حصن ثم تأبى نفوسهم
وقال الحاتمي ، فقلت : قد سرقه النابغة من أوس حين قال :

ألم تكسف الشمس النهار
والسبدر للقمر الواجب^(١)
لفقد فضالة لا يستوى القـ
عود ولا خلة الذهب

(١) زيله : فرقه .

(٢) جمع جيد : المدرعة الصغيرة .

(٣) الخميس : الجيش .

ثم قلت : والله لئن كان أخذه فقد أحسن ، وأخفى الأخذ فقال الرجل :
أجل ، فقال المتنبي : يا محسد خد بيده ، وأخرجه - يريد بمحسد ابنه - فرجعت
إلى أن تركه ، ثم قلت له : وأما قولك : الدهر لفظ وأنت معناه .. فمقول من قول
الأخطل - إن كان البيت له - في عبد الملك ابن مروان :

وإن أمير المؤمنين وفعله لكالدهر لا عار بما فعل الدهر

وقد قال جرير حين قال الفرزدق :

فإني أنا الموت الذي هو نازل بنفسك فانظر كيف أنت تحاوله

وقال جرير :

أنا الدهر يفنى الموت والدهر خالد فجننى بمثل الدهر شيئا يطاوله

ثم قلت : أترى أن جريرا أخذ قوله " يفنى الموت " من أحد ؟ وأن أحدا
شركة في إفناء الموت ؟ ففكر طويلا ، ثم قال : لا ! قلت : بلى ! عمران بن حطان
حيث يقول :

لن يعجز الموت شيء دون خالقه والموت فإن إذا ما ناله الأجل
وكل كرب أمام الموت متضع بالموت ، والموت فيما بعده جلل

فأمات الموت ، وأحياه ، وما سبقه إلى ذلك أحد ثم قلت له : أترى إن
البيت المتقدم ، الذي يقول فيه :

وإن أمير المؤمنين وفعله لكالدهر لا عار بما فعل الدهر

مأخوذ من أحد ؟ فأطرق هنيهة ، ثم قال : وما تصنع بهذا ؟ قلت : يستدل
على موضعك ، ومواضع أمثالك من سرقة الشعر ! فقال : الله المستعان ، أساء سمعا
فأساء إجابة ! ما أردت ما ذهبت إليه ، قلت : فإنه أخذه من قول النابغة ، وهو أول
من ابتكره :

وعيرتني بنو ذبيان خشيته وما على بأن أخشاك من عار

ثم أخذه أبو تمام فأحسن بقوله :

خشعوا لصولتك التي هي فيهم كالموت يأتي ليس فيه يعار

(١) الواجب : الغائب .

قال : ومن أبو تمام ؟ قلت : الذي سرق شعره ، فأنشدته . قال : هذه
خلائق السفهاء . لا خلائق العلماء ، قلت : أجل ! أنت سفهت رأبي ولم يكن سفها .
أنت القائل :

ذى المعاني فليعلمون من تعالي هكذا هكذا وإلا فلا
شرف ينطح الثريا بروقيه^(١) به وفحس يقلل الأجبالا

قال : بلي ! قلت : فإنك أخذت البيت الأول من بيت بكر بن النطاح :
يستلقى السدى بوجه حى وصدور القنى بوجه وقاح
هكذا هكذا تكون المعالي طرق الجد غير طرق المزاح

وأخذت البيت الثاني فأنشدته من قول أبي تمام :

همة تنطح الثريا وجد ألف للحضيض فهو حضيض

قال : وبأى شيء أفقدته ؟ قلت : بأن جعلت للشرف قرنا . قال : وأنى لك
بذلك ؟ قلت : ألم تقل : ينطح السماء بروقيه ؟ والروقان : القرنان ؟ قال : أجل ! إنما
هى استعارة ، قلت : نعم ! هى استعارة خبيثة .

قال : أقسمت غير محرج فى قسمى أننى لم أقرأ شعرا قط لأبى تمامكم
هذا ! فقلت : هذه سوءة لو سترتها كان أولى ! قال : السوءة قراءة شعر مثله : أليس
هو القائل :

خشت عليه أخت بنى خشين وأتجح فيك قول العادلين

والذى يقول :

لعمري لقد حررت يوم لقيته لو أن القضاء وحده لم يبرد

والذى يقول :

تكاد عطايها يجن جنونها إذا يعوذها^(٢) بسنمة طالب

والذى يقول :

تسعون ألفا كساد الشرى^(٣) تضجت أعمارهم قبل نضج التين والعب

(١) الروقان : القرنان .

(٢) يعوذها : يحفظها .

(٣) الشرى : مائدة جانب القرات يضرب بها مثل .

والذى يقول :
ولى ولم يظلم وهل ظلم امرؤ
حش النجاء^(١) وخلفه التنين

والذى يقول :
كانوا رداء زمانهم فتصدعوا
فكأنما لبس الزمان الصوفا

والذى يقول :
أقول لقرحان من البين لم يصب
رئيس^(٢) الهوى بين الحشا والترائب

ما قرحان البين ؟ أخري الله لسانه ! فأحفظنى^(٣) ذلك وقلت : يا هذا من
أدل الدليل على أنك قرأت شعر هذا الرجل تتبعك مساويه ؛ فهل فى الدلالة على
اختلافك إنكاره أوضح مما ذكرته ؟ وهل يصم أبا تمام أو يسمه بميسم النقيصة ما
عدده من سقطاته ، وتخونته^(٤) من أبيتاته ، وهو الذى يقول فى النونية :

نوالك رد حسادى فلو لا
وأصلح بين أيامى وبينى
فهل اغتفرت الأول لهذا البيت الذى لا يستطيع أحد أن يأتى بمثله ، وأما
قوله :

تسعون ألفا كأساد الشرى نضجت
أعمارهم قبل نضج التين والعنب^(٥)

فلهذا البيت خبر لو استقرت صحيفة لأقصرت عما تناولته بالطعن فيه ، ثم
قصت الخبر ، وقلت : فى هذه القصيدة ما لا يستطيع أحد من متقدمى الشعراء
وأمرء الكلام وأرباب الصناعة أن يأتى بمثله ، قال : وماهو ؟ لو قال قائل : إن أحدا
لم يبتدى بأوجز ولا أحسن ولا أخصر من قوله :

السيف أصدق أنباء من الكتب
فى حدة الحد بين الجد واللعب

لما عنف فى ذلك ، وفيها يقول :
رمى بك الله برجيبها فهدمها
ولو رمى بك غير الله لم يصب

(١) النجاء : السرعة فى المشى .

(٢) رئيس الهوى : بقيته وأسرده .

(٣) فأحفظنى : فأغضبني .

(٤) تخونته : تنقصته .

(٥) أى أن جيش العدو كان تسعين ألفا حل أجليهم قبل أن ينضج التين والعنب وفى هذا تهكم بالمنجمين .

وفيها يقول :

وتبرز الأرض في أثوابها القشب

فتح تفتح أبواب السماء له

وفيها يقول :

ولا ترقى إليها هممة النوب

بكر فما افترعته كف حداثة

وفيها يقول :

يشله^(١) وسطها صبح من اللهب
عن لونها وكان الشمس لم تغب

غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحي
حتى كان جلايب الدجى رغبت

وفيها يقول :

ولو أجبت بغير السيف لم تجب

أجبتة معلنا بالسيف منصلنا

وأما قوله : أقول لقرحان من البين .. فإنه يريد رجلا لم يقطعه أحبابه ولم
يبينوا عنه قبل ذلك ، إذا كانت حاله كذلك كان موقع البين أشد عليه وأفت في
عضده ، والأصل في هذا : أن القرحان الذي لم يجدر^(٢) قط ، وقد قال جرير :
وكنست من زفرات البين قرحانا

وفي هذه القصيدة من المعاني الرائعة والتشبيهات الواقعة والاستعارة
البارعة ما يغتفر معه هذا البيت وأمثاله ، على أنا أبنا عن صحة معناه وعن أمثاله فمن
ذلك :

تقطع ما بيني وبين النوائب
كسته يد المأمول حلة خائب
بياض العطايا في سواد المطالب
حياضك منه العصور الذواهب
سحائب جود أعقت بسحائب

إذا العيس لاقت بي أبا دلف فقد
يرى أقبح الأشياء أوبة أمل
وأحسن من نور يفتحه الندى
ولو كان يفنى الشعر أفناه ما قرت^(٣)
ولكنه فيض العقول إذا انجلت

فبهره ما أوردته مما قصر عنان عبارته ، وحبس بنيات صدره ، وعقل عن
الإجابة لسانه ، وكاد يشغب^(٤) لولا ما تخوفه من عاقبة شعبه ، ما عرفه من مكاني في
تلك الأيام ، وأن ذلك لا يتم له ، فما زاد على أن قال قد أكثرت من أبي تمام

(١) أي يطرده .

(٢) أي لم يصب بالجدري .

(٣) ما قرت : ما جمعت .

(٤) يشغب : يهيج الشر .

لاقدس الله أبا تمام وذويه ! قلت : ولا قدس السارق منه والواقع فيه ، ثم قلت له : ما الفرق - في كلام العرب - بين التقديس والقداس والقداس والقداس ؟ فقال : وأى شيء عرضك في هذا ؟ فقلت : المذاكرة ! فقال بل المهاترة^(١) ! ثم قال : التقديس : التطهير في كلام العرب ، ولذلك سمي القدس قدسا لأنه يشتمل على الذي به الطهور ، وكل هذه الأحرف تؤول إليه ، فقلت : ما أحسبك أنعمت النظر في شيء من علوم العرب ، ولو تقدمت منك مطالعة لها ما استجزت أن تجمع بين معاني هذه الكلمات مع تباينها ، وذلك لأن القداس بتشديد الدال : حجر يلقي في البئر ليعلم بها غزارة مائها من قلته ، حكى ذلك ابن الأعرابي ، والقداس : الجمان حكى ذلك الخليل ، والقداس : الفينة قال الشاعر يصف ناقة :

وتهفو بهاد لها متلع^(٢) كما اقتحم القداس الأردمونا^(٣)

فلما علوته بالكلام قال : يا هذا مسلمة إليك اللغة ! قلت : وكيف تسلمها وأنت أبو عذرها^(٤) وأولى الناس بالتحقق بها والتوسع في اشتقاقها والكلام على أفانينها ؟ وما أحد أولى بأن يسأل عن لغته منك ، فشرعت الجماعة الحاضرة في إعفائه وقبول عذره والتواطؤ^(٥) له . وقال كل منهم : أنت أولى بالمراجعة والمياسرة لمثل هذا الرجل من كل أحد ، وكنت قد بلغت شفاء نفسي ، وعلمت أن الزيادة على الحد الذي انتهيت إليه ضرب من البغي ، لا أراه في مذهبي ، ورأيت له حق القدمة^(٦) في صناعته ، فطأطأت له كتفي ، واستأنفت جميلا من وصفه ونهضت .

فنهض لي مشيعا إلى الباب حتى ركبت وأقسمت عليه أن يعود إلى مكانه ، وتشاغلت بقية يومي بشغل عن لي ، تأخرت معه عن حضرة المهلب ، وانتهى إليه الخبر ، وأتتني رسلة ليلا فأتيته فأخبرته بالقصة ، فكان سروره وابتهاجه بما جرى مما بعثه على مباركة معز الدولة قائلا له : أعلمت ما كان من فلان والمتنبي ؟ قال : نعم ! قد شفى منه صدورنا !

(١) المهاترة : المسابة بالقبیح من القول .

(٢) الأردمون : جمع أردم : وهو الملاح الحاذق .

(٣) من أتلع فلان : مد عنقه متطاولا .

(٤) أبو عذرها : يريد ممهد سبيلها .

(٥) أي موافقته .

(٦) القدمة : التقدم .

وهذه سرقات شعرية نفاضل من ثناياها بين الشعراء ، قال النابغة :

إذا ما غزا بالجيش حلق فوقه عصائب طير تهتدى بعصائب
جوانح قد أيقن أن قبيله إذا ما التقى الجمعان أول غالب

وهذا المعنى قد توارد عليه الشعراء قديما وحديثا ، وأوردوه بضرب من
العبارات فقال أبو نواس :

تتمنى الطير غزوته ثقة باللحم من جزره
وقال مسلم بن الوليد :

قد عود الطير عادات وثقن بها فهن يتبعنه فى كل مرتحل
وقال أبو تمام :

وقد ظللت أعناق أعلامه ضحى بعقبان طير فى الدماء نواهل
أقاست مع الرايات حتى كأنها من الجيش إلا إنها لم تقاتل

وقد ذكر هذا المعنى غير هؤلاء إلا أنهم جاءوا بشيء واحد لا تفاضل بينهم
فيه إلا من جهة حسن السبك ، أو من جهة الإيجاز فى اللفظ ، ولم نر أحدا أغرب فى
هذا المعنى فسلك هذا الطريق مع اختلاف مقصده إليها إلا مسلم بن الوليد فقال :

أشربت أرواح العدا وقلوبها خوفا فأنفسها إليك تطير
لو حاكمتك فطالبتك بذحلها شهدت عليك ثعالب ونسور

فهذا من المليح البديع الذى فضل به مسلم غيره فى هذا المعنى ، وكذلك
فعل أبو الطيب فإنه لما انتهى الأمر إليه سلك هذا الطريق التى سلكها من تقدمه إلا
أنه خرج فيها على غير المقصد الذى قصدوه فأغرب وأبدع وحاز الإحسان بجملته ،
وصار كأنه مبتدع لهذا المعنى دون غيره ، فمما جاء منه قوله له :

تفدى أتم الطير عمرا سلاحه نسور الملا أحداثها والقشاعم
وما ضرها خلق بغير مخالف وقد خلقت أسيافه والقوائم

ثم أراد هذا المعنى فى موضع آخر من شعره فقال :

سحاب من العقبان ترجف تحتها سحاب إذا استسقت سقتها صوارمه

وهذا معنى قد حوى طرفى الإغراب، والإعجاب، وقال فى موضع آخر :
وذى لجب لاذو الجناح أمامه بناج ولا الوحش المثار بسالم
تمر عليه الشمس وهى ضعيفة تطالعه من بين ريش القشاعم
إذا ضوءها لاقى من الطير فرجة ندور فوق البيض مثل الدراهم

وهذا من إعجاز أبى الطيب المشهور ، ولو لم يكن له من الإحسان فى شعره
إلا هذه الأبيات ، لا ستحق بها فضيلة التقدم .

وقال أبو تمام :

فتى لا يرى أن الفريضة مقتل ولكن يرى أن العيوب مقاتل^(١)
وقال أبو الطيب المتنبى :
يرى أن ما بان منك لضارب بأقتل مما بان منك لعائب

فهو وإن لم يشوه المعنى فقد شوه الصورة ، ومثاله فى ذلك كمن أودع
الوشى شملا ، وأعطى الورد جملا ، وهذا من أزدل السرقات ، وعلى نحو منه جاء
قول عبد السلام بن رغبان^(٢) :

نحن نعزيك ومناك الهدى مستخرج والصبر مستقبل
نقول بالعقل وأنت الذى نأوى إليه وبه نعقل
إذا عفا عنك أودى بنا الدهر فذاك المحسن المجمل

أخذه أبو الطيب فقلب أعلاه أسفله فقال :

إن يكن صبر ذى الرزية فضلا تكن الأفضل الأعز الأجيلا
أنت يا فوق أن تعزى عن الأحب ساب فوق الذى يعزىك عقلا
وبألفاظك اهتدى فإذا عزاك قال الذى له قلت قبلا

والبيت الأخير من هذه الأبيات هو الآخر قدرا وهو المخصوص بالمشخ ،
وأما قلب الصورة القبيحة إلى صورة حسنة ، فإن لا يسمى سرقة بل يسمى إصلاحا
وتهديبا ، فمن قول أبى الطيب المتنبى :

لو كان ما تعطىهم من قبل أن تعطىهم لم يعرفوا التأميلا
وقول ابن نباتة السعدى :

(١) الفريضة واحدة الفرائض : أوداج العنق ، أو هى اللحمة بين الجنب والكتف لا تزال ترعد ، وعلى كلا
المعنيين فهى من المقاتل .
(٢) المعروف بديك الجن .

لم يبق جودك لي شيئا أومله
 تركتني أصحاب الدنيا بلا أمل
 وعلى هذا النحو ورد قول أبي نواس في أرجوزة يصف فيها اللعب بالكرة
 والصولجان فقال من جملتها:
 جن على جن وإن كانوا بشر
 كأنما خيطوا عليها بالإبر
 ثم جاء المتنبي فقال:
 فكأنها نتجت قياما تحتهم
 وكأنهم ولدوا على صهواتها
 وبين القولين كما بين السماء والأرض ، فإنه ليس للأرض إلى السماء نسبة
 محسوسة وكذلك يقال ها هنا أيضا ، فإنه بقدر ما في قول أبي نواس من النزول
 والضعف ، فكذلك في قول أبي الطيب من العلو والقوة .

مع الشعراء المحدثين

١ - مدح رؤية بن العجاج^(١) عقبه بن مسلم بأرجوزة من أراجيزه وبشار حاضر يسمعه .
 فاستحسن ذلك من رؤية ، فقال له رؤية : هذا طراز لانحسنة أنت يا أبا معاذ .
 وكان رجزهم في ذلك الوقت يتأثر بطريقتهم البدوية إلى غايتها في إيثار
 الغريب ، فتأثر بشار من ذلك ، وأنشأ أرجوزة في مدح عقبه بن مسلم يعارض بها
 أرجوزة رؤية ، وهي:

يا طل الحي بذات الصمد
 أحسنت من دعد وترب دعد
 قامت تراني إذ رأني وحدي
 بالله خبر كيف كنت بعدى
 سقيا لأسماء ابنة الأشد
 كالشمس تحت الزبرج المنقد

إلى أن قال في مدح عقبه :

أسلم وحييت أبا الملد
 مشترك النيل وري الزند
 لله أيامك فسي معد
 كل امرئ رهن بما يؤدي
 كآل كسرى وكآل برد
 مفتاح باب الحدث المنسد
 أغر لباس ثياب الحمد
 وفي بني قحطان غير عد
 ورب ذي تاج كريم الجدد
 أنكب جاف عن سبيل القصد

فصلته عن ماله والولد

^(١) في كتاب الشعر والشعراء عقبه بن رؤية .

٢- وروى عن الأصمعى أنه قال : كان أبو عمرو بن العلاء وخلف الأحمر يأتیان بشاراً
فيسلمان عليه بغاية الإعظام ، ثم يقولان : يا أبا معاذ ما أحدثت ؟ فيخبرهما
وينشدهما ويكتبان عنه متواضعين له حتى يأتى وقت الزوال ، ثم ينصرفان ،
فأتياه يوماً فقالا : ما هذه القصيدة التى أحدثتها فى ابن قتيبة ؟ قال هى التى
بلغتكما ، قالوا بلغنا أنك أكثرت فيها من الغريب ، قال : نعم ، إن ابن قتيبة يتباصر
بالغريب ، فأحببت أن أورد عليه ما لا يعرف ، قالوا فأشدناها يا أبا معاذ فأشدهما :
بكرى صاحبى قبل الهجير إن ذاك النجاح فى التبكير

حتى فرغ منها ، فقال له خلف : يا أبا معاذ لو قلت مكان " إن ذاك النجاح "
" بكرى فالنجاح " كان أحسن ، فقال بشار : إنما بنيتها أعرابية وحشية ، فقلت " إن
ذاك النجاح " كما يقول الأعراب البدويين ، ولو قلت " بكرى فالنجاح " كان هذا من
كلام المولدين ، ولا يشبه ذلك الكلام ، ولا يدخل فى معنى القصيدة ، فقام خلف
فقبل بين عينيه .

٣- وحدث هارون بن سعدان قال : كنت مع أبى نواس فى بعض طرق بغداد ،
وجعل الناس يمرون به وهو ممدود الرجل ، بين أبى هاشم وفتيانهم ، والقواد
وأبناءهم ، ووجوه أهل بغداد ، فكل يسلم عليه فلا يقوم إلى أحد منهم ، ولا
يقبض رجله إليه ، إذ أقبل شيخ راكبا على حمار ، وعليه ثوبان ديبقيان : قميص
ورداء ، قد تقنع ورده على أذنيه ، فوثب إليه أبو نواس ، وأمسك الشيخ عليه
حماره ، واعتنقا ، وجعل أبو نواس يحادثه وهو قائم على رجله فمكثا بذلك
ملياً ، حتى رأيت أبا نواس يرفع إحدى رجليه ويضعها على الأخرى ، مستريحاً
من الإعياء ، ثم انصرف الشيخ ، وأقبل أبو نواس فجلس فى مكانه ، فقال له بعض
من بالحضرة : من هذا الشيخ الذى رأيتك تعظمه هذا الإعظام ؟ وتجله هذا
الإجلال ، فقال : هذا إسماعيل بن القاسم أبو العتاهية ، فقال له السائل : لم
أجللته هذا الإجلال ؟ وساعة منك عند الناس أكثر منه ، قال : ويحك لا تفعل فو
الله ما رأيت قط إلا توهمت أنه سماوى ، وأنا أرضى .

٤- قال سلم الخاسر : صار إلى أبو العتاهية ، فقال : جئتك زائراً ، فقلت : مقبول
منك ، ومشكور أنت عليه ، فأقم ، فقال : إن هذا مما يشتد على ، قلت : وأنا
أضحك وأعجب عن مكابرتة ، " رمتنى بدائها وانسلت " . فقال : دعنى من هذا
واسمع منى أبياتا ، فقللت مات ، فأشدنى :

نص الموت كل لذة عيش يا لقومى للموت ما أوحاه

صد عنه حيبه وجفاه
موت فالموت واقف بحذاه
قام فى عارضيه ثم نعاه
مات من قبل أن ينال مناه
لإقلاله ومما أقماه
س إلى من ترجوه أو تخشاه

عجبا إنه إذا مات ميت
حيثما وجه امرؤ ليفوت الـ
إنما الشيب لابن آدم ناع
من تمنى المنى فأغرق فيها
ما أذل المقل فى أعين الناس
إنما تنظر العيون من النا

ثم قال لى : كيف رأيتها ؟ فقلت له : لقد جودتها لو لم تكن سوقية ، قال :
والله ما يرغبنى فيها إلا الذى زهدك فيها .

٥- وذكر ابن رشيق أبا العتاهية فيمن كان يذهب إلى سهولة اللفظ ، ويعنى بها مع
الإجادة وملاحة القصد ، وأنه اجتمع يوما مع أبى نواس والحسين بن الضاحك
الخليع ، فقال أبو نواس : لينشد كل واحد منكم قصيدة لنفسه فى مراده ، من
غير مدح ولا هجاء ، فأنشد أبو العتاهية :

فسيروا الأكفان من عاجل
فإننى فى شغل شاغل
بدمعها المنسكب السائل
من شدة الوجد على القاتل
ماذا تردون على السائل
قولا جميلا بدل النائل
من فممنوه إلى قابل

يا إخوتى إن الهوى قاتلى
ولا تلوموا فى اتباع الهوى
عينى على عتبة منهلة
يا من رأى قبلى قتيلا بكى
بسطت كفى نحوكم سائلا
إن لم تنيلوه فقولوا له
أو كنتم العام على عسرة

فسلما له وامتنع من الإنشاد بعده ، وقال به : أما مع سهولة هذه الألفاظ ،
وملاحة هذا القصد ، وحسن هذه الإشارات ، فلا تنشء شيئا ، قال ابن رشيق : وذلك
فى بابه من الغزل جيد أيضا ، لا يفضله غيره .

٦- وحدث عبد الله بن الحسن قال : جاءنى أبو العتاهية وأنا فى الديوان ، فجلس
إلى فقلت : يا أبا إسحاق أما يصعب عليك شىء من الألفاظ ، فتحتاج فيه فى
استعمال الغريب ، كما يحتاج إليه سائر من يقول الشعر ، أو إلى ألفاظ مستكرهة
قال : لا ، فقلت له : إنى لأحسب ذلك من كثرة ركوبك القوافى السهلة ؛ قال :
فاعرض على ما شئت من القوافى الصعبة ، فقلت : قل أبياتا على مثل البلاغ ،
فقال : من ساعته :

ش كفاف قوت بقدر البلاغ

أى عيش يكون أبلغ من عي

صاحب البغى ليس يسلم منه
رب ذى نعمة تعرض منها
أبلغ الدهر فى مواظبة بل
غيبتنى الأيام عقلى ومالى

وعلى نفسه بغى كل باغ
حائل بينه وبين المساع
زاد فيهن لى على الابلاغ
وشبابى وصحتى وفراغى

٧- وقال مسعود المازنى : لقيت ابن مناذر بمكة ، فقلت له : من أشعر أهل الإسلام ؟
فقال : أترى من إذا شئت هزل . وإذا شئت جد ؟ قلت من ! قال : مثل جرير
حين يقول فى النسيب :

غيضن من عبراتهن وقلن لى
ثم قال حين جد :

ماذا لقيت من الهوى ولقينا

جعل النبوة والخلافة فينا
يا آل تغلب من أب كأيينا
لو شئت ساقكم إلى قطينا

إن الذى حرم المكارم تغلبا
مضر أبى وأبوك الملوك فهل لكم
هذا ابن عمى فى دمشق خليفة

ومن المحدثين فى هذا الخبيث الذى يتناول الشعر من كفه ، فقلت من ؟
قال أبو العتاهية ، قلت فى ماذا ؟ قال قوله :

أبدت لى الصد والملاط
تقبل عذرى ولا مواتاتى
فكان هجرانها مكافأتى
أحدوثه فى جميع جارأتى

الله بينى وبين مولاتى
لا تغفر الذنب إن أسأت ولا
منحتها مهجتي وخالصتى
أقلقنى حبها وصيرنى

ثم قال حين جد :

قفر على الهول والمحاماة
خوصاء غيرانة علنداة
بالسير تبغى بذاك مرضاتى
نفسك مما ترين راحت
توجهه الله بالمهابات
تاج جلال وتاج إخبات
هل لك ياريح فى مباراتى
أخواله أكرم الخؤولات

ومهمه قد قطعت طامسه
بحرة جصرة عذافرة
تبادر الشمس كلما طلعت
ياناق خبى بنا ولا تعدى
حتى تناخى بنا إلى ملك
عليه تاجان فوق مفرقه
يقول للريح كلما عصفت
من مثل من عمه الرسول ومن

ويوجد كثير غير ابن منذر يشاركه هذا الرأي في أبي العتاهية ، ومن ذلك
بشار بن برد ، وقد سئل من أشعر أهل زمانه ؟ فقال : مخنث أهل بغداد ، يعني أبا
العتاهية .

٨- وقال بعض الأدباء : شهدت أبا العتاهية وأبا نواس في مجلس ، فكان أبو العتاهية
أسرع الرجلين جوابا عند البديهة ، وكان أبو نواس أسرعهما في قول الشعر ،
فإذا تعاطيا جميعا السرعة فضله أبو العتاهية ، وإذا توقفا وتمهلا فضله أبو نواس .

٩- وروى عن ابن أبي الأبيض أنه قال : أتيت أبا العتاهية ، فقلت له : إني رجل
أقول الشعر في الزهد ، ولي فيه أشعار كثيرة ، وهو مذهب أستحسنة ، لأنني أرجو
الآآثم فيه ، وسمعت شعرك في هذا المعنى ، فأحببت أن أستزيد منه ، فأحب أن
تشدني من جيد ما قلت ، فقال : اعلم أن ما قلته رديء ، قلت : وكيف ؟ قال :
لأن الشعر ينبغي أن يكون مثل أشعار الفحول المتقدمين ، أو مثل شعر بشار وابن
هرمة ، فإن لم يكن كذلك فالصواب لقائله أن تكون ألفاظه مما لا تخفى على
جمهور الناس مثل شعري ، ولا سيما الأشعار التي في الزهد ، فإن الزهد ليس من
مذاهب الملوك ، ولا من مذاهب رواة الشعر ، ولا طلاب الغريب ، وهو مذهب
أشغف الناس به الزهاد وأصحاب الحديث والفقهاء وأصحاب الرياء والعمامة ،
وأعجب الأشياء ما فهموه ، فقلت صدقت ، ثم أنشدني قصيدته :

لدوا للموت وابنوا للخراب	فلكم يصير إلى تباب
أياموت لم أر منك بدا	أتيت وما تحيف وما تحابي
كأنك قد هجمت على مشيبي	كما هجم المشيب على شبابي

فعلم أبو نواس فقال : والله ما أحسب في شعره مثل ما أنشدك بيتا آخر ،
فصرت إليه فأخبرته بقول أبي نواس فأنشدني قصيدته التي يقول فيها :

طول التعاشر بين الناس مملول	ما لابن آدم إن فتشت معقول
يا راعي الشاة لا تغفل رعايتها	فأنت عن كل ما استرعيت مسؤل
إني لفي منزل ما زلت أعمره	على يقين بأنى عنه منقول
وليس من موضع يأتيه ذو نفس	إلا وللموت سيف فيه مسلول
لم يشغل الموت عنا مذ أعد لنا	وكلنا عنه باللذات مشغول
ومن يمت فهو مقطوع ومجنب	والحي ما عاش منشى وموصول
كل ما بدا لك فالآكال فانية	وكل ذي أكل لا بد ماكول

قال : ثم أنشدني عدة قصائد ما هي بدون هذه . فصرت إلى أبي نواس فأخبرته . فتغير لونه . وقال : لم أخبرته بما قلت ؟ قد والله أجاد . ولم يقل فيها سواها .

١٠- اجتمع مسلم بن الوليد وأبو نواس وأبو الشيب و دعبل في مجلس فقالوا : لينشد كل واحد منكم أجود ما قاله من الشعر فاندفع رجل منهم كان معهم فقال : اسمعوا مني أخبركم بما ينشد كل واحد منكم قبل أن ينشد . قالوا : هات . فقال لمسلم : أما أنت يا أبا الوليد فكأنى بك قد أنشدت :

إذا ما علت منا ذؤابة واحد وإن كان ذا حلم دعته إلى الجهل
هل العيش إلا أن تروح مع الصبا وتغدو صريع الكأس والأعين النجل

فقال له مسلم : صدقت ، ثم أقبل على أبي نواس فقال له : كأنى بك يا أبا علي قد أنشدت :

لا تبك ليلى ولا تطرب إلى هند واشرب على الورد من حمراء كالورد
تسقيك من عينها خمرا ومن يدها خمرا فما لك من سكرين من بد

فقال له : صدقت ، ثم أقبل على دعبل فقال : يا أبا علي فكأنى بك تشد قولك :

أين الشباب وأية سلكا ؟ لا أين يطلب ، ضل بل هلكا
لا تعجبي يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكي

قال : صدقت ، ثم أقبل على أبي الشيب فقال له : وأنت يا أبا جعفر كأنى بك تشد :

لا تنكري صدى ولا إعراضى ليس المقل عن الزمان براض

فقال : لا ، ما هذا أردت ولا هذا بأجود شيء قلته ، قالوا : فأنشدنا ما بدا لك ، فأنشدهم قوله :

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي متأخر عنه ولا مستقدم
أجد الملامة في هواك لذيذة حبا لذكرك فليلمني اللوم
أشبهت أعدائي فصرت أحبهم إذ كان حظي منك حظي منهم
وأهنتني فأهنت نفسي صاغرا ما من يهون عليك ممن يكرم

وقال أبو خالد العامري لابن المعتز : من أخبرك أنه كان في الدنيا أشعر من أبي الشيب فكذلك ، والله لكان الشعر عليه أهون من شرب الماء على العطشان ،

وكان من أوصف الناس للشراب وأمدحهم للملوك ، وليس توجد هذه الصفات كما ذكر في ديوان شعره ، ولا هو ساقط ، ولكن هذا سرف شديد .

١١- وقد أكثر أبو نواس من الثورة في شعره على منهج العرب في القصيدة وعاب عليهم بدءها بمساءلة الأطلال فقال :

صفة الطلول بلاغة القدم فاجعل صفاتك لابنه الكرم

وقال :

لا تبك ليلي ولا تطرب إلى هند واشرب على الورد من حمراء كالورد

وقال :

سقيا لغير العلياء فالسند وغير أطلال مى بالجرد

وقال :

يا ربع شغلك إنى عنك فى شغل لا ناقتى فيك لو تدرى ولا جملى

وقال :

تبكى على طلل الماضين من أسد لا جف دمع يبكى على حجر لا در درك قل لى من بنو أسد ولا صفا قلب من يصبو إلى وتد

١٢- وقال بشار فى تأييد إبراهيم بن عبدالله بن حسن حينما خرج على المنصور ، نعى فيها على المنصور استبداده فى الرعية ، ونصح إبراهيم أن يقيم حكمه على أساس الشورى :

أبا جعفر ما طول عيش بدائم ولا سالم عما قليل بسالم
على الملك الجبار يقتحم الردى ويصرعه فى المأزق المتلاحم
كأنك لم تسمع بقتل متوج عظيم ولم تسمع بفتك الأعاجم
تقسم كسرى رهطه بسيوفهم وأمسى أبو العباس أحلام نائم
ومروان قد دارت على رأسه الرحى وكان لما أجمت نزر الجرائم
فأصبحت تجرى سادرا فى طريقهم ولا تتقى أشباه تلك النقائم
تجردت للإسلام تعفو سبيله وتعزى معطاه لليوث الضراغم
فما زلت حتى استنصر الدين أهله فعادوا عليك بالسيوف الصوارم

ثم التفت إلى إبراهيم فقال :

أقول لبسام عليه جلاله
إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن
ولا تجعل الشورى عليك غضاة
وما خير كف أمسك الغل أختها
وخل الهوينى للضعيف ولا تكن
غدا أريحيا عاشقا للمكارم
برأى نصيح أو نصيحة حازم
فإن الخوافى قوة للقوادم
وما خير سيف لم يؤيد بقانم
ننوما فإن الحر ليس بنانم

١٣- ومن روائع المحدثين فى الحكمة أرجوزة أبى العتاهية المزدوجة التى سماها ذوات الأمثال . وتبلغ فى الطول ما لم يبلغه شعر قبلها ، ويقال إن فيها أربعة آلاف مثل . وقد قال أبو دلف محمد بن هاشم الخزاعى ، تذكروا يوما شعر أبى العتاهية بحضرة الجاحظ ، إلى أن جرى ذكر أرجوزته المزدوجة التى سماها ذوات الأمثال ، فأخذ بعض من حضر ينشدها ، حتى أتى على قوله :

يا للشباب المرح التصابى روائح الجنة فى الشباب

فقال الجاحظ للمنشد : قف ؛ ثم قال انظروا إلى قوله : " روائح الجنة فى الشباب " . فإن له معنى كمنى الطرب الذى لا يقدر على معرفته إلا القلوب ، وتعجز عن ترجمته الألسنة إلا بعد التطويل وإدامة التفكير ، وخير المعانى ما كان القلب إلى قبوله أسرع من اللسان إلى وصفه ، وقد ذكر أبو الفرج الأصفهاني هذه الأبيات :

حسبك ما تبغيه القوت
الفقر فيما جاوز الكفا
هى المقادير فلمنى أو فذر
لكل ما يؤذى وإن قل ألم
ما انتفع المرء بمثل عقله
إن الفساد ضده الصلاح
من جعل النمام عينا هلكا
إن الشباب والفراغ والجده
يفنيك من كل قبيح تركه
ما عيش من آفته بقاؤه
يارب من اسخطنا بجهده
ما تطلع الشمس ولا تغيب
لكل شىء معدن وجوهر
ما أكثر القوت لمن يموت
من اتقى الله رجاء وخافا
إن كنت أخطأت فما أخطا القدر
ما أطول الليل على من لم ينم
وخير ذخر المرء حسن فعله
ورب جد جره المزاح
مبلغك الشر كباغية لكنا
مفسدة للمرء أى مفسده
يرتهن الرأى الأصيل شكه
نقص شيئا كله فناؤه
قد سرنا الله بغير حمده
إلا لأمر شأنه عجيب
وأوسط وأصغر وأكبر

من لك بالمحض وكل ممتزج
وكل شيء لا حق بجوهرة
ما زالت الدنيا لنا دار أذى
الخير والشر بها أزواج
من لك بالمحض وليس محض
لكل إنسان طبيعتان
إنك لو تستنشق الشجيا
والخير والشر إذا ما عدا
عجبت حتى غمى السكوت
كذا قضى الله فكيف أصنع

وساوس والصدر منه تغلج
أصغره متصل بأكبيرة
ممزوجة الصفو بألوان القذى
لذا نتاج ولذا نتاج
يخبث بعض ويطيب بعض
خير وشر وهما ضدان
وجدته أنتن شيء ربحا
بينهما بون بعيد جدا
صرت كأنى حائر مبهوت
الصمت إن ضاق الكلام أوسع

موازنات أدبية بين أعلام الشعراء

- ١ -

يقول صاحب المثل السائر ، إن مما تقع فيه المفاضلة أن يسلك الشاعران طريقا واحدة فتخرج بهما إلى موردين أو روضتين ، وهناك يتبين فضل أحدهما على الآخر .

١- فما جاء من ذلك قول أبي تمام في مرثيته لولدين صغيرين :

مجد تأوب طارفا حتى إذا
نجمان شاء الله ألا يطلعنا
إن الفجعية بالرياض نواضرا
لهفى على تلك الشواهد فيهما
إن الهلال إذا رأيت نموه
قل للأمير وإن لقيت موقرا
إن ترز في طرفي نهار واحد
فالثقل ليس مضاعفا لمطية

قلنا أقام الدهر أصبح راحلا^(١)
إلا ارتداد الطرف حتى يأفلا
لأجل منها بالرياض ذوابلا
لو أشرت حتى تكون شمائل
أيقنت أن سيكون بدرا كاملا
منه يريب الحادثات حلا حلا^(٢)
رزأين هاجا لوعا وبلا بلا^(٣)
إلا إذا ما كان وهما بازلا^(٤)

(١) تأوب أتى ليلا : والطارق الذى يأتي ليلا .

(٢) " لقيت موقرا منه " تجريد : ويريب الحادثات يشكها : والحلال السيد الشجاع .

(٣) ترز : سهلت همزته بالقلب الفائم حذفت للجازم ، والبلابل الوسوس .

(٤) الوهم الجميل الذلول فى ضخامة وقوة : والبازل الذى طلع نابه وذلك فى التاسعة من سنه .

لا غرو إن فنان من عيدانه
إن الأشاء إذا أصاب مشذب
شمخت خلا لك أن يواسيك امرؤ
إلا مواعظ قادمالك سمحة
هل تكلف الأيدى بهز مهند

لقيا حماما للبرية آكلا
منه اتمهل ذرا وأث أسافلا^(١)
أو أن تذكسر ناسيا أو غافلا
إسجاح لبك سامعا أو قائللا^(٢)
إلا إذا كان الحسام القاصلا^(٣)

وقال أبو الطيب في مرثية لطفل صغير^(٤) :

فان نك في قبر فإنك في الحشا
ومثلك لا يبكى على قدر سنه
أست من القوم الذى رماهم
بمولودهم صمت اللسان كغيره
تسليهم علياؤهم عن مصابهم
عزأوك سيف الدولة المقتدى به
تخون المنايا عهده فى سليله
بنفسى وليد عاد من بعد حملة
بدا وله وعد السحابة بالروى
وقد مدت الخيل العتاق عيونها
وريع له جيش العدو وما مشى

وإن تك طفلا فالأسى ليس بالطفل
ولكن على قدر الفراسة والأصل
نداهم ومن قتلاهم مهجة البخل
ولكن فى أعطافه منطق الفصل
ويشغلهم كسب الثناء عن الشغل
فإنك نصل والشدائد للنصل
وتنصره بين الفوارس والرجل
إلى بطن أم لا تطرق بالحمل^(٥)
وصد وفينا غلة البلد المحل^(٦)
إلى وقت تبديل الركاب من النعل
وجاشت له الحرب الضروس وما تغلى

فتأمل أيها الناظر إلى ما صنع هذان الشاعران فى هذا المقصد الواحد
وكيف هام كل واحد منهما فى واد منه مع اتفاقهما فى بعض معانيه ، وسأبين ما اتفق
فيه وما اختلفا ، وأذكر الفاضل من المفضول فأقول : أما الذى اتفقا فيه فإن أبا تمام
قال :

لهفى على تلك الشواهد فيهما لو أخرجت حتى تكون شمانلا

(١) أشاء النخل صفاره واحده أشاءه : والمشدب مصحح الشجر بالقطع اتمهل اعتدل وارتفع ، وأث كثر والتف .

(٢) الإسجاح : السماحة واللين .

(٣) القاصل : القاطع .

(٤) ابن لسيف الدولة يسمى عبد الله ويكمنى أبا الهيجاء .

(٥) يريد بالأم هنا الأرض ومعنى لا تطرق بالحمل لا تخرج الولد من بطنها .

(٦) الروى الماء الكثير يروى وينقع . والغلة العطش .

وأما أبو الطيب فإنه قال :

بمولودهم صمت اللسان كغيره ولكن في أعطافه منطلق الفصل

فأتى بالمعنى الذى أتى به أبو تمام وزاد عليه بالصناعة اللفظية وهى المطابقة فى قوله صمت اللسان ، ومنطلق الفصل " . وقال أبو تمام :

نجمان شاء الله ألا يطلعا إلا ارتداد الطرف حتى يافلا

وقال أبو الطيب :

بدا وله وعد السحابة بالروى وصد وفينا غلة البلد المحل

فوافق فى المعنى وزاد عليه بقوله " وصد وفينا غلة البلد المحل " ، لأنه بين قدر حاجاتهم إلى وجودهم وانتفاعهم بحياته . وأما ما اختلفا فيه فإن أبا الطيب أشعر فيه من أبى تمام أيضاً ، وذلك أن معناه أمتن من معناه ومبناه أحكم من مبناه ، وربما أكبر هذا القول جماعة من المقلدين الذين يقفون مع شبهة الزمان وتقدمه ، وأبو تمام وإن كان أشعر عندى من أبى الطيب فإن أبا الطيب أشعر منه فى هذا الموضوع ، وبيان ذلك أنه قد تقدم القول على ما اتفقا فيه فإن أبا الطيب قال :

عزأوك سيف الدولة المقتدى به فإنك نصل والشدائد للنصل

وهذا البيت بمفرده خير من بيتى أبى تمام اللذين هما :

إن ترز فى طرفى نهار واحد رزأين هاجالوعة وبلا بلا
فالثقل ليس مضاعفاً لمطية إلا إذا ما كان وهما بازلا

فإن قول أبى الطيب " والشدائد للنصل " أكرم لفظاً ومعنى من قول أبى تمام : إن الثقل إنما يضاعف للبازل من المطايا ، وقوله أيضاً :

تخون المنايا عهده فى سلية وتنصره بين الفوارس والرجل

وهذا أشرف من بيتى أبى تمام اللذين هما :

لا غرو إن فننان من عيدانه لقياً حماماً للبرية آكلا
إن الأشاء إذا أصاب مشذب منه اتمهل منه ذرا وأث أسافلا

وكذلك قال أبو الطيب :

ألست من القوم الذى من رماحهم نداهم ومن قتلاهم مهجة البخل
تسليهم علياؤهم عن مصابهم ويشغلهم كسب الثناء عن الشغل

وهذان البيتان خير من بيتي أبي تمام اللذين هما :

شمخت خلالك أن يواسيك أمرؤ
إلا مواعظ قادهالك سمحة
أو أن تذكر ناسياً أو غافلاً
إسجاح لبك سامعاً أو قانلاً

٢- ومما ينتظم بهذا النوع ما توارد عليه أبو عبادة البحرى وأبو الطيب المتنبى .
في وصف الأسد ، وقصيدتهما مشهورتان فأول إحداهما ^(١) :
أجدك ما ينفك يسرى لزينبا
خيال إذا يب الظلام تأوبا
وأول الأخرى ^(٢)

في الخد إن عزم الخليط رحيلا
مطر تزيد به الخدود محولا

أما البحرى فإنه ألم بطرف مما ذكر بشر بن عوانة في أبياته الرائية التي
أولها .

أفاطم لو شهدت ببطن خبت
وقد لاقى الهزبر أخاك بشراً ^(٣)

وهذه الأبيات من النمط العالى الذى لم يأت أحد بمثله ، وكل الشعراء لم
تسم قرانحهم إلى استخراج معنى ليس بذكور فيها ، ولولا خوف الإطالة لأوردتها
بجملتها ، لكن الغرض إنما هو المفاضلة بين البحرى وأبى الطيب وفيما أوردها من
المعاني فى هذا المقصد المشار إليه .

فما جاء للبحرى من قصيدته :

وما نقم الحساد إلا أصالة
وقد جربوا بالأمس منك عزيمة
غداة لقيت الليث مخدر
إذا شاء غادى عانة أو غدا على
شهدت لقد أنصفته يوم تنبرى
فلم أر ضرغامين أصدق منكما
لديك وفعلا أريحيا مذهباً
فضلت بها السيف الحسام المجرباً
يحدد ناباً للقاء ومخلباً
عقائل سرب أو تقنص ربرباً ^(٤)
له مصلتاً غاضباً من البيض مقضباً
عراكاً إذا الهيابة النكس كذباً ^(٥)

(١) هي البحرى يمدح بها الفتح بن خاقان ويصف مبارزته الأسد .

(٢) أهى للمتنبى فى بدر بن عمار وكان قد هاج أسداً عن بقرة افترسها فوثب الأسد على كفل فرسه فأعجله بضربة
من سوطه ودار به الجيش فقتل الأسد .

(٣) أذكر البديع قصة بشر هذا فى الملح التى اختتم بها مقاماته وأثبت فيها القصيدة كاملة .

(٤) العانة الأتان والقطيع من حمر الوحش . والسرب القطيع من الظباء والربرب القطيع من بقر الوحش .

(٥) الهيابة الشديد الخوف ، والنكس بالكسر الضعيف .

هزيراً مشى يبغي هزيراً ، وأغلباً
أدل بشغب ثم هالته صولة
فأحجم لما لم يجد فيك مطمعاً
فلم يغنه أن كر نحوك مقبلاً
حملت عليه السيف ، لا عزمك انثنى

من القوم يغشى باسل الوجه أغلباً
رآك لها أمضى جنانا وأشغباً^(١)
وأقدم لما يجد عنك مهرباً
ولم ينجه أن حاد عنك منكبا
ولا يدك ارتدت ، ولا حده نبا

ومما جاء لأبي الطيب المتنبي في قصيدته :

أمعفر الليث الهزير بسوطه
ورد إذا ورد البحيرة شارباً
متخضب بدم الفوارس لابس
ما قوبلت عيناه إلا ظننا
في وحدة الرهبان إلا أنه
يطأ الثرى مترقما من تيهه
ويورد غفرته إلى يافوخه
قصرت مخافته الخطا فكأنما
ألقى فريسته وزمجر دونها
فتشابه القربان في إقدامه
أسد يرى عضوبه فيك كليهما
ما زال يجمع نفسه في زوره
وكأنما غرته عين فادنى
أنف الكريم من الدنية تارك
والعار مضاض وليس بخائف

لمن أدخرت الصارم المصقولا^(٢)
ورد الفرات زئيره والنيل^(٣)
في غيله من لبدتيه غيلا
تحت الدجى نار الفريق حلولا^(٤)
لا يعرف التحريم والتحليلا
فكأنه آس يجس عليلا^(٥)
حتى تصير لرأسه إكيلا^(٦)
ركب الكمي جواده مشكولا^(٧)
وقربت قربا خاله تطفليلا
وتخالفافي بذلك الماكولا
متنا أزل وساعدا مفتولا^(٨)
حتى حسبت العرض منه الطولا^(٩)
لا يبصر الخطب الجليل جليلا
في عينه العدد الكثير قليلا
من حتفه من خاف مما قبيلا

(١) الشغب بالفتح ويحرك تهيج الشر .

(٢) يقال عفره إذا رماه في العفر بالتحريك وهو التراب والهزير السوء الخلق .

(٣) الورد الجريء والبحيرة التي يعينها هنا بحيرة طبرية ، والفرات والنيل معروفان ، وأولهما يقع إلى الشرق منها والثاني إلى الغرب .

(٤) الفريق الجماعة : أكثر من الفرقة ، وحلولا : حالين .

(٥) الآسى الطيب .

(٦) الفقرة شعر العنق . واليافوخ أعلى الرأس .

(٧) الكمي الشجاع المستتر في سلاحه ، وشكل الجواد ربطه بالشكال .

(٨) فسر في العجز العضوين اللذين أرادهما في الصدر . والأزل الممسوح القليل اللحم .

(٩) الزور عظم الصدر .

فاستنصر التسليم والتجدبلا ^(١)	خذلته قوته وقد كافحته
فمضى يهرول أمس منك مهولا	سمع ابن عمته به وبحاله
وكقتله ألا يموت قتيلا	وأمر مما فر منه فراره
وعظ الذي اتخذ الفرار خليلا	تلف الذي اتخذ الجراءة خلة

فمعاني أبي الطيب أكثر عددا وأسد مقصدا ، ألا ترى أن البحترى قد قصر مجموع قصيدته على وصف شجاعة الممدوح في تشبيهه بالأسد مرة وتفضيله عليه أخرى ، ولم يأت بشيء سوى ذلك . . وأما أبو الطيب فإنه أتى بذلك في بيت واحد وهو قوله :

أمعفر الليث الهزبر بسوطه لمن ادخرت الصارم المصقولا

ثم أنه تفنن في ذكر الأسد فوصف صورته وهينته ، ووصف أحواله في انفراده في جنسه ، وفي هيئة مشبه واختياله ، ووصف خلق بخله مع شجاعته ، وشبه الممدوح به في الشجاعة وفضله عليه بالسخاء ، ثم إنه عطف بعد ذلك على ذكر الأنفة والحمية ، التي بعثت الأسد على قتل نفسه بقاء الممدوح ، وأخرج ذلك في أحسن مخرج وأبرزه في أشرف معنى ، وإذا تأمل العارف بهذه الصناعة أبيات الرجلين ، عرف ببديهة النظر ما أشرت إليه . والبحترى وإن كان أفضل من المتنبي في صوغ الألفاظ وطلاوة السبك ، فالمتنبي أفضل منه في الفوص على المعاني ، ومما يدل على ذلك ، أنه لم يعرض لما ذكره بشر في أبياته الرائية ، لعلمه أن بشرا قد ملك رقاب تلك المعاني واستحوذ عليها ، ولم يترك لغيره شيئا يقوله فيها ؛ ولفطنة أبي الطيب لم يقع فيما وقع فيه البحترى من الانسحاب على ذيل بشر لأنه قصر عنه تقصيرا كبيرا ، ولما كان الأمر كذلك عدل أبو الطيب عن سلوك هذه الطريقة وسلك غيرها فجاء فيما أورد مبرزاً .

٣- واعلم أن من أبين البيان في المفاضلة بين أرباب النظم والنثر أن يتوارد اثنان منهما على مقصد من المقاصد ، يشتمل على عدة معان كتوارد البحترى والمتنبي ها هنا على وصف الأسد ، وهذا أبين في المفاضلة من التوارد على معنى واحد بصوغه هذا في بيت من الشعر أو في بيتين ، وبصوغه الآخر في مثل ذلك ، فإن بعد المدى يظهر ما في السوابق من الجواهر ، وعنده يتبين ربح الرابع وخسر الخاسر . فإذا شئت أن تعلم فضل ما بين هذين الرجلين فانظر إلى قصيدتهما في مرثي النساء التي مفتتح إحداهما :

(١) التجديل الانطراح على الأرض .

يا أخت خير أخ يا بنت خير أب كناية بهما عن أشرف النسب

وهي لأبي الطيب ، ومفتتح الأخرى :

غروب دمع من الأجنان ينهمل وحرقة بغليل الحزن تشتعل

وهي للبحترى فإن أبا الطيب انفرد بابتداع ما أتى به في معاني قصيدته والبحترى أتى بما أكثره غث بارد ، والمتوسط منه لا فرق فيه بين رثاء امرأة أو رجل . ومن الواجب أنه إذا سلك الناظر أو الناثر مسلكاً في غرض من الأغراض ألا يخرج عنه . كالذي سلكه هذان الرجلان في الرثاء بامرأة ، فإن حذاقة الصنعة أن يذكر هنا ما يليق بالمرأة دون الرجل ، وهذا الموضع لم يأت فيه أحد بما يثبت على المحك إلا أبو الطيب وحده ، وأما غيره من مقلعي الشعراء قديماً وحديثاً فإنهم قصروا عنه . وله في هذا المعنى قصيدة أخرى مفتتحها :

نعد المشرفية والعوالي وتقتلنا المنون بلا قتال^(١)

وكفى بهما شاهداً على ما ذكرته من انفراده بالإبداع فيما أتى به . وأبو الطيب أنفذ في المضيق وأعرف باستخراج المعنى الدقيق ، وأما البحتري فإنه أعرف بصوغ الألفاظ وحوك ديباجتها . والحكم بين الشاعرين في اتفاقهما في المعنى أبين من الحكم بينهما فيما اختلفا فيه ، لأنهما مع الاتفاق في المعنى يتبين قولاهما ويظهران ظهوراً يعلم ببديهة النظر ، ويتسارع إليه فهم من ليس بثاقب الفهم ؛ وما اختلفهما في المعنى فإنه يحتاج في الحكم بينهما فيه إلى كلام طويل يعز فهمه ولا ينفطن له إلا بعض الناس دون بعض ، لا بل لا ينفطن له إلا الفذ الواحد من الناس .

- ٢ -

ويقول صاحب المثل السائر عن الشعر في باب السرقات : وكان ختامه على يد الثلاثة المتأخرين ، وهم أبو تمام والبحتري والمتنبي . . ويعد من باب المعاني الجديدة قول المتنبي في عضد الدولة وولديه :

وأنت الشمس تبهر كل عين
فعاش عيشة القمرين يحيا
ولا ملكا سوى ملك الأعداى
وكان ابنا عدو كائراه
فكيف وقد بدت معها اثنتان
بضونهما ولا يتحاسدان
ولا ورثا سوى من يقتلان
له ياءى حروف أنيسيان

^١ أقالها في رثاء والدة سيف الدولة ، وقد توفيت بميفارقين سنة ٢٣٩ و جاءه الخبر بحلب .

وهذا معنى لأبي الطيب وهو الذي ابتدعه ، أى أن زيادة أولاد عدوك
كزيادة التصغير فإنها زيادة نقص . وما ينبغى أن يقال إن ابن الرومي ابتدع هذا
المعنى الذى هو :

يشكى المحب ويلقى الدهر شاكية كالقوس تصمى الرمايا وهى مرنان

فإن علماء البيان يزعمون أن هذا المعنى مبتدع لابن الرومي ، وليس
كذلك ولكنه مأخوذ من المثل المضروب وهو قولهم " يلدغ ويصى " ويضرب ذلك
لمن يبتدىء بالأذى ثم يشكو ، وإنما ابن الرومي قد ابتدع معانى أخر غير ما ذكرته .
وليس الغرض أن يؤتى على جميع ما جاء به هو وغيره من المعانى المبتدعة ، بل
الغرض أن يبين المعنى المبتدع من غيره . . . ومن شعر بن الخياط بيت فى قصيدة
أولها :

خدا من صبا نجد أمانا لقلبه فقد كاد رباها يطير بلسبه

وزعمون أنه من المعانى الغربية وهو :

أغار إذا أنست فى الحى أنة حذارا عليه أن تكون لحبه

وهذا البيت مأخوذ من شعر أبى الطيب المتنبى فى قوله :

لو قلت للدنف المشوق فديته مما به لأغرته بفدائه

وقول أبى الطيب أدق معنى وإن كان قول ابن الخياط أرق لفظا . .
ولعمارة اليمنى :

فهل درى البيت أنى بعد فرقته ما سرت من حرم إلا إلى حرم

وهذا البيت مأخوذ من شعر أبى تمام فى قوله مادحاً لبعض الخلفاء ، فى
حجة حجها ، وذلك بيت من جملة أبيات حسنة :

يا من رأى حرما يسرى إلى حرم طوبى لمستلم يأنى وملمتم

ثم يقول ابن الأثير : ولقد وقفت من الشعر على كل ديوان ومجموع ،
وأنفذت شطراً من العمر فى المحفوظ منه والمسموع ، فألفيته بحراً لا يوقف على
ساحله ، وكيف ينتهى إلى إحصاء قول لم تحص أسماء قائله ؟ ، فعند ذلك اقتضت
منه على ما تكثر فوائده وتتشعب مقاصده : ولم أكن ممن أخذ بالتقليد والتسليم ، فى
اتباع من قصر نظره على الشعر القديم ، إذا المراد من الشعر إنما هو إبداع المعنى
الشريف ، فى اللفظ الجزل اللطيف ، فمتى وجد ذلك فكل مكان خيمت فهو بابل .

وقد اكتفيت في هذا شعر أبي تمام حبيب بن أوس وأبي عبادة الوليد وأبي الطيب المتنبي . وهؤلاء الثلاثة لات الشعر وعزاه ومناته ، الذين ظهرت على أيديهم حسناته ومستحسناته . وقد حوت أشعارهم غرابة المحدثين إلى فصاحة القدماء ، وجمعت بين الأمثال السائرة وحكمة الحكماء . . أما أبو تمام فإنه رب معان ، وصيقل ألباب وأذهان ، وقد شهد له بكل معنى مبتكر ، لم يمش فيه على أثر ، فهو غير مدافع عن مقام الأعراب ، وبرز فيه على الأضراب ، ولقد مارست من الشعر كل أول وأخير ، ولم أقل ما أقول فيه إلا عن تنقيب وتنقير ، فمن حفظ شعر الرجل وكشف عن غامضه وراض فكره برائضه ، أطاعته أعنة الكلام ، وكان قوله في البلاغة ما قالت حذام^(١) . فخذ مني في ذلك قول حكيم ، ففوق كل ذي علم عليم . وأما أبو عبادة البحترى فإنه أحسن في سبك اللفظ على المعنى ، وأراد أن يشعر فغنى ، ولقد حاز طرفي الرقة والجزالة على الإطلاق ، فبينما يكون في شظف نجد ، إذ تشبث بريف العراق ، وسئل أبو الطيب المتنبي عنه وعن أبي تمام وعن نفسه فقال : " أنا وأبو تمام حكيمان والشاعر البحترى " ، ولعمري إنه أنصف في حكمه ، وأعرب بقوله هذا من متانة علمه ، فإن أبا عبادة أتى في شعره بالمعنى المقدود من الصخرة الصماء ، في اللفظ المصوغ من سلاسة الماء ، فأدرك بذلك بعد المرام ، مع قربه إلى الأفهام ، وما أقول إلا أنه أتى في معانيه بأخلاق الغالية ، ورقى في ديباجة لفظه إلى الدرجة العالية .

وأما أبو الطيب المتنبي فإنه أراد أن يسلك مسلك أبي تمام ، فقصرت عنه خطاه ، ولم يعطه الشعر من قياده ما أعطاه ، لكنه حظى في شعره بالحكم والأمثال ، واختص بالإبداع في وصف مواقف القتال ، وأنا أقول قولاً لست فيه متائماً ، ولا منه ملثماً ، وذلك أنه إذا خاض في وصف معركة ، كان لسانه أمضى من نصالها ؛ وأشجع من أبطالها ، وقامت أقواله لك مقام أفعالها ، حتى تظن الفريقين قد تقابلا ، والسلاحين قد تواملا ، فطريقه في ذلك تضل بسالكه ، وتقوم بعذر تاركه ، ولا شك أنه كان يشهد الحروب مع سيف الدولة بن حمدان ، فيصف لسانه ما أدى إليه عيانه ومع هذا فإنني رأيت الناس عادلين فيه عن سنن التوسط ، فإما مفرط في وصفه وإما مفرط . وهو وإن انفرد بطريق صار أبا عدوته . فإن سعادة الرجل كانت أكبر من شعرد . وعلى الحقيقة فإنه خاتم الشعراء ، ومهما وصف به فهو فوق الوصف وفوق الاطراء ، ولقد صدق في قوله من أبيات يمدح بها سيف الدولة:

(١) امرأة من العرب عرفت بالصدق فيهم حتى ضرب بها المثل .

لا تطلبن كريما بعد رويته ان الكرام بأسخاهم يدا ختموا
ولا تبالي بشعر بعد شاعره قد أفسد القول حتى أحمد الصمم

ولما تأملت شعره بعين المعدلة البعيدة عن الهوى، وعين المعرفة التي ما
ضل صاحبها وما غوى، وجدته أقساما خمسة، خمس في الغاية التي انفرد بها دون
غيره، وخمس من جيد الشعر الذي يساويه فيه غيره. وخمس من متوسط الشعر.
وخمس دون ذلك، وخمس في الغاية المتفجرة التي لا يعبا بها: وعدمها خير من
وجودها، ولو لم يقلها أبو الطيب لوقاه الله شرها. فإنها هي التي ألسته لباس الملام.
وجعلت عرضه شارة لسهام الأقوال. وهؤلاء الشعراء الثلاثة لم أعدل إليهم اتفاقاً،
 وإنما عدلت إليهم نظراً واجتهاداً. وذلك أرى وقفت على أشعار الشعراء قديمها
 وحديثها، حتى لم أترك ديواناً لشاعر مفلق يثبت شعره على المحك، إلا عرضته على
 نظري، فلم أجد أجمع من ديوان أبي تمام وأبي الطيب للمعاني الدقيقة، ولا أكثر
 استخراجاً منهما للطيف الأغراض والمقاصد، ولم أحد أحسن تهذيباً للألغاز من أبي
 عبادة ولا أنقش ديباجة ولا أبهج سبكا منه، فاخترت حينئذ دواوينهم، لاشتمالها على
 محاسن الطرفين من المعاني والألفاظ، ولما حفظتها ألغيت ما سواها، مع ما بقي على
 خاطري من غيرها.

أبو العلاء المعري

٣٦٣ - ٤٤٩ هـ - ٩٧٣ - ١٠٥٧ م

أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد بن سليمان بن أحمد
سليمان بن داود، ينتهي نسبه إلى النعمان^١ بن عدى. وهو حكيم العربية وشاعرها
الكبير، كان جده لأبيه سليمان بن داود يلي قضاء المعرة وحمص ومات سنة ٢٩٠هـ،
فولى بعده أبو بكر محمد بن سليمان عم أبي العلاء، فلما مات ولى القضاء بعده
أخوه عبد الله بن سليمان والد أبي العلاء فمات سنة ٣٧٧هـ، وترك أبا العلاء وأبا
المجد محمد بن عبد الله وأبا الهيثم عبد الواحد بن عبد الله، وكانوا جميعاً من
الشعراء.. وأم أبي العلاء من أسرة بحلب شهرت بالكرم والعلم، وهم "آل سبيكة".

^١لقب النعمان بساطع الجمال وسبه الأعلى إلى تيم الله إلى قضاة إلى قحطان.

ولد أبو العلاء في يوم الجمعة ٢٨ ربيع الأول عام ٣٦٣هـ - ٩٧٣م بمعرة النعمان، وكف بصره عام ٣٦٧هـ على إثر جدرى أصابته ذهبت بيسرى عينيه جملة، وغشيت يمانهما ببياض ففقدت ما فيها من قوة الإبصار.

درس على أبيه علوم اللغة والنحو والأدب، ثم رحل إلى حلب حاضرة الحمدانيين، ثم إلى إنطاكية وطرابلس الشام حيث أقام فيها عند أخواله. وبدأ يقرض الشعر وهو في الحادية عشرة من عمره، وعرف في اللاذقية من الرهبان بعضا من الفلسفة وعلوم الأوائل وقواعد الأديان. وعاد إلى المعرة بعد أن قضى دراسته في طرابلس، وتوفي أبوه عام ٣٩٥هـ، فرثاه بشعره، وعاش بعده على غلة وقف لأسرته، كان يدر عليه في السنة ثلاثين ديناراً، دون أن يتكسب بشعره كشعراء عصره، ورحل إلى بغداد سنة ٣٩٨ طلباً للعلم والثقافة، ومكث بها إلى رمضان عام ٤٠٠هـ، وقدم أول قدومه إلى أبي حامد قصيدة يصف فيها متاعب رحلته، ويستعين بها على ضيق يده، ومنها:

وبالعراق رجال قريهم شرف هاجرت في حبههم رهطى وأشياى

وقد بهر المعرى الدين اتصل بهم ببغداد بعلمه وكان يسعى إلى دروس العلماء، ويزور مكاتبها العامة والخاصة، ويتصل بمجامعها العلمية والأدبية والفكرية.

ولكن حقد الحاقدين وحسد الحاسدين جعله يرحل من بغداد، وكذلك ضيق يده، وشقاؤه النفسى، كل ذلك ألجأه إلى العودة للمعرة، مودعا من أهل بغداد أجمل وداع، وبلغه نعي أمه وهو في طريقه إلى المعرة، فحزن أشد الحزن، واعتزل بعد عودته الناس، وأقام في داره، وسمى نفسه رهين المحبسين، ولكنه فشل في طلب العزلة، فقد سعى إليه بالمعرة الأمراء والعلماء والأدباء والشعراء والمتكلمون، وراسله الخلفاء والكبراء فذاعت شهرته في الآفاق، وهجر أبو العلاء أكل الحيوان والزواج فاتهم بالزندقة، وظل يعيش في ظلال الهرم والشيوخة، حتى توفي في ١٣ ربيع الأول عام ٤٤٩هـ - ١٠٥٨.

وكان المعرى شاعراً حكيماً من أقدر الشعراء الذين أخضعوا الشعر للفلسفة، وقد أضفى التاريخ على اسم أبي العلاء جلالاً ومجداً كان بهما جديراً، فهو علم من أعلام الأدب، وشاعر من أنبه الشعراء ومؤلف من أكبر المؤلفين. وقد ألف "رسالة الغفران" عام ٤٢٤هـ^(١) في أسلوب قصصى خيالى، رداً على رسالة ابن القارح التى

(١) يرجح زين لقول المعرى فى الغفران: ولا يجوز أن يخبر مخبر منذ مانى سنة أحد أمير حلب فى سنة ٤٢٤هـ اسمه فلان (٨٤: ٢ الغفران) طبعة كيلانى، وراجع ٢٥٨ - ٢٧٠: النشر الفنى.

بعث بها إلى أبي العلاء، وموضوع رسالة الغفران زيارة خيالية للجنة والنار وحوار طريف بين الأدباء والشعراء والمفكرين وتضمنت الرسالة كثيرا من فلسفة أبي العلاء في الأخلاق والثقافة والأدب، وفي الدين والاجتماع، وفي الشعراء وشعرهم. ويشابهها في ذلك الكوميديا الإلهية، لدانتي شاعر عصر الإحياء في إيطاليا.

أما ابن القارح فهو أبو الحسن علي بن منصور الحلبي، وتلميذ ابن خالويه وأبي علي الفارسي. أقام في حلب ثم رحل إلى بغداد ومصر. ورسالته التي أرسل بها من مصر إلى أبي العلاء فيها شيء من الهزل والدعابة، وصور فيها آراءه في الشعراء والأدباء والعلماء والمفكرين. كما صور فيها حياته، وطلب من المعري أن يجيبه عليها. وكان حوار المعري عليها هو رسالته الحالدة "رسالة الغفران" التي ناقش فيها آراء ابن القارح في رسالته في أسلوب جميل من الحوار مع أهل الجنة وأهل النار. وهو أسلوب جديد في اللغة العربية. ويظن أن المعري تأثر فيها برحلة الإسراء والمعراج وبرحلة الموبد الزرادشتي أورده وبران إلى الجنة والنار.

وللمعري ديوانه "اللزوميات"، وديوان "سقط الزند"، وبعض المؤلفات الأخرى.

أما مسألة : هل سرق دانتي رسالة المعري؟

فهى مسألة طال حولها الحوار والجدل، ولم نر دليلا ماديا على السرقة أو على البراءة منها، ولكن قوما يردونها.. قال الأستاذ محمد كرد علي: أن أعمى المعرفة كان معلما لنا بغة إيطاليا في الشعر والخيال. وبعض الباحثين من المستشرقين في أوروبا على أن دانتي في روايته الإلهية قد اقتبسها - ولاسيما الجحيم - من رسالة الغفران للمعري. وقال جورجى زيدان: إن المعري توفي سنة ٤٤٩هـ ودانتي توفي سنة ٧٢٠هـ، وملتن الإنجليزى توفي سنة ١٠٨٤هـ، فلا بدع إذا قلنا باقتباس هذا الفكر عنه.. وأقدمهما (دانتي) لم يظهر إلا بعد احتكاك الإفرنج بالمسلمين والإيطاليون أسبق الإفرنج إلى ذلك.. ذلك هو رأى جورجى زيدان توسع فيه حتى أدخل ملتن (١٦٠٨ - ١٦٧٤) أيضا في الاقتباس من المعري وحثته تأخر الزمن بدانتي وملتن واحتكاك الإفرنج بالمسلمين، وذلك كله لا ينهض دليلا على اقتباس الفكرة، ولا يكفى برهاننا على الأخذ؟ والمسألة لا تعدو الحدس والظن. وأنا لنرى البراهين تنحاز ناحية دانتي فتبعده عن الأخذ وعن الاقتباس. فقد بدأ حياته يتعلم الدين، يكمل ثقافته على يد القديس فرانشسكو، ولقد كان عصره عهد قوة سلطان الباباوات والكهنة، ولن يقوم لهؤلاء سلطان إلا بقوة النزعة الدينية، وإبان

ذلك تتكاثر صور الجنة والنار واردة في أخيلة الناس وأذهانهم .. أو ليس في نشأته الدينية. وفي عهده الملى بالتعصب الدينى ما يكفى فى أن ترد الجنة والنار فى خياله؟ على أن فكرة الجنة والنار والنعيم والجحيم تدور برؤوس الناس منبلج الصباح وأفول الشمس فى كل يوم، فهى حق شائع لجميعهم لا يعده الأدباء أخذاً، ولو أنهم عدوه لكان كل شعراتنا وأدبائنا سراقاً، وكان امرؤ القيس سارقاً لأنه بكى الديار كما بكأها ابن حذام من قبله، إذ يقول امرؤ القيس:

عوجا على الطل المحيل لعلنا نبكى الديار كما بكى ابن حذام

وإنما الذى يعده الأدباء سرقة هو أخذ الفكرة النادرة التى ينفرد واحد بها. أو الترتيب الذى لا يستطيعه إلا الشواذ والأفذاذ، فهل سرق دانتي الترتيب من رسالة الغفران؟ اللهم لا. فحراس الجحيم فى خيال المعرى ملائكة، وفى خيال دانتي شياطين، وأشخاص الرواية عند المعرى شعراء ورواة، وعند دانتي رجال دين وعصاة ومذنبون، والجنة عند دانتي تسعة أقسام لكل قسم طائفة عملوا الخيرات كل على حسب عمله. وعند المعرى ثلاثة أقسام. "جنة الجن" و"جنة (الرجاز) والجنة الأصبية، وقد بلغ المعرى أسمى خياله لدى وصفه الفردوس، كما كان أخصب النواحي خيالاً عند دانتي وصف الجحيم.

على انه إن كان لابد من أن نتهم الشاعر الطليانى بالاقتباس. فأولى أن نعتقد أخذه من فرجيليو الذى كان دليله فى رحلته وهاديه فى ظلمات الجحيم. وفرجيليو هو الآخر رحلة فى أعماق الجحيم هى أقرب لخيال دانتي من رسالة الغفران، ولقد كانت لدانتي أحلام فيها ملائكة وفيها موتى، هى إرهاب ومقدمة لرسائله العتيدة، فقد رأى فى حلم من الأحلام أنه ضل فى غابة موحشة فأطلت عليه محبوبته بياتريشى فى سحابة من الملائكة وعليها لهب قرمزي كأنه اللهب المتأجج، وخيل إليه أنه يتغلغل فى عالم الأموات؛ كما تحدث فى بعض أشعاره قائلاً: ها أنذا جالس فى مكانى أذكرها وأذكر أيامها السعيدة، فيلوح لى كأن ملائكة من السماء تهبط من عل، وتأخذ أماكنها على المقاعد الموجودة حولي.

فإذا ضمنا لذلك كله أن حبه ألهمه خيال الجنة ليستمتع بمن أحب، وأن بغضه لمن حاربه، ونفوه وشرده يوحى إليه أن يتخيلهم فى دركات الجحيم، وأن تلك طبيعة النفس نشره لنيل آمالها ولو عن طريق الخيال، عرفنا براءته من السرقة.

وقد ألف ملتون ملحمة (الفردوس المفقود) عام ١٦٦٧ بعد أن كف بصره، واتخذ مصادرها من التوراة فى رأى بعض الباحثين وهى رحلة إلى السماء والجنة

والجحيم ويصف فيها آدم وحواء والشيطان البطل الحقيقي للقصيدة، وقد صوره يعيش حياة عنيفة غنية، ممجداً في شخصيته الكبرياء والحرية^(١).

وكان أبو العلاء مفرطاً في الذكاء والفتنة. ومن ذكاء المعري ما يروى من أنه دخل عليه أبو نصر المنذري^(٢) المعري في جماعة من أهل الأدب: فأنشد كل واحد منهم من شعره ما تيسر، وأنشده أبو نصر:

وقاننا لفحة الرمضاء واد	سقاد مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحه ^(٣) فحننا علينا	حنو الوالدات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالاً ^(٤)	أذمن المدامة للديم
يصد الشمس أنى واجهتنا	فيحجبها ويأذن للنسيم
يروع ^(٥) حصاه حالية ^(٦) العذارى	فتلمس جانب العقد النظيم

فقال أبو العلاء: أنت أشعر من بالشام. ثم رحل أبو العلاء إلى بغداد، وأبو العلاء لا يعرف منهم أحداً، فأنشد كل واحد منهم ما حضره من شعره حتى جاءت نوبة المنذري فأنشد:

لقد عرض الحمام لنا بسجع	إذا أصغى له ركب تلاحى ^(٧)
شجى ^(٨) قلب الخلى فقيل: غنى	وبرح ^(٩) بالشجى ^(١٠) فقيل: ناحا
وكم للشوق في أحشاء صب	إذا اندملت أجد لها جراحا
ضعيف الصبر عنك وإن تقاوى	وسكران الفؤاد وإن تصاحي
بذاك بنو الهوى سكرى صحاة	كأحداق المها مرضى صحاحا

فقال أبو العلاء: ومن بالعراق - عطفاً على قوله: من بالشام -! ولكن الشعر الأول يروى لغير المنذري كما يعلم شدة الأدب ودارسوه.

(١) ١٠١ ١٠٦ الأدب الإنجليزي بول دوتان.

(٢) المستطرف ص ٤٦ ج ١ - والأبيات مشهورة لحمدونة الأندلسية

(٣) الدوح: جمع دوحه: الشجرة العظيمة من أى شجر كان.

(٤) ماء زلال: عذب. * المدامة: الخمر.

(٥) يروع: يفزع.

(٦) أحليت المرأة: صارت ذات حلى فهي حلية وحالية.

(٧) اتلاحى: تنازع.

(٨) برح به الأمر: جهده.

(٩) شجاد: أطربه

(١٠) الشجى: الحزين

الأمير الشاعر ابن سنان الحفاجي

٤٢٢ - ٤٦٦

-١-

عاش ابن سنان في حلب، وتنقل بين ربوع الشام وامبراطورية الروم، وورث النزعات الأدبية عن أسرته العربية الصميمة، وعن البيئة الأدبية الخصبة التي عاش فيها. فحلب كانت عاصمة سيف الدولة الحمداني (٣٠٣ - ٣٥٦هـ)، وعاصمة دولة الحمدانيين عامة، وكانت تموج في عهدهم بالعلماء والفلاسفة والأدباء والكتاب والشعراء والخطباء. عاش فيها المتنبي حقة من الزمن، ونشأ عاش فيها أبو فراس الحمداني الشاعر ٣٥٧هـ، وأبو عبد الله الحسين بن خالويه م ٣٧٠ وأصله من همذان واستوطن حلبا.. كما أقام فيها حينا أبو الفتح عثمان بن جنى م ٣٩٢هـ. والفارابي الفيلسوف م ٣٣٩هـ. ومن شعرائها: النامي، والناشي الأصغر، وأبو القاسم الزاهي، وأبو الفرج البغاء، وكثير من أمراء العرب من بني حمدان وبني عامر وبني عقيل وخفاجة.

وبجوار حلب في معرة النعمان ولد ونشأ وعاش المعري الشاعر الفيلسوف م ٤٤٩هـ وهو الذي تتلمذ عليه ابن سنان. هذا فضلاً عن بيئة الشام الأدبية عامة، ومن حفلت بهم من أعلام الأدب والشعر والخطابة: كأبي طالب الرقي والخليع الشامي، وأبي الفرج الوأواء دمشقي، وعبد المحسن الصوري، وأبي الرقعمق، وسواهم من الشعراء والأدباء.. وكان عبد الرحيم بن نباتة م ٤٠٥هـ خطيب جيوش سيف الدولة المفوه.

فلا عجب أن تبعث هذه البيئة الأدبية في نفس ابن سنان حب الأدب وتدوقه والإجادة في نظمه. أما الذي ربي في نفس ابن سنان حب النقد والبلاغة وملكة التأليف فيها فهو اتصاله بأستاذه المعري، وعكوفه على كتب الأدب القديمة قراءة وفهما وتدوقاً: كالبيان والتبيين للجاحظ ونقد النثر والموازنة للآمدي. والوساطة للقاضي الجرجاني، والبلاغة وإعجاز القرآن للرماني، والصناعتين لأبي هلال العسكري، وإعجاز القرآن للباقلاني. فوق تأثره ببحوث المتكلمين في إعجاز القرآن الكريم وفصاحته. فلا بدع أن يكون ابن سنان بعد ذلك كله أديباً ملهماً وشاعراً مطبوعاً، وناقداً موهوباً، وعلماً من الأعلام في النقد والبلاغة والبيان.

وابن سنان كما يدل عليه كتابه سر الفصاحة ناقد ممتاز. تشهد بذلك آراؤه وأحكامه الأدبية في هذا الكتاب. وإذا ذكرنا الموازنة والوساطة والصناعتين فلا بد أن نذكر معها سر الفصاحة لابن سنان. وله فوق ذلك منزلة كبيرة في البلاغة. فإذا كان ابن المعتز قد ألف كتابه البديع. وقدامة قد ألف نقد الشعر. وأبو هلال قد ألف الصناعتين. وابن رشيق قد ألف "العمدة". فحسبنا أن نذكر ابن سنان ومؤلفه القيم "سر الفصاحة". فإنه حلقة بين هذه الكتب وبين كتب عبد القاهر والسكاكي ومدرسته. فابن سنان كتب القاهر: كلاهما بنى البلاغة العربية صرحاً شاهقاً تعزز به وتفخر. وكلاهما أقام بحوثه للبلاغة على نهج جديد. كان أساساً لبحوث البلاغيين من بعد، وإذا كانت الفكرة الأولى عند عبد القاهر حين ألف في البلاغة هي الوصول إلى أسرار إعجاز القرآن الكريم وحقيقته فإنها كذلك هي الإعجاز. وخرج منها صفر اليدين، لم يهتد إلى أمنيته المنشودة ولكن ابن سنان يرى أن سر الإعجاز هو صرف الله الناس عن الإتيان بمثل القرآن الكريم. وعبد القاهر يرى أن سره هو دقائق ولطائف في نظم القرآن الكريم أعجزت القائلين وأسكنت صوت المتحدين؛ أو قل إن سر الإعجاز الدفين عنده هو بلاغة القرآن الكريم بكل ما تحوى عليه هذه الكلمات من معان .

وقد ترجم له صاحب فوات الوفيات. فقال : عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان، أبو محمد الخفاجي الشاعر الأديب، كان يرى رأى الشيعة، وكان قد عصى بقلعة عزاز من أعمال حلب، وكان بينه وبين أبي نصر محمد بن الحسن بن النحاس الوزير لمحمود بن صالح مودة مؤكدة. فأمر محمود أبا نصر بن النحاس أن يكتب إلى الخفاجي كتاباً يستعطفه ويؤنسه، وقال لا يأمن إلا إليك، ولا يثق إلا بك، فكتب إليه كتاباً، فلما فرغ منه وكتب إن شاء الله تعالى شدد النون من إن، فلما قرأه الخفاجي خرج من عزاز قاصداً حلب، فلما كان في الطريق أعاد النظر في الكتاب، فلما رأى التشديد على النون أمسك رأس فرسه، وفكر في نفسه، وقال : إن ابن النحاس لم يكتب هذا عبثاً، فلاح له أنه أراد "إن الملاء يأترون بك ليقتلوك، فعاد إلى عزاز، وكتب الجواب : أنا الخادم المعترف بإنعام، وكسر الألف من أنا وشدد النون وفتحها، فلما وقف أبو نصر على ذلك سر وعلم أنه قصد به "إننا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها". وكتب الجواب يستصوب رأيه. فكتب إليه الخفاجي:

خف من أمنت ولا تركز إلى أحد
 إن كانت الترك فيهم غير وافية
 فما نصحتك إلا بعد تجريب
 فما تزيد على غدر الأعراب
 وكاد أن يدرسوها في المحارب

واستدعى محمود أبو نصر بن النحاس، وقال: أنت أشرت على بتولية الخفاجي وما أعرفه إلا منك، ومتى لم يفرغ بالي منه قتلتك، وألحقت بك جميع من بينك وبينه صلة وحرمة. فقال له: مرني بأمر أمثله، قال: تمضي إليه وفي صحبتك ثلاثون فارساً، فإذا قاربته عرفه بحضورك، فإنه يلتقيك، فإذا حضر سألك النزول عنده والأكل معه، فامتنع؟ وقل له: إني حلفتك أن لا تأكل زاده، ولا تحضر مجلسه حتى يطيعك في الحضور عندي، وطاوله في الحديث وأخرج هذه الخشكانجتين فكل أنت هذه، وأطعمه هذه، فإذا استوفى أكلها عجل الحضور إلي، فإن منيته فيها، نفعل ما أمره به، ولما أكلها الخفاجي رجع أبو نصر إلى حلب ورجع الخفاجي إلى عزاز، ولما استقر بها وجد مغصاً شديداً، ورعدة شديدة، فقال: قتلني والله يا أخي أبو نصر، ثم أمر بالركوب خلفه ورده، ففاتهم، ووصل إلى حلب، وصبح من الغد محمود، فجاءه من عزاز^(١) من أخبره أن الخفاجي في الرمي الأخير، ومات. وكانت وفاته في سنة ٤٦٦ هـ، وحمل إلى حلب^(٢).

- ٤ -

وثقافة ابن سنان ثقافة واسعة متنوعة فهو أديب ملم بالأدب متذوق له، وهو علم من أعلام النقد الأدبي كما يتجلى ذلك من كتابه سر الفصاحة، وهو شاعر مبدع ملهم تتجلى في شعره سمات الشاعرية المجددة الساحرة، وهو فوق ذلك كله عالم ملم بشتى العقائد والفلسفات والمذاهب العقلية والدينية كما يتجلى ذلك في كتابه "سر الفصاحة" وفي كثير من شعره، وكان ينتصر للرأى القائل بأن سبب إعجاز القرآن

(١) بلدة فيها قلعة ولها رستاق شمالي حلب. بينهما يوم، وهي طيبة الهواء عذبة الماء صحيحة لا يوجد فيها عقرب وليس بها شيء من الهوام (٦/١٦٧ معجم البلدان لياقوت ط ١٩٠٦). وجاء في معجم البلدان لياقوت عند ذكر حلب من رسالة لابن بطالان كتبها سنة ٤٤٠ هـ ما نصه: وفيها حدث يعرف بأبي محمد بن سنان قد ناهز العشرين، وعلا في الشعر طبقة المحنكين. فمن قوله:

إذا هجوتكم لم أخش صولتكم
 وإن مدحت فكيف أرى باللهيب
 فحين لم ألق لا خوفاً ولا طمعاً
 رغبت في الهجو إشفافاً من الكذب

(٣١٣ ج ٣ معجم البلدان لياقوت ط ١٩٠٦).

(٢) ٢٩٧١ ١/٣٠٠ فوات الوفيات لابن شاعر ط ١٢٨٢ هـ - وراجع ترجمة ابن سنان بإفاضة في كتابي "بنو خفاجة وتاريخهم السياسي والأدبي".

هو أن الله عز وجل صرف العرب وسواهم عن معارضته وقد أيد هذا الرأي في كتابه سر الفصاحة وألف فيه كتاباً سماه الصرفة^(١).. وهو فوق ذلك العلم الفذ في البلاغة، وكتابه يعد أول تأليف مفصل في علوم البلاغة والبيان وأجمع دراسة لشتى ألوان البلاغة وفنونها وصورها وجميع أسبابها من اللفظ والمعنى والتأليف والنظم، وكل هذه الثقافات تدل على عقلية واسعة عميقة ولا شك أن مما نماها فيه تلمذته على أستاذه أبي العلاء وسواه من علماء العربية وأدبائها، فوق عكوفه على المطالعة والقراءة والبحث والتأليف، وفي أستاذه المعري يقول من قصيدة رثى بها جماعة من أهله وأصدقائه :

ومقيماً على المعرة تطويه الليالي وذكره منشور^(٢)
وقد ألف ابن سنان الكتب الآتية :

- ١- سر الفصاحة.
- ٢- كتاب الصرفة ذكر فيه قضية إعجاز القرآن وأن سبب الإعجاز هو صرف الله العرب عن معارضته^(٣).

ومذهب الصرفة ينسب إلى إبراهيم بن يسار النظام المعتزلي وقد جرى الكلام به على السنة قوم قبله من أشهرهم عيسى بن صبيح المزدار المعتزلي البغدادي. وكان الجعد ابن درهم مؤدب مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين يقول قولاً قريباً من ذلك. وقد رجح هذا المذهب ابن سنان في كتابه.

٣- وله ديوان شعر صغير، إلى غير ذلك من كتبه المفقودة.

- ٥ -

وابن سنان شاعر مشهور وله ديوان شعر يقع في ست عشرة ومائة صفحة ويمتاز شعره بامتلائه بالمعاني والأفكار العقلية وبقوته وجمال العاطفة فيه وظهور شخصية الشاعر وغلبتها عليه، وسندرسه دراسة واسعة في كتاب مستقل إذا وفق الله. ونشير في هذا المقام إلى أن البارودي قد جعل في مختاراته ابن سنان من الشعراء الذين نقل عنهم من شعرهم. وكان من الشعراء الذين عاصروا ابن سنان في حلب: أبو الفتح بن أبي حصينة المتوفى عام ٤٥٦ (راجع ١٨٨ ج ٤ أعلام النبلاء)، ومنهم

(١) راجع ١٣٩ ج ٣ معجم الأدباء وقد نقل عنه ياقوت.

(٢) ص ٣٥ من الديوان.

(٣) ١٣٩ ج ٣ معجم الأدباء.

أبو العباس الملقب بالمشكور (راجع ٣٣٣ و ٣٣٤ ج ١ أعلام النبلاء) وسواهما من الشعراء. ومن ديوانه نسخة خطية بدار الكتب وطبع الديوان ببيروت في ١١٦ صفحة. وشعر ابن سنان الخفاجي كله مختار جيد لاسيما ما نظمه من بعد عصر صباه وهو مظهر لشخصيته في يأسه وأمله وفقره وغناؤه وظفره وفشله وفي فضائله الخلقية الكريمة وفي طموحه البعيد الوثاب وفي نظراته الفلسفية التي استمدتها من أستاذه أبي العلاء. وهو في رثائه وفي عتابه وفي غزله وفي مدحه وفي وصفه وفي التعبير عن وجدانه وعواطفه، رائع بالغ حدود الجمال الفني والعاطفي. ولا مانع من أن نعرض هنا عدة نماذج لشعر ابن سنان. قال الخفاجي:

أيهما السنوام ويحكمكم	قد حملنا عنكم السهرا
نحن في ظلماء داجية	مالها صبح فينتظر
فجرها والصبر بعدهم	ما سمعنا عنهما خبرا

وقال من قصيدة يرثي بها جماعة من أهله وأصدقائه:

طلب الأمن في الزمان عسير	وحدث المني خداع وزور
لا تظن الفقيد أفردة البين	فقد أعجل المقيم المسير
إن في جانب المقطم مهجورا	ومن أجله تزار القبور
ومقيما على المعرة ^(١) تطويه	الليالي وذكره منشور
وضريحين بالعواصم مبدولين	والصبر عنهما محظور
وغريبا بالدير بان له العيش	وغاض السدى ومات السرور
صارم فلت النوائب حديه	وغصن تحت الثرى مهجور
أيها الظاعنون لازل	للغيث رواح عليكم وبكور
لست أرضى بالدمع فيكم فهل	يملك رى البحور إلا البحور
قد رأينا دياركم وعليها	أثر من عفاتكم مهجور
وسألنا أطلالها فأجابت	ومن الصمت واعظ ونذير
عرصات كأنهن لسيال	فارقتها عند الكمال البدور
ياديار الأحباب غيرك الدهر	فكانت بعد الأمور أمور
أين أيامنا بظلك والشمل	جميع والعيش غض نضير
نشوة أعقت خماراً من الهم	ولكن قد يفرق المخمور
يا نجوم العلى غربتم وما في	الليل من بعدكم نجوم تغور

(١) هو أستاذه المعري الفيلسوف الشاعر م ٤٤٩ هـ.

حال عما عهدتموه ولم
وعفا الجود فالكريم بخيل
لا يجاوركم الصعيد بسوء
وسقاكم من السحاب صناع
ما أرى الشعر كافيًا في مراثيكم

وقال :

يا خجلتي للطيف لما سرى
زيارة ضاعت ولكنها

وقال :

لى راحة يفرق منها الغنى
لابد أن أعمرها بالقسنا

وقال :

تجاهلت حتى أنكرتني خفاجة

وقال فى صباه :

وحى من خفاجة رحى فيه
أباح الخمر فيه حمى همومى

وقال فى مقامه بديار بكر من قصيدة طويلة :

سقى الهضبة الأدماء من أرض جوشن
وحل عقود المزن فى حجراته
فما ذكرته النفس إلا تبادرت

وقال ابن سنان :

هل تسمعون شكاية من عاتب
أم كل ما يتلو الصديق عليكم
أما الوشاة فقد أصابوا عندكم
فمليتكم من صابر، ورقدتكم

وقال على مذهب لزوم مالا يلزم :

مضى الصبا وأناس فى الصبا غرقوا

يجر على رسمه الصباح المنير
فى الملمات والغنى فقير
فهو للنازلين بسنس المجير
الكف يسدى فى روضكم وينير
ولكن قد ينفست المصدر

فى خطر الليل إلى ساهر
جناية الشوق على الزائر

لأن ما ينزلها يستباح
فطالما أقفرتها بالسماح

وقالت : وهل ضل الأعر المشيع ؟

على جرداء حالية الأديم
فأشربها وتفستك بالسنديم

سحائب تسدى روضه وتنير
نسيم بأدواء القلوب خبير
مدامع لا يخفى بهن ضمير

أو تقبلون إنابة من نائب
فى جانب وقلوبكم فى جانب
سوقا تنفق كل قول كاذب
عن ساهر وزهدتم فى راغب

أستودع الله إطرابي وأترابي

ولو عقلت لما عنيت بعدهم
وكنت في جانب الغبراء معتزلاً
لا أطلب الرزق من سيف ومن قلم
أقول حقاً ولكني أخالفه

وقال :

من مبلغ اللوام أن مطامعي
ركضت على أعراضهم وهي التي
ماني أجاذب كل وقت معرضاً
وأقيم سوق المجد في ناديتهم
أرأيت أضيع من كريم راغب
ومعرس بركابه في منزل
عكس الأنام فإن سمعت بناقص
وتفاوت الأرزاق أوجب فيهم
ومعدد في الفخر طارف ماله
طوقته بأوابد ولطالما
مهلاً فإنك ما تعد "مباركاً"
بيت له النسب الجلي، وغيره

وقال :

أستغفر الله لا فخر ولا شرف
كأنما نحن في ظلماء داجية
تزيد بالبحث جهلاً إن طلبت هدى
وفي الفلاسفة الماضين معتبر
وقد أتوك بمين من حديثهم
ظن بعيد وأقوال ملفقة
الأمر أكبر من فكر يحيط به
أعظم بدانك إن حاولت واضحة
جاءت أحاديث عن قوم أظنهم
يدين قوم بأن الشهب خالدة
وما رضيت بعقلي في جدالهم

نفسى وأتعبت آرابي بأرابي
عزى قنوعى وحصنى ظل محرابي
ولا أفكر في روم وأعراب
ولو عقلت لكان الصمت أحرى به

صارت حديثاً بينهم وقصائدا
تطوى البلاد شواردا ورواكدا
منهم وأصلح كل يوم فاسدا
حتى أنفق فيه فضلا كاسدا
يدعو لخلته لئىما زاهدا
يلقى الصديق به عدواً حاسداً
فاعلم بأن لديه حظاً زائدا
أن يجعلوه مصالحا ومفاسدا
حتى تلوت عليه مجدا تالدا
أهديت أغلالاً بها وقلاندا
خالا ولا تحصي "سنانا" والدا
دعوى تريد أدلة وشواهدا

ولا وفاء ولا دين ولا أدب
فليس ترفع عن أبصارنا السجف
وهل يضىء لعين المدلج السدف
فطالما قصدوا فيه وما عسفوا
يكاد يضحك منه الحبر والصحف
تخفى على الغمر أحياناً وتنكشف
والعمر أقصر أن يلقي له طرف
ومت به فعلى هذا مضى السلف
عاشوا طويلاً وقالوا بعد ما خرفوا
وعند قوم لها وقت ومنصرف
ولا توهمت إلا غير ما وصفوا

ورب قوم أضاعوني وقد فهموا

قدرى فما أنكروا فضلى ولا اعترفوا

وقال على طريق الشعر المعروف باستغفر واستغفرى :

استغفر الله القديم وعد به
وأفعل جميلا لا يضع لك صنعه
واقنع ففى عيش القناعة نعمة
لا تركنن إلى المرء فإنه
عاذت بنو حواء من إبليس فى الد
درسوا العلوم ليملأوا بجدالهم
وتزهدوا حتى أصابوا فرصة
إيوان كسرى صار مرتع ثلثة
والحيرة البيضاء بدل أنسها
يا عقل مالك فى اللطائف منهج
عندى لقد ذهب الذين تفكروا
ما قول بطليموس عنها حجة
جار الأنام فلا دلالة ناظر
لا تحفلن بما حوته صحائف
عجبا لهمام ينازع خصمه
هيات ما شرف الأصول بنافع
لا تفخرن وإن فضلت فبالستقى

من شر عاو فى الحطام منافس
واسمح بقوتك للضعيف البائس
لا تتقى كفى الزمان الخالس
سبب لكل تنافر وتشامس
نيا وكم فيهم فنون أبالس
فيها صدور مراتب ومجالس
فى أخذ مال مساجد وكنائس^(١)
ودياره باتت مناخ عرائس
قدر أطاعته مدائن فارس
فإذا عثرت فلا لعب للناعس
فيها وما ظفروا بغير وساوس
عندى ولا المروى من رسطالس
تشفى العقول ولا إمارة قابس
لهم وإن وجدت بخطط دارس
فى آل يربوع وأسرة حابس
حتى يكون ذوائب كمغارس
ناضل ، وفى بدل المكارم نافس

أسامة بن منقذ

ولد أسامة فى يوم الأحد السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٤٨٨هـ - يوليه سنة ١٠٩٥م، من أسرة توارثت إمارة "شيزر" وهى مدينة فى الشمال الغربى لحماة تبعد عنها خمسة عشر ميلا، وتقع على هضبة يحيط بها نهر العاصى من جهات ثلاث وتنهض فيها قلعة شامخة حصينة، وكان لهذه القلعة قيمتها فى عصر الحروب الصليبية لمركزها الحربى الحصين، ومكانها بين الولايات السورية، فكانت مطمح الطامعين من أمراء المسلمين والصليبيين. ولد أسامة لأب صالح، يقضى وقته بين تلاوة القرآن، والصيد فى النهار، ونسخ كتاب الله فى الليل، ووالدة شهرت بالشجاعة،

^١ وينسب هذا البيت والذى قبله لابن خفاجة الأندلسى (راجع ديوان ابن خفاجة شاعر الأندلس م ٥٢٣ طبعة سنة ١٢٦٦ بمصر ص ٧٨).

والنخوة. والإقدام، وقد تركه والده منذ صغره يقتحم الأخطار، ويركب الصعب من الأمور، فلا ينهاه عن أن يمضى إلى عمل يريده أو عقبة يقتحمها وهو ثابت رابط الجأش. ولا يحول بينه وبين مصارعة الأسود بشيزر، وقتل ما يصرعه منها.. وهكذا شب جريئاً لا يهاب. ومما ساعده على ذلك أنه كان يشترك مع أبيه في رياضته المفضلة عنده، وهى الصيد.

ومع هذه النشأة التى تعد للحرب والنضال تلقى أسامة الثقافة التى كان يتلقاها الأمراء فى ذلك العصر. فدرس الحديث والأدب والفقه والنحو واللغة وحفظ الكثير من الشعر، وأخذ من ذلك بنصيب واف يشهد له به كتبه وما ضمنت من أحاديث كثيرة متنوعة الأغراض.

كان أسامة أثيراً لدى عمه أبى العساكر سلطان حاكم "شيزر" ولما لم يكن له عقب اتخذ أسامة ابناً له، وكان يرى فيه أمير المستقبل لشيزر، ووارث الملك من بعده فكان يكلفه من الأمور ما يتطلب شجاعة وجرأة. واشترك أسامة فى المعارك التى دارت بين أسرته وبين الصليبيين دفاعاً عن مدينتهم شيزر. وعاش أسامة فى تلك المدينة بين حب والده وعطف عمه، غير أن هذا لم يلبث بعد أن رزق أولاداً فى آخر أمره. أن دب الوهن والفتور إلى العلاقة التى تربطه بأسامة بدلاً من حبه وعطفه عليه. وبدأ الحسد والحقد يأخذان مكانهما من قلبه خوفاً على أولاده من مكانة أسامة. وحذراً أن ينول الملك إليه دونهم، فمضى أسامة إلى الموصل لدى عماد الدين زنكى الذى صار أكبر أبطال الحروب الصليبية فى وقته وأول خطر حقيقى داهم للصليبيين، فانتظم أسامة فى جنده وحارب تحت قيادته فى عدة معارك، ولكنه لم ينس وطنه الأول شيزر عندما هاجمه الفرنج والروم سنة ٥٣٢هـ ١١٣٨م، فقد مضى إليه وأبلى بلاء حسناً فى الدفاع عنه. وربما كان قد عزم على البقاء فى شيزر بين أهله الذين فقدوا والده سنة ٥٣١هـ، غير أن عمه أبى العساكر لم يرض عن مقام أسامة بشيزر فقد أيقن أنه أصبح خطراً على ملكه وأن ليس لأبنائه سلامة إذا ظل أسامة فى شيزر. فأمره وإخوته بالرحيل فتشتتوا فى البلاد، وكان فى ذلك الخير لهم، فإنهم نجوا من الزلازل التى هدمت شيزر وقضت على بنى منقذ بأسرهم وذهبت بملكهم سنة ٥٥٢هـ.

مضى أسامة يوم أخرج من شيزر إلى دمشق. واتصل بحاكمها معين الدين. واعتمد هذا الحاكم على أسامة فى تصريف أمور رعيته بدمشق. ثم سافر إلى القاهرة عام ٥٣٩هـ. وبعد حين عاد لدمشق، وتوفى بها عام ٥٧٨هـ - ١١٨٨م.

وقد ترك أسامة عدة كتب منها :

- ١- كتاب الاعتبار.
- ٢- كتاب لباب الآداب.
- ٣- كتاب العصا، وقد أورد فيه شواهد نثرية وشعرية تتحدث عن العصا منذ عرفت في التاريخ، وأثبت فيه أيضاً كثيراً من شعره.
- ٤- كتاب البديع، وقد جمع فيه ما تفرق في كتب العلماء المتقدمين، المصنفة في نقد الشعر، وذكر محاسنه وعيوبه، وقد انتقد هذا الكتاب ابن أبي الإصبع في كتاب بدائع القرآن. ومن الكتاب نسخة خطية بدار الكتب.
- ٥- كتاب المنازل والديار. قالت عبد دائرة المعارف الإسلامية : إنه ترجحة كتبها عن نفسه عام ٥٦٨ هـ - ١١٧٣ م في أثناء إقامته في حصن كيفا. والدافع له علي كتابته زلزال أغسطس سنة ١١٥٧ م وهو يتضمن شواهد شعرية كثيرة عن المنازل والديار والأطلال والربوع والدمن والرسوم وغيرها ، وبالمتحف الأسيوي بلنغراد نسخة منه.
- ٦- مختصر مناقب عمر بن الخطاب لابن الجوزي.
- ٧- مختصر مناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي أيضاً .. والكتابان مخطوطان بدار الكتب.
- ٨- تاريخ القلاع والحصون.
- ٩- أخبار النساء.
- ١٠- التاريخ البدرى، وقد جمع فيه أسماء من شهد بدرًا من الفريقين.
- ١١- التجائر المربحة والمساعى المنجحة.
- ١٢- النوم والأحلام .
- ١٣- الشيب والشباب.
- ١٤- التأسى والتسلى.
- ١٥- ذيل يتيمة الدهر.
- ١٦- أخبار النساء.
- ١٧- نصيحة الرعاة.

ومن شعر أسامة :

يزل يجور على مثلى ويعتسف
وفى يديك الغنى والعدل والخلف

أشكوزمأنا قضي بالجور فى . ولم
وقد دعوتك مظلوماً ومرتجياً

ومنه :

نى نوالا تنيله وتثيب
بت فيافى البلاد ربح هبوب
ويقيم المسترفد الموهوب

والدى طبعك الكريم ، فما أه
جاءنى والبعاد دونى كما جا
وعجيب أن المواهب تسرى

ومن شعره أيضاً :

هذا الدهر تلعب بالبرايا
ذا ، وقصرهم المنيا
نزر المواهب والعطايا
تلف الضرائب والسجايا
م . ولا تدوم به البلايا
نودة ، ولم أخش الرزايا

لما رأيت صروف هـ
يعلو بها هذا ، ويهبط
ورأيت مسـترجئاً
متغـاير الأحوال مخـ
لا نعمة فـسيه تدو
لم أغتـسب فـسيه بفا

وقال :

فإن الليالى بالخطوب حوامل
سريعاً فلا تجزع لما هوزائل

إذ ما عدا خطب من الدهر فاصطبر
فكل الذى يأتى به الدهر زائل

وقال :

والذى أوهم عيني أن فى النوم قذاها
يا ملولا قلما استر عى عهدا ، فرعاها
يا ظلوما كلما استعطفته ، صد وتاها
زدت فى تيهك والشىء إذا زاد تناهى
تتقضى دولة الحسن ، وإن طال مداها
راحتى لو سمع الشكوى إليه ، ووعاها
غير أن الصم لا تسمع دعوى من دعاها
وهو لو نادى عظامى رمة لبي صداها

القسم السادس

تراجم الأدباء والكتاب والنقاد

الأصمعي الناقد الراوية

هو الإمام أبو سعيد عبد الملك بن قريب^(١) (١٢٢ - ٢١٦هـ)، ينتهي نسبه إلى مضر بن نزار، وكان راوية اللغة والأدب، ذواقة الشعر، وإماما في الأخبار والنوادر والملح والغرائب، وكان كثير الحفظ حتى قيل إنه كان يحفظ ستة عشر ألف أرجوزة، وأنه لم يكن يدعى شيئا من العلوم إلا وله به معرفة تامة.. وكان حسن العبارة والرواية.. وهو من أهل البصرة، قدم بغداد في أيام الرشيد، وكان المأمون يجله ويكبره، وطلبه أن يأتي إليه فلم يفعل، واحتج بكبره وضعفه فكان المأمون يجمع المشكل من المسائل ويرسل به إليه ليحيب عنه. وتوفي بالبصرة وقيل بمرور.

وينسب الأصمعي إلى جده أصمع، وهو من قيس.. ونشأ بالبصرة وتأدب على علمائها وأئمتها، وكان يقول: "أحفظ ستة عشر ألف أرجوزة"، وكان الرشيد يسميه شيطان الشعر.. وقد امتاز بطلاوة الأسلوب وجمال الحديث وحلاوة التعبير، حتى قال الشافعي فيه: "ما عبر أحد عن العرب بأحسن من عبارة الأصمعي". وسئل أبو نواس عنه وعن أبي^(٢) عبيدة فقال: أما أبو عبيدة فإذا أمكنوه قرأ عليهم أخبار الأولين والآخرين، وأما الأصمعي فلبل يطربهم بنغماته" .. وكان ثقة في روايته وأثنى عليه الشافعي وأحمد بن حنبل ووصفوه بالصدق، وكان يفضل خلفا^(٣) في علم الشعر ونقده، وكان مقصراً في العروض.. وكان إسحاق الموصلي يعظمه ويأخذ عنه ويتلمذ له.

وقد تتلمذ الأصمعي على أشياخ عصره، من مثل عبد الله بن عون وشعبة بن الحجاج وحماد بن سلمة وحماد بن زيد والخليل بن أحمد.. وتتلذذ عليه جمهور كثير من الرواة، وفي مقدمتهم ابن أخيه عبد الرحمن بن عبد الله وأبو عبيد بن القاسم بن سلام وأبو حاتم السجستاني وأبو الفضل الرياشي وأحمد بن محمد اليزيدي ونصر بن علي الجهضمي، والتوزي وسواهم.

(١) يجعل الذهبي ميلاده عام ١٢٨ هـ (١/٣٧٠ العبر في خبر من غير).

(٢) هو معمر بن المثنى التيمي بالولاء (١١٤ - ٢٠٨هـ)، أخذ عن يونس وأبي عمرو بن العلاء وأخذ عنه كثير من الأعلام.. وكان من أعلم الناس باللغة وأخبار العرب وأنسابها، وهو أول من صنف في غريب الحديث. وكان أعلم الناس بالأنساب والأيام. وكان أبو نواس يتلمذ عليه. قدم بغداد من البصرة في عهد الرشيد.. وله مصنفات كثيرة.

(٣) هو خلف الأحمر المتوفى عام ١٨٢ هـ الراوية الأديب الناقد المشهور.

وللأصمعي مؤلفات كثيرة بعضها لا يزال مخطوطاً^(١)، ومنها كتاب معاني الشعر وكتاب الأجناس، وكتاب الأنواء وكتاب الصفات، وكتاب الميسر والقдах وكتاب جزيرة العرب، وكتاب الغريب وهو مخطوط في الاسكوريال، وكتاب رجز العجاج وهو مخطوط بدار الكتب المصرية .. ومما طبع من آثار الأصمعي هذه الكتب:

- ١- كتاب النخل والكرم - طبع ببيروت عام ١٩٠٢.
- ٢- كتاب النبات والشجر - طبع ببيروت مع مجموعة من كتبه.
- ٣- كتاب الفرق - وهو مطبوع بفينا.
- ٤- كتاب الدارات - مطبوع ببيروت في مجموعة من كتبه.
- ٥- كتاب الشاء مطبوع عام ١٨٩٦م.
- ٦- كتاب الخيل - مطبوع بفينا.
- ٧- كتاب خلق الإنسان وهو مطبوع ببيروت مع مجموعة من كتبه.
- ٨- كتاب الإبل - مطبوع في بيروت.
- ٩- كتاب أسماء الوحوش - مطبوع.
- ١٠- كتاب الأصمعيات وهو مجموع مختارات من الشعر، طبعت في لبسك سنة ١٩٠٢م.

ولما توفي الأصمعي رثاه بعض الشعراء بهذه الأبيات :

أسفت لفقء الأصمعي لقد مضى	حميدا له في كل صالحة سهم
تقضت بشاشات المجالس بعده	وودعنا إذ ودع الأانس والعلم
وقد كان نجم العلم فينا حياته	فلما انقضت أيامه أفل النجم

ويقول فيه الشريشي شارح المقامات : "كان الأصمعي حافظا عالما فطنا بارعا بأشعار العرب وأخبارها، كثير التطوف بالبوادي لاقتباس علومها ، وتلقى أخبارها، فهو صاحب غرائب الأشعار وعجائب الأخبار، وقدوة الفضلاء وقبلة الأدباء، قد استولى على الغايات في حفظ اللغات، وضبط العلوم الأدبيات، صاحب دين متين . وعقل رصين، وكان خاصا بالرشيد، آخذا لصلاته".

وللأصمعي كتاب "فحولة الشعراء" وهو كتاب فريد في بابهِ وموضوعه، وهو أساس لكتب النقد التي ألفت بعد عصر الأصمعي .. وقد عثرنا على نسخة خطية من الكتاب في مكتبة الأزهر ضمن مجموعة محفوظة برقم ١١٨١ مجاميع أباطة ٦٣٢٣.

(١) ٨٣ ألفرد لابن النديم، ١٤٧ - ١٥١ / ٢ تاريخ الأدب العربي لبروكلمان.

كما عثرنا على نسخة خطية أخرى من الكتاب في المكتبة التيسورية بدار الكتب المصرية، وقد نسخت عام ١٣٣٩هـ عن نسخة مكتبة الأزهر غالباً. لأنها النسخة الوحيدة القديمة المخطوطة في مكتبات مصر، والذي نسخها هو محمد أبو العينين عطية، وخطها خط النسخ الواسع الجيد. وقد توليت نشر الكتاب عام ١٩٥٣ لأول مرة^(١).

وهو ثابت النسبة للأصمعي، وقد نقل المرزباني عنه بعض دراساته وآرائه النقدية، وذلك في كتابه المشهور "الموشح".

والكتاب برواية الإمام الجليل الراوية أبي حاتم السجستاني العالم اللغوي الثقة، المتوفى عام ٢٥٥هـ عن الإمام الأصمعي.

وطريقه طريق الحوار والمساءلة، يسأل أبو حاتم الأصمعي عن أحد الشعراء هل هو فحل أو لا؟ أو هل هو من الفحول؟ فيجيبه الأصمعي ويرشده إلى ما يرى، مستدلاً على رأيه ببعض ما يؤثر للشاعر من قصائد أو أبيات جيدة تسلكه في عداد الفحول، وينبه على الشاعر الذي لم يبلغ منزلة الفحول، مبيناً تقصيره وحاجته إلى الزيادة على ما قال حتى يصير فحلاً، وفي بعض الأحيان يتهم الأصمعي على بعض الشعراء تهكماً لاذعاً كما فعل مع زهير الشاعر الجاهلي المشهور، الذي قال فيه إنه لا يصلح أن يكون أجيراً للنابغة، وقد يبالغ الأصمعي في تقدير ما يروقه من آثار أدبية شعرية فيرفعه إلى أعلى منزلة، ويقول: ليس في الدنيا مثل هذا البيت، أو ليس في الدنيا مثل هذه القصيدة. والكتاب على العموم صورة واضحة لنفس الأصمعي وعلمه بالأدب والشعر والنقد.

وموضوع الكتاب، كما علمنا، فحولة الشعراء أو فحولهم. ويجمع الفحل على فحول وفحولة، وفحول الشعراء - كما في اللسان - هم الذين غلبوا على من هاجهم مثل جرير والفرزدق وأشباههما، وكذلك كل من عارض شاعراً فغلب عليه مثل علقمة بن عبدة، وكان يسمى فحلاً لأنه عارض امرأ القيس في قصيدته البائية المشهورة التي يقول فيها "خليلي مرابي على أم جندب"، وذلك حيث يقول في قصيدته: "ذهبت من الهجران في غير مذهب". والفحول أيضاً كما في اللسان الرواة، الواحد فحل. ويريد الأصمعي بالفحل ما كان له مزية على غيره من الشعراء كمزية الفحل على سواد. والكتاب أثر أدبي ونقدي نفيس، وقيمته في تراثنا الأدبي

نشره توري أيضاً (راجع ٢/١٥٠ بروكلمان تاريخ الأدب العربي).

ثمينة للغاية. بل إنه أصيل نادر، وكتاب خصب، وكانت المكتبة العربية في مسيس الحاجة إليه، خاصة وأنه أقدم الكتب التي ألقت في النقد ودراسة الشعراء في مطلع العصر العباسي.

وللأصمعي روايات كثيرة مدونة في مصادر الأدب وأصوله، وهي تدور حول الأدب والشعر والنقد واللغة وأخبار العرب وأيامهم، ولا بأس أن نذكر بعضا منها:

قال الأصمعي^(١): قصدت في بعض الأيام رجلا كنت أغشاه لكرمه؛ فوجدت على بابه بوابا؛ فمئني من الدخول إليه؛ ثم قال: والله يا أصمعي ما أوقفني على بابه لأمنح مثلك إلا لرقه حاله، وقصور يده؛ فكتبت رقعة فيها:

إذا كان الكريم له حجاب فما فضل الكريم على اللئيم

ثم قلت له: أوصل رقتي إليه؛ ففعل وعاد بالرقعة، وقد وقع على ظهرها:

إذا كان الكريم قليل مال تحجب بالحجاب عن الغريم

ومع الرقعة صرة فيها خمسمائة دينار. فقلت: والله لأتحفن المأمون بهذا الخبر؛ فلما رآني قال: من أين يا أصمعي؟ قلت: من عند رجل من أكرم الأحياء، حاشا أمير المؤمنين. قال: ومن هو؟ فدفعت إليه الورقة والصرة، وأعدت عليه الخبر. فلما رأى الصرة قال: هذا من بيت مالي، ولا بد لي من الرجل؛ فقلت: والله يا أمير المؤمنين إنني أستحي أن تروعه^(٢) برسلك، فقال لبعض خاصته: امض مع الأصمعي؛ فإذا أراك الرجل، فقل له: أجب أمير المؤمنين من غير إزعاج؛ فلما حضر الرجل بين يدي المأمون قال له: أنت الذي رفعت لنا بالأمس وشكوت رقعة الحال، وأن الزمان قد أناخ عليك بكللكه^(٣)؛ فدفعتنا إليك هذه الصرة لتصلح بها حالك؛ فقصدك الأصمعي بيت واحد؛ فدفعتها إليه؛ فقال: نعم يا أمير المؤمنين؛ والله ما كذبت فيما شكوت لأمير المؤمنين من رقعة الحال، لكنني استحييت من الله تعالى أن أعيد قاصدي إلا كما أعادني أمير المؤمنين، فقال له المأمون: لله أنت؟ فما ولدت العرب أكرم منك!

وروى^(٤) الأصمعي قال: لقيت أعرابيا بالبادية فاسترشدته إلى مكان

فأرشدني وأنشدني:

(١) ثمرات الأوراق للحموي ص ٢٣٢ ج ١.

(٢) روعه: أفزعه.

(٣) الكلكل: الصدر.

(٤) أماني المرتضى ص ١٤٠ ج ٢.

تمام العمى طول السكوت على الجهل
خلقت أخوا عقل لتسال بالعقل

ليس العمى طول السؤال وإنما
فكن سائلا عما عناك فإنما

ثم رجعت إلى البصرة فمكثت بها حيناً، ثم قدمت البادية، فإذا الأعرابي جالس بين ظهراي قوم وهو يقضى بينهم، فما رأيت قضية أخطأت قضية الصالحين من أفضيته، ثم جلست إليه وقلت: يرحمك الله أما من رشوة أما من هدية! أما من صلة! فقال: إذا جاء هذا ذهب التوفيق، فشكوت إليه ما ألقى من عدل حليلة لي إياي في طلب المعيشة، فقال: لست فيها بأوحد وإني لشريكك، ولقد قلت في ذلك شعراً، قلت: أنشدني فأنشدني:

لما رأيت لأخيها المال والخدماء
ولا من العجز بل مقسومة قسماً
للرزق قد تعلمين الشرق والشأماً

باتت تعيرني الإقتار والعدماء
عنف لرأيك ما الأرزاق من جلد
يا أمة الله إنى لم أدع طلباً

وكان الأصمعي كثير العناية بالرواية، يذهب إلى البادية، وإلى كل الجهات، ليسمع خبراً، أو يرى أثراً، أو ينصت للهجة، أو يحدث عجزاً، أو يتحدث مع رجل؛ وكان يتخذ من ذلك مادة لسمره في مجالس الخلفاء، وقصور الأمراء.

قال الأصمعي^(١): دخلت بعض مقابر الأعراب، ومعى صاحب لي، فإذا جارية على قبر كأنها تمثال، وعليها من الحللى والحلل مالم أر مثله، وهي تبكى بعين غزيرة وصوت شجي! فالتفت إلى صاحبي فقلت: هل رأيت أعجب من هذه؟ قال: لا والله ولا أحسبني أراه، ثم قلت لها: يا هذه إنى أراك حزينة وما عليك زى الحزن! فأنشأت تقول:

رهينة هذا القبر يا فتيان
كما كنت أستحييه حين يراني

فإن تسألاني فيم حزني فإنني
وإنى لأستحييه والترب بيننا

ثم اندفعت في البكاء وجعلت تقول:

بالا ويكثر في الدنيا مواساتي
كأنني لست من أهل المصيبات
أن قد تسر به من بعض هيئاتي
عجيبه الزى تبكى بين أموات!

يا صاحب القبر يا من كان ينعم بي
قد زرت قبرك في حللى وفي حللى
أردت آتيك فيما كنت أعرفه
فمن رآني رأى عبرى مولهة

(١) العقد الفريد ص ٢٦ ج ١.

وقال الأصمعي^(١) : دفعت يوماً في تلمسى بالبادية إلى وادٍ خلاء، لا أنيس به إلا بيت معتنز^(٢) . بفنائه أعنز، وقد ظمئت، فيمتمته فسلمت، فإذا عجوز قد برزت كأنها نعامة راخم^(٣) ، فقلت هل من ماء ؟ فقالت : أو لبن ؟ فقلت : ما كان بغيتي إلا الماء فإذا يسر الله اللبن فإني إليه فقير .

فقامت إلى قعب فأفرغت فيه ماء ونظفت غسله ثم جاءت إلى الأعنز فتغبرتهن^(٤) ، حتى احتلبت قراب^(٥) ملء القعب ثم أفرغت عليه ماء حتى رغا وطفت ثمالتة^(٦) كأنها غمامة بيضاء، ثم ناولتني إياه فشربت حتى تحببت^(٧) ريا واطمأننت .

فقلت : إني أراك معتنزة في هذا الوادي الموحش والحلة^(٨) منك قريب، فلو انضممت إلى جنابهم^(٩) فأنست بهم، فقالت : يا ابن أخي ! إني لآنس بالوحشة وأستريح إلى الوحدة ويطمئن قلبي إلى هذا الوادي الموحش، فأتذكر من عهدت، فكانني أخطب أعيانهم وأترأى أشباحهم، وتخيّل لي أنديّة رجالهم وملاعب ولدانهم ومندي أموالهم .

والله يا بن أخي، لقد رأيت هذا الوادي بشع^(١٠) للديدين^(١١) بأهل أدواح^(١٢) وقباب، ونعم^(١٣) كالهضاب، وخيل كالذئاب، وفتيان كالرماح، يبارون الرياح، ويحمون الصباح، فأحال عليهم الجلاء كما^(١٤) بفرقة، فأصبحت الآثار دراسة، والمحال طامسة، وكذلك سيرة الدهر فيمن وثق به .

(١) الأماي ص ٧ ج ٢ .

(٢) معتنز : منفرد .

(٣) الراخم : التي تحضن بيضها .

(٤) تغبرتهن : احتلبت الغبر وهو بقية اللبن في الضرع .

(٥) قراب : قريب .

(٦) الثمالة : الرغوة .

(٧) تحببت : امتلأت .

(٨) الحلة : وجمعها حلال : بيوت الناس .

(٩) الجناب : فناء الدار .

(١٠) بشع : ملآن .

(١١) اللديدان : الجانبان .

(١٢) الأدواح : الأشجار العظيمة .

(١٣) الهضاب : الجبال الصغار .

(١٤) كما : كئسا .

ثم قالت : ارم بعينيك في هذا الملا^(١) المتباطن^(٢)، فنظرت فإذا قبور نحو أربعين أو خمسين. فقال: ألا ترى تلك الأجداث؟ قلت: نعم. قالت: ما انطوت إلا على أخ أو ابن أخ، أو ابن عم، فأصبحوا قد ألمأت^(٣) عليهم الأرض. وأنا أترقب ما غالهم. انصرف راشداً رحمك الله!

وقال الأصمعي^(٤): سرت في تطوافي في العرب بجبلى طيبىء: فدفعت إلى قوم منهم يحتلبون اللبن، ثم يصيحون: الضيف! فإن جاء من يضيفهم وإلا أراقوه فلا يدوقون منه شيئاً دون الضيف، إلا أن يجهدهم الجوع. ثم دفعت إلى رجل من ولد حاتم بن عبد الله، فسألته القرى فقال: القرى والله كثير ولكن لا سبيل إليه، فقلت: ما أحسب عندك شيئاً، فأمر بالجفان، فأخرجت مكرمة بالثريد، عليها وذر^(٥) اللحم، وإذا هو جاد في المنع، فقلت: والله ما أشبهت أباك حيث يقول:

وأبرز قدرى بالفناء قليلها يرى غير مضمون به وكثيرها

فقال: إلا أشبهه في هذا، فقد أشبهته في قوله:

أماوى إما مانع فمبين وإما عطاء لا ينهنه^(٦) الزجر

فأنا والله مانع مبين. فرحلت عنه. ودفعت إلى امرأة من ولد ابن هرمة فسألتها القرى، فقالت: إني والله مرملة مسنة^(٧)، ما عندي شيء، فقلت: أما عندك جزور؟ فقالت: والله ولا شاة ولا دجاجة ولا بيضة! فقلت: أما ابن هرمة أبوك؟ فقالت: بلى والله! قلت: قاتل الله أباك! ما كان أكذبه حيث يقول:

لا أمتع العوذ^(٨) بالفصال ولا أبتاع إلا قريبة الأجل
إني إذا ما البخيل آمنها باتت ضموزاً^(٩) منى على وجل

ووليت، فنادت: أربع أيها الراكب، فعله والله ذلك أقله عندنا، فقلت: إلا تكونى أوسعتنا قرى، فقد أوسعتنا جواباً!

(١) الملا: ما اتع من الأرض.

(٢) المتباطن: المتطامن.

(٣) ألمأت: احتوت.

(٤) ذيل الأمالي ص ١١١ - الطبعة الأميرية.

(٥) الودرة من اللحم: القطعة الصغيرة لا عظم فيها.

(٦) ينهنه: يكفه.

(٧) أسنتت: أصابتها السنة وهي الجذب.

(٨) ضمز البعير: أمسك جرتة في فيه ولم يجتر.

(٩) العوذ: الحديثات النتاح.

ابن المقفع

هو أبو محمد عبد الله بن المقفع أحد بلغاء الكتاب الأولين والمترجمين المتأدبين وهو من سلالة فارسية من أهل خوزستان التي سمّتها العرب الأهواز، وهي ولاية فارسية شرقي البصرة. وكان أبوه المقفع مجوسيا يسمى داذويه، وسبب تلقيبه بالمقفع أنه كان يعمل في جباية الخراج لولاية العراق زمن بني أمية، فاختان بعض مال الخراج فضربه الوالي ضربا ثقفت منه يده، وولد له ابنه هذا حوالي سنة ١٠٦ هـ، وسماه روزبه، فنشأ بالبصرة وهي يومئذ تعج بفصحاء العرب وخطبائها ونحاتها وشعرائها وبالوافدين عليها من فصحاء أعراب البادية، فأخذ ثقافته عن كل هؤلاء وتعلم على أبيه صناعة الكتابة واللغة الفارسية وآدابها، حتى بد شبان عصره، فاستكتبه داود بن يوسف بن عمر بن هبيرة أحد ولاة بني أمية على العراق، ثم اتخذه في عصر الدولة العباسية عم الخليفة أبي جعفر المنصور كاتباً له أيام ولايته على كرمان من بلاد فارس وعلى يديه أسلم، وتسمى عبد الله وتكنى أبا محمد، ثم أزمه أخوه إسماعيل بعض أولاده ليؤدبهم.

ثم خدم آخر حياته أخاهما سليمان بن علي والي البصرة. واتصل بأبي جعفر المنصور وهو في خدمة أعمامه، فكلفه ترجمة كثير من كتب الأدب والفلسفة اليونانية المنقولة قديماً إلى الفارسية، واغتاله خفية سفيان بن معاوية والي البصرة بعد عزل سليمان، لضغينة عليه ولاتهامه بالزندقة والكيد للإسلام وذلك سنة ١٤٢ هـ.

وكان ابن المقفع نادرة في الذكاء والإحاطة بعلوم اليونان وأدب الفرس، وكان أمة في البلاغة، مع الإحكام ورصانة القول وشرف المعاني، وعبارته في كليله ودمنة ليس لها نظير في السهولة ورشاقة الأسلوب مع بيان غرض وصحة مبنى، وقد مضى على كتابتها نحو مائتي سنة وألف، ولا يزال شبان مدارسنا يقرؤونها ويفهمونها معجبين بها كأنما كتبت لأطفال هذا العصر خاصة، ولا توصف بلاغته بأحسن مما وصف هو البلاغة حيث يقول: "البلاغة هي التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها"، ولكن عبارته في الحكمة المنقولة من اليونان أو الفرس لا تخلو من تصعب، ولعل لحرصه على المحافظة على المعنى الأصلي أثراً في جعل عبارته فيها ليست ناصعة البيان. وطبع له في مصر كليله ودمنة وكتاب الأدب الكبير وكتاب الأدب الصغير، وله غيرهما رسائل وكتب وضعها أو ترجمها.. ولابن المقفع رسائل بليغة منها الطوال. ومنها القصار.

أحمد بن يوسف

هو أبو جعفر أحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح أحد فحول كتاب الرسائل في دولة بني العباس . وآل صبيح هم أهل بيت اشتهر بالكتابة والأدب والعمل الرفيع في دواوين الحلفاء أكثر من قرن، وكان جدهم صبيح مولى قبطيا لبنى عجل أقام بالكوفة ونشأ بها ابنه القاسم عربي اللسان بليغ الكتابة. وخدم في دواوين بني أمية، وخلفه في صناعته ابنه يوسف، حتى جاءت الدولة العباسية فخدم بها ونشأ له ابنه أحمد أبلغ آل بيته، إذ تخرج على أيدي الرؤساء من البرامكة، وتقلبت به الأحوال حتى صار كاتباً للفضل بن سهل وزير المأمون، ثم اتخذه المأمون رئيس ديوان رسائله، فصدرت عنه أبلغ الكتب والتوقيعات، حتى غضب عليه المأمون غضبة مات في أثرها سنة ١١٣ .. وكان أحمد بن يوسف أحد الذين يضرب بهم المثل في البلاغة، وأحد الذين ملكوا ناصية الكتابة في الإيجاز والإطناب في جزالة لفظ وسلاسة أسلوب وجودة معنى وهو أول من افتتح المكاتبة في التهاني بالنيروز والمهرجان^(١) . ومن أشهر رسائله الرسالة التي كانت سبب رقيه في دولة المأمون، وقد كتبها على لسان طاهر بن الحسين إلى المأمون يخبره بقتل الأمين وهي: "أما بعد فإن المخلوع وإن كان قسيم أمير المؤمنين في النسب واللحمة، فقد فرق حكم الكتاب بينه في الولاية والحرمة، لمفارقته عصمة الدين، وخروجه عن إجماع المسلمين. قال الله عز وجل لنوح عليه السلام في ابنه: "يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح". ولا صلة لأحد في معصية الله ولا قطيعة ما كانت في ذات الله. وكتبت إلى أمير المؤمنين، وقد قتل الله المخلوع وأحصد لأمر المؤمنين أمره، وأنجز له وعده، فالأرض بأكنافها أوطأ مهاد لطاعته، وأتبع شيء لمشيئته".

عمرو بن مسعدة

هو أبو الفضل عمرو بن مسعدة بن سعيد بن صول أبلغ كتاب الإيجاز. وهو ابن عم إبراهيم بن العباس الصولي. وجدهما صول تركي من أشرف جرجان، أسلم على يد يزيد بن المهلب بن أبي صفرة في أثناء فتوحه بخراسان، وخدم أحفاده في دواوين الدولة العباسية، فكان عمرو هذا كاتب التوقيعات بين يدي الوزير جعفر

(١) ١٠٥: ديوان المعاني.

البرمكى وزير الرشيد، وظهرت له نجابته وهو صغير، قال عن نفسه : كنت أوقع بين يدى جعفر، فرفع إليه غلمانة ورقة يستزيدونه فى رواتبهم فرمى بها إلى وقال: أجب عنها فكتبت: "قليل دائم خير من كثير منقطع"، فضرب بيده على ظهري وقال: أى وزير فى جلدك .. وصدقت الأيام فيه ظن جعفر فصار بعد أحد وزراء المأمون الثقات عنده، وكان يعجبه بلاغته فى إيجازه.

وتوفى فى غزوة من الغزوات التى غزاها المأمون ببلاد الروم ببلدة ادنة سنة ٢١٧ .. ومن رسائله الموجزة : ما كتب به على لسان المأمون إلى أحد عماله وصية بشخص : "كتابى إليك كتاب واثق بمن كتب إليه، معنى بمن كتب له، ولن يضع حامله بين الثقة والعناية" .. وكتب مرة وهو على رأس جيش نفدت أرزاقه رسالة إلى الخليفة المأمون يستمده بالمال وأرزاق الجند لأنهم هموا بعصيان أوامره:

"كتابى إلى أمير المؤمنين ومن قبلى من قواده وسائر أجناده فى الانقياد والطاعة على أحسن ما تكون عليه طاعة جند تأخرت أرزاقهم واختلت لذلك أحوالهم" .. فأعجب المأمون ببلاغته وإيجازه ، وأمر للجند قبله بعطائهم لسبعة أشهر.

وحدث أحمد بن أبى خالد الأحول : أنه سمع المأمون يوماً - وعنده على ابن هشام، وأخواه - قد ذكر عمرو بن مسعدة^(١) فاستبطأه، وقال : أبحسب عمرو أنى لا أعرف أخباره، وما يجبى إليه، وما يعامل به الناس! بلى والله! ونهض وانصرفنا. فقصدت عمرا من ساعتى، فخبرته بما جرى، وأنسيت أن أستحله من حكايته عنى؛ فراح عمرو إلى المأمون، فظن المأمون أنه لم يحضر إلا لأمر مهم، لموقعه من الرسائل والمظالم والوزارة، فأذن له.

فلما دخل عليه وضع سيفه بين يديه، وقال : يا أمير المؤمنين، أنا عائد بالله من سخطه، ثم عائد بك من سخطك. يا أمير المؤمنين، أنا أقل من أن يشكونى أمير المؤمنين إلى أحد، أو يسر على ضغنا يبعثه بعض الكلام على إظهاره ما يظهر منه! فقال : وما ذاك؟ قال عمرو : فخبرته بما بلغنى ولم أسم له مخبرى، فقال لى: لم يكن الأمر كما بلغك، وإنما كانت جملة من تفصيل كنت على أن أخبرك به، وإنما أخرج منى ما خرج معنى تجارينا. وليس لك عندى إلا ما تحب، فليفرخ روعك، وليحسن ظنك، فأعدت الكلام، فما زال يسكن منى، ويطيب من نفسى، حتى تحلل بعض ما كان فى قلبى، ثم بدأ فضمنى إلى نفسه : وقبلت يده، فأهوى ليعانقنى، فشكرته،

^(١) وزير المأمون وأحد الكتاب البلغاء توفى سنة ٢١٧ هـ (١٤٥ - ١٤٨ / ٣ فيات الأعيان لابن خلكان). أو ٢١٤ هـ (١٢٧ - ١٦/١٣١ معجم الأدباء لياقوت).

وتبينت في وجهه الحياء والخجل مما تأدى إلي. قال أحمد: فلما غدوت علي المأمون، قال لي: يا أحمد، أما لمجلسي حرمة؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، وهل الحرم إلا لما فضل عن مجلسك! قال: ما أراكم ترضون بهذه المعاملة فيما بينكم! قلت: وأية معاملة يا أمير المؤمنين؟ هذا كلام لا أعرفه، قال: بلي، أما سمعت ما كنت فيه أمس من ذكر عمرو! ذهب بعض من حضر من بني هاشم فخبروه به، فراح إلي عمرو مظهرًا منه ما وجب عليه أن يظهره، فدفعت منه ما أمكن دفعه، وجعلت أعتذر إليه منه بعدر قد تبين في الخجل منه! وكيف يكون اعتذار إنسان من كلام قد تكلم به! ألا يتبين في عينيه وشفثيه ووجهه، ولقد أعطيته ما كان يقنع مني بأقل منه، وما حداني عليه إلا ما دخلني من الخساسة، وإنما كان نطق به اللسان من غير روية ولا احتمال مكروه به.

فقلت: يا أمير المؤمنين، أنا أخبرت عمرًا به لا أحد من ولد هاشم، فقال: أنت! قلت: أنا! فقال: ما حملك علي ما فعلت؟ فقلت: الشكر لك والنصح، والمحبة لأن تتم نعمتك علي أوليائك وخدمك، أنا أعلم أن أمير المؤمنين يحب أن يصلح له الأعداء والبعداء، فكيف الأولياء والأقرباء، ولاسيما مثل عمرو في دنوه من الخدمة وموقعه من العمل، ومكانه من رأى أمير المؤمنين، أطال الله بقاءه! سمعت أمير المؤمنين أنكر منه شيئًا فخبرت به ليصلحه، ويقوم من نفسه أودها لسيدة ومولاه، ويتلافى ما فرط منه، ولا يفسده مثله، وإنما يكون ما فعلت عيبًا لو أشعت سرا فيه قدح في السلطان، أو نقض تدبير قد استتب، فأما مثل هذا فما حسبته يبلغ أن يكون ذنبا علي.

فنظر إلي مليا، ثم قال: كيف قلت؟ فأعدت عليه، ثم قال: أعد فأعدت، فقال: أحسنت والله يا أحمد! لما خبرتني به أحب إلي من ألف ألف، وألف ألف، وألف ألف.

وعقد خنصره وبنصره والوسطى، ثم قال: أما ألف ألف فلنفيك عني سوء الظن، وأطلق وسطاه، وأما ألف ألف فلصدك إياي عن نفسك، وأطلق البنصر، وأما ألف ألف فلحسن جوابك، وأطلق الخنصر، وأمر لي بمال!

الجاحظ شيخ الكتاب والنقاد

- ١ -

كان الجاحظ أستاذ الثقافة الإسلامية في النصف الأول من القرن الثالث، وكان مجده الأدبي الذائع يعصف بمجد كل أديب، ويدوى في كل أفق، ويرن صداه في سمع كل كاتب وشاعر وخطيب.

وعاش الناس في عصره وبعد عصره عيالا عليه في البلاغة والفصاحة واللسن والعارضة، كما يقول ابن العميد، وعدوا التلمذة عليه شرفا لا يعد له شرف ومجدا يذنيهم من بلاط الملوك، وتعصب له كثير من رجالات الثقافة الإسلامية في شتى عصورها، فألفوا الكتب في الإشادة به - كما فعل أبو حيان التوحيدي في كتابه تقرير الجاحظ - ، وبالغوا في الإشادة به والثناء عليه حتى حسد ثابت بن قررة الأمة العربية عليه، وحتى كان الخلفاء يهشون عند ذكره ونهج كبار الكتاب نهجه في الثقافة والبيان، وكان فخر الرجل في أن يلقب بلقبه، وأقبلوا على كتبه وأدبه يتثقفون بثقافتها ويرونها تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً، وبلغ من اهتمام خاصة رجال الفكر الإسلامي بها أن كانوا يسألون الناس عن المفقود منها في البيت الحرام وعرفات، وكان معاصروه يحذرون خصومته حتى لا يسمهم بميسم الخزي والهوان إلى الأبد. ومن ساء جده منهم فكان هدفا لسخريته اللاذعة، سار على الأجيال صورة مشوهة وإساءة لا يغزرها الزمن، كما فعل الجاحظ مع أحمد بن عبد الوهاب بطل رسالته الساخرة المتهكمة "التربيع والتدوير" .. وحسبك أن المأمون كان يقرأ تأليف الجاحظ ويثني عليها ويستجيدها^(١).

ومجد الجاحظ الأدبي مجد خالص من شوائب العصبية وتمويه السياسة، وهو مجد بوأه صرحه الخالد: كفاءته الممتازة وثقافته النادرة وآثاره الفكرية والأدبية الممتعة، فقد عاش الجاحظ محروماً من كل شيء إلا من مجد الأدب، وشهوة العلم، ولم تبوئه مواهبه مقاعد الوزارة التي كان يصعد إليها في عهده كثير من الكتاب، ولم تنله كفايته الأدبية منزلة في ديوان رسائل الدولة، ولما صدر فيه أيام المأمون لم يبق فيه غير ثلاثة أيام استقال بعدها منه، أو قل إنه حوِّرب فيها من أجله، حذرا من أن يأفل به نجم الكتاب كما كان يرى سهل بن هارون، وهذا الإخفاق في

(١) ٢١١ ج ٣ البيان نشر السندوبي ط ١٩٢٧.

الحياة العامة الذي منى به الجاحظ في عصره كان مما نعاه ابن شهيد عليه في رسالته "الزوابع والتوابع"، ومما جعله يخطيء من يذهب إلى تقديم الجاحظ على سهل بن هرون، وإن كان تحكيم التوفيق في الحياة في وزن الشخصيات وتقديرها ضللا وغبنا.

ولكن ما سر هذا الإخفاق مع هذه الشهرة البعيدة والمجد الدائع؟ رأى ابن شهيد من قبل أن حرمان الجاحظ من شرف المنزلة بشرف الصنعة، مع تقدم ابن الزيات وإبراهيم بن العباس: إما لأنه كان مقصرا في الكتابة وجميع أدواتها، أو لأنه كان ساقط الهمة، أو لأن دمامته وإفراط جحوظ عينيه قعد به عن الغايات المنشودة، ورأى أن نقص أدوات الكتابة عند الجاحظ شيء قد يكون غريبا، فذهب إلى أن أول أدوات الكتابة العقل وقد تجد عالما غير عاقل.

أما أن الجاحظ ينقصه أداة - أيًا كانت هذه الأداة - من أدوات الكتابة، فذلك ما ترده الحقيقة المقررة، فعقل الجاحظ وفنه الأدبي وطبعه الموهوب أعظم من أن يتطرق إليه فيها شك وريب. وأما أن الجاحظ كان قريب الأمل غير بعيد الطموح، لا يتطلع إلى مجد ينشده أو جاه سلطان يناله، فذلك بعيد عن الجاحظ وحياته وروحه الوثاب الطموح. وأما أن دمامة الجاحظ كان لها أثر في هذا الإخفاق فذلك أحد ما نراه من أسبابه الكثيرة، حتى إنه ذكر للمتوكل لتأديب بعض ولده فلما رآه واستبشع منظره صرفه، وأمر له بعشرة آلاف درهم.

الحق أن الجاحظ كان عربياً في روحه ودمه وحياته؛ وكان يتعصب للعرب في كل شيء حتى في الثقافة والأدب في عصر كان النفوذ والسلطان في الدولة فيه للعناصر الأجنبية لاسيما الفرس؛ وكثيراً ما كان ينسى أولو الثقافة والكفايات من العرب، إلا من اتصل منهم بحبل وزير أو أمير، والجاحظ مع صداقته الوثيقة لمحمد بن عبد الملك الزيات الوزير م سنة ٢٣٣هـ، والذي أهدى له كتابه "الحيوان" وكافأه عليه بخمسة آلاف دينار، كان يتخلل هذه الصداقة الشك والجفاء، ولم يستطع أو لم يتسن له، أن يستفيد شيئاً من وراء هذه الصداقة، وقتل محمد بن عبد الملك وجاء بعده عدوه اللدود أحمد بن أبي دؤاد الذي سيق إليه الجاحظ مغلولاً لأنه كان من أصحاب محمد بن عبد الملك؛ ثم فك قيوده وطلب حديثه وبيانه، وثوقاً منه بظرفه وأدبه لا بإخلاصه وولائه.

ثم لا ننس أن مواهب الجاحظ مواهب عالم وأديب، لا مواهب رجل من رجال المجتمع والسياسة والحياة العامة، وقد رفعت مواهبه العقلية والعلمية والأدبية

مكانا عليا، ما كان ينتظر أن ترفعه إليه السياسة مهما حلق في أجوائها، وكان إخلاص الجاحظ للفكر والثقافة أعظم من إخلاصه للحياة نفسها، وكان خوضه في معامع الثقافة والعلم يشغله عن الخوض في ميادين السياسة والاجتماع، وكانت لذته في الدراسة والبحث والتأليف أكثر من لذته في مجد السياسة وسلطانها؛ فالجاحظ أولا وقبل كل شيء هو رجل الثقافة والأدب، وهو المعتزلي الذي تتلمذ على النظام، ثم عاف تقليد غيره في العقيدة فكان صاحب مذهب ورئيس فرقة من فرق المعتزلين، وهو المتكلم الساحر والكاتب البليغ والخطيب المفوه والعالم الفذ والمؤلف النابه وشيخ العربية الذي وعى الثقافة العربية وما خالطها من الثقافات في شتى علوم الدين والدنيا؛ وهضمها وعاصرها زهاء قرن (١٥٠ - ٢٥٥هـ)، وكان له في صدر شبابه فخر التلمذة على شيوخها في اللغة والأدب وفي علوم الدين والكلام والتفكير والمنطق، كما كان له فخر صداقة رجال الفكر والسياسة في الدولة؛ وقد استفاد من وراء هذا وذاك نضوجا كبيرا في عقليته وثقافته، هياها لأن يكون محور الثقافة الإسلامية في عصره، لا بطلا من أبطال السياسة والدولة والاجتماع.

ولا يضير الجاحظ أن يكون كما قال بديع الزمان الهمداني: فيه من أحد شقى البلاغة يقطف وفي الآخر يقف^(١)، فقد يجيد الرجل في باب من أبواب الأدب دون باب. ولا يغض ذلك من إحسانه فيما أحسن فيه؛ ولكن البديع أراد الفخر بنفسه على حساب الجاحظ، وليته وقف عند هذا الحد فلم يرم الجاحظ بأن كلامه بعيد الإشارات، قليل الاستعارات قريب العبارات، وأنه منقاد لعريان الكلام يستعمله، نفور من معنائه يهمله، وأنه ليس له لفظة مصنوعة، أو كلمة غير مسموعة^(٢). وإنما أراد البديع أنه فوق الجاحظ أدبا وبيانا، وهيئات!

وثقافة الجاحظ ثقافة واسعة متنوعة تحيط بسائر ألوان الثقافات المختلفة التي مازجت الثقافة الإسلامية في عصره، فهو عالم من علماء الدين، ومتكلم من الطراز الأول للمتكلمين وعالم يحيط باللغة وبيانها وآدابها إحاطة لا تقف عند غاية؛ وقد خاض الجاحظ في جداول الثقافات الأخرى، التي سرت في تيار الثقافة العربية منذ مشرق القرن الثاني الهجري، وعقلية الجاحظ البعيدة التفكير لا نشك أنها أفادت ذلك من أستاذه النظام ومن علوم الفلسفة والمنطق التي شاعت في البيئة الإسلامية في عصر الجاحظ. ولا شك أن عصر الجاحظ، وعقليته وشغفه بالدراسة والبحث

(١) ص ٢٨ مقامات البديع المقامة الجاحظية.

(٢) ص ٨٢ و ٨٣ المرجع.

وعكوفه على القراءة، ونشأته بالبصرة، وتلقيه اللغة عن الأعراب في المرصد والعلماء في حلقات البصرة ومجامعها العلمية، وتلمذته على كثير من أستاذة الثقافة العربية في شتى مناحيها، كأبي يوسف القاضى والنظام والأصمعى والأخفش وابن الأعرابى وأبى عبيدة وأبى زيد الأنصارى، كان له أثره في ثقافة الجاحظ الواسعة الجوانب، المتعددة الألوان.

وشخصية الجاحظ تطالعك في أدبه وكتبه من كل جانب وناحية: وهي شخصية رجل الفكر الواثق بشخصيته وعقليته وثقافته، المؤمن بها، الحريص على كرامته، المعتر بنفسه. يخاطب الوزراء والعظماء ويراسلهم، فلا يفنى شخصيته في شخصياتهم، بل يراهم إخوانه، ويرى له عليهم حق الصداقة ودالة الأخوة، ولا يجبن عن توجيه العتاب واللوم إليها. وأنت حين تقرأ في كتب الجاحظ ومؤلفاته تغيب في جو بعيد تطل عليك فيه شخصية الرجل، بسعة ثقافتها وبعد مكانتها، وبتوجيهها الساحر لعقل القارئ وفكره وشعوره، حتى ليكاد ينسى أمامها نفسه، ويشعر شعورا صادقا أنه قد نقل من جوه هو إلى جو آخر تشيع فيه روح قوية ساحرة، تملك عقلك وعاطفتك، وتروعك بكثرة حفظها وروايتها، كما تروعك بروعة فكرها وجلال بيانها، وتتركك صريعا في معارك فكرية، ترى الجاحظ فارسها المعلم، وترى قلمه البليغ عصا الساحر المتحدى تسترعى السمع والبصر، وتبهت الفكر والعقل، وتلهب العاطفة والشعور.

والعجيب أن سعة ثقافة الجاحظ وكثرة روايته في تأليفه جعلت كثيرا ممن لا يفهمون الجاحظ يرونه كاتباً لا شخصية له، تلمس شخصيات من يروى لهم وينقل عنهم كل أثر لشخصيته، فتقرأ الجاحظ وأنت تقرأ لسواه، وتبدو أمام عينيك صور شتى لرجال لا ترى الجاحظ فيهم، ولا تلمس آثاره بينهم.

ومنشأ ذلك أن الجاحظ رجل من الخاصة في فكره وفي كتابته وأسلوبه، وفي بحثه وتأليفه، فإذا فكر فبعقل الخاصة، وإذا كتب أو ألف فبأسلوبهم، ولمن يفكر في مجال تفكيرهم، وليس ذلك لأن الجاحظ "يستمسك بفائدته ويضن بما عنده، غيرة على العلم، وشحا بثمرة الفهم، ولذلك كان كتاب "البيان" موقوفاً على أهله، ومن كرع في حوضه، أما الجاهل والمبتدئ فلا نفع له من كتابه " كما يقول ابن شهيد، إنما ذلك لأنه كما أرى لا يستطيع إلا أن يفكر تفكير الخاصة، ويكتب بعقلهم وأسلوبهم، ولأنه رجل يكتب لنفسه قبل كل شيء، ويرضى شهوته في تدوين عناصر الثقافة الأدبية والعلمية على طريقة كتابة الموسوعات. كما يرى بعض الباحثين

المعاصرين^(١)؛ وما دام الجاحظ كذلك فلن يستطيع أن يفهمه إلا رجل مثله، ولن يتسنى لكثير أن يفهموا الجاحظ وأن يؤمنوا بشخصيته في كتبه ومؤلفاته، ما داموا لا يستطيعون مجاراته في نواحي ثقافته العقلية والأدبية. وحسب الجاحظ مجدا وخلود ذكر أن يكون له كتاب مثل كتاب: البيان والتبيين.

-٢-

ألف الجاحظ كتابه "الحيوان"، وأهداه إلى صديقه محمد بن عبد الملك الزيات، فكافاه عليه بخمسة آلاف دينار. ثم ألف بعده كتاب "البيان" وأهداه إلى أحمد ابن أبي دؤاد فأعطاه عليه خمسة آلاف دينار، والجاحظ يشير في مواضع متعددة من البيان إلى كتاب الحيوان، وكان لظهور "البيان والتبيين" ضجة كبيرة في الأدب والبيان، حتى إنه حمل إلى الأندلس فيما حمل إليها من نفائس المؤلفات.

وكتاب "البيان" ألفه الجاحظ على نمط طريف في التأليف، من كثرة الرواية التي قصد الجاحظ من ورائها أن ينال بكتابه الشهرة والإعجاب كما يقول الجاحظ نفسه في كتابه، وينال كتابه الذكر والديوع، ومن كثرة الاستطراد الذي يستدر به الجاحظ نشاط القارئ وإعجابه كما يقول الجاحظ في تعليقه له، والجاحظ حين يعلل عدم ترتيبه للخطباء الذين ذكرهم في كتابه ترتيبا يتمشى مع التاريخ بعجزه عن تنسيق ذلك يجب أن يقابل بتحفظ كبير، فالجاحظ لو أراد لما أعجزه شيء، إنما هو مذهبه في الاستطراد والانتقال.

ويبدو من أسلوب الكتاب أن الجاحظ كان يكتب أصوله - أو كثيرا منها - محاضرات يلقيها على تلاميذه وطلابه وقد يسغ عليها أحيانا روحا توائم بين هذه المحاضرات وبين ما يجب لمن أهدى إليه كتابه من تقدير وإجلال، وأسلوب الكتاب الاستطرادي جعل الجاحظ يعدنا في كتابه بأنه سيدكر الشيء ثم لا يذكر ولا يفى بوعدده، وهذا الأسلوب الاستطرادي أيضا جعل الجاحظ ينقد نفسه في ترتيب فصول كتابه، وجعله يرسم منهجه في أجزاء كتابه في آخر الجزء الأول منه، وجعله يضع في أماكن متعددة من كتابه عناوين مختلفة تقابل من القارئ بمزيد الابتسام، فهو يعنون فصولا بباب البيان، وأخرى يسميها باب الصمت، وأخرى باب اللحن أو باب الزهد، إلى آخر هذه الألقاب، التي نعلم أن الجاحظ لم يرد شيئا منها ولم يضعها إلا للتغريب بالقارئ، واكتساب نشاطه وامتحان ملكاته. وكتاب "البيان"، يجمع بين دفتيه الكثير

(١) ٤٩١ / ٢ النشر الفني.

من بلاغة العرب وسحرهم في البيان كما يجمع آراء كثيرة في أصول النقد الأدبي وقوانين البلاغة العربية، وقد نهج فيه الجاحظ منهجه الساحر، وكتبه بأسلوبه العميق المحكم، ورسم فيه صورا صادقة لروح الأدب والبلاغة إلى عهده؛ والكتاب سجل للأدباء والشعراء والخطباء حتى عصره.

ولكتاب البيان كذلك أثره في النقد الأدبي، فهو سجل حافل للآراء المختلفة في النقد مما لا يزال إلى الآن موضع البحث والإعجاب. والجاحظ الذي نقد مذاهب أصحاب الصنعة من الشعراء، وآثر مذهب المطبوعين، كان يضع بذلك أسا كبيرا لعلم النقد وتطوره الأدبي. وعصرنا الحديث يؤمن كل الإيمان برأى الجاحظ ويسير في تياره الفكري والأدبي، كما يسير على ضوئه في البيان العربي وبلاغته.

وكتاب البيان ثمرة من ثمرات الرجولة المكتملة، التي أحاطت بالجاحظ بعد أن ودع شبابه واستقبل عهد المشيب؛ وهو لذلك آية من آيات الطبع المتمكن والدوق السليم والإحاطة التامة بالبيان وبلاغته؛ وليس ذلك بكثير على الجاحظ شيخ العربية الفذ وبطلها الكبير. وأثر "البيان" وقيمته مما يعسر على الباحث تفصيله وإفاؤه حقه من التقدير والإنصاف ودقة الحكم: فالكتاب أصل من أصول الأدب، وهو في أسلوبه وفي نهجه وفي رواياته وفي آرائه الأدبية خير معين لطلاب العربية والمتخصصين في أدبها. وقيمته في البيان العربي خطيرة لما أودع فيه من شتى البحوث والآراء في البلاغة وعناصرها، واتجاهاتها ومذاهبها وألوانها وغايتها وأثرها.

والبيان أول كتاب ظهر في الأدب جامعا لفنون كثيرة من ضروبه، ويشيد به أبو هلال^(١)؛ ويعدده ابن خلدون من أركان الأدب^(٢)؛ والكتاب يبحث في فنون الأدب والبلاغة، ويتناول النقد واللغة، ويأتى على ذكر الخطباء والأدباء والشعراء والمنشئين وآثارهم الأدبية، وهو من أجل وثائق الأدب في الجاهلية والإسلام^(٣)، ويذكر ابن رشيقي أنه لا يبلغ جودة وفضلا^(٤)، ويذكر أبو أحمد العسكري مثلا من تصحيف الجاحظ فيه^(٥). وينقد ابن شهيد الكتاب^(٦) ورد عليه بعض المعاصرين^(٧).

(١) ٧، ٦ الصاعتين.

(٢) ٥٥٣ مقدمة ابن خلدون.

(٣) ٣٥ الجاحظ لمردم.

(٤) ١ / ٢٢٧ العمدة.

(٥) ٥٣ و ٥٤ التصحيف والتحريف.

(٦) ١ / ١٩٨ ذخيرة.

والكتاب بجمع آراء كثيرة في أصول النقد الأدبي وقوانين البلاغة العربية وأنواعها وعناصرها ومذاهبها واتجاهاتها وأثرها، سواء كانت هذه الآراء من جميع الجاحظ وروايته أم من رأيه وتفكيره، وحسبك أن تقرأ فيه البلاغة كما تتحدث عنها صحيفة هندية مكتوبة^(١)، أو كما يصورها بشر ابن المعتمر^(٢)، أو كما يراها ابن المقفع^(٣)، ولهذه النصوص قيمة كبيرة، وقد عد بعض الباحثين الجاحظ مؤسس البيان العربي لما جمعه من النصوص التي توضح لنا كيف كان العرب إلى منتصف القرن الثالث يتصورون البيان العربي، وتعطينا صورة مجملة لنشأته^(٤).

وفي الكتاب كثير من بحوث البلاغة، فهو يعرف الاستعارة^(٥)، ويتكلم على السجع^(٦). ويشير إلى التفصيل والتقسيم^(٧)، والاستطراد، والكتابة^(٨)، والأمثال^(٩)، والاحتراس^(١٠) والقلب^(١١)، والأسلوب الحكيم^(١٢)، والجاحظ فوق ذلك هو أول من لقب المذهب للكلامى بهذا الاصطلاح^(١٣)، ويرى الجاحظ أن البلاغة في النظم لا في المعانى قال: والمعانى مطروحة في الطريق يعرفها العجمى والعربى والبدوى والقروى، وإنما الشأن فى إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وفى صحة السبع وجود السبك^(١٤)، وهو ما ذهب إليه ابن خلدون^(١٥) ويقول شيلر: فى الفن الشكل هو كل شىء والمعنى ليس شىئا مذكورا. وفى البيان نصوص كثيرة استغلها علماء البيان والبديع فى اختيار شواهد أساليب البلاغة منها، مما لا داعى إلى ذكره هنا

(١) ٢/ ٥٠ النشر الفنى.

(٢) ١/٢٩ البيان.

(٣) ١/٤ وما بعدها البيان.

(٤) ١/٩١ البيان.

(٥) ٣ مقدمة نقد النشر.

(٦) ١/١١٦ البيان.

(٧) ١/١٩٤ البيان.

(٨) ١/١٧٠ و ٢/٩١ البيان، وهو باب من أبواب البديع عند كثير من علماء البلاغة راجع ٧٨ نقد الشعر، ٢٢٢ صاعتين.

(٩) ١/١٨٠ و ٢٩ و ٣١ و ٣/٣٥ البيان.

(١٠) ٨٦ و ٨٨ و ١١٤ و ١/ ١٨٣ و ٢/ ٢٢٤ البيان.

(١١) ١ / ١٦١ وما بعدها البيان.

(١٢) ١ / ١٨٠ البيان.

(١٣) ٢٠١ و ٢٠٢ ج ٢ البيان، ويقرب من الأسلوب الحكيم ما يسميه الجاحظ "اللفز فى الجواب" (٢ / ١١٦ البيان).

(١٤) ١٠١ البديع، ٢/ ٧٦ العمدة.

(١٥) ٣/٤٠ الحيوان.

(١٦) ٥٧٧ مقدمة ابن خلدون.

خوفا من كثرة الإسهاب .. والجاحظ يشيد بالإيجاز ويدعو إليه كثيرا في بيانه^(١)، وبعد فالجاحظ وكتابه "البيان" أثر في نشأة البيان العربي وأى أثر. ويعد ابن خلدون الجاحظ من السابقين في التأليف في البيان^(٢).

خدم الجاحظ البيان العربي خدمة لا تقدر بالكتابة - في كتبه - في شتى بحوثه، وجمع مختلف الآراء والمذاهب في عناصره وألوانه، ولم نعلم أن باحثا أفرد البيان العربي بتأليف قبل الجاحظ، إنما كان كل ما هنالك آراء مبثوثة متفرقة لكثير من رجال البيان والأدب، وكانت خسارة البيان في عدم تدوينها تكاد تكون فادحة باللغة منتهاها، وما تجده في الكتاب لسبويه ومجازات القرآن لأبي عبيدة والشعر والشعراء لابن سلام فإنما هو قليل من كثير إذا قيس بما جمعه الجاحظ في كتبه ومؤلفاته، نعم لا يمكن لأي باحث أن ينكر حقيقتين هامتين:

أولاهما أن الجاحظ أظهر من أفراد البيان بمعناه العام بالتأليف في كتابه الكبير (البيان والتبيين)، وثانيتها أن له فضل جمع مختلف الآراء والمذاهب فيه، والجمع والإحصاء أول خطوات البحث والابتكار والتجديد، ومنزلة العالم في الجمع لا يمكن الغض منها أو الاستهانة بها، وإذا قرأت كتب الجاحظ لاسيما "الحيوان" و"البيان" عرفت منزلة الجاحظ في هذا السبيل. ومن الغريب أن نرى شخصية الجاحظ واضحة فيما يجمعه وضوحها فيما يتكره من آراء ومذاهب، بعكس كثير من العلماء والباحثين. والجاحظ فوق أثره الكبير في جمع آراء رجال البيان والبلاغة في مذاهبهما وعناصرهما في كتابه "البيان" على الخصوص، له وراء ذلك فضل خاص وجهد مستقل، فقد استقل ببحوث جديدة صبغها بشخصيته واستمدها من عقلية وثقافته، وعرفت له وحده دون سواه من الباحثين في البيان العربي وقواعده.

وقد ظهر الجاحظ في عصر شاع فيه اتجاهان أدبيان مختلفان: اتجاه يرمى إلى الظهور بمظهر البداوة التقليدي في الأداء والتعبير فيؤثر الغريب من الألفاظ والعنجهي من الأساليب متناسيا روح العصر وذوقه. واتجاه آخر تأثر بالحياة السياسية والاجتماعية وبالوان الحضارة في العيش والتفكير. فمال إلى رقة الأسلوب وسهولته، مع حرص على إرضاء الطبع والدوق، وشاهد الجاحظ هذه التيارات الفكرية

(١) ٨٠ و٨٦ و١١٤ و١٥٢ و١٨٧ و٢/١٩٨ البيان .

(٢) ٥٥١ مقدمة ابن خلدون.

والأدبية المتنوعة وعاصرها ولكنها مال بطبعه وذوقه إلى الاتجاه الأخير وكتابه البيان كله دعوة إلى هذا الرأي.

والجاحظ إمام الكتاب وشيخ البيان وعلم من أعلام الأدب والنقد، وهو من أنمة المعتزلة، تتلمذ على النظام وسواه من فحول عصره، فخرج واسع الثقافة عميق التفكير، كثير الإحاطة والاطلاع على شتى المؤلفات والتراجم المنقولة من جميع اللغات إلى العربية.

اتصل الجاحظ باليونان وثقافتهم من كتبهم المترجمة، وعن طريق المتكلمين، وبمجالسته لكثير من المثقفين باليونانية^(١). كما أنه حذق الثقافة الفارسية من كتب ابن المقفع وسواه، وتوسع في الثقافات كلها بما كان يقرؤه من الكتب^(٢)، وتأثر بخطابة أرسطو إلى حد بعيد، ومن المشابهة بينه وبين أصحاب الخطابة في الأسلوب استعماله القياس المضمهر وهو المذهب الكلامي عند البديعيين^(٣)، ونقد الجاحظ التراجم والمترجمين من اليونانية، وخاصة كتاب المنطق، بأنه في أسلوب سقيم، فالجاحظ ولا شك قد تأثر "بالخطابة" لأرسطو^(٤)، وأنكر باحث آخر أن يكون كتاب البيان متأثراً بخطابة أرسطو أو صدى له، لأن الجاحظ لم يره^(٥) وذلك ما يؤيده الدكتور طه حسين^(٦).

ومن البدهي أن الجاحظ ألم بالثقافة الفارسية المترجمة إماماً واسعاً، ويبدو لي أنه كان يعرف اللغة الفارسية، ففي البخلاء يحكى الجاحظ كلام بخيل من أهل مرو تجاهل رجلاً زاره من أهل العراق: لو خرجت من جلدك لم أعرفك، قال الجاحظ وترجمة هذا الكلام بالفارسية "كراز بوستت بارون ببائي نشاسيم"^(٧).. وأثر ثقافته الفارسية واضح في كتبه وفي مؤلفه "البيان" .. أما أثر ثقافته اليونانية فواضح أيضاً في الحيوان وفي كتابه البيان، قرأ الجاحظ من كتب أرسطو المترجمة كتاب

(١) ١/٤٠١ ضحى الإسلام.

(٢) ١/٣٨٧ المراجع.

(٣) ٦٢٠ و٦٢١ الرسالة عدد ١٩٦ من محاضرة للأستاذ حمودة في أسبوع الجاحظ، وإذا كان الجاحظ ينكر أن يكون لليونانيين خطابة (٣/١٥ البيان)، فليس ذلك إلا في مقام الرد على الشوبيين، وقد يكون الجاحظ لم يطلع على نصوص خطابية لليونان.

(٤) راجع ٦٢١ الرسالة عدد ١٩٦.

(٥) ٣٦٢ المرجع السابق.

(٦) مقدمة نقد النشر.

(٧) ص ١٩ البخلاء.

الحيوان واستدل برأى لأرسطو فيه^(١) وكان مصدراً كبيراً له في كتابه "الحيوان"، والجاحظ يذكر تعريف صاحب المنطق للإنسان كثيراً^(٢)، ويذكر صاحب المنطق وأنه كان بكىء اللسان مع علمه بتميز الكلام وتفضيله ومعانيه وبخصائصه^(٣)، ويذكر تعاريف البلاغة عند الأمم المختلفة ومنها اليونان^(٤) ويذكر كتب اليونان في المنطق، وأن الحكماء جعلتها معياراً للتفكير^(٥)، ويذكر نوادر ريسموس اليوناني^(٦) ويرى أن لليونان فلسفة وصناعة منطق وليس لفلاسفتهم في الخطابة ذكر^(٧).. وأقسام الدلالة عند الجاحظ^(٨) هي من تفكير أرسطو، ويذكر أن للفرس رسائلها وخطبها وألفاظها ومعانيها، ولليونان رسائلها وخطبها وعللها وحكمها وكتبها في المنطق، وللهند حكمها وسيرها وعللها، ويرى أنها لا توازن بما للعرب من بيان وبلاغة وصناعة وخطابة^(٩). وللجاحظ رسالة في نقد الكندي^(١٠).

ويذكر الجاحظ في البيان "صناعة الكلام"، ويعنى بها حيناً علم الكلام^(١١)، وحيناً آخر البيان^(١٢)؛ ويذكر اصطلاحات أخرى: كصناعة المنطق^(١٣)، وصناعة الخطابة، ويذكر أحياناً "أصحاب الخطابة والبلاغة"^(١٤).

ومهما يكن فالجاحظ فيما ذكره من أصول البلاغة العربية قريب من روح أرسطو، فدعوته إلى ترك الوحشى والسوقي^(١٥) له نظير عند أرسطو الذى دعا إلى هجر الألفاظ الخسيسة التى لا يستعملها إلا العامة،^(١٦) وقال "ينبغى ألا تكون الألفاظ سفاسفة ولا مجاوزة الحد فى المتانة مبلغ الأمر الذى يدل عليه فلا تبلغ درجة

(١) ١/٦١ البيان.

(٢) ٦٩ و ١/١٢٨ البيان.

(٣) ٣/١٥ البيان.

(٤) ١/٢٥ البيان.

(٥) ٣/٧ البيان.

(٦) ١٦٥ ج ٢ البيان.

(٧) ٣/١٥ البيان، والظاهر أن الجاحظ لم يطلع على شيء من خطاباتهم.

(٨) ١/٦٩ البيان، وهى فى ٤٠ الرسالة العذراء، ٩ نقد النشر.

(٩) ٣/٧ البيان.

(١٠) ٤٢ الجاحظ لمردم.

(١١) ١/٦٩ البيان.

(١٢) ١/١٠٨ البيان. ويشيد الجاحظ بصناعة الكلام (ج ٤ زهر).

(١٣) ١/٧٩ البيان.

(١٤) ١/١٨٣ البيان.

(١٥) ١٠٥ و ١١٠ و ١/١٧٦ البيان.

(١٦) نقلاً من الشفاء لابن سينا.

العامية ولا تحوج إلى الكلفة المشنوعة"؛ ودعوة الجاحظ إلى الوضوح^(١) لها نظير عند أرسطو حيث يذكر "حسن الدلالة ووضوح العبارة وأن الأغراب مستكره وأنه يجب ألا تمعن في الإغرابات، بل يجب أن تكون العبارة بحيث يفهمها الأمثل دون أسقاط الجمهور" .. واللحن وخروجه عن حد البلاغة^(٢) موجود في خطابة أرسطو، حيث يوجب أن "يكون اللفظ فصيحاً لا لحن فيه"، ويذكر الجاحظ استعمال المبسوط في مواضعه والمقصور - المحذوف الموجز - في مواضعه^(٣) والإيجاز يوم الإيجاز والإطناب يوم الإطناب^(٤)، وأرسطو أول من أشار إلى ذلك كله فذكر الإيجاز والإسهاب وأشار إلى أن لكل منهما مقاماً. وعلى أي حال فمرجع هذا التشابه في الأفكار أرجح أن سببه نقل الجاحظ كثيراً عن الذين ألموا بثقافة اليونان وكتب أرسطو في النقد، وعلى الأخص الخطابة والشعر. ومع ذلك فالجاحظ يجهل كثيراً من النظريات التي شرحها أرسطو في كتابيه، فأنواع البيان والأساليب البلاغية الأنيقة التي ألم بها أرسطو^(٥) لا يشير إليها الجاحظ في بيانه، وهو على العموم لم يطلع على كتابي أرسطو، ولا نشك في أنه أفاد من أستاذه النظام ومن علوم الفلسفة والمنطق التي شاعت في عصره كثيراً، ونقل عن اطلعوا على خطابة أرسطو .. ويكفي ذلك التحقيق في هذا المقام.

عبد الله بن طاهر

كان بمحل من علو المنزلة وعظم القدر ولطف مكان من الخفاء، يستغنى به عن التقريظ له، والدلالة عليه، وأمره في ذلك مشهور عند الخاصة والعامة، وله في الأدب مع ذلك المحل الذي لا يدفع، وفي السماحة والشجاعة ما لا يقاربه فيه أحد .. ولد سنة ١٨٢ وتوفي عام ٢٣٠ هـ .. أعطاه المأمون مال مصر لسنة خراجها وضياعها فوهبه كله وفرقه في الناس، ورجع صفرًا من ذلك، فغاض المأمون فعله، فدخل إليه يوم مقدمه، فأنشده أبياتاً قالها في هذا المعنى وهي:

(١) ٦٨ و ١١٠ و ١٧٦ ج ١ البيان.

(٢) ١ / ١٢١ البيان.

(٣) ١ / ٥١ البيان ويشير إلى ذلك في مواضع أخرى من كتابه (١٤١ و ١٤٧ و ١٦١ و ١ / ١٨٠ البيان).

(٤) ١٢٠ رسائل الجاحظ وتبعه ابن قتيبة فذكر أن للإيجاز مواضعه وللإطالة مواضعها (مقدمة أدب الكاتب).

(٥) كدراسته للاستعارة، وللرباطات (حروف العطف)، وأنها تجعل الكلام الكثير كالواحد، وللجناس وسواه، ونظرية

أرسطو في الوصل هي التي يفيض عبد القاهر في شرحها في الدلائل .. ونصيب في نقده للكميت في قوله

"تكامل فيها الانسب والشنب" لأنه باعد في القول (١٣٤ / الأغاني . ١ / ٣٥٥ الكامل) لا ينم ذلك عن معرفته

بأسرار هذه الدراسات البيانية.

لنائبات ألبيا غير مهتمضم
حولين بعدك فى شوق وفى ألم
حدو الشراك على مثل من الأدم
لما سننت من الأنعام والنعم
لكن بدأت فلم أعجز ولم ألم

نفسى فداؤك والأعناق خاضعة
إليك أقبلت من أرض أقيمت بها
أقفو^(١) مساعيك اللانى خصصت بها
فكان فضلى فيها أنى تبع
ولو وكلت إلى نفسى عنيت بها

فضحك المأمون، وقال : والله ما نفست عليك مكرمة نلتها، ولا أحسوثة
حسن عندك ذكرها، ولكن هذا شىء إذا عودته نفسك افتقرت، ولم تقدر على لم
شعثك^(٢) وإصلاح حالك، وزال ما كان فى نفسه. ولما فتح عبد الله مصر وأعطاه
المأمون خراجها سعد المنبر فلم يزل حتى أجاز بها كلها ثلاثة آلاف ألف دينار أو
نحوها فأتاه معلى الطائى^(٣) وقد أعلموه ما صنع بالناس فى الجوائز وكان عليه
واجداً فوقف بين يديه تحت المنبر، فقال : أصلح الله الأمير، أنا معلى الطائى، وقد
بلغ منى ما كان منك من جفاء وغلظ، فلا يغلظن على قلبك، ولا يستخفك الذى
بلغك، أنا الذى أقول :

وأظلم الناس عند الجود للمال
لما أشرت إلى خزن بمثقال
وليس شىء أعاض الحمد بالغالى
إذا استتال على قوم بإقلال
ومرهف قاتل فى رأس قتال
إلا عصفن بأرزاق وآجال
فإن شكرك من قلبى على بال
من ألسن خضن فى صدرى بأقوال

يا أعظم الناس عفواً عند مقدره
لو أصبح النيل يجرى ماؤه ذهباً
تغلى^(٤) بما فيه رق الحمد تملكه
تفك باليسر كف العسر من زمن
لم تخل كفك من جود لمختبط^(٥)
وما بثنت رعيلى^(٦) الخيل فى بلد
إن كنت منك على بال مننت به
ما زال مقتضبا لولا مجاهرة

فضحك عبد الله وسر بما كان منه وقال : يا أبا السمراء أقرضنى عشرة آلاف
دينار، فما أمسيت أملكها فأقرضه، فدفعها إليه.

(١) أقفو : أتبع .. الشراك : سير النعل على ظهر القدم.

(٢) الشعث : من شعث أمر فلان كفرح : انتشر .

(٣) معلى الطائى : شاعر مصرى كثيراً ما يذكر فى شعره حوادث مصر.

(٤) أغلى الشىء : جعله غالياً.

(٥) المختبط : سائل المعروف ، والمرهف : السيف.

(٦) الرعيلى : القطعة من الخيل.

ولعبد الله ألحان صاغها، ومن مختارها وصدورها ومقدمها لحنه في شعر
أخته عاصية. فإنه صوت نادر جيد، صحيح العمل، مزدوج النغم، بين لين وشدة، على
رسم الحدائق من القدماء، وهو:

هلا سقيتم بنى سهم أسيركم
الطاعن الطعنة النجلاء يتبعها
نفسى فداؤك من ذى غلة صادى^(١)
مضرج بعد ما جادت بإزباد^(٢)
ومن غنائه أيضاً:

راح صحبى وعاود القلب داء
حسن الرأى والمواعيد لايلك
من حبيب طلابه لى عناء
فى لشيء مما يقول وفاء
ليس لى ما حييت عنه عزاء
من تعزى عمن يحب فإنى

ولما شخص^(٣) أبو تمام إلى عبد الله بن طاهر، وهو بخراسان، أقبل الشتاء
وهو هناك، فاستثقل البلد، وقد كان عبد الله وجد^(٤) عليه، وأبطأ بجائزته؛ لأنه نثر
عليه ألف دينار فلم يمسهها بيده ترفعا عنها فقال: يحتقر فعلى، ويترفع على، فكان
يبعث إليه بالشيء بعد الشيء، كالكوت. فقال أبو تمام:

لم يبق للصيف رسم ولا طلل
عدل من الدمع أن يبكى المصيف كما
ولا قشيب فيستكسى ولا سمل^(٥)
يبكى الشباب ويبكى اللهو والغزل
يسراه وهى لنا من بعدها بدل
يمنى الزمان انقضى معروفها وغدت

فبلغت الأبيات أبا العميثل شاعر آل طاهر، فأتى أبا تمام واعتذر إليه لعبد
الله ابن طاهر. ثم دخل إلى عبد الله فقال: أيها الأمير: أنتهاون بمثل أبى تمام،
وتجفوه؟ فوالله لو لم يكن له ما له من النباهة فى قدره، والإحسان فى شعره،
والشأن من ذكره، لكان الخوف من شره، والتوقى لدمه، يوجب على مثلك رعايته
ومراقبته، فكيف وله بنزوعه إليك من الوطن، وفراقه السكن، وقد قصدك عاقدا بك
أمله. معملا إليك ركابه، متعبا فيك فكره وجسمه، وفى ذلك ما يلزمك قضاء حقه،
حتى ينصرف راضيا، ولو لم يأت بفائدة إلا قوله:

(١) كالصادى: العطشان.

(٢) كالإزدباء: الإتيان بالزبد كما يفعل البعير إذا هدر. والمضرج: المدمى. والنجلاء: الواسعة.

(٣) الأغانى ص ١٠٢ ج ١٥.

(٤) وجد عليه غضب.

(٥) السمل: الثوب الخلق.

يقول فى قومس^(٣) صحبى وقد أخذت
أطلع الشمس تبغى أن تؤم بنا؟
منا السرى وخطا المهرية^(١) القود^(٢)
فقلت : كلا ولكن مطلع الجود

فقال له عبد الله : لقد نبهت فأحسنت، وعانيت فأوجعت، ولك ولأبى تمام
العتبى^(٤). ادعه يا غلام فدعاه. فنادمه يومه، وأمر له بألفى دينار وما يحمله من الظهر،
وخلع عليه خلعة تامة من ثيابه، وأمر ببذرقته^(٥) إلى آخر عمله.

وقال أبو السمراء: خرجنا مع الأمير عبد الله بن طاهر متوجهين إلى مصر،
حتى إذا كنا بين الرملة^(٦) ودمشق، إذا نحن بأعرابى قد اعترض، فإذا شيخ فيه بقية،
على بعير له أورق^(٧)، فسلم علينا فرددنا عليه السلام، وكان معنا إسحق ابن إبراهيم
الرافقى، وإسحاق بن أبى ربيعى، ونحن نساير الأمير، وكنا يومئذ أفره من الأمير
دواب، وأجود منه كسا^(٨). فجعل الأعرابى ينظر فى وجوهنا، فقلت : يا شيخ، قد
ألححت فى النظر! أعرفت شيئاً أم أنكرته؟ قال : لا والله ما عرفتمكم قبل يومى هذا.
ولا أنكرتكم لسوء أراه فيكم؛ ولكنى رجل حسن الفراسة فى الناس، جيد المعرفة
بهم؛ فأشرت له إلى إسحاق بن أبى ربيعى، فقلت : ما تقول فى هذا؟ فقال :

أرى كاتباً : داهى الكتابة بين
له حركات قد يشاهدن إنه
عليه وتأديب العراق منير
عليهم بتقسيط الخراج بصير

ونظر إلى إسحاق بن إبراهيم الرافقى، فقال :

ومظهر نسك ما عليه ضميره
إخال به جبنا وبخلا وشيمة
يحب الهدايا بالرجال مكور
تخبر عنه إنه لوزير
ثم نظر إلى، وأنشأ يقول :

وهذا نديم للأمير ومؤنس
وأحسبه للشعر والعلم راوياً
يكون له بالقرب منه سرور
فبعض نديم مرة وسمير

(١) قومس : إقليم فى طبرستان.

(٢) الأبل المهرية : تنسب إلى مهرة: حى فى العرب.

(٣) القود : جمع أقود وهو الطويل العنق.

(٤) أعتبه : سرد بعد ما ساءد والاسم العتبى.

(٥) البذرقه : الخفارة.

(٦) الرملة : خمسة مواضع أشهرها بلد بالشام.

(٧) الأورق من الإبل : ما فى لونه بياض إلى سواد، وهو من أطيب الإبل لحماً لا سيراً.

(٨) جمع كسوة.

ثم نظر إلى الأمير، وأنشأ يقول:

وهذا الأمير المرتجى سيب كفه
عليه رداء من جمال وهيبة
لقد عصم الإسلام منه بذائد
ألا إنما عبد الإله بن طاهر
فما إن له فيمن رأيت نظير
ووجه بإدراك النجاح بشير
به عاش معروف ومات نكير
لنا والد بر بنا وأمير

فوقع ذلك، من عبد الله أحسن موقع، وأعجبه ما قال الشيخ؛ فأمر له
بخمسمائة دينار، وأمره أن يصحبه.

وقال محمد^(١) بن الفضل الخراساني: لما قال عبد الله بن طاهر قصيدته
التي يفخر فيها بمآثر أبيه وأهله ويفخر بقتلهم المخلوع^(٢)، عارضه محمد بن يزيد
الأموي الحصني^(٣)، فأفرط في السب، وتجاوز الحد في قبح الرد. فلما ولي عبد الله
مصر ورد إليه تدبير أمر الشام علم الحصني أنه لا يفلت منه إن هرب، ولا ينجو من
يده حيث حل، فثبت في موضعه، وترك أمواله ودوابه، وكل ما كان يملكه في
موضعه، وفتح باب حصنه وجلس عليه، ونحن نتوقع من عبد الله بن طاهر أن يوقع
به.

فلما شارفنا بلده، وكنا على أن نصبحه، دعاني عبد الله في الليل، فقال لي:
بت عندي الليلة وليكن فرسك معدا عندك. ففعلت، فلما كان السحر أمر غلمانته
وأصحابه ألا يرحلوا حتى تطلع الشمس، وركب وركبت معه أنا وخمسة من خواص
غلمانته. فسار حتى صبح الحصني، فرأى بابه مفتوحاً، ورآه جالساً؛ فقصد، وسلم عليه
ونزل عنده، وقال له: ما أجلسك هاهنا وحملك على أن فتحت بابك، ولم تتحصن
من هذا الجيش المقبل، ولم تتنح عن عبد الله بن طاهر، مع ما في نفسه عليك وما
بلغه عنك؟ فقال: إن ما قلت لم يذهب عني، ولكنني تأملت أمري، وعلمت أنني
أخطأت خطيئة حملني عليها نزق الشباب وغرة الحداثة، وأنى إن هربت منه لم
أفته، فباعدت البنات والحرم، واستسلمت بنفسى وكل ما أملك، وإنى أثق بأن
الرجل إذا قتلني، وأخذ مالي شفى غيظه، ولم يتجاوز ذلك إلى الحرم، ولا يوجب
جرمي أكثر مما بذلته. قال: فوالله ما أتقاه عبد الله إلا بدموعه تجرى على لحيته. ثم

(١) الأغاني ص ١١ ج ١٢، وكان محمد بن الفضل الخراساني من وجوه قواد طاهر وابنه عبد الله، وكان أدبياً
عاقلاً فاضلاً.

(٢) المخلوع: الأمين.

(٣) من ولد مسلمة بن عبد الملك.

قال له: أتعرفني؟ قال: لا والله، قال: أنا عبد الله بن طاهر، وقد أمن الله تعالى روعتك، وحقن دمك وصان حرمك، وحرس نعمتك، وعفا عن ذنبك، وما تعجلت إليك وحدي إلا لتأمن هجوم الجيش، ولئلا يخالط عفوى عنك روعة تلحقك: فبكي الحصني وقام فقبل رأسه، وضمه عبد الله وأدناه، ثم قال له: أما بعد فلا بد من عتاب: يا أخي - جعلني الله فداك - قلت شعراً في قومي أفخر بهم لم أظعن فيه علي حسبك، ولا ادعيت فضلاً عليك، وفخرت بقتل رجل - وإن كان من قومك - فهم القوم الذين نأرك عندهم، فكان يسعك السكوت!

فقال: أيها الأمير! قد عفوت فأجعله العفو الذي لا يخلطه تريب، ولا يكدر صفوه تأنيب. قال: قد فعلت، فقم بنا ندخل إلى منزلك حتى نوجب عليك حقاً بالضيافة. فقام مسروراً، فأدخلنا فأتى بطعام كان قد أعدده، فأكلنا وجلسنا نشرب في مستشفى له. وأقبل الجيش، فأمرني عبد الله أن ألتقاهم فأرحلهم، ولا ينزل أحد منهم إلا في المنزل، وهو على ثلاثة فراسخ، ثم دعا بدواة فكتب له بتسويغه خواجه ثلاث سنين، وقال له: إن نشطت لنا فالحق بنا، وإلا فأقم بمكانك، فقال: فأنا أتجهز وألحق بالأمير، ففعل فلحق بنا بمصر، ولم يزل مع عبد الله لا يفارقه، حتى رحل إلى العراق فودعه، وأقام ببلده!

سليمان بن وهب

هو أخو الحسن بن وهب^(١) (١٨٦ - ٢٦٥هـ)، وينتمي إلى بني الحارث ابن كعب، استوزر سليمان المهدي ولقبه الوزير حقاً، لأن من كان قبله كان غير مستحق للوزارة ولا مستقل بها، ولما ولاه قام إليه رجل من ذوى حرفته فقال: أعز الله الوزير، خادمك المؤمل دولتك، السعيد من أيامك، المطوى القلب على ودك، المنشور اللسان بمدحك، المرتهن بشكر نعمتك، وقد قال الشاعر:

وفيت كل أديب ودني ثمناً
فإنني ضامن ألا أكافئه
إلا المؤمل دولاني وأيامي
إلا بتسويغه فضلي وإنعامي

(١) هو أبو علي الحسن بن وهب بن سعيد الكاتب العالم الشاعر الأديب. وهو من ذلك البيت الذي تسلل في الكتابة للأمرء والوزراء والخلفاء من بني أمية وبني العباس، وقد ظلت الوزارة في هذا البيت أيام بني العباس زمناً يتوارثونها كابراً عن كابر. وكان الحسن يكتب أولاً لمحمد بن عبد الملك الزيات. ثم ترقى به الحلل إلى أن تولى ديوان الرسائل ببغداد، ثم تقلد البريد بالشام في عهد المتوكل على الله العباسي. وله رسائل مدونة آية في البلاغة، وشعر غاية في الجودة، وكان مولده ببغداد سنة ١٨٦هـ وتوفي في نحو عام ٢٦٥هـ.

وإني لكما قال القيسي : مازلت أمتطي النهار إليك، واستدل بفضلك عليك، حتى إذا جنني الليل، فقبض البصر، ومحا الأثر، أقام بدني، وسافر أملى، وإذ بلغت فهو مرادى فقط. فقال له سليمان : لا عليك فإنني عارف بوسيلتك، محتاج إلى كفايتك، ولست أؤخر عن أمرى النظر في أمرك، وتوليتك ما يحسن أثره عليك.

ولما استوزر سليمان جلس للناس، فدخل إليه شاعر يقال له هارون بن محمد البسالي فذكر مظلمة له بلده، ثم أنشده:

زيد في قدرك العلى علو	يابن وهب من كاتب ووزير
أسفر الشرق منك والغرب عن ضو	من العدل فاق ضوء البدور
أنشر الناس غيبتكم بعدما كا	نوا رفأنا من قبل يوم النشور
شرد الجور عدلكم فسرشنا	بينكم بين روضة وسرور

فوقع في ظلامته، ووصله بمائة دينار. قال أحمد بن الخصيب: لتهدي يزيد ابن محمد المهلبى عند سليمان بن وهب بعدما استوزره المهدي، وقد أجلسه إلى جانبه وهو ينشد قوله:

وهبتم لنا يا آل وهب مودة	فأبقت لنا جاها ومجدا يؤثل ^(١)
فمن كان للآثام والذل أرضه	فأرضكم للأجر والعزم منزل
رأى الناس فوق المجد مقدار مجدكم	فقد سألوكم فوق ما كان يسأل
يقصر عن مسعاكم كل آخر	وما فاتكم ممن تقدم أول
بلغت الذي قد كنت أملتكم لكم	وإن كنت لم أبلغ بكم ما أوئل

فقطع عليه سليمان الإنشاد، وقال له: يا أبا خالد فأنت والله عندي كما قال عمارة ابن عقيل لابنه :

أفقه مسروراً إذا أبت سالما	وأبكى من الإشفاق حين تغيب
----------------------------	---------------------------

فقال له يزيد : فيسمع مني الوزير آخر الشعر لا أوله، وتمم فقال :

ومالي حق واجب غير أننى	بجودكم فى حاجتى أتوسل
وأنكم أفضلتم وبررتم	وقد يستنم النعمة المتفضل
وأوليتم فعلا جميلا مقدماً	فعودوا فإن العود بالحر أجمل
وكم ملحف قد نال مارام منكم	ويمنعنا من مثل ذاك التجمل

^(١) يؤثل : يتاصل ويثبت.

وعودتمونا قبل أن نسأل الغنى ولا بذل للمعروف والوجه يبذل

فقال له سليمان : لا تبرح والله إلا بقضاء حوائجك كأنه ما كانت، ولو لم أستفد من كتبة أمير المؤمنين إلا شكرت، لرأيت جنابي بذلك ممرعا، وغرسي مثمراً، ثم وقع له في رقاع كثيرة.

ومن قوله وقد نكبه الواثق:

نوائب الدهر أدبتني
قد ذقت حلواً وذقت مرّاً
مأمراً بـؤس ولا نعيم
وإنما يوعظ الأديب
كذلك عيش الفتى ضروب
إلا ولي فـيـهـما نصيب

ومن قوله يرثي أخاه الحسن^(١) (١٨٦ - ٢٦٥هـ):

مضى مذ مضى عز الليالي وأصبحت
وأضحى نجى الفكر بعد فراقه
لآلى الحجي والقول ليس لها نظم
إذا هم بالإفصاح منطقته كظم^(٢)

ومن قوله وفيه غناء :

أمين الخالق البارئ
أدر راحك في المعشوق^(٣)
وراعى كسل مخلوق
ق من راحة معشوق

ولما قبض الموفق على سليمان بن وهب وابنه عبد الله تذاكر جماعة أنه إنما استكتبهما ليقف منهما على ذخائر موسى بن بغا وودائعه؛ فلما استقصى ذلك نكبهما لكثرة مالهما، فقال ابن الرومي وكان حاضراً:

ألم تر أن المال يتلف ربه
ومن جاور الماء الغزير مجمه
إذا جم^(٤) آتية وسد طريقه
وسد مغيض الماء فهو غريقه

ومات سليمان في محبسه وهو مطالب عام ٢٧٢هـ^(٥)، وله أخ يسمى سعيد بن وهب كان من كتاب البرامكة، وأكثر شعره في الغزل وتوفي في عصر المأمون^(٦).

(١) راجع: ١٧٧ فهرست، ٥٠٦: ١ سمط اللآلي ٢٤٨ ابن الرومي العقاد، ٤٤: ٣ زهر الآداب ٢٢١ - ٢٢٣: ٣ معجم الأدباء لياقوت وفي معجم الأدباء أنه ولد عام ١٨٦ ومات في آخر خلافة المتوكل أي عام ٢٤٧هـ.

(٢) كظم: سكت وصبر.

(٣) المعشوق: قصر عظيم بالجانب الغربي من دجلة قبالة سامراء في وسط البرية، عمره المعتمد على الله.

(٤) جم الماء كنصر وضرب: كثر واجتمع.

(٥) ٢٤٩ ابن الرومي للعقاد، ١٧٧ فهرست، ١٥٤ - ١٦٠: ٧ مهذب الأغاني ٥٠٦: ١: سمط اللآلي، ٤٨٥ معجم الشعراء، ٣٨٦: ١ وفيات الأعيان، ٤٦: ٣ زهر الآداب.

(٦) ١: ١٠٥ الحيوان للجاحظ.

أبو العيناء

١٩١ - ٢٨٣ هـ^(١)

يقول الرواة أن أبا العيناء ولد في آخر المائة الثانية وتوفي سنة ٢٨٢، أو سنة ٢٨٣ هـ؛ فمن ثم يكون قد أظلمته خلافة المأمون والمعتصم والوائق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد، وصدر من خلافة المعتضد بالله الذي تولى سنة ٢٧٩ وتوفي سنة ٢٨٩ هـ. ولقد كانت الحياة في عصر أبي العيناء كلها ترف ولذة، يسودها المجون والخلاعة، ويروج فيها العبث واللهو، وقد روى لنا المؤلفون كثيراً من مجالس لهوهم ومنادمتهم، ومساجلات الشعراء في خلواتهم.

اتصل أبو العيناء بالمتوكل اتصالاً شديداً، وسنعم إلى أي حد أثر فيه هذا الاتصال، ولم يقتصر اتصاله بالخلفاء على المتوكل، وإنما اتصل بغيره كما اتصل به، ولكن المتوكل هو الذي رفع له الحجاب، وجعل يصغى لأحاديثه، ولقد بهره منه تلك البديهة الحاضرة، وذاك الذكاء الوقاد، حتى رأيناه يمزح معه في كثير من مجالسه، ويرفع الكلفة بينه وبينه.

ويظهر من أقوال الرواة أن أبا العيناء حينما ارتحل إلى بغداد كان الخليفة المأمون على رأس الدولة، فاتصل به، وعرف وزيره الحسن بن سهل، وأخذ منهما الصلات والعطايا، ولقد أثر ذلك المعروف في نفسه، حتى قال لما بلغه موت الحسن بن سهل: والله لئن أتعب المادحين، لقد أطال بكاء الباكين، والله لقد أصيب بموته الأنام، وخرست لفقده الأقلام. قال أبو العيناء: حصلت لي ضيقة شديدة قد خلت يوماً على يحيى بن أكنم فقال: إن أمير المؤمنين المأمون جلس للمظالم وأخذ القصاص، فهل لك في الحضور؟ قلت نعم ومضيت معه، فلما دخلنا أجرسه وأجلسني، ثم قال يا أبا العيناء: بالألفة والمحبة ما الذي جاء بك في هذه الساعة؟ فأنشدته:

لقد رجوتك دون الناس كلهم وللرجاء حقوق كلها تجب
إن لم تكن لي أسباب أعيش بها ففي العلالك أخلاق هي السبب

فقال لغلامه: انظر أي شيء في بيت مالنا دون مال المسلمين، فقال بقية من مال. قال فادفع له منها مائة ألف، وابعث له بمثلها في كل شهر. فلما كان بعد

(١) راجع ٤٦٦ - ٤٧٠ : ٣ وفيات الأعيان لابن خلكان.

أحد عشر شهراً مات المأمون، فبكى عليه أبو العيناء حتى تقرحت أجفانه، فقال له بعض أولاده: يا أبتاه بعد ذهاب العين ماذا ينفع البكاء، فقال:

شيطان لو بكت الدماء عليهما عيئناى حتى يؤذنا بذهاب
لم يبلغا المعشار من حقيهما فقد الشباب وفرقة الأحباب

وبرواية أخرى: قال أبو العيناء: ^(١) حصلت لى ضيقة شديدة، فكتمتها عن أصدقائى، فدخلت يوماً على يحيى ^(٢) بن أكتهم، فقال: إن أمير المؤمنين المأمون جلس للمظالم فهل لك فى الحضور؟ قلت: نعم! فمضيت معه إلى دار أمير المؤمنين، فلما دخلنا عليه أجلسه وأجلسنى، ثم قال: يا أبا العيناء، ما الذى جاء بك فى هذه الساعة؟ فأنشدته:

لقد رجوتك دون الناس كلهم وللرجاء حقوق كلها تجب
إن لم تكن لى أسباب أعيش بها ففى العلالك أخلاق هى السبب

فقال: لخازنه، انظر أى شىء فى بيت مالنا دون مال المسلمين؟ فقال: بقية من مال! قال: فادفع إليه مائة ألف درهم، وابعث له بمثلها فى كل شهر! فلما كان بعد أحد عشر شهراً مات المأمون، فبكى عليه أبو العيناء حتى تقرحت أجفانه، فدخل عليه بعض أولاده؛ فقال: يا أبتاه! بعد ذهاب العين، ماذا ينفع البكاء؟

ولأبى العيناء شعر ورسائل مشهورة فى البلاغة.

المبرد

٢١٠ - ٢٨٥هـ

المبرد عالم جليل من أعلام اللغة العربية، عاش فى القرن الثالث (٢١٠ - ٢٨٥هـ)، يخدم اللغة والثقافة، ويدرس مذهب فى النحو وآراءه فيه لتلامذته، ويبحث ويكتب ويؤلف ويعلم، حتى أصبح بحق شيخ العلماء والنحاة وإمام العربية وقطبها.. وأهم مؤلفات المبرد هو كتابه الكامل، الذى يعد من أهم مصادر الأدب العربى، وضمنه آراءه فى الأدب والنقد والبيان، وأشار فيه إلى بعض آرائه فى النحو العربى

(١) ثمرات الأوراق للحموى ص ٢٤٥ ج ٢.

(٢) ابن يحيى أكتهم: قاض رفيع القدر. على الشهرة، مات سنة ٢٤٢ هـ.

ودراسته، وكتاب الكامل مجموعة كبيرة من الأدب العربي؛ شعره ونثره؛ في العصر الجاهلي والإسلامي والأموي وصدر عصر المحدثين، ساقها المبرد على غير نظام ولا ترتيب، وأضاف إليها شروحا وتعليقات وتفسيرات وتوجيهات قيمة في دراسة الأدب العربي، ونحن يعنيها هنا أن ندرس كل ما يتصل بالبلاغة والبيان في كتاب "الكامل للمبرد" لتبين أثره في هذا الميدان.. والبيان العربي أو قل البلاغة العربية دراسة خطيرة لأصول التعبير والأداء والذوق الأدبي في اللغة العربية، وقد ساعد على إنضاج هذه الدراسات مجهود العلماء المتواصل إلى آخر القرن الثالث الهجري، في كشف أسرار البلاغة العربية، ودراسة أصولها وعناصرها وألوانها، ولكن مجهود هؤلاء كان مفرقا موزعاً على المناسبات، يأتي عرضاً حين تحليل بيت أو ذكر قصيدة، وأهم العلماء الذين كان لهم أثرهم في بدء نواة هذه البحوث البيانية هو الجاحظ صاحب البيان والتبيين، ثم جاء المبرد، وألف كتابه "الكامل" فجاء فيه كثير من الآراء في البيان والبلاغة: بعضها استنبطه وابتكره، وبعضها الآخر تابع فيه الباحثين قبله: كالجاحظ وابن قتيبة وسواهما، هذا فضلاً عن أنه ألف كتاب "قواعد الشعر" وكتاب "البلاغة"^(١)، مما لا شك في أثره واتصاله بالبيان ودراسات البلاغة في مرحلة نشأتها الأولى.. ونحن نشير هنا إلى أهم هذه الآراء التي وردت في "الكامل":

أشار المبرد إلى أسلوب القلب^(٢) في كامله، وذهب إلى جوازه في الكلام للاختصار إذا لم يدخله لبس^(٣)، وعلى نهج المبرد في ذلك سار ابن فارس في الصاحبى^(٤)، ويسمى قدامة هذا الأسلوب (المقلوب)، ويجعله من عيوب انتلاف المعنى والوزن معاً^(٥).

وأشار المبرد في "الكامل" إلى أسلوب "الالتفات"^(٦)، قال: والعرب تترك مخاطبة الغائب إلى مخاطبة الشاهد ومخاطبة الشاهد إلى مخاطبة الغائب.

وقد سبق أبو زيد في "جمهرة أشعار العرب" المبرد إلى ذكر هذا الأسلوب^(٧)، وسار على نهجه ابن فارس^(٨).

(١) ٨٨ فهرست ابن النديم.

(٢) ١ / ٢١٧ الكامل للمبرد، وص ٣٨ من كتاب ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن الكريم للمبرد.

(٣) ١ / ٢١٧ الكامل للمبرد، وص ٣٨ من كتاب ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن الكريم للمبرد.

(٤) ص ١٧٢ / الصاحبى في فقه اللغة العربية.

(٥) ١٣٠ نقد الشعر.

(٦) ١ / ١٧١ / ٢ / ٣٠١ الكامل للمبرد.

(٧) ص ٣ الجمهرة ط ١٩٢٦.

(٨) ١٧٢ الصاحبى.

وعرف المبرد السجع بأنه انتلاف أو آخر الكلام على نسق. كما تألف القوافي^(١). وهو روح كلام الجاحظ الذي عرف السجع بأنه الكلام المزدوج على غير وزن^(٢). والسجع يذكره أرسطو في خطابه، ويوجب أن "يكون كل واحد من المصارع مسوقا إلى المصراع الذي يليه والذي إنما يتم به المعنى"^(٣)، ويذكر الجاحظ آراء رجال البيان في السجع وآثر المطبوع منه^(٤)، كما أشار الجاحظ إلى الازدواج^(٥). ويذكر قدامة في نقد النثر أن "من أوصاف البلاغة السجع في موضعه وعند سماح القريحة به، وأن يكون في بعض الكلام لا في جميعه"^(٦).

وقسم المبرد في "كامله" الكلام إلى الاختصار المفهم والأطناب المفخم، وقال: "وقد يقع الإيماء إلى الشيء فيغنى عند ذوى الألباب.. وإن قيل: بل الكلام القبيح في الحسن أظهر، كان ذلك، ولكن يغتفر الشيء للحسن، والبعيد للقريب.

ويشير المبرد إلى التعقيد اللفظي في بيت الفرزدق:

وما مثله في الناس إلا مملكا أبو أمه حتى أبوه يقاربه

ويشرح البيت وينقده. ويشير إلى أسلوب الاستعارة التمثيلية في قولك "فلان عليه دين أو ركه دين" تريد أن الدين علاه وقهره، ويذكر مثلا للتمثيل كقوله تعالى "والسماوات مطويات بيمينه" وسواه. ويشير إلى مثل للاستعارة ويحللها، ويشير أيضا إلى الاستعارة ويقول: "والعرب تستعير من بعض لبعض"، وقد سبقه الجاحظ بتعريف الاستعارة^(٧) الذي هو روح تعريف المبرد.

ويحلل المبرد في الكامل مثلا من أمثلة التجريد.. ويشير إلى أسلوب اللف والنشر، فيقول: "والعرب تلف الخبرين المختلفين ثم ترمى بتفسيرهما جملة، ثقة بأن السامع يرد إلى كل خبره إلخ"، وسار على نهجه الصاحبى^(٨)، وقدامة يسمي ذلك صحة التفسير^(٩). ويشير المبرد إلى مثل للكناية الاصطلاحية^(١٠)، ويسميا ابن فارس في

(١) ١ / ٣٨٢ الكامل.

(٢) ١ / ١٣٣ البيان والتبيين ط ١٩٢٧.

(٣) الخطابة من كتاب الشفاء لابن سينا.

(٤) ١ / ١٩٤ وما بعدها من البيان والتبيين.

(٥) ٢ / ٩٦ و ١٦ / ٣ البيان.

(٦) ١٠٧ نقد النثر.

(٧) ١١٤ ج ١ البيان والتبيين.

(٨) ٣٠٦ الصاحبى.

(٩) ٨١ نقد الشعر.

(١٠) ٧٧ و ١٦٦ و ١ / ٢٩٢ و ١٨١ / ٢ الكامل.

الصاحبي الإيماء^(١)، ويقسم الكلام إلى مصرح وما يكتفى عنه بغيره وما يقع مثلاً فيكون أبلغ في الوصف، ويذكر أقسام الكناية^(٢) وإن كان المبرد يقصد الكناية اللغوية لا الاصطلاحية، وكذلك فعل ابن فارس في الصاحبي^(٣). ويشير المبرد إلى أسلوب التغليب: كالقمرين للشمس والقمر، والعمرين لأبي بكر وعمر.. إلى ما سوى ذلك من الآراء البيانية التي تضمنها الكتاب.

وبعد فلا شك أن هذه الآراء كلها وردت مبثوثة مفرقة في الكامل، وخالية من الاصطلاحات العلمية، وحيناً يقف عند أسلوب من أساليب البيان ويحلله ويعجب به ولا يسميه، لأن علماء البيان والأدب لم يكونوا قد وضعوا له اسماً، وإنما بلاغته وسحره لا يخفيان على متذوق.

أبو العباس ثعلب

٢٠٠ - ٢٩١ هـ

إمام الكوفيين في النحو واللغة، أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد بن يسار الشيباني، المعروف بثعلب^(٤)، الإمام النحوي اللغوي المشهور.

ولد في الكوفة عام ٢٠٠ هـ ونشأ بها، والكوفة يومئذ مدرسة جامعة من مدارس العربية والشعر والأدب والنحو، وعلمائها لهم منزلتهم العلمية عند العلماء، ومكانتهم الكبيرة في قصور الأمراء والخلفاء والوزراء. وأخذ حب العربية يغلب عليه، فعكف على دراستها وتفرغ لها وهو في سن السادسة عشرة، وما بلغ سن الخامسة والعشرين حتى طار صيته في النحو والعربية، وذاع ذكره، واختلف الناس إليه^(٥). أخذ عن ابن الأعرابي م ٢٣١ هـ اللغة. وعن سلمة بن عاصم م ٢٣٧ هـ النحو، وروى عن ابن نجدة كتب أبي زيد الأنصاري، وعن الأشرم كتب أبي عبدة، وعن أبي

(١) ٢١٠ الصاحبي.

(٢) ٥ و ٦ ج ٢ الكامل.

(٣) ٢١٨ و ٢١٩ الصاحبي.

(٤) راجع ترجمته في: ص ١١٠ - ١١١ فهرست ابن النديم. ٢٩٣ نزهة الألبا في طبقات الأدباء. و ١٣٣ - ٢/١٥٤

معجم الأدباء نشر مرجليوث، و ١٠٢ - ٥/١٤٦ معجم الأدباء نشر فريد رفاعي، و ١/٥١٢ وفيات الأعيان لابن

خلكان، و ٢/١٨٠ تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان، و ٤/٢١٦ وما بعدها مروج الذهب للمسعودي، و ٨٤

١/ كتاب الأعلام و ٤١ كتاب طبقات المفسرين، و ٤٥ كتاب غاية النهاية و ١٢٢ بغية الوعاة للسيوطي.

(٥) ٥/١٤٠ معجم الأدباء.

نصر كتب الأصمعي، وعن عمر بن أبي عمرو كتب أبيه أبي عمرو بن العلاء. وحفظ كتب القراء كلها وسنه لم تتجاوز الخامسة والعشرين. وكان ثعلب يدرس كتب القراء م ٢٠٧هـ والكسائي .. وثعلب من أعلام الكوفيين في النحو^(١): وكان يعاصر ثعلبا من أئمة النحويين: أبو عبيدة م ٢١٣هـ والأصمعي م ٢١٥هـ وأبو زيد الأنصاري م ٢١٥هـ وابن سلام الجمحي م ٢٣١هـ والأخفش الأوسط م ٢١٨هـ، والجرمي م ٢٢٥هـ، والتوزي م ٢٣٨هـ، والمازني م ٢٤٩هـ والزيادي م ٢٤٩هـ، وأبو حاتم السجستاني م ٢٥٥هـ، والرياشي م ٢٥٧هـ والمبرد م ٢٨٥هـ. كما كان يعاصره من أئمة النحويين الكوفيين: ابن حازم المعروف بالبحاني م ٢٢٠هـ، وأبو عبيد القاسم ابن سلام م ٢٢٣هـ، وابن الأعرابي م ٢٣١هـ، وابن سعدان م ٢٣١هـ، والطوال م ٢٤٣هـ، وابن السكيت م ٢٤٤هـ، وأبو جعفر محمد بن قادم م ٢٥١هـ. كما عاصره: ابن دريد (٢٢٣ - ٣٢١)، وسواه من العلماء. وكان من أساتذته: محمد بن زياد الأعرابي ولزمه بضع عشرة سنة^(٢)، وسلمة ابن عاصم، ومحمد بن سلام الجمحي، والزيبر بن بكار م ٢٥٦هـ، وغيرهم؛ وكان يعنى بالنحو أكثر من عنايته بغيره، فلما أتقنه أكب على الشعر والمعاني والغريب، وقدم الرياشي البصري بغداد عام ٢٣٠، فأخذ عنه ثعلب أيام الناس والأخبار والأشعار^(٣). وكان ثعلب ثقة دينا، مشهورا بصدق اللهجة، والمعرفة بالغريب ورواية الشعر القديم، مقدما بذ الشيوخ وهو حدث، ثقة بعلمه وحفظه، أصدق أهل العربية لسانا، وأعظمهم شأنا، وأبعدهم ذكرا، وأرفعهم قدرا، وأوضحهم علما، وأرفعهم مقاما، وأثبتهم حفظا، وأوفرهم حظا في الدين والدنيا^(٤)، وكان ثقة متقنا حجة، كما يقول أبو الطيب في مراتب النحويين^(٥)، وتبحر في مذهب البصريين^(٦)، فوق إمامته في النحو على المذهب الكوفي. وكان مشهورا بغزارة حفظه، ومع ذلك لم يكن موصوفاً بالبلاغة؛ وإذا كتب إلى بعض إخوانه من أصحاب السلطان لا يخرج عن طبع العامة، فإذا أخذ في الغريب والشعر ومذهب القراء والكسائي رأيت من لا يفي به أحد، وكان هو والمبرد عالمين ختم بهما تاريخ الأدب^(٧)؛ وإليه وإلى المبرد انتهى الاجتهاد في النحو^(٨)؛ كما انتهى علم الكوفيين إلى ابن السكيت وثعلب وكانا

(١) راجع ٥/١٤٣ المرجع نفسه.

(٢) ٥/١٠٩ معجم الأدباء.

(٣) ٥/١٣٢ المرجع.

(٤) ١٩٣ وما بعدها نزهة الألبا.

(٥) ٥/١١٩ معجم الأدباء.

(٦) ٥/١٢٠ المرجع.

(٧) ٥/١٢٢ المرجع.

(٨) نشأة النحو للشيخ محمد طنطاوي.

ثقتين، كما يقول أبو الطيب في مراتب النحويين^(١). وتلمذ عليه كثير من العلماء وفي مقدمتهم: الأخفش م ٣١٨هـ، وابن عرفة نفويه م ٣٢٣هـ، والزجاجي البغدادي النحوي م ٣٠٧هـ، والزجاج م ٣١١، وابن الأنباري. كما تتلمذ عليه ابن المعتز^(٢) م ٢٩٦هـ، وقدامة م ٣٣٧هـ، والصولي م ٣٣٦هـ، وسواهم من الأدباء والعلماء والشعراء والأمراء. وكان علي بن محمد الكوفي أحد أعيان تلاميذه^(٣)؛ وكان أبو علي أحمد بن جعفر النحوي ختنه زوج ابنته .. ومع ذلك كان يختلف إلى المبرد ويأخذ منه^(٤).

وكان بين المبرد وثلعب الكثير من المناظرات؛ وتعصب لكل منهما كثير من العلماء. واختلف الناس في تفضيل أحدهما على الآخر؛ والمنصفون من العلماء ينوّهون بالرجلين ويرفعون من شأنهما، وسئل أبو بكر بن السراج تلميذ المبرد م ٣١٦هـ عنهما أيهما أعلم؟ فقال: ما أقول في رجلين العالم بينهما^(٥).

عاصر ثلعب المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل والمستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد والمعتضد والمكتفي، وعاش مبجلاً عند الأمراء والخلفاء والعلماء وعامة الناس، وجمع ثروة كبيرة، وكان مع ذلك مقترًا على نفسه، ولم يرزق غير بنت واحدة، وتوفي ليلة السبت لثلاث عشرة بقيت من جمادى الأولى عام ٢٩١هـ في خلافة المكتفي، ودفن بمقابر باب الشام، وقبره هناك معروف^(٦).. ولشاعر في رثائه:

مات ابن يحيى فماتت دولة الأدب ومات أحمد أنحى العجم والعرب
فإن تولى أبو العباس مفتقداً فلم يمت ذكره في الناس والكتب

وترك ثلعب ثروة علمية كبيرة وكتبا مشهورة متداولة بين الناس في عصره،

منها:

- ١- شرح ديوان زهير، ومنه نسخة خطية في الاسكوربال.
- ٢- شرح ديوان الأعشى، ومنه نسخة خطية في الاسكوربال.

(١) راجع ٥/١٢٧ معجم الأدباء.

(٢) ٣٠١ نزهة الأنبا، ٣٤١ فوات الوفيات، ٥/١٤٠ التمدن الإسلامي، ١٠/٩٥ تاريخ بغداد، ١٠٧ و ١١٤ و ١١٦ الأوراق للصولي قسم أشعار أولاد الخلفاء، ١٧٢ أدب الكتاب الصولي.

(٣) ٥/١٢٧ معجم الأدباء.

(٤) ٥/١٢٠ المرجع.

(٥) ١٣٨ ج ٥ المرجع.

(٦) ١٠٥ ج ٥ معجم الأدباء.

٣- كتاب الأمالي ذكره صاحب المزهر وصاحب خزانة الأدب، ومنه نسخة خطية في مكتبة برلين^(١)، وفي المكتبة الخديوية نسخة منه^(٢) باسم "مجالس ثعلب" في ١٣٢ صفحة، وسنشره إن شاء الله.

٤- كتاب الفصيح؛ ويعرف بفصيح ثعلب، وقد نشرناه عام ١٩٤٨م.

٥- قواعد الشعر، وقد نشرناه من مدة قريبة، وقد طبع بليدن عام ١٨٩٠م طبعة سقيمة محرفة فيها الكثير من الأخطاء. وفيه آراء كثيرة في النقد والبيان.

٦- ومن كتبه أيضاً: حد النحو، غريب القرآن، معانى الشعر، المصون فى النحو، اختلاف النحويين؛ وغيرها من نفائس المؤلفات التى بددتها الأيام.

وبعد؛ فنثعلب إمام من أئمة العربية، مقدم عند العلماء. وله مع ذلك كله روايات كثيرة فى الأدب، تجد بعضها فى الموشح لمرزبانى؛ كما أن له ذوقاً فى فهم الشعر ونقده، عاب قول قيس بن الخطيم: "كأنها عود بانه قصف":

لأن المرأة تشبه بالعود المثنى لا المتقصف^(٣). وكان يفضل جريراً على الفرزدق^(٤)، وكان هو وابن الأعرابى يتعصبان على أبى تمام^(٥). ويشرح ثعلب بيت العباس بن الأحنف:

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا وتسكب عيناي الدموع لتجمدا

بأن الإنسان قد يفارق محبوبه رجاء أن يغنم فى سفره فيعود إلى محبوبه مستغنياً عن التصرف، فيطول اجتماعه معه^(٦).

وهكذا كان ثعلب بحق إماماً جليلاً، وشيخاً معدوداً من شيوخ اللغة والأدب والشعر والعربية؛ فرحمه الله وأجزل مثوبته كفاء خدمته للعلم والدين ولغة الكتاب الحكيم.

ولثعلب كتاب قواعد الشعر.. وقواعد الشعر أحد مؤلفات هذا العالم الكبير، وللمبرد كتاب اسمه: "قواعد الشعر" أيضاً، لا ندرى عنه ولا عن موضوعه شيئاً، ولا نعلم من منهما الذى سبق بتأليف كتابه، وإن كان يعلب على ظنى أن ثعلبا هو السابق

(١) ١٨٠ ج ٢ تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان.

(٢) بنمرة ٢٣ ش لأبى مقسم النحوى، وهى مجموعة مجالس يروى أكثرها عن أستاذه ثعلب. مجلد مخطوط.

(٣) ٣٤٧ الموشح للمرزبانى.

(٤) ١١٧ الموشح للمرزبانى.

(٥) ٣٢٩ الموشح للمرزبانى.

(٦) راجع ٥ / ١٣٤ معجم الأدباء.

بتأليف كتابه لتقدمه في السن، والكتاب جديد في شتى نواحيه: أما من حيث موضوعه فقد درس ثعلب في الكتاب هيكل الشعر العربي دراسة عامة جيدة جميلة مبتكرة؛ فتكلم على قواعد الشعر العامة وأنها أربع: أمر ونهي وخبر واستخبار، ولا شك أن ذلك لا يختص بالشعر وحده، بل النثر مثله فيه؛ كما عرض لفنون الشعر وقسمها إلى: مدح وهجاء ومرثية واعتذار وتشبيه وتشبيب واقتصاص أخبار. وذكر شواهد التشبيه الجيد، وشواهد لرائع المديح. ثم تحدث عن: المبالغة (الإفراط في المعنى)، وذكر شواهد لها من الشعر العربي؛ وعن لطافة المعنى (التعريض والكناية بدل التصريح) وشواهد لها؛ والاستعارة ومثلها؛ وحسن الخروج أو التخلص كما يقول البلاغيون، ومجاورة الأضداد أو الطباق كما يسميه البلاغيون؛ والمطابق وهو نوع من الجناس مع ذكر نماذج لكل باب من هذه الأبواب من جيد الشعر الجاهلي والإسلامي والأموي، دون أن يتخطى ذلك في الاستشهاد إلى شعر المحدثين؛ ثم عرف الجزالة في الشعر؛ وتكلم على اتساق النظم ومحترزاته. وأخيراً تجده يقسم الشعر خمسة أقسام، ويتحدث عن كل قسم ويحدده ويوضحه، ويذكر شواهد كثيرة له.. وبذلك ينتهي الكتاب.

والكتاب أول أثر علمي لعالم من علماء القرن الثالث يتحدث فيه مؤلفه عن الشعر بهذا اللون من الدقة والتحديد والوضوح والفهم للشعر والأدب والتذوق لهما، والوقوف على أثر بلاغتهما. و"البديع لابن المعتز" م ٢٩٦هـ لا يشارك كتابنا "قواعد الشعر" في هذا، لابن المعتز ألف "البديع" ليتحدث فيه عن ألوان البديع العامة كما كان يعرفها هو ويعرفها عصره، لا ليتحدث عن الشعر بمثل هذا الحديث الجيد النقدي. و"الرسالة العذراء" لابن المدبر م ٢٧٩هـ لا تشارك "قواعد الشعر" في ذلك أيضاً، لأنها إلى البلاغة أقرب منها الحديث عن الشعر، و"الكامل" للمبرد م ٢٨٥هـ ليس فيه أثر للتخصص في دراسة الشعر أو البديع أو البلاغة بوجه عام. و"البيان" للجاحظ وما فيه من دراسات عن الشعر أو النقد أو البيان هي دراسات عامة لا تخصص فيها، والكتاب لم يؤلف لها، وأحكامه الأدبية والبيانية أحكام مقارنة، ليس فيها مثل هذا الوضوح ولا مثل تلك الدقة.

وأما أثر الكتاب في البيان فهو ولا شك أثر كبير، فنحن نجد أنفسنا لأول مرة أمام عالم يؤلف ويكتب ويتحدث عن كثير من ألوان البديع والبيان: كالتشبيه، والاستعارة، ولطافة المعنى، أو التعريض والكناية كما نقول نحن، وكالإفراط في المعنى (المبالغة)، وحسن الخروج ومجاورة الأضداد (الطباق)؛ والمطابق (لون من أول الجناس). والثلاثة الأنواع الأولى هي أصل علم البيان وباقي الأنواع هي أبرز

ما في البديع من فنون. وابن المعتز من غير شك أفاد من أستاذه ثعلب في هذه الدراسة، ونحن نكاد نجزم بأن ثعلباً ألف هذا الكتاب قبل أن يؤلف ابن المعتز كتابه "البديع" عام ٢٧٤هـ لأن ثعلباً عالم معمر، ولأنه لو كان ابن المعتز كتابه "البديع" عام ٢٧٤هـ لأن ثعلباً عالم معمر، ولأنه لو كان ابن المعتز قد سبقه بالتأليف لما أمكن ثعلباً أن يقف عند هذا الحد في عرض ألوان البيان والبديع الساحرة في الشعر العربي والتي ألم بها ابن المعتز، مثل الالتفات والاعتراض وتجاهل العارف والهزل يراد به الجِد وحسن الابتداء وحسن التضمين وتأكيد المدح بما يشبه الذم والمذهب الكلامي وغيرها. إذ كان ثعلب ولا شك سيستفيد من دراسات ابن المعتز - لو كان ابن المعتز قد ألف كتابه "البديع" قبل أن يؤلف أستاذه "قواعد الشعر" - وسيحاول أن يقتبس منها بعض الاقتباس في كتابه .. ومن الغريب أن لا يشير ابن المعتز في "البديع" إلى كتاب "قواعد الشعر"، مع أنه ساق بعض الشواهد الواردة في "قواعد الشعر"، ومع أنه قريب في تحديد الاستعارة وغيرها من أستاذه ثعلب. بل ومن الغريب أيضاً أن يخالفه في تسمية "المطابق" الذي سماه ثعلب "مجاورة الأضداد"، وفي تسمية "الجناس" الذي سمى ثعلب نوعاً منه "المطابق"، ولكن لا ضير في اختلاف الاصطلاحات، فلكل مؤلف أو مفكر الحق في تسمية ما يشاء بما يشاء، ومن قبل ذكر أرسطو أنه مطلق لكل أحد احتاج إلى تسمية شيء ليعرفه به أن يسميه بما شاء من الأسماء^(١). ولكن الغريب حقاً أن يقول ابن المعتز عن نفسه "وما جمع فنون البديع ولا سبقني إليه أحد"^(٢)، فلا شك أن لثعلب الفضل في أنه جمع في "قواعد الشعر" بعض ألوان البديع التي ذكرها ابن المعتز في كتابه مثل: التشبيه والاستعارة ولطافة المعنى والتعريض ومجاورة الأضداد والمطابق .. وهذه الأنواع هي أهم ما في كتاب "البديع" لابن المعتز من ألوان البديع، و"قواعد الشعر" يمتاز بأنه يعرض لأصل هام في البلاغة العربية بتقسيمه الشعر: إلى خبر واستخبار وأمر ونهي.

وأما أثر الكتاب في الأدب والشعر فلا شك فيه لوضوحه، فهذا الحديث عن الشعر بهذا الأسلوب قد أفاد دراسات الأدب جميعاً، فوق ما في الكتاب من شواهد كثيرة من جيد الشعر العربي تبلغ نحو المائتين. فوق هذا العرض الجميل لفنون الشعر وألوانه العامة. وأما أثره في النقد الأدبي بمعناه العام، فالكتاب نراه يتحدث عن الجزالة في الشعر، وعن اتساق النظم، وعن أقسام أخرى للشعر، في أسلوب جيد.

(١) ٧٤ نقد النشر ط ١٩٣٧.

(٢) ١٠٦ البديع.

وعرض هو إلى النقد أقرب منه إلى الشعر أو البلاغة: مما لا شك في قيمته في النقد.
فوق قيمته في دراسات الشعر.

نقد النثر وقدامة

- ١ -

"نقد النثر" كتاب رائع في البيان وأساليبه وفنونه، من نثر وشعر وخطابة وجدل ومحادثة، وفي البلاغة وحقيقتها وأوصافها ومظاهر الجمال فيها. والكتاب ينطق عن ثقافة مؤلفه الواسعة، وإلمامه البعيد بالكثير من علوم الدين والعربية وعلوم الفلسفة والكلام. وقد تأثر مؤلفه فيه أكثر ما تأثر بكتاب الخطابة لأرسطو، وكتاب البيان للجاحظ، وهو أول مؤلف كامل في البيان يطلعنا على التطور التأليفي في هذا العلم، وقد تولت كلية الآداب نشره في عام ١٩٣٢، وكتب أستاذان من أساتذة مقدمتين له، وقد اعتمدا في نشره على صورة فوتوغرافية للنسخة الوحيدة المخطوطة والمحفوظة بمكتبة الاسكوريال تحت رقم ٢٤٢. وقد ثارت ضجة كبيرة حول مؤلف هذا الكتاب، واختلف في ذلك العلماء اختلافاً كبيراً، فالمرحوم الأستاذ الشنقيطي^(١) والأستاذ العبادي^(٢) يتابعان بعض المستشرقين في أن الكتاب لقدامة بن جعفر م سنة ٣٢٧هـ، ولكن بروكلمان ودر نبودرغ^(٣) يريان أن الكتاب لتلميذ لقدامة ورد اسمه على الصفحة الأولى من النسخة الخطية للكتاب، وهو أبو عبد الله بن أيوب. ويتابعهما في ذلك هيوار.. أما الأستاذان لفي دلا فيدا وكرتشفوسكي فيريان أن ابن أيوب رجل أندلسي عاش بعد قدامة بعهد طويل، وإنه استمد نقد النثر من مؤلفات قدامة: ولكن بعض المستشرقين يقفون في بحثهم موقف الشك، ويتابعهم في ذلك الدكتور طه حسين.. وبين هذا الاختلاف الكثير، يجد الباحث مشقة عسيرة في الوصول إلى نتيجة حاسمة في ذلك المجال الغامض العسير، ولكن متابعة البحث والإفادة من البحوث التي كتبها الأستاذ الكبير الشيخ محمد عرفة، والتي اتجه فيها إلى نفي نسبة الكتاب لقدامة، ودمغ ذلك بحجج قوية، كل ذلك يؤدي بنا إلى ثلاث نتائج أولاً: أن الكتاب ليس لقدامة، ولا يمكن أن يكون له. وأدلنا على ذلك:

^(١) تقرير رقم ٣٤٣ مكتبات بدار الكتب المصرية.

^(٢) ص ٤٢ مقدمة نقد النثر للأستاذ العبادي. الطبعة الثانية.

^(٣) دائرة المعارف الإسلامية مادة قدامة.

أ- لم يذكر عن قدامة فيما وصل إلينا من كتبه أن له كتاباً بهذا الاسم ولا في ذلك الموضوع نفسه، وقد أرخ لقدامة علماء كثيرون كابن النديم - وهو أقربهم عهداً به وكالخطيب البغدادي وابن خلكان وسواهم، ولم يذكر أحد منهم أن له كتاباً بهذا العنوان، مع أنهم ذكروا كتابه "نقد الشعر"، وعنوا به، وحفظوا بهذه العناية بعض العلماء لشرحه والتعليق عليه.

ب- ومن العسير أن يؤلف مؤلف كتابين في موضوع واحد كالنقد، ثم لا يحيل القارئ في أحد كتابيه على الآخر، مع أن مؤلف "نقد النثر" يحيل على كتبه الأخرى كثيراً.

ج- على أن شك العلماء والباحثين في نسبة الكتاب لقدامة، وجزم بعضهم جزماً يعتمد على الدليل بأن الكتاب ليس له، كل ذلك ينفي أن يكون الكتاب لقدامة.

د - وشخصية قدامة شخصية المستقل في آرائه، المجدد في بحوثه، كما نعرفه في كتابه "نقد الشعر" الثابتة نسبته له، أما شخصية مؤلف نقد النثر كما تبدو من الكتاب فهي شخصية المحتذى لغيره، يظهر ذلك في احتذائه للجاحظ وكتابه "البيان والتبيين" وأخذه الكثير عنه في كل فصل وباب، كما يظهر ذلك في احتجاجه بآراء أرسطو واقتباسه من كتاب "الخطابة".

هـ- والاتجاه السياسي والديني لمؤلف نقد النثر هو الاتجاه الشيعي فهو يشيد بعلي وذريته كالحسن والحسين والباقر والصادق والرضا. وقدامة بعيد كل البعد عن ذلك الاتجاه ومظهر ذلك كتابته التأليفية في "نقد الشعر"، على أن مكانته البارزة في الدولة العباسية ومهامه الإدارية في ديوانها كانت تحول بينه وبين الانضمام إلى أعداء الدولة من الشيعيين، وليس من المعقول أن يكون ذلك جديداً على قدامة، قد اضطرته إليه الأحداث السياسية التي حدثت في آخر حياته باستبداد بني بويه بالخلافة العباسية سنة ٣٣٤هـ، فخلق قدامة وقصر المدة بين وفاته وقيام الدولة الجديدة مما كان يحول بينه وبين هذا الانقلاب .

و- وثقافة قدامة ثقافة عقلية صبغت بصبغة الأدب؛ وهو في نقد الشعر أعمق بحثاً أو أكثر فهماً للشعر وعناصره، وهو فيما وضع من موازين للنقد متأثر باتجاهه العقلي الفلسفي، وكثيراً ما يخطيء في تطبيقه الموازين العقلية الجامدة على الشعر، كما يظهر ذلك في كتاب "نقد الشعر". أما ثقافة مؤلف نقد النثر، فهي ثقافة أدبية علمية صبغت بصبغة الفلسفة، واتجاهه العقلي أكثر تأثراً بثقافة المتكلمين منه

بثقافة الفلاسفة، وثقافته الدينية واسعة فهو مؤلف في أكثر علومها، حتى لقد حاول الاستفادة من ورائها في فهم البيان ودراسته، وهذه ناحية جديدة بعيدة عن قدامة كل البعد.

ز - ومنهج قدامة في النقد - كما تراه في "نقد الشعر" - منهج تفصيلي طريف، فقد عنى فيه أولاً بإحصاء مظاهر الأداء البياني التي تمس الفكرة وترضى العقل وتنتج إلى سلامة المعنى، مما تأثر به ابن سنان الخفاجي من بعده في بحثه البياني في البلاغة والمعاني. ولكن منهج مؤلف "نقد النثر" في نقد البيان منهج إجمالي خصب، اتجه فيه صاحبه إلى بحث ألوان البيان وفنونه عامة، وإلى بحث البلاغة وعناصرها، وإلى تطبيق نظرية المطابقة لمقتضى الحال على الشاعر والناثر والخطيب، وهو في هذا الاتجاه الإجمالي لا يجيد البحث التفصيلي في مظاهر الجمال.

ح - وأسلوب قدامة أسلوب مرسل بعيد عن السجع والازدواج. أما أسلوب مؤلف "نقد النثر" فأسلوب أديب حريص على السجع، فإن لم يواته السجع واتاه الازدواج^(١). والتفاوت بين أسلوبين دليل قوى على أن الكتابين لشخصيتين مختلفتين، وشتان بين أسلوب رجلين: فيلسوف يتأدب، وأديب يتفلسف، والموازنة بين البحوث المشتركة في الكتابين تؤدي إلى ما نذهب إليه - وإن قل ما بينهما من اشتراك - : فبين كل من الكتابين تباين كثير في الموضوعات المشتركة : في الاتجاه والروح وفي العرض والتحليل، فبحث كالتشبيه في نقد الشعر مباين لنفس هذا البحث في نقد النثر^(٢)، والاستعارة عند مؤلف نقد الشعر غيرها عند مؤلف نقد النثر^(٣)، وجمال الشعر عند قدامة غيره مؤلف نقد النثر، ومن العسير على الباحث أن يأخذ هذا الاتفاق في الموضوعات على علاقته كدليل على أن الكتابين لمؤلف واحد، فالدراسة المقارنة لهذه البحوث المشتركة، هي وحدها الحكم في شخصية المؤلفين، ومصدر الكتابين.

ثانياً :

(١) راجع مثلاً ص ٥ نقد النثر.

(٢) ٦٥ نقد الشعر، ٥٨ نقد النثر.

(٣) ١٠٤ - ١٠٦ نقد الشعر، ٧٠ نقد الشعر.

أ - أبو عبد الله محمد بن أيوب بن محمد الذي ورد اسمه في الصفحة الأولى من النسخة الخطية للكتاب، والذي لم يهتد لشخصيته الكثير من الباحثين، والذي زعم بعض المستشرقين أنه مؤلف الكتاب، هو فقيه وقاض أندلسي عاش ما بين ٥٣٠ - ٦٠٨ هـ^(١)، فليس هو تلميذا لقدامة كما ذهب إليه بروكلمان وسواه.

ب - وليس ابن أيوب هذا هو مؤلف الكتاب كما ذهب إليه درنبرغ : وهيوار ولفي دلافيدا وكرتسو فسكى وسواهم. ودليلنا على ذلك:

١ - ثقافة الكتاب وروحه واتجاهه وبحوثه والأعلام الواردة فيه تؤكد لنا تأكيداً جازماً بأن الكتاب من إنتاج أول القرن الرابع على أقصى تقريب.

وقد ورد فيه أعلام كابن دريد وكتابه "الملاحن"^(٢)، وابن دريد علم لغوي عاش من ٢٢٣ - ٣٢١، وكابن التستري^(٣) وهو قريب العهد من صنائع بني الفرات^(٤). وكان أديباً يلتزم السجع ويستعمل الغريب ويتقعر في منطقته^(٥). وعاش في أواخر القرن الثالث^(٦)، ولطه أبو سهل عبد الله التستري المتوفى عام ٢٨٢ هـ. وليس في ذكر المؤلف لابن دريد ولا لابن التستري ومشاهدته إياهما تناقض مع ما نقول.

٢ - يأخذ ابن سنان الخفاجي في كتابه سر الفصاحة وعبد القاهر الجرجاني في كتابيه الأسرار والدلائل بعضاً من الآراء المبسوطة في الكتاب، فنهج عبد القاهر في الدفاع عن الشعر^(٧) وفي تقسيم التشبيه^(٨) هو منهج مؤلف نقد النثر^(٩). والرأى الذي ناقشه ابن سنان - من أن للإيجاز مواضع وللإطناب مواضع هو الرأى الذي بسطه مؤلف نقد النثر^(١٠) .. ولا يعقل أن يأخذ هذان العالمان من ابن أيوب وهما في القرن الخامس وهو في السادس والسابع.

(١) تكملة الصلة لابن الآبار ج ١ ص ٢٩٧ - ٢٩٩.

(٢) ٦٩ نقد النثر.

(٣) ١٠٨ نقد النثر.

(٤) ١٩٣ فهرست.

(٥) ١٠٨ نقد النثر.

(٦) هامش ١٠٨ نقد النثر.

(٧) ص ١٣ وما بعدها دلائل الإعجاز.

(٨) ٧٠ وما بعدها أسرار البلاغة.

(٩) ٥٨ و ٧٧ و ٧٩ - نقد النثر.

(١٠) ٩٧ نقد النثر.

٣- وليس لابن أيوب صلة بالكتاب سوى أن هذا الكتاب قد نسخ له في آخر القرن السادس الهجري وكتب الناسخ اسمه على النسخة التي كتبها، كما ترشدنا إلى ذلك العبارة في عنوان هذه النسخة الخطية التي حيرت في فهمها الباحثين؛ وهي كتاب "نقد النثر" مما عني به أبو الفرج "قدامة بن جعفر" الكاتب العراقي رضى الله عنه وأرضاه للفقير المكرم أبي عبد الله محمد بن أيوب بن محمد نفعه الله به، وهو الكتاب المعروف بكتاب البيان.

ثالثاً:

وإذا كان الكتاب ليس لقدامة، ولا لابن أيوب فلمن هو إذاً من العلماء؟ لقد واليت البحث في ذلك، وخلصت أن الكتاب قد يكون لتلميذ لقدامة تأثر فيه بآراء أستاذه في النقد والبيان، فحمل بعد عصره على أن الكتاب لأستاذه، وسمى "نقد النثر"، وإن كان اسمه في الحقيقة "البيان"، ولكن البحوث التي قمت بها أثبتت خطأ هذا الظن، وقد يكون الكتاب لوالد قدامة: "جعفر بن قدامة بن زياد" المتوفى سنة ٣١٩هـ، وليس لابنه قدامة. وجعفر هذا هو أحد مشايخ الكتاب وعلمائهم وافر الأدب حسن المعرفة، وله مصنفات في صنعة الكتابة وغيرها^(١)، والأدلة التي تؤكد هذا الرأي هي:

١- ثقافة الكتاب العلمية لا تدل على أنه من معين ثقافة القرن الرابع الواسعة وإنما تدل على أنه قد ألف بعد عصر الجاحظ سنة ٢٥٥ هـ وفي أواخر القرن الثالث الهجري، والأعلام الواردة في الكتاب والتي لا تتجاوز ذلك التاريخ أصدق شاهد على ما نقول، وتأليفه في معارضة كتاب البيان للجاحظ^(٢) مما يزيد ذلك قوة.

٢- وكثير من مؤلفات جعفر قد نسب لابنه قدامة خطأ^(٣)، كما أن بعض الباحثين قد شك في نسبة بعض كتب قدامة له، ورأى أنها لأبيه، كالمطرزي شارح المقامات المتوفى سنة ٦١٠هـ.

٣- وصنعة الكتابة التي قال الخطيب البغدادي إن لجعفر مؤلفات فيها ترادف كلمة نقد النثر وكلمة البيان، وهي اصطلاحات كانت تدل في ذلك العصر

(١) ج ٧ ص ٢٠٥ تاريخ بغداد .

(٢) ص ١ نقد النثر .

(٣) ٤٠ نقد النثر - مقدمة العبادي .

على قواعد البيان التي يضعها العلماء للكتاب، يفصلون لهم فيها مشكلات البيان العربي وبلاغته، ويرسمون فيها المذاهب الأدبية التي يجب على الكتاب احتذاؤها، وذلك كله ما نراه مبسوطاً في "نقد النثر" مما يدل على أنه من مؤلفات جعفر في صنعة الكتابة.

٤- وظاهرة التشيع التي نراها في نقد النثر لا تنبع إلا من قلب رجل لم يخلص للدولة إخلاص قدامة، وعاش بعيداً عن مناصبها كما عاش جعفر.

-٢-

فنحن لا نشك - ولا نستطيع باحث أن يشك - في أن الكتاب ليس لآب أيوب، بعدما بسطناه من أدلة دامغة. أما نفى نسبة الكتاب لقدامة فهو ما أيدناه بالحجج الكثيرة القوية، رغم أن كثيراً من الباحثين يرون غير ما رأينا، وقد قرأنا أخيراً في الجزء الثاني من الإمتاع والمؤانسة تأليف أبي حيان التوحيدي الذي ظهر من حين - نصاً جديداً أراه حرياً بالفهم والبحث والتحقيق^(١): قال أبو حيان في أثناء كلامه على بلاغة الشعر وبلاغة النثر - ما نصه: "وما رأيت أحداً تناهى في وصف النثر بجميع ما فيه وعليه غير قدامة بن جعفر في المنزلة الثالثة من كتابه. قال لنا علي بن عيسى الوزير: عرض علي قدامة كتابه سنة عشرين وثلثمائة، وخبرته فوجدته قد بالغ وأحسن، وتفرد في وصف فنون البلاغة في المنزلة الثالثة، بما لم يشركه فيه أحد من طريق اللفظ والمعنى، مما يدل على المختار المجتبي والمعيب المجتنب، ولقد شاكه فيه الخليل بن أحمد في وضع العروض، ولكني وجدته هجيراً اللفظ ركيك البلاغة في وصف البلاغة، حتى كأن ما يصفه ليس ما يعرفه وكأن ما يدبره غير ما يدل عليه.. وهذا لا يكون إلا من غزارة العلم وحسن التصور". فأبو حيان على لسانه حيناً، وعلى لسان ابن عيسى الوزير حيناً آخر يقرر:

١- أن قدامة بذ سابقه في وصف النثر وفنون البلاغة من طريق اللفظ والمعنى في المنزلة الثالثة من كتابه.

٢- أنه بتأليفه هذا الكتاب وابتكاره لبحوثه يضارع الخليل بن أحمد في سمو مكانته وابتكاره لعلم العروض.

٣- أن كتابه هذا عرض علي بن عيسى الوزير سنة ٣٢٠هـ.

(١) ص ١٤٥ و ١٤٦ ج ٢ الإمتاع والمؤانسة - طبع لجنة التأليف.

٤- أن أسلوب قدامة في كتابه هجين اللفظ ركيك البلاغة في وصف البلاغة، واعتذار الوزير عنه في ذلك رائع ممتع دال على مدى مكانة قدامة عند معاصريه من المفكرين، ولكن ما هو هذا الكتاب استحق هذا التقدير والإعجاب من رجلين يعدان من أعظم رجال الفكر الإسلامي في القرن الرابع الهجري: أهو نقد النثر أم سواه؟ أجزم جزماً قاطعاً بأنه ليس هو "نقد النثر"، إنما هو كتاب آخر سأذكر اسمه بعد قليل:

١- ذلك أن كتاب نقد النثر - من ناحيته التأليفية - لم يرتب منازل، وليس فيه منزلة ثالثة في وصف فنون البلاغة من طريق اللفظ والمعنى مما يدل على الجيد أو الرديء من الكلام، كما يقول الوزير، إنما هو في البيان الذي يقسمه إلى بيان بالحال، وبيان بالاعتقاد وبيان بالكتابة وبيان باللسان. والبيان باللسان عنوانه المؤلف بهذا العنوان: "البيان الرابع العبارة"^(١)، وتكلم فيه على خصائص الأسلوب العربي التي تتفق العربية واللغات الأخرى فيها، وعلى الخصائص الأخرى التي تنفرد بها العربية. من: اشتقاق وتشبيه ولحن واستعارة ونغز ووحى ومبالغة وحذف وتقديم وتأخير واختراع، كما تكلم فيه على تأليف العبارة"^(٢)، بالتحدث عن أوصاف الشعر، وأوصاف النثر بسائر ألوانه: من خطابة وترسل ومجادلة وحديث.. أما ما ذكره الوزير فموضوع نجده مفصلاً في "نقد الشعر"، وقد يكون في كتب أخرى لقدامة. فأما نقد النثر فليس له بذلك صلة، وليس فيه وصف لفنون البلاغة من طريق اللفظ أو المعنى كما يقول، وليس فيه تحليل لمذهب قدامة في النقد كما يرى.

٢- على أن التوحيدى يرى أن قدامة قد استبد بكتابه - الذى لم يسمه أبو حيان - بشرف، يسامى الشرف الذى ناله الخليل بابتكاره علم العروض، فهل يبوىء قدامة هذه المنزلة: "نقد النثر" إن كان هو الذى يريد أبو حيان أو الوزير؟ لا، فإن نقد النثر ليس من الابتكار الفكرى فى شىء. كما كان كتاب الخليل فى العروض، وكما نرى قدامة فى "نقد الشعر"، إنما هو

(١) ٤٣ نقد النثر.
(٢) ٨٤ المرجع السابق.

لون من الاحتذاء الفكرى لأرسطو والجاحظ، وتدوين لعناصر البيان الأولى التى أثيرت فى عصر قدامة وقبل عصره بقليل.

٣- على أن الأسلوب الذى ذمه الوزير هو الأسلوب المنطقى المأثور عن قدامة، الذى يرشدنا إليه كتابه نقد الشعر"، أما أسلوب نقد النثر فأسلوب بليغ ممتع فيه إشراق البيان. وعليه رونق البلاغة: فلو كان "نقد النثر" هو الذى عناه الوزير لما نقد أسلوبه هذا النقد اللاذع المرير .. وإذا فليس "نقد النثر" هو الكتاب الذى عناه أبو حيان والوزير .. ويحق لنا إذا أن نتطلع لمعرفة، حتى يبعد اللبس، وتستبين السبيل، ويخلص لنا الدليل.

رأبى أنه كتاب آخر - ولا شك - غير "نقد النثر" الذى لا يمت إلى قدامة بصلة وغير نقد الشعر، الثابت النسبة إليه والذى نقده الأمدى، وشرحه عبد اللطيف ابن يوسف .. وقدامة له - غير "نقد الشعر - كتاب فى صنعة الكتابة"^(١) ودلو غير "نقد النثر"، لأن هذا المرجع قد ذكر نقد النثر، وجعله مؤلفاً آخر سواه^(٢)، وإن كان قد نسبة إلى قدامة، ويذكر صاحب كشف الظنون أن لقدامة كتاباً اسمه "سر البلاغة فى الكتابة"^(٣)، وكذلك يذكر اليزدادى فى كمال البلاغة أن لقدامة تأليفاً فى الكتابة (ص ١٦ كمال البلاغة) .. فليس من المستبعد إذا أن يكون التوحيدى وعلى بن عيسى الوزير قد قصدا كتاباً من هذين الكتابين: صنعة الكتابة وسر البلاغة فى الكتابة، وقد يكون هذا الاسمان عنواناً لكتاب واحد لقدامة فى بلاغة الكتابة، وعلى كل حال فالذى نراه ونجزم به أن نقد النثر لا يمت إلى أحد هذين الكتابين بصلة، ولبس هو أيضاً من مؤلفات قدامة فى البيان، ومما يؤيد ذلك وصف اليزدادى لكتاب قدامة، وأنه "فصول مستخرجة من رسائل الكتاب الخ" (١٦ و ١٩ كمال البلاغة)

ولكن ما مدى صحة نسبة الكتاب لجعفر والد قدامة ؟ من الواجب على أن أقرر أن هذه الفكرة لا تجد إلى الآن الدليل المادى الملموس الذى يؤيدها بقوة الحجة، إنما هى استنتاج رأيته، ووجدت من وثافة أسبابه فى نظرى ما يكتفى لأن أومن به وأذهب إليه . ولم أجد - للأسف - شيئا من مؤلفات جعفر - التى قال عنها

١١ راجع ٢٠٢ ج ٢ كتاب الأدب العربى لجورجى زيدان.

١٢ راجع ١٧٣ ج ٢ نفس المرجع.

١٣ راجع ٤٧٠ ج ١ كشف الظنون.

الخطيب البغدادي : إن له مؤلفات في صناعة الكتابة^(١) - اتخذه موضوعاً لدراسة نقدية بينه وبين كتاب نقد النثر لمعرفة شخصية المؤلف، والاستدلال عليها بدلالة الأسلوب وثقافة التأليف، واتجاه المؤلف فيه. وقد يقال إن جعفر عاش نصرانياً، فمن الغريب أن يتشيع - مع نصرانيته - لآل علي، ومن الغريب أن يكون له مؤلفات مثل: الإيضاح أو التعبد أو الحجة، ولكن من الواجب أن نعرف أن كثيراً من النصارى في العراق وإيران، كانوا يتشيعون لأغراض شخصية أو سياسية، يريدونها ويعملون لها، على أن الروايات التاريخية الصحيحة لا تثبت لنا أن جعفرًا عاش على نصرانيته.

وبعد كتابة كل ما تقدم نشر الأستاذ الدكتور علي حسن عبد القادر مقالة في الرسالة عدد ٨ - ١١ - ١٩٤٨، ذكر فيها ما يلي:

١ - كتاب البرهان في وجوه البيان " لأبي الحسين إسحق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب، طبع جزء منه قدر ثلثه باسم "نقد النثر"، حرره وأخرج الدكتور طه حسين، والأستاذ عبد الحميد العبادي، منسوباً إلى أبي الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي المتوفى سنة ٣٣٧هـ. وقد اعتمد مخرجا "نقد النثر" على مخطوطة بمكتبة الأسكوريال رقم ٢٤٣. وقد عثرنا على مخطوطة لهذا الكتاب بمكتبة تشستريتي رقم ٧٦٧ تحت عنوان "كتاب البرهان في وجوه البيان"، وعند المقابلة بينها وبين كتاب "نقد النثر" المطبوع وجدناهما يتفقان في القدر المطبوع، وتزيد المخطوطة التي بأيدينا على المطبوعة بمقدار ثلثي الكتاب تقريباً. ولم نشك في أن هذا القدر الزائد إنما هو جزء أصلي من الكتاب قد سقط منه في المخطوطة الأسكوريالية، ذلك أن المؤلف قد بنى كتابه على أربعة وجوه البيان: البيان بالاعتبار، البيان بالاعتقاد، البيان بالعبارة، البيان الرابع بالكتاب، وهو غير موجود في النسخة المطبوعة، وقد علل محقق هذه النسخة المبتورة هذا النقص بادعائه أن المؤلف قد ضمن الباب الثالث (وهو العبارة) الكلام على الوجه الرابع وهو الكتاب. وفي النسخة المخطوطة التي بأيدينا، جاء فيها ذكر البيان الرابع وهو الكتاب، واستغرق من أصل الكتاب جزءاً كبيراً، كما جاء فيها الكلام على باب المعنى وذكر العروض والقافية بتفصيل كامل. وكذلك جاء فيها ما بقي من وجوه الحديث وجهاً ووجهاً، وكذلك مراتب

(١) ٢٠٥ ج ٧ تاريخ بغداد، ٤١٢ ج ٢ معجم الأدباء طبعة مرجليوث.

المستمعين له مرتبة مرتبة، فكانت مخطوطتنا بهذا التحقيق هي النسخة الكاملة للكتاب.

٢- وأهمية مخطوطتنا لا تنحصر في أنها النص الكامل للكتاب كما كتبه مؤلفه، بل إن لها أهمية أخرى أكبر، وهي معرفة مؤلف هذا الكتاب على التحقيق. وهو أبو الحسين إسحق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب، مما يبطل نسبة الكتاب إلى قدامة بن جعفر، كما أن مخطوطتنا تحمل الاسم الصحيح للكتاب، وهو "البرهان في وجوه البيان". ويؤيد ذلك أيضاً أدلة أخرى منها:

أولاً: نسب إلى قدامة كتاب في الكتابة، وليس هو "البرهان" أو "نقد النثر" وإنما اسمه "كتاب الخراج وصناعة الكتابة"، وتوجد مخطوطة منه بمكتبة كوبرلي بالآستانة، وقد استخرج دي غويه نبذاً منها وطبعها تحت عنوان "كتاب الخراج"، وهذه النبذة هي الأبواب الثاني والثالث والرابع والخامس والسادس والعاشر من المنزلة الخامسة، والبابان السادس والسابع من المنزلة السادسة. وقد وصف ياقوت هذا الكتاب في ترجمة قدامة بقوله: "وله كتاب في الخراج وصناعة الكتابة"، رتبة مراتب وأتى فيه بكل ما يحتاج الكاتب إليه، على تسع منازل، وكان ثمانية فأضاف إليه تسعاً، ويقول المطرزي في كتاب الإيضاح شرح مقامات الحريري - مخطوطة المتحف البريطاني -: "وله تصانيف كثيرة منها كتاب "الألفاظ" وكتاب "نقد الشعر"، وهو حسن للغاية طالعت منه أشياء، وقيل هو لوالده جعفر. ومنها كتاب صناعة الكتابة ظفرت به وعثرت فيه على ضوالم منشودة، وهو كتاب يشتمل على سبع منازل، وكل منزلة منها تحتوي على أبواب مختلفة ضمنها خصائص الكتاب والبلغاء: وقال ابن الجوزي في المنتظم في حوادث سنة ٣٣٧ بمناسبة موت قدامة ما نصه: "وله كتاب حسن في الخراج وصناعة الكتابة". وهذا الوصف لا يتفق مع تبويب كتاب "البرهان" أو "نقد النثر"، إذ أنه على أربعة أبواب تناولت كل ما قصد المؤلف كتابته عن الخراج وصناعة الكتابة، وفضلاً عن هذا فنحن إذا وزنا الجزء المطبوع من كتاب قدامة الخاص بالخراج ألفيناه مختلفاً عن القسم الخاص بالخراج في كتابنا "البرهان". والنتيجة البديهية هي أن قدامة وأبا الحسين كتب كل منهما كتاباً في الموضوع، ولكن كلا منهما سلك مسلكه الخاص في علاج الموضوع. وقد ألف قدامة كتابه قبل سنة ٣٢٠، أما أبو الحسين فألف كتابه بعد سنة ٣٣٥ حسب ما جاء من نصوص تاريخية في ثنايا الكتاب.

ثانيًا : من الكتب المعروفة على وجه التحقيق لقدامة (نقد الشعر)، وقد عالج فيه الشعر وفنونه بوجه خاص: وقد عالج صاحب "البرهان" في كتابه الشعر أيضًا، فلو أنه كان لقدامة لما احتاج إلى معالجة هذه الموضوعات مرة أخرى بمثل هذا البيان الكافي، وفضلا عن ذلك فإن معالجة الشعر في (البرهان) تختلف اختلافاً جوهرياً عنها في كتاب (نقد الشعر) من الناحية الفنية والموضوعية.

ثالثًا : وصاحب كتاب (البرهان) يصر في كل مناسبة على ذكر الرجال المشهورين من آل وهب، معظماً لهم فخوراً بهم، كأن يقول : "وقد كان شيخنا أبو علي الحسن بن وهب رحمه الله .. وقال أبو أيوب رضي الله عنه. وكان أبو أيوب رحمه الله رجلاً مشهوراً بالبلاغة .. ولو لم نتقدم من ذكر البلاغة إلا بهذا القول من شيخنا رحمه الله لكفى وأجزى .." وأبو أيوب هذا هو سليمان بن وهب عميد آل وهب وجد المؤلف.

رابعًا : وهناك أمر يجب التنويه به وهو أن البطليوسي في كتابه (الاقتضاب شرح أدب الكتاب) قد كتب فصولاً طويلة بنى عليها مقدمته في شرح الكتاب (ص ٦٦ - ٩٠)، وهذه الفصول تتفق في لفظها مع بعض فصول كتاب البرهان، ولكن البطليوسي لم ينسبها إلى أبي الحسين ولا إلى قدامة، وإنما أشعر بنسبتها إلى علي بن مقله (م ٣٣٢هـ)، ولا يمكن أن يقال إن هذا الكتاب (البرهان) هو لابن مقله لأنه ألف بعد سنة ٣٣٥ وبعد وفاة ابن مقله بنحو ثمانين سنين، والقدر المتيقن أن البطليوسي لم يحتسب على أي حال قدامة بن جعفر مؤلفاً للكتاب الذي نقل عنه علي فرض أنه نقل فصوله من كتابنا هذا. ومن المحتمل أن يكون البرهان قد نسب مرة إلى علي بن مقله كما نسب إلى قدامة بن جعفر وجهل أمر صاحبه، ومن المحتمل أيضاً أن يكون البطليوسي ومؤلف كتابنا هذا كلاهما نقل نقولاً من كتاب لابن مقله في هذا الموضوع، وهو أمر لم تساعدنا الظروف على تحقيقه؛ ومن غريب الأمر أن هذا الكتاب قد نسب إلى قدامة بن جعفر في طرة المخطوطة الاسكوريالية، وكذلك في طرة المخطوطة التي بأيدينا مع ورود اسم المؤلف في أثناء الكتاب، وهو أمر غفل عنه الناسخ، وتفسير هذا التناقض يسير، فإن الوراقين كانوا يعرفون قيمة قدامة الأدبية ويعرفون شهرة كتابه في الأدب، فلا يستبعد عليهم أن يضعوا اسمه على هذا الكتاب، لتسهيل بيعه وتداوله، وهذه طريقة معروفة عند النساخ والوراقين، لا تخفى على المحققين.

أبو بكر محمد بن دريد^(١)

٢٢٣ - ٣٢١ هـ

هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد "بن عتاهية بن حنتم بن الحسن بن حمامي ابن جرو بن واسع بن وهب بن سلة بن حاضر بن حنتم بن ظالم بن فراهيد بن مالك ابن فهم بن غنيم بن دوس بن عدنان بن عبد الله بن زهران" الأزدي العماني.

إمام عصره في اللغة والأدب والشعر الفائق، تقف عند كلامه الفحول، وتستعير آيات بلاغته الفصحاء، وتستمد من كلامه الخطباء، وترجع إلى حقائق علمه الأدباء، قال المسعودي: كان ابن دريد ببغداد ممن برع في زماننا هذا في الشعر وانتهى في اللغة وقام مقام الخليل فيها، وأورد أشياء في اللغة لم توجد في كتب المتقدمين، وكان يذهب بالشعر كل مذهب، وشعره أكثر من أن نحصيه أو نأتي على أكثره. ولقد كان ابن دريد منذ شهرته صاحب منزلة كبيرة بين فحول العلم وقد ترجم له غير واحد، فأظهروا علو مقامه وطول باعه في العلوم العربية، حتى فاق سائر أقرانه، إلا أنهم لم يعتنوا فيما رأيت بذكر أرومته ونبعته كما ينبغي.

كان أبو بكر بن دريد عالماً من أعلام اللغة والأدب والرواية والشعر. ومقصودته التي قالها في مدح الشاه ابن ميكال تعد من غرر الشعر العربي وعبونه، وهو من الشخصيات التي تستحق الدراسة والتقدير في الأدب العربي.

وقد اتفق جميع مؤرخي ابن دريد أن ولادته كانت في مدينة البصرة سنة ٢٢٣ هجرية في خلافة المعتصم بالله العباسي، ونقل الخطيب البغدادي في كتابه تاريخ بغداد: "أخبرني محمد بن علي الأصبهاني قال: نبأنا الحسن بن عبد الله بن سعيد اللغوي قال: سمعت ابن دريد يقول: مولدي بالبصرة بسكة صالح سنة ٢٢٣، واسمه محمد بن الحسن بن دريد بن عتاهية الأزدي.

يتفق مؤرخو ابن دريد على أنه نشأ في البصرة وتأدب فيها، وتعلم اللغة وأشعار العرب وقرأ على علمائها، ثم صار بعد ذلك إلى عمان. ولكن ابن الأنباري

(١) ٤٤٨ - ٤٥٣ ج ٣ وفيات الأعيان لابن خلكان بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد.

والخطيب البغدادي يشدان عن هذا الإجماع، ويذكران إنه نشأ بعمان .. وبقي ابن دريد في البصرة يتأدب على كبار المشايخ فيها مثل الرياشي والسجستاني، فلما وقعت فتنة الزنج في البصرة سنة ٢٥٧هـ ودخلها علي بن محمد صاحب الزنج واكتسحها وخربها خرج منها ابن دريد مع عمه الحسين بن دريد.

ويقول معظم المؤرخين لابن دريد أن انتقاله من البصرة في فتنة الزنج كان إلى عمان، وينفرد ابن خلكان بالقول بأنه انتقل إلى بغداد أولاً مع عمه، ثم إلى عمان بعد ذلك.

بقي ابن دريد في عمان اثني عشرة سنة، ثم عاد إلى البصرة فسكنها زمناً، ثم خرج منها فتنقل زمناً في جزائر البحر، ثم عاد إلى البصرة. وفي أثناء إقامته الثانية هذه بالبصرة تقلد عبد الله بن محمد بن ميكال ولاية الأهواز من قبل الخليفة المقتدر بالله. وكان ابنه أبو العباس إسماعيل صبياً، فاستدعى ابن دريد لتأديبه فأجابه وخرج إلى فارس يؤدب إسماعيل بن ميكال ويخدم أباه الشاه ابن ميكال. وهناك ألف لهم كتاب الجمهرة في سنة ٢٩٧، وقال في مدحهم مقصوده الفريدة، وبقي معهم حتى صرفوا عن ولاية فارس، فذهب إلى بغداد ودخلها في سنة ٣٠٨، وبقي فيها يدرس الأدب والشعر والرواية، ويحدث في ذلك أكبر علمائها، ويجلسون إليه إلى آخر عمره، حيث أصابه فالج وهو في حدود التسعين، وعاش مع الفالج عامين ثم استشفى منه بالترياق فشفي وصح وعاد إلى أفضل أحواله، ثم تناول - بعد عام - غذاءً ضاراً فعاوده الداء. وبقي يمرض حتى مات بعد عذاب ومرض طويل وكانت وفاته في يوم الأربعاء الثامن عشر من شهر شعبان سنة ٣٢١هـ ببغداد، ودفن في مقبرة الخيزران - وهي مقبرة أم الرشيد، ودفن فيها جمهور عظيم من علماء بغداد.

وياقوت في معجم الأدباء والسيوطي في بغية الوعاة يخالفان هؤلاء المؤرخين ويحددان زمن وفاته بيوم الأربعاء الثامن عشر من رمضان في نفس السنة، أما أبو الفداء فيذكر في تاريخه وفاة ابن دريد في حوادث سنة ٣٢١ وأنها كانت في شعبان من غير أن يحدد يوماً.

ويتفق هؤلاء المؤرخون على أنه دفن في مقبرة الخيزران، أم الرشيد: ولكن ابن خلكان يقول إنه "دفن بالمقبرة المعروفة بالعباسية من الجانب الشرقي ظهر سوق السلاح بالقرب من الشارع الأعظم". وينقل ياقوت ذلك منسوباً بصيغة

التضعيف إلى المرزباني، وينفرد الجلال السيوطي بالقول بأنه مات بعمان. قال : "ثم صار إلى عمان فأقام بها إلى أن مات".

والذي نرجحه أن وفاته كانت في الثامن عشر من شهر شعبان سنة ٣٢١هـ. وأنه دفن في مقبرة الخيرزان، لأن الخطيب البغدادي يروي قصة دفنه عن شهد جنازة ابن دريد ومشى فيها إلى المقبرة. وهو ينص على أنه دفن في الخيزرانية، فكان ابن دريد مات عن ثمان وتسعين سنة، ولكن البستاني يقول في دائرة المعارف: "وقيل بل عاش ثلاثا وتسعين سنة لا غير".

هذه خلاصة حياة ابن دريد وتقلبه في البلاد وقد نشأ ابن دريد كما مر في البصرة أول القرن الثالث. وتلقى العلم على كبار المشايخ فيها، ثم انتقل إلى عمان فبقي يسمع اللغة من الإعراب اثنى عشرة سنة ثم انتقل إلى جزائر البحر وفارس وبغداد، وهذا التنقل له ولا شك أثر في تكوين شخصيته، ونجد في أساتذة ابن دريد طائفة من أعظم الرجال في اللغة والأدب والرواية، فقد سمع وحدث عن أبي حاتم السجستاني، وأبي الفضل الرياشي وعبد الرحمن بن قريب - ابن أخي الأصمعي - وأبي عثمان الاشنانداني .. وقد ولد هو ونشأ في أسرة شريفة فيها رئاسة كما رأينا، وكان عمه الحسين بن دريد عالما جليلا وهو الذي تولى تربيته كما ذكر ابن دريد نفسه، وكذلك روت عن ابن دريد وسمعت عليه طائفة عظيمة جليلة، وكان ابن دريد قوى الحافظة جيدها، يقول ياقوت: قال الخطيب عن رأي ابن دريد أنه قال: كان واسع الحفظ جداً، ما رأيت أحفظ منه وما رأيت قط قرىء عليه ديوان شاعر إلا وهو يسابق إلى روايته لحفظه له"، ويقول أبو الطيب اللغوي عنه في كتابه "مراتب النحويين": "وكان أحفظ الناس .. ويروي الخطيب البغدادي عن حدة حفظه في صباه هذه القصة العجيبة: "حدثني علي بن الحسن بن يوسف الأزرق قال: حدثني جماعة أن ابن دريد قال: كان أبو عثمان الاشنانداني معلماً وكان عمي الحسين بن دريد يتولى تربيتي، فكان إذا أراد الأكل استدعى أبا عثمان يأكل معه، فدخل يوماً عمي وأبو عثمان يرويني قصيدة الحرث بن حلزة التي أولها "آذنتنا بينها أسماء"، فقال لي عمي: إذا حفظت هذه القصيدة وهبت لك كذا وكذا ثم دعا المعلم ليأكل معه فدخل إليه فأكلا وتحدثنا بعد الأكل ساعة، فإلى أن رحع المعلم حفظت ديوان الحرث بن حلزة بأسره. فخرج المعلم فعرفته ذلك فاستعظمه وأخذ يعتبره علي فوجدني قد حفظته، فدخل إلى عمي فأخبره، فأعطاني ما كان وعدني به"، وهذه القصة بعينها يرويها ياقوت.

يقول الخطيب البغدادي : "حدثني علي بن محمد بن نصر . قال سمعت أبا بكر الأبهري المالكي يقول : جلست إلى جنب ابن دريد وهو يحدث ومعه جزء فيه ما قال الأصمعي . فكان يقول في واحد : حدثنا الرياشي . وفي آخر : حدثنا ابن أخي الأصمعي ؛ يقول كما يجيء في قلبه ، وقال غيره : كان ابن دريد قد أملى الجمهرة في فارس ثم أملاها في البصرة وبغداد من حفظه " يا قوت - " وقال بعضهم : أملى ابن دريد الجمهرة من حفظه سنة ٢٩٧ فما استعان عليها بالنظر في شيء من الكتب إلا في الهمزة والألف " ، " وذكر أبو علي البيهقي في كتاب التنف والطرف أنه صنف كتاب الجمهرة للأمير أبي العباس أيام مقامه بفارس ، فأمله عليه إملاء . ثم قال : حدثني أبو العباس الميكالي قال : أملى علي أبو بكر الدريدي كتاب الجمهرة من أوله إلى آخره حفظا في ٢٩٧ فما رأيت استعان عليه بالنظر في شيء من الكتب إلا في باب الهمزة واللفيف - لعله الألف - فإنه طالع له بعض الكتب ثم قال : وكفاك بها فضيلة وعجبية أن يتمكن الرجل من علمه كل التمكن ثم لا يسلم - مع ذلك - من الألسن " .. وقال ابن دريد الشعر في مبتدأ شبابه في حدود العشرين ، يقول الخطيب البغدادي : أخبرنا أحمد بن علي المحتسب ، قال أنبأنا إسماعيل بن سعيد المعدل ، قال أنشدنا أبو بكر بن دريد ، وقال هذا أول شيء قلته من الشعر :

ثوب الشباب على اليوم بهجته فسوف تنزعه عني يد الكبير

وكان ابن دريد حجة في اللغة ، بارعا في الشعر ، وكانت له الصدارة في عصره . فاعترف له معاصروه بالتقديم ، يقول المسعودي^(١) : وكان ابن دريد ببغداد ممن برع في زماننا هذا في الشعر وانتهى في اللغة وقام مقام الخليل بن أحمد " ، ويقول ابن خلكان : " إمام في عصره في اللغة والأدب والشعر الفائق " ، ويقول الخطيب البغدادي : " وكان رأس هذا العلم والمقدم في حفظ اللغة والأنساب وأشعار العرب " ، ويقول يا قوت : " كان رأس هذا العلم " ، وقال أبو الطيب اللغوي عنه في كتاب مراتب النحويين : انتهت إليه لغة البصريين . وكان أوسع الناس علما وما ازدحم العلم والشعر في صدر أحد ازدحامهما في صدر خلف الأحمر وابن دريد " ، ويقول عنه ابن تغري بردي : " طلب الأدب واللغة حتى صار رأسا فيهما وفي أشعار العرب " ، ويقول ابن الأنباري : " وكان من أكابر علماء العربية مقدما في اللغة وأشعار العرب وأنسابهم " . ووصف ابن دريد بالتقديم والأستاذية والرياسة مما أجمع عليه كل

^(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٥١٨ .

مؤرخيه، حتى هو نفسه كان يعتز بعلمه وصدارته، ويرى أنه كان نسيج وحده، ووحيد دهره، وأنه وارث علم الأصمعي، "وقال أبو الحسن الدريدي^(١)، حضرت وقد قرأ أبو علي بن مقلة وأبو حفص كتاب المفضل ابن سلمة - الذي يرد فيه علي الخليل بن أحمد - علي أبي بكر بن دريد، فكان يقول: "صدق أبو طالب" في شيء إذا مر به، و"كذب أبو طالب" في شيء آخر؛ ثم رأيت هذا الكلام وقد جمعه أبو حفص في نحو مائة ورقة فابن دريد هنا ينصب نفسه في منصب الميزان والحكم بين العلماء، ولا يحجم حتى عن تخطيء الخليل.. وقال تلميذه أبو علي القالي: قال لي مرة وقد سألته عن بيت الشعر: لئن طفنت شحمتا عيني، لم تجد من يشفيك من العلم؛ هكذا قال لي أبو حاتم. وكذلك قال لي الأصمعي وقد سألته.

وليس ابن دريد لغويا وراوية فقط، بل هو شاعر مكثر بارع مبتكر في طريقتة الشعرية. كان يقال عنه إنه أعلم الشعراء وأشعر العلماء، وله شعر كثير منه الجزل ومنه الرقيق، يقول ابن خلكان عن شعره: وله نظم رائق جداً؛ وكذلك يقول البغدادي في خزانة الأدب، ويقول عنه المسعودي في مروج الذهب: وكان يذهب في الشعر كل مذهب فطوراً يجزل وطوراً يرق. وشعره أكثر من أن نحصيه، أو تأتي علي أكثره، أو يأتي عليه كتابنا هذا، ولكن الدكتور زكي مبارك يقول: إنه كان شاعراً مقلداً.

ونال ابن دريد في حياته مكانة كبيرة عند معاصريه من العلماء والوزراء والملوك، وقد رأينا طرفاً من ذلك، ويدل عليه ما قدمناه من أن الشاه ابن ميكال اختاره لتأديب ولده إسماعيل. وقد نال عندهما حظوة حتى قلدها ديوان فارس، فكانت الكتب لا تكتب إلا عن رأيه ولا ينفذ أمر إلا بعد توقيعه.. وقد بلغ من تبريز ابن دريد في عصره وتقدمه، بل سطوته علي جيله، أنه أخلط طائفة من العلماء المعاصرين له، قال ابن خالويه في شرح المقصورة كان ببغداد عباد بن عمر ابن الحليس الكرمانى صاحب لغة، وكان يطعن علي ابن دريد وينقض عليه الجمهرة؛ فجاء غلام لابن دريد فقال: "اكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم، قال أبو بكر ابن دريد أعزه الله تعالى: عننت الفرس إذا حبسه بعنانه، فإن حبسته بمقوده فليس بمعن، قال الكرمانى الجاهل: أخطأ ابن دريد لأنه إن كان من عننت فيجب أن يكون معنونا. وإن كان من أعننت يجب أن يكون معنا، وأخطأ لكذا وكذا، فوقف شاعر علي الحلقة فقال: اكتبوا:

أذلت كرمان وعرضتها لجحفل مثل عديد الحصى

(١) كان وراق ابن دريد وإليه صارت كتبه بعد موته.

وابن دريد غرة فيهم في بحرہ مثلک کم غوصا
جثا على الرکبة حتى إذا أحسن نذرا قعد القرفصا
والله إن عاد إلى مثلها لأصفن هامته بالعصا

فلم يلتفت إليه الكرمانى بعد ذلك، ولما دخل ابن دريد بغداد احتفى به أهلها، وأنزله الوزير على بن محمد فى جواره وأفضل عليه، وعرف الخليفة المقتدر مكانه من العلم، فأجرى عليه فى كل شهر خمسين ديناراً لم تزل جارية عليه إلى أن مات، ويقول أبو الطيب اللغوى: تصدر ابن دريد فى العلم ستين سنة، روى فيها عنه وتعلم طائفة عظيمة وجيلية من كبار العلماء، منهم أبو سعيد السيرافى وأبو بكر ابن شاذان وأبو عبد الله المرزبانى وعمر بن محمد بن سيف وأبو الفرج صاحب الأغانى وأبو على القالى .. ويكاد يكون كتاب "الأمالى" كله من أحاديث ابن دريد وروايته.

وقد ذكر أبو إسحاق الحصرى فى زهر الآداب أن ابن دريد أغرب بأربعين حديثاً استنبطها من ينباع صدره واستنتجها من معادن فكره إلخ .. وهذه الأحاديث الأربعون غير معروفة، وقد التفت إليها الدكتور زكى مبارك، وذهب إلى أنها البدرة الأولى لفن المقامات، وأن ابن دريد سبق بها بديع الزمان، فهو يقلده فيها، فإن صح ما يراه الدكتور - وهو غير بعيد - فإن فضلاً جديداً يضاف إلى ابن دريد، ويثبت له تبرز جديد فى الأدب فوق ما قاله فيه من تفوق وتبريز، وكان ابن دريد بصرى المذهب فى النحو، بل رأينا فيما سبق أن أبا الطيب اللغوى يقول عنه: وانتهت إليه لغة البصريين، وقد ولد هو فى البصرة ونشأ بها وتعلم على مدرستها وسمع من كبار لغويها كما تقدم. وبين مدرستى البصرة والكوفة معارك حامية فى اللغة.

وكما نال ابن دريد الصدارة فى حياته، كذلك بقى اسمه مذكوراً، وذكره معروفًا، ومنزلته فائقة فى جميع العصور بعد ذلك، فمقصوده يعتنى بها خلق كثير من المتقدمين والمتأخرين بالشرح، وبالكلام عن أفاضها، ويعارضه بمثلها كثير من الشعراء. والمعرى يذكره فى رسالة الغفران ويلقبه بشيخ الازد ويجعله نديماً من ندامى الأدباء فى الفردوس، وفى كتاب المعجب فى تلخيص أخبار المغرب إشارة فى خبر. تدل على أنه كان معروفًا ومذكوراً بالصدارة فى بلاد الأندلس للقرن الرابع والخامس، وقل أن نجد كتاباً من الكتب المعتبرة فى الأدب مما ألف فى حياته أو بعد موته لم يرد فيه اسمه - بكثرة مفسراً أو راوية أو شاعراً.

وألف ابن دريد طائفة كبيرة من الكتب يذكرها الجلال السيوطى ويذكر بعضها ابن تغرى بردى، وبعضها صاحب خزانة الأدب، وبعضها ياقوت، وهى:

الجمهرة في اللغة، ويقول عنه المسعودي وهو من الكتب المعتبرة في اللغة -
 الأمالي - اشتقاق أسماء القبائل - المجتبي - الملاحن - الوشاح - على حذو
 المحبر لابن حبيب - المقتبس - المقصور والممدود - الخيل الكبير - الخيل
 الصغير - غريب القرآن "لم يتم" - الأنواء - فعلت وأفعل - السلاح - المطر أدب
 الكاتب. على مثال كتاب ابن قتيبة، "ولم يجرده من المسودة فلم يخرج منه شيء"
 - زوار العرب - السرج واللجام - تقويم اللسان - المقصورة.

وكتابه المجتبي والوشاح يقول عنهما ابن خلكان: إنهما "صغيران كثيرا
 الفائدة مفيدان"، ولم يبق معروفا لنا من كتب ابن دريد هذه إلا شيء يسير أشهره
 المقصورة وكتاب الملاحن وهما مطبوعان، وفي دار الكتب المصرية بعض كتب
 مخطوطة لابن دريد، وقد ذكر عبد القادر المغربي كتب الجمهرة والسرج واللجام
 وكتاب الأنواء والمجتبي، ثم قال: "وهذه الكتب عندي والحمد لله والمنة". وهذا
 يدل على أن هذه الكتب كانت معروفة متداولة وأنها بقيت موجودة إلى عصر عبد
 القادر البغدادي - ١٠٣٠ هـ - ويذكر عبد القادر هذه الجملة عند ذكر بقية كتب ابن
 دريد.

ومع هذه المنزلة الكريمة التي نالها ابن دريد عند معاصريه وعند من خلفهم
 لم يكن بثقة عند طائفة من معاصريه لها خطرهما في الحكم والتقدير، قال أبو منصور
 الأزهرى في مقدمة كتاب التهذيب: "وممن ألف في زماننا الكتب فرمى بافتعال
 العربية وتوليد الألفاظ وإدخال ما ليس من كلام العرب في كلامها، أبو بكر محمد ابن
 دريد صاحب كتاب الجمهرة وكتاب اشتقاق الأسماء والملاحن، وسألت عنه إبراهيم
 بن عرفة، فلم يعبأ به ولم يوثقه في روايته، وقد تصفحت أنا كتابه الذي أعاره اسم
 الجمهرة فلم أقف، على معرفة ثاقبة، ولا قريحة جيدة" ويقول ابن خلكان: "سئل عنه
 الدارقطني - سأله حمزة بن يوسف فقال: تكلموا فيه، وقيل كان يتسامح في الرواية
 فيسند إلى كل واحد ما يخطر له" ويقول المسعودي في مروج الذهب: "وأورد
 أشياء في كتب اللغة لم توجد في كتب المتقدمين"، وكما طعن فيه بالانتحال
 والوضع: كذلك رمى بالسرفه في شعره وفي تأليفه، قال فيه شاعر معاصر له:

ابن دريد بقره	وفيه عى وشره
ويدعى من حمقه	وضع كتاب الجمهره
وهو كتاب العين	إلا أنه قد غيره ..

وقائل هذه الأبيات الثلاثة هو أبو عبد الله إبراهيم بن عرفة المحدث
النحوى المشهور بنفطويه، ولابن دريد عليهم جواب ظريف سنذكره، ويقول أبو
الفرج أنشدني عمى رحمه الله أبياتاً لابن دريد يمدح بها رجلاً من أهل البصرة:

يا من يقبل كف كل مخرق هذا ابن يحيى ليس بالمخراق
قبل أنامله فلسن أناملا لكنهن مفاتح الأرزاق

فقال: يا بنى هذا سرقه هو وابن الرومى جميعاً من إبراهيم بن العباس
يمدح الفضل ابن سهل:

فضل بن سهل يد نقاصر عنها الأمل
فباطنها للندى .. وظاهرها للقبل
وبسطتها للغنى .. وسطوتها للأجل
وسرقها ابن الرومى .. إلخ .

ويصف ابن دريد فى مقصوده مسيره إلى فارس ويتشوق إلى البصرة،
ويمدح الشاه ابن ميكال، وعدد أبياتها ٢٢٩ بيتاً. وأجود شروحها شرح السبتي
المعروف بابن هشام اللخمي المتوفى بعد سنة ٥٥٧هـ، وممن شرحها القزاز، وابن
خالويه النحوى المتوفى عام ٣٧٠هـ، والسيرافى المتوفى عام ٣٦٨هـ، وابن الصائغ
الدمشقى م ٧٢٠هـ، والتبريزى م ٥٠٢هـ، والصغانى م ٦٥٠هـ، والسخاوى المتوفى بعد
سنة ١٠٢٥هـ.

وفى كتاب الأنساب للعلامة الصحارى العتبى أن لابن دريد قصائد فى وقعة
الروضة^(١) المشهورة بعمان فى عهد الإمام راشد بن النضر والعلامة موسى بن موسى
ابن على مرجع هذا الإمام ورئيس الحل والعقد لديه - تبين تلك القصائد مقدار صلة
ابن دريد بقومه والتعلق بأموورهم، مما يدلنا على أنه لم يكن بعيد النشأة عنهم؛ ولا
مباين النزعة لهم، وما مبارحته لبلاد عمان إلا فى سبيل العلم، حيث كان من صفات
العلماء الفحول الخاصة الشغف بىث العلم والدخول فى ميادينهم، ولا سيما ما هم
ممتازون به متفوقون على الأقران فيه.

وفى الأنساب قصيدتان من قصائد ابن دريد، وهما على جانب من
التحريف عظيم، نقتطف من واحدة منهما بعض أبيات لبيان اتصاله بقومه وارتباطه
بأرومته الأزديّة العمانية .. مطلعها:

(١) الروضة موضع قرب بلد تنوف من جهة الغرب بين نزوى عاصمة الإمامة الجبل الأخضر بجبوحه عمان. وكانت
الوقعة بين العتبات واليحمد وفراهد وبنى فم وبين غيرها من قبائل عمان.

نبيه نابيه وخطب جليل
يا بنى مالك بن فهم قتيلا
أى طرف سما إليكم بكيد
أقليل عزيزكم فستقولوا
أم ضعاف عن ثأركم فتلدوا
أم عبيد لراشد ولموسى
ليس يسعى لها امرؤ وسدته
وفراهيد الذى على الرو
وحماة الزمان من آل ده
وبنو العم من جديد خصوصا
وبنو ظالم يدى ولساني
يا بنى مالك بن فهم قتيلا
أى يوم لبأس موسى بن موسى
يوم لا ينفع اتصال بقربى
فلحا الله مانع الروع منا

بل رزايلهن عبء ثقيل
لا يباريه فى الأنام قتيلا
لم تردوه وهو عنكم كليل
إننا فى الوغى نغير قليل
مشرب الذل والمضيف ذليل
أى هذى الأضياف أنتم فقولوا^(١)
معصمها الوهانة العطبول
ضة من خيلهم دمء تسيل
نن ان إذا يبرز البرى والحجول
وعمادى فى الشدة المأمول
وحسامى المهند المصقول
بدهاريس غرهن اللسيول
ذاك يوم لو يعلمون طويل
يوم لا العذر عنده مقبول
حيث يستصحب الضليل الضليل

ومكانته فى الشعر يومئذ لا تقل عن مكانته العلمية، فله المقصورة المشهورة

التي مطلعها:

أما ترى رأسى حاكى لونه طرة صبح تحت أذيال الدجى

تبارى شرحها أكابر العلماء وسارت بها الركبان فى سائر النوادر العلمية..
قيل إنها احتوت على أكثر المقصور فى اللغة العربية. وكان مدح بها الشاه بن
ميكائيل وولديه من أمراء فارس، وكان ذا منزلة لديهم حتى تقلد ديوان فارس،
وكانت الكتب منه تصدر عن رأيه، ولا ينفذ أمر إلا بعد توقيعه، ونال ثروة عظيمة من
ابن ميكائيل، وانتقل إلى بغداد بعد عزلها عن ولاية فارس وانتقالها إلى خراسان،
وكان انتقال ابن دريد إلى بغداد فى عهد المقتدر بالله، ونزل على على بن محمد
الخواارى فأكرم جواره ورفع مكانه، وعرف خبره الإمام المقتدر ومكانته من العلم
فأجرى عليه خمسين ديناراً مرتباً شهرياً، ولم تنزل جارية عليه إلى أن مات. عرف
بالسخاء والكرم حتى لا يمك درهماً مع كثرة استفادته.. ولابن دريد خاصة امتياز
بها وهى قوة الحفظ حتى لم يدانه أحد فيها، وكان يقرأ عليه دواوين العرب فيسبق

(١) راشد هو الإمام راشد بن النضر، وموسى هو العلامة موسى بن موسى ابن على.

إلى إتمامها من حفظه، وكان واسع الرواية، قال بعض العلماء: ابن دريد أعلم الشعراء وأشهر العلماء .. وتأليفه كثيرة والمشهور منها بضعة عشر كتاباً سبق ذكرها وهي:

أدب الكاتب، والاشتقاق في تفسير الأعلام وأسماء القبائل، والأنواء، والجمهرة من الكتب المعتبرة في اللغة، والخيل الكبير، والخيل الصغير، وزوار العرب، والسرج واللجام، والسلاح، وغريب القرآن لم يكمله، وكتاب اللغات، والمجتنى في شرح أحاديث المصطفى، والمقتبس، والمقتنى، والملاحن، والوشاح صغير وهو مفيد جداً.

وقد أخذ عن أبي حاتم السجستاني، والرياشي، وعبد الرحمن بن عبد الله المعروف بابن أخي الأصمعي، وأبي عثمان سعيد بن هارون الأشناداني صاحب كتاب المعاني، وغيرهم .. وأخذ عنه كثير منهم أبو سعيد السيرافي، وأبو عبيد الله المرزباني، وأبو علي القالي صاحب كتاب الأمالي، وروى أبو علي أن ابن دريد أصيب بالفالج في آخر عمره فتداوى منه فشفاه الله ثم عاوده، ومع ذلك كان ثابت الذهن كامل العقل يرد فيما يسأل عنه ردًا صحيحًا، قال: وكنت أسأله شكوكي في اللغة وهو بهذه الحال، فيرد بأسرع من النفس بالصواب، قال: وآخر شيء سألته عنه جاوبني بأن قال لي: يا بني حال الجريض دون القريض، وكان هذا الكلام آخر ما سمعته منه، وكان كثيرًا ما يتمثل بقوله:

فواحزني أن لا حياة لذيذة ولا عمل يرضى به الله صالح

ذكر العتبي عن العتكي أنه قال: دخلت على ابن دريد قبل موته فسمعتة يقول: ولدت ليلة الجمعة في أحد الربيعين سنة خمس وعشرين ومائتين .. ومات يوم الأربعاء لثمان عشرة ليلة خلت من شعبان سنة ثلاثمائة واحد وعشرين - وهي السنة التي خلع فيها القاهر بالله أبو منصور محمد المعتضد، وبويع فيها الراضي بالله أبو العباس ابن المقتدر بالله - وكان موت ابن دريد وموت أبي هاشم عبد السلام بن أبي علي الجبائي متكلم المعتزلة في يوم واحد، فقال الناس: اليوم مات علم اللغة وعلم الكلام. ويكون عمره سبعة وتسعين سنة. وقيل عاش ثمانيا وتسعين، وموته ببغداد ودفن بمقبرة العباسية من الجانب الشرقي في ظهر سوق السلاح بالقرب من الشارع الأعظم أو بسواها .. ورثاه البرمكي ..

وقد جمع لابن دريد علامة اللغة الشيخ محمود الشنقيطي كثيرًا من مفردات المسائل اللغوية وطرائفها، وسماها: "أخبار ابن دريد"، وهي موجودة في مكتبته

بالكتبخانة السلطانية. سئل الدارقطني عن ابن دريد أثقة هو أم لا؟ فقال : تكلموا فيه، وزعم بعض أنه كان يتسامح في الرواية يسند إلى كل واحد ما يخطر له، واتهموه باللهو والخمر، حتى روي عنه في هذا أشياء : الله أعلم بصحتها؛ ولم أر لمن ذكره من أصحابنا أنه نسب له شيئاً من تلك التهم.

أبو القاسم الأمدى

المتوفى عام ٣٧١هـ

-١-

هو أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى الأمدى الأصل، البصرى المنشأ، ولد بالبصرة فلما بلغ سن الشباب توجه إلى بغداد واختلف إلى مجالس العلماء يتلقى عنهم اللغة والنحو والأدب، ثم عاد بعد حين إلى البصرة كاتباً للقضاة من بني عبد الواحد، ثم برز في الأدب وطارت له شهرة واسعة فيه، وانتهت إليه رواية الشعر القديم والأخبار في آخر عمره، وقد ألف كتباً كثيرة في اللغة والنقد ذكرها ياقوت في الترجمة التي عقدها له، وكان فوق ذلك شاعراً مجيداً رويت له مقاطعات شعرية كثيرة، وتوفى أخيراً بالبصرة سنة ٣٧١هـ (ص ٧٥ - ٩٣ ج ٨ معجم الأدباء - بغية الوعاة).

ومن مؤلفات الأمدى : كتاب المختلف والمؤتلف في أسماء الشعراء؛ وكتاب تفضيل امرئ القيس على الجاهليين، وكتاب معاني شعر البحترى، وكتاب الرد على ابن عمار فيما خطأ فيه أبا تمام، وكتاب فرق بين الخاص والمشارك من معاني الشعر. وكتاب تبیین غلط قدامة بن جعفر في كتابه نقد الشعر، وكتاب ما في عيار الشعر لابن طباطبا من الخطأ. على أن أهم كتبه هو كتاب الموازنة بين أبي تمام والبحتري، وهو موضوع دراستنا:

ظهر الأمدى في القرن الرابع والدولة الإسلامية واسعة الرقعة، والثقافة العربية بعيدة المدى، قد هضمت شتى الثقافات وأحالتها غذاء عقلياً سانعاً، فدرس الأمدى وبحث وثقف عقله وهذب نفسه بهذه الثقافة العربية في روحها، المتنوعة في ألوانها .. والأمدى كما نراه في موازنته ذو عقل بعيد وفكر ناضج وثقافة واسعة. وهو لا يسير وراء العلماء والأدباء، وإنما يجيء في الطليعة مجدداً لا مقلداً، ومتنبئاً لا تابعاً، سواء في اللغة أم الأدب أم النقد.

وهو من الذين يؤثرون في الأدب الروح الشعرية المطبوعة التي تميل إلى إثارة اللفظ والأسلوب، فهو لا يرى الشعر إلا صفة تأليف وعذوبة لفظ وجمال نظم، وهو لا يرى هذا الرأي في الشعر وحده، بل يجعل البلاغة كذلك قاصرة على جمال اللفظ والأسلوب وحدهما وموافقتهما للنهج العربي في صفة التأليف وجودته، أما المعاني وسموها والحكمة الإنسانية وروعيتها، والخيال وإغراقه، فذلك الترف الزائد عن الحاجة، والذي إن ألم به الشاعر أو الخطيب فقد زاد في حسن صنعه وبهائها، وإلا فالصنعة باقية قائمة بنفسها ومستغنية عما سواها^(١).

وهو في هذا الاتجاه الأدبي تابع للجاحظ وأضرابه ممن يؤثرون الروح الشعرية المطبوعة على المعاني الشعرية المبتدعة؛ ويقولون "عليك أن تجتنب السوقي والوحشي، ولا تجعل همك في تهذيب الألفاظ وشغلك في التخلص إلى غرائب المعاني، وفي الاقتصاد بلاغ"^(٢)، ولكنه يباين قدامة الذي ينادى بضرورة العناية بالمعنى كما نعى باللفظ، ويجاهر بأن البلاغة في شينين. معنى مبتدع، ونظم ساحر. وهو لذلك يجعل مادة الشعر المعاني (ص ١٤ س ١٦ نقد الشعر). أما الأمدى فقد جعل مادته هي الألفاظ (ص ١٨٣ س ٧ موازنة).

وقد كان هذا الاتجاه الأدبي الذي اتجهه الأمدى سببا فيما نراه في موازنته من مظاهر إثارة البحترى وتفضيله والإشادة بشعره مما سنقص عليك نبأه.

ونقد الأمدى لشعر الطائيين ليس نقدا للروح الشعرية بما فيها من جوانب شتى ومظاهر متنوعة وآراء ذهب إليها الشاعر، وشخصية فرضت نفسها على إنتاجه. وحياء تلون هذا الإنتاج بلونها، وعقلية نبع ذلك الشعر من يبايعها، واتجاهات جديدة اتجه إليها فنه. ونعمات جديدة أضافها إلى التراث الشعري، وإنما هو نقد الفكرة الشعرية المجردة، وأسلوبها الشعري الذي ظهرت فيه، إذا كانتا بعيدتين عن النهج العربي، فهو تحكيم للنهج العربي في أسلوب الشاعرين وألفاظهما ومعانيهما، فيرد منها ما يردده الطبع العربي، ويقبل ما يقبله، مع عناية باستقصاء سرفاتهما الشعرية الكثيرة. فهو نقد عقلي ولغوي أكثر منه نقداً أدبياً شعرياً. على أن الأمدى لا يكتفى في النقد بالناحية السلبية فقط، بل كثيرا ما يتجه اتجاهها إيجابيا جميلا. فيأتي بالأبيات التي وقع فيها الخطأ - أيا كان نوعه - مصححة أبدع تصحيح.

^(١) ١٨٢ و ١٨٣ موازنة.
^(٢) ١٧٦ ح ١ بيان.

وتعطينا الصورة السابقة التي رسمناها للآمدى فكرة عن كتابه "الموازنة"، ولكن لا ضير علينا أن ننقل من هذا الإجمال إلى البحث التفصيلي التحليلي للكتاب من جميع نواحيه.

ألفت الموازنة في فترات متقطعة، يدلنا على ذلك عدم تساوق كل جزء من أجزائها في التأليف مع الذى يليه، وأن روح الآمدى مختلفة في ثناياه، فهو يذكر في آخر كل فصل من كتابه أنه سيضيف إلى البحث ما سيثير عليه من أخطاء أو سرقات، وسيلحقه بما كتب. وهو حين يقرر في أول كتابه (ص ٢٣ موازنة) أنه سيوازن بين شعر الشعراء فيما يتفقان فيه في الموضوع والوزن والقافية وإعرابها، يعود فيجعل الموضوع فقط هو أساس الموازنة (ص ١٨٤ موازنة). وهو يكرر كثيراً من آرائه ونقده؛ فبيت ذى الرمة:

أنخت بها الوجناء لا من سامة لثنتين بين اثنين : جاء وذهب

يشرحه في ص ١٦٣ و ١٨٦ . وبيت البحترى :

يخفى الزجاجة لونها فكأنها فى الكف قائمة بغير إناء

ينقده فى ص ١٤ و ١٦٤، وبيت أبى تمام: طلل الجميع لقد عفوت حميدا.
ينقده فى ص ٩٦ و ١٩١، إلى غير ذلك من التكرار الكثير: فشخصية الآمدى العلمية لم تستطع جعل الموازنة وحدة تأليفية بارزة فى روحها التأليفية، ويصح لنا أن نقول: لقد جاء على ذلك أغلب التأليف العربية، فلا داعى للوم الآمدى وحده، والنسخة التى بين أيدينا والتى طبعت فى مصر ناقصة، فليس فيها من الموازنة بين الشعراء إلا الموازنة فى معنى واحد من معانيهما، وهو بكاء الديار وما يتبعه، وليس فيها ذكر لما انفرد به كل من الشعراء من المعانى، ولا ذكر لما وقع فى شعريهما من التشبيه والأمثال، مع أن الآمدى نفسه ذكر فى موازنته أنه سيلم بجميع ذلك (ص ٢٣ موازنة) على أن عبد القاهر الجرجانى أورد فى أسرار بلاعه جملا من الموازنة لا نراها فى النسخة المطبوعة (ص ٣٢٩ أسرار)، وعلى أن ياقوت ذكر أن الكتاب فى عشرة أجزاء، وليس الذى بين أيدينا يبلغ هذا المقدار (ص ٨٧ ج ٨ معجم الأدباء).

والموازنة مع ما أخذنا عليه من هنات ضئيلة فى التأليف من أجل الكتب التى ظهرت فى النقد والموازنة: ولقد وضع هذا الكتاب أساس نقد الشعر والموازنة بين الشعراء، وهو بحق من أمهات كتب النقد الأدبى وأصوله: وهو أيضاً مصدر من

مصادر البيان العربي ومرجع من مراجعه، وقد اعتمد عليه علماء البيان كما سنفصل ذلك إن شاء الله. ونحن حين نقول إنه مرجع من مراجع علم البيان لا نقول إنه كتاب بيان وبلاغة كما زعم ابن الأثير في مثله السائر فأخطأ في ذلك ثم بنى على هذا الخطأ نقده للموازنة بأن صاحبها أهمل كثيراً من مباحث علم البيان لم يستوف بحثاً أو لم يذكرها أصلاً (ص ٢ مثل سائر)، فالموازنة إنما هو نقد أدبي، وموازنة بين شاعرين، وليس بحثاً في البيان العربي وبلاغته ..

والكتاب مقسم إلى خمسة أقسام، وكل قسم يسميه المؤلف جزءاً :

١- فالجزء الأول (من ١ - ٦٠)، ويورد فيه الآمدي آراء النقاد في شعر أبي تمام والبحترى، ويستقصى رأى المتعصبين لهذا أو ذاك، ويطلق لهذا الفريق الحرية في مجادلة ذلك الفريق، ثم يحصى فيه في إفاضة سرقات أبي تمام الشعرية:

٢- والجزء الثاني من (٦٠ - ١١١)، وقد ذكر فيه أخطاء أبي تمام في المعاني والألفاظ والأساليب :

٣- والجزء الثالث يذكر فيه قبيح استعاراته ومستهجن جناسه ومستكره طباقه، وما ورد في شعره من سوء النظم وتعقيد التركيب ووحشى الألفاظ مما خلا من بهاء الرونق وعذوبة المسمع، ومما حمل التعسف على ديباجته، وظهرت فجاجة التصنع في أعطافه، ويذكر ما وقع فيه من كثرة الزخافات التي ضيعت موسيقى أوزانه الشعرية، حتى قال فيه دعبل : إن كلامه بالخطب والكلام المنشور أشبه منه بالشعر الموزون (ص ١١١ - ١٣١).

٤- والجزء الرابع يحلل فيه بإيجاز عيوب شعر البحترى مكتفياً من ذلك ببيان بعض سرقاته مع نفي الكثير منها عنه بدعوى أن الاحتذاء كان في معان عامة لا خاصة حتى ينسب إليه السرقة فيها، ويذكر قليلاً من أخطائه في المعاني مزيفاً بعضها، وبيتاً واحداً مما تعسف فيه النظم وعقد فيه التركيب، قائلاً إنه لا يعرف له سواه، وقليلاً مما جازت به رديء التجنيس أو من اضطراب الوزن واختلاله (ص ١٣١ - ١٧٦):

٥- والجزء الخامس يوازن فيه بين الطائيين في المعاني التي اتفق موضوعها في شعرهما، ويبدأ تلك الموازنة بكلمة يبين فيها صعوبة نقد الشعر، وأن لهذا الميدان أبطاله ممرّ عنوا نكثرة النظر في الشعر والارتياض فيه وطول الملابس له مع الطبع المطيع والملكات المواتية، وأنه يجب أن يكون إلى هؤلاء المرجع

في نقد الشعر وصناعته وهو متأثر في هذا الرأي بان سلام الجمحي ومقتبس منه (راجع طبقات الشعراء لابن سلام ص ٣ والعمدة ج ١ ص ٩٩، والموازنة ص ١٧٨ س ٥)، ثم يبين الآمدي اتجاهه الأدبي الذي تأثر به في الموازنة وهو الاتجاه الذي جعله لا يرى بلاغة الشعر إلا في نظمه وأسلوبه وصحة طبعه، ذاكراً أن الذين قدموا البحتری إنما قدموه لأن له من ذلك ما ليس لسواه وإن كانوا لا ينكرون على أبي تمام إجادته في المعاني وكثرة استنباطه لها وإغرابه فيها ولا مكانه البارز في حومتها، ولكنهم يقولون إن اهتمامه بمعانيه أكثر من اهتمامه بتقديم ألفاظه مع كثرة غرامه بالجناس والطباق والاستعارة والمقابلة وسواها من ألوان البديع مما ذهب بماء شعره فصار غير متشابه الأطراف ولا متألف الروح الشعرية، فهم يسلمون له - كما يسلم له أنصاره - ضالة الشعراء جميعاً من لطف المعاني وعمقها، وتنوعها، وبديع الوصف وجودة التشبيه والتمثيل، وسمو الحكمة وإغراق الخيال، وهي التي قدم بها امرؤ القيس في الجاهلية: ألا تبرى عمارة بن عقيل ينشد رائيته في الواثق:

عرف الديار رسومها قفر لعبت بها الأرواح والقطر

فلما أتمها قيل له : ما سمعنا أحسن من هذه الرائية، فقال : والله لقد عصفت رائية طائيكم بكل شعر في لحنها، أفلا تسمعون:

الحق أبلج والسيوف عواري فحذار من أسد العرين حذار

وأنشدها رجل في المجلس فلما أتمها قال عمارة : "لله دره لقد وجد ما أضلته الشعراء حتى كأنه كان مخبوءاً له:" ولكن خصوم أبي تمام يستكثرون عليه من أجل ذلك أن يسمى شاعراً ويقولون له: فلتكن إن شئت حكيمًا، ولندعك إن أردت فيلسوفًا، أما الشاعر فالبحتری : وبفيض الآمدي في الإشادة بمذهب البحتری وأنه الشعر وأنه السحر وأنه روعة البلاغة وسحر البيان، ويقر أن ليس الشعر ولا البلاغة إلا نظمًا وأسلوبًا، وأن أبرز عناصرهما النظم والأسلوب. ثم ينتقل بعد ذلك إلى الموازنة بين الشاعرين في بكاء الديار والوقوف عليها ووصف الدمن والأطلال وما إليها وما تبعته من جوى في صدور الواقفين بها والمسلمين عليها. وفي الحنين إلى الربوع والبكاء لفراقها، ويستمر في هذه الموازنة مفضلًا هذا أو ذاك مكافئًا بينهما حسب جودة كل شاعر، ويشرح كل ذلك في إفاضة بيان وقوة عارضة وحسن نقد وعدالة حكومة .. وإلى هنا ينتهي الكتاب . وهذا الجزء من ١٧٦ - ٢٠٨ :

والآمدى فى معظم ما كتب كان ناقدًا محيطًا بأسرار اللغة ودقائق البيان، فهو يقف فى نقده عند البيت فى دقة ملاحظة وسعة اطلاع، إذا وجد فيه خطأ فى لفظ أو فسادا فى تركيب أو إحالة فى معنى أو بعدا عن النهج المألوف، مما سنفضله بعد حين، وإن كان قد ذلل له هذه الأبحاث من سبقه من النقاد والعلماء.

رأى ياقوت فى الموازنة ونقده لها: يقول ياقوت فى معجم الأدباء ما نصه: كتاب الموازنة بين الطائيين فى عشرة أجزاء وهو كتاب حسن وإن كان قد عيب عليه فى مواضع منه ونسبه إلى الميل مع البحتري فيما أورده والتعصب على أبى تمام فيما ذكره، والناس بعد فيه على فريقين: فرقة قالت برأيه حسب رأيهم فى البحتري وغلبة حبهم لشعره، وطائفة أسرفت فى التقيح لتعصبه وأنه جد واجتهد فى طمس محاسن أبى تمام وتزيين مردول البحتري، ولعمري إن الأمر كذلك وحسبك أنه بلغ فى كتابه إلى قول أبى تمام - أصم بك الناعى وإن كان أسمعاً - فشرع فى إقامة البراهين على تزيف هذا الجوهر الثمين^(١)، ولو أنصف وقال فى كل واحد بقدر فضائله لكان فى محاسن البحتري كفاية عن التعصب بالوضع من أبى تمام^(٢) ونحن نرى أن ياقوت مصيب فى ذلك إلى حد ما، وسنفصل ذلك فى كلامنا.

بعض ما أخذنا على الموازنة:

١ - انتصاره لعلماء الأدب، المتعصبين للقديم المنكرين فضل المحدثين، ودفاعه عنهم، كما فعل مع الأصمعى فيما روى عنه من أن إسحاق الموصلى أنشده:

هل إلى نظرة إليك سبيل فيروى الصدا ويشفى الغليل
إن ما قل منك يكثر عندي وكثير ممن تحب القليل

فقال لمن تشدنى، فقال لبعض الأعراب، فقال هذا والله هو الديباج الحسروانى، فقال إسحاق إنهما ليلتئما فقال الأصمعى لاجرم والله إن أثر الصفة والتكلف بين عليهما.

ودفاع الآمدى عنه دفاع ضعيف متكلف، وهل يسوغ لمنصف أن يقول إن ذلك غير منكر من الأصمعى وابن الأعرابى لأن "الذى يورده الأعرابى وهو محتذ على غير مثال أجلى فى النفوس وأشهى إلى الأسماع وأحق بالزيادة والاستجاده مما يورد سواه على الأمثلة، كما يحاول الآمدى أن يلقي ذلك فى روعنا، ولو أنه

(١) لا يوجد هذا بالنسخة المطبوعة.

(٢) ٨٧ و ٨٨ معجم ج ٨.

اعتذر لهما ولأمثالهما بأنهم كانوا حلة الرواة وشيوخ اللغة والحفاظ على العربية وأنه لا يجدر بهم وهم في منزلتهم العلمية الكبيرة أن يزلوا عن شممهم وكبريانهم ويرووا شعر المحدثين الناشئين أو يسيروا شعرهم في مناهج البحث العلمي، نعم لو قال الآمدي ذلك وذهب إليه لوجدنا له عذراً مقبولاً معقولاً. ولقد عرض الصولي لهذه الخصومة في كتابه (١٧٥ و ١٧٦ أخبار أبي تمام)، وقال ابن المعتز: إنها عيب قبيح ومن فعل ذلك فإنما غض من نفسه ثم جعل هذا ناشئاً عن جهل بنقد الشعر وتمييزه. ولكن صاحب الوساطة عرض لهذا التحامل الظاهر وردّه إلى سببه الصحيح وهو تعصب علماء اللغة ورواتها للشعر القديم وإنكارهم لفضل المحدثين وشعرهم (٤٩ و ٥٠ وساطة).

٢- : إيثاره للبحترى وجنوحه إلى تقديمه وانتصاره له ويتجلى ذلك في ثنايا كتابه في مظاهر شتى، فهو حيناً يذهب إلى أن جيد البحتري أكثر من جيد أبي تمام. وكلما أمعنت النظر في ديوان البحتري تنبّهت إلى كثير من جيده الذي غاب عنك قبل حسنه، بينما لا تظفر إذا أمعنت النظر في ديوان أبي تمام من جيد إلا بالقليل (٢٢ موازنة)، وهو حين ينقد البحتري يمسّه برفق ويقف في كثير من الأحيان موقف المدافع دونه، أما إذا تعرض لأبي تمام قبض على أخطائه بيد لا تلين، يزيّف كثيراً من معانيه ويظهر مجافاتها للذوق العربي القديم، ويبهرج كثيراً من أساليبه التي لا يسيغها النهج العربي القويم، ثم هو يظهر نصرته للذين رأوا البلاغة سحر نظم وجمال سبك ويرى بعد ذلك أن الشاعر البحتري، أما أبو تمام وأضراجه مثل المتنبي فهم حكماء، وهو يدفع كثيراً من سرقات البحتري التي أخذها من أبي تمام، وينكر أن تكون سرقة بحجة أن معانيها عامية لا خاصة.

ونحن لا يمكننا - ولو سلمنا بأن هذه معان عامية - أن ننكر احتذاء البحتري الظاهر - في هذه المثل وسواها مما يكثر تعداده - لأبي تمام: ولا نستسغ أن نقول إنه لم ينهل من المنهل الذي شرعه أبو تمام ولم يشرب من عبابه ولا أن نقول إنه لم يكن في ذلك عيالا على أبي تمام وتابعا له، ثم ما للآمدي رضي الله عنه - لا يترك مؤاخذاً أبي تمام على سرقاته في المعاني العامية - كما فعل مع البحتري - مع أن أبا تمام في كثير مما أخذ يستبد بشرف المعنى لجودة نظمه وحسن تأتبه وارتفاعه بالزيادة على ما أخذه والتأنق في صوغه .. أفليس قول أبي تمام:

أحلى الرجال من النساء موقعا .. من كان أشبههم بهن خدودا - الذى زعم أنه مأخوذ من قول الأعشى: وأرى الغوانى لا يواصلن أمرا: فقد الشباب وقد يصلن الأمردا.

أليس هذا اشتراكا فى معنى عام فلم يعده سرقة؟. وأليس قوله: "ما الحب إلا للحبيب الأول" الذى قال الأمدى إنه مأخوذ من قول كثير: "إذا وصلتنا خلة كى نزيلها .. أينا وقلنا الجاجبية أول". أليس هذا معنى عاميا مشتركا وهذا يدفع أن يكون سرقة. وهكذا شأن كثير مما أخذه الأمدى على أبى تمام فيما يأخذه من المعانى؟

وكيف وقد جرى حكم نقاد الشعر وجهابذة المعانى على أن الشاعر إذا سرق معنى فأداه بأبلغ مما أداه به صاحبه انفرد به ولم يعد ذلك عليه عيبا، وكان صاحب هذه الزيادة بالتفضيل أحق وبالتزكية أولى (١٥١ وساطة). ولعمري لقد كان دعبل يضع من شأن أبى تمام فقال مرة فى مجلس: إنه كان يتبع معانى فيأخذها فطلد منه رجل فى المجلس أن يذكر مثالا لذلك: فقال دعبل لقد قلت: شفيقتك فاشكر فى الحوائج إنه .. يصونك عن مكروهاها وهو يخلق"، فأخذه أبو تمام وقال: وإذا امرؤ أسدى إليك صنعة: من جاهه فكأنها من ماله". فقال الرجل أحسن والله، فقال دعبل كذبت قبحك الله، فقال الرجل: والله لئن كان أخذهذا المعنى وتبعته فما أحسنت وإن كان أخذه منك فلقد أجاده فصار به أولى منك؛ فغضب دعبل وقام.

٣- تحامل الأمدى فى كتابه على أبى تمام، وذلك ظاهر كما أسلفنا من روح الموازنة واتجاهها، وقد خضع الرجل فى ذلك لحكم ثقافته الأدبية القديمة العربية الخالصة .. على أن ذلك ليس تعصبا أعمى على أبى تمام كما يرى كثير من الناس. وكما ذهب إليه صاحب معجم الأدباء وسواه، إنما هو رأى رآه الأمدى، ومذهب ذهب إليه فأيده ودافع عنه للحق لا للعصبية، وكان عادلا فى مواضع كثيرة من حكومته .. منصفاً أكثر من كثير ممن سواه، مقراً بفضل أبى تمام غير منكر له.

٤- يقبل الأمدى ما وضعه دعبل على أبى تمام، مع معرفته بحقيقة موقفه منه، ومع ظهور تحامله عليه، فهو مثلاً يتبع دعبل فى أن قصيدة أبى تمام: كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

مأخوذة من قول أبي سلمى المزني في رثاء ذفافة :

أبعد أبي العباس يستعيب الدهر
ألا أيها الناعي ذفافة ذا السدى
ولا مطرت أرضاً سماء ولا جرت
كأن بنى القعقاع يوم وفاته
توفيت الآمال بعد ذفافة
وما كان إلا مال من قل ماله
وما بعده للدهر عتبي ولا عذر
تعست وشلت من أناملك العشر
نجوم ولا لذت لشاربها الخمر
نجوم سماء خر من بينها البدر
وأصبح في شغل عن السفر السفر
وذخراً لمن أمسى وليس له ذخـر

إلى آخر هذه الأبيات، مع ظهور التفاوت في خيال هذه الأبيات، والتباين بين معانيها القريبة والبعيدة، والحضرية والبدوية، مما ينبىء عن وضع واختلاق أو جمع وتلفيق. ونحن لن نذهب إلا أن دعبلأ قد اختلق هذه الرواية ليغض من شأن أبي تمام، ولكننا نرى ما رأى الحسن بن وهب من قبل من أن لأبي سلمى مرثية رائية من الطويل، ولكن دعبلأ خلط أبياتها بأبيات من قصيدة الطائي لينفى عن الرجل أن يكون هو المستبد بهذا الإحسان، والظافر بشرف تلك الروعة، وفضيلة ذلك السحر الساحر والشعر الشاعر.

٥- يحكم الأمدى في النقد عاطفته الدينية تارة وعقله تارة أخرى، تاركا ذوقه الأدبي يتأثر بهذه الحكومة الجائرة، وعقله يفسد، على ذوقه حكمه. ويتجلى أثر عاطفته الدينية في كتابه في نقده بيت أبي تمام :

سأحمد نصراً ما حييت وإننى
لأعلم أن قد جل نصر عن الحمد

حيث أخذ على البيت^(١) أن الشاعر رفع فيه ممدوحه عن الحمد الذى ندب الله عباده إليه بأن يذكروه به وينسبوه إليه. كما يتجلى جور عقله على ذوقه في نقده بيت أبي تمام :

من حرقة أطلقتها فرقة أسرت
قلبا، ومن عدل فى نحره غزل

فهو لا يستسيغ هذا البيت لا لظهور أثر كلفة الصنعة عليه وإضاعة البديع ماءه ورونقه، ولكن لأن الفرقة لا تأسر القلب إنما بأسره الشوق. وعقل الأمدى البعيد الأفق يجور فى حكومته على العاطفة الشعرية والمعنى الشعرى بهذا النقد العقلى البعيد، أفينكر الأمدى أن الفرقة تدع القلب الوفى فى حبه أشد لوعة وأكثر هلعاً من الشوق والحبيب حاضر والخليل مقيم؟ وهل يجدر بذلك المعنى شىء سوى كلمة الأسر

(١) موازنة.

وأن يقع القلب في إسار الفراق وفي لظى الحزن وسعير الذكرى ووثاق اليأس
والرجاء؟ وكذلك ينقد الآمدي بيت أبي تمام:
ورحب صدر لو أن الأرض واسعة كوسعه لم تضق عن أهلها بلد

نقدا ضئيلاً، ومن ناحية غير أدبية بل عقلية محضة، يقول الآمدي ما
خلاصته: "إن كل بلد يضيق بأهله وليس ضيقه من جهة ضيق الأرض، إنما ذلك على
حسب ما أدى إليه الاجتهاد والاختيار ممن أسس كل بلدة ومصر كل مصر، وأيضاً
فإن الجزء من الأرض هو ما يكون فيه من الحيوان والنبات، ومقداره على ما يقول
علماء الهندسة الربع من الأرض وأقل من الربع، والمسكون من جملة ذلك لعله لا
يكون جزاء من ألف جزء من ذلك، فما معنى جعله ضيق البلدان الضيقة إنما هو من
أجل ضيق الأرض؟!".

ولعمري لقد أسرف الآمدي في إخراج البيت من دنيا الأدب، إلى عالم
الجغرافيا والهندسة، وعذره في ذلك غير مقبول.

٦- ينقد الآمدي بيت أبي تمام:

إلى المفدى أبى يزيد الذى يضل غمر الملوك فى ثمده

وهو من المنسرح، فيقول: إن أبا تمام أفسد البيت بكثرة الزحاف
والصواب أن الذى يؤخذ على البيت شيء آخر هو عدم طى عروض هذا البيت مع
وجوب ذلك فى المنسرح، لا كثرة الزحاف لعدم وجوده فى البيت^(١).

هذه هي بعض المآخذ التي نأخذها على الآمدي.

ولا شك في تأثير الآمدي بآراء النقاد قبله، فهو يعتمد على آرائهم ويستدل
بحكومتهم في النقد، وهو يروى الكثير عنهم في كل صفحة من صفحات الكتاب وكل
موضوع من موضوعاته؛ نقل عن الأصمعي وعن ابن الأعرابي وأستاذهما أبي عمرو
بن العلاء، ونقل عن ابن سلام وابن قتيبة وسواهما من أئمة الأدب وعلماء اللغة،
وهل هذه الانتقادات الكثيرة التي شحنت بها الكتاب إلا صورة لآراء كثير من النقاد
التي جمعها الآمدي في موازنته؟ فأصول كتب الموازنة ترجع إلى نقاد القرن
الثالث^(٢) ومؤلفيه، وقد صرح الآمدي بما يدل على ذلك في أكثر من موضع من
كتابه: وفضل الآمدي إنما هو في تدوينها وتنسيقها وإضافة آراء معاصريه إليها،

(١) راجع ص ١٣٠ موازنة.

(٢) النقد الأدبي لظه إبراهيم.

وتدبيجها بكثير من آرائه هو، وتعليل ما لم يعلل، فقد هضمت عقلية الرجل كل ذلك فرتبته وأحسنت جمعه والاستدلال به، والزيادة عليه في التحليل والتعليل، ولذلك قيمة كبيرة، لاسيما أن كتب النقد في القرن الثالث قد فقد أكثرها.

ولا شك أيضاً في أن الآمدي فيما سار عليه من مناهج في النقد والموازنة قد تأثر باتجاهات النقاد قبله ومناهجهم فيما ينقدون، وهل كان نقد النقاد قبل الآمدي إلا تحكيماً للنهج العربي في نثر الأديب ونظم الشاعر؟ وهل كان ابن العلاء وخلف وحماد والأصمعي وابن الأعرابي وسواهم من الأدباء والنقاد يميزون حيد الشعر من رديئه إلا بعرضه على ميزان الطبع العربي وتحكيم الأسلوب العربي فيما ينقدون؟ وكذلك فعل الآمدي، فقد رجع إلى اللغة العربية فجعلها كل شيء أو أهم شيء في النقد، فهو ينقد شعر أبي تمام وينقد البحترى بتحكيم النهج العربي في شعر الشعارين، وتحكيم الذوق العربي في كلامهما، والأساليب العربية في أساليبهما الشعرية، فيرد ما ترده ويقبل ما تقبله، فللعرب طريق خاص فيما ينطقون به من أساليب وتراكيب ونظم، وفيما يتكلمون به من أفكار ومعان، وخيالات، وفيما ينظمون فيه شعرهم من أوزان، ولهم نهج خاص في مجازاتهم وتشبيهااتهم واستعاراتهم وتمثيلاتهم، وفيما يتفننون فيه من مقابلة أو طباق أو جناس أو سجع إلى غير ذلك، وذلك النهج العربي الخاص هو ما يجب على الشاعر أن يلتفت إليه ويسترشد به ويحتذى حدوه وينظم شعره على مثاله، ثم هو ميزان النقد وأساسه، والناقد يحكم ذلك النهج الخاص فيما ينقد من شعر، فيفطن لما فيه من جمال وما فيه من قبح، ثم هو يدرك ذلك بطبعه وذوقه، وقد لا يجد إلى تصوير ما في نفسه من شعور بالقبح أو المحال سبيلاً.

وكذلك رأى الآمدي النقد، وعلى هذا الضوء سار في نقد الطائيين؛ فقد عرض شعرهما هذا العرض، وفلاه هذه التقلية، وأخذ يظهر ما فيه من عيوب وأخطاء، ثم وازن بينهما فيما لهما من روائع وحسنات، حريصاً على وحدة الموضوع إذا تعسر عليه مع ذلك مراعاة وحدة الوزن والقافية وإعرابها.

وقد سار نقاد الشعر العربي بعد عهد الآمدي في النقد على هذه الطريقة وذلك المذهب، وصار ذلك الاتجاه خطه علميه مقررة، وأصبح هو النهج الفني لنقاد العرب جميعاً؛ ومن الواضح أن هذا المنهج بعيد الصلة عن منهج قدامة بن جعفر سنة ٣٣٧م الذي فصله في كتابه "نقد الشعر"، والذي بناه على أساس عقلي بعيد مع عناية بجمع مظاهر الترف الأدبي في التعبير والبيان وجعلها مظهر البلاغة وسر سحر

الأداء: نعم لقد حكم قدامة قواعد العقل والمنطق فصدر عن حكمها في النقد، أما الآمدي فقد حكم الذوق الأدبي وحده والروح العربية والاتجاهات الخاصة بالعرب وبلغتهم العربية.

أما تأثير الآمدي بقدامة في بحوث البيان ونظرياته فقليل: لاختلاف ثقافة الرجلين واتجاههما، فالآمدي أديب لغوي وقدامة أديب متفلسف، والآمدي يقف من قدامة موقف النقد اللند، فهو مؤلف كتاب ينقد فيه قدامة وبين غلطه في كتابه "نقد الشعر"^(١)، وهو ينقد رأى قدامة في الطباق وحقيقته وتسميته نقدا لاذعا^(٢) تبعه فيه ابن الأثير^(٣)، والآمدي يذهب إلى أن البلاغة للفظ وقدامة يجعلها للفظ والمعنى معا، ويجعل الآمدي مادة الشعر هي الألفاظ ويجعلها قدامة هي المعنى^(٤). ولكن الآمدي على كل حال أفاد من نقد الشعر لقدامة واقتبس منه:

فهو يجعل الشعر صناعة ككل الصناعات كما فعل قدامة ومن قبلهما ابن سلام^(٥).

ويعرف الآمدي الحوشى من الكلام بما عرفه به قدامة^(٦).

ورأى الآمدي في أن الاستعارة إنما تحسن بقربها من الحقيقة وتبعد بعدها عنها هو رأى قدامة^(٧).

وكتاب الموازنة سجل حافل لشتى مناهج النقد ومذاهب النقاد في تحليل شاعرية أبي تمام والبحترى، وإن كان الآمدي ينتصر للبحترى في مواقف كثيرة.

والصلة بين الآمدي والقاضى أبو الحسن الجرجاني صاحب الوساطة م ٣٩٢ هـ لم يتكلم عنها باحث، وبمتابعة البحث وجدت بين الرجلين اتفاقا في كثير من الآراء في النقد والأدب والبيان، وكثيرا ما نرى أسلوبهما في شرح بعض الأبيات واحدا أو متقاربا، على أن اتجاه الرجلين في النقد واحد أيضاً، فاتجاه الجرجاني في نقد شعر المتنبي هو اتجاه الآمدي في نقد شعر الطائيين، فهو يحصى ما أخذ على

(١) ١٢٥ موازنة.

(٢) موازنة ١٢٤.

(٣) ٢٨٣ مثل سائر.

(٤) ١٨٣ موازنة و١٤ نقد الشعر.

(٥) ١٧٧ - ١٧٩ موازنة و١٤ نقد الشعر.

(٦) ١٢٥ موازنة و١٠٢ نقد الشعر.

(٧) ١١٤ موازنة و١٠٤ - ١٠٦ نقد الشعر.

المتنبي من سرقات، وما أخذ عليه من أخطاء ترجع إلى التكلف والتعقيد، أو إلى الإفراط في المبالغة، أو إلى بعد الاستعارة وعدم وضوحها، أو غموض المعنى والتعثر في أدائه أو إلى اللحن في الأداء والخطأ في التركيب، وهذا هو الاتجاه الذي اتجهه الأمدى في موازنته مع فوارق ضئيلة، وهو رجوع بالنقد إلى النهج العربي والذوق الأدبي دون ما عداهما، وكل ذلك يدلنا على وجود صلة أدبية بين الرجلين رغم تباين موطنيهما (البصرة وجرجان). ومن المرجح عندي أن صاحب الوساطة قد تأثر بالموازنة دون العكس، وأن الموازنة كانت خطوة أولى في النقد الأدبي كعلم، ثم تلتها الوساطة كخطوة ثانية في مضماره، يرشدنا إلى ذلك دراسة فن التأليف في كلا الكتابين فالرقى التأليفى فى كتاب الوساطة المتجلى فى جمال عرضها وتهذيب تأليفها وحسن أسلوبها أكبر دليل على ما أذهب إليه، ويصعب علينا أن نفسر ما بين الرجلين من تقارب كثير بأنهما عاشا فى عصر واحد وثقفا بثقافة عصرهما المتحدة، فإن اختلاف بيئة الرجلين وحياتهما مما لا يجعل لذلك التفسير قوته ولا وجهته.

القاضى الجرجانى

المتوفى عام ٣٩٢ هـ

حياته وثقافته :

إذا كان للمتنبى ولأدبه عاصفة من الثورة السياسية فى بلاط ملوك الشرق الإسلامى على عهده، وكان له دويه فى حلقات العلم ونوادى الأدب فى شتى أرجاء العالم العربى حينذاك، فإن هناك شخصية جليلة لعبت دوراً خطيراً فى تطور النقد الأدبى فى القرن الرابع. وفى إنصاف المتنبي من ثورة خصومه الناقدين والحاقدين، تلك هى شخصية القاضى أبى الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى صاحب كتاب "الوساطة بين المتنبي وخصومه"، الذى يعد سجلاً أدبياً هاماً للنقد فى القرن الرابع ولا يزال كما كان عنصراً من عناصر الثقافة الأدبية.

ولد الجرجانى فى أوائل القرن الرابع بجرجان، وهى موطن خالد من مواطن الثقافة الإسلامية فى بلاد فارس إذ ذاك، وسلك أبو الحسن السبيل التى كان يسلكها الطامحون من الشباب فى هذه البيئة العلمية الحافلة، فأخذ فى دراسة علوم الدين واللغة والأدب، وانتقل فى سبيل دراسته بين جرجان وبغداد والشام حتى

صار ناضج الثقافة والعقلية، ناضجا في روحه الأدبي نضجه في ثقافته الدينية. ووطدت الصلات الثقافية والأدبية صلات الصداقة بينه وبين الصاحب بن عباد، فاشتد اختصاصه به، وحل منه محلا بعيدا في رفعته كما يقول الثعالبي^(١)، ومدح الجرجاني صديقه الصاحب بقصائد ساحرة، وقلده الصاحب قضاء جرجان، وبعد حين رفعه إلى منصب قاضي القضاة بالرى عاصمة الملك الذي يسوسه ابن عباد، واستمر في القيام بأعبائه حتى بعد وفاة الصاحب، إلى أن توفي سنة ٣٩٢.

وثقافة الجرجاني الدينية يدل عليها ثقة الصاحب به، وتوليته إياه مناصب دينية خطيرة، فوق مؤلفاته في الفقه التي ذكرها الشيرازي في طبقات الشافعية.

وثقافته الأدبية تتجلى في الآثار الباقية من شعره، التي حفظها الثعالبي في يتيّمته، كما تتجلى في الوساطة بأجلى مظاهرها، وفي كتابته الجيدة فيها عن الشعر ومذاهبه.

وشعر الجرجاني صورة صادقة لشخصيته التي بالغ الرجل في الاعتزاز بها. وفي الاعتداد بكل فضائل الحياة الاجتماعية، والنفور من رذائلها. كره الملق والرياء والزلفى :

وقالوا توصل بالخضوع إلى الغنى	وما علموا أن الخضوع هو الفقر
وبيني وبين المال بابان حرما	على الغنى : نفسى الأبية والدهر
إذا قيل هذا اليسر عاينت دونه	مواقف خير من وقوفى بها العسر
إذا قدموا بالخير قدمت دونهم	بنفس فقير كل أخلاقه وفر

وكذلك كان صورة صادقة للمثل العليا التي لا يحرص عليها إلا القليلون، كما كان صورة لنبل عواطفه وجمال طبعه وسعة ثقافته في الأدب، وهو ينبع من نفس غذيت بنعيم الحضارة وعاشت في ألوان من المدنية؛ فتركت البداوة التقليدية في الشعر، وأنست إلى رقة الأسلوب الذي يفيض قوة وشعورا، ويسرى فيه روح قوى وعاطفة شاعرة، ترسم كل ما يحيط بنفس الشاعر من مؤثرات وذكريات؛ وله ديوان، ذكره الشيرازي في طبقاته، وابن خلكان في وفياته، وضاع مع ما ضاع من تراثنا الأدبي القديم.

والجرجاني الذي يقول فيه الثعالبي : إنه "كان يجمع خط ابن مقلة إلى نثر الجاحظ ونظم البحترى"، قد ضاع نثره الأدبي، ولكن كتابه : "الوساطة" يرشدنا

(١) اليتيمة ٢٨٣ ج ٣.

إلى خصائص فنه الأدبي: من دقة التعبير، وتمثيل الأسلوب لثقافته الأدبية التي ترتفع إلى ثقافة الخاصة من الأدباء في عصره، كما يتجلى فيها الجنوح إلى إثارة الألفاظ والصيغ الرقيقة، والبعد عن ترف البيان المتكلف في شتى صورته وألوانه البديعية، وعدم إثارة من السجع إلا ما ساوق الطبع واستدعاه المعنى. ولذلك تردد أسلوبه بين السجع والازدواج، والإرسال، والتساوق بينه وبين طبعه وعقله الزاخر بشتى الفكر والآراء الدقيقة، وتركه أسلوب الرسائل الأدبية التي تنحو نحو الإطناب والتفصيل والمبالغة. ثم أسلوبه كذلك صورة لاستقلاله الفكرى وجنوحه إلى الحجاج.

شاهد الجرجاني آثار الخصومة الأدبية بين المتنبي وخصومة من النقاد. وسمع وقرأ الكثير مما دبحه يراع علماء الأدب في نقده، كما سمع حجاج أنصار المتنبي وآراءهم في شعره، ولما ظهرت رسالة صاحب بن عباد قرأها الجرجاني، فرأى فيها جوراً على الحق، وإسرافاً في الخصومة. وشططا في النقد، ففكر وقدر، ثم ألف بعد حين كتابه "الوساطة" ينصف فيه المتنبي من خصومه، ويعرض آراءهم نقد شعره ويحللها ثم يناقشها، ويعرض بجانب الصورة الباهتة التي رسمها هؤلاء لأبي الطيب صورة مشرقة فيها تقدير وإنصاف، وذلك مثل جديد في سمو نزعات القاضي الخلقية واستقلاله في الرأي، وعدم نزوعه إلى الإيمان التقليدي برأى سواه، ولو كان من أشد من يؤثرهم ويحفظ لهم أو في الذكريات.

والوساطة من أصول كتب الأدب، وأسلوبها البياني مثل يحتدى، وكان لظهورها دوى بعيد في عالم الأدب والأدباء، وحسبنا رأى الثعالبي وابن خلكان^(١) إشادة بها، ورجل الأدب المثقف في العصر الحديث بحاجة ماسة إلى الوساطة ليعرف مناهج الكتابة، ووزن الأساليب. وقد عرضت الوساطة كثيراً من المشكلات الأدبية عرضاً ساحراً، أملاه الذوق والطبع والوجدان.. وللوساطة أثرها الكبير في النقد، ويعدها الباحثون من القدامى والمعاصرين، من أروع مؤلفاته^(٢)، وصاحبها يفهم الشعر فهماً جيداً يتجلى في كتابته عنه وعن مذاهبه.

وترسم الوساطة المنهج الحق في النقد، بعرض ما أحسن أو زل فيه الشاعر، ثم الموازنة والمفاضلة. مع الرجوع في أحكام النقد الأدبي إلى الذوق المطبوع،

(١) ص د وه مقدمة الوساطة طبع صبيح .

(٢) ١٧١ مقدمة لدراسة بلاغة العرب .

الذى هذبته الفطرة الأدبية السليمة وثقفه المران والبحث^(١)، وذلك ما سار عليه أئمة نقاد الأدب والبيان^(٢)، فما النقد عند ثقات النقاد إلا دراسة الأشياء وتفسيرها وتحليلها وموازنتها بما يشابهها أو يقابلها. ثم الحكم عليها بيان درجتها وقيمتها، والنقد الأدبي عند المحدثين هو التقدير الصحيح لأى أثر أدبي وبيان قيمته ودرجته بالنسبة إلى سواه^(٣)، وذلك هو ما فهمه الجرجاني، وسار عليه فى وساطته.

والجرجاني حين يجعل الذوق الأدبي هو الحكم فى مشكلات النقد والبيان يرجع إلى مذهب العرب فى بيانها، وما تسير عليه من مناهج فى الأداء والتعبير، ليقوم بذلك ذوق الناقد، ويوسع جوانب ثقافته فى النقد، ويقول صاحب الوساطة: وإنما تفاضل العرب بين الشعراء فى الجودة والحسن، بشرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب وشبه فقارب، وبداهة فأغزر، ولمن كثرت سوانر أمثاله وشوارد أبياته.. فعناصر الشعر - التى يدور حولها النقد فى نظره هى: المعنى وصحته، والغرض وإصابته، واللفظ واستقامته. والإنتاج وكثرته وجودته، وهذه العناصر هى التى يجب أن تجعل الحكم فى الحكم على الشعراء والجرجاني فيما عرضه إجمالاً من موازين النقد يتحدث بفطرته الأدبية الخالصة التى لم تستفد من البحوث القوية التى فصلها قدامة فى "نقد الشعر". وأكثر تأثر القاضى على العموم إنما هو بعلماء اللغة والأدب من أولى الثقافات العربية المحضة كالأمدي وسواه.

أبو هلال العسكرى

عاش أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكرى فى القرن الرابع، وتوفى فى آخره، وامتاز بحبه الفضائل الخلقية، وإثاره المثل العليا فى الحياة، فعاش مجاهداً يعمل بساعده ليتمكن من الحياة، مؤثراً ذلك على زخرف الجاه والمنصب، متصلاً برجال النهضة الفكرية والأدبية والسياسية فى عهده اتصال صداقة وأخوة، وكان ممن اتصل بهم صاحب بن عباد الوزير المتوفى عام ٣٨٥هـ. وقد قنع أبو هلال بصداقته، ولم يتطلع إلى ما فى يده من مجد وجاه ومال، واتصال أبى هلال به جعله من مؤيدي مذهب الفكرى والأدبى، وبتأثيره ساء رأى أبى هلال فى أبى

(١) الوساطة .

(٢) ٩٠ - ١٠٠ لدراسة بلاغة العرب .

(٣) راجع أصول النقد الأدبى للشايب .

الطيب المتنبي الشاعر، وقد عرض بدمه في مواضع كثيرة من كتابه الصناعتين .. وأبو هلال في كتابه كثير الإشادة بالصاحب وأدبه من شعر ونثر، فكثيراً ما يستشهد بأدبه كلما عن له موضع استشهاد، ويذكره حيناً بالصاحب، وحيناً بكافى الكفاة، وحيناً بالأستاذ، وله قصائد كثيرة في مدحه^(١)، وتراه يمدح البحترى باختيار القوافي المناسبة لموضوع القصيدة كما مدحه الصاحب من قبل^(٢).

وقد نشأ أبو هلال في عصر نزوح الثقافة الأدبية والفكرية في الشرق فاغترف من ينابيعها المتدفقة، وتلمذ على كثير من رجال الفكر والأدب، وكان أظهر أساتذته خاله أبو أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري المتوفى عام ٣٨٢هـ صاحب كتاب التصحيف والتحريف الذي ينقل عنه كثيراً من شتى الروايات في الأدب والبيان .. وأدب أبو هلال أدب أوحى به إليه عقليته الناضجة التي وعت دقائق الحضارة في عهده، وجمعت شتى ألوان الثقافات المعروفة في عصره، وتأثرت بألوان كثيرة من المدينة والعمران والترف العقلي والمادى جميعاً .. فهو أدب عميق الفكرة، دقيق المعنى والخيال، ساحر في أسلوبه العذب الرقيق الساحر الموشى بألوان البيان وفنون الأداء، سواء في ذلك نثره وشعره، وكثيراً ما ينقل أبو هلال منه في كتابه، ونثره الأدبي تستطيع أن تعرف خصائصه من القطع التي ذكرها في كتابه^(٣) .. ونثره العلمي يدل على أسلوبه في كتاب "الصناعتين"، وقد نجد فروقا بين النثرين: فالأول نثر فيه كثير من دقة الفكرة وجمال الأداء وسحر البيان وترف التعبير، والثاني يترك فيه صاحبه كثيراً من التعبير العاطفي والخيالي ويلجأ إلى أسلوب يعبر عن الحقائق تعبيراً يظهرها لك ممثلة واضحة .. وشعره يفيض بكثير من المعاني والأخيلة، وفيه دقة وبعد، وله روعة وسحر، وينقل منه كثيراً في كتابه أيضاً وعلى العموم فهو شعر شاعر ذي ثقافة عقلية كبيرة .. وثقافته ثقافة متكلم أجاد اللغة والأدب وكثيراً من العلوم العقلية، أما أنه متكلم فيدل على أنه كثيراً ما ينقل في كتابه مثلاً لبلاغة المتكلمين، ولا ينسى أن يذكر في أول كتابه أنه سلك به مذهب علماء الأدب لا المتكلمين. وأما إجادته للأدب واللغة والبيان فذلك ما ليس للشك فيه سبيل، وتجده ينقل في الصناعتين من جميع مصادر الأدب والنقد والبيان شارحاً وناقداً ودارساً، حتى كليله ودمنة فقد نقل منه مثلاً للتشبيه الجيد^(٤) .. وأبو هلال

(١) تجد آثاراً منها في ص ٤٤٤ و ٤٤٥ الصناعتين.

(٢) ١٤٢ صناعتين، ١٠ رسالة الصاحب في الكشف عن مساوئ المتنبي.

(٣) ٣٥٨ و ٣٨٧ صناعتين.

(٤) ٢٣١ - ٢٣٢.

متأثر بالجاحظ كثير الإفادة منه ومن كتابه "البيان والتبيين"، وكتابه يسير في السبيل الذي عبده الجاحظ^(١)، كما تجد كثيراً من آرائه في البلاغة والبيان مأخوذة منه، وله ميزة شرحها والتعليق عليها وقد ينقلها، وقد يستدل بها، فالأصول الأولى لعلم البيان الذي ذكرها أبو هلال وأضاف إليها ما جد بعد عهد الجاحظ من آراء في الأدب والنقد والبيان هي الأصول التي دونها الجاحظ من قبل، ويقول باحث محدث: "ليس أبو هلال إلا شارحاً للجاحظ في كتاب الصناعتين، جامعاً للمتفرق منه، وقد تحدث عن كتاب البيان والتبيين بعد أن أورد طرفاً من تخليط بعض المتحدثين في البلاغة. فقال: ووقفت على موقع هذا العلم من الفضل، ومكانه من الشرف والنبيل؛ ووجدت الحاجة إليه ماسة، والكتب المصنفة فيه قليلة، وكان أكبرها وأشهرها كتاب "البيان والتبيين" لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، وهو لعمري كثير الفوائد، جم المنافع؛ إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة في تصاعيفه، ومنتشرة في أثنائه، فهي ضالة بين الأمثلة لا توجد إلا بالتأمل الطويل، والتصفح الكثير، فرأيت أن أعمل كتابي هذا مشتملاً على جميع ما يحتاج إليه في صعة الكلام: نثره ونظمه، ويستعمل في محلوله ومعقوده، من غير تقصير وإخلال. وهذا لون من ألوان التأثير الإيجابي للجاحظ^(٢).

وكتاب الصناعتين ألفه أبو هلال وانتهى من تأليفه عام ٣٩٤^(٣)، فإذا يكون من المحقق أن أبا هلال قد ألف كتابه بعد ظهور الوساطة بزمن يسمح له بالتأثر بها واتخاذها مصدراً من مصادر كتابه، إن أراد، ولكن هل فعل ذلك أبو هلال. وهل اتخذ الوساطة من مراجع كتابه الحافل؟ الجواب لا، فقد كان بين الرجلين فوارق كثيرة:

أ - فاتجاههما العقلي والثقافي مختلف، فالجرجاني أديب يستمد أدبه من ثقافة عربية خالصة، وأبو هلال أديب يستمد أدبه من ثقافته العربية وثقافته العقلية التي يحذر فيها حدو قدامة وابن العميد والصاحب.

ب - ومشكلات المنافسة بين الرجلين كانت عاملاً في عدم انتفاع أبي هلال بوساطة الجرجاني، بل كانت سبباً في إظهار السخرية بها وبمؤلفها، وإن كان ذلك لم يخف على أحكام ذوقه الأدبي في تقدير ما يستحق التقدير من شعر القاضي،

(١) ٦ و ٧ صناعتين.

(٢) ١٧٣ البلاغة العربية في دور نشأتها - سيد نوفل - طبع النهضة ١٩٤٨ م.

(٣) الصناعتين ط صبيح ص ٤٤٥.

كما نرى في ديوان المعاني^(١)، حيث روى أبياتا للجرجاني واستحسنها. ولكن تجد في الصناعتين^(٢) نصا غريبا يستوقف النظر:

قال أبو هلال وهو يعدد أنواع البديع: "فهذه أنواع البديع التي ادعى من رواية له ولا دراية عنده أن المحدثين ابتكروها، وأن القدماء لم يعرفوها، وذلك لما أراد أن يفخم أمر المحدثين". فمن هو هذا الرجل الذي يعرض به أبو هلال؟ هو القاضي الجرجاني أبو الحسن صاحب الوساطة، وليس في ذلك ريب عندي:

أ - فالجرجاني هو الذي نوه في وساطته بالمحدثين، وهتف باسمهم وأشاد بمكانتهم، فذهب إلى أن وقوعهم في الخطأ لا يحط من منزلتهم، لأنه قد وقع فيه الجاهليون والإسلاميون، كما ذهب إلى أن يسيرهم أحق بالاستكثار، وصغيرهم أولى بالإكبار.

ب - والجرجاني هو الذي يرى أن المحدثين فطنوا لجمال ألوان البديع التي ألم بها القدامى إلاماً فتكلفوا الاحتذاء عليها (٢٧ الوساطة طبع صبيح)، وتكلم على شتى ألوان البديع وذكر أن المحدثين هم الذين مهدوا سبيلها؛ وغيروا اتجاهها الأدبي، كما ترى مثلاً في كلامه على السرقة ودقة المحدثين في إخفاء الأخذ، وفي كلامه على الإفراط وأنه مذهب عام في المحدثين^(٣)، وفي الاستعارة وإبعاد مرماها على يد المحدثين^(٤)، إلى غير ذلك من ألوان الإشادة بالمحدثين في كتابه.

ج - وثقافة القاضي دينية، وأدبية مستمدة من الذوق والطبع أكثر من استمدادها من العقل أو النقل كما يقول أبو هلال.

على أن أبا هلال قد تحامل في كلمته على القاضي، فأسرف في رميه إياه بأنه لا رواية ولا دراية عنده، وفهم من إعجاب الجرجاني بالمحدثين أن ذلك تعصب لهم، كما فهم من كلام الجرجاني عن أبواب البديع وفضل المحدثين في الفطنة إليها أنه يرى أن القدماء لم يعرفوها بأى شكل من أشكال المعرفة، مع أنه رأى أن القدماء عرفوا بعضها معرفة فن وأدب، وأن المحدثين قد عرفوها معرفة علم وفن ومذهب، ولهم الفضل في تطور صورها وألوانها، ودقة أخذها وروعة سحرها.

(١) ١٦٨ ج ١.

(٢) ٢٨٥.

(٣) ٣١١ الوساطة.

(٤) ص ٣١٧ المرجع.

فأبو هلال كان يتتبع حياة القاضي وإنتاجه، وينظر إليه بعين المنافسة، وقرأ الوساطة، ولكنه لم يعول عليها، ولذلك لا تجد ظلاً لتأثر أبي هلال بها في الصناعتين مع أنه تأثر بالجاحظ وبيانه، وقدامة وكتابه "نقد الشعر" وبالآمدى وموازنته، والبحوث المشتركة في الكتابين نرى في اتجاه الرجلين في بحثها بونا كبيراً، فميزان النقد عند الجرجاني^(١) مباين له عند أبي هلال^(٢)، وآراء أبي هلال في الاستعارة والتشبيه ليس فيها أي أثر لوساطة القاضي، وكذلك بحوثه في السرقات الأدبية^(٣) ليس فيها أي أثر خاص لآراء الجرجاني، وخفاء السرقة عند الجرجاني بالنقل أو القلب أو تغيير النهج والترتيب، وهو عند العسكري يجعل النثر نظاماً والنظم نثراً وبتغيير الموضوع^(٤). وإذا كان تعليق أبي هلال^(٥) على البيت:

كنتم كمن أدخل في حجر يداً فأخطأ الأفعى ولاقى الأسودا

هو تعليق صاحب الوساطة^(٦) في نقده له، فليس ذلك مظهراً لتأثر، أو دليلاً على احتذاء.

كتاب الصناعتين وأثره الأدبي:

وكتاب "الصناعتين" كتاب مفيد جداً في الأدب والنقد والبيان: فأسلوبه أنيق جميل، وعرضه منظم، مما يدل على عقلية صاحبه الكبيرة. والثقافة التي يمثلها ثقافة عميقة، تدل على علم غزير وإحاطة واسعة.

وهو كتاب تطبيقي على قواعد البيان، ممتاز بكثرة شواهد ومثله كثيرة فائقة، مع حرص على جودة الاختيار، وسلامة الطبع، مما يرشدنا إلى لون من ثقافة أبي هلال وعقليته، حتى لقد حار بعض الأدباء في تسمية الصناعتين كتاب أدب أو كتاب نقد أو كتاب بلاغة وبيان. والآراء التي جمعت فيه في النقد هي خلاصة ثقافات علماء الأدب والشعر حتى وسط القرن الرابع، وتمتاز بأنها صادرة عن ذوق وطبع وشعور أدبي، وعن حكم العقل والفكر أيضاً. ولذلك كان الكتاب مادة غزيرة ينتفع بها كل باحث ودارس للأدب والنقد والبيان.

(١) ٢٧ الوساطة.

(٢) ٥٤ صناعتين.

(٣) صناعتين ١٨٩ - ٢٢٥.

(٤) ١٩٢ صناعتين طبع صبيح.

(٥) ١٩ صناعتين.

(٦) ص ١٠.

وإن كانت الصبغة الأولى للكتاب، والهدف الأول من تأليفه، أن يكون كتابا في أصول قواعد البيان العربي، وقد نحا أبو هلال فيه نحوا جديدا في التأليف فتكلم على البلاغة، وما يحتاج إليه الأديب والكااتب والشاعر، ورسم المذاهب الأدبية والمناهج البيانية التي تسمو بالأديب إلى ذروة البلاغة .. ونلاحظ أن علماء الأدب في القرن الرابع امتازوا في مطلع هذا القرن بالكتابة عن الأدب والنقد كما فعل قدامة في نقد الشعر، والصولي في كتاب أخبار أبي تمام، وأبو الفرج في الأغاني، والقالي في كتابه الأمالي، ثم مزجوا بحوث النقد والأدب بالبيان، كما فعل الآمدي في الموازنة، والقاضي الجرجاني في كتاب الوساطة، ثم أفادوا من دراسات النقد في بحوث البيان، فظهر أول كتاب كامل في موضوع البيان، وواف بجميع بحوث البلاغة، مع الإيجاز وقرب الفكرة وقلة التحليل وهو "الصناعتين".

وخلاصة ما نقول أن كتاب الصناعتين صورة كاملة للبيان العربي حتى آخر القرن الرابع الهجري، وأن هذه الصورة اشترك في تلوينها علماء الأدب والنقد والبيان قبل أبي هلال وفي عصره من شتى الطبقات والثقافات والعناصر ..

وإن ما وصل إليه فن البيان حتى آخر القرن الرابع إنما هو بحوث موجزة تتصل بملكات البيان والأدب والنقد، ويكثر فيها الاستشهاد والتمثيل، ويعوزها السير في البحث إلى خاتمة المطاف ونهاية الشوط، فمن البيان في القرن الرابع كان يشمل ألوان البديع أيضا، ومع ذلك فقد حاول أبو هلال أن يرسم منهجا جديدا في نقد الشعر بعد المنهج الذي رسمه قدامة في كتابه نقد الشعر، ولكنه لم يظفر بما ظفر به قدامة من نجاح كامل وتوفيق كبير، في هذه الغاية العسيرة، بل لقد كان عالية على قدامة وكتابه وعلى كل حال فللعسكري الفضل كل الفضل في أفراد صناعة الكلام بالتأليف والبحث، مع العناية بالجمع والشرح والاستقصاء في المثل والشواهد. ومع إجادة في العرض، وتنسيق في الدراسة، وحسن الإبانة عن غرضه ..

بديع الزمان الهمذاني

القرن الرابع الهجري عصر الدول المستقلة في العالم الإسلامي: من أمثال البويهيين، والسامانيين، والدولة الغزنوية، والزيارية، والصفارية. وقد عاش البديع في ظلال أربعة ملوك من ملوك السامانيين وفي عهد جماعة من ملوك بني بويه: عضد الدولة (٣٦٧ - ٣٧٢هـ)، وفخر الدولة، ومجد الدولة، وشمس الدولة، وكان لهم سلطان

على همذان والبلاد التي أقام بها البديع. وكانت هذه الدول تتنافس في تشجيع العلم والأدب تنافسا كبيرا، ولمع في هذا العصر اسم ابن العميد والصاحب ابن عباد والخوارزمي والميكالي والثعالبي والبيروني والصابي والعتبي والقاضي الجرجاني وأبي هلال العسكري وشمس المعالي قابوس وابن نباتة السعدي الخطيب والحسن بن علي التنوخي .. كما لمع اسم المتنبي والمعري وأبي فراس الحمداني والرضي ومهيار والبستي والنامي والناشي والزاهي والسري والبيضا وسواهم.

ومدينة همذان يشرف عليها جبل أورد في سهل خصب، وهي شديدة البرد، ظاهرة الخصب.

وكان البديع من أسرة ذات مكانة في همذان، وقد ولد في ١٣ من جمادى الثانية سنة ٣٥٨هـ، من أسرة عربية، وكثيراً ما يقول البديع في رسائله: "ومضر المعتد"، أو: "نظي النجار" .. وقد عاش أبواه إلى أن كبر وترك همذان، وكان له أخ أصغر منه هو أبو سعيد وكان أبو سعيد مفتي همذان، وكان له كذلك ابن صير اسمه أبو طالب، وقد غاب البديع عن أبيه أحد عشر عاماً.

نشأ أحمد بن الحسين في هذه البيئة، يدرس الدين واللغة وعلوم الأدب، حتى نبغ فيها.

وهاجر من همذان سنة ٣٨٠هـ إلى حضرة الصاحب، وكان زاره قبل ذلك وعرف به نفسه، قدم جرجان إذا وأقام بها مدة يتصل بالاسماعيلية ويعيش في رعايتهم، ثم قصد نيسابور عام ٣٨٢هـ وفي الطريق خرج عليه الأعراب وسلبوه كل ما معه.

ورد نيسابور فكتب إلى أبي بكر الخوارزمي، وهو شيخ أدبائها وأحد أغنيائها: "أنا لقرب الأستاذ أطال الله بقاءه كما طرب النشوان مالت به الخمر ومن الارتياح للقائه، كما انتفض العصفور بلله القطر ومن الامتزاز بولائه، كما التقت الصهباء والبارد العذب ومن الابتهاج بمرآه كما اهتزت تحت البارح الغصن الرطب، فكيف نشاط الأستاذ لصديق طوى إليه ما بين قصبتي العراق وخراسان، بل ما بين عتبتي نيسابور وجرجان، وكيف اهتزازه لضيف في بردة جمال وجلدة حمال :

رث الشمانل منهج الأثواب بكرت عليه مغيرة الأعراب

وهو أيده الله ولي إنعامه، بإنقاذ غلامه، إلى مستقرى، لأفضى إليه بسرى، إن شاء الله تعالى". ويؤخذ من كلام البديع أنه ذهب إلى دار الخوارزمى فلم يحس لقاءه، أو لم ترض نفس الهمداني بهذا اللقاء، فكتب إليه فرد الخوارزمى ردًا حسًا.

وسعا سعاة السوء بين الرجلين، ثم جمع بينهما الشيخ أبو الطيب فلم يحمد ذلك الاجتماع. ثم كانت بينهما المناظرة الأولى فى دار السيد أبى على أحد الكبراء فى نيسابور، فتناظرا فى ارتجال الشعر مناظرة ظهر فيها غلب البديع وقد غضب من قطع الخوارزمى إنشاده عليه فصمت برهة .. يقول الهمداني: "ثم عطفت عليه وقلت يا أبا بكر: إن الحاضرين قد عجبوا من حلمى أضعاف ما عجبوا من علمى، وتعجبوا من عقلى، أكثر مما تعجبوا من فضلى، وبقي الآن أن يعلموا أن هذا السكوت ليس عن عى، وإن تكلفى للسفه أشد استمرار من طبعك، وغربى فى السخف أمتن عودة من نبعك، وسنقرع باب السخف معك، ونقترع من ظهر السفه مفترعك؛ فتكلم الآن. فقال لى أنا قد كسبت بهذا العقل دية أهل همدان مع قلته، فما الذى أفدت أنت بعقلك مع غزارته، فقلت: أما قولك دية أهل همدان فما أولانى أن لا أجيب عنه، لكن هذا الذى نتمدح به ونتبجح ونتشرف ونتصلف، من أنك شحذت فأخذت، وسألت فحصلت، واجتديت فاقنتيت، فهذا عندنا صفة ذم باعافاك الله". ذهب البديع إلى بيت الخوارزمى واصطالحا. ثم شاع بين الناس أن البديع غلب، فكتب إليه الخوارزمى يتهمه بأنه أشاع هذا الكلام، ويقترح مناظرة أخرى، فكانت المناظرة الثانية فى بيت الشيخ أبى القاسم الوزير. وحضرها عظماء نيسابور، وكانت مباراة فى الارتجال والترسل والنحو واللغة، وقضى بالفلج للهمداني، فلما خرج لقيه الناس بالتقبيل ولم يستطع الخوارزمى الخروج حتى جنه الليل.. وفى رسائل الهمداني تفصيل المناظرة التى قضت له بالفلج. وينبغى ألا ينسى القارئ أن هذا أحد الخصمين، ولست أتهم الهمداني بالكذب الصراح، ولكنى لا أبرئه من محاباة نفسه. ثم نتذكر أن الخصمين ليسوا سواء: أحدهما شيخ طائر الصيت يخشى أن يؤخذ عليه ما ينقص من قدره، والآخر شاب طامح إلى الصيت يريد أن يبنى مجده على هزيمة قرنه. وهو لا يخسر كثيرا إن غلب، وهذا مظنة أن يستعظم الحاضرين ظفر البديع ولو كان قليلا وهفوة الخوارزمى ولو كانت مما يغتفر أمثالها. ثم أظن أن بعض النيسابوريين كانوا يحسدون الخوارزمى، ويودون أن يذهب بمجده ذلك الضيف الشاب الجميل الطلعة، الخفيف الروح.

لم تكن المناظرة فى صميم الأدب من الشعر والترسل، بل كانت فى البديهة والارتجال والحفظ. قال الهمداني وهو يتحدى خصمه: "ومثال ذلك أن

أقول لك أكتب كتاباً يقرأ منه جوابه؟ أو أقول لك أكتب كتاباً على المعنى الذى أقترح لك، وأنظم شعراً فى المعنى الذى أقترح، وأفرغ منهما فراغاً واحداً هل كنت تمد له ساعداً؟ وأقول لك اكتب كتاباً فى المعنى الذى أقول وأنص عليه، وأنشد من القصائد ما أريده من غير تناقل ولا تغافل، حتى إذا كتبت ذلك قرئ من آخره إلى أوله، وانتظمت معانيه إذا قرئ من أسفله، هل كنت تفوق لهذا الغرض سهماً أو تجيل قدحاً أو تصيب نجحاً، أو قلت لك اكتب كتاباً إذا قرئ من أوله إلى آخره كان كتاباً، فإن عكست سطره مخالفة كان جواباً الخ" .. وقد أجاب الخوارزمي على هذا كله بقوله: "هذه الأبواب شعبذة" وهى إن لم تكن شعبذة فهى ليست من الأدب، وإن دلت على توفد الذكاء وسرعة البديهة .. اغتبط بديع الزمان بنيسابور، ولقى من سراتها حفاوة وإكراماً، يقول فى رسالة إلى أبيه عن صديق كان قد وعده اللحاق به: "وكان سألتنى أن أرود له منزلاً ماؤه روى، ومرعاه غدى، وأكاتبه لينهض إليه راحلته. فهالك نيسابور ضالته التى نشدتها، وقد وجدتها، وخراسان منيته التى طلبتها، وقد أصبتها: وهذه الدولة بغيته التى أردتها، فقد وردتها، فإن صدقنى رائداً، فليأتنى قاصداً .. وأما أنا وأخبارى بهذه الناحية فمتقلب فى ثوب العافية، موقر بهذه الحضرة، مرموق بعين القبول .. وقد كتب كثيراً من رسائله إلى جماعة من رؤساء نيسابور وهى تدل على ما كان بينه وبينهم من مودة: وفى نيسابور لقي بنى ميكال ومدحهم، وفى رسائله واحدة إلى أبى جعفر الميكالى يشكو فيها تقصيره فى تعظيمه .. ونجد الهمداني فى نيسابور يكتب إلى الشيخ العميد مستنجزاً وعده فى توليته بعض الأعمال: "فهل للشيخ أن يلطف بصنيعته لطفاً يحط عنه درن العار، وسمة التكبسب والافتقار، ليخف على القلوب ظله، ويرتفع عن الأحرار كله، ولا يثقل على الأجنان شخصه، بإتمام ما كان عرضه عليه من أشغاله، ليعلق بأذياله، وليستفيد من خلاله، فيكون قد صان الفضل عن ابتذاله، والأدب عن إذلاله، واشترى حسن الثناء بجاهه كما يشتريه بماله" .. وفى نيسابور أملى المقامات سار التى ذكرها على وجه الزمان ثم فارق البديع نيسابور سنة ٣٨٣هـ إلى مرو ثم سرخس، ولم يسم الأمير الذى نزل بحضرته فى سرخس، والظاهر أنه أحد أمراء السامانية، وقد أكرم الأمير مثواه كما قال فى آخر الرسالة نفسها عن الخوارزمي: "وأما مسألة الأمير ألا يخرطنى فى سلكه ولا يمكننى من بساط ملكه، قد شملتني على رغبة أطراف النعم، وبلتني سحائب الهمم، وللراغم التراب، وللحاسد الحائط والباب" .. وفى سنة ثلاثمائة وثلاث وثمانين مات الخوارزمي! يقول الثعالبي: "وأجاب الخوارزمي داعي ربه فخلا الجو للهمداني، وتصرفت به أحوال جميلة، وأسفار كثيرة".

وأكثر البديع أسفاره بعد مفارقة نيسابور : يقول الثعالبي : "ولم يبق من بلاد خراسان وسجستان وغزنة بلدة إلا دخلها وجنى ثمرتها، واستفأ خيرها وميرها، ولا ملك ولا أمير ولا وزير ولا رئيس إلا استمطر منه بنوء، وسرى معه في ضوء، ففاز برغائب النعم، وحصل على غرائب القسم" .. ويقول الهمداني في رسالته إلى القاسم الكرجي. "فإني وإن كنت في مقتبل السن والعمر، قد حلبت شطرى الدهر، وركبت ظهري البر والبحر، ولقيت وفدى الخير والشر، وصافحت يدي النفع والضر"، وفي رسالة أخرى : "وإني أيد الله القاضى، على قرب العهد بالمهن قطعت عرض الأرض وعاشرت أجناس الناس."^(١) .. وليس يمكن بما عندنا من الرسائل غير المرتبة أن نتبع أسفاره في خراسان وسجستان وغزنة وبوشنج، وهراة التي مات فيها.

لقى بديع الزمان عصا التسيار في هراة، واتخذها موطنًا وأمضى بها بقية عمره .. يقول الثعالبي : "وما زال يرتاد للوصلة بيتا يجمع الأصل والفضل، والطهارة والستر القديم والحديث، حتى وفق التوفيق كله، وخار الله له في مصاهرة أبي علي الحسين بن محمد الخشنامي، وهو الفاضل الكريم الأصيل، الذي لا يزداد اختبارًا إلا زيد اختيارًا. فانتظمت أحوال أبي الفضل بصهره، وتعرفت القررة في عينه".

ويقول الثعالبي : "حين بلغ أشده، وأربي على الأربعين سنة ناداه الله، فلباه وفارق دنياه سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة". ويقول جامع الرسائل في عنوان رسالة له في تهنئة فتح الجابية باب بلخ: وهذا آخر كتاب أنشأه. ومات يوم الجمعة الحادى عشر من جمادى الأولى سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة".

وهكذا مات البديع، بعد أن عاش أبو الفضل أحمد بن الحسين الهمداني أربعين عامًا، أمضى شطرها نائيا عن بلده وعشيرته في طلب المجد والغنى، فبلغ ما أراد. نبه ذكره واتصل بمعظم الأمراء والوزراء في الشرق: شمس المعالى قابوس بن وشمكير، وخلف بن أحمد، وبنى فريفون، وبنى ميكال، والسلطان محمود، والصاحب بن عباد، والفضل بن أحمد، وأبى نصر من وزراء الدولة الغزنوية.. وعرف كثيرا من رؤساء نيسابور، وطوس، وسرخس، ونسا، وبلخ، وهراة. وصار مطمح أصحاب الحاجات يتوسلون به إلى أولى السلطان والجاه، يتبين ذلك في كثير من رسائله.

وكان سنى الاعتقاد يكره المعتزلة ويلعنهم^(٢) .. قال فى الديوان متغزلاً:

(١) الرسائل من ٤٨، ١٦٣ .

(٢) ص ١٦١ المرجع .

ذات جفون ضعفت كـمـذـهـب المعـتـزلة

وله قصيدة يرد فيها على الخوارزمي قوله في الصحابة؛ ومن أجل ذلك اتهم في نيسابور بميله عن العلويين، فبرأ نفسه وروى لهم من شعره في رثاء الحسين، فهو على حبه آل البيت لا يذهب مذهب الشيعة في الخلافة وما يتصل بها .. يقول في الديوان:

يقولون لي لا تحب الوصي	فقلت الثرى بقم الكاذب
أحب النبي وأهل النبي	واختص آل أبي طالب
وأعطى الصحابة حق الولاء	وأجرى على السنن الواجب
فإن كان نصبا ولأء الجميع	فإني كما زعموا ناصبي
وإن كان رفضا ولأء الوصي	فلا يبرح الرفض من جانبي. إلخ

وهي رسائله واحده كتبها إلى بعض الوزراء يشكو من ظهور التشيع في هراة، ويحذر أن يصيبها ما أصاب نيسابور وقم والكوفة.

وكان أحمد بن الحسين الهمداني أعجوبة في ذكائه وحفظه، فتيسر له علم واسع باللغة والأدب. وهو يقول في حديثه عما شجر بينه وبين أبي بكر الخوارزمي: "فقلت يا أبا بكر: هذه اللغة التي هددتنا بها وحدثتنا عنها، وهذه كتبها وتلك مؤلفاتها. فخذ غريب المصنف إن شئت، وإصلاح المنطق إن أردت، وألفاظ ابن السكيت إن نشطت، ومجمل اللغة إن اخترت، فهو ألف ورقة، وأدب الكاتب إن أردت، وأقترح على أي باب شئت من هذه الكتب حتى أجعله لك نقداً، وأسرده عليك سرداً" .. وقد أعجب الناس بذكائه وبديهته، وتحدى هو الناس بهما، فجاء كثير من منشآته عفو البديهة، ولو روى فيه لجاء خيراً من ذلك. قال الثعالبي في اليتيمة: "ولم يرو أن أحداً بلغ مبلغه من لب الأدب وسره، وجاء بمثل إعجازه وسحره، فإنه كان صاحب عجائب، وبدائع وغرائب، فمنها أنه كان ينشد القصيدة التي لم يسمعها قط، وهي أكثر من خمسين بيتاً، فيحفظها كلها ويؤديها من أولها إلى آخرها، لا يخرم حرفاً ولا يخل معنى، وينظر في الأربعة والخمسة أوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره نظرة واحدة خفيفة ثم يهد بها من ظهر قلبه هدداً، ويسردها سرداً. وهذه حاله في الكتب الواردة عليه وغيرها. وكان يقترح عليه عمل قصيدة أو إنشاء رسالة في معنى بديع، وباب غريب، فيفرغ منها في الوقت والساعة والجواب عنها فيها. وكان ربما يكتب الكتاب المقترح عليه فيبتدئ بآخر سطر منه ثم هلم جرا إلى الأول، ويخرجه كأحسن شيء وأملحه، ويوشح القصيدة الفريدة من قوله بالرسالة

الشريفة من إنشائه، فيقرأ من النظم والنثر، ويروى من النثر والنظم، ويعطى القوافي الكثير فيصل بها الأبيات الرشيقة، ويقترح عليه كل عويص وعسير من النظم والنثر فيرتجله في أسرع من الطرف، على ريق لا يبلعه، ونفس لا يقطعه؛ وكلامه كله عفو الساعة .. وكان يترجم ما يقترح عليه من الأبيات الفارسية المشتملة على المعاني الغريبة بالأبيات العربية، فيجمع فيها بين الإبداع والإسراع .. إلى عجائب لا تحصى، ولطائف تطول أن تستقصى". وبقي من آثار الهمداني ديوانه ورسائله ومقاماته. فأما الديوان فيتضمن زهاء ثلاثمائة وألف بيت، منها ست وثلاثون قصيدة وقطعة في المدح، مدح بها من الملوك والأمراء: شمس المعالي قايوس بن وشمكير، والسلطان محمود الغزنوي، ويني فريغون، وخلف بن أحمد، وبنى ميكال، ومن الوزراء صاحب بن عباد، وأبا نصر بن زيد .. ومدح جماعة من رؤساء جرجان ونيسابور ونسا وهراة. وهو يجري في المدح على السنن المعروف، ولكنه لا يلتزم الغزل في أول المدائح، ولا يطيل في معظمها. ومن جيد شعره في المدح القصيدة التي، أولها:

على ألا أريح العيس والقتبا وألبس البيد والظلماء واليلبا

وقوله في بني فريغون :

لقيت الغنى والمنى والأميرا	ألم تر أنى فى نهضتى
وكنت امرأ لا أشم العبيرا	ولما التقينا شملت التراب
ن يعلو سجايا ورسو ثبيرا	لقيت امرأ ملء عين الزما
يدأولا واعتذار أخيرا	لآل فريغون فى المكرمات
رأيت نعيما وملكاً كبيراً	إذا ما حللت بمغناهم

وأما الغزل فله غير ما فى قصائد المدح ست قطع تحوى واحداً وعشرين بيتاً، والبديع ليس غزلاً، ولكنه حاكى الشعراء فى ضرب ألفوه وافتنوا فيه وعدوه من فروض الشعر، وله قطع فى وصف: الأسد، والليل. وقطعته فى وصف الليل نموذج من شعره المرتجل. ارتجلها حين اقترح عليه الموضوع والقافية:

مخدر الصبح خدارى الدعج	أنعت ليلاً ذا سواد كالسبج ^(١)
أو نسج الحرمان منه لانتسج	لو أدرج العالم فيه لا ندرج
العمر فيه نقطة لو انفرج	ليلاً حرون النجم قارى النهج
أيسر ما فيه الشهور والحجج - إلخ	والدهر من أجزاءه ولا حرج

(١) السبج : معدن أسود يتخذ منه مادة الكحل لعلاج العين.

ويجود شعر الهمداني في الرثاء والمواعظ. وفي ديوانه ست؟ ويقول في قصيد يمدح فيها أبا جعفر الميكالي :

نستبيح الدهر ، والأبي	سام منا تسبيح
ضاع ما نحنيه من أن	فسنا ، وهو يبـيح
نحن لاهون وآجال	المـنى لا تسـتريح
يا غلام الكاس فاليا	س من الناس مـريح
أنا يا دهر بأبنا	نك شق وسطيح

وللهمداني قطع كثيرة في الألغاز والمعميات، وكان الرجل نادرة في الذكاء والبديهة، فكان يختبر الناس ويختبرونه بهذا الضرب، وفي الديوان منه اثنان وعشرون .. ويكثر في شعره الترجمة عن الفارسية وفي الديوان ثلاث عشرة قطعة مترجمة عن هذه اللغة، وكانت الترجمة بين العربية والفارسية سنة شائعة بين متأدبي المسلمين في إيران وما يجاورها، إذ كان الشعر الفارسي قد بلغ أشده، وكانت العربية لا تزال لغة العلم والأدب .. وكثير من شعراء هذا العصر وما بعده نظم باللغتين، ولقب لذلك بذى اللسانين، وفي يتيمة الثعالبي أمثلة من هذا، وهذه الترجمة تهم دارس الأدبين العربي والفارسي، ولكن يقلل خطرهما أننا نجد الترجمة ولا نجد أصلها، ولا يعرف من الشعر الفارسي الذي ترجمه البديع إلا قطعة أثبتها محمد عوفى في كتاب لباب الألباب في ترجمة المسطقي الشاعر الفارسي، ويقول عوفى : إن صاحب بن عباد أمر البديع بترجمتها، فقال على أية قافية؟ فقال الطاء، قال ومن أبي بحر؟ قال أسرع يا بديع، في البحر السريع، فترجمها ارتجالاً:

سـرقت من طـرته شعرة	حين غدا يمشطها بالمشاط
ثم تدلحست بها مثقلاً	تدلح النمل بحب الحنـاط
قال أبى من ولدى منكما	كلا كما يدخل سم الخياط

ويرى أنه تصرف في ترجمة البيت الثالث. وأصله : ذهبت إلى الدار بالشعرة فقال أبى : منصور أى الاثنين؟. وفي الديوان بيتان قبل هذه الثلاثة. ومن الترجمة التي يتجلى فيها أسلوب الفارسية هذان البيتان:

فؤادك أين ؟ سباه بماذا	بمقلته، من؟ غزال ريب
سلابا. نعم . أين؟ وسط الطريق	متى ؟ اليوم هذا سلاب غريب

وهى تذكر دارس الأدب الفارسي بمطلع قصيدة محتشم من شعراء الدولة الصفوية في رثاء آل البيت.

وفى الديوان قطعة فيها كلمات وشطرات فارسية، والشعر المنظوم بلغتين أو أكثر يسمى الملمع فى عرف أدباء الفرس أو الترك وهو كثير عندهم .. ويكثر فى شعره المجزوء، ولاسيما الهزج والكامل. وسعود إلى هذا حين الكلام فى سجع.

ويبدو أن بديع الزمان نظم معظم شعره فى أوائل حياته. فى الديوان أبيات نظمها وهو فى الثانية عشرة، وهو يذكر سن العشرين فى بعض شعره:
إنى بعشرين تصاريف ما بعد الثمانين تعرفتها

ويذكر الخامسة والعشرين وهو يمدح خلف بن أحمد :

ألم يك فى خمس وعشرين حجة تسنمتها هاد لمثلى الطرائق

ثم هو يلعن النظم فى كلامه عن الخوارزمى فى بعض رسائله، وذلك دليل على أنه مال عن الشعر: "هو خوارزمى، ولست من خوارزم، وهو شاعر ولعن الله النظم"

ويلحق بالديوان شعره فى الرسائل والمقامات وذلك فى معظمه قطع قصيرة جيدة. وشعر البديع عامة سهل جيد المعانى منقح الألفاظ، يتجلى فيه تهذيب الكتاب، إذا استثنينا الشعر المرتجل وشعر الألفاظ ونحوه مما لا يقام له فى الأدب وزن، ولكنه لا يبلغ الدرجة العليا إلا قليلاً، وبديع الزمان عند نفسه وعند الناس كاتب يقول الشعر، ولكنه يرى أن البليغ من أجاد الصناعيتين: يقول فى المقامة الجاحظية: "إن الجاحظ فى أحد شقى البلاغة يقطف. وفى الآخر يقف. والبليغ من لم يقصر نظمه عن نثره، ولم يذر كلامه بشعره، فهل ترون للجاحظ شعراً رائعاً ..

كتابة الهمداني :

فى القرن الرابع الهجرى بلغت الكتابة العربية درجة من الصناعة والتأنق لم تخل بسلامتها ولم تذهب بمعانيها - تولاهما كتاب قادرون صرفوها فى أغراض شتى واختاروا من الألفاظ والأساليب الجميل المحلى، دون إغراب ولا إخلال بالمعاني، وتناولت الكتابة كثيراً من فنون الشعر كالممدح والهجاء والغزل والوصف: إلى ما كان لها قبلا من الموضوعات، فأتسع المجال لذوى الفكر الناقد والقلب الشاعر، لم يقيدهم فى النثر ما قيد الشعراء من الأوزان والقوافى والاصطلاحات. وكان كثير من الكتاب يلتزم السجع، ومنهم من يكتفى بالازدواج، وقليل منهم يرسل الكلام إرسالاً، وفى هذا العصر نبغ أنمة الكتابة كابن العميد والصاحب والصابي والمهلبى وقابوس، والخوارزمى، وبديع الزمان. ولم يكن بديع الزمان كمعظم هؤلاء وزيراً أو ذا منصب،

فلم تستغرق كتابته أمور الدولة، وكثرت في رسائله الموضوعات الخاصة والعامية. واستبان نواح من عصره في السياسة والأخلاق، والآداب وغيرها. والبديع يلتزم السجع إلا قليلا. وهو في الرسائل أسجع منه في المقامات، وجمله قصيرة وسجعه متقارب. وذلك أحسبه نتاج الطبع الذكي الحساس، الذي يود أن يسمع الأنغام متتابعة رنانة. وذلك ما جعله يؤثر في كثير من شعره الأوزان المجزوءة. وهو في الرسائل يترك السجع أحيانا إلى المزوجة أو الإرسال كقوله في رسالته إلى أبي الطيب عن الأمير خلف بن أحمد: "فلما أيفع وارتفع، طالبتة الهمة العلياء يرفض الدنيا. حتى يؤدي فرض الله في الحج، فقام عن سرير الملك، إلى سبيل النسك، فحج البيت، ودرس العلم حتى علم ناسخ الكتاب ومنسوخه، ومباحه ومحظوره إلخ" وكذلك في المقامات يترك السجع أحيانا ولاسيما في رواية عيسى بن هشام. وقد يأتي بثلاث سجعات متواليات أو أربع، بل يتابع في الرسائل عشر سجعات أحيانا كقوله: "ونادمته والمنادمة رضاع ثان، وطاعمته والمواكلة نسب دان، سافرت معه والسفر والأخوة رضيعا لبنان، وقمت بين يديه والقيام والصلاة شريكا عنان، وأثنت عليه. والثناء من الله تعالى بكل لسان، وأخلصت له والإخلاص محمود من كل إنسان". ثم أربع سجعات أخرى على هذا الروي^(١)، وقد جعل السجع مركبا على رويين في أربع فواصل أو ست كقوله في رسالة خلف بن أحمد: "وكان هذا العالم قد أحسن عملا فجعل هذا الملك ثوابه، وكان هذا الملك قد أساء مثلا فجعل هذا العالم عقابه"، وقوله: فكان ما أضعناه، كأننا زرعناه، فأبنت سبع سنابل، وكان ما فقدناه، كأننا أقرضناه هذا الملك العادل.. وقد يسجع في أثناء الجملة قبل تمام المعنى كقوله: "حقا أقول إن التمرة، بالبصرة، أقل خطرا من البدرة، بهذه الحضرة، وأنى أيد الله القاضى على قرب العهد، بالمهد، قطعت عرض الأرض، وعاشرت أجناس الناس"^(٢)، ومما يكثر في نثر البديع تحليته بالشعر، وقد قال الثعالبي في ذلك: "ويوشح القصيدة الفريدة من قوله، بالرسالة الشريفة من إنشائه، فيقرأ من النثر والنظم، وهو لا يكتفى بتفصيل نثره بأبيات من الشعر، بل يصل النثر بالشعر حتى يتوقف معنى كل منهما على الثاني، كرسالته إلى الخوارزمي التي ذكرناها فيما تقدم. وكقوله في مدح أبي جعفر الميكالى:

ولو نظمت الثريا والشعرين قريضا
وكامل الأرض ضربا وشعب رضوى عروضا

(١) الرسائل ص ١٣٠.

(٢) الرسائل ص ١٦٣ و١٦٤.

وصغت للدر ضندا	أو لالهواء نقيضا
بل لوجلوت عليه	سود النوائب بيضا
أو ادعيت الثريا	لأخصيه حضيضا
والبحر عبد لهاه	عند العطاء مغيضا

لما كنت إلا في ذمة القصور، وجانب التقصير^(١). ومن أحسن افتنانه في ذلك المقامة الوعظية التي لاءم فيها بين المنثور والمنظوم أحسن ملاءمة، ويجد قارئ الرسائل والمقامات قطعا من إحداها في الأخرى؛ فمقامة الوصية التي يوصى فيها تاجر ابنه معظمها في إحدى رسائله^(٢)، وبعض المقامة النيسابورية ومعظم العلمية، في رسالة إلى أبي القاسم الكرجي التي وصف فيها بعض القضاة. وبعض المقامة الملوكية التي مدح بها خلف بن أحمد في رسالة يمدح فيها الملك نفسه، وكذلك نجد في الديوان والرسائل والمقامات وصف وقائع واحدة، كلقاء الأسد في الديوان والمقامة الأسدية، وقطع الأعراب طريقه في هذه المقامة والرسائل. وذلك يثبت أن المقامات تمثل كثيراً من حوادث زمانه.

نشأ البديع في عصر بلغ فيه الأدب العربي أوجه، وازدهر فيه الأدب الفارسي، وقد عرفنا أنه ترجم كثيراً من الأبيات الفارسية في ديوانه. فهل ظهر أثر الفارسية في معانيه وألفاظه؟ أثر قليل؛ فمن المعاني الشائعة في الأدب الفارسي قوله: "أو لم يكفنا الجرح، حتى ذر عليه الملح، وقوله: "أنا العبد قرطك في أذنه مطيعا، وطوقك في عنقه"، فهي عبارة فارسية شاعت حتى كنى عن العبودية بالحلقة في الأذن، وقوله: "هيفاء لا تسع العيون جمالاً"، فتسع هنا تشبه كنجد بالفارسية، ومن الألفاظ الفارسية أو العربية المستعملة على الأسلوب الفارسي قوله في مدح السلطان محمود:

إذا ماركب الفيل	لحرب أو لمسيدان
رأت عينناك سلطانا	على كاهل شيطان

ويجمع نثر بديع الزمان الرسائل والمقامات .. أما رسائله فهي ثلاث وثلاثون ومائتا رسالة تناول فيها أغراضا كثيرة. والبديع مخترع هذه القصص الخيالية التي عرفت في الأدب العربي باسم المقامات، وأما روايات اللغويين فقد رويت على أنها حقائق وأريد بها رواية اللغة قبل أي شيء آخر، وحديث الراوي فيها مرسل لا صناعة

(١) الرسائل ص ٤٣.

(٢) الرسائل ص ١٧١.

فيه، ولا يقصد في الرواية، على حين يستوى في المقامة أو يتقارب من حيث البلاغة والفصاحة حديث عيسى بن هشام وكلام أبي الفتح الإسكندري. وأما تسمية هذه القصص بالمقامات، فلأن أبا الفتح يقوم فيها واعظاً أو مستجدياً أو محتالاً وهلم جرا، وفي القرآن "عسى أن يعثك ربك مقاماً محموداً". وفي شعر لبيد:

ومقام ضيق فرجته بلسان وبيان وجدل

وقد استعملت كلمة "مقامة" في معنى مقام. وفي رسائل الخوارزمي "ولكل مقامة مقالة"^(١). وفي شرح الشريشي لمقامات الحريري "والمقامات: المجالس واحدها مقامة. والحديث يجمع له ويجلس لاستماعه يسمى مقامة ومجلساً؛ لأن المستمعين للمحدث ما بين قائم وجالس، ولأن المحدث يقوم ببعضه تارة ويجلس ببعضه أخرى، قال الأعلام: المقامة لمجلس يقوم فيه الخطيب يحض على فعل الخير." والهمذاني نفسه يبين ذلك بقوله في المقامة الوعظية "قال عيسى ابن هشام فقلت لبعض الحاضرين من هذا؟ قال شخص قد طراً لا أعرفه. فاصبر عليه إلى آخر مقامته، لعله ينبىء عن علامته" يقول الثعالبي إن بديع الزمان أملى المقامات في نيسابور، ويظهر أنه أملى معظمها هناك، وأنه أملى بعد مقامات أخرى كالمقامات الست التي مدح بها خلف بن أحمد أمير سجستان. والحصري يدلنا على تاريخ المقامة الحمدانية، يقول: إن البديع أملاها في شهور سنة خمس وثمانين وثلاثمائة: وأظنه أملى معظم المقامات قبل هذا. ويروي الشريشي عن بعض أشياخه أن البديع ارتجل المقامات، وأنه كان يقول لأصحابه اقترحوا غرضاً نبني عليه مقامة فيقترحون ما شاءوا فيملى عليهم المقامة ارتجالاً. ولا أحسب هذا حقاً، فبديع الزمان نفسه لم يدع هذا، وقد فخر بالمقامات على الخوارزمي وتحداه أن يأتي بمثلها، ولم يتحد بذكر الارتجال، بل قال أملاها والإملاء لا يقتضى ارتجالاً. وأراد البديع بمقاماته أن يدل على تمكنه في اللغة ومكانته من البلاغة، وقدرته على تصريف القول في فنون شتى هذا غرضه الأول، وقد سلك إلى هذا الغرض موضوعات كثيرة. وليست الكدية موضوع المقامات كلها، بل كثير منها لا كدية فيه، وفي كثير منها لا يقف أبو الفتح موقف المستجدي، وأما عيسى بن هشام وأبو الفتح الإسكندري فيقول الحريري في مقدماته: "وكلاهما مجهول لا يعرف، ونكرة لا تتعرف."^(٢) وكأنه يريد أن يقول إنهما

(١) ص ٨٠ ط القاهرة.

(٢) كشفت لأول مرة عن شخصية أبي الفتح الإسكندري وأنه هو مسعر بن مهلهل الملقب بأبي دلف الخزرجي (راجع كتاب أبو دلف الخزرجي عبقرى من ينبع للمؤلف، وكتاب أبو الفتح الإسكندري بطل مقامات بديع الزمان وشخصيته المجهولة للمؤلف أيضاً أو الخفاجي).

ليسا كآبى زيد السروجى، عيسى بن هشام لا ينتسب إلى بلد، وفى بعض المقامات كلام يمكن أن يؤخذ منه أنه ينتسب إلى الأزدي، وأبو الفتح انتسب فى المقامة العراقية إلى عيسى، وهو منسوب إلى الإسكندرية من الثغور الأموية وهى نسبة غريبة. ماذا يريد بالثغور الأموية؟ يرى شارحو المقامات أنها ثغور الأندلس، وكانت بها إذ ذاك دولة بنى أمية. وهذا غريب كذلك فما عرف فى كتب التاريخ أو تقويم البلدان اسم الثغور الأموية، ولا الظن بالبديع أنه ينسب صاحبه إلى الأندلس ويسمىها الثغور الأموية، وهو رجل يكره الأمويين كما يؤخذ من شعره. نرى فى المسألة وجها آخر لا أجزم به؛ ولكنى أرجحه. ذلك أن تقرأ (الثغور الأموية). نسبة إلى مدينة آمو أو أموية وهى مدينة آمل الشط على نهر جيحون أو نسبة إلى جيحون وهو يسمى آمودريا أى نهر آمو. ويقول ياقوت فى معجم البلدان. وهو يعدد المدن التى سميت الإسكندرية: "ومنها الإسكندرية التى على شاطئ النهر الأعظم." هذا إلا أن يكون البديع نسب صاحبه الذى لا يستقر فى مكان نسبة لا يعرفها أحد. وبعض المقامات لا يسمى فيها أبو الفتح، وإن عرف بصفاته كالأهوازىة والبصرية، وبعضها يخلو من أبى الفتح اسما وفعلا كالمقامة البغدادية والنهدية. وأحيانا يأتى أبو الفتح فى آخر المقامة بعد مضى معظم حوادثها كالمقامة الأسدية التى تصف لقاء عيسى بن هشام وأصحابه الأسد، ثم قاطع طريق ثم لقاء أبى الفتح بعد ورودهم حمص.

ويقول باحث معاصر^(١) عن نشأة المقامات : ويظن أن (الحريرى) هو أول من تحدث عن المنشئ الأول للمقامة، فقد كتب فى مقدمة مقاماته : "وبعد فإنه قد جرى ببعض أندية الأدب الذى ركزت فى هذا العصر ريحه، وخبث مصايحه، ذكر المقامات التى ابتدعها بديع الزمان، وعلامة همذان، رحمه الله؛ وعزا إلى أبى الفتح الإسكندرى نشأتها، وإلى عيسى بن هشام روايتها؛ وكلاهما مجهول لا يعرف، ونكرة لا يتعرف، إلى أن قال : هذا مع اعترافى بأن البديع سباق غايات، وصاحب آيات، وأن المتصدى بعده لإنشاء مقامة، ولو أوتى بلاغة قدامة، لا يعترف إلا من فضالته، ولا يسرى ذلك المسرى إلا بدلالته والله در القائل.

فلو قبل مبكاها بكيت صباية
بسعدى شفيت النفس قبل التندم
ولكن بكت قبلى فهاج لى البكاء
بكاها فقلت : الفضل للمتقدم "

(١) الأستاذ على العمارى (مجلة الأزهر ١٩٤٣)، وهو متأثر فى هذا الرأى بزكى مبارك فى كتابه النثر الفنى (١):

هذا ما قاله الحريري، وجرى عليه كثير من المؤلفين، غير أن هذا الرأي لا يثبت للنظرة الأولى، فإن ابن فارس صاحب كتاب المجمل، وأستاذ البديع، كان قد وضع مقامات، ولا تزال منها المقامة الفقهية المتضمنة نحو المائة مسألة، وبدهى أن التلميذ يترسم خطأ أستاذه وينسج على منواله. لكن الباحثين لم يقفوا عند هذا الحد. فذهبوا يفتشون في بطون الكتب عليهم يجدون من هو أسبق من البديع ومن أستاذه، وقد كان نص الحصرى في زهر الآداب مصباحاً اهتدى به بعض الباحثين، فأسند نشأة المقامة إلى أبي بكر بن دريد صاحب الجمهرة، وهذا هو النص "ولما رأى - يعنى البديع - أبا بكر محمد بن الحسن بن دريد أغرب بأربعين حديثاً وذكر أنه استنبطها من يبايع صدره، واستنخبها من معادن فكره، وأبداها للأبصار والبصائر، وأهداها للأفكار والضمانر، في معارض عجمية، وألفاظ حوشية، إلخ".

وقال الدكتور زكى مبارك معلقاً على هذا: "مؤدى هذا الكلام أن بديع الزمان ليس مبتكر فن المقامات، وأنه حاكى ابن دريد فى أحاديثه" ورأى الدكتور طه حسين: أن مقامات ابن دريد قد تكون هى هذه الأحاديث الصغيرة المروية عنه فى كتاب الأمالى لأبى على القالى. ولا نقف طويلاً عند هذا الرأى أو ذاك، فقد كفانا الحصرى نفسه مؤونة هذه الوقفة حين قال: "ولا مناسبة بين المقامتين لفظاً ولا معنى" وإذن فلم يبق إلا أن ابن دريد تخيل بعض الأحاديث على السنة الأعراب وهكذا فعل البديع، وما نظن أن هذا كاف فى سلب البديع فضل السبق فى هذا، على أنى أضن أن هذه المقالة وقعت للحصرى من بعض أعداء البديع الذين كانوا يكرهونه، ولا يقدرّون على نقده ولا مجابته، فدرسوا هذه الكلمة لينصوا من شأن مقاماته. وهذا جهد الحاسد العاجز. على أننا نرجع إلى عصر ابن دريد فنجد رجلاً يشبه البديع والبديع يشبهه إلى حد بعيد؛ ذلك الرجل هو المطهر الأزدي^(١) مؤلف (حكاية أبى القاسم البغدادى التميمى) التى يقول فيها^(٢): ولعهدى بهذا الحديث سنة ست وثلاثمائة" وقد طبعها آدم ميترا الألمانى. نطالع هذه القصة ثم نطالع بعدها مقامات البديع وآثاره الأدبية فلا يخالجنّا شك فى أن الثانى أخذ من الأول وحذا حذوه لعدة أسباب:

١ - نظن أن الأزدي أول من أطلق كلمة مقامة على ما يحكى فى مجلس من المجالس، وقد وردت هذه الكلمة فى مقدمة رسالته قال "هذا الذى أحصله من

^١ هو محمد بن أحمد المطهر الأزدي وهو فى المائة الخامسة لا المائة الرابعة. وهذا ما ينفى كلام العمارى

وكلام الدكتور زكى مبارك راجع ص ١٤٨ : ٣ الأدب العربى لبروكلمان.

^٢ ليس هو القائل بما هذا رواية عن شخص آخر يتحدث عن نفسه.

أدب غيرى وأقتنيه، وأتحدى به وأدعيه وأرويه، من ملح ما تنفسوا به وتنافسوا فيه، ويصدق شاهدي عليه أشعار لنفسي دونتها، ورسائل سيرتها، ومقامات حضرتها، ثم إن هذه حكاية رجل بغدادى كنت أعاشره برهة من الدهر، فيتفق منه ألفاظ مستحسنة ومستقبحة، وعبارات عن أهل بلده مستفصحة ومستفضحة. فأثبتها خاطري لتكون كالتذكرة، فى معرفة أخلاق البغداديين على تباين طبقاتهم، وكالأنموذج المأخوذ من عاداتهم".

ومحمد بن أحمد المطهر الأزدي فى المائة الخامسة للهجرة قص حكاية أبى القاسم البغدادى التميمى مصوراً بذلك نموذجاً ببغادياً أصيلاً من العادات والتقاليد، إذ يعرض حياة شيخ ببغدادى طفيلى وفح، ولكنه فصيح ذرب اللسان، ويقص مغامراته وأحاديثه فى يوم كامل ببغداد، ونشر "حكاية أبى القاسم" آدم متر فى هايدلبرج سنة ١٩٠٢ عن نسخة فى المتحف البريطانى أول رقم ١١٢٧، وانظر كتاب النثر الفنى لزكى مبارك ١: ٣٣٨ - ٣٥١، ١٤٨ / ٣ بروكلمان.

٢- شخصية أبى القاسم البغدادى، وشخصية أبى الفتح الإسكندرى، وهما الراويتان فى القصتين متشابهتان حتى فى التسمية، وهما خرافيتان، وكل منهما جمع أدوات النصب والاحتيال والنفاق، فترى الواحد منهما يدارى أهل المجلس وينافقهم، فيلبس ثوب التقى والصلاح، حتى إذا رآهم على استعداد للهزل انقلب لاعباً متمرداً عارفاً بغرائب الخلاعة والمجون^(١).

٣- ولعلنا نضع يد القارئ على أقوى دليل حين ننقل له كلمة لكل من الرجلين بينهما مشابهة قوية نرى فيهما كيف يسرد كل منهما الشتائم المستغربة والمستملحة، وكيف يتفان أحياً على المعنى الواحد، وقد وصفاً ثقيلاً فقال البغدادى: "يا أول ليلة الغريب إذا بعد عن الحبيب، يا طلعة الرقيب، يا يوم الأربعاء فى آخر صفر، يا لقاء الكابوس فى وقت السحر! إلى آخر ما قال على هذا النمط. ويقول البديع: يا أم حنين، يا غداة البين، يا رمد العين، يا فراق المجيبين، يا ساعة الحين، يا ثقل الدين.

(١) يقول بروكلمان: إن المطهر الأزدي صور بذلك نموذجاً ببغادياً أصيلاً من العادات والتقاليد، إذ يعرض حكاية شيخ ببغدادى طفيلى وفح ولكنه فصيح ذرب اللسان، ويقص مغامراته وأحاديثه فى يوم كامل ببغداد. وقد نشر آدم متر هذه الحكايات فى هايدلبرج سنة ١٩٠٢ عن نسخة فى المتحف البريطانى أول رقم ١١٢٧ ١٤٨ : ٣ بروكلمان.

٤- والناظر في أسلوب الرجلين يجد الطريقة واحدة؛ فكلاهما رقيق الأسلوب عذب العبارة. يكاد يلتزم السجع والازدواج، حتى عدد الفقرات يكاد يتساوى عندهما، كما أن سجع كل منهما قصير الفقرات.

٥- وصف كل منهما الحياة الاجتماعية في عصره؛ فحكاية أبي القاسم وصف لحياة بغداد وما فيها من خلاعة ولهو، وتدوين لكثير من عادات أهلها، وقد دون مظاهر الحضارة في عصره، وكذلك فعل البديع في مقاماته، وكما دوننا كثيرا من العادات، دوننا كثيرا من الألفاظ الجارية على الألسنة، ولهما صور فنية رائعة قصدا إليها رغبة في الدعابة.

٦- ينتقل المطهر من فن إلى فن في دعابة وظرف والحكاية كلها مجلس واحد، ولكنها فنون شتى، وكذلك نرى البديع ينتقل من حال إلى حال.

ويروى كتاب التراجم وعلماء الأدب الذين كتبوا عن بديع الزمان الهمداني المتوفى سنة ٣٩٨ أن مقاماته تبلغ أربعمائة مقامة، ومن بين هؤلاء الثعالبي م٤٢٩^(١). وياقوت م٦٢٦^(٢)، وابن خلكان م٦٨١^(٣).. ولكن الدكتور زكي مبارك يرجح أنها خمسون مقامة فقط، بدعوى أنه لم يحفظ له سواها، وأن الحريري حين عارض البديع لم ينشئ في معارضته غير خمسين مقامة، وأن البديع قد عارض ابن دريد بأحاديثه الأربعين، والمعارضة تتقارب^(٤). ولكن شكوك الدكتور لا تعتمد على دليل حسن مقبول ولا تنتهي إلى نتيجة حاسمة. وقد آن أن نصحح رأي علماء الأدب بأدلة دامغة تجعلنا نقبل روايتهم ويثق بها، وأهم هذه الأدلة أن هذا الإجماع الأدبي والتاريخي على أن مقامات البديع أربعمائة مقامة ينفي كل شبهة وظن؛ ثم إن البديع نفسه يروى لنا أن مقاماته أربعمائة مقامة، وإن شئت فراجع رسالة البديع إلى أبي المظفر يحذره من إسراف والده في التعصب عليه، وقرأ الفقرة الأخيرة من هذه الرسالة :

"ومن أملى من مقامات الكدية أربعمائة مقامة لا مناسبة بين المقامتين لفظا، ولا معنى، تحقيق الإنهاج لكشف عيوبه^(٥)"، فستزداد بعد ذلك يقينا على يقين بأن المقامات أربعمائة لا خمسون.

(١) ج ٤ ص ١٦٧ يتيمة الدهر.

(٢) ج ١ ص ٩٤ معجم الأدباء.

(٣) ج ١ ص ٣٩ ابن خلكان.

(٤) ٢٠٦ ج ١ النثر الفني.

(٥) ٢٢٧ رسائل البديع.

وهذه مقامة منها، هي المقامة القريضية للبديع:

حدثنا عيسى بن هشام، قال: "طرحتنى النوى مطارحها، حتى إذا وطنت جرجان الأقصى، فاستظهرت على الأيام بضياع، أجلت فيها يد العمارة، وأموال وقفها على التجارة، وحنوت جعلته مثابة، ورفقة اتخذتها صحابة. وجعلت للدار حاشيتى النهار، وللحنوت ما بينهما، فجلسنا يوماً نتذاكر القريض وأهله، وتلقاها شاب قد جلس غير بعيد، وكأنه لا يفهم، ويسكت وكأنه لا يعلم. حتى إذا مال الكلام بنا ميله، وجر الجدال فينا ذيله. قال: "قد أصبتم عذيقه، ووافيتم جذيله، ولو شئت للفظت وأفضت، ولو قلت لأصدرت وأوردت، ولجلوت الحق فى معرض بيان، يسمع الصم، وينزل العصم"، فقلت: "يا فاضل، أذن فقد منيت، وهات فقد أثيت". فدنا، وقال: "سلونى أجيبكم، واسمعوا أعجبكم" .. فقلنا: "ما تقول فى امرئ القيس؟" قال: "هو أول من وقف بالديار وعرصاتها، واغتدى والطير فى وكاناتها، ووصف الخيل بصفاتهما، لم يقل الشعر كاسباً، ولم يجد القول راغباً - ففضل من تفتق للحيلة لسانه، وانتجع للرغبة بنانه" قلنا: "فما تقول فى النابغة؟" قال: ينسب إذا عشق، ويثلب إذا حنق ويمدح إذا رغب، ويعتذر إذا رهب، ولا يرمى إلا صائباً" قلنا: "فما تقول فى زهير؟" قال: "يذيب الشعر والشعر يذيه، ويدعو القول والسحر يجيبه" قلنا: "فما تقول فى طرفة؟" قال: "هو ماء الأشعار وطينتها، وكنز القوافى ومدينتها، مات ولم تظهر أسرار دفائنه، ولم تفتح أغلاق خزائنه" قلنا: "فما تقول فى جرير والفرزدق؟ وأيهما أسبق؟" فقال: "جرير أرق شعراً، وأغزر غزراً، والفرزدق أمتن صخراً، وأكثر فخراً، وأشرف يوماً، والفرزدق أكثر روماً، وأكرم قوماً، وجرير إذا نسب أشجى، وإذا ثلب أردى، وإذا مدح أسنى، والفرزدق إن افتخر أجزى، وإذا احتقر أزرى، وإذا وصف أوفى" قلنا: "فما تقول فى المحدثين من الشعراء والمتقدمين منهم؟" قال: المتقدمون أشرف لفظاً، وأكثر من المعانى حظاً، والمتأخرون أطف صنغاً، وأروق نسجاً" قلنا: "فلو أريت من أشعارك، ورويت لنا من أخبارك" قال: "خذهما فى معرض واحد" وقال:

ممتطياً فى الضر أمراً مرا	"إما تسرونى أتغشى طمرا
ملاقياً منها صروفاً حمرا	مضطرباً على الليالى غمراً
فقد غنينا بالأمانى دهرا	أقصى أمانى طلوع الشعرا
وماء هذا الوجه أعلى سعرا	وكان هذا الحر أعلى قدراً
فى دار "دارا" وإوان "كسرى"	ضربت للسرا قباباً خضرا
وعاد عرف العيش عندى نكرا	فانقلب الدهر لبطن ظهراً

لم يبق من وفري إلا ذكرا ثم إلى اليوم هلم جرا
لولا عجوز لي بسر من را وأفرخ دون جبال بصرى
قد جلب الدهر عليهم ضرا قتلت، يا سادة، نفسى صبرا

قال عيسى بن هشام: "فأنته ما تاح، وأعرض عنا فراح. فجعلت أنفيه وأثبته، وأنكره وكأني أعرفه، ثم دلتنى عليه ثناياه، فقلت: الإسكندري والله. فقد كان فارقنا خشفاً، ووافنا جلفاً. ونهضت على إثره، ثم قبضت على خصره، وقلت: ألسنت أبا الفتح؟ ألم نر بك فينا وليداً، ولبثت فينا من عمرك سنين؟" فأى عجوز لك بسر من را". فضحك إلى، وقال:

ويحك هذا الزمان زور فلا يغرنك الغرور
لا تلتمزم حالة ولكن در بالليالي كما تدور

ولقد كان ابتكار البديع الهمداني (٣٥٨ - ٣٩٨ هـ، ٩٦٩ - ١٠٠٧ م) في القرن الرابع الهجري لفن المقامة حدثاً أدبياً جديداً في الأدب العربي.

فلقد بهر الأدباء والنقاد والرواة أسلوبها. ونزعة القصة فيها، وهذا الحوار الذي طالما دار بين بطلها أبي الفتح الإسكندري وراويها عيسى بن هشام، كما بهرهم هذا النموذج الفني الرفيع الذي تمثل شخصية الساساني أبي الفتح البطل. وفتن الناس بمقامات بديع الزمان افتتاً شديداً.

وليس هناك إلا البديع نفسه، فهو أبو المقامة في الأدب العربي، وصاحب الفضل في إنشائها، ويؤيد ذلك الحريري أبو محمد القاسم بن علي البصري (٤٤٦ - ٥١٦ هـ) في مقدمة مقاماته، فقد جعل ابتداع المقامات راجعاً إلى بديع الزمان، وعلامة همدان، وكذلك جعل الثعالبي في "اليتيمة" البديع أبا عذرتها، والواضع لأصولها وخطتها ويتابعهم في ذلك كثيرون منهم مارون عود مثلاً، إذ يقول^(١) إن خطة المقامات من عمل البديع، فهو الذي ألبسها هذا الطراز، وعلى طريقه هذه التي شقها سارت عجلة الأدب ألف عام، وعبئاً يحاول العثور على أثر لهذه الخطة عند غير البديع.

وكذلك ذهب مازن المبارك الذي يقول^(٢): فتح البديع باب فن جديد هو فن المقامة في الأدب العربي.

(١) ٢٤ "بديع الزمان" لمارون عود.

(٢) ص ١٦ "مجتمع الهمداني من خلال مقاماته" - مازن المبارك.

هذا هو الرأي السائد في نشأة المقامة، ولكن الحصري صاحب كتاب "زهر الآداب" يذهب في كتابه^(١) إلى أن البديع اقتبس فن المقامة من أحاديث ابن دريد (٢٢٣ - ٣٢١هـ)، ومعنى ذلك كما قال الدكتور زكي مبارك^(٢) أن البديع ليس هو المبتكر لفن المقامة، وإن كان له فضل في نشأتها، وينفى مؤلف كتاب "بديع الزمان راند القصة القصيرة" وهو الدكتور مصطفى الشكعة^(٣) أن تكون أحاديث ابن دريد ذات صلة بفن المقامة كما عرف عند البديع.

ويجعل آخرون البديع محتدياً حذو أستاذه ابن فارس (٣٩٥هـ) في رسائله الحوارية.

ويذكر آخرون، ومن بينهم الدكتور شوقي ضيف^(٤) أن البديع اقتبس مقاماته من كتابات الجاحظ وقصصه في البخلاء والحيوان والمحاسن والأضداد عن أهل الكدية، ومع جواز ذلك في المضمون، فإن شكل المقامة الفني يبقى جديداً كل الجدة عند البديع: وهناك على أية حال فرق بين البذرة والثمرة في أي عمل أدبي أو غير أدبي.

ويجعل بعض المستشرقين أساطير التوراة عند اليهود وقصة لقمان هما الملهمتان للبديع بفكرة المقامات، ويذكر آخر أن قصص جحا في الآداب الفارسية والعربية والتركية ذات أثر في نشأة المقامة، وهذا كله كلام يعوزه الدليل "ولا تنهض به الحجة"^(٥).

ويذهب آخرون إلى أن المقامة مقتبسة من أصل: فارسي، ولكن المنصفين من العرب والفرس ينفون أن تكون المقامات قد وجدت في الأدب الفارسي قبل بديع الزمان، إذ لم تعرف المقامة في الأدب الفارسي إلا بعد البديع بنحو قرن ونصف من الزمان. فأول مقامات كتبت بالفارسية هي للقاضي حميد الدين البلخي الذي بدأ بكتابتها عام ٥٥١هـ وتوفي بعد ذلك بسبع سنوات (٥٥٨هـ / ١١٦٤م) كما يقول براون، ويؤكد محمد تقي بهار^(٦) أن المقامة من اختراع البديع، وأن كل اختراع في الأدب العربي كان له صдаاه في الادب الفارسي، وأن حميد الدين قلد

(١) ٢٣٥:١ "زهر الآداب"

(٢) "النثر الفني" لزكي مبارك.

(٣) ص ٢٠٧ "بديع الزمان" للشكعة.

(٤) ٢٠ "المقامة" للدكتور شوقي ضيف - طبع دار المعارف.

(٥) راجع ١٤٦ "الحياة الأدبية في الأندلس والعصر العباسي الثاني" للمؤلف.

(٦) "تاريخ تطور النثر الفارسي" - محمد تقي بهار.

البديع والحريري في مقاماته ويذكر الأنوري إعجاب الفرس وافتانهم بمقامات حميد الدين.

إن هذه القصة الحوارية القصيرة، ذات المنهج الفني الملتزم، والصياغة الطريفة، والصنعة الجديدة، والفكرة الساسانية. التي دعيت مقامة، قد أنشأها بديع الزمان الهمداني، لتجابه مطالب الحياة الفنية والأدبية والفكرية والاجتماعية والسياسية المتجددة في عصره.

ولقد جعل بديع الزمان لمقاماته بطلاً ساسانياً هو أبو الفتح الإسكندري، وهو الذي مثل كل أدوارها، ونهض بجميع فصولها وقام بكل أحداثها.

وشخصية أبي الفتح - كما تبدو من خلال المقامات - شخصية رائعة حقاً، فهو بطل الموقف كله في المقامة، وهو - كما يصوره الهمداني - عالم وأديب وشاعر، وهو ناقد بليغ، ومغامر محتال ماهر، مشرد في الآفاق، تقسو عليه ظروف الحياة فلا يجد أمامه إلا الكدية والاحتيايل بكل أسلوب من أجل المال أو الطعام. وهو إلى ذلك كله مجرب حكيم خبير بالأيام وصروفها وعركها وعركته يجوب الآفاق ويخطب في الأندية، ويهز الناس بفصاحته وبلاغته.

وكنية أبي الفتح لعل البديع رمز بها إلى فتوحات هذا البطل وانتصاراته في مواقفه العجيبة في الكدية.

أما وصف الإسكندري الذي لازمه فقد يكون معززاً لذلك المعنى على أنه نسبة إلى الإسكندر، فتكون فتوحات أبي الفتح في أموال الناس شبيهة بفتوحات الإسكندر.

وقد يناقض ذلك أن أبا الفتح يكرر في مقاماته قوله "إسكندرية داري"^(١) نسبة إلى الإسكندرية لا إلى الإسكندر الأكبر المقدوني (٣٥٦ - ٣٢٣ ق.م). ويصح لنا أن نجتمع بين الأمرين، فتكون نسبته إلى الإسكندرية مقصوداً بها إلى الرمز إلى شبهه في فتوحاته الساسانية بفتوحات الإسكندر التي تنسب إلى مدينته.

ويقودنا ذلك إلى التساؤل: أية إسكندرية كان يعنى البديع، وكان ينتسب إليها أبو الفتح الساساني؟

(١) راجع مثلاً في المقامة الأربعين - العلمية - قول البديع:
إسكندرية داري لو قر فيها قراري

في المقامة التاسعة الجرجانية يقول أبو الفتح البطل متحدًا عن نفسه: إني امرؤ من أهل الإسكندرية من الثغور الأموية، وفي المقامة التاسعة والعشرين الحمدانية يقول: من الثغور الأموية والبلاد الإسكندرية ويكرر أبو الفتح نسبه إلى الإسكندرية في مواضع كثيرة أخرى.

فإذا رجعنا إلى ياقوت^(١) وحدناه يذكر أن الإسكندر بنى ثلاث عشرة مدينة سماها كلها باسمه، ثم تغيرت أسماؤها بعده. فمنها: إسكندرية مصر، والإسكندرية التي صار اسمها سمرقند، والتي صارت مرو، والتي سمت بعد باسم بلخ، وإسكندرية الأندلس التي على النهر الأعظم - نهر إشبيلية - وهي التي رجحها الإمام محمد عبده لوصف البديع لها بأنها من الثغور الأموية وقد كانت الخلافة الأموية تحكم الأندلس في القرن الرابع الهجري عصر البديع إلا أنني وجدت رحالة عربيًا في القرن الرابع - هو أبو دلف - يذكر مدينة المنصورة عاصمة السند، ويقول عنها: إن الخليفة الأموي مقيم بها^(٢)، فهل كانت هذه المدينة قديمًا تسمى الإسكندرية أيضًا، ليصبح أماننا احتمال جديد آخر، ويذكر باحث عراقي أن الإسكندرية بين بغداد والحلة^(٣)، ولكن ما صلتها إذن بالثغور الأموية؟.

ويذهب د. عبد الوهاب عزام إلى أن صفة الكلمة "الأموية" نسبة إلى نهر آموى^(٤) - جيحون - وبذلك تكون الإسكندرية المقصودة هي مدينة الإسكندر على نهر آموى .

ومع ذلك كله فلا نزال نسير في ببداء سحيقة.

فمن هو أبو الفتح الإسكندري إذا؟

١ - هناك رأى سائد أنه شخصية أسطورية خيالية محضة، كشخصية راوى المقامات عيسى بن هشام، يقول الحريري في مقدمة مقاماته :

كلاهما مجهول لا يعرف "ونكرة لا تتعرف" وهذا ما رجحته منذ عشرين عامًا في كتابي "الحياة الأدبية في الأندلس والعصر العباسي الثاني"^(٥) ويؤكد ذلك المستشرق الفرنسي إيوار، فيقول: وضع البديع شخصًا خياليًا ابتكره وسماه أبا الفتح،

(١) ٢٣٥ / ١ معجم البلدان.

(٢) هذا النص منقول عن معجم البلدان راجع ٣٠٩ / ٥ معجم البلدان.

(٣) يعد رسالة دكتوراه عن مقامات الحريري، وهو طارق العوسج، وهو مدرس بمكة المكرمة حاليًا.

(٤) ٢٣٤ بديع الزمان للشكعة نقلًا عن محاضرات د. عزام في كلية الآداب عام ١٩٤٤م.

(٥) ص ١٤٧ الكتاب المذكور طبع القاهرة ١٩٥٧.

وذهب بعض الباحثين إلى أن عيسى بن هشام راوية المقامات كان شيخاً للبديع، ومنهم أبو شجاع شيرويه (٥٠٩هـ) مؤلف تاريخ همذان، وينقل ذلك عنه ياقوت في معجم الأدباء ولعل ذلك وهم ناشيء من قول البديع في مطلع كل مقامة من مقاماته: حدثنا عيسى بن هشام، ولو ذهبنا إلى أن أبا الفتح هو الذي كان أستاذاً للبديع لكان ذلك أكثر صلة بالبحث، وأكبر انطباقاً على الموضوع.

وممن ذهب إلى أن هاتين الشخصيتين خياليتان مؤلف كتاب "بديع الزمان" الدكتور الشكعة الذي يقول: حاولنا أن نجد لبطل المقامات صدى تاريخياً فلم نعث لهما على أثر والغالب أنهما من ابتكار خيال البديع نفسه^(١).

٢- وهناك رأى جديد هو أن شخصيات مقامات البديع كانت لأشخاص وجدوا بالفعل ويذهب إلى ذلك بعض المستشرقين "إلا أنهم لم يستطيعوا تحديد هؤلاء الأشخاص المجهولين، ولا الكشف عن شخصياتهم التاريخية.

وأنا معهم في ذلك. ولكنني أخطو خطوة جديدة من أجل الكشف عن شخصية أبي الفتح بطل المقامات البديعية.

يذهب باحث عراقي^(٢) سبق الإشارة إلى أن أبا الفتح هو البديع نفسه، ومن قبل قلت ذلك في كتابي "الحياة الأدبية في الأندلس والعصر العباسي الثاني"^(٣) حيث ذكرت أنه قد يكون في حياة أبي الفتح شيء من صفات البديع نفسه، وشيء من أخلاقه. ولكنني أخالف ذلك اليوم، وستبدو الحقيقة واضحة وكاملة بعد قليل.

ويذهب باحث آخر^(٤) إلى أن الكدية أو الساسانية التي كانت صناعة أبي الفتح "نجد من أعلامها في عصر البديع من يشبه أبا الفتح من وجوه كثيرة: كابن الحجاج (ت ٣٩١هـ)، وابن سكرة (ت ٣٨٥) وأبي الورد، ومن يشبهه من بعض الوجوه كأبي حيان التوحيدى، بل البديع نفسه، ومن يشبهه كل الشبه كأبي دلف والأحنف العكبرى" .. ومجمل هذا الرأي أن أشباه أبي الفتح الإسكندري كثيرون في عصر البديع، وأن أقربهم شهاً به هو أبو دلف والأحنف. وهذا الرأي لا يأتي لنا بجديد ولا بأمر مؤكد في البحث على أية حال، فلم يجزم هذا الباحث برأى معين له.

(١) بديع الزمان ص ٢٣٢.

(٢) هو طارق عبد الوهاب العوسج يحضر رسالة دكتوراه عن مقامات الحريري.

(٣) ١٥٧ و ١٥٨ الكتاب المذكور.

(٤) ص ٢٣٤ "الأدب في ظل بني بويه" للزهيري - طبع مصر ١٩٤٩.

٣- ورأى الذى أذهب إليه اليوم هو أن أبا الفتح إنما هو شخصية تاريخية معروفة فى عصر البديع، وهو أبو دلف الخزرجى وحده.

وهذا الرأى لا يسبقنى فيه باحث، وبه يفتح الباب أمامنا لفهم كثير من حقائق الأدب فى القرن الرابع .. ودليلنا عليه هو ما قاله الثعالبى فى "يتيمة الدهر"^(١) قال:

أنشدنى بديع الزمان لأبى دلف، ونسبه فى بعض المقامات إلى أبى الفتح الإسكندرى.

ويحك هذا الزمان زور فلا يفرنك الغرور^(٢)
لا تلزم حالة ولكن در بالليالى كما تدور

ومع هذا النص نعرف الحقائق الآتية:

- ١- أنشد البديع الثعالبى شعراً لأبى دلف.
- ٢- وهذا الشعر نفسه نسبه البديع فى مقاماته إلى أبى الفتح، فتكون النتيجة هى أن أبا الفتح هو أبو دلف نفسه بإقرار البديع.
- ٣- كان البديع راوية لشعر أبى دلف، ويبدو لى أن البديع كان ينزل أبا دلف من نفسه منزلة الأستاذ والمعلم.

وإذن يكون أمامنا رأى جديد نجزم به، هو أن البديع حين كتب مقاماته اختار أبا دلف أستاذه وصديقه ومعاصره بطلا للمقامات، وكنى عنه بأبى الفتح، وكان أبو دلف أروع نموذج ساسانى يصلح بطلا للمقامات لأن حياته وشخصيته وتجاربه مطابقة تمام المطابقة للنموذج الذى صوره البديع فى شخص أبى الفتح الإسكندرى، ولأن شهرة وتجارب أبى دلف كانت تصلح معيئاً يستقى منه البديع كل ما يريد أن يصور به أبا الفتح وذلك ما قد كان.

بل إنى أضيف إلى أن ذلك أن البديع الهمداني حين سمع قصص أبى دلف الشيخ الحكيم المجرب عن رحلاته وتطوافه فى البلاد واستمع إلى فكاهات هذا الشيخ وسمره فى مجالس الملوك والوزراء رأى أن هذه الصورة الفنية تصلح أساساً لفن جديد ابتكره وسماه "المقامة"، فكان أبو دلف هو الملهم للبديع الشاب

(١) ٣: ٢٥٤ يتيمة .

(٢) هذا الشعر فى المقامة القريضية إحدى مقامات البديع.

الذكي بابتكار فن المقاومة في الأدب العربي، في القرن الرابع، وفي عصر أبي دلف.

-٤-

وقد أطلعت بعد نشر هذا الرأي والانتهاه منه بزمن على دليل آخر يؤيدني في هذه القضية، ففي كتاب "النماذج الإنسانية في الدراسات الأدبية المقارنة يقول مؤلفه د. محمد غنيمي هلال ما نصه:

على أن ثمة شخصية تاريخية واقعية استملى منها الهمذاني نموذج الأدبي وهو الشاعر أبو دلف، وكان معاصرًا لبديع الزمان، وكان بديع الزمان يعجب به ويستدعيه إلى مجلسه، ويحسن إليه ويحفظ من شعره، والجانب الواقعي من أبي دلف قد أمد - دون ريب - بديع الزمان بالمادة الغفل لمقاماته ماثلة في شخصية الشاعر المذكور وأدبه، وقد ترك هذا الجانب الواقعي كذلك أثرًا في تصوير باطن نفسى لنموذج أبي الفتح.

ومع ما في هذه الجملة القصيرة من ذهاب إلى ما قلناه، من أن شخصية أبي دلف هي شخصية أبي الفتح الإسكندري بطل مقامات البديع، فإن فيها على قصرها أخطاء كثيرة هي:

أولاً: قوله: وكان - أي أبو دلف - معاصرًا لبديع الزمان.

فإن الأولى أن يقال: وكان البديع معاصرًا لأبي دلف لأن أبا دلف كان قد بلغ الستين على حين كان البديع ابن عامين، وكان أبو دلف نديم الملوك ومسامرهم ومحدثهم، والذي تفتح له أبوابهم دون حجاب.

ثانيًا: قوله: وكان - أي بديع الزمان يستدعيه - أي أبا دلف - إلى مجلسه أليس الأولى العكس، أيستقيم أن يذهب شيخ عظيم كبير السن إلى شاب صغير.

ثالثًا: قوله: وكان أي البديع - يحسن إليه، أي إلى أبي دلف. أبو دلف العظيم محدث الملوك وطرفة الدنيا، أكان في حاجة إلى إحسان شاب صغير فقير.. كلا فقد كان أبو دلف في ثراء مما ناله من عطاء الملوك ورفدهم عندما كان البديع لا يزال شابًا مجدًا طالبًا للشهرة وللمال معًا.

ألوان من شعر البديع الهمداني:

قال يمدح أحد أمراء:

م ورق أنفاس الصباح
على أنفاس الرياح
جسة وتبسم عن أقاح
تميس في ثني الوشاح
برد على كبد الوشاح
ح أم لنجمك من براح
ما بين ريحان وراح
غيري ولا لهم صلاح
حمة عاذلاتك في السماح
ح هواءك للبيض الصفاح
ح ولوع كفك بالرماح
وعلى إدمان امتداحي
يلوى يد القدر المتاح
ك لك المعلى في القداح

طرباً لقد رق الظلال
وسرى إلى القلب العليل
ومليحة تـرنو بـنـر
قامت وقد برد الحلى
تشدو وكل غنائها
ياليل هل لك من صبا
سأريق ماء شبيبتي
فسيم العتاب ولا لهم
ولعاذلاتي في الملبى
وهواي للبيض الصبا
وولوع كفى بالقدا
وعليك إدمان الكندي
فليعل رأيك إنه
وأفخر فإنك في الملو

وقال يمدح السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوي صاحب السندو
خراسان، المتوفى سنة ٤٢١. وقد كان بديع الزمان يتتبع خطواته، ويتعرف حركاته
وسكناته، ويهنئه بفتوحاته.. ومما قال في مدحه قصيدة شهيرة هي:

وزاد الله إيماني
أم الإسكندر الثاني
إلينا بسليمان
على أنجم سامان
عبيداً لابن خاقان
لحرب أولميدان
على منكب شيطان
إلى ساحة جرجان
إلى أقصى خراسان
وفى مفتوح الشان

تعالى الله ما شاء
أفريدون في التاج
أم الرحبة قد عادت
أظلت شمس محمود
وأمسى أهل بهرام
إذا ما ركب الفيل
رأت عينناك سلطانا
فمن واسطة الهند
ومن قاصية السند
على مقتبل العمر

ويوما رسل الخان	فَيوما رسل الشاه
عن طاعتك اثنان	فما يغرب بالمغرب
على كاهل كيوان	لك السرج إذا شنت
ويا صاحب غمدان	أيما والى بغداد
على سبعة ^(١) أركان	تأمل مائتي فيل
ويلعبن بثعبان ^(٢)	يقلبن أساطين

وقال يمدح ابن فريغون من الأمراء :

لقيت المنى والغنى والأميرا	ألم تر أنى فى نهضتى
ب و كنت امرأ لا أشم العبيرا	ولما التقينا شملت الترا
ن يعلو سحابا ويرسو ثبيرا	لقيت امرأ ملء عين الزما
ت يد أولا واعتذار أخيرا	لآل فريغون فى المكرما
رأيت نعيما وملكها كبيرا	إذا ما حللت بمنناهم

ومما قاله فى مدح بنى ميكال الفضلاء :

س من الناس مريح	يا غلام الكأس فاليا
لعلاتى مريح	يا بنى ميكال والجو
ففيكم لفسيح	شرفا إن مجال الفضل
ح يأتيك المديح	وعلى قدر سنا الممدوح
فع والطرف الطموح	فهناك الشرف الأز

ومن جيد مدحه قوله :

لو كان طلق المحيا يمطر الذهبا	وكان يحكيك صوب الغيث منسكبًا
والليث لو لم يصدو البحر لو عذبا	والدهر لو لم يخن والشمس لو نطقت

(١) أراد بالسبعة أركان الجيش وهي القلب والميمنة والميسرة والجناحان والساقة والمقدمة.
(٢) الغرض من الثعبان هو خرطوم الفيلة لأنه يشبه الثعبان فى طوله وتلويته.

أبو القاسم الحريري البصري

٤٤٦ - ٥١٦ هـ

كان أديبا فاضلاً نحويًا منشئًا، ومن مصنفاته درة الفواص في أوهام الخواص، وملحة الإعراب وشرحها والمقامات المشهورة، وجاء بها إلى بغداد وادعاها فلم يصدقه أدباؤها. وهذه المصنفات مطبوعة ومشهورة، وكان يقول نقلاً عن شيخه: إذا قلت ما أسود زيدا وما أسمر عمرا وما أصفر هذا الطائر وما أبيض هذه الحمامة وما أحمر هذه الفرس فسدت كل مسألة منها من وجه وصحت من وجه، فيفسد جميعها إذا أردت التعجب من الألوان، وتصح جميعها إذا أردت التعجب من سودد زيد وسمر عمرو وهو الحديث بالليل خاصة، ومن صفير الطائر وكثرة بيض الحمامة ومن حمر الفرس وهو أن ينتن فوها.. ومن شعره:

ولما تعامى الدهر وهو أبو الوري عن الرشد في أنحائه ومقاصده
تعاميت حتى قيل إنى أخو العمى ولا غرو أن يحدو الفتى حدو والده

وتوفي سنة ٥١٦ ببني حرام من البصرة، وقد شرح الشريشي المتوفى عام ٦٥٢ هـ مقامات الحريري شرحا واسعا وترجم ابن خلكان للحريري، فقال: هو أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري البصر الحرامي، كان أحد أئمة عصره، ورزق الحظوة التامة في عمله المقامات، وقد اشتملت على كثير من بلاغات العرب في لغاتها وأمثالها ورموز أسرار كلامها، ومن عرفها حق معرفتها استدل بها على فضل هذا الرجل وكثرة اطلاعه وغزارة مادته.. وكان سبب وضعه لها ما حكاه ولده أبو القاسم عبد الله قال: كان أبي جالسا في مسجد بني حرام فدخل شيخ ذو طمرين عليه أهبة السفر رث الحال فسيح الكلام حسن العبارة، فسألته الجماعة من أين الشيخ؟ فقال: من سروج، فاستخبروه عن كنيته، فقال: أبو زيد، فعمل أبي المقامة الثامنة والأربعين المعروفة بالحرامية، وعزاها إلى أبي زيد المذكور، واشتهرت، فبلغ خبرها الوزير شرف الدين أبا نصر أبو شروان بن خالد بن محمد الفاشاني وزير الإمام المسترشد بالله، فلما وقف عليها أعجبته، فأشار على والدي أن يضم إليها غيرها فأنمها خمسين مقامة، وإلى الوزير المذكور أشار الحريري في خطبة المقامات بقوله: "فأشار من إشارته حكم، وطاعته غنم، إلى أن أنشئ مقامات أتلو فيها تلو البديع، وإن لم يدرك الظالع شأو الضليع". وهكذا وجدته في عدة تواريخ، ثم رأيت في بعض شهور سنة ست وثمانين وستمائة بالقاهرة المحروسة نسخة مقامات،

وجميعها بخط مصنفها الحريري، وقد كتب أيضاً بخطه على ظهرها أنه صنفا للوزير جلال الدين عميد الدولة أبي الحسن علي بن أبي العز علي بن صدقة وزير المسترشد أيضاً، ولا شك أن هذا أصح من الرواية الأولى لكونه بخط المصنف، والله أعلم، وتوفي الوزير المذكور في رجب سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة، فهذا كان مستنده في نسبه إلى أبي زيد السروجي. وذكر القاضي الأكرم كمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف الشيباني القفطي وزير حلب في كتابه الذي سماه "إنباه الرواة على أبناء النحاة" أن أبا زيد المذكور اسمه المطهر بن سار، وكان بصريا نحويا لغويا، وصحب الحريري واشتغل عليه بالبصرة وتخرج به. وروى عنه القاضي أبو الفتح محمد بن أحمد بن المنداري "ملحة الأعراب" للحريري وذكر أنه سمعها منه عن الحريري، وقال قدم علينا واسط في سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة، فسمعتها منه وتوجه منها مصعدا إلى بغداد فوصلها، وأقام بها مدة يسيرة وتوفي بها رحمه الله تعالى، كذا ذكره السمعاني في الدليل، والعماد في الخريدة وقال: لقبه فخر الدين وتولى صدرية المشان، ومات بها بعد عام أربعين وخمسمائة، وأما تسمية الراوي لها بالحرث بن همام، فإنما عني به نفسه، هكذا وقفت عليه في بعض شروح المقامات، وهو مأخوذ من قول النبي ﷺ: "كلكم حارث وكلكم همام"، فالحرث الكاسب، والهمام الكثير الاهتمام، وما من شخص إلا وهو حارث وهمام، لأن كل واحد كاسب ومهتم بأموره.

وقد اعتنى بشرحها خلق كثير، فمنهم من طول ومنهم من اختصر، ورأيت في بعض المجاميع أن الحريري لما عمل المقامات كان قد عملها أربعين مقامة، حملها من البصرة إلى بغداد، وأبداها، فلم يصدقه في ذلك جماعة من أدباء بغداد وقالوا: إنها ليست من تصانيفه، بل هي لرجل مغربي من أهل البلاغة مات بالبصرة ووقعت أوراقه إليه فادعاها، فاستدعاه الوزير إلى الديوان وسأله عن صناعته، فقال أنا رجل منشىء، فاقترح عليه إنشاء رسالة في واقعة عينها، فأخذ الدواة والورقة وانفرد في ناحية من الديوان ومكث زمانا كثيرا فلم يفتح الله عليه بشيء من ذلك فقام وهو خجلان، وكان في جملة من أنكروا دعواه في عملها أبو القاسم علي بن أفلح الشاعر، فلما لم يعمل الحريري الرسالة التي اقترحها عليه الوزير أنشد هذين البيتين، وقيل إنهما لأبي محمد بن أحمد المعروف بابن جكيته الحريمي البغدادي الشاعر وهما:

ينستف عشنونه من الهوس
رماه وسط الديوان بالخرس

شيخ لنا من ربيعة الفرس
أنطقه الله بالمشان كما

وللحريري تآليف حسان، منها درة الغواص في أوهام الخواص، ومنها ملحمة الإعراب المنظومة في النحو، وله أيضاً شرحها، وله ديوان رسائل، وشعر كثير غير شعره الذي في المقامات، فمن ذلك قوله وهو معني حسن:

قال العواذل ما هذا الغرام به أما ترى الشعر في خديه قد نبنا
فقلت والله لو أن المفسند لي تأمل الرشد في عينيه ما ثبتنا
ومن أقام بأرض وهي مجدبة فكيف يرحل عنها والربيع أتى

ومنه ما ذكره عماد الدين الأصبهاني في كتاب الخريدة:

كم ظباء بحاجر فتننت بالمحاجر
ونفوس نفانس حذرت بالمحادر
وتثن الخاطر هاج وجد الخاطر
وعذار لأجله عاذلي عاد عاذري
وشجون تضافت عند كشف الضفائر

وله قصائد استعمل فيها التجنيس كثيرا، ويحكي أنه كان دميما قبيح المنظر، فجاءه شخص غريب يزوره ويأخذ عنه شيئا؛ فلما رآه استزرى شكله ففهم الحريري ذلك؛ فلما التمس منه أن يملئ عليه قال له اكتب:

ما أنت أول سار غره قمر ورائد أعجبتة خضرة الدمن
فاختر لنفسك غيري إنني رجل مثل المعيدى فاسمع بي ولا ترني

فخجل الرجل وانصرف. وكانت ولادة الحريري في سنة ست وأربعين وأربعمائة؛ وتوفي سنة عشر وقيل خمس أو ست عشرة وخمسمائة بالبصرة.

ألوان جديدة من الأدب في العصر العباسي

ظهر في العصر العباسي الكبير كثير من الألوان والفنون الأدبية الجديدة:
وفي مقدمتها:

- ١- أدب المقامة.
- ٢- الأدب الصوفي.

- ٣- أدب الزهد.
- ٤- أدب السخرية كما نراه في: "رسالة التربيع والتدوير" للجاحظ؛ وفي قصائد ابن الرومي وغيره من الشعراء.
- ٥- أدب القصة الخيالية: كما في رسالة الغفران وغيرها.
- ٦- أدب الحكمة المزدوجة بألوان عميقة من الفلسفة والتفكير العقلي.
- ٧- أدب النقد والموازنة الأدبية.
- ٨- النقد الاجتماعي.
- ٩- أدب الطبيعة.
- ١٠- أدب السمر والقصة.
- ١١- أدب الخطابة الدينية.
- ١٢- أدب الغلمان بما يشتمل عليه من غزل بالمدح وسواه.

وهذه الألوان العديدة، قد عرضنا لها في ثنايا فصول هذا الكتاب، والذي لم نتعرض له منها فلأنه موضوع بحوث مستقلة، ستشر في كتب أخرى غير هذا الكتاب.

وإني في غنى عن أن أقول: إن العصر العباسي قد أحدث آثارا عميقة في الأدب، ووجهه توجيهًا جديدًا، ودراسة ذلك كله هي التي حفزني إلى إخراج هذا الكتاب، وسيحفزني لإخراج كتب أخرى مكمله لبحوثه، ومتممة لدراساته، إذا وفق الله، وسدد الخطى، وأرشدنا إلى سواء السبيل.

القسم السابع

صور من الأدب العباسي

صور من الأدب العباسي

- ١ -

دخل رجل^(١) بدوى عليه شعث السفر، على داود^(٢) المهلبى - وكان إذا حضر الطعام يتقدم بصرف البوابين، ولا يمنع من الوصول إلى طعامه - فلما فرغ من الطعام وثب قائماً وأومى إليه، وقال: من أنت يا فتى؟ قال: شاعر، قصدتك بأبيات من الشعر. قال داود: مهلاً قليلاً، ثم دعا بقوس فأوترها^(٣)، وأومى إليه وقال له: قل، فإن أنت أحسنت خلعت وأجزلت، وإن أخطأت رميتك بهذا السهم يقع فى أى موضع يقع فيه، فتبسم البدوى، وقال:

أمنت بـداود وجود يمينه	من الحدث المرهوب والبؤس والفقر
وأصبحت لا أخشى بـداود نبوة	ولا حدثانا إن شددت به أزرى
له حكم لقمان وصورة يوسف	وملك سليمان وصدق أبى ذر
فتى تهرب الأموال من جود كفه	كما يهرب الشيطان من ليلة القدر
فقوسك قوس الجود والوتر الندى	وسهمك فيه الموت فاقتل به فقرى

فضحك داود ورمى بسهمه مع القوس من يده، وقال: يا فتى العرب، بالله هل كان ذكر القوس فى الأبيات؟ فقال: لا والله! وفرح بذلك، وقال: يا فتى العرب بالله أيهما أحب إليك: أعطيك على قدرك أم على قدرى؟ قال: بل على قدرى قال: كم على قدرك؟ قال: مائة ألف درهم، فأمر له بها، ثم قال: ما منعك أن تقول على قدرى؟ فقال: أيها الأمير، أردت أن أقول ذلك. فإذا الأرض لم تساو قدر الأمير، فطلبت على قدرى! فقال: لله درك! والله إن نثرى لأحسن من نظمك! وأمر له بمائة ألف ثانية، وأمره ألا ينقطع عنه.

(١) المختار من نوادر الأخبار - مخطوط.

(٢) هو داود بن زيد بن حاتم المهلبى. كان والياً على إفريقية. ثم ولاد الرشيد السند. فانسقت له أمورها، واستمر بها إلى أن توفى سنة ٢٠٥ هـ.

(٣) أوتر قوسه: جعل لها وترًا.

وقال العنابي: كنا بباب الفضل بن يحيى البرمكى أربعة آلاف ما بين شاعر وزائر، وفينا فتى^(١) يحدثنا ونجتمع إليه؛ فبينما هو ذات يوم قاعد إذ أقبل إليه غلام له! فقال له: يا مولاي؛ أخرجتني من بين أبوي، وزعمت أن لك صلة بالملوك، فقد صرنا إلى أسوأ ما يكون من الحال. فإن رأيت أن تأذن لي فانصرف إلى أبوي فعلت! فاغرورقت عينا الفتى، ثم قال: انتنى بدواة وقرطاس، فأتاه بهما فقعد؛ فكتب رقعة، ثم قام إلى مجلسه، ثم قال للغلام: انصرف إلى وقت رجوعي إليك. فبينما نحن كذلك إذ جاء رجل يستأذن على الفضل، فقام إليه الفتى، فقال: توصل رقعتي هذه إلى الأمير؟ قال: وما في رقعتك؟ قال: أمدح نفسي، وأحث الأمير على قبولي، قال: هذه حاجة لك دون الأمير، فإن رأيت أن تعفيني فعلت! قال: قد فعلت. فعاد إلى مجلسه، فخرج الحاجب فقام إليه، فقال له مثل مقالته الأولى. فاستظرفه الحاجب، وقال: إن رجلا يمدح نفسه ولا يمدح الفضل عجيب! فأخذ منه الرقعة فلوحبها للفضل. فقرأ منها سطرين، وهو مستلق على فراشه، ثم استوى قاعداً، وتناول الرقعة، فقرأها، فلما فرغ قال للحاجب: أين صاحب الرقعة؟ قال: أعز الله الأمير: والله لا أعرفه لكثرة من بالباب؛ فقال الفضل أنا أنبذ لك الساعة: يا غلام! اصعد القصر: فناد أين مادح نفسه؟ فقام الغلام فصاح: فقام الفتى من بيننا بغير رداء ولا حذاء! فلما مثل بين يدي الفضل، قال له: أنت القائل ما فيها؟ قال: نعم قال: أنشدني، فأنشأ الفتى يقول:

من كسنوز الأمير ذو أرباح
ناصر زائد على النصاح
شة مما يكون تحت الجناح^(١)
أنافيه قلادة بوشاح
بقول منور الإفصاح
وقول النسيب والأمداح
وبصير بترهات الملاح
هو عند الملوك كالفتاح

أنا من بغية^(٢) الأمير وكنز
كاتب حاسب خطيب أديب
شاعر مفلق أخف من الريد
لي في النحو فطنة واتقاد
ثم أروى من ابن سيرين للعلم
ثم أروى من ابن سيرين للشعر
وظريف الحديث في كل فن
كم وكم قد خبات عندي حديثا

(١) الأوراق للصولي ص ٤.

(٢) الشاعر المفلق: المبدع، وأخف الريش وأدقه ما يكون تحت الجناح، وأراد بالخفة خفة الروح.

(٣) من بغيته مطالبه، يريد أن الأمير لو اصطنعه واصطفاه لرأى فيه خيراً كثيراً. وقد عدد مزايا نفسه في البيتين بعدد.

وتناجى فى المشكل الفداح
لغدو دعيت أو لرواح
وبالخيرد الحسان الصباح
على أننى ظريف المزاح
الماجن الخليع الوقاح
رماحا ثلمت حد السرماح
لسوى أمر سيدى ذى السماح

فبمثلى تخلو الملوك وتلهو
أيمن الناس طائرا يوم صيد
أبصر الناس بالجواهر والخيل
كل ذا قد جمعت والحمد لله
لست بالناسك المشمر ثوبيه ولا
إن رمى بى الأمير أصلحه الله
ما أنا واهن ولا مستكين

حتى أتى على آخرها. فقال له الفضل :

كاتب، حاسب، خطيب، أديب، ناصح زائد على النصح!؟

قال : نعم! أصلح الله الأمير، فقال الفضل : يا غلام، الكتب التى وردت من فارس! فأتى بها، فقال للفتى : خذها فاقراها وأجب عنها، فجلس بين يدي الفضل يكتب، فقال له الحاجب: اعتزل يكن خيرا لك! فقال : ههنا الراى أجمع بحيث الرغبة والرغبة. فلما فرغ من الكتب عرضها على الفضل، فكأنما شق عن قلبه، فقال الفضل : يا غلام، بدرة، بدرة، فقال الفتى للغلام: أعز الله الأمير، دنانير أو دراهم، قال : دراهم! قال : دنانير يا غلام! فلما وضعت البدره بين يديه قال الفضل : احملها بارك الله لك فيها. قال الفتى : والله - أيها الأمير - ما أنا بحمال وما للحمل خلقت! فإن رأى الأمير أن يأمر بعض غلمانه بحملها على أن الغلام لى! فأشار الفضل إلى بعض الغلمان، فأشار الفتى إليه: مكانك! ثم قال: إن رأى الأمير - أيده الله أن يجعل الخيار إلى فى الغلمان كما فعل بين البدرتين فعل. فقال: اختر! فاختار من أحسنهم غلاما! فقال : احمل، فلما صارت البدره على منكب الغلام بكى الفتى، فاستفزع الفضل ذلك، وقال : ويلك! استقلالا؟ قال : لا - والله - أيده الله ولقد أكثرت، ولكن أسفاً أن الأرض توارى مثلك! قال الفضل : هذا أجود من الأول، يا غلام، زده كسوة!

- ٣ -

كان داود بن يزيد^(١) بن حاتم المهلبى يجلس للشعراء فى السنة مجلسا واحداً، فيقصدونه لذلك اليوم وينشدونه، فوجه إليه مسلم راوبته بقصيدته التى أولها:

(١) أمير من الشجعان العقلاء وولد الرشيد السند وتوفى فيها سنة ٢٠٥هـ.

لا تدع بي الشوق إنى غير معمود نهى النهى عن هوى الهيف الرعايد^(١)

فقدم عليه يوم جلوسه للشعراء ولحقهم عقب خروجهم عنه، فتقدم إلى الحاجب وحسر لثامه عن وجهه، ثم قال: استأذن لى على الأمير؛ قال: ومن أنت؟ قال شاعر، قال: قد انصرم وقتك وانصرف الشعراء وهو على القيام، فقال له: ويحك! إنى قد وفدت على الأمير بشعر ما قالت العرب مثله، وكان مع الحاجب أدب يفهم به ما يسمع، فقال: هات حتى أسمع، فإن كان الأمر كما ذكرت أوصلتك إليه؛ فأنشده بعض القصيدة، فسمع شيئاً يقصر عنه الوصف، فدخل على داود فقال له: قدم على الأمير شاعر بشعر ما قالت العرب مثله، فقال: أدخل قائله! فلما مثل بين يديه سلم، وقال: قدمت على الأمير - أعزه الله - بمدح يسمعه، فيعلم تقدمى على غيرى ممن امتدحه؛ فقال: هات! فلما افتتح القصيدة وقال: "لا تدع بي الشوق" استوى جالسا، وأطرق حتى أتى الرجل على آخر الشعر، ثم رفع رأسه إليه، فقال: أهذا شعرك؟ قال: نعم أيها الأمير! قال: فى كم قلته يا فتى؟ قال: فى أربعة أشهر أبقاك الله، قال: لو قلته فى ثمانية أشهر لكنت محسنا، وقد اتهمتك لجودة شعرك وخمول ذكرك، فإن كنت قائل هذا الشعر فقد أنظرتك أربعة أشهر فى مثله، وأمرت بالإجراء عليك فإن جئتنا بمثل هذا الشعر وهبت لك مائة ألف درهم وإلا حرمتك، فقال: أو الإقالة - أعز الله الأمير - قال: قد أقلتلك؛ قال: الشعر لمسلم بن الوليد وأنا راويته والوافد عليك بشعره، فقال: أنا ابن حاتم! إنك لما افتتحت شعره فقلت: لا تدع بي الشوق إنى غير معمود^(٢) سمعت كلام مسلم ينادينى، فأجبت نداءه واستويت جالسا؛ ثم قال: يا غلام: أعطه عشرة آلاف درهم، واحمل الساعة إلى مسلم مائة ألف درهم!

-٤-

خرج مسلم^(٣) بن الوليد ذات يوم، فلقى زيد بن منصور الحميرى بباب الرشيد. فسلم؛ فرد عليه السلام، ورحب به، وسأله عن شأنه فخبّره، وسأله أن يقربه من الخليفة. وأن يحتال حتى يعد فى ممازحيه، ومن يجرى عليه أرزاقه؛ فقال له الحميرى. سأأتى لوصولك إلى أمير المؤمنين!

(١) أى لا تدعنى مشتاقا، وسأله دعبل عن معنى ذلك، فقال لا تدعنى صريع الغواني. فليست كذلك، وكان لهذا اللقب كارها، والمعمود: المشغوف عشقا. والهيف الضامرات الخصور، وامرأة رعديدة: يترجرج لحمها من نعمتها وكذلك الرخصة الناعمة.

(٢) انظر القصيدة فى عصر المأمون ص ٢٨٢ ج ٢.

(٣) المحاسن والمساوى ص ٢٥٢ طبع لبيزج.

فدخل الحميري فأصاب أمير المؤمنين لقس^(١) النفس. فد اشتمل عليه الفكر في سرعة تقضى أمور الدنيا، وأنه لا يتشبث منها بشيء إلا كان كالظل الزائل، والسراب الخادع! فقال له جعفر بن يحيى: يا أمير المؤمنين أفتظن أن هذا الفكر يحبس عليك الأيام، ويمنعك مما لا تستمتع به، إنما هذا الذي أنت فيه عارض عرض لك، وقد كان ملك من الملوك حكيمًا، يقول: الهم مفسدة للنفس، ومضلة للفهم، ومدهشة للقلب؛ ومن أعظم الخطأ التشاغل بما لا يمكن دفعه!

وقال له سليمان بن أبي جعفر: يا أمير المؤمنين، قد قال لقمان الحكيم: من يملك يستأثر، ومن لا يستشر يندم، والهم نصف الهرم؛ والفقر الموت الأكبر. فكان الرشيد نشط، واندفع عنه ما اعتراه من ذلك الفكر، فتقدم إليه الحميري، وقال: يا أمير المؤمنين، خلفت بالباب أنفا رجلا من أخوالك الأنصار متقدما في شعره وأدبه وظرفه، أنشدني قصيدة يذكر فيها أنسه ولهوه ولعبه ومحادثته إخوانه، ويذكر مجالس اتصلت له، بأبلغ قول وأحسن وصف وأقرب رصف، يبعث والله على الصبابة والفرح، ويباعد عن الهم والترح، وكأنه قد وفق - بيمن أمير المؤمنين، وسعادة جده - لأن يكون مبرنا من هذه الشكوى، زاندا في سرور أمير المؤمنين، مستدعيا له صلة رحمه، والتشرف بخدمته.

فاستفزه السرور والقلق إلى دخوله، واستماع قصيدته، وجعل يتابع الرسل بعضهم في إثر بعض، حتى دخل، وكان حلو الشمائل، فوصل إليه في وقت قد كان خرج فيه من رسم الشباب وشرته، ولم يكن في عداد من قد اضطرب سنا، وكان - ناهيك من رجل - معه فهم وتجربة وتمييز ومعرفة، فأهل حتى سكن، ثم أذن له في الجلوس، فانبرى مسلم ينشد قصيدته التي يقول فيها:

أديرا على الكأس لا شربا قبلي	ولا تطلبا من عند قاتلتي ذحلي ^(٢)
فما جزعي أنى أموت صبابة	ولكن على من لا يحل لها قتلي
أحب التي صدت وقالت لتربها:	دعيه، الثريا منه أقرب من وصلي!
بلى ربما وكلت عيني بنظرة	إليها تزيد القلب خبلا على خبل
كتمت تسابيح الصبابة عادلي	فلم يدر ما بي، واسترحت من العدل

(١) لقس النفس: لقت نفسه من الشيء: غثت وخبثت.

(٢) الدحل: الثأر.

إلى أن قال :

إذا ما علت منا ذؤابة واحد
فلا نحن متنا موتة الدهر بغتة
سأنقاد للذات متبعب الهوى
هل العيش إلا أن تروح مع الصبا
تمشت به مشى المقيد فى الوحل
ولا هى عادت بعد عل^(١) ولا نهل
لأمضى هما أو أصيب فتى مثلى
وتغدو صريح الكأس والأعين النجل؟

فجعل الرشيد يتناول لها، ويستحسن ما حكاها من وصف شراب ولهو وغزل وسهولة ألفاظ، فأمر له بمال، وأمر أن يتخذ له مجلس يتحول إليه، وجعل الرشيد وأصحابه يتناشدون قصيدته، فسماه يومئذ - بآخر بيت من شعره - صريع الغوانى!

-٥-

كان هارون الرشيد^(٢) يقتل أولاد فاطمة وشيعتهم، وكان مسلم بن الوليد - صريع الغوانى - قد رمى عنده بالتشيع، فأمر بطلبه، فهرب منه، ثم أمر بطلب أنس بن أبى شيخ كاتب البرامكة، فهرب منه، ثم وجد هو ومسلم بن الوليد عند قينة ببغداد. فلما أتى بهما، قيل له: يا أمير المؤمنين! قد أتى بالرجلين! قال: أى الرجلين؟ قيل أنس بن أبى شيخ، ومسلم بن الوليد. فقال الحمد لله الذى أظفرنى بهما، يا غلام أحضرهما، فلما دخلا عليه نظر إلى مسلم، وقد تغير لونه، فرق له، وقال: إيه يا مسلم، أنت القائل:

أنس الهوى بنى على فى الحشا وأراه يطمح عن بنى العباس

قال: بل أنا الذى أقول - يا أمير المؤمنين:

أنس الهوى بنى العمومة فى الحشا مستوحشا من سائر الأناس^(٣)
وإذا تكاملت الفضائل كنتم أولى بذلك يا بنى العباس

فعجب هارون الرشيد من سرعة بديهته، وقال له بعض جلسائه: استبقه يا أمير المؤمنين، فإنه من أشعر الناس، وامتحنه فسترى منه عجباً! فقال له: قل شيئاً فى أنس فقال: يا أمير المؤمنين! أفرخ^(٤) روعى أفرخ الله روعك يوم الحاجة إلى ذلك، فإنى لم أدخل على خليفة قط، ثم أنشأ يقول:

(١) العل: الشرب بعد الشرب تباعاً، أو الشربة الثانية، والنهل محرقة أول الشرب.

(٢) العقد الفريد ص ٤٢٩ ج ١.

(٣) الأناس: الناس.

(٤) أذهب روعى وفرغنى.

تلمظ^(١) السيف من شوق إلى أنس
فليس يبلغ منه ما يؤمله
أمضى من الموت، يعفو عند قدرته
فالموت يلحظ والأقدار تنتظر
حتى يؤامر فيه رأيك القدر
وليس للموت عفو حين يقتدر

فأجلسه هارون وراء ظهره، لنلا يرى ما هم به، حتى إذا فرغ من قتل أنس
قال له: أنشدني أشعر شعر لك، فكلما فرغ من قصيدة قال: التي تقول فيها "الوحدل"
فإني رويتها وأنا صغير، فأنشده شعره الذي أوله:

أديرا على الراح لا تشربا قبلي
حتى أنتهى إلى قوله:
ولا تطلبا من عند قاتلتى ذحلى^(٢)

إذا ما علت منا ذؤابة شارب
تمشت بنا مشى المقيد فى الوحدل
فضحك هارون، وقال: عليك! أما رضيت أن قيدته حتى يمشى فى الوحدل:
ثم أمر له بجائزة وخلقى سبيله.

-٦-

قال على بن جبلة فى القاسم بن عيسى

المنايا فى مقانبه^(٣)
ملك تندی أنامله
مستهل عن مواهبه
جبيل عزت مناكبه
إنما الدنيا أبو دلف
فإذا ولي أبو دلف
كل من فى الأرض من عرب
مستعير منه مكرمة
والعطايا فى ذرا حجره
كانبلاج النوء عن مطره
كانتسام الروع عن زهره
أمنت عدنان فى نفره
بين مبدأه ومحتضره
ولت الدنيا على أثره
بين باديه إلى حضره
يكتسيها يوم مفتخره

فغضب المأمون واغتاض، وقال: لست لأبى إن لم أقطع لسانه أو أسفك دمه،
ثم قال: اطلبوه حيث كان، فطلب فلم يقدر عليه، ولما اتصل به الخبر هرب إلى

(١) أصل التلمظ تحريك اللسان فى الفم كأنه يتبع بقية الطعام بين أسنانه، ويقال تلمظت الحية: إذا أخرجت لسانها لتلمظ الأكل.

(٢) الذحل: الثأر.

(٣) المقانب، جمع مقنب وهو جماعة الخيل تغير.

الجزيرة، فكتب إلى الآفاق في طلبه، فهرب من الجزيرة إلى الشام، وظفروا به هناك، وأخذوا وحملوا إلى المأمون، ولما وصل إليه سبه وقال له: أنت القائل للقاسم بن عيسى:

كل من في الأرض من عرب بين باديه إلى حضره
مستعير منك مكرمة يكتسبها يوم مفتخره

جعلتنا ممن يستعير المكارم منه! فقال له: يا أمير المؤمنين، أنتم أهل بيت لا يقاس بكم أحد، لأن الله جل وعز فضلكم على خلقه، واختاركم لنفسه، وإنما عنيت بقولي في القاسم أشكال القاسم وأقرانه، فقال: والله ما استثنيت أحداً، ولست استحل دمك لذاك، ولكني أستحله بقولك وكفرك في شعرك، حيث تقول القول الذي أشركت فيه:

أنت السدي تنزل الأيام منزلها وتنقل الدهر من حال إلى حال
وما مددت مدى طرف إلى أحد إلا قضيت بأرزاق وآجال

كذبت، وما يقدر على ذلك أحد إلا الله عز وجل، الملك الواحد القهار، ثم أمر بعقابه!

-٧-

وقال الكسائي^(١) دخلت على الرشيد، فلما قضيت حق التسليم والدعاء، وثبت للقيام، فقال: أقعد، فلم أزل عنده حتى خف عامة من كان في مجلسه، ولم يبق إلا خاصته، فقال لي: يا علي، ألا تحب أن ترى محمداً وعبد الله^(٢)؟! قلت: ما أشوقني إليهما يا أمير المؤمنين، وأسرنى بمعاينة نعمة الله على أمير المؤمنين! فأمر بإحضارهما فلم ألبث أن أقبلت ككوكبي أفق، يزينهما هدوء ووقار، وقد غضا أبصارهما، وقاربا خطوهما، حتى وقفا على باب المجلس، فسلما على أبيهما بالخلافة، ثم قالوا تمم الله على أمير المؤمنين نعمه، وشفعها بشكره، وجعل ما قلده من هذا الأمر أحمد عاقبة، ولا كدر عليه منه ما صفا، فقد صرت للمسلمين ثقة، إليك يفزعون في أمورهم، ويقصدون في حوائجهم، فأمرهما بالدنو منه، فصير محمداً عن

(١) المسعودي ص ٢٧١ ج ٢، معجم الأدباء ص ١٧٣ ج ١٣، المحاسن وال مساوي ص ٤٤٠، والكسائي اسمه على بن حمزة وأصله من فارس، أشهر نحاة الكوفة وأحد القراء السبعة. استقدمه الخلفاء العباسيون ليعلم أبناءهم.

وألف كثيراً من الكتب في النحو والقراءات والأدب والنوادر. وتوفي سنة ١٨٩ هـ.

(٢) محمد الأمين وعبد الله المأمون ابنا الرشيد.

يمينه وعبد الله عن يساره، ثم التفت إلى فقال : يا علي، ما زلت ساهرا مفكراً في معاني أبيات قد خفيت علي .. قلت : إن رأى أمير المؤمنين أن ينشدنيها فأنشدني: قد قلت قولاً للغراب إذ حجل عليك بالقود المسانيف الأول تغد ما شئت علي غير عجل

قلت : نعم يا أمير المؤمنين، إن العير إذا فصلت من خيبر، وعليها التمر، يقع الغراب علي آخر العير، فيطردها السواق، يقول هذا: تقدم إلى أوائل العير، فكل علي غير عجل، والقود، الطوال الأعناق والمانيف، المقدمة .. ثم أنشدني: لعمرى لئن عشت من خشية الردى نهاق الحمار إننى لجهول

قلت : نعم يا أمير المؤمنين، كان الرجل من العرب إذا دخل خيبر أكب علي أربع وعشر تعشير الحمار، وهو أن ينهق عشر نهقات متتابعات، يفعل ذلك ليدفع عن نفسه حمى خيبر .. ثم أنشدني قول الآخر: أجاعل أنت بيقورا^(١) مضرمة ذريعة لك بين الله والمطر

قلت : نعم، كانت العرب إذا أبطأ المطر شدت العشر^(٢) والسمع، وهما ضربان من النبات، في أذنان البقر وألهبوا فيه النار، وشردوا البقر تفاقلاً بالبرق والمطر ثم أنشدني لرجل آخر: وسرب ملاح قد رأيت وجوههم إناث أدانيه، ذكور أواخره

قلت : إنه يعن الأضراس .. ثم أنشدني لآخر: فيأني إذن كالثور يضرب جنبه إذا لم يعف شرباً وعافت صواحيبه

قلت : نعم ، كانت العرب إذا أوردت البقر الماء، فشربت الثيران وأبت البقر ضربت الثيران حتى تشرب البقر، وهو كما قال : كالثور يضرب لما عافت البقر ثم أنشدني :

ومنحدر من رأس برقاء حطه مخافة بين أو حبيب مزاييل

قلت : نعم ، يعنى الدموع، والبرقاء: العين، لأن فيها سوادا وبياضا، وحطه : أسأله، وحبيب : محبوب، ومزاييل : مفارق، فوثب الرشيد فجدبني إلى صدره، وقال : لله در أهل الأدب! ثم دعا بجارية، فقال لها : احملي إلى منزل الكسائي خمس بدر

(١) اسم جمع لبقرة.

(٢) شجر لم يقتدح الناس في أجود منه.

على أعناق خمسة أعبد يلزمون خدمته، ثم قال لى : استشهدهما - يعنى ابنه -
فأنشدنى محمد الأمين:

وانى لعف الفقر مشترك الغنى
وشكلى شكل لا يقوم بمثله
ولى نيقة فى المجد والبذل لم يكن
وأجعل مالى دون عرضى جنة
ونفسى واستغنى بما كان من فضلى

وأنشدنى عبد الله المأمون :

بكرت تلومك مطلع الفجر
ما إن ملكت مصيبة نزلت
ملك الملوك على مقتدر
فلرب مغتبط بمرزنة
ومكاشح لى قد مددت له
حتى يقول لنفسه لهفأ :
وترى قناتى حين يغمزها
ولقد تلوم بغير ما تدرى
إذ لا يحكم^(١) طائعا أمرى
يعطى إذا ما شاء من سر
ومفجع بنوائب الدهر
نحراً بلا ضرع^(٢) ولا غمر
فى أى مذهب غاية أجرى
غمز الثقاف بطيئة الكسر

ثم أمرنى أن أسألها، ففعلت، فما سألتها عن شىء إلا أحسنا الجواب فيه
والخروج منه، فسر بذلك الرشيد، حتى تبينته فيه، ثم قال : يا على، كيف ترى
مذهبهما وجوابهما فقلت، يا أمير المؤمنين هما كما قال الشاعر :

أرى قمرى مجد وفرعى خلافة
يسدان آفاق السماء بشيمة
يزينهما عرق كريم ومحتد
سليلى أمير المؤمنين وحانزى
يؤيدها حزم وعضب مهند
مواريث ما أبقى النبى محمد

يا أمير المؤمنين، هما فرع زكا أصله، وطاب مغرسه، وتمكنت فى الثرى
عروقه، وعذبت مشاربه، أبوهما ملك أغر نافذ الأمر، واسع العلم، عظيم الحلم، فهما
يستضيان بنوره، وينطقان بلسانه، ويتقلبان فى سعاده، فأمتع الله أمير المؤمنين بهما،
وأنس جميع الأمة ببقائه وبقائهما، فما رأيت أحدا من أولاد الخلفاء، وأغصان هذه
الشجرة المباركة أذرب^(٤) منهما لسانا، ولا أعذب كلاما، ولا أحسن ألفاظا، ولا أشد

(١) النيقة : اسم من تنوق فى الأمر : تجود وتأنق فيه.

(٢) حكم الأمر : أحكمه.

(٣) الضرع : من ضرع . إذا ذل وخضع . والغمر، من لم يجرب الأمور وبالتحريك الحقد.

(٤) الدرب : الحديد اللسان.

اقتدارا على تأدية ما حفظا ورويا، ودعوت لهما دعاء كثيرا، وأمن الرشيد على دعائي.. ثم ضمهما إليه، وجمع يديه عليهما فلم يسطهما حتى رأيت الدموع تنحدر على صدره، رقة عليهما واشفاقا، ثم أمرهما بالخروج. فلما خرجا أقبل على، فقال: كأنك بهما - وقد حم القضاء، ونزلت مقادير السماء، وبلغ الكتاب أجله وانتهى الأمر إلى وقته المحدود، وحينه المسطور الذي لا يدفعه دافع، ولا يمنع منه مانع - قد تشتت أمرهما، وافترقت كلمتهما، وظهر تعاديهما، ثم لم يبرح ذلك بهما حتى تسفك الدماء، وتكثر القتلى، وتهتك ستور النساء.

- ٨ -

حكى أبو حامد أحمد بن محمد الاسفرايني الفقيه الشافعي^(١)، قال: كنت يوما عند فخر الملك أبي غالب محمد بن خلف وزير بهاء الدولة وابنه سلطان الدولة، فدخل عليه الرضى أبو الحسن^(٢)، فأعظمه وأجله، ورفع من منزلته، وخلي ما كان بيده من القصص والرقاع، وأقبل عليه يحادثه إلى أن انصرف. ثم دخل بعد ذلك المرتضى أبو القاسم، فلم يعظمه ذلك التعظيم، ولا أكرمه ذلك الإكرام، وتشاغل عنه برقاع يقرؤها وتوقيعات يوقع بها، فجلس قليلا، وسأله أمراً فقضاه، ثم انصرف. قال أبو حامد: فتقدمت إليه، وقلت له: أصلح الله الوزير! هذا المرتضى هو الفقيه المتكلم صاحب الفنون، وهو الأمثل^(٣) الأفضل منهما، وإنما أبو الحسن شاعر، فقال لي: إذا انصرف الناس، وخلا المجلس أجببتك عن هذه المسألة، قال: وكنت مجمعا على الانصراف، فجاءني أمر لم يكن في الحساب فدعت الضرورة لملازمة المجلس إلى أن تقوض الناس واحدا فواحدا، فلما لم يبق إلا غلماناه وحجابه دعا بالطعام، فلما أكلنا وغسل يده وانصرف عنه أكثر غلماناه، ولم يبق عنده غيري، قال لخادم له:

هات الكتابين اللذين دفعتهما إليك منذ أيام، وأمرتك أن تجعلهما في السفط^(٤) الفلاني، فأحضرهما فقال: هذا كتات الرضى، اتصل بي أنه قد ولد له ولد فأنفذت إليه ألف دينار، وقلت: هذه للقابلة - فقد جرت العادة أن يحمل الأصدقاء إلى أخلائهم، وذوى مودتهم مثل هذا في هذه الحال، فردها، وكتب إلى هذا

(١) ابن أبي الحديد ص ١٣ ج ١.

(٢) هو أبو الحسن محمد بن الطاهر، كان أبوه نقيب الطالبين، وصارت إليه النقابة وأبوه حى. أجمع النقاد على أنه أشعر قریش. وكان عالما بعلوم القرآن واللغة والنحو، وله فيها المؤلفات النافعة - ٣٥٩ - ٤٠٦ هـ.

(٣) فلان أمثل بنى فلان: أى أدناهم للخير.

(٤) السفط: الجوالق، أو كالكفة.

الكتاب، فاقراه. قال : فقرأته، وهو اعتذار عن الرد، وفي جملته : إننا - أهل بيت لا يطلع على أحوالنا قابلة غريبة، وإنما عجائزنا يتولين هذا الأمر من نساتنا، ولن ممن يأخذن أجره. ولا يقبلن صلة. قال : فهذا ، هذا ، وأما المرتضى فإننا كنا قد وزعنا وقسطنا^(١) على الأملاك تقسيطاً نصرته في حفر فوهة النهر المعروفة بنهر عيسى، فأصاب ملكا للشريف المرتضى عشرون درهما، وقد كتب إلي منذ أيام في هذا المعنى هذا الكتاب فاقراه، فقرأته، وهو أكثر من مائة سطر يتضمن من الخضوع والخشوع والاستمالة والطلب والسؤال في إسقاط هذه الدراهم على أملاكه المشار إليها ما يطول شرحه. قال فخر الملك: فأيهما ترى أولى بالتعظيم والتبجيل : هذا العالم المتكلم الفقيه الأوحى، ونفسه هذه النفس، أم ذلك الذي لم يشتهر إلا بالشعر خاصة ونفسه تلك النفس؟ فقلت : وفق الله الوزير، فما زال موفقاً وما وضع الأمر إلا في موضعه، ولا أحله إلا في محله.

-٩-

للطغرائي في وصف غدير :

أرجائه الغيم بساط الزهر
إلى نبات المزن يشكو الخصر
لأنلقبت وهى نسيم السحر
سحالة العسجد حول الدرر
درعا بها يلقي نبال المطر
نورا به يخطف نور البصر
على بساط أخضر قد نشر

عجنا إلى الجزع الذي مد في
حول غدير ماؤه المنتمي
لو لذت الريح سموها به
حصباؤه در، ورضاضه
وقد كسته الريح من نسجها
وألسته الشمس من صبغها
كأنه المرآة مجلوة

-١٠-

ولابن النبيه المصري :

ملك الفؤاد فما عسى أن أصنعا
حلوا فقد جهل المحبة وادعى
مر الجميل فقد عفا وتضعضا
ضمت جوانحه فؤادا موجعا؟
أو أشتكى بلواى أو أتوجعا؟
لسوى رضاك إليك أن أتشفعا

أفديه إن حفظ الهوى أو ضيعا
من لم يذق ظلم الحبيب كظلمه
يا أيها الوجه الجميل تدارك الصب
هل فى فؤادك رحمة لمتيم
هل من سبيل أن أبث صبايتي
إنى لأستحيى كما عودتني

(١) قط الشيء : فرقه .

خاتمة الكتاب

هذه الدراسات المستفيضة للأدب العباسي، وأصوله، وألوانه، ومذاهبه، وأعلامه، التي يتضمنها هذا الكتاب، أجد نفسي في غنى عن أن أبين للقارئ الواعي المثقف جدتها وأهميتها معاً، فإن في إدراك القارئ الفطن ويقظته ما يغنيني عن ذلك كله.

ولم تقتصر هذه الدراسة على عرض الأدب العباسي وفق المنهج التاريخي في دراسة الأدب، بل إن المنهج النقدي أظهر على الكتاب: بما يشتمل عليه من نقد وموازنة، وتحليل، وشرح وتوجيه، وبيان لخصائص أدب المحدثين وميزاته ومذاهبه.

والأعلام العديدة التي ترجمنا لها في هذا الكتاب، لم تقتصر في دراستها على عرض جوانب من حياتها، بل درسناها كقطعة حية من صميم الأدب العباسي المزدهر الحي، المشرق بالأصالة والابتداع.

وكذلك أصول الثقافات التي كونت الأدب العباسي، والعناصر المختلفة التي لونت هذا الأدب، تجد لها إيضاحاً وافياً في هذه الدراسات الواسعة .. مع توخي الدقة، والإشارة إلى جميع المصادر، وإلى أصول هذا البحث العديدة.

ولا أجد ما أقوله للقارئ إلا أن هذا الكتاب هو النواة، التي ستنبع منها بحوث جديدة أخرى حول الأدب العباسي، أرجو أن تظهر في دراسات متنوعة في القريب، بين أيدي القراء، بعون الله.

ولا أملك شيئاً من الأمر إلا أن أكرر ما قلته من أني لا أعتمد على شيء، إلا على ذوق القارئ المثقف الواعي، ويقظته وعطفه. وبالله التوفيق، ومنه السداد، وهو عوني، نعم المولى، ونعم النصير ..

المؤلف

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٧	تصدير
٩	القسم الأول : مقدمات العصر العباسى
١٣	الحياة السياسية فى العصر العباسى
٢٢	الحياة الاجتماعية
٢٦	الحياة العقلية
٣٣	القسم الثانى : الحياة الأدبية
٤٠	النثر الأدبى
٤٣	أعلام الكتاب وعلماء الأدب
٤٧	القسم الثالث : الشعر العربى
٦٩	أشهر الشعراء العباسيين
٧٢	طبقات الشعراء العباسيين
٧٦	من أنمة الشعر العباسى
١٠١	القسم الرابع : النقد الأدبى فى العصر العباسى
١١٦	نشأة البيان العربى
١٢٧	القسم الخامس : تراجم الشعراء فى هذا العصر
١٢٩	بشار بن برد
١٢٩	حياته
١٣٢	شعره
١٣٧	آراء النقاد فى شعره
١٣٩	أبو نواس الحسن بن هانىء
١٣٩	حياته
١٥٠	شعره وأثره فى الأدب
١٥٤	آراء النقاد فى شعره
١٥٩	أبو العتاهية
١٦٤	أبودلامة
١٦٩	ابن وهيب
١٨٥	دعبل الكزاعى
١٩٥	يزيد المهلبى
١٩٦	ابن أبى عينة
١٩٩	البحترى

٢٠٥	ابن الرومي
٢٢٣	ابن المعتز شاعر الحب والجمال
٢٣٥	أبو الطيب المتنبي
٢٣٦	شعر المتنبي
٢٤٠	شهرته
٢٤٣	بين المتنبي وابن هانيء شاعر المعز
٢٥٠	رسالة الحاتمي في نقد المتنبي
٢٦٤	مع الشعراء المحدثين
٢٧٢	موازنات أدبية بين أعلام الشعراء
٢٨١	أبو العلاء المعري
٢٨٦	الأمير الشاعر ابن سنان الخفاجي
٢٩٧	القسم السادس : تراجم الأدباء والكتاب والنقاد
٢٩٩	الأصمعي الناقد الراوية
٣٠٦	ابن المقفع
٣٠٧	أحمد بن يوسف
٣٠٧	عمرو بن مسعدة
٣١٠	الجاحظ شيخ الكتاب والنقاد
٣٢٠	عبد الله بن طاهر
٣٢٥	سليمان بن وهيب
٣٢٨	أبو العيناء
٣٢٩	المبرد
٣٣٢	أبو العباس ثعلب
٣٣٨	نقد النثر وقدامة
٣٤٩	أبو بكر محمد بن دريد
٣٥٩	أبو القاسم الأمدى
٣٧١	القاضي الجرجاني
٣٧٤	أبو هلال العسكري
٣٧٩	بديع الزمان الهمداني
٤٠٥	أبو القاسم الحريري البصري
٤٠٩	القسم السابع : صور من الأدب العباسي
٤١١	صور من الأدب العباسي
٤٢٣	خاتمة الكتاب
٤٢٥	الفهرس

منتدی سور الازبکیہ

WWW.BOOKS4ALL.NET

[*https://twitter.com/SourAlAzbakya*](https://twitter.com/SourAlAzbakya)

<https://www.facebook.com/books4all.net>